

وزارة المعارف العمومية

الفاطميون في مصر

وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص

مترجم من الأوربكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

ورمعه بالانجليزية وترجمه الى العربية

الدكتور حسن ابراهيم حسن

دبلوم المعلمين العليا

وليسانسيه في العلوم التاريخية والجغرافية ، ودكتور في الآداب (الباحثة المصرية)
ودكتور في الفلسفة (Ph. D.) ، ودكتور في الآداب (D. Litt.) (في التاريخ الاسلامي) جامعة لندن
وعضو الجمعية الاسيوية الملكية بالانجلترا (M.R.A.S.)
وأستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية

اعتمدت جامعة لندن هذه الرسالة لدرجة الدكتوراه في الآداب

راجع الترجمة

حضرتنا محمد أحمد حمودة أفندي وزكي محمد المهندس أفندي

المفتش بوزارة المعارف

حقوق الترجمة ونشرها محفوظة للوزارة

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٣٢

منتہی سورا الازہکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

وزارة المعارف العمومية

القناطريون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص

وضعه بالانجليزية وترجمه الى العربية

الدكتور حسن ابراهيم حسن

دبلوم المعلمين العليا

وليسانسيه في العلوم التاريخية والجغرافية ، ودكتور في الآداب (الجامعة المصرية)
ودكتور في الفلسفة (Ph. D.) ، ودكتور في الآداب (D. Litt.) (في التاريخ الاسلامي) جامعة لندن
وعضو الجمعية الاسيوية الملكية بانجلترا (M. B. A. S.)
وأستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب بالجامعة المصرية

اعتمدت جامعة لندن هذه الرسالة لدرجة الدكتوراه في الآداب

راجع الترجمة

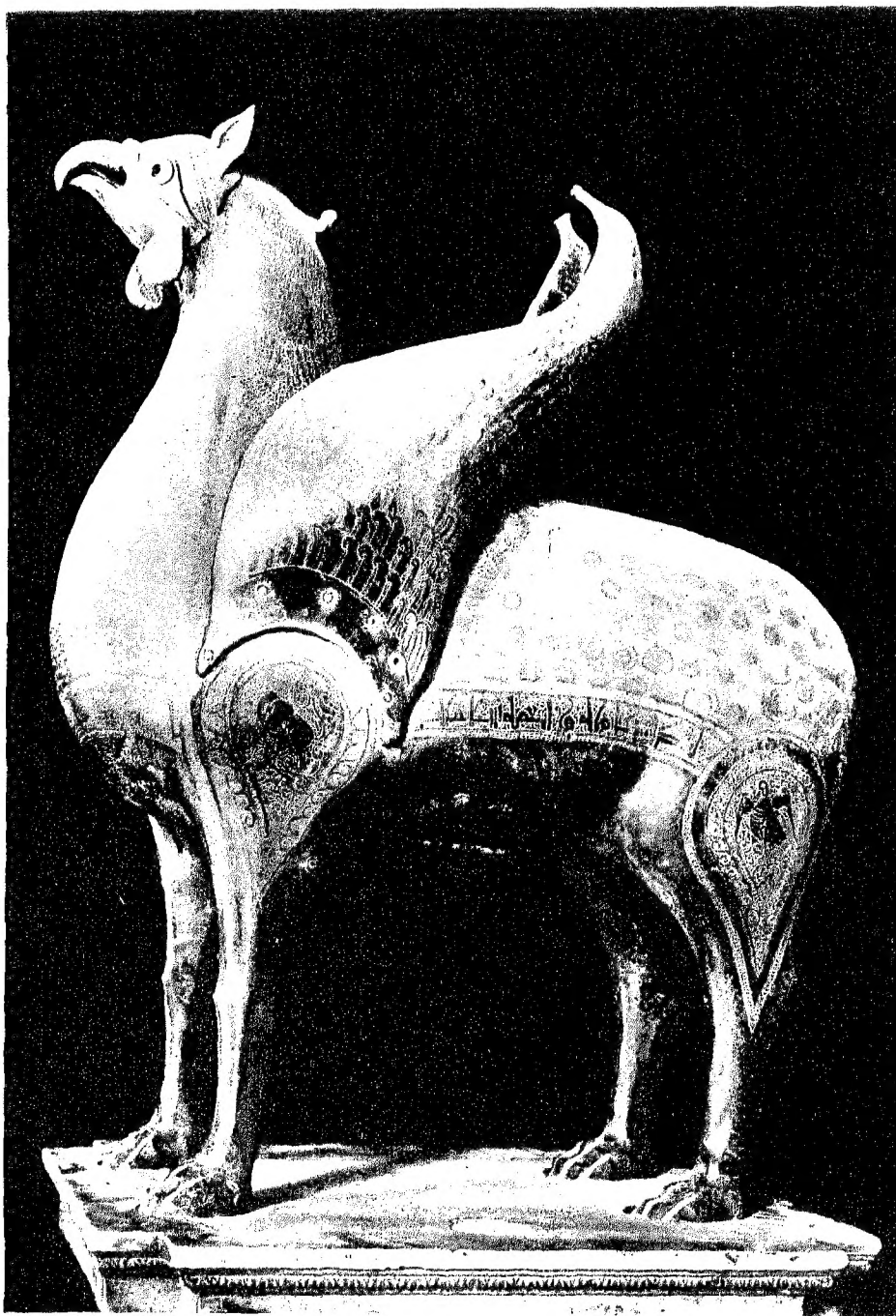
حضرتا عبد أحمد حسونة أفندي وزكي عبد المهندس أفندي

المفتشان بوزارة المعارف

حقوق الترجمة ونشرها محفوظة للوزارة

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٣٢



تمثال للعنقا، من الشهبان (البرونز)

تصدير الكتاب

من كلمة للمرحوم السير توماس أرنولد

إن الرسالة التي تقدم بها الدكتور حسن إبراهيم حسن لامتحان درجة الدكتوراه في الآداب (D. Litt.) بجامعة لندن ، أكسبته أقصى ما يمكن من إطراء المتحدين المعينين من قبل الجامعة ، الذين عدوها مجهودا نادر النظر . وقد اشتملت هذه الرسالة على بحث تام مفصل عن الدولة الفاطمية ، وأسباب قيامها وسقوطها ، وأعمالها المياسية والدينية ، وكذا نظام الحكومة والإدارة ، ومواردها المالية ، وحكامها ، وساستها وشعرائها . وقد اعتمد على دراسة عميقة للصادر الأصلية الكثيرة التي لا توجد أحيانا إلا مخطوطة ، ولتحقيق الغاية المنشودة من جمع مصادر هذه الرسالة ، كان لنا على الدكتور حسن أن يطلع على المخطوطات بمكاتب برلين ، والقاهرة ، ولندن ، وأكسفورد ، وباريس . ولا يكاد يخلو أى باب من أبواب هذا الكتاب من إضافة مباحث علمية طريفة ، تضىء الطريق للباحثين في آثار الدولة الفاطمية . ولا ريب في أن الكتاب يُعتبر أعظم وثيقة ظهرت في هذا الموضوع إلى الآن . ونتمنى فيه قدرة المؤلف العلمية ومزله الأدبية اللتان امتاز بهما في كل كتابه ، كما تظهر أحكامه السديدة بأجلى بيان في كشف كثير من المسائل الخفية المعقدة .

لندن في ١٤ مارس سنة ١٩٢٨

(د)

كلمة شكر

إلى لمدین بالشکر الجزیل الأستاذی الجلیل المرحوم النیر توماس أرنولد (Sir Thomas W. Arnold) ، طیب الله ثراه . فقد حظیت بالانتماء الیه والسروراء إرشاداته العملية أشاء وجودی بانجلترا . وكان غفر الله له عمدة المستشرقین الانجلیز فی التاریخ الاسلامی . فلا غرو إذا أحدث موته الفجائی فی شهر یونیة سنة ١٩٣٠ خسارة فادحة للعلم والمشتغلین باللغة العربیة والتاریخ الاسلامی بوجه خاص .

كذلك أوجه خالص شکری لحضرة صاحب السعادة عبد الفتاح صبری باشا وکیل وزارة المعارف الذی یرجع الیه الفضل فی نشر هذا الکتاب ، والی حضرة الأستاذ الدكتور أحمد ضیف وحضرة الأستاذ الشیخ عبد الوهاب التجار لتفضلهما بقراءته ، وحضرة الأستاذ حسن الهوارى أمین دار الآثار العربیة لما قدمه من المساعدة فی اختیار ووصف صور الکتاب .

القاهرة فی ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣١

محتويات الكتاب

صفحة	
ج	تصدير الكتاب
د	كلمة شكر
ك	تحليل الكتاب
ص	مقدمة الكتاب
ت	الخلفاء الفاطميون مرتبة أسمائهم حسب مدد حكمهم
١	بحث في مصادر الكتاب
٢	١ — المصادر التاريخية التي ألفت في عصر الفاطميين
٢	(أ) العصر الأول
١٣	(ب) » الأخير
١٥	٢ — عصر الأيوبيين
١٦	٣ — » المماليك

الباب الأول

حركة الشيعة الى قيام الدولة الفاطمية

٢١	١ — الدعوة الشيعية في عهد الخلفاء الراشدين
٢٧	استيلاء الولايات الاسلامية
٣٠	عقيدة ابن سبأ الشيعية والوهية على
٣١	٢ — الدعوة السرية للهاشميين أيام بني أمية
٣٣	ابن الزبير وابن الحنفية
٣٤	المختار والكيسانية
٣٨	٣ — الدعوة السرية للعباسيين أيام بني أمية
٤٣	٤ — » للعلويين أيام الدولة العباسية
٤٤	الامامية والاسماعيلية
٤٥	ثورة محمد وابراهيم في الحجاز والعراق
٤٧	٥ — فشل هذه الدعوة في الشرق وانتقالها الى الغرب (شمال افريقية)
٥٠	٦ — الأسباب التي مهدت السبل لنجاح الدعوة الشيعية في المغرب
٥٠	(أ) البعد عن السلطة المركزية في بغداد
٥١	(ب) جهل البربر وعدم استعدادهم للحضارة الاسلامية في بغداد
٥٢	(ج) بنفذ الولاة لفرضهم الضرائب القادحة

٥٢	٧ — نجاح هذه الدعوة في شمال افريقية
٥٣	(أ) رحيل أبي عبد الله الشيعي الى بلاد المغرب
٥٧	(ب) رحيل عبيد الله المهدي الى بلاد المغرب
٥٩	(ج) أبو عبد الله ونجاحه في فوجه
٦٠	(د) إطلاق عبيد الله من سجنه
٦٠	(هـ) قتل المهدي زمام الحكم
٦١	(و) أبو عبد الله يلاقى مالا فاه أبو مسلم

الباب الثاني

وصول الفاطميين الى مصر

٦٣	١ — من هم الفاطميون ؟
٦٣	(أ) آراء طائفة من مؤرخي القريحة
٦٥	(ب) رأي الطاعنين في صحة النسب
٦٦	تأييد القوس للعلويين
٦٧	كيف سار عبد الله بن ميمون في تحقيق أغراضه ؟
٧٠	(ج) أقوال المثبتين لصحة النسب
٨٠	٢ — أهمية مصر للدعوة الشيعية
٨٠	(أ) موقع مصر الجغرافي بين الشرق والغرب
٨٨	(ب) صلاح مصر للدعوة الشيعية
٩٢	تولية كافور حكم مصر
٩٤	محاولة المعز للاستيلاء على مصر . تلقى الأهلين دعائه بالقبول
٩٥	الاضطراب والفوضى في عهد كافور
٩٦	مصر بعد وفاة كافور
٩٧	عجز بغداد عن إرسال الجيوش
٩٧	(١) الهجوم على بغداد من الشرق
٩٩	(٢) إغارة البيزنطيين على الولايات العباسية وعيهم بها
١٠١	عبور الإغريق الفرات
١٠١	٣ — الأحوال التي ساعدت على استقرار سلطان الفاطميين في مصر وفي الشرق عقب غزوهم مصر
١٠١	إعداد المعز للمعدات لفتح مصر

(ز)

١٠٤	اختيار مصر مقرا لدعوة الشيعة لوفرة ثروتها وقرنها من الأمصار الإسلامية
١٠٥	رحيل جوهر الى مصر
١١١	تأسيس القاهرة
١١٢	استقرار سلطان الفاطميين في الشام والحجاز
٢١٤	رحيل المعز الى مصر

الباب الثالث

تنظيم الدعوة الفاطمية في مصر : الدعاية العلمية

١١٧	خطوات الفاطميين لنشر دعوتهم
١١٩	١ — الدعوة الفاطمية في المساجد
١١٩	(أ) الدعوة الفاطمية في الجامع العتيق
١٢٣	(ب) » في جامع ابن طولون
١٢٤	(ج) » في الجامع الأزهر
١٢٩	(د) » في المساجد الأخرى
١٢٩	(١) في مسجد الحاكم
١٣٠	(٢) في جامع راشد
١٣٠	(٣) » المقس
١٣٣	٢ — الدعوة الفاطمية في مكتبة القصر
١٣٧	دار العلم
١٤٢	التعليم الفاطمية في القصر

الباب الرابع

الدعاية الأدبية

١٥٤	تشجيع الشعراء والعلماء والكتّاب بالعلات والمناصب
١٥٤	١ — الكتّاب والعلماء
١٥٤	٢ — الشعراء
١٥٢	(أ) الشعراء في الصدر الأول من عهد الفاطميين (٣٦٢ — ٤٤٦ هـ ، ٩٧٢ — ١٠٧٣ م)
١٥٢	(١) الشعراء في عهد المعز ٣٤١ — ٣٦٥ هـ (٩٥٢ — ٩٧٥ م)
١٥٧	(٢) » » العزيز والحاكم ٣٦٥ — ٤١١ هـ (٩٧٥ — ١٠٢١ م)
١٦٠	(٣) » » الظاهر ٤١١ — ٤٢٧ هـ (١٠٢١ — ١٠٣٥ م)
١٦٢	(ب) الشعراء في الشطر الأخير من أيام الفاطميين ٤٦٦ — ٥٦٧ هـ (١٠٧٣ — ١١٧١ م)
١٦٤	(١) الشعراء بين سنتي ٤٨٦ و ٥٤٩ هـ (١٠٩٣ — ١١٥٤ م)
١٦٩	(٢) » » ٥٤٩ و ٥٦٧ هـ (١١٥٤ — ١١٧١ م)
١٧٤	عمارة البني

(ح)

الباب الخامس

اللطافة السياسية

صفحة	
١٧٩	استاد المناصب إلى المتشيعين خاصة . عمل الفاطميين على حل المصريين على اعتناق المذهب الفاطمي
١٨١	١ — استاد المناصب العالية للتشيعين
١٨٣	٢ — جباية الخراج
١٨٤	٣ — الوزير
١٨٥	٤ — حالة مصر الداخلية
١٨٨	٥ — قاضى القضاء
١٩٠	٦ — قضاؤل نفوذ القاضى
١٩٣	٧ — قانون الوراثة في عهد الفاطميين

الباب السادس

سياسة الفاطميين للمصريين

١٩٩	١ — سياسة الفاطميين للنصارى واليهود
٢١٨	٢ — » » مع أهل السنة
٢٢٥	٣ — » » مع المصريين عامة

الباب السابع

ثروة مصر . صلات الخلفاء

٢٣٣	١ — مصادر ثروة مصر
٢٣٤	٢ — عرش الخلفاء الفاطميين
٢٣٤	٣ — هبة جوهر للعز
٢٣٥	٤ — الكسوة التى عملها المعز لكعبة
٢٣٦	٥ — دار الوزير ابن كلس وثروته
٢٤٠	٦ — ثروة الوزراء في العهد الأخير من أيام الفاطميين
٢٤٤	٧ — ثروة الخلفاء الفاطميين ويسرهم
٢٤٥	(أ) جامع القراة
٢٤٧	(ب) الثروة التى خلفها الحاكم
٢٤٨	(ج) زيارة ناصرى خسرو مصر
٢٤٩	(د) جبر الخليج
٢٥١	(هـ) النفاس التى كان يحوزها الخلفاء الفاطميون في عهد المستنصر
٢٥٣	(و) النفاس التى كان يحوزها المستنصر

(ط)

٢٦٠	٨ — هبات المساجد والمكاتب
٢٦٠	(١) هبات المساجد
٢٦١	(ب) » المكاتب
٢٦٢	٩ — هبات الخلفاء

الباب الثامن

مظاهر الأبهة والجلال لل خليفة في صلاة الجمعة والأعياد والولائم

٢٦٩	١ — قاعة الذهب ومجلس الملك
٢٧١	٢ — المناظر وليالي القود
٢٧٣	٣ — توديع الحملات الحربية
٢٧٣	٤ — العقائد الفاطمية
٢٧٧	٥ — دعوى الحاكم الألوهية
٢٧٩	٦ — سياسة الفاطميين الدينية في عهد الأمر
٢٨١	٧ — صلاة الجمعة
٢٨٤	٨ — الأعياد والولائم
٢٨٤	(١) الأعياد
٢٨٦	(ب) الولائم
٢٨٦	٩ — سمات العيدين
٢٨٦	(١) عيد الفطر
٢٨٨	(ب) » الأضحية
٢٨٩	١٠ — الأسمطة الأخرى

الباب التاسع

سقوط الفاطميين وأسبابه

٢٩٢	١ — حالة مصر منذ عزل رضوان الى مقتل ابن السلار
٢٩٧	٢ — مقتل الخليفة الظافر
٣٠١	٣ — حملة شيركوه الأولى على مصر
٣٠٣	٤ — » الثانية »
٣٠٥	٥ — » الثالثة »
٣٠٧	٦ — مقتل شاور وتقلد شيركوه الوزارة

(ى)

صفحة	
٣٠٨	٧ — صلاح الدين وسقوط الفاطميين
٣٠٩	(أ) غزو الفرنجة مصر
٣١٠	(ب) غزو صلاح الدين مملكة الفرنجة في فلسطين
٣١١	(ج) حذف اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة • وفاة العاضد وسقوط الفاطميين

الباب العاشر

الخاتمة

٣١٣	مقدار نجاح أعمال الفاطميين السياسية والدينية
٣١٧	مصادر الكتاب

فهارس الكتاب

١ — الاعلام :

٣٣١	(أ) أسماء الرجال
٣٤٣	(ب) أسماء النساء
٣٤٤	٢ — الأماكن
٣٤٩	٣ — المصادر
٣٥٣	٤ — النبات والحيوان والمعادن • ويشمل الكلمات التي تدل على حوادث تاريخية هامة
٣٥٩	٥ — الآيات القرآنية
٣٦٠	٦ — الخرائط التاريخية
٣٦١	٧ — الصور
٣٦٣	ذيل بوصف صور الكتاب

الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص

تحليل الكتاب

الباب الاول :

بحث في تاريخ الدعوة الشيعية إلى قيام الدولة الفاطمية في شمال إفريقية : إبتداء الدعوة الشيعية في خلافة عثمان بن عفان ، ومتابعة انتشارها أيام الدولة الأموية ، وتحويل حق الإمامة من العلويين إلى العباسيين ، وما كان هنالك من العداء المشترك بين هؤلاء وأولئك بعد قيام الدولة العباسية . فشل الدعوة الشيعية وعجزها عن تأسيس إمبراطورية مستقلة للعلويين في الشرق . إنتقال هذه الدعوة إلى الغرب (شمال إفريقية) ، والأسباب التي أدت إلى نجاحها في هذه البلاد . كلمة موجزة عن الفتوح التي قام بها أبو عبد الله الشيعي في شمال إفريقية حتى تأسيس الخلافة الفاطمية .

الباب الثاني :

بحث في نسب الفاطميين ، أهمية مصر للفاطميين باعتبارها ميدانا لنشر عقائد المذهب الفاطمي ، متوخين في ذلك الكلام على النقاط الآتية :

(١) مركز مصر الجغرافي بين الشرق الذي فشلت فيه الدعوة الشيعية ، والغرب الذي نجحت فيه هذه الدعوة في تكوين إمبراطورية مستقلة .

(ب) ثروة مصر وهدوء الأمر فيها ، مع فقر غيرها من الولايات الإسلامية في الشرق واضطراب أمورها .

(ج) الأحوال التي ساعدت على استقرار سلطان الفاطميين في مصر وفي الشرق عقب غزوهم لمصر .

(د) ولأجل هذا عني الفاطميون عناية خاصة لجعل مصر موطن الدعوة الشيعية بدلا من إفريقية الشمالية .

الباب الثالث :

الدعاية العلمية : الفاطميون وتنظيم الدعوة الشيعية — الدينية والسياسية — في المساجد والمكاتب ، حتى أصبح قصر الخليفة الفاطمي مركزا لهذه الدعوة التي قامت تحت إشراف داعي الدعاة وتابعيه من الدعاة ، يؤيدهم في ذلك الخلفاء الفاطميون أنفسهم .

الباب الرابع :

الدعاية الأدبية : الدور الذي لعبه الشعراء والكُتاب والعلماء في نشر الدعوة الفاطمية ، وتأثير العطايا التي كان يوزعها الخلفاء الفاطميون ووزرائهم وغيرهم من رجال دولتهم في نفوس العلماء وبخاصة الشعراء . وسنفرد لكل عصر من عصور الخلفاء الفاطميين بابا خاصا ، ثم نتناول الكلام على كل باب من هذه الأبواب تفصيلا .

الباب الخامس :

الدعاية السياسية : قصر أمور الولاية على المتشيعين ، الطرق التي سار عليها الفاطميون لتحويل المصريين الى المذهب الفاطمي ، فشل هذه الدعوة المحتوم ، وعلى الأخص في بداية حكم الفاطميين ، زوال معالم المذهب السني وتعاليد تدريجيا . قانون الوراثة في عهد الفاطميين .

الباب السادس :

سياسة الفاطميين للمصريين :

(أ) سياسة الفاطميين مع النصارى واليهود .

(ب) سياسة الفاطميين مع أهل السنة ، تحوّل طائفة الموظفين المصريين الى المذهب الفاطمي ، حتى لقد أدّت رغبة الناس في الحصول على المناصب وخوفهم من القوانين الجائرة التي سنّها الفاطميون ضد غير الشيعيين الى تحول بعض أهل السنة وجماعة من غير المسلمين الى المذهب الفاطمي .

(ج) سياسة الفاطميين مع الأهليين عامة .

الباب السابع :

ثروة مصر ، صلات الخلفاء : مصادر ثروة مصر ، سرير الخلفاء الفاطميين ، هدية جواهر للخليفة المعز ، كسوة الكعبة ، وصف قصر الوزير ابن كلّس ومقدار الثروة التي خلفها (باعتبارها مثلاً من أمثلة الوزراء في الصدر الأول من أيام الفاطميين) . الدور الذي لعبه الوزراء في الأعمال السياسية والدينية زمن الفاطميين . وصف الثروة التي خلفها الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (باعتبارها مثلاً من أمثلة الوزراء في العهد الأخير من أيام الفاطميين) . وصف ثروة الخلفاء الفاطميين وما تمتعت به البلاد في عهدهم من يسر ورخاء : مسجد القرافة ، الثروة التي خلفها الخليفة الحاكم ، ناصري خسرو ووصفه رخاء مصر في عهد الفاطميين ، ناصري خسرو ووصف الاحتفال بوفاء النيل في عهد الخليفة المستنصر ، ممتلكات الخلفاء الفاطميين ، ممتلكات المستنصر ، ممتلكات العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، هبات الخلفاء للساجد ودور الكتب ، عطاياهم لرجال الدولة .

الباب الثامن :

مظاهر الأبهة والجلال للخليفة الفاطمي في صلاة الجمعة والأعياد والولائم . علامات الإكبار نحو الخلفاء ، ما كان يحاط به شخص الخليفة من مظاهر العظمة والإكبار إذا ما تصدر مجلس الدولة أو جلس في منظرته . عقائد المذهب الفاطمي ، وما كان من ادعاء الخلفاء الإحاطة ببعض صفات الله ، أو بأن الطبيعة الإلهية قد حلت فيهم . صلاة الجمعة . كلمة عن مظاهر الجلال التي كانت تحيط بالخلفاء وميلهم الى الجود والكرم رغبة في جذب الناس الى اعتناق مذهبهم . الاحتفال بأعياد الدولة والأشادة بذكرها باقامة الولائم الفاشحة ، وإجزال العطايا من الملابس والمال والطعام .

الباب التاسع :

سقوط الدولة الفاطمية وأسبابه : وصف مجمل لمركز مصر في عهد الخليفين الأخيرين من خلفاء الفاطميين ، بحث في الأحوال التي أدت الى تدخل نور الدين والصلبيين في أمور مصر الداخلية ، وما تبع ذلك من تأسيس الدولة الأيوبية .

الباب العاشر :

مقدار نجاح الدعوة الفاطمية — السياسية والدينية — في مصر والشرق . كيف أدت هذه السياسة الى اقامة الخطبة للخليفة الفاطمي في بغداد .

(س)

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد تناولت في بحثي هذا وعنوانه :

الفاطيون في مصر ، وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص

The Fatimids in Egypt, considered chiefly
in connection with their Politico-Religious Activities

الأعمال التي قامت بها هذه الأسرة لنشر نفوذ الشيعة من هذه النواحي وهي : تنظيم الطقوس الدينية ، وإمداد دور الكتب الشيعية بوسائل التشجيع والتعزيد ، ونشر تعاليم الفاطميين ، ونصرة من في جانبهم من الشعراء والعلماء ، وما أدخلوه من الأنظمة في دور الحكومة ، والقوانين الشرعية ، وكذلك الأموال التي بذلوها للمساجد ودور الكتب ، ومدد الأسطة ، بصورة تنطوي على شيء غير قليل من الإسراف والتبذير .

وليس هناك — فيما أعلم — تاريخ خاص بتعاليم الشيعة — هذه التعاليم التي قامت على يد الفاطميين في مصر — لا في العربية ، ولا في غيرها من اللغات . ومع أن هناك شواهد لذلك في كتب التاريخ العام ، فلم يحاول أحد من المؤرخين أن يبين لنا الأمور الآتية :

أولاً — كيف قام الفاطميون بتأسيس دعوتهم وتنظيمها ، وتعهدها نشرها في المساجد ودور الكتب وفي القصور ؟

ثانياً — كيف ساعدوا على نشر هذه الدعوة بتشجيعهم الشعراء والعلماء والكتاب ، باسناد مناصب الدولة إليهم وإيجال العطايا لهم ؟

ثالثاً — كيف كانت إدارة الشؤون العامة يعهد بها للتشيعين خاصة ، ويفصل في جميع القضايا طبقاً لأحكام مذهب الشيعة ؟

رابعاً — كيف ساعدت ثروة مصر الخلفاء الفاطميين على اكتساب عاطفة الأهليين ، بفضل هذه الصلات والعطايا التي كانوا ينفقونها عليهم : من ملابس ومطعم وأموال توزع عليهم ، على ما جرت به العادة في ذلك العصر .

(ع)

تكل هذه مسائل لم يتناولها أحد بالبحث ، ولم تجمع في كتاب واحد .

قال ريني ديسو (René Dussaud) في كتابه ” تاريخ النصيرية ومذهبهم الديني “^(١) (Histoire et Religion des Nosairis) : ” كان عهد الفاطميين عهد رخاء لمصر ، كما كان عهد تسامح ديني لم ير مثله الا في القليل من عصور التاريخ الاسلامي “ .

ولقد اخترت هذا العصر من عصور تاريخ مصر ، لأثبت بالدليل القاطع ما تمتاز به مظاهر العهد الفاطمي في مصر . ولتحقيق الغاية المرجوة من هذا البحث ، أجهدت نفسي في مراجعة المواد المتعددة التي بها استطعت أن أوضح بعض المسائل الغامضة ، بفضل هذه المادة الغزيرة التي اهتمت اليها ، ولم تتناولها يد الطباعة بعد . يضاف الى ذلك ما وصلت اليه من المعلومات التي استقيتها من المصادر الأصلية الأخرى : تلك المصادر التي ظهرت في عالم الكتابة منذ عهد قريب .

الباب الأول :

ويتناول الكلام على تاريخ الدعوة الشيعية الى قيام الخلافة الفاطمية وتأسيسها في شمال إفريقيا . وقد استعنت على بحثه بشيء غير قليل من الكتب التي لم تطبع بعد ، والتي توجد في تآليف ابن المرتضى لدين الله أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ - ٩٣٧ م) ، ويحيى بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) ، وشرف الدين الهمداني المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) ، وفي كتاب ” المقفى الكبير “ لثقي الدين المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) . هذا عدا المصادر الأخرى المطبوعة .

الباب الثاني :

ويبحث عن نسب الفاطميين ، وعن أهمية مصر لهم لنشر عقائد مذهبهم . وقد عاجلت هذا الموضوع ، مستعينا بالمعلومات التي أوردها ثقي الدين المقرئ في كتابه ” اتعاظ الخنفا بأخبار الخلفاء “ ، وفي ” التاريخ الكبير المقفى “ . كما أنني حصلت على فوائد تذكر من غير هذين المصدرين من كثير من المصادر الهامة ، من أمثال ما كتبه أوتينجا (أويحيى بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) ، وأبي عمر الكندي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) ، وعريب بن سعد القرطبي المتوفى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ - ٩٧٧ م) ، ومسكويه المتوفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣١ م) ، وابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٥ م) .

(١) (Paris, 1900, p. 49.)

(ف)

الباب الثالث :

ويبحث عن تاريخ الدعوة الفاطمية — السياسية والدينية — في المساجد والمكاتب وفي القصر .
ولهذه الرسائل التي يطلق عليها "رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته" أهمية خاصة في بحث
هذا الموضوع . هذا ، وإن تلك المعلومات التي أمدنا بها المقرري ودي ساسي (De Sasy) لا تقل
أهمية عما جاء في "رسائل الحاكم بأمر الله ... الخ" .

الباب الرابع :

ويتناول الكلام على أثر الشعراء والكتاب والعلماء في نشر الدعوة الفاطمية ، والعطايا التي
كان يبذلها الخلفاء في نفوس هؤلاء الكتاب . وقد استعنت ببعض المباحث التي لم تنشر بعد
عن شعراء مصر في عهد الفاطميين ، والتي وردت في كتاب "نخبة القصر" لعبد الدين الأصفهاني
المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) . بيد أن ما كتبه الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) ،
وأبو العلاء المعري المتوفى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، وعمارة اليمني المتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) ،
وياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢١ م) ، وابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م) .
ليس أقل شأنًا مما كتبه عماد الدين الأصفهاني في هذا الموضوع .

الباب الخامس :

وفيه نوضح بالدليل كيف كانت أمور الدولة تُقصر على المتشيعين . وانتفعت في بحثه بشيء كثير
من المباحث التي في مخطوطات ابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ، والقضاة المتوفى
سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) ، والمقرري المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) ، وابن حجر العسقلاني المتوفى
سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) . ولقد استطعت بفضل هذه المباحث أن أوضح بعض المسائل ، كحالة
أهل السنة بالنسبة إلى المتشيعين ، والفصل في القضايا وما يتعلق منها بقانون الوراثة في العهد
الفاطمي وفق نظام مذهب الشيعة .

الباب السادس :

وقد تصديت فيه للكلام على "سياسة الفاطميين للصيرين" . وحصلت في استقصائه على
آراء جديدة مستمدة من مؤلفات ابن زولاق ، والذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ - ١٣٤٨ م) ،
ولاسيما ما يتعلق بهذا الباب من الاحتفال بعيد "الغطاس" ، وما كان من لعن الصحابة على المنابر
في أيام الجمع ، وما أحله الفاطميون بمن يذكر اسم صحابي من الصحابة ، وما حدث في عهد
الحاكم من تحريم الخروج على النساء .

الباب السابع :

وفيه بحث عن ثروة مصر ، تلك الثروة التي أعانت الخلفاء الفاطميين على أن يعطوا عطاء من لا يخشى فقرا ، لاكتساب عاطفة الناس ومودتهم . ولقد أمدتني هذه المعلومات التي دونها الذهبي ولم تظهر في عالم النشر بعد ، بصحيفة دون فيها شوارد الأشياء التي اشتملت عليها هدية صلاح الدين الأيوبي لمتبوعه نور الدين . ومن هذه الصحيفة تبين مقدار الثروة التي خلفها العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . وهي بهذا الاعتبار أشبه بهاتين الصحيفتين اللتين دونهما ابن ميسر والمقرئزي عن الثروة التي خلفها اثنان من الخلفاء الفاطميين غير العاضد .

الباب الثامن :

وموضوعه "مظاهر الأبهة والجلال للخليفة في صلاة الجمعة والأعياد والولائم" . وقد أمدتني الكتب التي ألفها ابن زولاق ، والرسائل المسماة "رسائل الحاكم بأمر الله" ، وكذا ما كتبه القضاعي وابن الجوزي والذهبي بمادة جديدة استعنت بها فيما كتبه عن عقائد مذهب الفاطميين . وإننا نتبين من استقصاء هذه المصادر ، كيف أن الشعراء المتشيعين نسبوا إلى الخلفاء الفاطميين منذ تأسيس دولتهم القوى التي فوق الطبيعة ، تلك القوى التي لا تكون إلا الله جلت قدرته . وقد بقي هذا الاعتقاد إلى عهد الخليفة المعز . ثم جاء حفيده الحاكم فاشتط فيه . وقد أمدنا المقرئزي في كتابه "المقفي الكبير" بمعلومات طريفة عن السباط الذي كان يقام في عيد الفطر وعيد الأضحي .

الباب التاسع :

وفيه بحث مستفيض للأحوال التي حدثت بنور الدين والصليبيين إلى التدخل في أمور مصر الداخلية ، وللأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة الفاطمية . ولقد استعنت في هذا البحث بما كتبه ابن الجوزي والذهبي ؛ كما أنني استعنت بما جاء في هذه المصادر الهامة ، من أمثال المؤلفات التي خلفها لنا عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) ، وأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) ، وأبو صالح الأرمي المتوفى سنة ٦٠٥ هـ (١٢٠٨ م) ، وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) وابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ، وأبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ - ١٢٦٧ م) .

الباب العاشر :

وعنوانه "مقدار نجاح أعمال الفاطميين السياسية والدينية" . وهو بيان موجز للتأثير التي احدثت اليها في هذا البحث . والغرض منه الوقوف على ما كان يرى اليه الفاطميون من أعمالهم السياسية والدينية .

ولكى تكون هذه الرسالة طريقة في الموضوع الذى نحن بصدد الكلام عليه ، قمت بمحو جملة بغية الاهتمام الى كشف حقائق طريقة في مادة التاريخ ، متوخيا في ذلك طريقة النقد البعيد عن الأغراض . فدرست كثيرا من مخطوطات المتحف البريطانى بلندن ، والمكتبة الأهلية بباريس ، والمكتبة الملكية بالقاهرة ، والمكاتب الملحقة بجامعات برلين وليفن (في هولنده) وأكسفورد .

وكان من أثر هذا البحث والاستقراء ، أن أتيج نقل مقدار غير قليل من مسائل التاريخ أدرجته في هذه الرسالة . على أن هذا القدر ليس إلا قليلا من كثير مما نسخته من المخطوطات الكثيرة ؛ لأن بعض هذه المخطوطات لم يمدنى إلا بالتر اليسير الذى يمكن أن نسميه جديدا .

هذا ما قمت به من بحث واستقصاء للمصادر الأصلية التى لا توجد إلا بمخطوطة . أما عن غير هذه المصادر المطبوعة ، فيحسن بى أن أشير الى ما طبع منها حديثا ، ولم ينل بعد كل عناية المؤرخين . أذكر من هذه "ديوان ابن هانئ الأندلسى" المتوفى سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) ، وكتاب "الإشارة الى من نال الوزارة" (طبع سنة ١٩١٩) لابن منجب الصيرفى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ، و"تاريخ مصر" (طبع سنة ١٩٢٣) لابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) ، و"تعاط الحنفا بأخبار الخلفاء" (طبع سنة ١٩٠٨) لتقى الدين المقرئى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) .

أما مؤلفا الكتابين الأول والثانى فكانا ، على ما سنوضحه بعد ، من الكتاب المعاصرين للدولة الفاطمية . ولقد كان كل من ابن ميسر الذى مات بعد سقوط الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) بمائة وعشرين سنة ، والمقرئى الذى مات بعد ابن ميسر بنحو قرن ونصف قرن حجة دامغة في هذا الموضوع . يضاف الى ما تقدم أن المقرئى نفسه كان شيعيا متحمسا للمذهب الشيعى ، كما أنه كان ينسب الى الفاطميين ؛ وقد وصل الى يده عدد غير قليل من كتب ألفها بعض الكتاب المعاصرين للفاطميين أنفسهم .

(د)

أما عن الكتاب المحدثين الذين كتبوا عن العصر الفاطمي ، فيجب أن نذكر كتب دى ساسى (De Sacy) وكترمير (Quatremère) وستنفلد (Wüstenfeld) ودى غويه (De Goeje) وستانلى لين بول (Stanley Lane-Poole) وأوليرى (O'Leary) .

ولقد أمدنى دى ساسى فى كتابه المسمى "استعراض لديانة الدروز" (Exposé de la Religion des Druzes) الذى صدره بمقدمة عن حياة الخليفة الحاكم ، وكتاب المسمى "مذكرات لغوية عن العرب" (Chrestomathie Arabe) بشروح مستوفاة للنصوص الخاصة بمذهب الدروز ، سهلت على الموضوع الذى قمت ببحثه عن القصر واتخاذ مركزاً للأعمال السياسية والدينية التى قامت على يد الفاطميين ، ذلك الموضوع الذى بنيت على أساس كتاب "رسائل الحاكم بأمر الله" .

أما كتاب وستنفلد المسمى "تاريخ الخلفاء الفاطميين" (Geschichte der Fatimiden - Chalifen) ، وهو أول ما كتب من المؤلفات الحديثة عن الفاطميين ، وما كتبه كترمير فى المجلة الآسيوية الفرنسية فى أغسطس سنة ١٨٣٦ (Journal Asiatique, Août, 1836) ، تحت عنوان "مذكرات تاريخية عن أسرة الخلفاء الفاطميين" (Mémoires historiques sur la dynastie des Khalifes Fatimites) ، حيث تناول هذا الكاتب الكلام على أصل الفاطميين ، وكذا كتاب دى غويه المسمى "مذكرات عن قرامطة البحرين والفاطميين" (Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides) ، وقد اعتمد مؤلفه على مصادر عديدة ، وإن كان قد اقتصر فى كلامه على الأسرة التى نشأ عنها الفاطميون من حيث اتصالهم فى النسب بالقرامطة — كل هذه الكتب مصادر تاريخية لا شك فى أنها تسهل على الباحثين البحث فى تاريخ الفاطميين .

والآن نأخذ فى الكلام على ما كتب بالانجليزية عن تاريخ الفاطميين فأقول : إن هذه العبارات التى أوردها ستانلى لين بول فى كتبه "تاريخ مصر فى العصور الوسطى" (A History of Egypt in the Middle Ages) و "سيرة القاهرة" (The Story of Cairo) و "صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس" (Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem) ، وإن كانت قد كتبت بأسلوب مؤثر رائع ، فانه مما يجب ملاحظته أن هذا المؤرخ قد استقى معلوماته من مصادر قليل عددها ، من أمثال ما كتبه أبو صالح الأرمنى ، وابن الأثير والمقرئى فى "الخطط" .

(ش)

هذا فضلا عن أن بعض ما في كتب لين پول ذكر في بعض الكتب الأخرى . ومع ذلك ، فإن ما كتبه هذا المؤرخ لا يتعرض الا لعدد قليل من المسائل التي تناولتها بالبحث ، وليس له صلة بغير الباين السابع والتاسع . وقد آتيت لي الفرصة فأدججت معلومات أكثر تفصيلا استقيتها من مصادر يلوح لي أن ستانلي لين پول لم يكن له بها علم .

ولا يفوتني أن أذكر كتاب "مختصر تاريخ الدولة الفاطمية" (A Short History of the Fatimid Khalifate) للدكتور دى لىسى أوليرى (De Lacy O'Leary) . طبع هذا الكتاب في سنة ١٩٢٣ ؛ ولم يزد فيه مؤلفه شيئا جديدا على ما كتبه من سبقه من الباحثين في تاريخ الشرق في العصور الوسطى . ذلك أن عدم معرفة الدكتور أوليرى العربية معرفة صحيحة قد وقف عقبة في سبيل دراسته للمصادر العربية دراسة وافية ، مما جره إلى الوقوع في أغلاط لا تدخل تحت حصر . يضاف إلى ذلك أنه لم يقف على ما كتبه بعض المعاصرين للفاطمين ، من أمثال ابن مُنْجَب الصَّيرَفِي ، وعماد الدين الأصفهاني ، وابن ميسر ، ولا على ما خلفه لنا المقرئ في كتاب "انعاظ الحنفا" .

وعلى الجملة ، فإن بحث هذا الكتاب الذى يتناول فيه مؤلفه الكلام على تاريخ الفاطميين بحثا دقيقا ، يوصلنا الى غاية واحدة : هى أنه يحتوى على الحوادث التاريخية الخاصة بالخلفاء الفاطميين في شمال إفريقيا ومصر ، تلك الحوادث التي أخذها إما عما تُرجم من الكتب العربية ، أو عن المصادر العربية التي اعتمد عليها دى سامى وستانلي لين پول وغيرهما ، أو مباشرة عن بعض الكتب العربية التي لم يوفق إلى بحثها بحثا كاملا .

وقد قدمت رسالة تشتمل على الأبواب الأربعة الأولى من هذا الكتاب لامتحان درجة الدكتوراه في الفلسفة قسم التاريخ الاسلامى (Doctor of Philosophy in History) بجامعة لندن ؛ وقدمت هذا الكتاب ، بما فيه هذه الرسالة ، بعد أن قمت بتهديب بعض موضوعاتها وأدججت فيها معلومات أخذتها عن كتب الخوارزمي (أو الخوارزمي) والتونخي والهمداني ومسكويه ، وكتاب "المقفى الكبير" ، وكذا عن الكتب الخطية التي ألفها الشافعي والذهبي وابن الجوزي ، في مكاتب برلين وأكسفورد ، وقدمته لدرجة الدكتوراه في الآداب قسم التاريخ الاسلامى (Doctor of Literature) بالجامعة المذكورة .

لندن في ٩ نوفمبر سنة ١٩٢٧

(ت)

الخلفاء الفاطميون

مرتبة أسمائهم حسب مدد حكمهم

- (١) المهدي : عبيد الله أبو محمد ، (٢٩٧-٣٢٢ هـ و ٩٠٩-٩٣٤ م)
 - (٢) القائم : محمد أبو القاسم ، (٣٢٢-٣٣٤ هـ و ٩٣٤-٩٤٥ م)
 - (٣) المنصور : اسماعيل أبو طاهر ، (٣٣٤-٣٤١ هـ و ٩٤٥-٩٥٢ م)
 - (٤) المعز : معاذ أبو تميم ، (٣٤١-٣٦٥ هـ و ٩٥٢-٩٧٥ م)
 - (٥) العزيز : نزار أبو منصور ، (٣٦٥-٣٨٦ هـ و ٩٧٥-٩٩٦ م)
 - (٦) الحاكم : المنصور أبو علي ، (٣٨٦-٤١١ هـ و ٩٩٦-١٠٢٠ م)
 - (٧) الظاهر : علي أبو الحسن ، (٤١١-٤٢٧ هـ و ١٠٢٠-١٠٣٥ م)
 - (٨) المستنصر : معاذ أبو تميم ، (٤٢٧-٤٨٧ هـ و ١٠٣٥-١٠٩٤ م)
 - (٩) المستعلي : أحمد أبو القاسم ، (٤٨٧-٤٩٥ هـ و ١٠٩٤-١١٠١ م)
 - (١٠) الأمر : المنصور أبو علي ، (٤٩٥-٥٢٤ هـ و ١١٠١-١١٣٠ م)
 - (١١) الخافض : عبد المجيد أبو الميمون ، (٥٢٤-٥٤٤ هـ و ١١٣٠-١١٤٩ م)
 - (١٢) الظافر : اسماعيل أبو المنصور ، (٥٤٤-٥٤٩ هـ و ١١٤٩-١١٥٤ م)
 - (١٣) الفائز : عيسى أبو القاسم ، (٥٤٩-٥٥٥ هـ و ١١٥٤-١١٦٠ م)
 - (١٤) العاضد : عبيد الله أبو محمد ، (٥٥٥-٥٦٧ هـ و ١١٦٠-١١٧١ م)
-

بحث في مصادر الكتاب

أرى من الواجب أن ندرس أولاً عند بحث تاريخ الفاطميين ، ابتداء الدعوة الشيعية وتطورها قبل أن يظهر الفاطميون في عالم التاريخ .

وقد بنى القسم التمهيدى من رسالتى الذى يبحث فى الدعوة الشيعية حتى قيام الحكم الفاطمى فى القيروان على المصادر الآتية : ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م)^(١) ، الذى أخذ عن ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هـ (٧٦٨ م)^(٢) ، وابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) فى "الطبقات الكبير" ، واليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) فى تاريخه المسمى "تاريخ اليعقوبى" وفى "كتاب البلدان" ، والدينورى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ أو ٢٩٠ هـ (٨٩٥ أو ٩٠٣ م)^(٣) فى كتابه "الأخبار الطوال" ، والطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ م)^(٤) فى "تاريخ الأمم والملوك" ، والمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م)^(٥) فى كتابيه "مروج الذهب" و"التنبيه والإشراف" . ومؤلفات الطبرى والمسعودى من أقدم وأنفى المصادر التى تكلمت عن تاريخ العالم باللغة العربية^(٦) .

"والمنية والأمل" مكتبة المتحف البريطانى ، القسم الشرقى ٣٧٧٢ ، لأحمد بن يحيى (بن المرتضى المتوفى سنة ٣٢٥ هـ ، ٩٣٦ - ٩٣٧ م) ، والقسم الأول من هذا الكتاب المسمى "غايات الأفكار" (مكتبة المتحف البريطانى ، القسم الشرقى ٣٩٣٧) تاريخ مفصل لمذهب الزيدية . وهو شرح ممتع

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٢٦٥) ، وحاجى خليفة رقم ٧٣٠٨ ، وستيفلد (Wüstenfeld : Die Geschichtsschreiber der Araber und ihre Werke, No. 48)

(٢) هذا التاريخ ذكره حاجى خليفة تحت رقم ٧٣٠٨ ، وستيفلد (Gesch. der Araber, No. 28) . ولكن ابن النديم فى "الفهرست" (ج ١ ص ٩٢) قد ذكر سنة ١٥٠ هـ ، فى حين أن ياقوت فى كتابه "إرشاد الأديب" (ج ٦ ص ٣٩٩) قد أتى بهذه السنين ١٥٠ و ١٥١ و ١٥٢ هـ .

(٣) ابن النديم فى "الفهرست" (ج ١ ص ٧٨) ، وستيفلد (Gesch. der Araber, No. 79) .

(٤) أورد ابن النديم فى "الفهرست" (ج ١ ص ٢٣) أن الطبرى توفى فى شوال سنة ٣١٠ هـ ، وذكر ياقوت فى "الإرشاد" (ج ١ ص ٥٧٨) أن هذه الوفاة كانت فى ٢٦ شوال . وقد أورد ياقوت فى أماكن أخرى (ج ٦ ص ٤٢٧ ، ص ٤٦٢) تواريخ عدة : ٢٦ شوال سنة ٣١٠ هـ ، وسنى ٣١١ و ٣١٢ و ٣١٦ هـ . بيد أنه يأخذ بالتاريخ الأول على ما يظهر . انظر وستيفلد (Gesch. der Araber, No. 94) .

(٥) ذكر أبو الحسن قلا عن المسبحى (طبعة Junynboll) (ج ٢ ص ٣٤٢) ، جمادى الثانية سنة ٣٤٥ هـ . على أن الكنى (ج ٢ ص ٥٧) ذكر أنه توفى سنة ٣٤٦ هـ .

(٦) انظر (Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 472) .

لتاريخ المذهب الشيعي ، وخاصة لما ورد في هذا الكتاب عن الأحاديث التي نسبت إلى النبي عن إمامة عليّ بعده . ولسوء الحظ أن أحمد بن يحيى وغيره من كتّاب تاريخ الشيعة على المذهب الزيدي ، وغيرهم ممن عاش في عصرهم أو جاء بعد زوال دولتهم ، لم يُعنوا بذكري شيء عن الطائفة الاسماعيلية ، اللهم إلا أخو محسن الذي عاش في القرن الرابع للهجرة ، والذي تعرض لنفي صحة نسب الفاطميين إلى عليّ وفاطمة . على أننا لا نجد الآن من كتّابه شيئاً إلا هذه الشذرات التي نقلها النويري المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م) والمقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) .

١ — المصادر التاريخية التي ألقت في عصر الفاطميين

تنقسم هذه المصادر التي وصلت إلى أيدينا إلى قسمين بالنسبة إلى العصر الفاطمي الذي كتبت فيه :

(أ) في الصدر الأول من أيام الفاطميين في مصر : أعني من سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) إلى نحو سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٣ م) .

(ب) في أواخر أيام الفاطميين : أي من سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٣ م) إلى نحو سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) .

(أ) العصر الأول

من الكتب التي كتبها مؤلفوها في العصر الفاطمي كتاب ” الإفادة في تاريخ الأئمة السادة ” ليحيى بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) ، من سلالة زيد بن عليّ ، الذي أتى فيه يبحث مسهب عن مذهب الزيدية (مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٩٤٧) .

ومن المصادر الأخرى التي تناولت الكلام على تاريخ المذاهب الدينية كتاب ” الفرق بين الفرق ” لأبي منصور عبد القاهر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م)^(١) ، وكتاب ” الفصل في الملل والأهواء والنحل ” لابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م)^(٢) ، وكتاب ” الملل والنحل ”

(١) انظر تاريخ حياة البغدادي في ” وفيات الأعيان ” لابن خلكان (ج ١ ص ٣٧٥) .

(٢) انظر باقوت ” إرشاد الأديب ” (ج ٥ ص ٨٦ - ٩٧) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٤٢٨ - ٤٣١) ، و” فتح الطيب ” للقرئ (طبعة بولاق سنة ١٨٦٢ م - ج ١ ص ٣٦٤ - ٣٦٨) ، وروستغلد (Wüstenfeld, Gesch. der Araber

للشهرستاني^(١) المتوفى سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) ؛ وهى ذات قيمة خاصة بالنسبة إلى تاريخ الشيعيين فى مبدأ أمرهم وطوائفهم الدينية . وهناك مصادر أخرى ليست بأقل أهمية وإمتاعاً مما سبق الكلام عليها ، نخص بالذكر منها كتاب "بحث عن سيادة العرب وعن الشيعة والمعتقدات المسيحية فى عهد خلافة بنى أمية" (Recherches sur la Domination Arabe, le Chûtisme et les croyances messianiques sous le Khalifat des Omayyades).
لمؤلفه فان فلوتن (Van Vloten) الذى اعتمد فيه على تاريخ الطبرى ، و"شُنع الشيعة" على ما جاء فى كتاب "الملل والنحل" لابن حزم ، لاسرائيل فريد ليندر ("The Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentation of Ibn Hazm," Israel Friedlaender, Journal of the American Oriental Society, vols. XXVIII & XXIX.) وكتاب "الشريعة الإسلامية" للأستاذ جولد زهر I. Goldziher الذى ترجمه إلى الفرنسية المسيو فليكس أران (Félix Arin) بعنوان (Le Dogme et la Loi de l'Islam.)

على أن هناك كتاباً آخر كتبه رجل تقدم البغدادى وابن حزم والشهرستانى ، لا يخامرنا شك فى صحة المعلومات التى أوردها فيه عن تاريخ الشيعة : وهو كتاب "البدء والتاريخ" الذى نسب فى وقت ما إلى أبى زيد البلخى ، والذى كشف البحث الآن أن مؤلف هذا الكتاب هو مطهر بن طاهر المقدسى الذى لا يعرف عن حياته إلا شئٌ قليل ، غير أنه عاش حول منتصف القرن الرابع الهجرى^(٢) .
ولسوء الحظ لم يطبع المسيو هوار (Huart) من هذا الكتاب إلا النص العربى للأبواب الأحد عشر الأولى من مجموع أبواب هذا الكتاب — وعددها اثنان وعشرون — التى ترجمها إلى الفرنسية . ولم يطبع بعد كل أجزاء هذا المخطوط الموجود الآن بمكتبة القسطنطينية ، والذى يتناول الباب التاسع عشر منه الكلام على تاريخ الفرق الدينية ؛ ومن بينها فرقة الشيعة ؛ ولهذا لم تصل إليه يدى بعد .

ومن بين الكتب الأخرى التى تعرضت للكلام عن هذا العصر كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه^(٣) المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) ، وكتاب "الأغانى" لأبى الفرج الأصفهاني^(٤)

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٦١٠-٦١١) ، ومستفاد (Gesch. der Araber No. 247) ؛ انظر لفظ شهرستان فى "معجم البلدان" لياقوت .

(٢) J. B. A. S., vol. XXXVI, 1904, p. 571 — ولا بد أن تكون وفاته قد وقعت فى سنة ٣٥٥ هـ ، وهى السنة التى ألف فيها كتابه ، أرى هذه السنة .

(٣) ياقوت "إرشاد الأديب" (ج ٢ ص ٦٧-٧٢) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٣٩-٤١) ، وحاجى خليفة

رقم ٨٢٠٠ ، ومستفاد (Gesch. der Araber No. 107)

(٤) ياقوت : إرشاد الأديب (ج ٥ ص ١٤٩-١٦٨) .

المتوفى سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) ، و "رسائل" الخوارزمي^(١) المتوفى سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م) ، و "رسائل" بديع الزمان الهمداني^(٢) المتوفى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧-١٠٠٨ م) — وهذه الرسائل تصف لنا العداء بين السنيين والشيعة — وكتاب "الفهرست" لابن النديم^(٣) المتوفى سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م) ، و "نشوار المحاضرة"^(٤) للتنوخي^(٥) المتوفى سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) .

وبالرغم مما لكتاب الفهرست من مكانة عظيمة ، فإن مؤلفه لم يتحرّقة البحث في بعض مسأله ، بدليل ما كان من نسبته عبارة الشريف أنى محسن إلى ابن رزام . وهذه النسبة خطأ واضح سيتبين للقارئ فيما بعد ، بدليل ما أورده النويري والمقريزي الذي وصل الى يده كتاب أنى محسن ونقل عنه .

ويحدر بنا أن نذكر أيضا كتاب "صلة تاريخ الطبرى" لعريب بن سعد^(٦) المتوفى سنة ٣٦٦ هـ ؟ (٩٧٦ - ٩٧٧ م ؟) ؛ وقيمة هذا الكتاب في أن عريب بن سعد قد أضاف كثيرا إلى تاريخ الأندلس وشمال إفريقية (بلاد المغرب) . ولم يمدنا الطبرى بشيء يستحق الذكر عن الفاطميين ، مع أنه تقدّم عريب بن سعد ، لأن كلامه عنهم يحوطه شيء من الغموض والابهام غير قليل .

أما عن العلاقات التي كانت بين الفاطميين في شمال إفريقية ومصر إلى أن تم فتح مصر على يد جوهر الصقلي قائد الفاطميين (سنة ٣٥٨ هـ) ، فأننا نذكر من بين المؤرخين الذين اعتمدنا عليهم في بحثنا لتاريخ مصر في هذا العصر وطاشوا في الصدر الأول من أيام الفاطميين ،

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٤٧-٤٨) .

(٢) النجاشي ، "قيمة الدرر" (ج ٣ ص ١١٤ و ١٢٥ و ١٢٦) والسماعى "كتاب الأنساب" ورقة ٢٠٩ ب ، وابن خلكان (ج ١ ص ٦٢٢-٦٢٣) .

(٣) ياقوت "ارشاد الأديب" (ج ٦ ص ٤٠٨) ، وابن خلكان (ج ١ ص ١٠-١١) .

(٤) ياقوت "ارشاد الأديب" (ج ١ ص ١٤٦) . قال الأستاذ مرجوليوث في مقدّمته لكتاب "تجارب الأمم" لمسكويه (ص ٨) إنه لم يكشف للآن الجزء واحد من أجزاء هذا الكتاب الأحد عشر .

(٥) النجاشي (ج ٢ ص ١٠٥ و ١١٥) ، ياقوت "ارشاد الأديب" (ج ٦ ص ٢٥١-٢٦٧) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٥٦٣-٥٦٥) .

(٦) لا يعلم عنه شيء ، غير أنه شغل منصب الكتابة في بلاط الحكم الثانى ٣٥٠-٣٦٦ هـ (٩٦١-٩٧٦ م) في قرطبة ؛ وفي حكمة ألف عريب هذا مختصرا لتاريخ الطبرى . انظر ما ذكره دوزى (Dozy) عن عريب في كتاب "اليان المغرب" لابن عذارى (ص ٤٣ - ٦٣) ، و Brookelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, I, 134, 236, and note ; Wüstenfeld, Gesch. der Arab., No. 136 ; Encyclopaedia of Islam, s.v.

وكتبوا عن تاريخ هذه البلاد في هذا العهد: ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ (٩٢٢م)، وأوتينا^(١) (سعيد بن البطريق) المتوفى سنة ٣٢٨هـ (٩٤٠م)، وأبا عمر الكندي^(٢) المتوفى سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م)، وعريب بن سعد المتوفى سنة ٣٦٦هـ ؟ (٩٧٦ — ٩٧٧م ؟)، وأبا علي مسكويه المتوفى سنة ٤٢١هـ (١٠٣١م). وقد اقتصر الطبري في تاريخه الذي ينتهي في عام ٣٠٢هـ، على ذكر المجهودات الأولى التي بذلها المهدي في سبيل غزو مصر. أما عريب بن سعد ومسكويه فقد تناولوا الكلام على هذه الغزوات بشيء من الإسهاب. وقد أمدنا أوتينا والكندي، وهما مصريان المولد والدار وأقدم هؤلاء المؤرخين بعد الطبري، بمعلومات أكثر تفصيلا واسهابا في هذا الموضوع. وكتاب "المغرب في حلى المغرب" لابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٥م)^(٣) قد تضمن جزءا من كتاب ابن زولاق^(٤) المتوفى سنة ٣٨٧هـ (٩٩٧م)، المسمى "كتاب العيون الدّجّ في حلى دولة بني طنج" (٥). وهذا الكتاب يتناول سيرة الأخشيد، كتب مؤلفه في سنة ٣٥٠هـ بأمر أبي الحسن علي بن الأخشيد، ثم أتم ابن زولاق أيضا كتاب الكندي الذي يتناول الكلام على ولاية مصر إلى سنة ٣٣٤هـ، وهي السنة التي مات فيها الأخشيد. أضف إلى ما تقدم، أن ابن زولاق ذيل كتاب الكندي^(٦) منذ وفاة الأخشيد إلى أن وصل المعز الفاطمي إلى مصر وأسس الخلافة الفاطمية باسمه سنة ٣٦٢هـ (٧).

وفضلا عما تقدم فإن ابن هاني^(٨) الأندلسي المتوفى سنة ٣٦٢هـ (سنة ٩٧٣م) يشير في ديوانه إلى الدعوة الفاطمية في أيام الخليفة المعز (٣٤١ — ٣٦٥هـ) (٩٥٢ — ٩٧٥م)، ويشيد بآثر

Wüstenfeld, Gesch. der Arab. No. 108 (١)

Ibid. No. 124 (٢)

(٣) ورد هذا التاريخ في كتاب "نوات الوفيات" للكتبي (ج ١ ص ١١٢)؛ أما السيوطي فقد ذكر في كتابه "حسن المحاضرة" طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩هـ (ج ١ ص ٢٢٠) أنه توفي سنة ٦٨٥هـ.

(٤) ذكر ياقوت: ارشاد الأديب (ج ٣ ص ٧) أنه توفي في يوم الأربعاء ٢٦ ذي القعدة سنة ٣٨٧هـ، وذكر ابن خلكان (ج ١ ص ١٦٧) أن وفاته وقعت في يوم الثلاثاء ٢٥ من الشهر قسه، وذكر السيوطي (حسن المحاضرة ج ١ ص ٣١٩) أنه توفي شهر ذي القعدة من هذه السنة.

(٥) ابن سعيد: كتاب المغرب (ص ٤ — ٤٥).

(٦) الكندي: كتاب الولاية والقضاة (ص ٢٩٣ — ٢٩٨).

(٧) ابن سعيد: كتاب المغرب (ص ٥).

(٨) ياقوت: ارشاد الأديب (ج ٧ ص ١٢٦ — ١٢٧)، ابن خلكان (ج ٢ ص ٦) والمقرئ (ج ٢ ص ٢٦٤).

هذا الخليفة ويحيد أعماله ، حتى وصل به هذا إلى الغلو فنسب إلى مولاه بعض صفات النبوة والالوهية ؛ وبهذا مهد ابن هانيء طريق الالحاد لمن أتى بعده من الشعراء .

ومن الكتب المعاصرة للدولة الفاطمية تاريخ ابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ، المسمى "فضائل مصر وأخبارها وخواصها" ؛ أتى فيه مؤلفه على تاريخ مصر منذ عصورها الأولى . وابن زولاق حجة لا يستهان به في تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين : أولاً لأنه كان مصري الجنس ومن أهلها ، وثانياً لأن شهرته قد ذاعت لسعة اطلاعه في مادة التاريخ . وقد ألف ابن زولاق سلسلة من الكتب الأصلية عن تاريخ مصر ، من أمثال كتاب "فضائل مصر" ، وهو عبارة عن خطط أو وصف "طوبوغرافي" لمصر القديمة ، تناول فيه مؤلفه — على ما ذكر ابن خلكان^(١) — الكلام على هذا الموضوع من جميع نواحيه ، وكذا كتاب "قضاة مصر" الذي جعله مؤلفه ذيلاً لكتاب القضاة لأبي عمر الكندي إلى سنة ٢٤٦ هـ ، وأتمه فيما بعد ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) .

وعدا هذه الكتب التي ألفها ابن زولاق في تاريخ مصر^(٢) سيرة كافور وجوهر والمعز والعزیز . بيد أنه لسوء الحظ قد تلاشت معظم تصانيف ابن زولاق ؛ ولا يعرف عنها شيء الآن إلا ما أخذه منها غيره من الكتاب الذين جاءوا بعده . هذا ، وتصانيف ابن زولاق التي بقيت إلى اليوم هي^(٣) تاريخ قضاة مصر^(٢) وسيرة الأخشيذ المسماة "العيون الدعج ... الخ" التي نقلها ابن سعيد في كتاب "المغرب"^(٣) ، وكتاب فضائل مصر ، وهو مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٨١٧ ، ومختصر لهذا السفر الكبير الذي ألفه صاحبه عن تاريخ مصر . أما هذا المخطوط فقد أمدنا بمعلومات صحيحة عن تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين إلى عام ٣٨٦ هـ . ولقد أتم هذا المؤلف الذي وضع أساسه ابن زولاق رجل من الأتراك ، يلوح لنا أنه أدخل عليه معلومات استقهاها مما كتبه بعض المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن زولاق ، من أمثال أبي الفرج بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) ، الذي عرف حفيده باسم سبط بن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٧ م) ، وكذا الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٨ م) .

(١) (ج ١ ص ١٦٧)

(٢) أتى ياقوت في كتابه إرشاد الأديب (ج ٣ ص ٧) على أسماء الكتب التي صنفها ابن زولاق .

وينبغي أن نذكر فضلاً عما تقدم من المصادر المعاصرة للفاطميين كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" للقدسي (أو المقدسي على الأصح) المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) ؛ وهو كتاب قيم من ناحيتين الجغرافية والتاريخية، وكتاب "الديارات" لأبي الحسن علي الشافعي^(١) المتوفى سنة ٣٨٨ هـ (٩٩٨ م)^(٢) (برلين مخطوط فيمار ١١٠٠) . وقد اتصل الشافعي بخدمة العزيز ، فولاه خزانة كتبه واتخذ جليسا له ونديما ؛ وذكر في كتاب "الديارات" أخبارا عن الأديرة في العراق والموصل وسورية والجزيرة ومصر ، وما قيل عن كل منها من الأشعار ، وما جرى فيه من حوادث وأمر . على أن هذا الكتاب على نفاسته لم يمدنا بمعلومات كافية عن العصر الفاطمي ، اللهم إلا ما يتعلق بحفلة زواج الخليفة المأمون العباسي بابنة وزيره الحسن بن سهل ، على ما سيأتي بيانه في الباب السابع .

وهناك كتاب آخر هو كتاب "كنائس وأديرة مصر" لأبي صالح الأرمني المتوفى سنة ٦٠٥-٦٠٦ هـ (١٢٠٨ م) ، وقد ألفه عقب غزو الأكراد والغز هذه البلاد تحت قيادة شيركوه . كتب أبو صالح جزءا لا يستهان به من مؤلفه ، اعتمد فيه على ما سمعه ورآه هو بنفسه في زيارته للكنائس والأديرة في القاهرة وضواحيها . والكتاب مملوء بأمثلة كثيرة عن الخيرات التي أغدقها الخلفاء الفاطميون والموظفون الكبار من المسلمين على القبط^(٣) . وكان لهذه المعلومات فوائد عظيمة في الباب الذي أفردته لبحث سياسة الفاطميين للتصاري واليهود .

وهناك أيضا كتابان من الكتب التي ألقت في عهد الفاطميين : وهما "ديوان الشريف الرضي" المتوفى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ م) ، والرسائل التي يطلق عليها "رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته" كتبها في سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧-١٠١٨ م) كثيرون من الدعاة تحت إشراف الخليفة الحاكم ٣٨٦-٤١١ هـ (٩٩٦-١٠٢١ م) .

(١) ذكر ابن خلكان قسلا عن كتاب (التاجي) لأبي اسحاق الصابي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ أن الشافعي حاجب وشيخ بن زياد الديلمي ، قتل في سنة ٣٢٦ هـ (٩٣٧-٩٣٨ م) بالقرب من أصبهان . وزاد ابن خلكان على ما تقدم فقال : يظهر أن الشافعي اسم ديلي يشبه النسبة ، ويحتمل أن يكون أبو الحسن علي الشافعي من أبناء هذا الرجل فنسب إليه وبقى النسب في أولاده . ابن خلكان (ج ١ ص ٤٢٦-٤٢٧) .

(٢) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٢٦) ثلاثة تواريخ لوفاة الشافعي ، وهي سنة ٣٩٠ هـ وصفر سنة ٣٨٨ هـ و ١٥ صفر سنة ٣٨٨ هـ ، وذكر هو التاريخ الأول . أما الثاني فقد قلعه عن المسيحي ، وذكر الثالث قسلا عن شخص لم يذكر اسمه .

(٣) زعم إيفتس (B. T. A. Evetts) في مقدمته لكتاب أبي صالح أن كتاب الديارات للشافعي قد ضاع ، ولا يعرف لدينا الا عن طريق العبارات التي اقتبسها منه غيره من الكتاب .

ويعتبر المؤرخون قصيدة الشريف الرضى ذات شأن في هذا الموضوع ^(١) . وبالرغم من انها لم تظهر في ديوانه بادئ بدء ، فقد أجمع كثير منهم على صحة نسبتها اليه — على ما سيظهر بعد — بدليل إسنادها اليه في كثير من المصادر التي عاش كاتبوها بعد الشريف الرضى .

أما كتاب رسائل الحاكم بأمر الله الخ فهو من مخطوطات المكتبة الملكية في القاهرة (رقم ٢٠ مخطوطات الشيعة) ، ويشتمل على عشرين رسالة كتبها كثيرون من الدعاة . وهذا الكتاب يصف لنا الأساليب التي بها نشر الخلفاء الفاطميون وأنصارهم دعوتهم السياسية والدينية ، ويمد القارئ ببيان مسهب لدعوى الخليفة الحاكم الألوهية ^(٢) .

وهناك مؤرخ آخر هو الأمير المختار عن الملك محمد بن أبي القاسم المعروف بالمسيحي ^(٣) المتوفى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) ، الذي كتب عن مصر كتابا مسهبا هو " تاريخ مصر " ؛ يقع في ستة وعشرين ألف صفحة ^(٤) ؛ ولا يوجد منه إلا الجزء الأربعون بمكتبة الأسكوريال بالاندلس ، وهو واحد من جملة تصانيفه التي بلغت الثلاثين ولم يعد لها الآن وجود ، اللهم الا في هذه المقتبسات التي نجدها في المصادر الأخرى .

وقد كان المسيحي رجل فضل وعلم ؛ وكان على زى الأجناد . اتصل بخدمة الخليفة الفاطمي الحاكم ٣٨٦ — ٤١١ هـ (٩٩٦ — ١٠٢١ م) ، وتقلد في أيامه القيس والبهنسا من أعمال الصعيد ، ثم تقلد " ديوان الترتيب " ^(٥) . ولا غرو فان المسيحي حجة دامغة في تاريخ مصر في الصدر الأول من أيام الفاطميين ^(٦) .

(١) ص ٩٧٢ — ٩٧٣

(٢) أنظر كتب الأمان التي أعطاها الحاكم لأهل مصر في كتاب يحيى بن سعيد (ص ٢٣٠ — ٢٣٣) .

(٣) ابن خلكان (ج ١ ص ٦٥٣ و ٦٥٤) والسيوطي طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (ج ١ ص ٣١٩) .

(٤) يقول ابن خلكان (ج ١ ص ٦٥٣) انها وقعت في ثلاثة عشر ألف ورقة .

(٥) زعم دى سلين (De Silem) في ترجمة كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ٣ ص ٩٠ حاشية رقم ١) أن هذا الديوان كان في قسم المكان الذي يوجد فيه ديوان الرواتب ، وهو المحل الذي تنظم فيه الرواتب وتدفع لمستحقها .

(٦) ذكر تصانيف المسيحي من جاء بعده من المؤرخين ، كإبن منجب ، وإبن ميسر ، وإبن خلكان ، والمقرئزي ، وإبن المحاسن ، والسيوطي .

هذا ، ويجب ألا ننسى أيضا ما كتبه ثلاثة من الكتاب المعاصرين للفاطميين ، وهم مسكويه^(١) المتوفى سنة ٤٢١ هـ (١٠٣١ م) ، وهلال الصابي^(٢) المتوفى سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م) ، وأبو شجاع المتوفى سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م)^(٣) .

أما تاريخ مسكويه المسمى "تجارب الأمم" فهو "على وجه العموم من أهم الكتب العلمية في اللغة العربية"^(٤) . ويتناول جزء من هذا الكتاب الكلام على الحوادث التي أعقبت ما دونه الطبري في تاريخه (ويتم في سنة ٣٦٩ هـ)^(٥) . وقد استطرد أبو شجاع في سرد الحوادث (وتنتهى في سنة ٣٨٩ هـ) ؛ وتلاه هلال الصابي في تاريخه الذي ذيل به أمدروز (Amedroz) كتاب الوزراء ونقله عنه الأستاذ مرجوليوت (Prof. Margoliouth) .

ولقد استمد مسكويه معلوماته التاريخية شفويا ممن تولوا الزعامة في هذه الحوادث ؛ فنخص بالذكر منهم الوزير المهملّي في بغداد المتوفى سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) ، وأمين خزانته^(٦) ، وهو أبو الفضل بن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧٠-٩٧١ م) في الري . وكان لمسكويه ضلع في كثير من الحوادث الهامة ، كما كان لهارة البيني وأسامة بن منقذ من بعده . "وهذا من الأهمية بمكان لمؤرخ مثله ، وعلى الأخص لأن المناصب التي تقلدها كانت تلقى على عاتقه كثيرا من المسؤولية ؛ كما أنه كان في استطاعته الوقوف على أسرار الدولة من غير أن تكون له بها علاقة شخصية ذات شأن عظيم"^(٧) .

(١) اختلف الكتاب في صحة ثبوت اللقب له أو لا يبه ؛ فبعضهم كالتنوخى (نشوار المحاضرة ص ١٧٣) وحاجي خليفة (رقم ٢٤٣٠) يزعم أن اللقب متصل بآبيه ، في حين يقول غيرهم من أمثال بدیع الزمان الهذلي (ص ١٥٧) ، وقد سماه مسكويه) وياقوت (إرشاد الأديب ج ٢ ص ٨٨) وابن خلکان (ج ٢ ص ٩٢) والقفطي (ص ٣٣١) وابن أبي أصيبعة (ج ١ ص ٢٤٥) بأن اللقب متصل به هو .

انظر المناقشة التي أوردها الأستاذ مرجوليوت (Prof. Margoliouth) عن هذا اللقب في مقدمته لكتاب مسكويه (ص ١١) ووستنفلد في كتابه (Gesch. der Ar. No. 182) .

(٢) نشر مستر أمدروز (Mr. Amedroz) ترجمة حياة هلال الصابي عن تاريخ سبط بن الجوزي ، وتناول في جملتها الكلام بوجه التفصيل عن اعتناق هلال الاسلام .

انظر أيضا ياقوت (إرشاد الأديب ج ٧ ص ٢٥٥) وابن خلکان (ج ٢ ص ٢٦٧) ووستنفلد : (Wüstenfeld : Gesch. der Ar. No. 198)

(٣) ابن خلکان (ج ٢ ص ٩١-٩٢)

(٤) Prof. Margoliouth : Preface to Miskawaih, p. VI

(٥) يقول القفطي (ص ٣٣١) إن تاريخ مسكويه ينتهى الى سنة ٣٧٢ هـ .

(٦) ياقوت : إرشاد الأديب (ج ٢ ص ٩٥)

(٧) Prof. Margoliouth : Preface to Miskawaih, p. VI

وقد أسهب مسكويه في تاريخ الصدر الأول من أيام بني بويه ؛ ولكنه لم يغفل أيضا أن يمدنا بتاريخ للأحوال الخارجية للعباسيين ، مما له صلة بالجهود التي قام بها الفاطميون لفتح مصر ، وكذلك العلاقات التي كانت بين العباسيين والبيزنطيين في ذلك الوقت .

وقد أعقب ظهير الدين محمد بن الحسين الروذراورى وزير الخليفة العباسي المقتدى ٤٧٦ هـ — ٤٨٧ هـ (١٠٨٢ — ١٠٩٣ م) المعروف بأبي شجاع ، تاريخ مسكويه بتاريخه الذي تناول فيه الكلام على المدة التي بين سنتي ٣٦٩ و ٣٨٩ هـ .

ولقد وقع أبو شجاع عند كلامه على حوادث سنة ٣٨١ هـ في أغلاط لم يشر إليها الأستاذ مرجوليوث عند نشره تاريخ مسكويه ؛ ذلك أن أبا شجاع قد دَوَّن في هذه السنة حوادث وقعت بعدها بخمس سنين أو عشرين . ومن الأمثلة التي تؤيد صحة هذا القول مسألة موت الخليفة الفاطمي العزيز وتولية ابنه الحاكم^(١) التي حدثت في سنة ٣٨٦ هـ ، وما يتعلق أيضا بقتل برجوان وإسناد منصبه^(٢) إلى الحسين بن جوهر في شهر ربيع الثاني سنة ٣٩٠ هـ^(٣) .

هذا ، ولم يظهر للآن من تاريخ هلال إلا جزء واحد ذيل به مسترأمدروز "كتاب الوزراء" ، ونقله عنه الأستاذ مرجوليوث . وقد أمدنى كتاب الوزراء بفوائد عظيمة عن التعديلات التي أدخلت على قانون الوراثة في عهد الفاطميين منذ ابتداء عهدهم^(٤) . كما أمدنى كتاب "يتممة الدهر" لأبي منصور الثعالبي^(٥) المتوفى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م)^(٦) ، وكتاب "سقط الزند" و"اللزوميات" لأبي العلاء المعري المتوفى سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) يمثل هذه الفوائد . أما تصانيف أبي العلاء ، و"معجم البلدان" لياقوت ، فهي ذات قيمة خاصة فيما يتعلق بالعبارة التي كتبها عن الفقيه الشاعر عبد الوهاب بن نصر المالكي .

(١) (ج ٣ ص ٢٢١)

(٢) (ج ٣ ص ٢٣٠ — ٢٣٢)

(٣) أنظر الحاشية التي كتبها في الباب السادس .

(٤) أنظر الباب الخامس .

(٥) ذكر السمعاني (كتاب الأنساب ورقة ١١٥ أ) أن الثعالبي كان يخط جلد الثعالبي ، فاشتق اسمه من هذا اللفظ .

أنظر أيضا ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٥ — ٣٦٦) وأبا الفدا (ج ٢ ص ١٧٠) .

(٦) وردت هذه السمة في ابن خلكان (ج ١ ص ٣٦٦) وأبي الفدا (ج ٢ ص ١٧٠) . وذكر مستغلد في كتابه

(Gesch der Ar.) رقم ١٩١ : سنة ٤٢٩ أو ٤٣٠ هـ .

وكتاب "الآثار الباقية" للبيروني^(١) المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م)^(٢) يتناول الكلام عن نظم الطوائف والجماعات المختلفة . وهو حجة اعتمدت عليه في البحث عن الاحتفال بالأعياد القومية والدينية في عهد الفاطميين .

أما عن النظم الإدارية ، فقد اعتمدت على ما كتبه الماوردي^(٣) المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) في كتاب "الأحكام السلطانية" . وهو أول ما كتب بالعربية عن هذه النظم في الاسلام ؛ ويعد من أعظم المصادر لما كتبه عن إدارة الشؤون العامة في أيام الفاطميين . على أن الغموض الذي يحيط بأسلوب الماوردي ، مما يزيد في قيمة ما كتبه المتأخرون عن هذا الموضوع ، من أمثال ابن طباطبا الذي ألف كتاب "الفخرى في الآداب السلطانية"^(٤) سنة ٧٠١ هـ (١٣٠٢ م) ، والقلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) ، بل وما كتبه ابن خلدون والمقرئزي ، بالرغم مما يعيب أسلوب هذين في كثير من الأحيان من ركافة وغموض .

(١) "من أهالي خوارزم أو خوارزمية وهي كيفا الحالية ؛ وبعبارة أدق ، أحد مواطني (Bērūn) من أحياء عاصمة هذه البلاد . وكان يطلق على كل منهما (الحى والحاضرة) اسم خوارزم ، أو أحد مواطني أحد أعمال الحاضرة ، ويسمى (Bērūn) أيضا" (Saohau's Preface to Bērūn's Chronology of Ancient Nations, English Translation, p. vii)

ومن أراد التوسع فليرجع الى ما جاء في مقدمة النسخة العربية (ص ١٧ و ١٨) ، وكتاب الأنساب للسماعى ورقة ٩٨ (طبعة Gibb Memorial) حيث نقلت النسخة الأصلية "Birūnī" خطأ .

(٢) يقول حاجى خليفة (رقم ٩٣٥٩) ان وفاة وقعت في سنة ٤٣٠ هـ ، بخلاف ابن أبي أصيبعة (ج ٢ ص ٢٢) فانه ذكر أن ذلك كان في سنة ٤٤٠ هـ .

(٣) كان الماوردي على ما ذكر السماعى (كتاب الأنساب ورقة ١٥٠٤) يبيع ماء الورد ، ومنه عرف بهذا اللقب . انظر أيضا ارشاد الأديب لياقوت (ج ٥ ص ٤٠٧ — ٤٠٩) وابن خلكان (ج ١ ص ٤١٠ — ٤١١) وأبالفدا (ج ٢ ص ١٨٨) .

(٤) وصف الأستاذ نيكلسون في كتابه "تاريخ العرب الأدبي" (ص ٤٤٤) حاشية (١) (Prof. Nicholson : Literary History of the Arabs p. 464, No. 1) كتاب ابن طباطبا في العبارة الآتية : "وهو كتاب يمنع عن السياسة الاسلامية . وان ما يمتاز به أسلوبه من سهولة ، وعبارة على اختلافها من تشويق وإمتاع ، كل ذلك جعله جديرا بما يستحقه من إعجاب واستحسان . واذا صرفنا النظر عن القرآن ، فاني لأعرف كتابا غير هذا يصلح لأن يكون مقدمة للأدب العربي" .

"..... a delightful manual of Muhammadan politics. The simplicity of its style and the varied interest of its contents have made it deservedly popular. Leaving the Quran out of account, I do not know any book that is better fitted to serve as an introduction to Arabic literature."

ومما نأسف له أشد الأسف ما كان من ضياع مؤلفات القضاى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) ؛ ومن بينها كتاب "عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف" ؛ وهو مختصر كتاب "الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء الأمويين والعباسيين والفاطميين" . وهذا الكتاب مخطوط فى المكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٤٩١ ؛ وهو عبارة عن خلاصة الكتاب الأصل الذى لعبت به يد الضياع . ومع ذلك فقد خلف لنا من جاء بعد القضاى من الكتاب ، من أمثال القلقشندى والمقرئى وأبى المحاسن ، بعض شذرات نقلوها من هذا الكتاب . وجاء رجل من الأتراك — مجهول الاسم — فاختصر كتاب القضاى الذى أخذ عنه مؤلف المخطوط الموجود بالمكتبة الأهلية بباريس ؛ واستمر يسرد لنا الحوادث حتى عام ٩٢٦ هـ (١٥١٩ — ١٥٢٠ م) . وهذا المختصر يوجد بالمكتبة الأهلية بباريس ؛ ويحتوى الجزء الذى ينحصر بين ورقى ١١٥ و ١٢٦ من هذا الكتاب المنسوب الى القضاى ، والموجود الآن بباريس ، على معلومات ذات غناء عن الخليفة الحاكم الفاطمى . أما مؤلفات القضاى فقد عددها ابن خلكان^(١) ؛ فذكر منها كتاب "مناقب الامام الشافعى" ، وكتاب "تواريخ الخلفاء" ، وكتاب "خطط مصر" . ويظهر أن المقرئى نقل هذا الكتاب برمته وأودعه كتابه الذى يعرف أيضا بهذا الاسم .

والقضاى ثقة فى تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين . وكان من النابغين فى الكتابة ، حتى صار من كتاب البلاط ، مما جعل الوزير أبا القاسم الجرحاى (تقلد الوزارة فى سنة ٤١٨ هـ وتوفى سنة ٤٣٦ هـ)^(٢) يعهد إليه فى أن يكتب العلامة^(٣) .

ولا يفوتنا أيضا أن نذكر صلة كتاب أوتينا المسمى "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق" ، الذى كتبه يحيى بن سعيد المتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) ؛ فقد تصدى للكلام عن المدة التى بين سنتى ٣٢٦ و ٤١٧ هـ (٩٣٨ — ١٠٢٦ م) . ولما كان من المحتمل أن يحيى بن سعيد مصرى المولد ، وأنه قضى من حياته فى هذه البلاد مدة تتراوح بين خمسة وثلاثين وأربعين عاما — كان ذلك كله مما يجعل لكتابه فائدة خاصة بالنسبة الى الزمان الذى عاش فيه والمكان الذى قضى فيه هذه الحقبة من عمره ، وهو مصر^(٤) .

(١) ج ١ ص ٥٨٥

(٢) ابن منجب : كتاب "الإشارة إلى من نال الوزارة" (ص ٣٥ و ٣٧) .

(٣) كانت العلامة أو الإشارة التى يذيل بها القضاى الأوراق الرسمية لإعطائها الصفة الرسمية تشمل هذه الكلمات : "المدلة شكرا لعمته" .

(٤) أنظر لفظ أنطاكى (Antaki) فى دائرة المعارف الاسلامية

(ب) العصر الأخير

الآن نتحدث إلى القارئ عن قيمة المصادر التي عاش مؤلفوها في الأيام الأخيرة من عهد الفاطميين ؛ فنذكر منها كتاب سفرنامه (Safar Nāmah) ^(١) لناصرى خسرو المتوفى سنة ٤٨١ هـ (١٠٠٨ م) . وهو كتاب ذو أهمية في تاريخ الفاطميين ؛ لأنه فضلا عن أن ناصرى خسرو كان إسماعيليا ينتصر للذهب الاسماعيلي ، فان هذا الوصف المسهب الذي كتبه عن زيارته لمصر (٤٣٩ — ٤٤١ هـ) في عهد الخليفة المستنصر ٤٢٧ — ٤٨٧ هـ (١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) يمدنا بمعلومات صحيحة عن مصر ومبلغ رخائها ووفرة ثروتها في العصر الفاطمي ^(٢) .

ولا يخفى ما لكتاب "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" ^(٣) لأبي عيسى البكري المتوفى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) ، وكتاب "الإشارة إلى" ^(٤) من نال الوزارة لابن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ^(٥) ، و"ذيل تاريخ دمشق" لابن القلانسي المتوفى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) — وهو بمثابة ذيل لتاريخ هلال الصابئ — وكتاب "الأنساب" للسمعاني المتوفى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ — ١١٦٧ م) — وهو كتاب جليل أيضا من ناحيتي النسب والجغرافيا — وتاريخ ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) — لا يخفى ما لكل هذه الكتب من أهمية خاصة لاستقصاء بحث تاريخ الفاطميين .

ويظهر أن ابن القلانسي قد نقل كتاب أبي شجاع وكتاب هلال الصابئ ، اذا جاز لنا أن نقول إن تاريخ أبي شجاع قد بنى على تاريخ هلال . ويلوح لنا أن كتاب ابن القلانسي مما يمكن عده من المصادر الأصلية منذ ابتداء القرن السادس من الهجرة ، كما يظهر من وصفه للأحوال التي أدت إلى قتل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي . أما كتاب "الإشارة" لابن منجب ، فقد أمدنا بمادة لا يستهان بها عن تاريخ الفاطميين ؛ لأن ابن منجب كان من أعيان زمانه ، وقد تقلد ديوان الرسائل

(١) طبع المسيوشيفر (Schefer) منه بالفارسية وترجمته الفرنسية مع الحواشي والتعليقات

(٢) استفاد ستانلي لين پول Stanley Lane-Poole وأولري O'Leary من وصف ناصرى خسرو لمصر فها كتباه عن الدولة الفاطمية في مصر .

(٣) هذا الكتاب جزء من أجزاء الكتاب المعروف "المسالك والممالك" .

(٤) ذكر ياقوت (إرشاد الأديب) هذا اللفظ "في" .

(٥) أورد ياقوت سيرة ابن منجب في كتابه "إرشاد الأديب" (ج ٥ ص ٤٢٢) ، حيث ذكر أنه توفي سنة ٥٥٩ هـ ، وأفرده أيضا ابن ميسر (ص ٨٧) وغيره ترجمة خاصة به .

سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) في عهد الخليفة الأمر ، وظل فيه الى سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) ؛ وكان من البارزين في طبقة البلاط والمؤرخين^(١)

هذا ، ويجب أن نشير في هذا المقام الى ما كتبه عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) ، وأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) . فقد شاهد كل منهما بنفسه ما وقع في مصر من الحوادث في أواخر أيام الفاطميين . ذلك أن عمارة كان شاعرا نابه الذكريين شعراء البلاط في عهد الخليفة الفائز والخليفة العاضد ، وهما آخر من تولى عرش مصر من الفاطميين ؛ وقد أمدنا في ديوانه وكتابه المسمى "النكت العصرية" بفوائد عظيمة عن هذين الخليفين والوزراء ، وغيرهم من علية القوم الذين رتع عمارة في بحبوحة كرمهم وفسيح عطفهم . فقد أتحفنا بمعلومات صحيحة عن الدور الذي لعبه الشعراء في نشر تعاليم الفاطميين ومعتقداتهم ، وكذلك عن سقوط الدولة الفاطمية^(٢) .

أما أسامة بن منقذ فكان من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم ، وله تصانيف عدة في فنون الأدب . رحل عن بغداد كمعظم شعراء عصره يريد مصر ، فأقام فيها مؤمرا الى أيام الوزير الصالح بن رزّيك سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، ثم عاد إلى الشام . وأخبار أسامة جليلة الخطر ، لأنه شاهد بنفسه حال مصر في زمنه ، وما وقع فيها من حوادث . نخص منها بالذكر المعركة التي دارت بين جند الخليفة الفاطمي وأنصار الوزير رضوان سنة ٥٤٢ هـ ، والموقعة التي دارت رحاها بين أتباع الوزيرين ابن السلار وابن مّصال سنة ٥٤٤ هـ ، والموقعة الفاصلة بين أتباع هذين الوزيرين في السنة نفسها . كذلك قتل الوزير ابن السلار سنة ٥٤٨ هـ ، والخليفة الحافظ واخوته وبني عمه سنة ٥٤٩ هـ ، والثورة التي أثارها الأهليون على قتلة الخليفة وبعض أهل بيته : وهما الوزير عباس وابنه نصر اللذان لقيا حتفهما بعد ذلك بقليل — كل هذه المعلومات العظيمة خاصة بما يتعلق بسقوط الخلافة الفاطمية وأسبابه^(٣) .

(١) يمكن الرجوع الى كتاب "ارشاد الأديب" لياقوت (ج ٥ ص ٤٢٢ و ٤٢٣) لمعرفة حياة ابن منجب .

(٢) أنظر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٧٥ و ٤٧٧) .

Derenbourg, tome. II. Notices en Arabe par 'Oumâra et sur 'Oumâra (Paris, 1909).

(٣) أنظر إرشاد الأديب لياقوت (ج ٢ ص ١٧٣ و ١٧٦) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٧٨ و ٨٠) .

Derenbourg, Anthologie des textes arabes, inédits par Ousîma et sur Ousîma (Paris, 1893).

٢ - عصر الأيوبيين

أما عن المؤلفات التي كتبت في عصر الأيوبيين ٥٦٧-٦٤٨ هـ (١١٧١-١٢٥٠ م) ، فينبغي ان نذكر من بينها ما كتبه عماد الدين الأصفهاني^(١) المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) ، وأبو الفرج ابن الجوزي^(٢) المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠-١٢٠١ م) ، وياقوت الحموي^(٣) المتوفى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) ، وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) ، وابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) ، والقفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٧ م) ؛ وبكتابه شذرات متفرقة عن الخلفاء الفاطميين ربما لا توجد في كتب أخرى ؛ وقد أودع هذه الشذرات ثانيا السطور عند كلامه على الأطباء والحكماء والمتجملين والمهندسين .

ومن الكتب التي كتبت في هذا العصر أيضا "معجم البلدان" و "إرشاد الأديب" و "مرامد الاطلاع"^(٤) لياقوت ، و "تاريخ مصر" لعبد اللطيف البغدادي ، وكتاب "الكامل في التاريخ" لابن الأثير .

وقد اعتمدت أيضا عند بحث موضوع سقوط الدولة الفاطمية على كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" لابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) ؛ وهو بوجه عام أدق وأنفس ما كتب عن تاريخ حياة صلاح الدين . وقد بنى ابن خلكان الذي سئحت له الفرصة بلقاء ابن شداد الذي كان قد طعن في السن ، سيرة هذا الرجل على المعلومات التي استمدها من ابن شداد . ومن هذا نعلم أنه اتصل بخدمة صلاح الدين ؛ فكان قاضي العسكر ، ثم تقلد الوزارة وقضاء القضاة معا في عهد الملك الظاهر بن صلاح الدين حين تقلد ولاية حلب^(٥) .

(١) انظر ارشاد الأديب لياقوت (ج ٧ ص ٨١ - ٩٠) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٩٧ - ١٠٠) .

Wüstenfeld (Gesch. der Arab. No. 284).

(٢) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٥٠ - ٣٥١) . Wüstenfeld (Gesch. der Arab. No. 340).

(٣) "اغريق المولد" أمر صغيرا وبيع لأحد تجار بغداد ، فقام مولاه بتعليمه وبعث به في تجارته الى الخليج الفارسي

وغيره ؛ وجرت بينه وبين مولاه ثبوة أوجب عتقه ، فاش من بيع الكتب ونسخها .

"A Greek by birth; he was enslaved in his childhood and sold to a merchant of Baghdad. His master gave him a good education and frequently sent him on trading expeditions to the Persian Gulf and elsewhere. After being enfranchised in consequence of a quarrel with the benefactor, he supported himself by copying and selling manuscripts." (Prof. Nicholson, Literary History of the Arabs, p. 357).

انظر ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٧٧) ، وراجع حاجي خليفة : كشف الظنون ٤٧٢ و ١٢٦٧ و ٢٥٤٧ و ١٠١١٨

١١٣١٥ و ١٢٣٧٣ و ١٢٧٤٠ لمرة تصانيف ياقوت .

(٤) اختصر عبد المؤمن بن عبد الحق المتوفى سنة ٧٣٩ هـ (١٣٣٨ م) كتاب "معجم البلدان" لياقوت .

(٥) ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٦٦ - ٤٧٥) .

٣ - عصر المالِك

أما كتب الأدب التي دَوِّنت في عصر المالِك ٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ (١٢٥٠ - ١٥١٧ م) فإنها تمدنا بمعلومات نفيسة عن الفاطميين ؛ نخص بالذكر منها ما كتبه حسام الدين المحلى المتوفى سنة ٦٥٣ هـ (١٢٥٤ م) ، في كتابه "الحدائق الوردية" ، وهو مخطوط في المتحف البريطاني (القسم الشرقى رقم ٣٧٨٦) . ويتناول الكلام بوجه خاص على "الأئمة الزيدية" ، ولكنه يذكر أخبارا عن تاريخ الشيعة بوجه عام ؛ وما كتبه أيضا سبط بن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٧ م)^(١) ، في كتابه "مرآة الزمان" . وقد اطلعت مما كتبه على مخطوطين رقم ١٥٠٥ و ١٥٠٦ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ومخطوط رقم ٥٥١ بالمكتبة الملكية بالقاهرة ، ومخطوط رقم ٣٧٠ (القسم الشرقى مجموعة بوكوك (Pocock, Or. Bodleian) بأكسفورد .

وكتاب "الروضتين في أخبار الدولتين" (أو تاريخ عهد نور الدين وصلاح الدين) لأبي شامة^(٢) المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) ، مع أنه يبعد كل البعد عن أن يكون مصدرا أصليا لتاريخ العالم الاسلامي مدة ثمان وأربعين سنة (أى منذ وفاة الأتابك زنكى سنة ٥٤١ هـ الى أواخر سنة ٥٨٩ هـ) ، فإنه مجموعة تعد سفرا مطولا ، استقى من الوثائق الرسمية الموجودة في الكتب التي ألفها القاضي الفاضل المتوفى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) وعماد الدين الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) ؛ فقد تقلد كل منهما منصب الوزارة في عهد صلاح الدين - كما أخذ أيضا عما كتبه غيرهما من الكتاب المعاصرين ، من أمثال يحيى بن أبي طى^(٣) المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ - ١٢٣٣ م) ، وابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) ، إذ يظهر غالبا في كل صحيفة من كتاب أبي شامة ما أورده كل منهما من حقائق تاريخية .

وقد تقلد القاضي الفاضل منصب الوزارة في عهد صلاح الدين وولديه من بعده ؛ وتاريخه شائق ممتع في سلامة الأسلوب ووضوحه^(٤) .

(١) نقل حاجي خليفة عند كلامه على ابن الجوزي (رقم ١١٧٢٦) عن الذهبي ، أن أخبار ابن الجوزي لا يمكن الاعتماد عليها لتحيزه الى الشيعة ؛ وهذا يحلنا على القول بأن الذهبي طعن في معلومات ابن الجوزي ، لأنه كان من غلاة السنة .

(٢) الكنى (ج ١ ص ٣٢٢ - ٣٢٦) ، حاجي خليفة ٥٤٦ و ٢٢١٨ و ١٠٧٥٣ وانظر .

Wüstenfeld, Gesch. der Arab. No. 439.

(٣) كتاب ابن أبي طى هذا يسمى "كثرة الموحدين في سيرة صلاح الدين" . انظر الحاشية التي كتبها ابن أبي طى في الباب التاسع من هذا الكتاب (ص ٢٩٩) .

(٤) Recueil des Histoires des Croisades, Historiens orientaux, tome IV. p. 14

وقد استقى أبو شامة تاريخه من كتابي "الفتح القدسي" و"البرق الشامي" (١) لعلماد الدين الأصفهاني . وقد اختفت معالم الحقائق التاريخية تحت بروق ما فيه من الاستعارات والتشبيهات ، وما يشير اليه ضمنا مما وقع من الحوادث أيام الجاهلية ؛ حتى اذا ما أخذ أبو شامة عن هذا الكتاب وفطن الى ما فيه من نقص وعيوب ، حذف تلك العبارات المجازية التي جعلت أسلوبه محاطا بالغموض والابهام ، وسهل بذلك ما في هذا الكتاب من حقائق تاريخية .

ومن أمهات الكتب التي يرجع تدوينها الى العصر الذي نحن بصدد الكلام عليه كتاب "طبقات الأطباء" (٢) لابن أبي أصيبعة (٣) المتوفى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) ، وكتاب "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لعبد الواحد المزركشي (٤) المتوفى سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١-١٢٧٠ م) ، و"كتاب أنوار اليقين" لشرف الدين الهدوي المتوفى سنة ٦٧٠ هـ (١٢٧١-١٢٧٢ م) مكتبة المتحف البريطاني ، القسم الشرقي ، مخطوط ٣٨٦٨ (ويتناول الكلام على أئمة الزيدية ، وقد كتبه صاحبه انتصارا لعلي وأولاده وتأييدا لدعواهم في الامامة) وكتاب "المغرب في حلى المغرب" لابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٥ م) (٥) .

وكتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨١ م) لا غنى عنه لطلاب التاريخ الاسلامي . أما ما يتعلق بأواخر الفاطميين وانحلال دولتهم ، وقيام الدولة الأيوبية ، فان ما كتبه ابن خلكان في تراجم صلاح الدين الأيوبي وأسد الدين شيركوه والعاقد الفاطمي من

(١) توجد نبذة عن الحوادث التاريخية التي وقعت بالشام بين سنتي ٥٧٨ و ٥٨٠ هـ (١١٨٢ - ١١٨٤ م) في مكتبة بودليان بإكسفورد .

(٢) يبحث هذا الكتاب عن الحكماء الذين كانوا بأفريقية ومصر ، ويتكلم استطرادا عما يتعلق بالفاطميين .

(٣) حاجي خليفة رقم ٧٨٨٣ و ٨٤٦٠ (Wüstenfeld (Gesch. der Arab. No. 360)

(٤) لا نعرف شيئا عن حياة عبد الواحد بن علي المراكشي من أهالي بلنسية ، إلا ما ذكره هو عن نفسه في سياق كتابه من أنه ولد بمراكش سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، ثم طاش بعد ذلك في الأندلس ومصر . على أن السنة التي توفي فيها ، والمكان الذي وقعت فيه هذه الوفاة ، أمران يجبهلها التاريخ . هذا ، وقد كتب المراكشي كتابه عن تاريخ "الموحدين" ، وهو ما يسمى "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" في سنة ٦٢١ هـ ؛ وما قبله لنا المرقى في فتح الطيب (ج ١ ص ٥٥٠) عن المراكشي حادثة وقعت في سنة ٦٦٩ هـ ، فلا بد أن تكون وفاته في هذه السنة أو بعدها . انظر لفظ عبد الواحد المراكشي في دائرة المعارف الاسلامية .

(٥) الكشي : فوات الوفيات (ج ٢ ص ١١٢)

ذكر السيوطي : حسن المحاضرة ، طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (ج ١ ص ٣٢٠) أن وفاته كانت في سنة ٦٨٥ هـ

أحسن ما كتب في هذا الصدد . وكتاب "مُفَرِّجُ الْكَرُوبِ فِي أَخْبَارِ بَنِي أَيُّوبَ" لابن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧-١٢٩٨ م) مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٧٠٢ ؛ وقد أمدنى بحقائق تاريخية جديدة ، وعلى الأخص في البحث الذي أفردته للأعمال الدينية والسياسية التي قام بها الفاطميون في القصر ، مركز حركة الشيعة .

هذا ، وغيره ما لغير ما ذكرنا من الكتب من جليل الفائدة لهذا البحث ، مثل تاريخ أبي الفدا صاحب حماء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) ، و "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري المتوفى سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٢ م) ، وهو دائرة معارف جليظة (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٥٧٦) ، ويطبع الآن بدار الكتب الملكية بالقاهرة ، و "تاريخ الإسلام" للذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٨ م) ، و "وفات الوفيات" لابن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣-١٣٦٢ م) ، وهو مجموعة تراجم بمثابة تكملة لكتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان ، وكتاب "المقدمة" لابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٤-١٤٠٥ م) ، وتاريخه المسمى "العبر وديوان المبتدا والخبر" ، وكتاب "الانتصار لواسطة عقد الأمصار" ^(١) لابن دقاق ^(٢) المتوفى سنة ٨٠٩ هـ (١٤٠٦-١٤٠٧ م) ^(٣) .

أما عن الذهبي ، فقد اطلعت من بين مؤلفاته على ثلاثة مخطوطات :

(١) مخطوط ١٥٥١ بالمكتبة الأهلية بباريس ؛ ويتناول الكلام عن المسدة التي تنحصر بين سنتي ٣٠١ و ٤٠٠ هـ (٩١٣-١٠٠٩ م) .

(ب) مخطوط ٤٢ (تاريخ) بالمكتبة الملكية بالقاهرة ؛ يحتوي على معلومات هامة عن الفاطميين في مصر .

(ج) مخطوط (Laud. Or. 304) بمكتبة بدليان (Bodleian) بكسفورد ؛ وقد أمدنى بحقائق تاريخية جديدة عن الخلافة الفاطمية في العصر الأخير ، وعلى الأخص ما يتعلق بمجموعة الهدايا التي قدمها صلاح الدين لنور الدين ، والتي ترسم لنا صورة عن مبلغ ثروة الفاطميين في عهد انحلال دولتهم .

(١) ظهر الجزء الرابع والخامس من مجموع أجزاء هذا الكتاب العشرة ، وهما يتضمنان معلومات خاصة لطبوغرافية مصر والاسكندرية لم يذكرها المقرئ في خطه .

(٢) هذا اللفظ بالتركية طُفَّاق . انظر حاجي خليفة رقم ٢٠٨٩ ، Wüstenfeld (Gesch. der Arab. No. 457)

(٣) ذكر السيوطي : (حسن المحاضرة ، طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (ج ١ ص ٣٢٠ و ٣٢١)) أن ابن دقاق مات سنة ٨٧٩ هـ ، وله من العمر ثمانون سنة . وذكر حاجي خليفة (١٣١٦ و ٢٠٨٩ و ٢٨٩٧) نفس هذه السنة ، ولكنه ذكر في مكان آخر (٢٣١٢ و ١٣٦٧٦) أنه توفي سنة ٨٠٩ هـ

ومن أهم المصادر وأمتعتها في هذا البحث كتاب "صُبْح الأعشى في صناعة الإنشاء" لأبي العباس أحمد الفلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) . وفي هذا السفر الطويل ، وخاصة الجزء الثالث ، كلام مسهب عن الفاطميين ، ومواسمهم وأعيادهم ، ومراسمهم وعاداتهم ، ومذهبهم ونظم الحكم عندهم . وفضلا عن أن الفلقشندى قد أخذ معلومات عن مصادر عاش مؤلفوها في عهد الفاطميين أنفسهم ، مما جعل لها قيمة كبيرة من هذه الناحية بحيث تصور لنا مبلغ الثروة والرخاء في مصر الفاطمية وما أحاط الخلفاء من أبهة وجلال ، فإن أسلوبه يتنازل بشيء كثير من الوضوح والدقة والاتقان .

وربما كان تقي الدين المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) أهم من ذكرنا من المؤرخين ؛ لأنه فضلا عن كونه من أحفاد الفاطميين ، مما حدا به إلى الاهتمام العظيم بتاريخهم وأسابهم وكل ما يتعلق بأحوالهم ، فإنه قد وقف نفسه على تاريخ مصر "وطبوغرافيتها" ، وكتب فيه سلسلة من الكتب الفريدة ؛ وأكثرها نفعا كتابه المسمى "الخطط" (١)

ويجب ألا يغيب عن بالنا من كتب المقرئ كتاب "اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفاء" ؛ وهو مصدر جليل الفائدة في تاريخ أوائل الفاطميين إلى وفاة المعز (٢) . والنسخة الفذة الموجودة من هذا الكتاب بخط المقرئ نفسه ؛ غير أنه مما يؤسف له أن هذا الجزء ليس إلا جزءا يسيرا من الكتاب الأصلي . وكتاب "المقفى" سفر طويل للتراجم (٣) وله أهمية عظيمة . وهناك أجزاء منه في مختلف دور الكتب ؛ وقد سنحت لي الفرصة للاطلاع على أحد مجلدات هذا السفر (مخطوط ٢١٤٤) بالمكتبة الأهلية بباريس ؛ وهو الجزء الذي اعتمد عليه كترمير (Quatremère) (٤) في البحث الذي كتبه عن أصل الفاطميين ، كما اطلعت أيضا على غير هذا من المخطوطات في مكتبة الجامعة بليدن . ونضيف إلى ما ذكرنا من كتب المقرئ كتاب "السلوك في معرفة دول الملوك" ، وهو مخطوط موجود بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٠٦٩ ؛ ترجمه إلى الفرنسية كترمير (Quatremère) ،

(١) ذكر حاجي خليفة (٢٣١١ و ٢٣١٢) جميع الكتب التي ألقت عن تاريخ مصر وخطها .

(٢) بحث الكتاب الأصلي في تاريخ العصر الفاطمي بأكمله . على أنه لم يظهر منه إلا هذا الجزء ؛ أما الأجزاء الأخرى فيظهر أنه قد عثت بها يد الدهر .

(٣) مات المقرئ قبل أن يكمل كتابه هذا .

(٤) Journal Asiatique, Août, 1836

وذيله بمذكرات " فيلولوجية " وتاريخية وجغرافية . وهو مما لا يستغنى عنه طلاب البحث في عصر
الممالك خاصة (١) .

وكتاب " الإصابة في تمييز الصحابة " لابن حجر المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) ، وكتاب "رفع
الإصر عن قضاة مصر" — وهو مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٢١١٥ — لها أهمية عظيمة
في هذا البحث . والكتاب الأخير أخذ أكثره من مصدرين متقدمين : هما كتاب "القضاة والولاة"
لأبي عمر الكندي ، و "تاريخ قضاة مصر" لابن زولاقي . أما كتاب "رفع الإصر" الذي أدرج بعضه
في كتاب "القضاة والولاة" للكندي (Gibb Memorial Series, Vol. XIX) ، فقد أعانني على
معالجة أحد مواضيع هذا البحث وهو "إسناد المناصب الى المتشيعين خاصة" (٢)

هذا ، وليس "كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" (٣) لأبي المحاسن المتوفى
سنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩ م) ، وكتاب "حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة" للسيوطي المتوفى
سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) ، و "نفع الطيب" للقرى المتوفى سنة ١٠٤١ هـ (١٦٣٣ م) بأقل نفعا
مما ذكرنا من المصادر .

وغير هذا وذاك من المصادر التي أشرنا إليها كتاب "بدائع الزهور" لابن إياس المتوفى
سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣ — ١٥٢٤ م) ، وهو أحد تلاميذ جلال الدين السيوطي . ويظهر أنه نقل تاريخ
أستاذه ، غير أنه كان عديم الحرص في بحثه للمصادر المتقدمة مما أوقعه في الخطأ في غير موضع .

(١) ذكر السيوطي : (في حسن المحاضرة) ، طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (ج ١ ص ٢٢١) ، وحاجي خليفة (٢٢١٢ و ٢٢٢) ٢٣١٢
وه ٧٣٤ و ٥٣٤ و ١١٤ (الخ) مؤلفات القرظي .

(٢) سيأتي الكلام على هذا الموضوع في الباب الخامس من هذا الكتاب .

(٣) بالرغم من أن أبا المحاسن جاء متأخرا فان كتابه هذا من أمتع الكتب وأقربها . ولا غرو فقد جمع في كتابه
كل ما وصل الى يده من المصادر التي تشتمل على معلومات خاصة بالقاطنين مما لا توجد في كتاب أصلا . وعدا هذا فان كتابه
في الترتيب والنظام من أحسن ما كتب في التاريخ .

الباب الأول

حركة الشيعة إلى قيام الدولة الفاطمية

١ - الدعوة الشيعية في عهد الخلفاء الراشدين

لما كان من غرضنا الالمبام بتاريخ مذهب الشيعة ، وجب علينا هنا أن نتبع أصل هذه الطائفة التي كان يطلق عليها منذ الصدر الأول للاسلام اسم الشيعة ، أو العلويين ، أو أهل البيت ، وأن نقف على ما قامت به هذه الطائفة في سبيل نشر دعوتها إلى أن تأسس سلطانهم في القيروان .

والعلويون — كما نعلم — هم أولاد عليّ من فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم . وقد اعتقد أنصار الشيعة أنهم وحدهم أهل للخلافة ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان ، وكذا الخلفاء من بني أمية وبني العباس ، قد اترعوا حق الإمامة المقدس من عليّ . وقد صنف العلماء المتشيعون من المؤرخين الأسفار الطوال في تأييد هذه المقالة ، وذهب بهم الاعتقاد إلى القول بأن الخلافة سلخت من بيت عليّ ، أو بعبارة أخرى اغتصبت من بيت النبي .

ولم يقف الحال عند هذا الحد ؛ فقد اشتط الغلاة من الشيعة فقالوا إن الإمامة في بيت عليّ ، وإن الأئمة معصومون ، وإن صفات الله سبحانه قد حلت فيهم وتقمصت أجسامهم ، وإن من قال بغير ذلك من الفرق الإسلامية — حتى بعض فرق الشيعة منهم — خارجون على الدين . ودلّوا على صحة هذا القول بأن عليا كان أول من اعتنق الاسلام من الرجال ، وأن ما قام به في سبيل رفع منار هذا الدين لا يستطيع أن يبيذه فيه أحد من المسلمين بعد النبي . ولقد أسند هؤلاء الغلاة من الشيعة إلى النبي أحاديث تشهد بما لآل عليّ من حرمة ، وبما لعلّي من حق في الإمامة بعد الرسول عليه السلام .

على أن هذه الأحاديث التي وصلت إلينا كانت — على ما هو مشهور — موضع جدل عنيف بين فقهاء المسلمين والمحدثين ونقدة الحديث . وقد جمع البخاري — على ما نعلم — نحو ستة آلاف حديث ،

اختارها — على ما قيل — من ستمائة ألف . ومع ذلك فإن الإمام أبا حنيفة لم يثق إلا بستة عشر منها . ومن هنا يتبين لنا ما وصل إليه اختلاق الأحاديث في هذا الموضوع . فما هو السبب إذا ؟

ذلك أنه عند وفاة النبي عليه السلام ، لم يكن السواد الأعظم من العرب يعرف القراءة ؛ فلم يدون تاريخ هذه الأمة إلا بعد زمن غير قصير . ولقد تناول العرب الحوادث التاريخية المشهورة والأحاديث النبوية بعضهم عن بعض ؛ فتأثرت هذه الحوادث بشيء غير قليل من التبديل والتحريف ، مما أدى بها إلى الغموض والإبهام في معانيها والأحوال التي أحاطت بوقوعها .

حتى إذا ماجاء القرن الثاني للهجرة ، أخذ العرب يبحثون تاريخهم ؛ ولم يكن أكثره إلا شذرات مبهمّة وحوادث متفرقة أو مدونة بطريقة تتشبه مع ميول الفرق الدينية المختلفة ، وقد آلى كل منها إلا إكبار أنصار مذهبه ولعن أعدائه ، مستندا إلى ما عززونه إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

فمن ذلك ما عُزِيَ إلى النبي أنه قال : ”أهل بيتي كسفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن عدل عنها غرق“^(١) . وقوله أيضا : ”من مات على حب آل محمد مات شهيدا ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الإيمان ؛ ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا ، ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة“^(٢) . فهذان حديثان لا شك مطلقا في أن الشيعة قد اخترعوهما بعد موت النبي ، تأييدا لعقيدتهم التي كان مبناها مملاة على وخلفائه من بعده .

ونحن نعلم أن النبي قد ترك مسألة الخلافة من غير أن يبت في أمرها . ولسنا نجعل أيضا أن النبي في مرضه الأخير ندب أبا بكر ليصلي بالناس بدلا منه^(٣) ، وأن السبق والإخلاص للدين صفتان بارزتان قد عرفهما النبي لأبي بكر ؛ وقد أشربت نفس الرسول حب هذه الروح الديمقراطية التي سادت لدى العرب منذ أيام الجاهلية . فرأى عليه السلام أن يترك الأمر شورى للعرب ليختاروا من أحبوا .

(١) أورد هذا الحديث أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن اسماعيل ابن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب عند استيلائه على صنعاء في الثالث من رمضان سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٥ م) : مكتبة المتحف البريطاني ، مخطوط ٣٧٨٦ ، ورقة ١٠٠ ب .

(٢) حسام الدين المحلى ، مكتبة المتحف البريطاني ، مخطوط ٣٧٧٢ ، القسم الشرقى ، ورقة ٢٨٠ ب .

(٣) سيرة ابن هشام طبعة وستفالد (ج ٢ ص ١٠٠٨ — ١٠٠٩) .

على أن إنبابة النبي أبا بكر للصلاة ، جلى فى أن النبي كان بعيدا كل البعد عن التحيز والميل لذوى قريابه ، عاملا على تأييد قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة)^(١) ، وعلى ما أشرعته من قوله عليه السلام ” لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى “ .

وخلاصة القول إن مسألة الخلافة قد تركت بدون أن يُنت في أمرها . فكان من جراء ذلك أن حل الانقسام بين المسلمين فى أول نشأة الاسلام ، ذلك الانقسام الذى انفرست جذوره فى اليوم الذى انتقل فيه الرسول الى جوار ربه .

ومع أن استخلاف أبى بكر قد تم بطريقة ديمقراطية ، على ما كان مألوفاً لدى قبائل العرب فى الجاهلية (Patriarchal State) : ذلك النظام الذى يقضى بأن تكون السن والفضائل أساسا لاختيار شيخ القبيلة ، فات امتناع كثيرين من علية العرب ، كالعباس عم النبي ، وطلحة والزبير ، وهم من السابقين الى الاسلام^(٢) الذين اتحدوا مع علي بن أبى طالب ، ثم ما كان أيضا من عدم إجابة فاطمة الى ما طالبت به من استيلائها على ميراث أبيها^(٣) — كل هذه الأمور آذنت بانقسام الأمة العربية الى سنيين وشيعيين .

ولقد أشار أبو بكر الخوارزمى (+ ٣٨٣ هـ ٩٩٣ م) الكاتب المشهور والشيعى المتحمس لهذا المذهب الى هذا الانقسام فى إحدى رسائله (ص ١٣٠ — ١٣٩) ، وقد بعث بها الى أهل نيسابور حين جار عليهم عاملها محمد بن ابراهيم وأوقع بهم لاعتناقهم مذهب الشيعة . فأتى لنا فى هذه الرسالة بوصف يثير النفوس لهذه الأعمال التى أوقع لأجلها أهل السنة بالشيعية منذ وفاة النبي عليه السلام^(٤) .

على أن هذا الشعور العدائى نحو علي قد وُجد — على ما ذكره كاتب آخر من الكتاب الذين سبقوا الخوارزمى ، وهو يحيى بن الحسين الزيدى (+ ٣٦٠ هـ ٩٧١ م) — حتى فى حياة النبي . فقد عزى اليه صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلي بن أبى طالب : ” أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدى ؟ “ . ولهذا الحديث علاقة برحيل النبي الى تبوك^(٥) ،

(١) القرآن الكريم سورة ٤٩ آية ١٠ .

(٢) ابن هشام (ج ٢ ص ١٠١٣) .

(٣) شرحه — يشير الخوارزمى (ص ١٣٠) الى ذلك فى إحدى رسائله .

(٤) رسائل الخوارزمى (ص ١٣٠ و ١٣١ و ١٣٤) .

(٥) أظرفظ تبوك فى معجم البلدان لياقوت .

الواقعة على بعد اثني عشر فرسخا من المدينة . وقد استخلف عليا على المدينة ؛ فثقل ذلك على أهلها ؛ فنبع على النبي وشكا إليه ، واعتذر عن العودة الى المدينة ؛ فقال له النبي : ” ارجع يا أحنى الى مكانك ، فان المدينة لا تصلح إلا بك ، فانت خليفتي في أهل ودار هجرتي (يعني المدينة) وقومي ؛ أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي ؟“ (١)

ولو أراد عليه السلام أن يستخلف عليا ، فإنه لم يكن يرى من الصواب ذلك ، لمنافاته لروح العرب الديمقراطية .

وبينا الخوارزمي يوجه حملاته ضد أعمال العنف الذي حل بأهل مذهبه ، نرى كاتبا سنيا معاصرا ، وهو بديع الزمان الهمداني صاحب المقامات والرسائل المشهورة (+ ٣٩٨ هـ ١٠٠٧ - ١٠٠٨ م) ، يتلمس المعاذير لما أتاه العمال السنيون الذين قضت سياستهم بالقضاء على ما يعبرون عنه بخروج أهل الشيعة على الدين (٢) .

هذا ، وقد تمت بيعة أبي بكر رغم هذا الخلاف العنيف الذي احتدم بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة في المدينة في أمر الخلافة . بيد أن هذه السياسة الرشيدة التي نهجها أبو بكر وعمر ، قد ساعدت على كبح جماح الأمة العربية .

ثم جاءت بعد ذلك سياسة عثمان ، في تفضيل أقاربه ومن بينهم وبينه صلة ؛ فأصبحت هذه السياسة مثارا للسخط في جميع الولايات الاسلامية ، وأتاحت لأنصار علي فرصة لتحويل الخلافة الى أهل البيت .

ولقد أذكي نيران هذه الثورة صحابي قديم ، اشتهر بأنه أول من حيا النبي بتحية الاسلام (٣) ، وبأنه رابع (أو خامس على رواية أخرى للطبري) من اعتنق هذا الدين (٤) ، واشتهر بالورع والتقوى ، وكان من كبار أئمة الحديث (٥) ، وهو أبو ذر الغفاري .

(١) يحيى بن الحسين ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٦٤٧ ورقة ٥٥ (أ) و(ب) .

(٢) رسائل بديع الزمان الهمداني (ص ٤٢١ - ٤٢٧)

(٣) صحيح مسلم (ج ٧ ص ١٥٤)

(٤) الطبري (١ : ١١٦٨) وأسد الغابة لابن الأثير (ج ٥ ص ١٨٦) .

(٥) الطبري (١ : ٢٨٥٩)

تحدى أبو ذر سياسة عثمان ومعاوية عامله على الشام ، بتحريض رجل من أهل صنعاء ، هو عبد الله بن سبأ (ويسمى أيضا ابن السوداء) . وقد روى لنا الطبرى أن ابن سبأ هذا كان يهوديا فأسلم في السنة السابعة من خلافة عثمان : أى سنة ٢٩ أو ٣٠ هـ . وسرعان ما ظهر ابن سبأ بعد إسلامه في ثوب الغيور على الدين ، مما أدخل الشك على المؤرخين ، ولا سيما العرب منهم ، وجعلهم يعتقدون أنه إنما اعتنق الاسلام ليضل المسلمين ويكيد للاسلام ، وأنه كان أقوى العوامل لإثارة الناس على عثمان .

أخذ ابن سبأ بعد اسلامه ينتقل في البلاد الاسلامية ؛ فبدأ بالحجاز ، ثم بالبصرة ، فالكوفة ، ومنها الى الشام ، فمصر . ولما وفد على الشام لى أبا ذر ؛ فوجد فيه الرجل الذى يشده ، لما فيه من الغيرة وطيب القلب . فغاضه من ناحية الدين ، وشكا اليه من معاوية وما أتاه . في سياسته ، وقال ” يا أبا ذر ! ألا تعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجبه ^(١) دون المسلمين ، ويحواسم المسلمين ^(٢) (من ديوان العطاء) ؟ ”

لهذا لا نعجب اذا رأينا أبا ذر يشمر عن ساعد الجسد في إعلان استيائه من سياسة معاوية ، ووجدناه يحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء وعلى الاقلاع عن ادخار أموالهم وكثرها ، محتجا بقوله تعالى (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ؛ هذا ما كترتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون) . وكذلك لا نعجب اذا ألفينا الفقراء يلتفون حوله ويسيثون الى الأغنياء ، مما أوجب شكايتهن الى معاوية ليرفع الأمر الى عثمان . وقد أيقن الخليفة أن الفتنة قد أخرجت خَطْمها ^(٣) وعينها .

بعث عثمان في طلب أبي ذر ؛ وقد آلى على نفسه أن يواصل حملاته على هذه السياسة . فلما دخل المدينة ووجد المجتمعات تعقد بها للتأمر على عثمان ، نادى في المجتمعين : ” بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكارة ” . وكان أبا ذر تنبأ بتلك الثورة التى ذهب عثمان ضحيتها ^(٤) .

(١) احتجن المال أى ضمه واحواه .

(٢) الطبرى (١ : ٢٨٥٩)

(٣) والخطم معناه مقدم الأنف والقلم من الدابة ، والمراد هنا بدأت أوائل الفتنة .

(٤) الطبرى (١ : ٢٨٥٩)

وقد أذن عثمان لأبي ذر بالاقامة في الرَبْدَة ، وهي قرية صغيرة على مقربة من المدينة — أو نفاه إليها على ما ذهب إليه ابن هشام ^(١) والخوارزمي ^(٢) — ولكنه واصل حملاته العنيفة على سياسة عثمان إلى أن مات وهو كاره لها سنة ٣١ هـ .

هذا ، ولقد وجد ابن سبأ — وهو أول من حرض الناس على كره عثمان على ما تقدم — الطريق ممهدة أمامه لإسقاط عثمان . ولسنا نشك في حسن نية أبي ذر ، وما كان من أمر استيائه من عثمان ومن سياسته . ولكنا نرى أن مصدر استيائه الرغبة في التمسك بالدين وأحكامه ، بخلاف ما كان عليه ابن سبأ . ولقد أصاب المؤرخ الهولاندي فان فلوطن (Van Vloten) ^(٣) حيث يقول : ” إن هذه الطوائف التي نشأت بين العرب في الولايات التي فتحوها ، وعلى الأخص في البصرة والكوفة ومصر ، كانت منطوية في بادئ الأمر على غرض سياسي محض ، رغم ظهورها بهذا المظهر الديني “ .

“ces factions nées parmi les Arabes dans les pays conquis, poursuivent d'abord un but, purement politique, quoique sous une apparence religieuse”.

لم يلق ابن سبأ من أهل الشام أذنا صاغية ، اللهم الا من أبي ذر . ولقد قيل إن عبادة بن الصامت — وهو من أكابر الصحابة ، ومن شهد فتح مصر ، ومن ذوى الرأي والجاه في دمشق — ساق ابن سبأ إلى معاوية وقال له : ” هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر “ ^(٤) .

وإن الاهتداء لرأى قاطع في هذه المسألة ، وهي ما إذا كان أبو ذر أو ابن سبأ هو المؤسس الحقيقي للمذهب الشيعة في الاسلام ، ليس من الأمور السهلة ؛ لأن هذا الموضوع لم يزل موضع جدل عنيف بين المؤرخين . على أنه وإن استحال هنا معالجة هذه المسألة بوجه التفصيل ، فلا يمنعنا ذلك من أن نلبى بالرأى الذي نراه : وهو أن ابن سبأ هو أول من وضع عقائد مذهب الشيعة الغالية في الاسلام ، وأن أعمال أبي ذر لا تنطوى على محاولة ما لتحويل الخلافة إلى عليّ ، وإنما أدت إلى توطيد دعائم هذا المذهب الذي غرس بنوره ابن سبأ .

وقصارى القول ، أنه لم يكن لأبي ذر عمل في توطيد ذلك المذهب ؛ ولكن نفيه إلى الرَبْدَة قد اتخذ خصوم عثمان والشيعة من بعدهم تكأة للغيب في حق عثمان والتشهير به وبعاله .

(١) سيرة ابن هشام (٢ : ٩٧١)

(٢) رسائل الخوارزمي (ص ١٣١)

(٣) La Domination Arabe, le Chûtisme et les Croyances Messianiques, p. 34

(٤) الطبري (١ : ٢٨٥٩)

استيلاء الولايات الإسلامية :

لقد تولد الاستيلاء وفشا السخط في الولايات الإسلامية بعد أن ولي عثمان الخلافة ، لاشتطاط عماله في جمع الضرائب : ففي البصرة صادفت دعوة ابن سبأ مرعى خصيباً ؛ بيد أن عبد الله بن عامر وإلى عثمان طرده من هذه البلاد ، فرحل إلى الكوفة^(١) ، حيث تفاقم استيلاء الناس من عثمان ووالديه ، ومن قريش الذين استولوا على سوادهم واتخذوه بستاناً لهم ؛ وواصل الثأرون الاجتماعات في منازلهم ، ولعن عثمان على ملأ من الناس ، ولج هؤلاء فيما ارتكب من عظام الأمور^(٢) .

ثم طرد ابن سبأ من الكوفة أيضاً ، فقصده الشام — على ماتقدم — فلم يلق من أهلها ما لقي في البصرة والكوفة ؛ فرحل إلى مصر . وهنا أخذ ينشر دعوته التي ألبسها لباس الدين ؛ واتصل بالثأرين في البصرة والكوفة ، وتبادل معهم الكتب والرسائل^(٣) ؛ وبعث بالدعاة إلى هذه البلاد يدعون لعلّ واستطاع أن يؤثر في نفوس الناس ، فوضع مذهب الرجعة : أي رجعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال في ذلك : ” إني لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد ، وقد قال الله عز وجل : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد)^(٤) . وزاد ابن سبأ أن محمداً أحق بالرجوع من عيسى . ومن هنا نشأ في الإسلام مذهب تنازع الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر . ونشر ابن سبأ بعد ذلك مذهب الوصاية الذي أخذه عن اليهودية دينه القديم ، بمعنى أن علياً وصي محمد ، وأنه خاتم الأوصياء بعد محمد خاتم النبيين ، واتهم من نأوا عن علياً وتعدوا على حقه في الإمامة . كما أخذ عن الفرس — الذين كانوا يحتلون في صدر الإسلام بلاد اليمن موطنه الأصلي — نظرية الحق الإلهي ، بمعنى أن علياً هو الخليفة بعد النبي وأنه يستمد الحكم من الله . وبذلك هيا العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من علي وصي رسول الله . وبهذا أيضاً استطاع ابن سبأ أن يؤلب الناس على عثمان وعلى ولاته فقال لهم : ” إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدعوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر^(٥) .

(١) (الطبري ١ : ٢٩٢٢) ، يقول هذا المؤرخ : ان هذا كان بعد ولاية ابن عامر بثلاث سنين ، وأن توليته كانت سنة ٢٩ هـ (١ : ٢٨٢٨) . وعلى ذلك يكون إبعاد ابن سبأ في سنة ٣٢ هـ (١ : ٢٩٢٢)

(٢) الطبري (١ : ٢٩١٦) وما يتبعها من حوادث سنة ٣٢ هـ .

(٣) الطبري (١ : ٢٩٢٢)

(٤) سورة ٢٧ آية ٨٥

(٥) الطبري (١ : ٢٩٤٢)

هذا ، ولم يكن يصعب على ابن سبأ أن يقوم بتنفيذ سياسته في مصر ، حيث اشتد سخط الناس على عثمان وعلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح عامله على مصر ومن ذوى قريبه . ولقد ساعد على إذكاء نيران السخط في مصر عاملان قويان : هما محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر . ولا غرو فقد ساعد انضمامهما لهذه الحركة على نجاح ابن سبأ في سياسته .

أما السبب في انضمام محمد بن أبي بكر ، فهو ما كان من صلة النسب بينه وبين علي بن أبي طالب وابنه الحسين بن علي . فقد تزوج علي بأسماء بنت عميس أم محمد بن أبي بكر بعد وفاة أبيه ؛ فكان ابن أبي بكر ربيباً في بيت علي ؛ ولأن الحسين بن علي ومحمد بن أبي بكر كانا زوجي ابنتي يزيدجرد الثالث آخر ملوك بني ساسان من الفرس .

وأما مسلك ابن أبي حذيفة العدائي لعثمان ، فقد ظهر أثره فيما شجر بينه وبين ابن أبي سرح في غزوة السواري — أو ذات السواري — التي نشبت بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٣١ هـ (٦٥١ م) . وإنما سميت بهذا الاسم لكثرة سواري السفن التي اشتبكت في المعركة ، حتى قيل إنه اشترك فيها ألف سفينة ، منها مائتان للمسلمين . فقد اختلف معه في هذه الموقعة على التكبير في الصلاة حين صلى ابن أبي سرح العصر بالناس ؛ فرفع ابن أبي حذيفة صوته بالتكبير ، فنهاه ابن أبي سرح فلم ينته . ولما أقيمت صلاة المغرب رفع صوته بالتكبير ثانية ؛ فنهزه ابن أبي سرح وهم بطرده من جيشه . ومن ثم أخذ ابن أبي حذيفة في إثارة الناس على عثمان وعلي ولاته . ولما وضعت الحرب أوزارها ، رجع هو ومحمد بن أبي بكر إلى القسطنطينية ، وهنا انضموا إلى ابن سبأ^(١) .

ولقد أدلى لنا المقرئ بالمسبب الذي حدا بابن أبي حذيفة أن يسلك هذا المسلك العدائي نحو عثمان ، فقال إن ابن أبي حذيفة تربى في كنف عثمان بعد وفاة أبيه ؛ فلما ولي عثمان الخلافة ، طلب إليه أن يولي بعض أمور المسلمين ، فأبى ذلك عليه ، إذ نوى إليه أنه شرب الخمر^(٢) ، فقال له : ” لو كنت رضا لوليتك ، ولكنت لست هناك “ .

ولقد وافانا المقرئ^(٣) بشيء عن سيرة ابن أبي حذيفة في مصر ، ننقله للقارئ فيما يلي : ” انتبذ محمد بن أبي حذيفة في شوال سنة خمس وثلاثين على عقبة بن نافع خليفة ابن أبي سرح ، وأخرجه

(١) الطبري : طبعة مصر (ج ٥ ص ٧٠ — ٧١) .

(٢) المقفى الكبير للمقرئ ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الأول ، ورقة ٢٠٦ (أ) .

(٣) خطط (ج ٢ ص ٣٣٥) . وقد وردت هذه العبارة أيضاً بتصرف في كتاب المقفى الكبير الموجود بمكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الأول ، ورقة ٢٠٥ (ب) .

من الفسطاط ؛ ودعا إلى خلع عثمان من البلاد ، وأسعر البلاد . فكان يكتب الكتب على لسان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يأخذ الرواحل فيضمرها ، والرجال فيجعلهم على ظهور البيوت ، فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلويع المسافر ؛ ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة ومصر ، ثم يرسلون رسلا يخبرون الناس ليلقوهم ؛ وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا : ليس عندنا خبر ، الخبر في الكتب ، ثم يتلقاهم ابن أبي حذيفة فيقرأ عليهم كتب أزواج النبي .

وقد حاول عثمان أن يصلح بينه وبين ابن أبي حذيفة ؛ ولكن هذا آلى على نفسه أن يواصل سياسة العنف والشدة . وقد بعث إليه عثمان ثلاثين ألف درهم وكسوة ؛ فاتهز ابن أبي حذيفة وصول هدية عثمان فرصة سانحة ليظهر للناس أن هذه الحركة التي قام بها حركة دينية ، بعيدة البعد كله عن كل غرض دنيوى . فأظهر الهدية للناس في المسجد وقال : ” يامعشر المسلمين ! ألا ترون أن عثمان يخادعني عن ديني ويرشوني (يرشيني في الأصل) عليه ؟ ”

وكان لهذه الدعوة أغراض ومرام خبيثة ؛ فقد زادنا المقرئ أن أهل مصر ازدادوا تعظيما لابن أبي حذيفة وطعنا على عثمان ، وبايعوه على رياستهم .^(١)

ولا شك في أن الحالة في البصرة والكوفة ومصر أصبحت من الحرج ، بحيث لم تعد تدعو إلى شيء من الطمأنينة . ولهذا نذب عثمان أربعة من رجاله ليعثوا عن أسباب هذه القلاقل ويقفوا على حقيقة الحال في الولايات . فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وأسامة بن زيد إلى البصرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ؛ وهو أحد أصحاب رسول الله ، ومن السابقين إلى الاسلام ، ومن عرف لهم النبي صدق الايمان^(٢) .

عاد الذين نذبهم الخليفة إلا عمار بن ياسر ؛ فقد استماله الثأرون في مصر^(٣) . وساعد على ذلك ما كان من عثمان لعمار ، حيث أدبه لقذف حصل بينه وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب . وإن انضمام صحابي جليل كعمار ، يبين مبلغ السخط الذي أثارته سياسة الضعف واللين التي سار عليها عثمان بن عفان .

(١) المقفى الكبير للمقرئ ، لندن ، المجلد الأول ، ورقة ٢٠٦ (١) .

(٢) ذكر ابن حجر في كتابه ” الإصابة في تمييز الصحابة ” (ج ٤ ص ١٢٢٠) أن النبي قال : ” اقتدوا باللذين من

بعدي : أبي بكر وعمر ، واهتدوا بهدي عمار (بن ياسر) .

(٣) الطبري (١ : ٢٩٤٣ و ٢٩٤٤)

ولا شك في أن ابن سبأ قد حقق ما كان يرمى اليه من بذر بذور الاستياء والسخط نحو عثمان وولائه ، وكانوا من ذوى قرباه ، وأن دعوته قد آتت أكلها . وليس أدل على صحة هذا القول من انضمام كثيرين من أصحاب النفوذ والجاه إلى صفوفه ، من أمثال محمد بن أبي حذيفة ، ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر .

ولا غرو فقد قام ابن أبي حذيفة بتنفيذ الخطة التي رسمها ابن سبأ ؛ فكتب أهل مصر أشياعهم من أهل البصرة والكوفة ، واتفقوا على الشخوص إلى المدينة^(١) ؛ وهو ما يمكن تسميته بدور العمل . وخرج كل منهم في ستمائة رجل ، وتوافوا خارج المدينة ؛ وهنا اختلفوا فيمن يولونه الخلافة بعد عثمان . فقال أهل البصرة إلى طلحة ، وأهل الكوفة إلى الزبير ، ورغب أهل مصر وعلى رأسهم ابن سبأ إلى علي بن أبي طالب ؛ وعمل كل فريق على أن يتم الأمر له ولمن وقع اختياره عليه دون غيره^(٢) .

لم يمض زمن طويل حتى فاز المصريون أنصار ابن سبأ ؛ فقتل عثمان في الثامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ (٦٥٥ م) ، وتولى علي بن أبي طالب الخلافة (في الخامس والعشرين من هذا الشهر) . فكان ذلك أول فصول هذه المأساة ، وما أعقبها من تحزب المسلمين وانقسامهم إلى سنيين وشيعيين .

عقيدة ابن سبأ الشيعية وألوهية علي :

والآن نعود إلى الكلام على حياة ابن سبأ من حيث تطور عقيدته الشيعية في خلافة علي وبعدها :

ذكر ابن حزم أن قوما من أصحاب عبد الله بن سبأ أتوا عليا وقالوا له : « أنت هو ! » فقال لهم : « ومن هو ؟ » فقالوا : « أنت الله ! » فغضب علي وأظهر الجحد ، وأمر بنار فأوقدت ، وأمر مولاه قنبر بأن يلقي بهؤلاء الرجال فيها ؛ فجعلوا يقولون وهم يلقيون في النار : « الآن صح عندنا أنه الله ، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله » .

(١) الطبري (١ : ٢٩٥٠)

(٢) شرحه (١ : ٢٩٥٥)

وقد زادنا ابن حزم أن عليا أشار الى هذه الحادثة في هذا البيت :

لما رأيت الأمر أمرا منكرا أجت نارا ودعوت قنبرا^(١)

فكان من أثر هذا الغلو في العقائد الدينية أن أمر عليّ بابن سبأ فنفي إلى المدائن^(٢) . بيد أن هذا لم يكن ليثنى ابن سبأ عن مواصلة الدعوة لعليّ ، حتى إذا ما مات عليّ قالت الطائفة السبئية برجعته وتوقفه^(٣) ، أى انتظار رجوعه ، وبحلول الجزء الإلهي فيه . ولقد ذهبوا أيضا الى القول بأنه يجيء في السحاب ، وأن الرعد صوته والبرق سوطه (أو تبسمه أو نوره على ما ذهب البعض) ، وأنه سينزل بعد ذلك الى الأرض فيملؤها عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما^(٤)

٢ — الدعوة السرية للهاشميين أيام بني أمية

لقد نال معاوية الخلافة بمجد السيف طورا ، وبالمكيدة والسياسة طورا آخر ، لا بأجماع من المسلمين ورضى منهم : ذلك أن العرب دعوا الى الحسن بن عليّ بعد موت أبيه ؛ إلا أن خلافته لم يطل أمدها^(٥) ، لما أشيع من انهزام جيوشه أمام جند الشام ، وتخلّى أهل العراق عنه ؛ فلم يجد بدلا من التزول عن الخلافة ، ناظرا الى صلاح الأمة وحسن الدماء^(٦) .

على أن الدافع الحقيقي الذى دفع بالحسن الى التزول عنها إنما يرجع - على ما ذهب إليه يعقوبى^(٧) - إلى أنه لم يعد بحيث يستطيع مناوأة معاوية . ولقد انتهى هذا التزول بإبرام معاهدة الصلح

(١) قبر مولى عليّ بن أبي طالب الذى رى هؤلاء الرجال فى النار (ابن حزم : الملل والنحل ج ٤ ص ١٨٦)

(٢) الشهرستانى (ج ٢ ص ١١) والعقد القريد (ج ١ ص ٢٦٩)

(٣) قال ابن سبأ لما بلغه قتل عليّ ”لو أتيتونا بدماعه سبعين مرة ، ما صدقنا موته ؛ ولا يموت حتى يلا الأرض عدلا كما ملئت جورا — ابن حزم (ج ٤ ص ١٨٠)

(٤) الشهرستانى (ج ٢ ص ١١)

(٥) ذكر المسعودى ، مروج الذهب (ج ٢ ص ٣١) أن عليا مات فى العشرين من رمضان سنة ٤٠ هـ (٦٦٠ م) ، واستخلف بعده ابنه الحسن فى الخامس والعشرين من هذا الشهر ، فظل فى الخلافة الى أن نزل عنها فى مستهل ربيع الأول (ليست عبارة المسعودى صريحة فى أن هذا التزول تم فى شهر ربيع الأول أو ربيع الثانى) .

(٦) التسيبى ، ليدن ، مخطوط ١٩٧٩ ، ورقة ٩٣ (ب) .

(٧) (ج ٢ ص ٢٥٥)

بين الحسن ومعاوية ، تلك المعاهدة التي جعلت معاوية صاحب السلطان المطلق في كافة الولايات الإسلامية . وفي الخامس والعشرين من ربيع الثاني سنة ٤١ (١) دخل معاوية الكوفة (٢) .

وفي خلافة يزيد وصلت إلى الحسين كتب (٣) أهل الكوفة يحرضونه فيها على الرحيل إليهم ؛ فلم يعتبر الحسين بما فعله أهل الكوفة مع أبيه وأخيه من قبل ، بل ولم يح قول الفرزدق الشاعر المشهور ، حين سأله الحسين عن أهل الكوفة ، وكان الحسين في طريقه إليها : ” حَلَفْتُ قُلُوبَ النَّاسِ مَعَكَ وَسَيُوفُهُمْ مَعَ بَنِي أُمِيَةِ عَلَيْكَ “ (٤) .

ولقد صدق الفرزدق . فانه في التاسع من المحرم سنة ٦١ هـ (٦٨٠ م) قاتل الحسين على رأس فئة قليلة لم يبلغ عددها ثمانين رجلا ؛ فأوقع بهم العدو في كربلاء في العاشر من المحرم ، وأبادهم عن آخرهم .

ولقد علق الأستاذ براون على موقعة كربلاء بقوله : ” إن فريق الشيعة أو حزب عليّ كان — على ما رأينا — ينقصه الحماسة وبذل النفس . بيد أن هذا كله قد تبدل منذ ذلك الحين ، وغدت ذكرى ميدان كربلاء الملطخة بدماء ابن بنت النبي ، مع ما قاساه من شدة العطش وإحاطته بجيوش ذوى قرباه ، كل ذلك غدا منذ هذا الوقت كافيا لأن يثير عاطفة الحماسة التي كانت على أشد ما تكون ، والأحزان التي تملكت النفوس — حتى عند أكثر الناس فتورا وتراخيا — وأصبحت هذه الروح التي لا تبالي بالآلام والأخطار ، بل ولا بالموت ، ترى كل هذه ترهات لا تساوى التفكير فيها “ (٥) .

ويجدر بنا أن نقتبس أيضا ما ذكره الأستاذ نيكلسن حيث يقول في هذا الصدد : ” لقد اتخذ بنو أمية من واقعة كربلاء سببا كافيا يدعوهم إلى أن يعضوا يد الندامة على ما جنت أيديهم ؛ إذ أن هذا اليوم وحده صفوف الشيعة ، فصاحوا صيحة واحدة : الأخذ بشأر الحسين ! — هذا

(١) المسعودي ، ” مروج الذهب “ (ج ٢ ص ٣٦)

(٢) ليدن ، مخطوط ١٦٤٧ ، ورقة ١٣٥ (ب) .

(٣) قيل ان الحسين تسلّم نحو من مائة وخمسين كتابا من مختلف الجماعات (ليدن ، مخطوط ١٩٧٩ ، ورقة ١٢ (ب) ، ومخطوط ١٦٤٧ ، ورقة ١٤٥) ، وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٦٠ (٦٨٠ م) .

(٤) المسعودي ، مروج الذهب (ج ٢ ص ٦٥)

(٥) Browne : Literary History of Persia, vol. I., p. 226 seq.

النداء الذى دوى فى كل مكان ، وعلى الأخص عند الموالى من الفرس الذين تاقوا الى الخلاص من من نير العرب^(١) .

ومن هنا نشأت فرقة التوايين الذين ندموا على ما فرطوا فى جنب الحسين ، ورأوا أن لا توبة لهم إلا بالاستماتة فى سبيل الأخذ بثأر الحسين وأهل بيته . وقد تتبعوا قتلته واستأصلوهم .

هاتان العبارتان تصفان حال الأمة العربية وصفا دقيقا . فإن هذا التزاع الذى احتدم بين هذين الحزبين لم ينته بموت الحسين وانتهزام أشياعه ، بل على العكس من ذلك ، قد زاد فى الدعوة لآل على قوة ، حتى إن العداء بين الأمويين والعلويين أصبح أشد خطرا وأعظم احتداما عن ذى قبل . يؤيد هذا القول ما كان من رد ابن عفيف على ابن زياد عامل الكوفة ، حين صعد المنبر بعد وفاة الحسين وخطب الناس خطبة جاء فيها : ” الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد (بن معاوية) وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته “ .

بيد أن شعور العداء عند الشيعة أخذ يشور بركانه بعد واقعة كربلاء لأوهى الأسباب ؛ ذلك أنه بعد أن فرغ هذا الأمير من كلامه ، انبرى له عبد الله بن عفيف الأزدي فيند قوله فى هذه الكلمات المملوءة حنقا المفعمة سمعظا على بنى أمية وولاتهم فقال : ” يا عدو الله ! إن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه ، تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين “ ؟^(٢)

ابن الزبير وابن الحنفية :

دعا عبد الله بن الزبير الى نفسه فى سنة ٦٣ للهجرة ، فصادت دعوته نجاحا عظيما فى بلاد العرب والعراق . على أن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب أبى مبيعة ابن الزبير — وكان قد بايع يزيد بن معاوية — قفت ذلك فى عضد ابن الزبير ، وساعد على ظهور حزب جديد : هو حزب الكيسانية الذى قام فى الكوفة بالدعوة الى محمد بن الحنفية بعد قتل الحسين فى موقعة كربلاء .

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 198

(٢) ابن النعمان ، ليدن مخطوط ١٦٤٧ ، ورقة ١٨٠ أ .

ان حياة ابن الحنفية لحياة حافلة عجبية ، فقد أقسم يمين الطاعة ليزيد حين ولاده أبوه العهد . ولما ولي يزيد الخلافة دعا ابن الحنفية لزيارته في دمشق ، حيث تلقاه بكل مظاهر الإجلال ، وأكرمه الإكرام كله وأمر له بثلاثمائة ألف درهم (وفي رواية أخرى خمسمائة ألف درهم) وعروض بمائة ألف^(١) .

المختار والكيسانية^(٢) :

لقد فت إباء ابن الحنفية عن الدخول فيما قام به عبد الله بن الزبير في عضد هذه الدعوة ، وهياً للمختار فرصة سانحة لتكوين حزب شيعي جديد ، هو حزب الكيسانية . بيد أن

(١) المقرئى ، التاريخ الكبير المقتنى ، ليدن مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثانى ، ورقة ١٢٧ ب

(٢) تنسب الطائفة الكيسانية على رواية الطبرى (طبعة دى غويه ١ : ٢٣٩٣) ، والبندادى (الفرق بين الفرق ص ٢٧) ، والشهرستانى (الملل والنحل ج ١ ص ١٩٦) الى كيسان مولى على بن أبى طالب الذى قتل في موقعة صفين سنة ٣٧ هـ . وتنسب هذه الطائفة ، على ما أورده المسعودى (مروج الذهب ، طبعة بولاق ج ٢ ص ٧٩) وابن عبد ربه (العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٩) الى المختار بن أبى عبيد . ولكن كلام المسعودى لا يعتمد عليه غير جازم بذلك اذ يقول : "أو هو غير المختار" .

على أننا نجد كثيراً من المؤرخين يفرقون بين كيسان والمختار ، فيقول ابن حزم : (الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ٩٤) ان هناك شخصين مختلفين ، هما المختار بن أبى عبيد وكيسان أبو عمرة . ويقول الشهرستانى (ج ١ ص ١٩٦) ، ان هناك طائفتين مختلفتين ، هما الكيسانية والمختارية : الأولى تنسب الى كيسان مولى على ، والثانية الى المختار بن أبى عبيد .

وذكر الطبرى (٢ : ٦٧١) في مكان آخر ، أن أبا عمرة كيسان مولى بجيلة هو رئيس شرطة المختار بن أبى عبيد . ووافق على هذا أحد بن يحيى بن المرتضى (كتاب غايات الأفكار ، مكتبة المتحف البريطاني ، مخطوط ٣٧٧٢ ورقة ١٣٧ ب) . على أن ابن المرتضى لدين الله لم يجزم بذلك حيث قال كما قال الطبرى (٢ : ١٣٩٣) : ويقال ان لفظ كيسان يطلق على مولى على بن أبى طالب .

وقد يؤخذ بما ذكره الطبرى لولا ما جاء في رواياته من تناقض وتضارب ، مما يجعل الاهتمام الى أصل الطائفة الكيسانية بعيداً كل البعد . على أن هذا الاهتمام يمكن الوصول اليه من مصدرين آخرين : هما كتاب الطبقات لابن سعد (٢٣٠ هـ و ٨٤٤ م) (ج ٥ ص ٧٧) وكتاب الأخبار الطوال للدينورى (٢٨٢ هـ أو ٢٩٠ هـ و ٨٩٥ م أو ٩٠٣ م) ، طبعة ليدن (٢٩٦-٢٩٧) .

فقد أتى ابن سعد باسم أبى عمرة كيسان ضمن أسماء غيره من الرجال الذين شهدوا بأن ابن الحنفية سمح للمختار بأن يث الدعوة باسمه (ابن الحنفية) ، وان كان هذا القول مشكوكاً فيه لأنه غير ثابت تاريخياً بأن ابن الحنفية مالا المختار ابن أبى عبيد ، بل عرف أنه بايع يزيد بن معاوية لأنه لم يكن يتق بأهل الكوفة .

وقد روى الدينورى عن الشعبي في سياق كلامه على المختار عبارة تدل صراحة على أن المختار وكيسان شخصان مختلفان . والشعبي هذا من أكابر المحدثين والفقهاء ، وهو مشهور بالورع وصدق القول وتحري النقل . قال الدينورى : "وكان على الكوفة يومئذ من قبل عبد الله بن الزبير ، عبد الله بن مطيع ، فأرسل ابن المختار يقول : =

المجهودات التي بذلها المختار لم تلق عطف ابن الحنفية وتأييده ، لأنه لم يكن يتق بأهل الكوفة الذين خذلوا أباه وأخويه من قبل^(١)

وقامت ثورة المختار بن أبي عبيد في خلافة عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ - ٨٦ هـ ، ٦٨٥ - ٧٠٥ م) . ولقد قارن فان فلوترن (Van Vloten) بين مذهب السبئية ومذهب الكيسانية فقال : " يظهر أن عقيدة السبئية قد بنيت على الرأي القديم القائل بتجسد الألوهية . وزاد هذا المؤرخ على ما تقدم بأن السبئية يختلفون عن الحزب الشيعي الآخر ، وهو حزب

ما هذه الجماعات التي تقدر وروح اليك ؟ فقال : المختار مريض يماد . فلم يزل كذلك حتى قال له نصحاؤه : عليك بإبراهيم بن الأشتر فاستقله ، فانه متى شايك على أمر ظفرت به وقضيت حاجتك . فأرسل المختار الى جماعة من أصحابه ، فدخلوا عليه ويده صحيفة مختومة بالرماس ، فقال الشعبي : وكنت فيمن دخل عليه ، فرأيت الرماس يلوح ، فظننت أنه انما ختم من الليل ، فقال لنا : اطلقوا بنا حتى نأتي إبراهيم بن الأشتر . قال فضينا معه ، وكنت أنا وزيد بن أنس الأزدي ، وأحمد ابن سبط ، وعبد الله بن كامل ، وأبو عمرة كيسان مولى بجيلة الذي يقول الناس قد جاوره أبو عمرة ، وكان من بعد ذلك على شرط المختار " .

ولقد حاول فريد ليندر (Friedländer) في تعليقه على " شنع الشيعة على ما جاء في كتاب ابن حزم " (Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentation of Ibn Hazm) المنشور في مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية في العدد التاسع والعشرين (Journal of the American Oriental Society, vol. XXIX, pp. 29-30) الاهتداء الى أصل الكيسانية . وبالرغم من أن هذا الكاتب أخذ عن غير " الملل والنحل " لابن حزم ، فانه قال إن " ما ذكره ابن حزم عن هذه المسألة ، هو بلا شك القول الصحيح حقا من بين أقوال المؤرخين على اختلافهم " .

على أن ابن حزم (ج ٤ ص ١٧٩) انما قال إن الكيسانية هم أنصار المختار بن أبي عبيد . وهذا لا يستلزم أن الكيسانية هم المختارية ، لأنه لا توجد صلة بين لفظ المختار ولفظ الكيسانية . وعليه فانه من المحتمل كثيرا أن يكون لفظ الكيسانية نسبة الى كيسان مولى بجيلة ورئيس حرس المختار ، ويبعد أن يكون نسبة الى كيسان مولى علي ، لأنه مات قبل قيام الكيسانية بخمسة وعشرين سنة . يضاف الى ما تقدم أن ابن حزم (ج ٤ ص ٩٤) قد ميز بجيلة ووضوح بين لفظي المختار وكيسان عند الإشارة الى الطائفة الكيسانية في سياق كلامه على الإمام الثاني عشر فقال : وكان رئيسهم المختار بن أبي عبيد ، وكيسان أبو عمرة وغيرهما يذهبون الى أن الامام بعد الحسين هو أخوه محمد المعروف بابن الحنفية . وعليه فان ما أورده ابن سعد والدينوري — لا ابن حزم أو غيره — هو القول الصحيح .

(١) ذكر المقرئ في كتابه " المقفى الكبير " (ليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثاني ، ورقة ١٢٨) أن فرقا من أهل الشام ، وعلى رأسهم مسلم بن عقبة المري ، ساروا الى الحجاز لقتال أنصار ابن الزبير ، وأن فرقا آخر من شايخوا ابن الزبير في الكوفة ، وعلى رأسهم عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير على الكوفة وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، جاؤا الى محمد بن الحنفية فقالوا له : أخرج معنا قتال يزيد ، فقال : على ما ذا أقاتله ولم أخلمه ؟ قالوا : إنه كفر... وغرب الخمر . فقال لهم : ألا تتقون الله ، هل رآه أحد منكم يفعل ما تذكرون ، وقد صحبته أكثر مما صحبتوه فما رأيتم به سوءا ؟ قالوا : انه لم يكن يملك على فعله . قال : أفاطعنكم أتم عليه ؟ نفاقوا أن يثبط قعوده الناس من الخروج ، ففرضوا عليه أن يباعدوا عن ذكره أن يباعد ابن الزبير ، فقال : لست أقاتل تابعا أو متبوعا . قالوا : فقد قاتلت مع أليك . قال : وأين مثل ألى اليوم ؟ فأخرجوه كارهيا ومعه بنوه مسلمين ؛ لحمل أهل الشام عليه ، فضارب بنوه دونه ، فقتل ابنه القاسم محمد ، وضرب أبو هاشم قاتل أخيه قتلته ؛ ثم خرج ابن الحنفية الى مكة من فورهم " .

الكنيسانية الذى ظهر في بادئ أمره بالكوفة تحت زعامة المختار^(١) . وبالرغم من عقيدتهم الأصلية ، وهى القول بامامة محمد بن الحنفية بعد عليّ أبيه ، فإن الكنيسانية يغالون في اعتقادهم بمحمد بن الحنفية وبامامته ، وبأحاطته بالعلوم كلها^(٢) ، اذ اقتبس من أخويه الحسن والحسين الأسرار ، وأحاط بعلم التأويل والباطن^(٣) .

ويعتقد الكنيسانية في البداء ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يغير ما أراد ؛ وفي تناسخ الأرواح ، وهو خروج الروح من جسد وحلولها في جسد آخر ؛ وفي الرجعة ، أى رجعة محمد بن الحنفية ؛ كما يعتقدون أيضا بنبوة عليّ والحسن والحسين وابن الحنفية . على أنهم يختلفون في أن ابن الحنفية ورث الإمامة عن عليّ مباشرة ، أو عن طريق أخويه الحسن والحسين .

أما عن الرجعة فقد أنكر جماعة من الكنيسانية موت ابن الحنفية ؛ واستفززتهم الأخبار التى ذاعت عن موته ، فاعتقدوا أنه يقيم في جبل رضى (على مسيرة سبعة أيام من المدينة)^(٤) ، وأن عودته ستكون من هذا المكان . ولقد جعل كثير عزة والسيد الحميرى هذا الاعتقاد ماثرا لنظم

(١) كان المختارين أبى عبيد عن بايعرا ابن الزبير ، وقد أرفده ابن الزبير الى الكوفة ليث الدعوة باسم الطالبين . على أن المختار لم يلبث أن خلع طاعة ابن الزبير ودعا لابن الحنفية . انظر "مروج الذهب" للدهودى ، (ج ٢ ص ٥٥ — ٧٧) . وقد ذكر الشهرستانى (ج ٢ ص ١٢) أن الكنيسانية بنوا معتقداتهم على معتقدات المجوس المزدكية (ظهرت هذه الطائفة في بلاد الفرس قبل ظهور الاسلام — في القرن الخامس الميلادى) ، والبراهمة في الهند ، والفلاسفة القدماء والصابئين .

(٢) انظر كتاب فان فلوتن (Van Vloten: Recherches sur la Domination Arabe, Le Chûtisme, etc., p. 41) ، مقتبسا من كتاب Mokhtar تأليف Van Gelder (ص ٨٢ وما يتبعها) . لقد قيل أن ابن الحنفية تبرا من هذا الاعتقاد ، وحذا حذوه غيره من الأئمة . ولقد أصاب فان فلوتن في تعليقه على ذلك بقوله : وهنا يتساءل المرء : بأى مظهر من مظاهر الترحاب قابل الأئمة هذه المعتقدات المرفقة في الفلو ، التى كانت أشخاصهم السبب في ظهورها ؟

ولا غرو فان عليا أنكر على السبئية هذه الصفات التى نسبوها اليه ، ورعى في النار من دعوه إليها ، ونفى عبد الله بن سبأ الى المدائن . ثم جاء ابنه محمد بن الحنفية ، فشارك أباه في عواطفه وآرائه الدينية ، فبرأ من اعتقادوا في إحاطته بعلم التأويل والباطن . يدلك على صحة هذا القول ما ذكره ابن سعد في كتابه "الطبقات الكبير" (ج ٥ ص ٧٧) ، أن ابن الحنفية لما علم باعتقاد الطائفة الكنيسانية أن آل عليّ يملكون بجميع العلوم قال : "والله ما ورثنا من رسول الله الا ما بين هذين اللوحين (يعنى القرآن) ، ثم قال : اللهم حلا ، وهذه الصحيفة في ذؤابة سيفي" .

وهذا التصريح من ابن الحنفية يدل دلالة واضحة على أن آل عليّ لم يختصوا بميراث شئ . عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لم يرثوا منه الا ما ورثه عامة المسلمين .

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق (ص ٣٦) ، والشهرستانى : الملل والنحل (ج ٢ ص ١٩٦ — ١٩٨) .

(٤) انظر لفظ رضى في معجم البلدان لياقوت .

أشعارهما ، حتى غدا هذا النوع من الشعر يعرف بالشعر الكيسانى . وفى ذلك يقول كثير عزة المتوفى سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) :

ألا إن الأئمة من قريش ولاية ألحق أربعة سواء
على الثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسيب سبط إيمان وير وسبط غيثة كبر بلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيّب لا يرى عنهم زماناً برضوى عنده غسل وماء

ويقول السيد الحميرى المتوفى سنة ١٧٣ هـ (٧٨٩ - ٧٩٠ م) ، وكان كيسانيا :

سنين وأشهرها ويرى برضوى بشعب بين أنمار وأسد
مقيم بين آرام وعين وحقائب روح خلال ربد
تراعيها السباع وليس منها ملاقيهن مفترسا بجد
أمن به الردى فرتعن طورا بلا خوف لدى مرعى وورد

وإن هذه الأبيات لتمثل عقيدة السيد الحميرى فى مجد بن الحنفية ، من أنه قام بشعب من شعاب رضوى سنين وأشهرها كثيرة ، ومن حوله الأنمار والآساد ، والطباء وبقر الوحش ، وأنواع الشاء ، من غير أن يعدوا أسد عليها بظفر أو بناب ، لاحترامها له وتقديسها إياه .

ويعتقد الكيسانية أن الدين طاعة رجل ؛ حتى حملهم هذا الاعتقاد على تأويل الشريعة . وقد حمل هذا الاعتقاد البعض على القول بأن طاعة رجل تبطل ضرورة التمسك بالشريعة (مثل ذلك الاعتقاد فى القيامة) ؛ اذ يستطيعون بذلك أن يتعلموا من هذا الرجل أركان الشريعة الاسلامية ، كالصيام والصلاة والحج وغيرها^(١) .

ولقد تكلم فان فلوتن عن الإمام حسب معتقدات السبئية والكيسانية فقال : ” اذا كان السبئية يعتبرون إمامهم شخصا مقدسا بطبيعته ، فان الكيسانية يبذلون له الطاعة كرجل رفيع المنزلة ؛

محيط بعلوم ما وراء الطبيعة (Si les Sabâia considéraient leur imâm comme un être divin par sa nature, les Kaisânîa lui prêtaient obéissance comme à un homme supérieur, possédant des connaissances surnaturelles) (٢).

(١) الشهرستانى (ج ١ ص ١٩٦) .

(٢) Van Vloten, p. 42

هذا موجز عما بثه المختار بن أبي عبيد في نفوس الشيعة الكيسانية من عقائد وبدع لا يخفى بطلانها وبعدها عن تعاليم الدين الاسلامي . أما ما كان من أعماله الحربية ، فانه استولى على الكوفة ، ونال ممن كانت لهم يد في موقعة كربلاء .

على أن انتصار المختار كان قصيرا أمده . فان قواد ابن الزبير قد نجحوا في الإيقاع بالمختار وقتلوه (سنة ٦٧ هـ ٦٨٦ م) . ثم انهزم بعد ذلك ابن الزبير على يد الحجاج بن يوسف الثقفي (جمادى الثانية سنة ٧٣ هـ ٦٩٢ م) الذي استولى على مكة ، وقتل المختار في الكوفة ، فرجع للدولة الأموية سلطانها على كافة الولايات الاسلامية .

٣ — الدعوة السرية للعباسيين أيام بني أمية

من الضروري أن نبحث في هذا الصدد عن حادثة في تاريخ الشيعة : هي انتقال حق الخلافة من بيت علي إلى بيت العباس على يد أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه "ميراث الكيسانية" .

وذلك أنه في سنة ٩٨ هـ (٧١٦ م) مات أبو هاشم ، وهو عميد الشيعة الكيسانية . وقبل موته بقليل ، استدعاه الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك^(١) ٩٦ — ٩٩ هـ (٧١٤ — ٧١٧ م) إلى دمشق ، حيث تلقاه بكل حفاوة وإكرام . يبدو أن هذا الخليفة دبر أمر موت أبي هاشم — على ما قيل — لما رآه من ذلاقة لسانه وفكاهته وشخصيته الجذابة ، فخاف أن يدعو إلى نفسه ويحدد من مواهبه أكبر معين على نجاحه ، فدس له هذا الخليفة من قعد له على طريق الحيلة بلبن مسموم ، وتلطف له حتى سقاه منه وهو في طريقه إلى إقليم الشراة ، حيث كان يقيم محمد بن علي بن عبد الله بن العباس في الحيمة ، وهي قرية صغيرة إلى الجنوب من البحر الميت على مقربة من العقبة .

وقد قيل إن أبا هاشم لما أحس بدنو أجله ، عرج على محمد بن علي العباسي وأفضى إليه بالدعوة وأسرارها ، وأمره بكتب يسلمها إلى داعي دعائه في الكوفة وغيره من الدعاة ،

(١) يقول المقرئ في كتابه "المقف الكبير" (لندن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثاني ، ورقة ١٣٥ ب) إن الوليد ابن عبد الملك ٨٦ — ٩٦ هـ (٧٠٥ — ٧١٤ م) هو الذي استدعى أبا هاشم ، وهذا خطأ واضح .

ونزل له عن حقه في الإمامة ، وأوصى بأن تكون لابنه إبراهيم بن محمد الملقب بالإمام من بعده (١) ، وأن يبدأ ببث الدعوة عند تمام المائة سنة للهجرة (٧١٨ م) . ولقد أورد لنا المقرئ في مخطوطه "المقفى الكبير" الموجود في مكتبة ليدن أن أبا هاشم قال لمحمد بن عليّ "عند ما أفضى إليه بسر الدعوة : "هذا أمر أنت أول من يقوم به ، ولولئك آخره" (٢) .

وبهذا تحول حق الإمامة من بيت عليّ إلى بيت العباس بمقتضى وصية أبي هاشم . وقد أجمع المؤرخون على أنه عند تمام المائة سنة للهجرة ، قام الامام محمد بن عليّ بتنفيذ وصية أبي هاشم ، فأرسل إلى الدعاة يكشف عن السياسة التي ينبغي أن يسيروا عليها (٣) . وهنا تتساءل : ما الذي حدا بأبي هاشم إلى أن يحول الخلافة إلى بني عمه ، ويترك بني أبيه من العلويين مع كثرتهم وعلو شرفهم ؟

وإذا فرضنا أنه ترك أبناء أبيه لأنه لم يكن حوله حينذاك أحد منهم ، فلماذا لم يوص إلى أحد من بني أبيه ، ويسلم وصيته إلى أحد أولاد عمه ليوصلها إليه ؟ ولعل ذلك لما كان هنالك من اختلاف بين مبادئ الكيسانية شيعة أبي هاشم والإمامية شيعة أولاد فاطمة .

ولقد أدرك الإمام شعور أهالي الولايات الإسلامية المختلفة وميولهم ، كما نتبين ذلك من وصفه الدقيق للأهواء والميول التي كانت سائدة بين أهالي الولايات في ذلك الحين . وإنا ناقلون هذا الوصف عن المقدسي ؛ قال الإمام في إحدى خطبه :

"أما الكوفة وسوادها فشيعة عليّ ؛ وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف ؛ وأما الجزيرة فحرورية (٤) صادقة ، وأعراب كأعلاج ، ومسلمون في أخلاق النصارى ؛ وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بني أمية ، وعداوة راسخة وجهل متراكم ؛ وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان ، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر . وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة ، لم تنقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم يقدح فيها فساد ؛

(١) المسعودي "التنبيه والإشراف" ، طبعة دى غويه (ج ٨ ص ٣٣٨) .

(٢) ليدن مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثاني ورقة ١٣٥ ب .

(٣) الطبري (٢ : ١٣٥٣) .

(٤) هذا اللفظ مشتق من حروراء ، وهي قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها بميلين ، نزل بها الخوارج الذين اعتزلوا على بن أبي طالب ، ففسبوا لها وصموا حرورية (أو خوارج) . انظر لفظ حروراء في معجم البلدان لياقوت ، والفرق بين الفرق البغدادى (ص ٥٧) ، (Prof. R. Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 200)

وفهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات نفحة تخرج من أجسام منكزة . وبعد فاني أتفاعل الى المشرق ، والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق (١) .

ويتبين لنا من تلك الخطبة ، أنه كان من بين الأسباب التي حملت عهد بن عليّ على اختيار خراسان ، هو ما يعلمه من أن قلوب أهلها لم تتأثر بعد بالاختلافات الدينية . على أن هناك سببا آخر قد يكون أبعد أثرا ، وإن لم يعلق عليه الإمام أهمية كبيرة في خطبته : ذلك هو تألم الخراسانيين من بني أمية . ولقد صدق فانفلوتن (٢) إذ يقول تعليقا على خطبة الأمام : ” ولكن هناك أمرا آخر — وإن لم يدل عليه كلام الإمام — قد جعل اختيار خراسان بوجه خاص اختيارا موفقا ، ذلك هو أن الخراسانيين الأقوياء الأشداء كانوا يقاسون أسوأ صنوف الاستبداد من نير الأمويين “ . ولا شك في أن هذا الأمر قد سهل على العباسيين القيام بنشر دعوتهم .

أنفذ محمد بن عليّ دعائه من الحيمة ؛ فوجه ميسرة الى العراق . كذلك وجه ثلاثة من الدعاة ، أحدهم أبو عكرمة السراج (٣) ، وعهد اليهم في نشر الدعوة في خراسان لمحمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس وآل بيته . وهناك أخذ هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة للعباسيين تحت طي الخفاء ، وظاهر أمرهم التجارة أو الحج الى مكة .

واختار أبو عكرمة من الدعاة سبعين رجلا ، من بينهم اثنا عشر نقيبا ؛ فشمروا الكل عن ساعد الجذ في بث الدعوة لبني العباس ، ولم يبالوا بما لاقوه من ضرب وصلب وقتل وتشريد . وفي سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) مات ميسرة ، خلفه رجل ذو بأس وجاه ، هو بكير بن ماهان (٤) .

وإنه وإن كان هناك من الأدلة ما يثبت صحة قول الإمام بأن قلوب الخراسانيين لم ترزعها الاختلافات الدينية ، فانه ينبغي ألا يعزب عن البال وجود فريق يميل إلى العلويين بنوع خاص . ولا غرو فقد هددت جهود غالب ، وهوداع علوى متطرف ، نجاح الدعوة لبني العباس ، وأدت إلى تغيير يذكر في نص تلك الدعوة .

ذلك أنه لما وصلت أخبار غالب الى مسامع الإمام ، بعث هذا الى خراسان سنة ١٠٦ هـ (٧٢٤ م) بزياد أبي محمد مولى بني حمدان ، وأوصاه أن يتجنب غالبا ما استطاع . فلما سمع غالب بوصول

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبعة دى غويه) (ج ٣ ص ٢٩٣ — ٢٩٤)

(٢) Van Vloten, p. 46

(٣) الطبري ٢ : ١٣٥٨ و ١٩٨٨

(٤) الدينوري : الأخبار الطوال (ص ٣٣٦) ، والطبري (٢ : ١٣٦٧)

زياد، أتاه في مرو، وقامت بين الرجلين مناظرة عدائية : هذا ينتصر لبيت العباس ، وذلك لبيت علي .

وكان من وراء عدا غلب أن أصبحت الدعوة بعد ذلك الحين تنص على الرضا من آل غمد ، وبذلك وجد العباسيون ، كما يقول الأستاذ نيكلسن^(١) ، في هذه اللفظة المبهمة عبارة يمكن تطبيقها على أولاد علي والعباس ، وبها أيضا أمكن ستر المدعو اليه ، حتى لا تناله أيدي بني أمية . ولم يكن يعلم بشخص المدعو له الا النقباء وخاصة الدعاة ؛ وبذلك تسنى للعباسيين أن يوجهوا الدعوة اليهم تحت طي الكتمان .

هذا ، ولقد قدر للعباسيين الفوز من وراء هذه المجهودات التي بذلها دعائهم ، والتي أدت الى انضمام كثيرين من ذوي الرأي والجاه ، من أمثال سليمان بن كثير ، وأبي مسلم الخراساني^(٢) ؛ حتى اذا مات الإمام محمد بن علي سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢م) كانت الدعوة العباسية قد قطعت شوطا عظيما في سبيل النجاح . وفي عهد ابنه وخلفه ابراهيم دارت رحى الحرب بين الفريقين ؛ بمعنى أن النزاع بين بني أمية وبني العباس دخل في طور جديد ، هو دور العمل ، وذلك في سنة ١٢٧ هـ ، واليك البيان :

في سنة ١٢٨ هـ تسلم أبو مسلم الخراساني مقاليد الأمور في خراسان . وكان من أسباب سقوط الأمويين شوب نار العصبية بين المضربة أو التزارية ، وبين اليمانية في خراسان ، وضعف قوة أمير هذه البلاد ، وخروج الخوارج في اليمن وحضر موت^(٣) .

أما جند خراسان ، فان نصر بن سيار أمير هذه البلاد بعث الى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يكشف له عن قوة أبي مسلم وضعف جند خراسان ويستتمده ، وختم كتابه بهذه الأبيات :

أرى بين الرماد وميضَ جمرٍ فأحج بأن يكونَ له ضرامُ
فإنَّ النارَ بالعودين تُدْكَى وإنَّ الحربَ أولُها الكلامُ
فقلتُ من التعجب لبتَ شعري ! أأيقاظُ أمية أم نيامُ ؟

(١) Prof. Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 250

(٢) الدينوري : الأخبار الطوال (ص ٤٤١ — ٤٤٢) ، والطبري (٢ : ١٧٢٧)

(٣) الطبري (٢ : ١٩٤١ — ١٩٤٩) ، والمسعودي — مروج الذهب ، طبع مصر ، (ج ٢ ص ١٤٥)

فأجابه مروان بقوله : يرى الشاهد مالا يراه الغائب ؛ وأمره بأن يحفظ ناحيته بجهده .
فلما ورد عليه الخطاب قال لأصحابه : ”أما صاحبكم (يعنى مروان) فلا نصر عنده“ .
فكتب بعد ذلك نصرالى يزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق كتابا يطلب فيه المعونة والمدد ، وختمه
بهذه الأبيات :

أبلغ يزيد ، وخير القول أصدقه وقد تينتُ أن لا خير في الكذب ،
أن خراسان أرض قد رأيتُ بها بيضا لو افرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين الا أنها كبرت لما يطرن وقد سربلن بالزغب
فان يطرن ولم يُحتلْ هُنَّ بها يُلْهِنُ نيرانَ حربٍ أيما لهب

فرد عليه يزيد بما لم يُشف غلة . فيئس نصر من النصر وقال : ”لا غلبة الا بكثرة ، وليس
عندى رجل“ (١) .

هذا ، ولقد أعمل شيعة العباسيين ، وعلى رأسهم أبو مسلم الخراساني ، الحيلة في تفريق
كلمة العرب في خراسان ، فبذروا نور الشقاق بين الزارية واليمانية . وبذلك أمنوا اجتماع كلمة
العرب ؛ حتى إنه في أواخر سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) رفوف العلم الأسود ، وهو شعار العباسيين ،
فوق حصون دمشق ، وانمجت الدولة الأموية في بحر من القسوة وسفك الدماء ؛ وغدا الأمويون
والمناوئون للعباسيين ضحايا أول خلفاء بني العباس ، وهو أبو العباس السفاح (٢) .

(١) أنظر الطبرى (٢ : ١٩٧٣ - ١٩٧٤) ، والمسعودى ، مروج الذهب ، طبعة مصر (ج ٢ ص ١٤٥ - ١٤٦)

(٢) قال الأستاذ نيكسن في كتابه Literary History of the Arabs, p. 253, n. 1 : ” يقول الأستاذ بيغان (Prof. Bevan) الذى أدين له بهذه الملاحظات ، ان ترجمة لفظ السفاح ، ولو أن استعملها قد شاع بين الكتاب الأوربيين ، فانها لا تزال مثارا لكثير من الشك . وقد ذهب الأستاذ دى غويه (Do (toeje) الى القول بأن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المُنَاح (munificent) . ومع كل فانه مما يهتنا ملاحظته أن هذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل فى الجاهلية . ويقال ان سلة بن خالد الذى قاد بنى تغلب فى موقعة بنى كلاب الأولى (ابن الأثير طبعة Tornberg ج ١ ص ٢٤٦) ، سمى السفاح ، لأنه أفرغ مزارد جيشه قبيل الموقعة - ابن دريد ، طبعة Wüstenfeld (ص ٢٠٣)
١٦ -) . ولقد ورد فى هذا الكتاب ذكر لشاعر اسمه السفاح بن عبد مناة (ص ٢٧٧) ، السطر الذى قبل الأخير .“
والذى أميل اليه أنه انما سمى بهذا الاسم لقوله فى أول خطبة له : ”أنا السفاح المبيح والثائر المنيع“ .

٤ — الدعوة السرية للعلويين أيام الدولة العباسية

بعد أن نال العباسيون الخلافة ، لم يعد العلويون عن المطالبة بدعواهم ، بل ظلوا يناضلون ويكافحون ابتغاء الوصول إليها . على أننا إذا رجعنا الى الماضى ، فاننا نجد أن الضرورة هى التى أكرهت الشيعة على الاكتفاء بالزعامة الدينية بعد قتل الحسين ، حتى لقد أصبح تاريخ الشيعة تاريخاً للكائدات التى دفعتهم عقيدتهم إلى سلوك سبيلها . وهذا القول تؤيده تلك المسألة التاريخية ، وهى أن الشيعة لم يستطيعوا الظهور فى ميدان السياسة والاعتماد على السيف بدلا من اعتمادهم على الكيد ، إلا فى أحوال قليلة .

هذا ، وإن قيام زيد بن عليّ زين العابدين بن الحسين بن عليّ ، الذى تنسب إليه طائفة الزيدية ، والذى ثار على هشام الخليفة الأموى^(١) فى سنة ١٣٢ هـ (٧٤٠ م) ، مصداق لهذا التطور الجديد . على أن أخلاق أهل الكوفة قد ظهرت فى وقت الشدة بما عرف عنهم من تقلب فى الرأى وتباين فى الميول والأهواء ؛ فقد خانوا عهد زيد واعتلوه ، وباعوا جعفر الصادق على إمامتهم^(٢) .

(١) المسعودى : كتاب التنبيه والاشراف (طبعة دى غوبه) (ج ٨ ص ٢٢٣)

روى النورى (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٥٧٦ ، ورقة ٢٢ ب) أن الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك أنب زيد بن عليّ بن الحسين إذ بلغه أنه يكيد له فى الخفاء ، وأخرجه من مجلسه ، فحق زيد وقال للخليفة : ” أخرج ولا أكون إلا بحيث تكره “ .

وقد أورد لنا النورى (ورقة ٢٣ ب) نص الدعوة التى كان يأخذها زيد على من يعتنق مذهب ، وهى تلتخص فى : (١) أن يحلف الرجل بين الطاعة والولاء لزيد ، (٢) وأن يعقد النية على قتال أعدائه ” إنا ندعوك الى كتاب الله وستة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ، وإعطاء المحرومين ، وتقسم هذا القبي بين أهله بالسواء . أتبايعون على ذلك ؟ فإذا قال نعم ! مسح على يده ثم قال اللهم اشهد . فبايعه خمسة عشر ألفا ، وقيل أربعون ألفا ؛ وأمر أصحابه بالاستعداد ، فأقبل من يريد أن ينى له ويخرج معه “ .

(٢) ذكر الطبرى (٢ : ١٦٩٩ و ١٦٧٠) أنهم دعوا الرافضة . وقد بحث فريد ليندر أصل هذا اللفظ بحثا مسهباً فى مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية (Journal of the American Oriental Society, vol. XXIX, pp. 137-169) . فقال : ” من المرجح كثيرا أن يكون شيوع استعمال هذا اللفظ نتيجة العداء الشديد للشيعة . ويطلقه بعض الكتاب على جميع فرق الشيعة بلا استثناء “ .

ويريد فريد ليندر أن يقول إن هذا اللفظ جرى فى العرف العام مجرى الدم ؛ فانهم إذا أرادوا أن يحثروا شخصا ويصفوه بأفح أوصاف الذم يقولون ” رافضى “ . ولا يزال هذا اللفظ جاريا على ألسنة العامة ، مع تحريف الى ” رضى “ ، حتى كان هذا اللقب فى بعض الأزمان يطلق على كل من يبدى ميلا لآل البيت . ومن ذلك قول الشاعر :

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافض

وبذلك ترك زيد يحارب في جماعة قليلة قاتل معها إلى أن قتل ؛ فأحرقوه بالنار وضربوه بالعصى حتى صار رمادا^(١).

وهؤلاء الزيدية هم الذين نشأت منهم الرافضة . وسبب ذلك أن زيدا لما اشتبك مع يوسف ابن عمر الثقفي وإلى العراق من قبل هشام بن عبد الملك قالوا له : "إنا ننصرك على أعدائك بعد أن نخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر اللذين ظلما جدك علي" بن أبي طالب . "فقال زيد : "إني لا أقول فيهما الا خيرا ، وما سمعت أبي يقول فيهما الا خيرا ؛ وإنما خرجت على بني أمية لأنهم قاتلوا جدي الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الحرة ، ثم رموا بيت الله بمحجر المنجنيق والنار" . ففارقوه عند ذلك فقال لهم : "رفضتموني" ؛ ومن يومئذ سمو رافضة .

وبعد موت زيد بن علي بن الحسين انقسم الزيدية الى طوائف عدة : فظل فريق منهم على ولائه لزيد ، وبايعوا ابنه يحيى ، وقاتلوا معه في خراسان سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) . بيد أن أمر يحيى قد آل الى ما آل اليه أمر أبيه من قبل ؛ فقد قتل في هذه السنة ، أصابته نصابة فمات ، وحز رأسه وصلب ، ثم أحرق حتى صار رمادا تذرؤه الرياح^(٢).

الإمامية والإسماعيلية :

على أن فريقا كبيرا من الزيدية الذين اعتزلوا زيدا قد انضموا الى الطائفة الإمامية أنصار جعفر الصادق . والإمام حسب معتقدات الإمامية يكتسب حقه في الإمامة بطريق الوراثة عن علي باعتبار خليفته النبي شرعا ؛ ويعتبر الإمام فوق ذلك وريث النبي عن فاطمة ؛ ويغلب في اختياره أن يكون أكبر أبناء أبيه سنا . بيد أن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعد موت جعفر الصادق قد جرى الى انقسام الإمامية قسمين :

(١) الإمامية : وقد أطلق عليهم فيما بعد الاثنا عشرية ؛ وقالوا بامامة موسى بن جعفر الصادق ، وهو عندهم الإمام السابع .

(١) شرف الدين الهدوى ، مكتبة المتحف البريطاني ، القسم الشرقى ، مخطوط ٣٨٦٨ ، ورقة ١١٤ ب وما يتبعها .

(٢) الطبرى (٢ : ١٧٧٠ — ١٧٧٤)

(٢) الاسماعيلية : وقد قالوا بامامة اسماعيل بن جعفر ، وكان أكبر أولاد أبيه جعفر ، ولو أن وفاته كانت في حياة أبيه ، فقول أنصار هذا المذهب إمامة اسماعيل إلى ابنه محمد ، وهو عندهم الإمام السابع ؛ ومن ثم أطلق عليهم السبعية لتمييزهم عن الاثنى عشرية .

ثورة محمد و ابراهيم في الحجاز والعراق :

. هذا ، ويجدر بنا أن نستطرد في الكلام على تاريخ الشيعة ، ناهين في ذلك منحنى الإيجاز ، لكي ننير الطريق أمام من يريد أن يتعرف ما كان عليه قيام الفاطميين في بلاد المغرب . ولقد أوضحنا قبلا أن العباسيين استغلوا اسم الشيعة في إسقاط الدولة الأموية ، حتى إذا ما آلت اليهم الخلافة ، تم انفصال فريق الشيعة والعباسيين .

ذلك أنه في خلافة أبي جعفر المنصور ١٣٦ - ١٥٨ هـ (٧٥٤ - ٧٧٥ م) ، دعا محمد ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ، المعروف بالنفس الزكية ، الى نفسه سرا ، وتلقب بأمير المؤمنين . وفي سنة ١٤٥ هـ (٧٦٣ م) ظهر محمد بن عبد الله هذا بعد أن عاش في الخفاء دهرا أخذ فيه أشياعه يقيمون له الدعوة ، الى أن كثر أنصاره في خراسان^(١) ، واعترف الناس بامامته في مكة والمدينة ؛ ومن هذه أرسل أخاه ابراهيم الى البصرة لنشر دعوته .

على أن محمد بن عبد الله لم يعيش حتى يرى أثر دعوته . فقد قتل على يد عيسى بن موسى (ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس) ؛ فدعا أخوه ابراهيم الى نفسه ، وشد أزره كثيرون من فقهاء البصرة وغيرهم من ذوى الرأي والجاه ؛ وانضوت المعتزلة والزيدية تحت لوائه ، وعاونوه أبو حنيفة وراسلوه سرا ، كما عاون الإمام مالك أخاه محمدا بالمدينة حين أفتى بنقضبيعة المنصور لأنها كانت مبينة على الإكراه . وبهذا كله تمكن ابراهيم من إدخال أهالي واسط والأهواز وفارس في دعوته^(٢) .

بيد أن حياة ابراهيم قد آلت الى ما آلت اليه حياة أخيه من قبله ، فقد قتله عيسى بن موسى أيضا أول ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ (٧٦٣ م) في موقعة بانمرا^(٣) الواقعة بين الكوفة وواسط .

(١) يحيى بن الحسين ، لندن ، مخطوط ١٩٧٤ ، ورقة ١٥ (١) وما يتبعها .

(٢) شرحه ، ورقة ١٩ (١) .

(٣) أقرب الى الكوفة منها الى واسط ، وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسخا . راجع معجم البلدان لياقوت .

ومن هنا يتبين أن العلويين لم يعولوا في دعواهم في الخلافة على الكيد وحده ، بل ظلوا يتازلون أعداءهم في ميادين القتال كلما سنحت لهم الفرص وتهايت لهم الأحوال : ففي عهد الهادي خرج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بالمدينة يدعو الى نفسه في ذي القعدة سنة ١٦٩ هـ ، ومنها سار الى مكة حيث التقى بجيش العباسيين بفخ — وهو واد في طريق مكة — فقتل بعد أن أبلى بلاء شديدا . وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل « لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأجفع من فخ » . وقد أكثر شعراء الشيعة في رثاء قتلاهم ؛ ومن ذلك قول أحدهم :

فلا بُكَيْنَ على الحسين ن بعولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذي واروه ليس بذى كفن
تُرِكوا بفخ غُدوة في غير منزلة الوطن
كانوا كراما هُيِّجوا لاطائشين ولا جُبُنْ
غسلوا المذلة عنهم غسل الثياب من الدرن
هُدَى العبادُ يمجدهم فلهم على الناس المنز (١)

وكانت هذه الموقعة بعيدة الأثر؛ فقد هرب منها رجلان كانا شجى في حلق العباسيين : أحدهما يحيى بن عبد الله صاحب الديلم ، وأخوه إدريس في بلاد المغرب .

أما يحيى فقد ثار في عهد هارون الرشيد ١٧٠ — ١٩٣ هـ (٧٨٦ — ٨٠٩ م) في بلاد الديلم ، وانتصر له أهل اليمن ، وغدا أمره من الخطر بحيث هدد سلامة الدولة العباسية وأقلق بال الرشيد . فأنفذ اليه الفضل البرمكي ؛ وهذا أعمل الحيلة ، فأرغمه في سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) على أن يقسم بيمين الولاء للرشيد الذي قتله بعد قليل ومداد الأمان لم يحف بعد . على أن الصورة التي قتل بها يحيى لا تزال سرا غامضا .

وكان من نتيجة هذه الجهود التي بذلها إدريس بن عبد الله أخو يحيى في إثارة شعور شمال إفريقية ضد حكم العباسيين ، أن تأسست دولة الأدارسة في الطرف الشمالى الغربى ، وضاعت هذه البلاد من أيدي العباسيين .

(١) راجع لفظ فخ في معجم البلدان لياقوت .

هـ - فشل هذه الدعوة في الشرق وانتقالها الى الغرب

(شمال افريقية) :

كان من أثر ما حل بالعلويين من حبس وقتل أنب عمدا الى نشر دعوتهم في طي الخلفاء ؛ فنامسوا أماكن يختفون فيها ويتخذونها ملاجئ يدرءون بها عن أنفسهم ما كان يوقعه العباسيون بهم من حبس وآلام ، الى أن تقوى دعائم دعوتهم ، واذا ذاك يستطيعون الظهور .

على أن فكرة سرية الدعوة إنما كانت فكرة قديمة ، استحدثها النبي صلى الله عليه وسلم . فقد دعا الى الاسلام سرا في دار ابن الأرقم ، ومن بعدها اختفى في الغار حين هدد حياته أعداؤه من قريش . وقد اتخذت هذه النظرية التي ابتدعها ابن سبأ شكلا جديدا في سنة ٣٦٠ هـ (٨٧٤ م) ، وهي السنة التي مات فيها الحسن العسكري الإمام الحادي عشر .

أما ونحن بصدد الكلام على الغيبة ، وجب أن نأتى بكلمة يسيرة نصف بها استتار أئمة الشيعة لدرء ماعسى أن يجيق بهم من مكروه . ولا غرو فقد شدد الخلفاء العباسيون في طلب آل البيت ، حتى لا تظهر دعوتهم وتقوم دولتهم على أنقاض الخلافة العباسية نفسها . ولهذا اتخذ دعاة الشيعة من الاسماعيلية بوجه خاص دور الهجرة في البلاد التي قاموا فيها بنشر المذهب الاسماعيلي .

ولقد أورد لنا يحيى بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م) في كتابه «الإفادة في تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية» أن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب استتر في مصر في خلافة المأمون العباسي ، وأنه دعا الى نفسه حين بلغه موت أخيه محمد . وقد بث دعائه وهو على حال استتاره زهاء عشرين سنة ؛ فبايعه أهل مكة والمدينة والكوفة والري وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم ، وكتبه أهل البصرة والأهواز وحثوه على الظهور ؛ فوصل خبره الى الخليفة ، فأمر بالتشدد في طلبه . فلم يطب للقاسم المقام في مصر ، فعاد الى الحجاز ومنها الى تهامة ، ولحق به جماعة من بني عمه وغيرهم ، فبثوا الدعوة باسمه في بلخ^(١) والطالقان^(٢) ومرو

(١) مدينة مشهورة بخراسان ومن أجل مداتها وأكثرها خيرا . افتتحها الأحف بن قيس من قبل عبد الله بن عامر في خلافة عثمان بن عفان . والبا يتنسب كثيرون من أهل الأدب وطلباء الكلام والحفاظ — أنظر لفظ بلخ في معجم البلدان لياقوت .

(٢) الطالقان بلدتان : إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ ، بينها وبين مرو الروذ ثلاث مراحل . وقد ذكر الإصطخرى أن طالقان أكبر مدن طخارستان ، وتقع في مستوى من الأرض ، يجري فيها نهر كبير ، وبلخ في الاتساع ثلث ما تبلغه مدينة بلخ ؛ والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأبهر (مدينة مشهورة بين قزوين وزنجيان وهذان من نواحي الجبل ، والفرس يسمونها أهر ، قصت في أيام عثمان بن عفان ، وبينها وبين زنجيان خمسة عشر فرسخا ، وبينها وبين قزوين اثنا عشر فرسخا) وبها عدة قرى تعرف كلها بهذا الاسم .

وغيرها فذاع خبره ، وبعث الخليفة الى بلاد اليمن جندا يطلبونه ، فاختفى في حى من البدو . ولى المعتصم الخلافة شدد في طلب القاسم ، وبعث بغا الكبير وأشناس في جند كثيف ، فانتقض عليه أمره ، وذلك سنة ٢٢٠ هـ .

وقد روى هذا المؤرخ عن خادم القاسم بمصر تلك الحكاية قال : ” ضاقت بالإمام القاسم المسالك واشتد الطلب ، ونحن محتفون معه خلف حانوت إسكاف ... فنودى نداء يبلغنا صوته : برئت الذمة ممن آوى القاسم بن ابراهيم ومن لا يدل عليه ؛ ومن دل عليه فله ألف دينار ، ومن البركذا وكذا . والاسكاف مطرق يسمع ويعمل لا يرفع صوته . فلما جاءنا قلنا له : أما ارتعت ؟ قال : من لى ! ما ارتياعى منهم ولو قُرِضت بالمقاريض بعد إرضاء رسول الله حتى في وقايتى لولده بنفسى (١) ؟ ”

والآن نعود الى الكلام على الإمام الثانى عشر : فى شعبان سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٨ م) ولد للحسن العسكرى ، وهو الإمام الحادى عشر عند الشيعة الإمامية ، ولد سماه مجدا ، من أم ولد اسمها صَقِيل (٢) . فلما توفى الحسن فى سنة ٢٦٠ هـ كان ولده فى الخامسة من عمره . ومن هنا تنسب الى الإمام الثانى عشر غيتان : الغيبة الصغرى ، منذ ولد مجد الى أن اختفى عن أشياعه ، والغيبة الكبرى ، منذ اختفائه نهائيا الى وقت ظهوره .

وقد رجح ابن حزم صحة اسم صَقِيل وزاد أنها ادعت الحمل بعد وفاة الحسن العسكرى سبع سنين ، فوقف ميراثه ؛ وقد نازعها فيه أخوه جعفر بن على الى سنة ٢٦٧ هـ ؛ ففضى له القاضى وانقسمت الشيعة بسبب ذلك فريقين :

(١) فريق ناصر جعفرا .

(٢) وفريق آخر تعصب لصَقِيل ، ومن يلينهم حسن بن جعفر التَّوْبَجَّتِي (٣) ؛ وهو فارسى الأصل وصاحب الزيج المشهور ، الذى قام برسم مدينة بغداد للنصور ، فصار بيته من أشهر البيوتات .

(١) ليدن مخطوط ، ١٩٧٤ ، ورقة ٣٤ أ — ٣٥ ب

(٢) هذا هو الرأى الشائع . على أن هناك فريقا من المؤرخين يخالفون هذا الرأى ، فيذكرون أن مجدا من أم ولد اسمها تريخس ، ويرى آخرون أنه من أم ولد اسمها سوسن (ابن حزم ج ٤ ص ٩٤) .

(٣) توبجت بالفارسية معناها البخت القريب .

عاشت صقيل بعد وفاة سيدها عشرين سنة في بيت الحسن النوبختي ؛ فراجت الاشاعات حول مقامها في هذا البيت ؛ فأمر الخليفة المعتضد فحملت الى قصره ، فظلت فيه الى أن ماتت في خلافة المقتدر .

وقد ذكر لنا المؤرخون عند كلامهم على الغيبة الكبرى سنة ٢٦٠ هـ ، أن الحسن العسكري وكل بدعوته بعض رؤساء الشيعة . فكان أبو سعيد العمري رئيس الإمامية الوكيل الأول . أما الوكيل الثاني فهو الثميري ، وهو أصل الطائفة النصيرية . والوكيل الثالث حسن بن جعفر النوبختي الذي قامت الدعوة لآل علي يد رجال من بيته .

ويقال إن مجدا الإمام الثاني عشر دخل سردابا في مدينة سامرا ؛ ولم يقف له أشياء على أثر منذ ذلك الحين . ولهذا يعتقد الإمامية أنه سيظهر ويملا الأرض عدلا كما ملئت جورا ؛ ومن ثم سمي الإمام المنتظر ، وصاحب الزمان ، والقائم بالحق .

ولا غرو فإن جهود الإمامية قد ظهرت ظهورا مبنا منذ وفاة الإمام الحادي عشر سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣ م) ، مما حدا بالخلفاء العباسيين الى تضيق الخناق على طائفة الاسماعيلية ؛ فاضطروا الى مغادرة سائمة^(١) مركز دعوتهم ، ومواصلة جهودهم في بلاد أكثر صلاحية لبث هذه الدعوة ، وهي شمال إفريقية .

ولا شك في أن المجهودات التي بذلها الشيعة لتأسيس خلافة علوية بالشام قد قضى عليها ؛ فلم ير الأئمة بدا من الاستتار ليدرءوا عن أنفسهم ما أضمره لهم العباسيون من حق ونقمة . والآن نشرع في بيان الأسباب التي من أجلها وقع اختيار الشيعة على شمال إفريقية ابتغاء نجاح دعوتهم ، ثم نأخذ في الكلام بعد ذلك على نسب الاسماعيلية أو الفاطميين ، وهو اللفظ الذي اصطلح المؤرخون على استعماله اذا ما تناولوا الكلام على هذه الأسرة .

(١) وسائمة بهذا الضبط كما حققه ياقوت في معجمه ، وهي من أعمال حماة من بلاد الشام .

٦ - الأسباب التي مهدت السبيل لنجاح الدعوة الشيعية في المغرب

(١) البعد عن السلطة المركزية في بغداد

كان الأدارسة - على ما ذكرنا - أول من أسس سلطانا من العلويين ؛ فأقاموا دولة الأدارسة في شمال إفريقية (المغرب الأقصى) سنة ١٦٩ هـ (٨٧٥ م) ، وحذا حذوهم ذوو قرباهم من الزيدية في بلاد اليمن . أضف الى ذلك أن شمال إفريقية التي أقطعها هارون الرشيد ابراهيم بن الأغلب قد استقلت استقلالاً فعلياً ، ولم تكن خاضعة للعباسيين الا في الاسم فقط .

نعم ! لقد أقام ابراهيم دولة دام سلطانها زهاء مائة سنة ١٨٤ - ٢٩٦ هـ (٨٠٠ - ٩٠٩ م) . وبالرغم من أن خلفاءه اكتفوا بلقب الإمارة ، فإن قوة الخليفة العباسي قد بلغت من الضعف بحيث لم يعد قادراً على التدخل في أمور هذه الولاية ، مكتفياً بذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة . وهذان المظهران هما كل ما بقي للخلافة العباسية في جميع البلاد الإسلامية التي زال عنها نفوذ بغداد .

ضعفت قوة الدولة العباسية لاستئثار الموالي من الأتراك بالسلطة دون الخليفة ، وأصبح في يدهم تولية الخليفة وعزله وقتله ؛ وغدت البلاد مسرحاً للفوضى والقلاقل ، وصارت السلطة العسكرية في بغداد - وقد أصبحت ملهى يلهو به المتنافسون - من الضعف بحيث لم يعد الخليفة قادراً على الدفاع عن حاضرة الدولة ، وقد هدهدا الزنج وأضرمو نار الثورة التي دامت زهاء أربع عشرة سنة ٢٥٥ - ٢٧٠ هـ (٨٦٩ - ٨٨٣ م) عرضوا فيها كيان الدولة للخطر ، كما أصبحت دلتا الفرات تحت رحمة العصابات من قطاع الطرق الذين أدخلوا الفزع والهلع في قلوب الأهالي ؛ وتعدى بلاؤهم الى محاصرة أمهات المدن كالبصرة ، والأهواز ، وواسط .

هذه الحالة تكشف لنا عن مبلغ الضعف الذي وصلت اليه السلطة المركزية في بغداد ، هذه السلطة التي عجزت حتى عن الدفاع عن الولايات المتاخمة لحاضرة الدولة . ومن هذا يتبين لنا مبلغ السهولة التي أقام بها الفاطميون دولتهم في إحدى ولايات الدولة البعيدة كشمال إفريقية ، لما أصابها من وهن وما اشتهر عن أمرائها من ضعف وانحلال .

”أضف الى ما تقدّم أن البربر، على ما هو مشهور عنهم من حب للقتال ، وما تعودوه من شظف في العيش ، وما فطروا عليه من عدم إخلاد للنظام كانوا — كما بينا — متأهين للمخاطرة بأرواحهم اذا ما عرض لهم باعث يحرك في نفوسهم ما جبلت عليه من إقدام على المخاطر وركوب متن الأهوال . وزد على ذلك أن عامل الشراة الذي فطر البربر على إرضائه ، وما انطوت عليه أخلاقهم من حق وخشونة — كل ذلك جعلهم أسلس قيادا الى أبي عبد الله الشيعي ، فتمكن من الوصول الى أغراضه من إثارة حميتهم وإعجابهم بآل عليّ والمهدي“^(١)

هذا ، ولا يغيب عن أذهاننا أن بلاد الأندلس ، التي سهل أنسلاخها عن الخلافة العباسية بسبب بعدها عن مركز هذه الخلافة وازدياد نفوذ الأمويين فيها في أواخر القرن الثالث الهجري ، لو بقيت تحت سلطان العباسيين ، لوقفت حجر عثرة في سبيل ازدياد نفوذ الفاطميين في شمال إفريقيا .

(ب) جهل البربر وعدم استعدادهم للحضارة الاسلامية في بغداد

لم تتوطد أركان السلام بين البربر والعرب النازلين في بلادهم مذ ظهر الاسلام وامتدت فتوحه الى هذه البلاد . ولا ريب في أن البربر كانوا دون العرب حضارة وثقافة ؛ وقد نظروا الى العرب نظرهم الى الغاصب . وزاد اشتعال نار العصبية هذا العداء . هذا الى أن البربر لم يكن لديهم الميل والاستعداد للأخذ بأهداب الحضارة الاسلامية التي أوجدها العرب في صدر الاسلام . ولو أخذ البربر بحضارة العرب ، لكان ذلك قبولا لحضارة الفاتحين .

ولا شك في أن أكبر العوامل التي وقفت في سبيل استتباب الأمن إنما ترجع الى العاطفة الوطنية التي هي من أخص صفات البربر منذ مبدأ ظهورهم في عالم التاريخ ، والتي أخذت تتجلى شيئا فشيئا في الأحقاب المتتابة .

وتتكوّن البلاد التي يعيش فيها البربر من بقاع رملية وتلال جرداء مجدبة ، لا يمكن أن تعلم بما تحتاج إليه الأمم من الحاجات اللازمة لتقدمها ورقيها ، ولا تجعل من السهل طليها أن تقيم حضارة خاصة بها ، أو أن تتصل بغيرها من الأمم فتنال قبسا من ثقافتها . هذا الى أن بلادهم لم تكن لتصلح إلا لإمدادهم بما تتطلبه الحياة البدوية — اللهم إلا اذا استثنينا هذا السهل الضيق الذي يتاخم

Nicholson (J.) : The Establishment of the Fatimite Dynasty in Africa, p. 26 (١)

البحر الأبيض المتوسط ، وجل سكانه من أصول مختلفة : من فينيقيين وقرطاجانيين وإغريق ورومان ، الى وندال ، وهم من أصل جرمانى ، وعرب — فقد كان قرب هذا الجزء من الساحل الأوروبى سببا فى أن تيسر لسكانه أن يقتبسوا شيئا من رقى الأمم المجاورة .

(ج) بغض الولاة لفرضهم الضرائب الفادحة

ولست فداحة الضرائب التى أثقلت كاهل الأهلى بأقل أهمية مما تقدم . نعم ! لم يكن قيام الخوارج من البربر فى وجه الولاة خروجاً على الدين ، بل كان خروجاً على السلطة الحاكمة ، لظلم الولاة لهم وفرضهم ضرائب فادحة ليست مما يفرضه الدين . كما أنهم لم يجدوا ما كانوا يؤملونه ثمتا لما قاموا به من تضييحات فى حربهم مع العرب ؛ ولم يجدوا فى ولايتهم ما يحببهم إليهم . فقد كانوا يعاملونهم معاملة السيد للسود ، لا النظير للنظير ؛ فكان كل ذلك مما أعدهم لقبول المذهب الشيعى . على أنهم لما ساءهم أمر الولاة ، رفعوا الصوت تنديدا بهذه السياسة الخرقاء وبشوا شكواهم الى الخليفة العباسى فى بغداد .

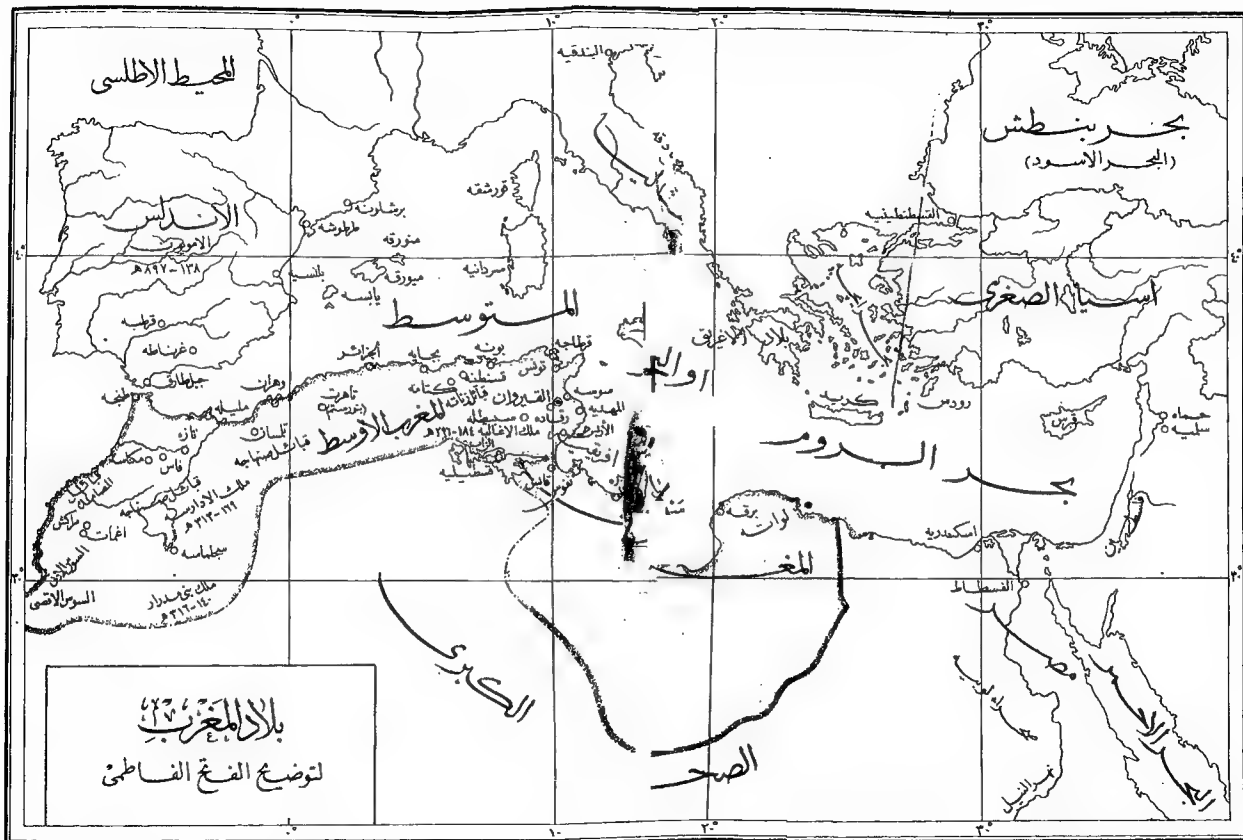
ولما كانت بغداد بعيدة عن شمال إفريقيا ، لم يعرف الخليفة — لما حل به وبدولته من ضعف ووهن — شكواهم أذنا صاغية ؛ فهموا تارة بالاحتجاج وطورا بالسيف . وسهلت كراحتهم للعرب انضمامهم لأبى عبد الله الشيعى ، الأمر الذى ساعد على تأسيس الدولة الفاطمية بالقيروان . وقد أصاب نيكلسن حيث يقول : " لم يعد من الصعب أن يحرّض البربر على محاربة الذين لا يمكن اعتبارهم إلا متطفلين فى أرض الوطن " (١) .

ومما تقدم نستطيع أن نفهم كيف هيات الأحوال فى شمال إفريقيا دخول كثيرين من البربر فى حظيرة المذهب الشيعى بمثل ما تهيأت لهم الظروف من قبل . ولا غرو فقد وجه الفاطميون عنايتهم لتحقيق هذه الغاية على يد أبى عبد الله الشيعى ؛ حتى إذا ما وصل بلاد كُتامة (أو كُتامة) (٢) (٢٨٨ هـ ٩١٠ م) التى حرثها الحلوانى وأبو سفيان من قبله ، وجد هذه البلاد موطأة ممهدة له (٣) .

(١) Nicholson (J) : The Fatimite Dynasty in Africa, p. 26

(٢) انظر كتاب الأتساب للسماعى (ص ٤٧٤ ب و ٥٧٥ أ) لمرة أصل هذه القبيلة وصحة نطق هذا اللفظ .

(٣) ذكر ابن الأثير (ج ٨ ص ١١) والمقرئى (اتماظ الحفا ص ٢١) أن هذين الداعين (الحلوانى وأبا سفيان) قد بعث بهما أبوعبد الله جعفر الصادق بن محمد سنة ١٤٥ هـ وقال لهما "إن المغرب أرض بور، فاذهبوا فاحرقا حتى يحىء صاحب البذر" والفترة بين دخول هذين الداعين بلاد المغرب ودخول أبى عبد الله الشيعى ١٤٣ سنة (١٤٥ — ٢٨٨ هـ ٧٦٢ — ٩٠١ م) .



وفي الحق أن هذه الحالة السياسية التي سادت في شمال إفريقية ، وميول بني كرامة الدينية الذين أثمرت وأينعت فيهم تعاليم دعاة الشيعة قبل أن تطأ قدم أبي عبد الله أرضهم — كل ذلك مهد السبيل للمهدى ليظهر للناس كأنه المهدي المنتظر وسليل آل علي^١ ، ويحقق بذلك الأغراض التي كان يرمي إليها من نشر دعوته .

هذا ، ولا يفوتنا ما كان من ضعف قوة الأمراء في شمال إفريقية ، وما أبداه دعاة الشيعة من نشاط وهمية كان لها الأثر الكبير في اكتساب ولاء القبائل على اختلافها ومعونة رجالها الذين عرفوا بغيرتهم وتعصبهم — فكان اجتماع كل هذه الأسباب فرصة سانحة انتهزها الفاطميون لتأسيس خلافتهم .

٧ — نجاح هذه الدعوة في شمال إفريقية

(١) رحيل أبي عبد الله الشيعي الى بلاد المغرب :

كانت هذه الفترة التي تخللت سنتي ٢٨٨ و ٢٩٦ هـ (٩٠١ — ٩٠٨ م) عهد جهاد مستمر ، سلك فيه أبو عبد الله^(١) سياسة الحزم والعزم .

وأقدم المصادر التي اعتمدنا عليها في بحث هذا الموضوع ، هو كتاب صلة تاريخ الطبري لعريب ابن سعد . وقد سبق هذا المؤلف الطبري وكتب عن الفاطميين . ولكنه لم يعش في بلادهم ولم يخالطهم ؛ فكان ما كتبه غامضا مبهما . ويظهر أن إمام الشيعة الاسماعيلية لم يكن معروفا

(١) أطلق عريب بن سعد على أبي عبد الله الشيعي اسم الصوفي أو المحتسب .

(انظر الأحكام السلطانية لـ لاوردي — طبعة مصر (ص ٢٢٧ — ٢٣٠) والفلقشندي (ج ٣ ص ٤٨٧) ونشوار المحاضرة للتنوخي (ص ١٥٨ و ١٦٤ و ٢٥٠) لمعرفة واجبات المحتسب ، ومقدمة ابن خلدون (ص ٢٢٥ — ٢٢٦) والمقرزي : خطط (جزء أول ص ٣٦٣ و ٤٦٤) . وذكر ابن الأثير (ج ٨ ص ١١) وغيره أن أبا عبد الله من أهل صنعاء ، اتصل بمحمد الحبيب أبي عبيد الله أول الخلفاء الفاطميين ، فأرسله الى اليمن ، وهناك صحب ابن حوشب بعدن وصار من كبار أصحابه . ولما كانت تلك البلاد خالية عن يقوم بيث الدعوة فيها من عهد وفاة الحلواني وأبي سفيان ، بعث به ابن حوشب الى بلاد المغرب . على أن ابن خلدون (ج ٤ ص ٣٢) خالف عريب بن سعد ، فقال إن أخا أبي عبد الله (أبو العباس) هو المحتسب ، وكان يؤدي أعمال هذه الوظيفة في أحد أعمال البصرة ، وأن أبا عبد الله كان يعرف بالمعلم ، لأنه كان يقوم بتعليم مذهب الإمامية قبل أن يعتنق مذهب الاسماعيلية . أما المقرزي (خطط ج ٢ ص ١٠) فقد خالف ابن خلدون في هذه المسألة ، فقال إن أبا عبد الله نفسه كان محتسبا في أحد أعمال بغداد ، لا البصرة .

عند الطبري ، بدليل تسميته له ابن البصري ^(١) ؛ بخلاف عريب بن سعد ، فانه ذكر ان المهدي إنما عرف بهذا الاسم بعد دخوله مدينة رقاده ^(٢) .

وقبل أن نتكلم عما بذله أبو عبدالله الشيعي في سبيل تأسيس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب ، يجب أن نعرف شيئاً عن حياة هذا الرجل . فأبو عبد الله الشيعي هو الحسن بن أحمد ابن محمد بن زكريا ، من أهل صنعاء باليمن . وقد ولي الحسبة في بعض أعمال بغداد ، ثم سار الى اليمن ، وهناك لقي ابن حوشب داعي دعوة الاسماعيلية في هذه البلاد وصار من كبار أصحابه ، لما رآه فيه من العلم والذكاء والمكر والدهاء . فلما اتصل بابن حوشب نبأ موت أبي سفيان داعي الاسماعيلية في بلاد المغرب ، عهد الى أبي عبد الله الشيعي القيام بالدعوة الى هذا المذهب ، وقال له : ” إن أرض كثامة من بلاد المغرب قد حرشها الحلواني وأبوسفيان ، وقد ماتا ؛ وليس لها غيرك ؛ فبادر فانها موطأة ممهدة لك “ .

غادر أبو عبد الله اليمن قاصدا مكة ؛ وقد زوده ابن حوشب بما احتاج اليه من مال . فلما وصل الى مكة ، سأل عن حجاج كثامة واجتمع بهم ؛ فسمعهم يتحدثون بفضائل آل البيت ، فغدشهم في ذلك وأفاض القول في مآثر أهل البيت ؛ ثم نهض ، فسألوه أن يأذن لهم في زيارته لما رأوا من علمه وعقله ؛ فأجابهم الى ذلك . فأخذوا يترددون عليه وسألوه أين يقصد ، فأجابهم إنه يريد مصر . فسروا بصحبته ، ورحلوا جميعا من مكة ؛ وهو في كل ذلك يخفي عنهم أغراضه . وما لبثوا أن تعلقوا به واجتمعوا على محبته لما رأوا من ورعه وزهده ، وهو في ذلك كله يسألهم عن أحوال بلادهم وعن مبلغ إطاعتهم لأمرهم ، فقالوا : ” ليس له علينا طاعة ، وبيننا وبينه عشرة أيام “ .

وقد استطاع أبو عبد الله بما جبل عليه من مكر ، وبما وهبه الله من ضروب الحيل ، أن يعرف منهم أن حمل السلاح كان كل همهم ؛ وبهذا كله أتيح له أن يقف على جميع أحوالهم . فلما وصلوا مصر أخذ يودعهم ؛ فشق عليهم فراقه وسألوه عن حاجته بمصر ، فقال إنه ليس له بها حاجة إلا طلب العلم ؛ فقالوا له : ” فأما اذا كنت تقصد هذا ، فان بلادنا أنفع لك وأطوع لأمرك ، ونحن أعرف بمحققك “ . وما زالوا به حتى أجابهم الى المسير معهم ؛ فاستأنفوا السير حتى أصبحوا على

(١) الطبري ٣ : ٢٢٩١ و ٢٢٩٢

(٢) عريب بن سعد (ص ٥٣) .

مقربة من بلادهم كرامة — وهى فى بلاد الجزائر اليوم — وقد خرج الى لقائهم أصحابهم الذين أينعت وأثمرت فيهم تعاليم الشيعة على يد دعاة الاسماعيلية من قبل .

ولما وقف القوم على حال أبى عبد الله ، أحلوه من أنفسهم محل الاجلال والاكرام ، ورغبوا فى نزوله عندهم واقترحوا أئمتهم يضيفه . ولما وصلوا أرض كرامة فى شهر ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ ، تهافت كل منهم على إنزاله فى بيته ، فسألهم : ” أين فى الأخيار (١) ؟ “ فدلوه عليه ، فقصدوه ؛ وسار الى جبل إيكجان ، فقتل بفتح الأخيار . وهنا قال لهم : ” هذا فى الأخيار ، وما سمي إلا بكم ؛ ولقد جاء فى الآثار للمهدى هجرة ينبو بها عن الأوطان ، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتمان ؛ ولخرجكم فى هذا الفج ، سمي فى الأخيار “ . فتسامعت به القبائل وأتته البربر من كل مكان ، وعظم أمره ؛ وما لبث أن كشف عن قصده ، فقال لرجال كرامة : ” أنا صاحب البذر الذى أخبر به أبو سفيان والحلوانى “ (٢) اللذين أرسلهما الاسماعيلية لبث الدعوة فى بلاد كرامة (٣) . فازدادت محبتهم له وعظم أمره فيهم ، وأتته القبائل من كل مكان (٤) .

أما ونحن بصدد الكلام عن فى الأخيار ، يجدر بنا أن نذكر كيف قام الاسماعيلية ببث دعوتهم . كان الإسماعيليون يبعثون بالدعاة من سلمية ، مركز حركتهم الدينية ، الى كافة الأقطار الاسماعيلية . وقد اتخذ هؤلاء الدعاة دار هجرة فى كل قطر ، فاتخذوا دار هجرة فى نجران ، وفى سواد الكوفة وفى جبل لاعة باليمن ، وفى بلاد تركستان وعلى الأخص فى الجزء الشرقى ، وكذلك فى پنجاب وبمباى ، حيث لا يزال يمثل أغا خان طائفة منهم الى الآن .

(١) فى الأخيار فى جبل إيكجان فى أرض كرامة (على مقربة من مدينة قسطنطينية ، تعرف بمناعتها . يسكنها قبائل من كرامة ، وكانت بها أسواق عظيمة ، وكانت كبيرة أهلة بالسكان) انظر البكرى ص ٦٣ و ٦٤ ، وفيه أقام أبو عبد الله الشيعى وسماه دار الهجرة . وقد سمع باقوت بعض الناس يطلقون عليه إيكجان ، وذكره المقرئى فى اتماظ الحقا (ص ٣٢) ، ونقله أوليرى (O'Leary) أنكجان ، وهو خطأ .

(٢) بعث محمد الحبيب أحد أشياخه ، ويدعى رسم بن الحسين بن فرج بن حوشب الكوفى الى اليمن ، لينشر الدعوة للفاطميين ويعلن للناس أن قد حان ظهور المهدى ، فظهرت الدعوة سنة ٢٧٠ هـ ، ونجح ابن حوشب فى مهمته ، حتى اعتقد الناس فى المهدى من آل على وفى صفاته . وسرعان ما ابقى ابن حوشب حصنا بجبل لاعة وتغلب على أغلب بلاد اليمن بما فيه صنعاء ، ودعا نفسه المنصور ، وبعث الدعاة الى كافة بلاد اليمن واليمنامة والبحرين والسند والهند ومصر وشمال إفريقيا — ابن خلدون (ج ٤ ص ٣١) والمقرئى : اتماظ الحقا (ص ٢٧) .

(٣) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٢) .

(٤) انخطط للمقرئى (ج ٢ ص ١٠ و ١١) .

ولما دخل أبو عبد الله الشيعي بلاد المغرب ، اتخذ دار هجرة في فج الأخير في إيكجان الواقع في منتصف الطريق بين طنجة وفاس . وإيكجان جمع حاج (حجاج) ؛ وكانوا يطلقون عليه منذ قديم الزمان Tazijan ، وهو محل اجتماع الحجاج من الأندلس وشمال المغرب الأقصى . وفي هذا المكان اتخذ أبو عبد الله الشيعي دار الهجرة ، وهو مركز حركته وجمع أنصاره من البربر . ومن الغريب أن أكثر سكان البلاد التي قام فيها الاسماعيليون بنشر مذهبهم لا يزالون متمسكين بعقائد هذا المذهب ، الا سكان بلاد المغرب حيث لم يبق للاسماعيليين بقية .

ويرجع ذلك — على ما ذكرنا — إلى جهل البربر وعدم استعدادهم لفهم مذهب الاسماعيلية بدرجاته المختلفة المتدرجة في الصعوبة ، كثيرهم من أهالي الأقطار الأخرى — كفارس ومصر — التي يمتاز أهلها بالحضارة وسمو الفكر .

فليس من عجب إذا لم يتعمق البربر في فهم مذهب الاسماعيلية وتعاليمه التي تحتاج إلى أعمال الفكر؛ وإنما اعتنقوه لأول وهلة وبلا كبير عناء أو تفكير . فلم يكن ثمة ما يساعد على رسوخه في نفوسهم ، مما أدى بهذا المذهب إلى الزوال من بلاد المغرب ، حيث لم يبق له الآن بقية أو أثر^(١) .

وفي سنة ٢٩١ هـ (٩٠٣ م) بدأت أعمال أبي عبد الله الشيعي الحربية ، فوقعت في يد الداعي مدن عدة . وساعد على تقدمه في الفتوح موت إبراهيم بن الأغلب (سنة ٢٩١ هـ) ، ولحاق ابنه أبي العباس به ، وتولية ولده زيادة الله الذي قضى أيامه في اللهو والترف ، بينما كان وزرائه لا يزالون الانحياض المذهب الشيعي الذي اعتنقه معظمهم . ولا غرو فقد ساعدت هذه الأسباب أبا عبد الله على قمع الأغلبية ، ومد نفوذه على أكثر أجزاء هذه البلاد ، والمجاهرة بأن ظهور المهدي قد آن أوانه .

(١) إنني مدين بعض ما جاء بهذه العبارة إلى المسؤولي ماسنيو الأستاذ بكلية فرنسا (M. Louis Maassignon, Professeur au Collège du France) . وقد دارت بيننا محادثات على موضوع هذا الكتاب في منزله بباريس .
ذكر المقرئ (اتماظ الحفا ص ٣٢) في كلامه على دخول أبي عبد الله الشيعي أرض كتامة وتزوله في الأخير ، أن أبا عبد الله خطب أهل كتامة ، معددا مآثرهم مشيدا بفضل بلادهم في العبارة التي ذكرناها قبل .

(ب) رحيل عبيد الله المهدي الى بلاد المغرب :

غدا الشيعيون في ذلك الوقت (سنة ٢٩١ هـ) أصحاب السلطان المطلق في جميع الجهات الواقعة الى الغرب من مدينة القيروان^(١) ، وأنفذ أبو عبد الله الشيعي الرسل الى المهدي في سلمية يدعوه للحضور الى إفريقية^(٢) . فرحب عبيد الله بهذه الدعوة ، وقد سمع بدعوته الخالص والعام . فأصدر الخليفة العباسي الأوامر بالقبض عليه .

على أن عبيد الله لم يكذب يصل مدينة سجلماسة^(٣) حاضرة بني مدرار حتى قبض عليه أميرها اليسع ابن مدرار وحبسه الى أن أطلقه أبو عبد الله^(٤) .

ومن الصعب أن نفهم كيف أتيج لعبيد الله أن يتجنب القبض عليه قبل وصوله سجلماسة ، اذا علمنا أن الأوامر قد صدرت للولاة في مصر وشمال إفريقية بالقبض عليه ، اذ هدد سلطة الخليفة العباسي ، وهو المالك للبلاد التي سلكها عبيد الله . وقد ذكر عريب بن سعد أن محمد بن سليمان^(٥)

(١) القيروان أكبر مدائن بلاد المغرب ، وتقع على بعد أربعة أميال من مدينة رقادة ، وتشتهر بمساجدها وحدائقها الغناء ومبانيها الفخمة — انظر البكري : كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (ص ٢٢ — ٢٧) .

(٢) عريب بن سعد (ص ٥٢) .

(٣) مدينة بالمغرب الأقصى ، يجري فيها نهران أصلهما واحد ، فاذا قربا من المدينة تشعبا الى نهرين يسلكاها شرقا وغربا . وتقع في سهل أرضه سبعة حوله أرباض كثيرة . وتبعد عن القيروان ستة وأربعين فرسخا . وكان بناؤها سنة ١٤٠ هـ . وفي سنة ١٦٠ هـ اتخذها بنو مدرار حاضرة للمكهم — انظر البكري (ص ١٤٨ — ١٤٩) .

(٤) عريب بن سعد (ص ٥٢) .

(٥) خالف عريب بن سعد غيره من المؤرخين من أمثال أوتينا (ص ٧٦) والكتندي (ص ٢٥٨) وابن الأثير (ج ٨ ص ١٢) وأبي القدا (ج ٢ ص ٦٣ — ٦٤) والمقرزي (خطط ج ١ ص ٣٢٧) فقال ان محمد بن سليمان — لاعبي النوشري — هو الذي قبض على عبيد الله . وقد ذكر الطبري (٣ : ٢٢٥١ و ٢٢٥٢) أن الخليفة العباسي المكتفي تدب محمد بن سليمان لطرد هارون آخر ولاة الطولونيين من مصر . وفي صفر سنة ٢٩٢ هـ هُزم هارون وقتل . وفي الناجع من جمادى الآخرة من هذه السنة ، رحل محمد بن سليمان عن مصر بعد أن أقام فيها نحو من أربعة أشهر .

هذا ، ولقد تكلم الكتندي (كتاب الولاة ص ٢٢٨) عن مدة ولاية محمد بن سليمان فقال : إنها بدأت في ٧ جمادى الأولى من السنة التي آتى مصر فيها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد ذكر أوتينا (ص ٧٦) أن مدة ولاية محمد بن سليمان دامت نحو من ستة أشهر ، خلفه بعدها عيسى النوشري . على أننا نشك في صحة هذا القول ، لأن هذا المؤرخ لم يبين الوقت الذي بدأت فيه ولاية محمد بن سليمان فعلا .

وقد تكلم ابن الأثير (ج ٨ ص ١٣) عن هذه الحادثة بإمباب ، ونقل عنه ، على ما يظهر ، بعض من آتى بعده من المؤرخين كابن خلدون والمقرزي . قال ابن الأثير إن عبيد الله لما وصل الى مصر ، أشار عليه بعض رجال الحاشية في بلاط النوشري ، ممن اعتنق مذهب الشيعة ، أن يحذر من أن يقبض عليه رجال السلطة في مصر . وبالرغم من هذا التحذير فقد قبض عليه النوشري وهو في طريقه الى بلاد المغرب ، ولكنه أطلقه لورعه ، أو كما قال ابن الأثير ، لما أخذه منه . =

قبض عليه ثم أطلقه لمال أخذه منه^(١)

وقد زادنا ابن الأثير بيانا في هذه المسألة ، فقال إن عبيد الله لما رحل عن سلمية ، حمل معه مالا عظيما استطاع أن يرشوه به الولاة في طريقه الى سجلماسة ويأمن الوقوع في أيديهم^(٢) . ويظهر لنا أن ابن الأثير قد نقل هذه العبارة عن عريب بن سعد^(٣) الذي يقول إن محمد بن سليمان قبض على عبيد الله المهدي وأخذ منه مالا فأطلقه . ونحن نرجح صحة هذا القول ، اذا عرفنا كيف استطاع عبيد الله أن يأمن القبض عليه في مصر ، وفي طرابلس أيضا ، حيث كتب أميرها الى زيادة الله ابن الأغلب — وقد أسر بالقبض على عبيد الله — يقول إن عبيد الله هذا قد غادر المدينة ، وأن لاسبيل الى اللحاق به .

على أن مسألة إلقاء القبض على عبيد الله في سجلماسة على يد أميرها إنما ترجع الى سبب واحد ، هو أن الرشوة لاتجدي مع هذا الأمير بحكم مركزه وما لصفة الإمارة في نفسه من هيبة وحرمة . هذا ، ولقد أجمع المؤرخون على أن أبا عبد الله الشيعي أرسل في سنة ٢٩١ هـ الى عبيد الله بمال كثير مما حصل عليه في حروبه من أسلاب وغنائم .

= ولم تكن سلطة الوالي الجديد (عيسى النوشري) تستقر مدة ثلاثة شهور ، حتى سلما منه ابن الخليج أحد قواد الطولونيين ، الذي أترع منه نفوذه زهاء ثمانية شهور (سبعة شهور وعشرون يوما على ما ذكره المقرئ في خطه (ج ١ ص ٣٢٧) بعد أن استولى على القسطنطينية ، الذي ظل في يده الى أن قبض عليه في رجب سنة ٢٩٣ (الطبري ٣ : ٢٢٦٧) وبعث به وبغيره من الثوار الى بغداد ، فعدا عيسى بحيث يستطيع استرداد سلطته ويحول الى القسطنطينية وينزل بدار الإمارة .

أما إلقاء القبض على عبيد الله وإطلاقه ، فلا بد أن يكون حدثهما قد تم إما في مدة ولاية محمد بن سليمان (محرم — رجب سنة ٢٩٢) أو في مدة ولاية عيسى النوشري (جادي الثانية — ذو القعدة سنة ٢٩٢) — وقد دامت ولايته ، على ما ذكره الكندي (ص ٢٦٧) ، الى أن مات سنة ٢٩٧ هـ .

وعليه ، فإن ما ذكره عريب من أن عبيد الله سار الى بلاد المغرب في مدة ولاية محمد بن سليمان ، لا يترك مجالا للشك في وقوع هذه الحادثة سنة ٢٩٢ هـ ، بعد الانتصارات التي حازها أبو عبد الله الشيعي في شمال إفريقيا سنة ٢٩١ هـ كما سبق بيانه .

ونحن نرى أن محمد بن سليمان — لعيسى النوشري — هو الذي قبض على عبيد الله المهدي . يؤيد هذا الرأي ما أورده أوتيجا (ص ٧٧) عن محمد بن سليمان مما يؤيد أيضا ما ذهب اليه عريب بن سعد . وتتلخص عبارة أوتيجا في أن الخليفة العباسي المكثف قبض على محمد بن سليمان ، إذ اتهمه بمال أخذه من خراج مصر . وهذه العبارة ترجح ما ذهبنا اليه من أن محمد بن سليمان هو الذي قبض على عبيد الله ثم أطلقه لمال أخذه منه . هذا فضلا عن أن عريب بن سعد أقدم من كتب عن هذا الموضوع (بعد أوتيجا والكندي) من المؤرخين . ولا شك في أن عبارة التي خلفها لنا عما يقام له وزن ويجزم بصحته إذا ماقيست بأقوال غيره .

(١) عريب بن سعد (ص ٥٢)

(٢) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٣ و ١٤)

(٣) ص ٥٢

(ج) أبو عبد الله ونجاحه في فتوحه :

أخذ أبو عبد الله الشيعي يواصل فتوحه منذ رحلت رسله الى عبيد الله المهدي ، وغدا للغروب التي نشبت بين زيادة الله وداعي الشيعة شأن أجل وأعظم . وفي سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٧ م) مد أبو عبد الله نفوذه على معظم أرجاء بلاد المغرب . وفي يوم الأحد مستهل رجب سنة ٢٩٦ هـ دخل داعي الشيعة مدينة رقادة (وتقع جنوب القيروان ، وهي من أعمال تونس الآن) واستقر في دار الإمارة . وبهذا تكملت أعمال الداعي بالنجاح ^(١) .

أمر الداعي بعدئذ بجمع ما كان لزيادة الله من مال وسلاح وغيره . ولما كان يوم الجمعة أمر الخطباء في القيروان ورقادة فخطبوا ، وأبطل ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة . وبهذا زالت سلطة العباسيين الاسمية والفعلية عن هذه البلاد . وأمر الداعي بالسكة فضربت من غير أن ينقش عليها اسم ^(٢) ، بل جعل في أحد وجهيها : ” بلغت حجة الله “ ، وفي الوجه الآخر : ” تفرق أعداء الله “ ، ونقش على السلاح : ” عدة في سبيل الله “ ، ووسم الخيل على أنفائها : ” الملك لله “ ^(٣) .

(١) عريب بن سعد (ص ٥٢) ٦ والبكري (ص ٢٧)

(٢) ذكر الدكتور أوليري (Dr. O'Leary, p. 63) ، عند كلامه عن الخطة التي سلكها أبو عبد الله الشيعي بعد دخوله مدينة رقادة ، ” أن الطقوس الدينية أدخلت في الخطبة “ ، فريدت عبارة ” حى على خير العمل “ ، وأضيفت إليها أسماء ” على “ وفاطمة والحسن والحسين . ويظهر أن الدكتور أوليري أخذ هذه العبارة عن كتاب نيكلسن المسمى ” تأسيس الدولة الفاطمية في إفريقيا “ (Nicholson, J. : Establishment of the Fatimite Dynasty in Africa) . وقد أخذها في كتابه أيضاً دى سامي (De Saey : Exposé de la Religion des Druzes, T. I. p. CCLXXII) . وهذا الكتاب عبارة عن ترجمة ما ورد في كتاب ” صلة تاريخ الطبري “ لعريب بن سعد القرطبي عن تأسيس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب مع شرح بعض الحقائق التاريخية . على أن هذه العبارة لم يرد لها ذكر في النص العربي الذي طبعه مسيو دى غوييه (De Goeje) ، ولا توجد الا في كتب من جاء بعد عريب بن سعد من المؤرخين ، كيجي بن سعيد (ص ١٠٧) وابن الأثير (ج ٨ ص ١٧) وابن خلدون (ج ٤ ص ٣٦) والمقرئ (خطوط ج ٢ ص ١١) وناظ الحفا (ص ٣٨) .

ويظهر أن دى سامي (Exposé, T. I. p. CCLXXII) اعتمد على ما ذكره ابن الأثير الذي قال انه لم يرد لهذا ذكر في الخطبة ولا على السكة حيث يقول : ” ولما حضرت الجمعة أمر الخطباء بالقيروان ورقادة فخطبوا ، ولم يذكروا أحداً ، وأمر بضرب السكة ولا ينقش عليها اسم . ولكنه جعل مكان الاسم : ” بلغت حجة الله “ ، وعلى الوجه الآخر : ” تفرق أعداء الله “ ، ونقش على السلاح : ” عدة في سبيل الله “ . ووسم الخيل على أنفائها : ” الملك لله “ ، وأقام على ما كان عليه من لبس الدون الخشن والقليل من الطعام الغليظ “ .

(٣) يحيى بن سعيد (ص ١٠٧) وابن الأثير (ج ٨ ص ١٧) .

(د) إطلاق عبيد الله من سجلماسة :

ظل عبيد الله في حبسه بسجلماسة ، وأبو عبد الله الشيعي يواصل حروبه وفتوحه . فلما تم لداعي الشيعة الفتح والنصر ، سار في قوة كبيرة الى سجلماسة لإطلاق عبيد الله . وفي اليوم التالي ليوم وصوله ، اتصل بمسامع الداعي نبأ هرب اليسع بن مدرار أمير هذه المدينة ليلا ، وقد حمل معه أقاربه وأمتعته ؛ فأطلق الداعي من فوره عبيد الله المهدي وابنه أبا القاسم .

ولقد حامت حول إطلاق عبيد الله الشبهات وتباينت فيها أقوال المؤرخين . فذهب البعض الى أن الداعي علم بقتل عبيد الله ، بجاء برجل يهودي أظهره للناس باسم المهدي . وليت شعري أين كان أبو القاسم الذي ولي الخلافة بعد أبيه ؟ ولم لم يلبها في ذلك الوقت ، وقد كان في سن يستطيع معها الاضطلاع بأعباء الحكم ؟ يدل ذلك على صحة هذا القول ما كان من مسير أبي القاسم هذا على رأس جيش من المغاربة لغزو مصر في سنة ٣٠١ هـ وما بعدها ، أي بعد هذه الحادثة بنحو أربع سنين .

(هـ) تقلد المهدي زمام الحكم :

كان معنى إطلاق عبيد الله المهدي من سجنه بسجلماسة في ٧ رجب سنة ٢٩٦ هـ زوال سلطان بني مدرار في سجلماسة ، وبني رُسَمَ في تاهرت^(١) والأغلبة في تونس ، وقيام الدولة الفاطمية في كل شمال إفريقية الذي تخرج عن سلطان العباسيين .

قرب المهدي من رقادة ، فلقاه أهلها وأهل القيروان ؛ وسار بين يديه أبو عبد الله الشيعي ورؤساء كتامة ، فسلموا عليه بالخلافة وبايعوه على الطاعة . ونزل ذلك الخليفة الفاطمي الجديد بقصر من قصور رقادة . وفي يوم الجمعة أمر باسمه فذكر في الخطبة على منابر البلاد ، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين ؛ وجلس في ذلك اليوم رجل يعرف بالشريف ومعه الدعاة ، ودعوا الناس إلى مذهب الإسماعيلية ، فدخل فيه الناس طوعا وكرها .

ولم يلبث المهدي أن قسم على رؤساء كتامة أعمال إفريقية . وسرعان ما دون الدواوين وجي الأموال ، فاستقرت قدمه ودانت له البلاد .

(١) تاهرت أو تهرت اسم لمدينتين متقابلتين استولى عليهما الداعي سنة ٢٩٦ هـ ، بعد أن ملكهما بنو رستم زهاء مائة وثلاثين سنة . وكان بها أسواق عامرة وحمامات كثيرة . وكان ميمون بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام (وبهرام مولى عثمان بن عفان) صاحب تاهرت ، رأس الأباضية وامامهم ، وكانوا يسلمون عليه بالخلافة .

(و) أبو عبد الله يلاقى مالا قاه أبو مسلم :

لا شك في أن الدولة الفاطمية تدين بظهورها ووجودها في عالم الدول المستقلة لداعي الشيعة الذي تأسست هذه الدولة بفضل جهوده وحسن سياسته . على أن حظ هذا الرجل ، مع ما عرف عنه من غيرته وانتصاره للدعوة الفاطمية ، كان حظ أبي مسلم الخراساني الذي كان في حقيقة الأمر شخصية بارزة وعاملا قويا من عوامل تأسيس الدولة العباسية .

ويعزو المؤرخون قتل أبي عبد الله الشيعي إلى أنه لما دانت البلاد للمهدي واستقامت له الأحوال كف يد أبي عبد الله الشيعي ويد أخيه أبي العباس ؛ فدخل أبا العباس الحسد واستمال أخاه إليه ، وأخذوا يحرضان معاً على المهدي ، واتفقا على قتله . فوصل خبر هذه المؤامرات إلى مسامع المهدي ؛ ففرق أنصارهما في البلاد وأمر بهم فقتلوا ، ثم قتل أبا عبد الله الداعي وأخاه (الاثني ١٥ جمادى الثانية سنة ٢٩٨) .

الباب الثاني

وصول الفاطميين إلى مصر

١ - من هم الفاطميون ؟

(١) آراء طائفة من مؤرخي الأفرنج

إن لفظ الفاطميين الذي عرف به أولاد عبيد الله المهدي ، يشعري بادئ الرأي بأنهم من أولاد فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فهم علويون أيضا . على أن مسألة نسب هذه الأسرة كانت — ولا تزال — موضوعا كثرت فيه آراء جمهور الكتاب والمؤرخين الأقدمين والمحدثين ، لما كان من انحياز الكتاب من العرب إلى القول بما يوافق نزعاتهم السياسية وميوطنهم الدينية ، بعيدين عن الحقيقة . ففريق ذهب إلى القول بصحة هذا النسب ، وفريق ناقض هذا القول بخزم بعدم صحته . بيد أن بحث المحدثين من المؤرخين لهذا الموضوع لم يسفر عن نتيجة حاسمة ، نظرا لما خلفه لنا المؤرخون الأقدمون من أقوال كثيرة متباينة . وليست مسألة نسب الفاطميين إلى ابن ميمون القداح ، أو إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، مسألة جوهرية لهذا البحث ؛ ولكن يحسن بنا ألا نمر عليها من الكرام من غير أن نغير هذه الدعاوى التي أقامها الفاطميون لإثبات صحة نسبهم شيئا مما هي جديرة به من عناية واهتمام .

لقد حاول دي ساسي في كتابه (De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes, Paris, 1835) أن يلقى قبسا من النور على هذا الموضوع . وكان المصدر الأصلي الذي اعتمد عليه هذا المؤرخ ، هو هذه الشذرات الهامة التي كتبها الشريف أخو محسن^(١) ، ونقلها عنه ابن النديم^(٢) ، ونسبها خطأ إلى ابن رزام ، فظن أنها له ؛ وهؤلاء جميعا عاشوا في القرن الرابع الهجري .

(١) هو محمد بن علي بن الحسين بن أحمد بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق .

(٢) كتاب الفهرست (ج ١ ص ١٨٦ وما يتبعها) .

ولقد نقل النويرى فى "نهاية الأرب" (١) والمقرىزى فى "اتعاظ الخنف" (٢) عبارة أخرى محسن . على أن فى أورده لنا المقرىزى (٣) من أنه قرأ هذا الكتاب بنفسه ووصفه بأنه يقع فى مجلد واحد فى أكثر من عشرين كراسة ، ما يحملنا على عدم الأخذ بصحة نسبة هذه الشذرات الى ابن رزام .

ولقد حاول آخرون غير دى ساسى ، من أمثال وستنفلد (Wüstenfeld) (٤) ودى غويه (De Goeje) (٥) أن يزيدوا هذا الموضوع بياناً ؛ ولكن ما صادفوه من نجاح فى هذا السبيل لم يتعد زيادة عدد المصادر التى اعتمد عليها من تقدمهم من الكتاب ممن تصدوا لبحث هذا الموضوع .

وهنا يجدر بنا أن نشير الى هذه الحقيقة ، وهى أن هؤلاء المؤرخين لم يهتدوا الى رأى قاطع فى هذه المسألة ، كما أنهم انساقوا مدفوعين بميوطن الشخصية ، فلم يجمعوا على رأى واحد فى صدد هذا النسب . ويظهر أن ما قام به فايل (Weil) وستنفلد (Wüstenfeld) فى استقصاء هذا الموضوع لم يتعد نقل حقائق تاريخية لغيرهم ، دون أن يبينوا رأيهم الخاص .

أما دى ساسى (De Sacy) فانه يميل الى الأخذ بصحة نسب الفاطميين إذ يقول : "وهنا يتسنى للرء أن يضيف على هذه الأدلة التى أوردها المقرىزى أنه اذا كان عبيد الله دعيا ، ولم يكن من سلالة على ، فان أبناء الحقيقين الذين لم يتطرق اليأس الى نفوسهم قط بأنه سيأتى يوم يستطيعون فيه أن يكشفوا للناس عن أحقيتهم فى الامامة ، لا بد أن تتاح لهم الفرصة لاماطة اللثام عن صحة نسبهم وأحقيتهم" (٦) .

أما دى غويه (De Goeje) (٧) فانه اعتبر أن ابن ميمون هو مؤسس مذهب القرامطة وجد الخلفاء الفاطميين حيث قال : "كانت لهذه الجرثومة الصغيرة القوية قوة هائلة ، هى أن

(١) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٥٧٦ ، ورقة ٤٧ (ب) وما تنبها .

(٢) ص ١١ — ١٤ .

(٣) شرحه (ص ١١) .

(٤) Geschichte der Fátimiden—Chalifen, pp. 3-12 .

(٥) Mémoires sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides, Leyden, 1886 .

(٦) De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes, Introduction, p. 251 .

(٧) Mémoires sur les Carmathes du Bahraïn, etc. p. 1 .

حزبا خامل الذكر عند ظهوره يصبح بعد قليل أسرة حاكمة ، ويتهى بفتح كافة أرجاء بلاد الخلافة في الغرب ... إلى أن يقول : فانه حول منتصف القرن الثالث من الهجرة ، قام عبد الله بن ميمون القداح بنشر تعاليم هذا المذهب... الخ . ويقول دى غويه في موضع آخر : "إذا ما تناولنا الكلام على الفاطميين والقرامطة ، فأنما نتكلم عن طائفة واحدة" (١) .

أما وستنفلد فقد ختم عبارته المسببة عن نسب الفاطميين بهذه الكلمات التي تبين لك أنه قد تردد في تكوين رأى قاطع في هذه المسألة ، بسبب ما جاء عنها من آراء كتّاب العرب المتناقضة المتضاربة ، حتى ما ذاع منها بين العلويين أنفسهم . ويظهر لنا أن وستنفلد يميل إلى الأخذ بالرأى القائل بنسبة الفاطميين إلى الامام المهدي المنتظر فيقول : "وكل ما يمكن قوله ، هو أن هذا النسب إلى الامام المنتظر محتمل بعض الاحتمال ، بالرغم من وجود هذه الحجّة العديمة القيمة ، وهي عدم اعتراف الشيعة بهذا النسب" (٢) .

(ب) رأى الطاعنين في صحة النسب

ينتسب عيد الله المهدي — على ما ذهب إليه أخو محسن وغيره ممن نقل عنه أولم يملوا إلى القول بصحة نسب الفاطميين — إلى ميمون بن ديصان الثنوي المذهب الذي ينتسب إليه الثنوية القائلون بوجود إلهين : إله النور وإله الظلمة .

وقد خلف القداح ابنه عبد الله ؛ ووصفه المقرئى فقال إنه كان عالما بجميع الشرائع والسنن والمذاهب . وقد اعتنق عبد الله هذا — على ما ذهب إليه أخو محسن — مذهب الشيعة ، لا للدعوة إلى إمامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، أو إلى ابنه محمد ، بل لحيلة اتخذها ليجمع حوله أتباعا ؛ بمعنى أنه اتخذ من هذه الدعوة وسيلة لتنفيذ أغراضه ، وهي تكوين دولة فارسية (٣) .

وقد ذهب الأستاذ نيكلسن (Prof. R. Nicholson) إلى القول بأن تأسيس الدولة الفاطمية ، كان أقصى ما وصلت إليه هذه المؤامرة القوية الدعائم ، التي تم تنظيمها بمهارة فائقة ، والتي شرع عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي الفارسي الأصل يروج لها قبل ذلك بنصف قرن ، وقد تملكت

(١) Ibid, pp. 2, 3

(٢) Wüstenfeld: Geschichte der Fatimiden—Chalifen, pp. 14, 15

(٣) المقرئى ، خطط (ج ١ ص ٣٤٨)

نفسه الكراهة في أبشع صيورها للعرب ، والاحتقار للإسلام والمسلمين ، مدفوعا الى ذلك بما يدعيه من حرية الفكر والعقيدة . وقد عمل على إيجاد جمعية سرية كبيرة تلقن الناس جميعا مبادئها كلا على قدر عقله واستعداده ، وتعبث بأشد الميول وأقواها ، وتغتر بكافة عوامل الضعف الكامنة في الطبيعة البشرية ، للجمع بين كل الساخطين في صورة مؤامرة ترمي الى قلب النظام الحاضر^(١) .

وهذا كله مما حدا بعبد الله بن ميمون — على ما ذهب اليه دوزي (Dozy) — "الى العمل على استخلاص الحكم ، ان لم يكن لنفسه ، فلا ولاده من بعده ؛ وهذه فكرة — إن صححت — تعد فكرة عظيمة ، لأنها تنطوي على الجرأة والإقدام . وقد ساعد على تحقيقها ما وهبه هذا الرجل من مهارة وحيلة ودراية تامة بما في قلوب الناس^(٢)" .

تأييد الفرس للعلويين

أما عن تعلق الفرس بأهداف عقائد المذهب الشيعي أو حزب علي ، فقد أوضح لنا الأستاذ براون (Prof. E. Browne) السبب الذي استمالهم الى ذلك ، معتمدا على ما ذكره جوبينو (Gobineau) في هذا الصدد حيث يقول : "إنني أعتقد أن جوبينو قد أصاب فيما قاله ، إن نظرية الحق الالهي وحصرها في البيت الساساني كان لها تأثير عظيم في تاريخ الفرس في العصور التي تلتها . ولقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متمشية بطبيعتها مع ديمقراطية العرب ؛ غير أنها لا يمكن أن تظهر في نظر الفرس الا بمظهر ثوري غير مطابق لطبائع الأشياء . أضف الى ذلك ما كان من نزعة السخط والكراهة التي أضمرها هؤلاء الفرس لعمر ، ثاني الخلفاء الراشدين ومقوض دعائم الامبراطورية الفارسية . وإن هذه النزعة وان تسترت بستر الدين ، فلن يفوت الباحث تفهم سرها ومراميها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الحسين ، وهو أصغر ولدى فاطمة بنت النبي وعلي ابن عمه ، قد قالوا إنه قد تزوج من شهر بانوه ابنة يزيد جرد الثالث آخر ملوك آل ساسان . ومن هنا أصبح الأئمة من حزب الشيعة بقسميه (طائفة الاثنى عشرية الشائعة الآن في بلاد فارس ، وطائفة السبعية أو الاسماعيلية) لا يمثلون حق النبوة فقط ، بل يمثلون الملك أيضا ، لأنهم من سلالة النبي محمد وآل ساسان معا^(٣) .

Prof. R. Nicholson : Literary History of the Arabs, pp. 271-272 (١)

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, vol. I. p. 8 seq. (٢)

Prof. Browne : Literary History of Persia, vol. I. p. 130 (٣)

من ذلك تولدت هذه النظرية السياسية التي يشير إليها جوينو في العبارة الآتية حيث يقول :
” كانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس ، وهى أن العلويين
وحدهم يملكون حق حمل التاج ، وذلك بصفقتهم المزدوجة ، لكونهم وارثى آل ساسان من
جهة أمهم يلي شهربانوه ابنة يزديجرد آخر ملوك الفرس ، والأئمة رؤساء هذا الدين حقا “ (١) .

كيف سار عبد الله بن ميمون في تحقيق أغراضه ؟

أظهر عبد الله بن ميمون القداح ، الذى يرى بعض المؤرخين نسبة الفاطميين إليه ، الزهد
والتقشف ، والعلم والتشيع ؛ فحاز ثقة الناس ونجح في تأسيس جمعية سرية . ثم أخذ يعلم الناس
أسرار الدعوة التى قسمها الى سبع درجات (وزادت فيما بعد حتى بلغت تسعا في أيام الفاطميين) ،
فكثرت أنصاره .

وكان عبد الله ودعائه يعلمون الناس — كما قدمنا — كلا على قدر عقله ودينه ومذهبه . فكان
الداعى يبدأ باظهار بعض مشكلات القرآن ؛ حتى اذا ما طلب الناس منه حل هذه الرموز ، أخذ
عليهم العهود والمواثيق بأن يجعلوا هذه الدعوة سرا مكتوما ، ثم طلب منهم أن يدفعوا ضريبة مقررة
تساعده على نشر مذهبه .

واذا تم للداعى ما أراد ، دخل الطالب في المرحلة الثانية ؛ ومؤداها أن فرائض الاسلام
لا تؤدى الى مرضاة الله ، إلا اذا كانت عن طريق الأئمة السبعة من ولد اسماعيل بن جعفر الصادق .
فاذا وصل الطالب الى المرحلة الرابعة ، اعتقد أن محمد بن اسماعيل هو خاتم النبيين ؛ ومن تقدم
هذه المرتبة لا يعلم سوى نظريات فلسفية لا تمت للاسلام بشيء ، حتى يصل به الاعتقاد الى أن
محمد بن اسماعيل هو عبد الله بن ميمون ، وأنه بمنزلة هرون من موسى ، أو بمنزلة علي من محمد .

اتصل بالوالى خبر عبد الله بن ميمون ، فقصده بالسوء ؛ ففر من فارس الى البصرة قبل
سنة ٢٦١ هـ (٨٧٤ م) ، وأقام في أسرة عقيل بن أبي طالب ، فحامت حوله الشبهات ؛ فرحل
الى الشام وأقام في سلمية حيث ولد له ابن سماه أحمد ؛ خلفه بعد وفاته .

ولما مات أحمد هذا ، خلفه في الدعوة ابنه الحسين ؛ ولكنه مات بعد قليل ، فقام من بعده أخوه محمد المعروف بأبي الشلعل ، وهو الذي بعث إلى بلاد المغرب بأبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس اللذين قدمنا خبرهما .

وكان لأحمد بن الحسين ولد اسمه سعيد ، أصبح في حجر عمه بعد وفاة أبيه . وقد اشتهر أمر سعيد هذا بعد وفاة عمه وكثر ماله وأنصاره ، حتى اضطر الخليفة العباسي المعتضد إلى التشديد في طلبه ؛ ففر من سامية يريد بلاد المغرب عن طريق مصر ، فخبسه أمير سجلماسة — على ما ذكرنا — وظل في حبسه إلى أن أطلقه أبو عبد الله الشيعي وذهب به إلى رقادة ، حيث تسمى بالمهدي وتلقب أمير المؤمنين ، وانتسب إلى اسماعيل بن جعفر الصادق .

هذا ما ذهب إليه من يتكروا صحة نسب عبيد الله المهدي إلى علي وفاطمة ، إذ يقولون إن عبيد الله المهدي هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القдах بن ديصان للثنوي الأهوازي ، وأصله من المجوس .

وليس هذا كل ما يقوله الذين أنكروا صحة نسب الفاطميين . فقد ذكر أخو محسن أن سعيدا — أو عبيد الله — كان ابن حداد يهودي مجهول ، تزوجت أرملته بعد وفاته بالحسين بن أحمد بن عبد الله ابن ميمون ؛ فتبنى سعيدا ، وأدبه وعلمه أسرار مذهب الاسماعيلية ، وأوصى الدعاة بطاعته ، وزوجه ابنة عمه أبي الشلعل (١) .

ولقد ذاع قول أنحى محسن وأخذ به المؤرخون الذين لا يميلون إلى القول بصحة نسب الفاطميين ، مثل أبي بكر الباقلائي (٢) المتوفى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، وابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) ، وابن واصل (٣) المتوفى سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) ، والذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٨ م) في كتابه " تاريخ الاسلام " .

(١) المقرئ ، انماظ الحفا (ص ٢١ و ٢٢)

(٢) كتب القاضي أبو بكر الباقلائي كتابا سماه " أسرار الباطنية " ، وهو الكتاب الذي أشار إليه المقرئ (المقني الكبير ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ١٦٦ ب) . وفي هذا الكتاب حل الباقلائي على الفاطميين وأنكر صحة نسبهم . وتوفى ، على ما ذكره ابن خلكان (١ - ٦٠٩) ، في بغداد سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) .

انظر أيضا أبا الفدا (ج ٢ ص ١٥١) ، وستفيلد (Wüstenfeld : Geschichte der Fatimiden—Chalifen, p. 1).

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٧٠٢ ، ورقة ٢٣٠ ب — وقد روى أبو المحاسن (المجلد الثاني ج ١ رقم ١ ص ٩٠) بعض ما جاء بكتاب ابن واصل عن هذا الموضوع .

وقد ذكر ابن خلكان أن جماعة من أهل مصر طعنوا في نسب المعز واتصاله بعلی بن أبی طالب ، حتى أن هذا الخليفة لما وصل مصر ، اجتمع به بعض الأشراف وسأله أحدهم ، وهو ابن طباطبا : ” إلى من ينتسب مولانا ؟ “ فأجاب المعز بأنه سيعقد مجمعا يضم كافة الأشراف ويسرد عليهم نسبه . حتى إذا ما انعقد المجلس في القصر ، سل المعز سيفه إلى النصف وقال : ” هذا نسبي “ ؛ ثم غمرهم بالذهب الكثير وقال : ” وهذا حسبي “ .

ومن هنا نشأ القول المأثور ” سيف المعز وذهبه “ للإشارة إلى بطلان الشيء وأنه مأخوذ كرها .

ولقد أنكر دى سلين (De Slane)^(١) بالدليل صحة هذه الرواية ؛ لأنه لما وصل المعز مصر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) كان ابن طباطبا قد مات سنة ٣٤٨ هـ (٩٥٩ م) ، أى قبل أربع عشرة سنة ، على ما ذكره ابن خلكان في موضع آخر^(٢) .

ولقد نقل ابن خلكان أيضا حكاية أخرى تبين لك مبلغ انكار المصريين صحة نسب الفاطميين . ذلك أن العزيز ٣٦٥ — ٣٨٦ هـ (٩٧٥ — ٩٩٦ م) صعد المنبر يوم الجمعة في أوائل أيام خلافته ، فرأى ورقة فيها هذه الأبيات :

إنا سمعنا نسبا منكرا يتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقا فاذا كرأبا بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته فانسب لنا نفسك كالطائع^(٣)
أو فدع الأنساب مستورة وادخل بنا في النسب الواسع
فإن أنساب بني هاشم يقصر عنها طمع الطامع^(٤)

وقد روى لنا الثعالبي حكاية أخرى تؤيد هؤلاء المؤرخين إذ يقول إن عبدالرحمن الثالث الأموي الأندلسي تلقى من العزيز كتابا يسبه فيه ويهجه ، ليس لسبب نعرفه ؛ فكتب إليه عبد الرحمن : ” أما بعد ، فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك “^(٥) .

(١) Ibu Khalikān's Biographical Dictionary : English Translation, vol. II. p. 49, n. 7

(٢) ج ١ ص ٣٢٦

(٣) هو الخليفة العباسي ٣٦٣ — ٣٨١ هـ (٩٧٣ — ٩٩١ م) .

(٤) ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠٠) .

(٥) الثعالبي : يتيمة الدهر (ج ١ ص ٢٢٤) .

(ج) أقوال المثبتين لصحة النسب

لقد خالف كثير من الكتّاب والشعراء وغيرهم من ذوى رأى والجاه من أولاد علي بن أبي طالب، ما ذهب إليه من ذكرنا من المؤرخين الذين ينكرون نسب الفاطميين إلى علي وفاطمة إذ اعترفوا بصحة هذا النسب . فيكون نسب عبيد الله المهدي ، على ما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون وغيرهم كما يلي : عبيد الله (أو سعيد) المهدي بن أحمد بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق (١) .

والآن نأتى بأمثلة صالحة من أقوال الشعراء والكتّاب المعاصرين للفاطميين ، ممن تصدوا للكلام على هذا الموضوع ؛ فنذكر الشريف الرضى العلوى (٢) ، وناصرى خسرو (٣) الاسماعيلى المذهب المتوفى سنة ٤٨١ هـ ، بل وعمارة اليمنى الشاعر المشهور المتوفى سنة ٥٦٩ هـ ، وكان من غلاة أهل السنة كما سيأتى بيانه فى الباب الرابع عند كلامنا على ما قام به هذا الشاعر فى سبيل تأييد سلطان الفاطميين .

أجل ! لقد طعن كثير من المؤرخين والكتّاب فى نسب مؤسس هذه الأسرة ، مما جعل هذه المسألة من أعقد مسائل تاريخ الشرق وأكثرها غموضا وإبهاما ، لتشعب آراء الكتّاب المعاصرين من العرب على اختلافهم ؛ لأنهم كتبوا متأثرين بسطوة الخلفاء من العباسيين أو من الفاطميين ، ذلك الأمر الذى أدى بهم إلى إيراد هذه الآراء التاريخية المتناقضة .

وقد أشار كترمير (Quatromère) فى كلامه عن أصل الفاطميين بهذه العبارة : ” بيد أنه لسوء الحظ ، فإن بعد الزمن ، وما ساد العقول من أوهام ، وما تسلط على نفوس الرجال من نزعات وميول ، وما أدلى به المؤرخون من أدلة متناقضة متضاربة : فريق ألف وكتب متأثرا بسلاطان الخلفاء العباسيين ، وفريق آخر قام بهذا العمل مجارين أعداء هذه الأسرة — كل ذلك أحاط هذه المسألة بظلام دامس ، لا يستطيع مشعل النقد كشفه إلا بشكل ناقص مبتور“ .

(١) هناك أقوال كثيرة مختلفة وردت عن نسبة الفاطميين إلى اسماعيل بن جعفر ؛ ولا حاجة بنا إلى استقصائها هنا .

(٢) أبو الحسن محمد بن علي بن أحمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق .

(٣) كان ناصرى خسرو اسماعيلى المذهب ؛ زار مصر فى القرن الخامس من الهجرة (الحادى عشر الميلادى) . وقد تكلم عن نفسه فقال أنه وصل القاهرة فى ٧ صفر سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) وأقام فيها إلى يوم الثلاثاء ١٤ ذى الحجة سنة ٤٤١ هـ (أبريل سنة ١٠٥٠ م) . واعتبر القاهرة — كغيره من الاسماعيلية الفلاة — مركزا لهذا المذهب ، واعتقد أن الخليقة الفاطمية هو الامام حقا . وذكر هذه الحقائق فى كتابه ” سفرناؤه “ الذى ستأتى الإشارة إليه فى الباب الذى يتناول الكلام على ثورة مصر وميلغ رضائها .

“Mais, par malheur, l'éloignement des temps, les préjugés, les passions des hommes, les témoignages contradictoires des chroniqueurs, dont les uns ont écrit sous l'influence des Khalifes abbassides, d'autres sous celles des ennemis de cette dynastie, ont répandu autour de cette question des ténèbres épaisses, que le flambeau de la critique ne saurait dissiper que d'une manière imparfaite ” (١).

وبالرغم من تباين آراء الكتّاب الأقدمين في هذه المسألة ، فأننى أميل الى القول — ولو بشيء من التردد — الى أن نسب الخلفاء الفاطميين الى فاطمة صحيح ، وأنه بسبب هذا الغلو الذى ساد المعتقدات الفاطمية ، هم مناظروهم يدحضون ما ادّعوه من النسبة الى فاطمة ، عسى أن يحيط ذلك من شأنهم في أعين رعاياهم .

ولا غرو فان التحيز ليظهر ظهورا بينا من ثنايا أقوال الكتّاب من السنين ، مما يجعل دحضه أمرا ميسورا . ولا بأس من أن نأتى في هذا الصدد بمثل أو مثلين من هذه الأقوال : فمن ذلك ما ذهب اليه السنيون من أن أبا عبد الله الداعى لما علم بقتل المهدي في سجنه بسجلماسة ، أجلس على العرش رجلا يهوديا لا حيثية له ، وادّعى أنه الإمام المنتظر . وهنا يتساءل المرء : ما هو الدافع الذى حمل أبا عبد الله الشيعى على عدم إجلاس أبى القاسم بن المهدي بعد وفاة أبيه ؟ كما نتساءل أيضا : ألم يجد أبو عبد الله الشيعى من يجلسه من المسلمين مكان عبيد الله حين علم بموته ، وخصوصا بالنسبة لابنه ؟ ولقد كان هناك من العلويين من يصلح لهذا المركز بدلا من ذلك اليهودى الذى لا قيمة له ، والذي لا ندرى كيف عثر عليه بهذه السهولة .

نعم ! لاشك في أن هذا العمل كان من السهولة بمكان ؛ فضلا عن أنه لم يكن ينطوى تحته إجراء تغيير أو تبديل في البيعة ؛ لأن حق المهدي يتحول بمقتضى قانون الشيعة الى ابنه بصورة طبيعية :

وهناك مثل آخر ، وهو ما سبق أن أشرنا اليه من إحراج ابن طباطبا للمعز بسؤاله عن نسبه ، وما كان من سل المعز سيفه قائلا : “ هذا نسبي ” ، وثره الذهب الكثير قائلا : “ وهذا حسبي ” .

هذا مثل من أقوالهم . ونحن نشك فيه كل الشك ، إذا علمنا أنه لما وصل المعز مصر سنة ٣٦٢ هـ كان ابن طباطبا قد مات سنة ٣٤٨ هـ ، أى قبل أربع عشرة سنة من مجيئه .

ولدينا من الحقائق التاريخية ما يؤيد قبول المذهب القائل بصحة نسب الفاطميين الى النبي .
فقد ساعد اعتقاد الناس في صحة هذا النسب على نشر سلطة الفاطميين الروحية والزمنية — أو كليهما —
في كثير من البلاد الاسلامية الى حد أن نجح الفاطميون في الحصول على اعتراف الناس بهذه السلطة
في أكثر بلاد الدولة العباسية ، دون أن يحدوا معارضة من الرأي العام في ذلك الوقت .

وبدئى أن الوصول الى اعتراف الناس بأن المهدي وخلفاءهم الأئمة حقا وانهم يتصلون
بالنسب الى فاطمة ، راجع الى ذلك النشاط الذي أبداه دعاة الفاطميين . ذلك أنه بعد تأسيس
الدولة الفاطمية في القيروان بقليل ، ذهب شعراء الأغلبية المتشيعون من أمثال ابن سعدون الوردجيلي^(١)
إلى القول بصحة هذا النسب ، كما يتبين ذلك من هذه الأبيات التي أنشدها هذا الشاعر في حضرة
المهدي عبيد الله وأبي عبد الله الشيعي داعي دعائه :

هذا أمير المؤمنين تضعضتُ لقدومه أركانُ كل أمير
هذا الامامُ الفاطمي ومن به أمنت مغاربها من المخدور
يا من تحيّر من خيار دعائه أرجأهم للعسر والميسور^(٢)

ولم يفتر الخلفاء الفاطميون عن إجزال العطاء للشعراء الذين شادوا بذكرهم وأطنبوا في أحقيتهم
بالإمامة . فليس من عجب إذا ” أمر المهدي للشاعر بصلة جزيلة كانت تجرى عليه لكل عام ،
ووصله أبو عبد الله أيضا “^(٣) .

هذا ، وقد ذكر لنا مسكويه والمقرئزي أن نصر بن أحمد الساماني أمير خراسان بعث
الى المهدي بكتاب يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بامداده بالرجال ، كما يتبين من هذه العبارة :
” أنا في خمسين ألف مملوك يطيعونني ، وليس على المهدي بهم كلفة ولا مؤنة ؛ فان أمرني بالمسير
سرت اليه ، ووقفت بسيفي ومنطقتي بين يديه وامثلت أمره ... الخ “^(٤) .

أضف الى ما تقدم ما كان من أمر يوسف بن أبي الساج أمير الري — إذا أخذنا بقول
كاتبه محمد بن خلف النيرماني — فقد فكر في خلع طاعة الخليفة العباسي المقتدى والدخول

(١) يحتمل أن يكون هذا اللفظ مشتقا من ورجلان ، وهي كورة بين شمال إفريقيا وبلاد الجريد التي يسكنها قوم
من البربر ورجانته — البركي (ص ٧٧ و ١٨٢) وياقوت : معجم البلدان — انظر لفظ ورجلان .
(٢) و(٣) و(٤) المقرئزي : كتاب المغني الكبير — المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢٢٣ أ و ب .

في طاعة الامام العلوي بالقيروان الذي كان أبو طاهر القرمطي — على ما ذهب اليه ابن أبي الساج — من أصحابه وأنصاره . وقد أورد لنا مسكويه هذه الحكاية بشيء من التفصيل ، ونحا المقرئ فيها منحنى الإيجاز .

ولقد أخبر ابن أبي الساج — على ما ذكره مسكويه ^(١) — محمد بن خلف ، أنه متى جمع خراج واسط والكوفة وسقي الفرات عن سنة ٣١٤ هـ ، شق عصا طاعة الخليفة العباسي وأظهر الدعوة للمهدي ، ثم دعا الناس الى الدخول فيما دخل فيه ، وسار الى بغداد . فكتب محمد بن خلف بذلك كله الى نصر الحاجب ، فأوصله الى مسامح الخليفة العباسي .

غير أنه يظهر لنا أن الخليفة لم يقيم بأي عمل إزاء هذا الحادث ؛ بل علمنا بالقبض على ابن خلف ومصادرة أمواله ؛ وعلمنا أيضا أن ابن أبي الساج كان يقود الجيوش العباسية ويحارب ضد أبي طاهر بظاهر الكوفة (شوال سنة ٣١٥ هـ) ، وأن الهزيمة حلت بابن أبي الساج فأُسِر ثم انتحر ^(٢) .

وبالرغم من أن عبارة مسكويه لا تدل على أن ابن أبي الساج لم يقيم في هذه الحرب بعمل تشتم منه رائحة العصيان للخليفة العباسي ، فإن هذا الأمر لا يحول دون ما نراه ، وهو أنه كان يميل الى الدخول في دعوة المهدي ، ولكن الفرصة لم تكن بعد لأن يقوم بتحقيق مثل هذا العمل .

أضف الى ما تقدم أن مرداويج بن زيار الديلمي ، أحد قواد الأصغر أمير قزوين ، الذي طرد الأصغر واستولى على بلاده ثم فتح الري وأصبهان — وكانا من قبل تحت ولاية ابن أبي الساج — قد بعث بالرسل يحملون المال الكثير للمهدي في شمال إفريقيا ، وأعلن رغبته في الدخول في طاعته .

ولقد أورد لنا المقرئ عبارة موجزة نتبين منها اتجاه ميول هؤلاء الأمراء الى ما ادعاه الفاطميون من حق في الخلافة ، مما لا يترك مجالاً للشك في أن نسب عبيد الله الى فاطمة كان أمراً معترفاً به في ذلك الوقت ؛ وقد ختم المقرئ عبارته بقوله إن المهدي ظن أن الوقت لم يحن بعد لأن يطلب معونة هؤلاء الأمراء ، فنصح اليهم أن يلزموا مراكزهم ، كما يظهر ذلك من هذه الكلمات التي كتبها المهدي بيده ، نذكرها في عبارة المقرئ وهي :

(١) (ج ١ ص ١٦٧ — ١٦٨) .

(٢) (ج ١ ص ١٧٣ وما يتبعها) .

لقد وبعث اليه نصر بن أحمد أمير خراسان يقول : أنا في نحسين ألفا يطيعونني وكتب اليه مرداويج الجيلي بمثل ذلك . وكتب اليه يوسف بن أبي الساج وأنفذوا رسلهم مع الأموال إليه ؛ فوقع على ظهر كتبهم : ” الزموا مراكم (لكل أجل كتاب) “^(١) .

أجل ! لقد بلغ نفوذ دعاة الفاطميين في بلاد الدولة العباسية مبلغا عظيما ؛ كما كان للعلاقات الودية التي سادت بين الفاطميين والقرامطة في هجر في أيامها الأولى أكبر الأثر في جذب كثيرين الى اعتناق مذهب الاسماعيلية في بلاد الدولة العباسية . يدل ذلك على صحة ذلك هذا الحديث الذي دار بين علي بن عيسى وزير القائم العباسي ، ورجل من شيراز نفي الى الوزير أنه كان يتجسس لقرامطة البحرين ويكتبهم . وقد دار الحديث في حضرة الوزير والقاضي والقواد ؛ وناظر هذا الشيرازي الوزير في هذه الكلمات التي نقلها بنصها عن مسكويه :

” أنا صاحب أبي طاهر (القرمطي) ؛ وما صحبته الا لأنه (في الأصل على أنه) على حق ، وأنت وأصحابك ومن (في الأصل وما) يتبعكم كفار مبطلون ؛ ولا بد لله في أرضه من حجة وإمام عدل ؛ وإمامنا المهدي فلان بن اسماعيل بن جعفر الصادق ؛ ولسنا (في الأصل وليس نحن) مثل الرافضة الحق الذين يدعون الى غائب منتظر “^(٢) .

أما الطريقة التي لاقى بها هذا الرجل حتفه ، فاننا تركها لخيال القارئ .

ويلحق بعض المؤرخين أهمية كبيرة على قصيدة الشريف الرضي ؛ إذ أثارت حتى الخليفة القادر ، وأدت الى عقد اجتماع الفقهاء وأقطاب العلويين ، وكتب فيه محضر (في ربيع الثاني سنة ٤٠٢ هـ — ١٠١١ م)^(٣) طعن فيه المجتبعون في نسب الفاطميين ، وكانوا في هذا الأمر مدفوعين بعوامل الخوف أو منساقين بميولهم وعدائهم لهذا المذهب . وقد تلا هذا المحضر محضر آخر مما كتبه في سنة ٤٤٤ هـ (١٠٥٢ م)^(٤) .

وهذه القصيدة وإن لم تظهر في ديوان الرضي بادئ الأمر ، فإن تناقل الكتاب لها على اختلافهم يدل على ثبوت نسبتها الى الرضي .

(١) سورة ١٣ آية ٣٨

المقرئ : المقنى الكبير - المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢٢٣ ب .

(٢) مسكويه (ج ١ ص ١٨١) .

(٣) أبو الفدا (ج ٢ ص ١٥٠) وأبو المحاسن - المجلد الثاني (ج ٢ رقم ١ ص ١١٢ و ١١٣) .

(٤) أبو المحاسن . المجلد الثاني (ج ١ ص ٢١٣ — ٢١٤) .

وقد نقل المقرئى^(١) عن هلال الصابئ وابنه مجد ، أن الرضى لم يودع ديوانه هذه القصيدة خوفا من الخليفة العباسى وإرضاء لأبيه . أضف الى ماتقدم ما كان من امتناع الرضى عن إنكار نسبة هذه القصيدة إليه ، ومما طلت في التوقيع على المحضر حين طلب منه التوقيع . كل هذه حقائق تاريخية لها قيمة عظيمة من حيث اثبات صحة نسبة هذه القصيدة الى الرضى .

هذا إلى أن صرف الرضى عن النظر في المظالم ونقابة العلويين وإمارة الحج^(٢) ، وما كان أيضا من إجماع كثيرين من المؤرخين على نسبة هذه القصيدة اليه — كل ذلك يدحض قول البعض من أن هذه القصيدة التي نسبت الى الرضى لم تكن من نظمه . ولا بأس من إيراد بعض أبيات من هذه القصيدة :

ما مُمَاقى على الهوان وعندى مقولٌ صارم وأنف حمى
أحمل الضيم في بلاد الأعادى وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا ي إذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيدا النسا س جميعا محمد وعلى^(٣)

ولا يزال هناك فريق آخر من المؤرخين غير من ذكرنا ، لا يتردد في القول بأن دعوى الفاطميين النسب الى على - قائمة على أساس متين . نذكر من بين هؤلاء ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٤ م) ، وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) ، والمقرئى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) .

أما ابن الأثير فإنه يجعل لقصيدة الرضى أهمية كبيرة . هذا إلى ما كان من امتناعه عن انكار نظمها ، ومن توقيعه على المحضر الذى طعن في نسب الفاطميين ، وصرفه عن المناصب التي تقلدها من قبل الخليفة العباسى . وزاد ابن الأثير هذه المسألة بيانا فقال إنه ناقش مسألة هذا النسب مع جماعة من العلويين العالمين بالأنساب ، فلم يرتابوا في أن الفاطميين من أولاد على^(٤) .

(١) اتعاظ الخفا (ص ١٦) .

(٢) المقرئى ، اتعاظ الخفا (ص ١٥ و ١٦) نقلا عن هلال الصابئ .

(٣) ديوان الشريف الرضى (ص ٩٧٢ و ٩٧٣) . قل هذه القصيدة من المؤرخين ابن الأثير (ج ٨ ص ٨ و ٩) ،

والمقرئى (اتعاظ الخفا ص ١٦) وغيرهما .

(٤) ابن الأثير (ج ٨ ص ٨ و ٩) .

وأما ابن خلدون ، وهو من المتعصبين لمذهب الشيعة ، فقد دحض في "مقدمته" هذه الأقوال التي أنكر فيها المؤرخون والكتاب صحة هذا النسب حيث يقول : "ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثيرون من المؤرخين والأثبات في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة ، من نفيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم ، والطعن في نسبهم إلى اسماعيل الإمام بن جعفر الصادق ؛ يعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس ، تزلها إليهم بالقدح فيمن ناصبهم ، وتفنتا في الشماتة بعدوهم ... ويففلون عن التفطن لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التي اقتضت خلاف ذلك ، من تكذيب دعواهم والرد عليهم ؛ فانهم متفقون في حديثهم عن مبدأ دولة الشيعة أن أبا عبد الله المحتسب لما دعا بكامة للرضى من آل محمد ، واشتهر خبره وعلم تحويمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم ، خشيا على أنفسهما ، فهربا من المشرق محل الخلافة واجتازا مصر ، وأنها خرجا من الاسكندرية في زى التجار ... الخ" (١) .

أما المقرئى ، وهو ممن ينتسبون إلى الفاطميين أيضا ، فقد شدد النكير على ما كتبه الكتاب الذين لا يميلون إلى القول بصحة هذا النسب ، بنفس هذه الروح التي سادت أقوال ابن خلدون ؛ حتى إننا إذا وازنا بين عبارتي هذين الرجلين ، تبين لنا أن المقرئى (٢) نقل جزءا غير قليل مما كتبه ابن خلدون .

أما وقد أوردنا شيئا غير قليل عما قيل في نسب الفاطميين ، فانه يجدر بنا ألا نغض الطرف عن عبارات ثلاث أمدنا بها المقرئى في مخطوطه "المقفى الكبير" نقلا عن اثنين من الكتاب المعاصرين للفاطميين : هما أبو حنيفة النعمان المغربي المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ، وقاضى قضاة الخليفة المعز والثقة في قوانين الاسماعيلية ، والمُسَبَّحى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ ، وهو أيضا حجة في تاريخ المصدر الأول من أيام الفاطميين ، ذلك التاريخ الذى لعبت به يد الدهر ، ولم يصل إلى أيدينا منه شيء ، اللهم الا هذه الشذرات التي نقلها عنه ابن منجب وابن ميسر ، وابن خلكان والمقرئى ، وأبو المحاسن وغيرهم .

هذا ، وتختصر أهمية هذه الوثائق التاريخية في إثبات شخصية عبيد الله ، وأنه المهدي من آل عليؑ ، الأمر الذى أيده الدعاة الذين كان يلقاهاهم عبيد الله أنى سار ؛ كما تقف منها على أن عبيد الله هذا بث معتقدات مذهبه في طي الخفاء ، ليأمن على نفسه القبض والحبس .

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٢١)

(٢) نخط (ج ١ ص ٣٤٨ — ٣٤٩) ، واتماظ الحفا (ص ٢٤ — ٢٦)

وقد أورد لنا أبو حنيفة النعمان المغربي حكاية نقلها عن أبي القاسم الحسن بن أبي الفرج ابن حوشب ، الذى صار فيما بعد داعيا للدعاة من قبل عبيد الله فى اليمن . وكان ابن حوشب هذا ممن يعتقدون أن ظهور المهدي قد آن أوانه ؛ فذكر ما قاله الفهرى ^(١) أحد الشعراء فى هذا الصدد .

واستطرد أبو حنيفة فى كلامه عن ابن حوشب حيث يقول : ” فخرجت الى دجلة ، ثم أخذت فى قراءة سورة الكهف ^(٢) ؛ فأقبل شيخ يمشى معه رجل ما نظرت الى أحد يملأ قلبى هيبة قبله ؛ فجلس ناحية ، وجلس الرجل بين يديه . وأقبل غلام فقرب منى ، فقلت : من أنت ؟ فقال حسنى (؟) ، فاستعبرت وقلت : بأبى الحسين المضرع (المدرج فى الأصل) بالدماء المتنوع من هذا الماء ! فرأيت الشيخ ينظر الى ، وكلم الرجل الذى بين يديه ، فقال لى الرجل : تقدم إلينا ! فقممت وجلست بين يديه “ .

بعد ذلك يقص علينا ابن حوشب الحديث الذى دار بينه وبين هذا الرجل الطاعن فى السن ؛ ثم يستطرد فى الكلام فيبين لنا مبلغ حديث هذا الرجل من نفسه ، وما لاحظته عليه من راحة العقل ؛ ويصف لنا ذلك اليأس الذى تطرق الى نفسه لجهله المكان الذى رحل إليه . وبيننا ابن حوشب مطرق يفكر ، إذ انقضت غياهب الأسى عن نفسه حين حضر الرجل الذى كان فى صحبة الامام وأخبره بمقره .

ويصف لنا بعد ذلك أيضا ابن حوشب ما كان من التقائه بمحمد الحبيب ^(٣) والد عبيد الله المهدي ، وعهده إليه فى سنة ٢٦٨ هـ (٨٨١ م) بأقامة الدعوة له فى بلاد اليمن ^(٤) .

(١) ذكر المقرئى (المقفى الكبير — المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ورقة ٢١٢ ب) أنه أثر عن علي بن محمد بن علي بن موسى الكاظم أنه قال فى سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٨ م) ان المهدي سيظهر بعد اثنتين وأربعين سنة ، أى سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) ؛ فعبر الفهرى عن هذا التصريح بأسلوب شعري ، حيث قال فى قصيدة نقل منها هذه الأبيات :

ألا يا شبيمة الحق ذوى الايمان والبر
ومن هم قصرة الله على الخويف والرجز
فعتد الست والتسعين قطع القول فى العذر
لأمر ما يقول لنا من بيع الدريال بغير

نقل هذه الأبيات مسيو كترير ، ونشرتها المجلة الآسيوية الفرنسية فى عدد أغسطس سنة ١٨٣٦ (Quatremère : Journal Asiatique, Août, 1836, pp. 123-131)

(٢) القرآن الكريم سورة ١٨

(٣) هذا الشيخ هو محمد الحبيب على ما ذكره ابن خلدون (ج ٤ ص ٣١) . أنظر الفصل السابع من الباب الأول من هذا الكتاب .

(٤) المقرئى : المقفى الكبير ، المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ٢١٢ أ — ٢١٣ ب .

وإذا جاز لنا أن نأخذ بعبارة أبي حنيفة النعمان المغربي ، رأينا أن شخصية الإمام كانت ثابتة معروفة لدى أخصائه المقربين إليه ، وأن مكان إقامته كان على الدوام سرا لا يعلم به إلا أنصاره ، لما كان من تشدد الخلفاء العباسيين في طلبه والقبض عليه .

ومما هو جدير بالملاحظة أن مسألة مقابلة الإمام مع ابن حوشب ، التي كانت على ما ذهب إليه أبو حنيفة قبل سنة ٢٦٨ هـ (وقد تقابلا لأول مرة في سنة ٢٦٦ هـ) — وهي السنة التي تعين فيها ابن حوشب داعيا للدعاة في اليمن — مسألة يحوطها الشك ، إذا كان عبيد الله هذا هو الإمام والمهدي حقا .

ومما لا نشك فيه أن ولادة المهدي كانت في سنة ٢٥٩ هـ (أو ٢٦٠ هـ) ؛ فلم يكن قد بلغ العاشرة من العمر حين المقابلة لأول مرة . وإذا جاز لنا أيضا أن نجزم بصحة هذه الحكاية ، فإن التفسير الذي يمكن أن نفسره به هذه المسألة ، هو أن هذا الرجل المسن هو محمد الحبيب أبو المهدي ، وأن هذا الصبي هو من أولاد الحسين والمهدي نفسه . ومن الواضح الجلي أن هذم الحكاية لا بد أن يكون قد دخل عليها شيء من التحوير والتبديل منذ وقع هذا الحادث إلى يومنا هذا .

وهنا نذكر أيضا ما رواه لنا المقرئ عمار ذكره المسبحي في حادث آخر ، نتبين منه كيف أن نسب المهدي عبيد الله كان أمرا لم يناع فيه أحد من دعاة الفاطميين وغيرهم من عليّة القوم في مصر ؛ وكان بين هؤلاء طائفة من بلاط الأخشيد ؛ كما نتبين أيضا أن رجال البلاط هؤلاء قدموا للمهدي كل ما استطاعوا من معونة ، لا لشيء سوى أنه من أولاد عليّ .

وبعد أن يقص علينا المسبحي قصته عن وصول عبيد الله إلى مصر ورحيله عنها مخفيا في زى التجار^(١) ، يروي لنا حكاية أخرى نقلها عن أحد أحفاد أبي عليّ الداعي^(٢) الذي صحب المهدي أثناء مقامه في مصر ونقلها للقارئ فيما يلي :

”وأخبرني بن محمد بن أبي عليّ الداعي أن الامام المهدي صلى يوما الصبح في الجامع العتيق بمصر تحت اللوح الأخضر ومعه أبو عليّ الداعي . فلما خرجا من الباب ، ضرب رجل بيده على كم الامام وقال له : قد حصلت لي عشرة آلاف دينار . فقال له : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك

(١) المقرئ : المقفى الكبير ، المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ٢١٩ ب .

(٢) إذا صحت سلسلة هذا النسب ، فإن اسم حفيد أبي عليّ الداعي يكون على هذا الوجه : مبارك بن عليّ بن محمود — رسائل الحاكم بأمر الله ، المكتبة الملكية بالقاهرة . مخطوط (كتب الشيعة ٢٠) ورقة ١٢ ب .

الرجل المطلوب ؛ فضحك المهدي ، ثم ضرب بيده إلى الرجل الذي ضرب بيده إلى كفه ، ودخل معه إلى صدر الجامع وقال له : عليك عهد الله وخليظ ميثاقه اني إذا جمعت بينك وبين الرجل الذي تطلبه ، كان لي عليك ولصديق هذا خمسة آلاف دينار . ثم أخذ بيده وأتى به إلى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، وأدخله من جانبها وفارقه ؛ فخرج من الجانب الآخر ، ولم يلتقيا إلى هذه الساعة^(١) .

هذا ، ويقص علينا المسيحي حكاية أخرى قهلهما عن هذا الداعي نفسه ، ننقلها للقارئ أيضا ، قال : "وكنيت يوما قائما على الجسر بمصر مع الامام المهدي ، إلى أن سمعت الجرس والنداء عليه : ألا برئت الذمة من رجل أوى رجلا صفته كذا وكذا ، ونعته كذا - ووصف صفة المهدي - ومن أتى به فله عشرة آلاف دينار حلا لا طيبا . فقال [المهدي] : يا أبا علي ! المقام بعد هذا عجز ، ثم ركب الجسر ؛ وسرت معه وسألته أن أرحل معه إلى بلاد المغرب ، فقال : علي من أدع ، من لي ههنا ؟ فبكيت ، فأنشدني شعرا مرئ القيس :

بكي صاحبي لما رأى الدربَ دونه وأيقن أنا لاحقا ببقيصرا
فقلتُ له : لا تبك عينك إنما نحاولُ ملكا أو نموت فنعدوا"

ولسنا نشك في صحة هاتين العبارتين الأخيرتين اللتين أوردتهما لنا المسيحي ؛ إذ يحتمل أن يكون حفيد أبي عبد الله الداعي ، الذي نقل عنه المسيحي ، قد سمع عن هذا الحادث من جده نفسه أو من أبيه الذي عاش بعد وقوعه بزمان قصير .

ولا نستطيع الجزم بأن هذه الحقائق التي أوردناها قد حلت مسألة نسب الفاطميين وأظهرت أنه يرجع إلى علي وفاطمة . لكنه لما كان من واجبتنا أن نزود الموضوع الذي تصدينا للكلام عليه بحقائق جديدة ، فقد حاولنا جهدنا . ولا شك في أن هذه العبارات قد ألفت قبسا من النور على نسب الفاطميين ، مما يجعل استقصاء هذا الموضوع أكثر سهولة على من يميلون لزيادة استقصائه .

ولم يصل المؤرخون بعد إلى رأى قاطع عن نسب الفاطميين إلى اسماعيل بن جعفر الصادق ، أو إلى ابن ميمون القداح . على أنه بالرغم من أن تعاليم هذين الحزبين متشابهة من كثير من الوجوه ، فإن انفصال هاتين الطائفتين بعضهما عن بعض ، والعداء الذي تجلى في هذه الحروب التي نشبت بينهما ، مما يجعل على الظن أن القرامطة إنما مالوا إلى الاسماعيلية وعطفوا على مذهبهم لأغراض سياسية .

(١) المقرئى - المقتنى الكبير - المكتبة الأهلية بباريس . مخطوط ٢١٤٤ ، ورقة ٢١٨ ب وما ينجمها .

٢ - أهمية مصر للدعوة الشيعية

(١) موقع مصر الجغرافي بين الشرق والغرب

كانت السنوات الثلاث الأولى من خلافة المهدي عهد نزاع ومشاكل متوالية ، أتيج له فيها القضاء عليها بما أوتيه من نشاط وهمة . وبموت أبي عبد الله الشيعي أصبح المهدي الحاكم المطلق لكافة أرجاء بلاد المغرب .

لم يكتف بشمال إفريقيا الخلفاء الفاطميون الذين كانت مجهوداتهم في سلمية موجهة إلى إقامة خلافة علوية على أطلال الخلافة العباسية ، كما فعل العباسيون مع الأمويين . وإنما كان اختيارهم لتلك البلاد راجعا — كما أسلفنا — إلى بعدها عن مركز الخلافة في بغداد ، وليليل البربر لإذكاء نار الثورة على الأسرة الحاكمة في بلادهم ، ولضعف هذه الأسرة الحاكمة نفسها .

نعم ! لقد وجه الفاطميون عنايتهم لهذا الجزء من أجزاء الامبراطورية العباسية ، حين أصبحت الجهود التي بذلوها لإقامة خلافة علوية في آسيا قاب قوسين أو أدنى من الفشل . ولا غرو فقد كان هذا هو السبب الحقيقي الذي تذرعه به المطالبون بالخلافة من العلويين ، الذين كانوا يودعون غياهب السجون أو كان القتل مصيرهم إذا انكشف أمرهم ، مما حدا بهم إلى الاستتار وتفويض إقامة الدعوة لهم إلى دعاة مهمتهم جذب الناس لهذه الدعوة ، بل وإخفاء أسمائهم الحقيقية تحت ألقاب أخرى ، من أمثال المهدي والمكتوم وغيرهما ، ليدعوا بذلك عن أنفسهم سخط العباسيين وحقنهم .

من هنا يعلم أن بلاد المغرب كانت ميدانا أصح من آسيا لنجاح الدعوة الفاطمية . بيد أن القيروان أو المهدية لم تكن لتصلح أن تكون حاضرة للامبراطورية الفاطمية ، لما يستدعيه اتخاذ الحاضرة في موضع يسهل معه التواصل مع الولايات الخاضعة لسلطانها .

ولهذا لا نتعجب إذا رأينا المهدي يضع الخطط لغزو مصر على أثر تأسيس خلافته في القيروان ، بالرغم من أن سلطان العلويين لم يكن قد توطد في كافة أرجاء بلاد المغرب قبل سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م)

— وهى السنة التى استولوا فيها على مصر — ولا غرو فان فكرة غزو هذه البلاد قد توارثها الخلفاء الفاطميون بعضهم عن بعض .

عنى الخلفاء الفاطميون عناية خاصة بامتلاك مصر ، لما لموقعها من عظيم الأهمية سياسيا وحربيا ، خصوصا وأن ولاية هذه البلاد كانت اليهم ولاية الشام والحجاز . فكان امتلاك مصر امتلاكا لهدين البلدين العظيمين ، وتأسيس نفوذ الفاطميين ، السياسى والدينى ، فى ثلاثة من المراكز الاسلامية الكبيرة وهى : القسطنطينية والمدنية ودمشق .

أجل ! إن تحقيق هذا المطمع الذى قصد اليه أول الخلفاء الفاطميين معناه تمهيد الطريق لتهديد بغداد نفسها ، حاضرة الامبراطورية العباسية فى ذلك الحين .

هذا ، ونستطيع أن نشير من بين المصادر التى عولنا عليها فى بحث هذا العصر من عصور تاريخ مصر ، الى ما كتبه الطبرى وأوتينا وعريب بن سعد ومسكويه .

أما تاريخ الطبرى الذى ينتهى إلى سنة ٣٠٢ هـ ، فإنه يقتصر على الكلام عن الخطوة الأولى التى خطاها المهدي فى سبيل تحقيق هذه الفكرة الجريئة التى كانت ترمى إلى غزو مصر . وأما "صلة تاريخ الطبرى" لعريب بن سعد ، فقد تناولت الكلام على هذه الحملات بشئ من الاسهاب . ويلوح لنا أن مسكويه استطاع أن يحصل على معلومات أوفى من تلك عن هذه الحملات . أما أوتينا والكندى ، وهما مصريا المولد والدار وأقدم هؤلاء المؤرخين بعد الطبرى ، فقد أمدنا كل منهما بمعلومات أكثر تفصيلا واسهابا عن هذا الموضوع .

فى سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) جيش المهدي جيشا من المغاربة تحت إمرة ابنه وولى عهده أبى القاسم ، وحجاسة بن يوسف^(١) ، وهو من زعماء كرامة . ويظهر لنا أن حجاسة هذا قد اضطلع بجميع أعباء هذه الحملة . تقدم هذا الجيش نحو الاسكندرية ، فاستولى فى طريقه على برقة^(٢) ،

(١) ذكر الطبرى (٣ : ٢٢٩١ و ٢٢٩٢) أن هذا الجيش كان تحت قيادة حجاسة . وخالفه فى ذلك عريب بن سعد (ص ٥٢) فقال إن أبى القاسم كان على رأس جيش المغاربة الذى دخل الاسكندرية فى سنة ٣٠١ هـ ؛ وهناك الذى كثيرا من الخطب ، لا يبعد أنه تلمس من ورائها الحصول على معونة المصريين . وقد قرأ عريب نفسه نص هذه الخطب ، وأججم ، على ما يقوله لنا ، عن ايداعها تاريخه ، لما فيها من مبالغة تؤدى إلى إفساد العقائد الدينية . أما الكندى (ص ٢٦٩) فلم يرد فى كتابه ذكر البتة عن انضمام أبى القاسم الى هذه الحملة مطلقا ؛ ويتكلم عن حجاسة بصفته قائد الجيوش الفاطمية . وذكر أوتينا (ص ١١٠) أن أبى القاسم بعث به الخليفة على رأس المدد الذى لحق بحجاسة بعد استيلائه على الاسكندرية والقيوم . ويخالفه فى ذلك ابن خلكان (ج ٢ ص ٣٥) والمقرئى (اتماظ ص ٤١) حيث تكلموا عن أبى القاسم باعتباره قائد هذه الجيوش من بعد سيرها من برقة .

(٢) فى ذى الحجة سنة ٣٠١ هـ ، على ما رواه المقرئى ، اتماظ الحنفا (ص ٤١) ، واتملط (ج ١ ص ٣٢٧) .

ثم واصل السير حتى دخل الاسكندرية واستولى عليها ؛ ومن ثم سار الى الوجه البحرى . (١)
فلمسا علم المقتدر العباسى بذلك ، بعث مؤنسا الخادم على رأس جيش كبير قيل إنه بلغ أربعين ألفا (٢) . وفى مدينة مشتول القريبة من الجيزة التحم الفريقان فى القتال ، خلت الهزيمة بجيش حباسه (٣) ؛ فأرغم على العودة الى بلاد المغرب حيث قتله الخليفة الفاطمى على أثر رجوعه (٤) .

على أن أهمية هذه الغزوة تنحصر فى أمر يجب ملاحظته ، وهو أنه كان فى مصر فى ذلك الوقت كثيرون يعطفون على الدعوة الفاطمية . وقد وعدوا بنصرة الفاطميين ؛ بذلك على صحة هذا ما ذكره الكندى من أن جماعة من المصريين كاتبوا الفاطميين ودفعوهم إلى غزو مصر . وإلى هذا يشير ابن مهران أحد شعراء مصر المعاصرين لهذه الحوادث فى هذه الأبيات :

وأقبل (٥) جاهلا حتى تخطى وجاز يجهله حدَّ التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه من أقباط بمصر وغير قبلى
وكلُّ كاتبوه وناقنونا وكل فى البلاد له موطن (٦)

ولقد حاول دكا (٧) (٣٠٣-٣٠٧ هـ) وإلى مصر الجديد ، الذى دخل هذه البلاد فى ١٢ صفر سنة ٣٠٣ ، أن يضع حدا للأعمال التى قام بها الموالون للفاطميين ؛ فتبع كل من رعى منهم بمراسلة الفاطميين ؛ فسجن منهم كثيرين وقطع أيدي بعضهم وأرجلهم ، وجلا أهل لوبية ومراقية الى الاسكندرية خوفا من غزو الفاطميين بلادهم (٨) .

(١) الكندى (ص ٢٦٨)

(٢) هذا التقدير أتى به مسكويه (ج ١ ص ٣٦) . أ.أ. أوتجيا (ص ٦٠) فقد ذكر أن هذا الجيش بلغ مائة ألف من الأشداء .

(٣) الكندى (ص ٢٧٠)

(٤) الطبرى (٢ : ٢٢٩٣) ، وعريب بن سعد (ص ٥٣)

(٥) الضمير يعود على حباسه الذى ذكر اسمه فى البيت الثانى من هذه القصيدة (الكندى ص ٢٧٢) .

(٦) الكندى (ص ٢٧٦)

(٧) ذكر ناشر كتاب الولاة للكندى (ص ٢٧٣) ، حاشية ٢ ، أن هذا الاسم ضبط فى الأصل بالنبح ، وهو فى بعض الكتب بالضم (راجع ص ٢٧٣ تاريخ الطبرى لعريب بن سعد ص ٥٣) . وقد ذكره ستانلى لين پول فى كتابه "تاريخ مصر فى العصور الوسطى" (Stanley Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages, p. 80) بالضم ، وأطلق عليه دكا الروى ، وزاد أن اسمه بالأغريقية دوكاس (Ducas)

(٨) الكندى (ص ٢٧٤)

وفي سنة ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) سار الى مصر جيش كثيف تحت قيادة أبي القاسم بن المهدي ؛ فاستولى على الاسكندرية^(١) ، ثم سار الى الجيزة . وفي جمادى الآخرة^(٢) من السنة نفسها وقعت موقعة كبيرة بين جند الفاطميين وأهل مصر ؛ وكانت خسائر كل من الفريقين فيها أربعة آلاف^(٣) ؛ فأرسل الخليفة مؤنسا الى مصر ثانية^(٤) . فلما وصل كان الفاطميون قد استولوا على الأشمونين والفيوم . ومع هذا فان الهزيمة قد لحقت بجند الفاطميين كما لحقت بهم في المرة السابقة^(٥) ، وأحرق كثير من مراكب المهدي^(٦) ، وقتل وأسر معظم جندها وقوادها^(٧) .

وقد دون عريب إحدى هذه القصائد التي وجه بها أبو القاسم لأهل مصر ؛ وفيها شاد بذكر بيته والبلاد التي فتحها . وأرسلت نسخ من هذه القصيدة الى الخليفة العباسي المقتدر ؛ فأمر الصولي^(٨) الشاعر المشهور بأن ينظم قصيدة أخرى يرد بها على أبي القاسم ويدحض قوله ؛ فقام الصولي بما أمر به ؛ ونظم قصيدة على وزنهما ورويها ، وفي أحد أبياتها يقول :

ولو كانت الدنيا مطية ركب^(٩) لكان لكم منها بما حرّم الذنب

-
- (١) كان ذلك في صفر سنة ٣٠٧ ، على ما ذكره الكتني (ص ٢٧٥) .
- (٢) ذكر الكتني (ص ٢٧٦) ٤ جمادى الآخرة . ويخالفه في ذلك عريب بن سعد (ص ٨٠) حيث يقول ان هذه الواقعة دارت رحاها في الخامس من هذا الشهر .
- (٣) ذكر عريب بن سعد (ص ٧٩) هذا العدد . وقال الكتني (ص ٢٧٧) ان هذه الموقعة وقعت في الجيزة ، وكان من أثرها أن أرسل مؤنس الى مصر .
- (٤) دخل مؤنس مصر — على ما ذكره الكتني (ص ٢٧٧) — في ٥ محرم سنة ٣٠٨ هـ .
- (٥) الكتني (ص ٢٧٧ و ٢٧٨) وعريب بن سعد (ص ٨٠ — ٨٦) .
- (٦) يقول أوتينا (ص ٨٠) إن عدد المراكب مائة . ويخالفه في ذلك ابن الأثير (ج ٨ ص ٣٩) وابن خلدون (ج ٣ ص ٣٧١) والمقرئ (اتعاظ ص ٤٣) فيقولون إن عدد المراكب بلغ ثمانين . ويقول الكتني (ص ٢٧٦) ان هذه الموقعة وقعت في العشرين من شوال سنة ٣٠٧ هـ .
- (٧) عاد أبو القاسم مع الفالة في صفر سنة ٣٠٩ . عريب بن سعد (ص ٨٦) .
- (٨) من أحفاد ابراهيم الصولي الشاعر المتوفى سنة ٢٤٣ هـ . انظر ابن خلكان (ج ١ ص ١١ — ١٣) .
- (٩) نقل عريب بن سعد (ص ٨٣) هذا البيت . أما المقرئ (اتعاظ ص ٤٢) فقد ذكر لنا عند كلامه على غزو مصر على يد الفاطميين في سنتي ٣٠١ و ٣٠٢ ، أن أبا القاسم نظم قصيدته في بلاد المغرب ، وأن هذا البيت من قصيدة الصولي حركه أبا القاسم وشغفه بفتح هذه البلاد حيث قال : ” واقع لا أزال حتى أملك صدر هذا الطائر ورأسه ان قدرت ، والا أهلك دونه “ .

أما الدنيا فقد شبهها الصولي — على ما ذكره المقرئ — بطائر ، وبطية الركوب ، كما جاء في هذا البيت الذي دونه عريب بن سعد . ولا مشاحة في صحة هذا القول ، لأن الصولي قصد من ذلك أن يقلل من شأن ما فتحه أبو القاسم من =

ويظهر أن غزوة الفاطميين الثانية لمصر (٣٠٧-٣٠٩ هـ) قد أوقعت شيئا غير قليل من الرعب والهلع في حاضرة الخلافة العباسية ، وفي نفوس الموظفين في مصر ؛ يتجلى ذلك من الحديث الذي دار بين الوزير ابن الفرات وعلي بن عيسى ، وكان يتقلد أعمال الدواوين .

وقد روى مسكويه هذا الحديث بمناسبة كلامه على المادرائين الذين اتهموا باختلاس أموال الخراج عن مصر والشام ؛ وكان ابن بسطام (سلف المادرائين) قد جمع مليونين وثلاثمائة ألف دينار ؛ ولم يدفع المادرائيون سوى خمسمائة ألف . وأخذ على رئيس هذا الديوان أنه لم يستوف بقية الخراج ، وكان قد أخذ على نفسه عهدا بأن يقوم في المستقبل بدفع الباقي على أقساط يؤديها من ضمان أعمال الخراج والضيايع .

وكان جواب متقلد هذا الديوان أنه ” قد كان ورد من مال الضمان للسنة الأولى جملة ، ثم سار العلوى من إفريقية حتى تغلب على أكثر النواحي بمصر... فانصرف أكثر المال إلى أعطيات الجند وفتقات العساكر ، وانكسر باقيه لأجل استخراج العلوى ما استخرجه من أموال النواحي المجاورة لمصر “ (١)

== البلاد . وهناك تشابه بين ما نقله في كتاب المقرئ عن هذه المسألة ، وهو الطائر ، وهذه الحكاية التي أثرت عن هارون الرشيد ، الذي وصف بلاد المغرب بجماعة من الرسل جاءوا إليه من هذا الأقليم — وكان أحد الأقاليم التي كانت تابعة للإمبراطورية العباسية — كذب الطائر ؛ فأجاب الخليفة أحد هؤلاء الرسل قائلا : ان أحسن جزء في الطاووس هو ذنبه . وهذا كله لا يترك مجالاً للشك بأن استعمال عربي عبارة ” معطية راكب “ صحيح لمناسبة لهذه الحالة .

(١) قال الأستاذ مرجوليوت (Margoliouth) في ترجمته لكتاب تجارب الأمم لمسكويه (ج ١ ص ٢٠٠ حاشية ١) : ” ومعنى هذا (أى المال الذي استخرجه الفزاة من أموال النواحي المجاورة لمصر) غير واضح كل الوضوح . ويظهر أن هلال الصابي (ص ٢٩٠) لم يكن قد فهمه “ . على أنه يفهم من عبارة مسكويه أن مال الخراج عن سنة ٣٠٦ — ٣٠٩ هـ قد استهلك بعضه في أعطيات الجند وفتقات الجيش ؛ واستهلك البعض الآخر فيما استخرجه الفزاة من أموال النواحي المجاورة لمصر . أما عبارة هلال وهي : ” وانكسر الباقي لأجل هذه الماداة “ فعناها أن بقية الخراج لسنة ٣٠٦ — ٣٠٩ هـ (مال الخراج عن سنة ٣٠٦ هـ) كان قد دفع كما سبقت الإشارة إلى ذلك) لا بد أن يؤجل بسبب غزو الفاطميين لهذه البلاد .

وهذا يظهر جليا من عبارة حريب (ص ٨٠) التي تأتي بنصها : ” نخرج القضاء والقواد ووجوه أهل مصر (Miser) إلى مؤنس ، ونزل خارج المدينة (Miser) ، واجتبي أبو القاسم خراج الفيوم وضيايع مصر (Miser) ، ودفع مؤنس أرزاق الجند من أموال أهل مصر “ .

أما الضيايع التابعة لمدينة مصر فتقع طبعاً بجوار مصر (المدينة) . هذا فضلا عن أن الفيوم لا تبعد عن هذه المدينة ، وقد احتلها الفاطميون في ذلك الحين ، كما احتلوا أيضا — على ما رواه أوتينجا (ص ٨٠) — كورنى البهنسا الأشرفين .

وعليه ، فإن لفظ ” مصر “ ، الذي استعمله عربي ومسكويه وهلال ، يقصد منه مدينة مصر القديمة ، لا البلاد المصرية .

وهذه العبارة توضح لنا ما كان من تأثير هذه الغزوة في بغداد والفسطاط ، حتى إن الخليفة العباسي لقب مؤنسا "المظفر" في وسط مظاهر الاحتفالات والتكريم ، إشادة بذكر هذا الانتصار^(١) على أن هذه المجهودات التي قام بها الفاطميون في سبيل استيلائهم على مصر لم يكن قد حان وقت جنى ثمارها ؛ اذ كان لا بد من تأجيلها طوال عهد المهدي ؛ لأن الخليفة العباسي كان لا يزال من القوة بحيث يستطيع دفع الفاطميين عن هذه البلاد ؛ وكان على هؤلاء أن يعملوا للتغلب على سلسلة المصاعب الداخلية التي كان يثيرها في وجههم الخوارج حيناً بعد حين .

ويحدثنا الكندي^(٢) عن الحملة الفاطمية الثالثة على مصر ، فيقول ان هذه الحملة ظلت زهاء ثلاث سنين (٣٢١ — ٣٢٤ هـ) ، وانه قد حدثت في سنتي ٣٢١ و ٣٢٢ مناوشات بين جيوش الفاطميين والجيوش المصرية . وفي صفر سنة ٣٢٢ عقدت معاهدة الصلح بين جماعة من المصريين وحبشى بن أحمد قائد جند المغاربة ، وكان معسكرا في الجيزة^(٣) .

على أن هذا الصلح لم يطل أمدته ؛ اذ قرأ في كتاب الكندي عن نشوب مواقع عدة بين جيوش المغاربة والمصريين في بعض المدن كالجيزة وبولاق وبلبيس^(٤) .

وفي عهد ولاية الأخشيد الثانية^(٥) (رمضان سنة ٣٢٣ — جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ — الكندي ص ٢٨٦ — ٢٩٢) ، انضم بعض زعماء المصريين الى جيش المغاربة الذي دخل الاسكندرية في ربيع الثاني سنة ٣٢٤^(٦) ؛ فبعث اليهم الأخشيد قوة كبيرة استطاعت أن توقع بهم الهزيمة (جمادى الأولى سنة ٣٢٤) ، وأرغمهم على العودة الى شمال إفريقيا^(٧) .

(١) مسكويه (ج ١ ص ٧٦)

(٢) الكندي (ص ٢٨١ — ٢٨٧)

(٣) شرحه (ص ٢٨٤)

(٤) شرحه (ص ٢٨٤ — ٢٨٥)

(٥) اسمه محمد بن طغج . وقد ذكر الكندي (ص ٢٨٨) أن هذا اللقب أطلق عليه في رمضان سنة ٣٢٧ هـ ؛ والأخشيد هو أبو بكر محمد بن طغج بن جف من أولاد ملوك فرغانة . وكانوا يلقبون بالأخشيد كما يلقب ملوك القروس بالأكاسرة وملوك الروم بالقياسرة . وتفسير طغج — على ما ذكره ابن زولاق — عبد الرحمن .

(٦) الكندي (ص ٢٨٧)

(٧) شرحه (ص ٢٨٧)

تناول بعض المؤرخين ممن جاؤوا بعد الكندي كابن الأثير (ج ٨ ص ٩٨) وابن خلدون (ج ٤ ص ٣٩) والمقرئ (تماظ ص ٤٥) الكلام على الحملة الثالثة بإيجاز ، واففقوا على أنها وقعت في سنة ٣٢٢ هـ ، بخلاف ما ذكره الكندي من أنها دامت ثلاث سنين .

هذا ، ولم يقيم الفاطميون بمحاولة ما لفتح مصر في البقية الباقية من خلافة القائم (٣٢٢ — ٣٣٤ هـ ٩٣٤ — ٩٤٥ م) ، وطوال عهد المنصور (٣٣٤ — ٣٤١ هـ ٩٤٥ — ٩٥٢ م) ؛ لأن حالة بلاد المغرب الداخلية قد تطلبت كل جهود هذين الخليفين ، كما تطلبت كل موارد البلاد المالية . هذا الى ما أحدثه الخوارج من ثورات ، كان أجلها خطرا وأشدّها بلاء هذه الثورة التي أضرم نارها أبو يزيد ^(١) ، الذي انتشرت جيوشه في سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) في جل أرجاء الولايات الفاطمية ، فأصبح في مركز يستطيع معه أن يهدد مدينة المهدية نفسها . لذلك رأى القائم ضرورة الكتابة الى زيري بن مناد شيخ صنهاجة يستحثه على أن يوافيه برجاله فيلحق به في المهدية ^(٢)

بيد أن حسن الحظ قد ساعد الفاطميين في ذلك الحين ، لما كان من انضمام عدد غير قليل من رجال أبي يزيد الى جيوشهم ولحاقهم بهم في القيروان . وبذلك أصبح أبو يزيد أمام أمر واقع ، هو الاعتماد على قبيلتين اثنتين من قبائل البربر ، وهما هواة وبنو كملان ، مما اضطره الى الارتداد عن المهدية بقوة يسيرة من رجاله ، تاركا خلفه ما كان معه من مؤن وأتقال ؛ ثم تقدم الى القيروان ، فامتنع عليه أهلها وأرغموه على الارتداد مع الفالة من رجاله الذين لم يلبثوا أن هلكوا جوعا وعطشا ^(٣)

توفي الخليفة القائم في ذلك الحين (رمضان سنة ٣٣٤) ؛ فأخفى ابنه وخليفته المنصور موته ، حتى لا يؤثر هذا النبأ في حماس جيوشه ، فبهى بذلك الفرصة للخارجي لاحتراز النصر ^(٤) .

(١) هو أبو يزيد محمد بن كيداد ، من قبيلة زفانة في مدينة توزر (أكبر مدائن بلاد الجريد التي تنقسم قسمين : فسطيلية ، ويتبعها توزر والزاب — أنظر البكري ، ص ٤٨ — ٧٤ والمراكشي : كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٨) . وكانت أمه جارية هواية ، تزوجها أبوه في السودان وأتى بها الى توزر حيث ولد لها أبو يزيد هذا ؛ فنشأ في هذه المدينة ، وخالطه جماعة من النكارية ، فاعتنق مذهبهم ، وكان يقضى بتكفير أهل الدين واستباحة الأموال ، والخروج عن طاعة الخليفة . ثم سافر الى تاهرت ، فأقام بها يعلم الصبية الى أمّ نرج أبو عبد الله الشيعي الى مجملاسة لاطلاق المهدي ؛ فانتقل الى قفوس ، واشترى ضيعة ، وأخذ يعلم الصبيان . وفي سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) قوى أمر أبي يزيد وراجت دعوته لدى بعض قبائل البربر في قفوس والزاب والمغرب الأقصى . وفي عهد خلافة القائم زادت شوكته وكثر أتباعه ؛ فاستولى على بجاية ومرججه وأوقع الهزيمة بقبيلة كامة ، ودخل سيبة واستولى على الأربس ونهبها وقتل الكثير من أهلها . وقد أدخل استيلاء أبي يزيد على الأربس ، وكان يعدّها أهل المهدية باب مدينتهم ، الملح في قلوب الأهالي . وبذلك استطاع أبو يزيد أن يعسكر بجندته على بعد خمسة عشر ميلا من المهدية ، وأخذ يباغت المدينة بمحملاته ؛ فانتقل كافة أهلها الى طرابلس وصقلية ومصر وبلاد الدولة البيزنطية .

أنظر ابن الأثير (ج ٨ ص ١٥٠ — ١٥٨) وابن أبي دينار (ص ٥٥ — ٥٦) والمقرئ ، اتعاظ (ص ٤٥ — ٥٤) . راجع كتاب المغرب للبكري لمعرفة مواقع المدن الواردة في هذه العبارة .

(٢) ابن الأثير (ج ٨ ص ٦٧ — ١٥٠ — ١٥٨) والمقرئ ، اتعاظ (ص ٥٤ — ٥٥)

(٣) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٥٠ — ١٥٨) والمقرئ ، اتعاظ (ص ٥٤ — ٥٥) وابن أبي دينار (ص ٥٥ — ٥٩)

(٤) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٥٧) والمقرئ ، اتعاظ (ص ٥٤) وابن أبي دينار (ص ٥٩)

أما جيوش المنصور فقد قوى أمرها وزاد عددها بانضمام قوة صنهاجة إليها ؛ فأنجح ذلك الأمر الفرصة للمنصور ، فأوقع بجيش الخارجى فى سنة ٣٣٦ هـ ؛ فقطعت أوصاله ، وطورد أبو يزيد نفسه الى الصحراء وقبض عليه وبعث به الى المهديّة ؛ وهناك مات متأثرا من جراحه (٣٠ محرم سنة ٣٣٦) (١)

ولقد تركت الثورة التى أذكى نارها أبو يزيد شمال إفريقيا فى حالة يرثى لها . ولولا ما أظهره المنصور من نشاط وشجاعة نادرة ودراية بأساليب الحرب ، لزالّت معالم الخلافة الفاطمية من كافة أرجاء هذه البلاد . ولا غرو فان موارد الخلافة قد أصابها العطل ، فأصبح بيت المال صفرا من الصفراء والبيضاء . ولم يكن بد من أن يدأب المنصور على إصلاح ما أفسده أبو يزيد ؛ ف قضى بقية حياته فى إعادة تنظيم البلاد ؛ حتى إنه لم يمّت (شوال سنة ٣٤١ هـ و ٩٥٢ م) الا وقد استردت الدولة ما كان لها من قوة وجلال .

أما الخليفة الفاطمى الرابع ، وهو المعز ، فكان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب ، فضلا عما عرف به من حسن التدبير وإحكام الأمور كما كان عليه آباؤه من قبل . وفى عهده دانت لسلطانه كافة قبائل البربر ، ومن بينها بنو كملان وبنو مليلة ، وهما قبيلتان من قبائل هواره أبتا أن تدعنا لمن كان قبله من الخلفاء .

ولا غرو فان السياسة التى جرى عليها المعز نحو القبائل على اختلافها كفلت له اكتساب طاعتهم ، وساعدت مساعدة تذكر على توثيق عرى خلافته ؛ فأتيج له بذلك كله أن يقضى على أسراء الإدارة فى المغرب الأقصى ؛ فاتمى بذلك عهد استقلالهم الذى دام زهاء قرنين (٢)

وقد رأى زيرى بن مناد الصنهاجى أن يبين لمولاه الى أى حد وصل سلطان الفاطميين فى الغرب ، وقد انتشر من حدود طرابلس الغرب شرقا الى ساحل المحيط الأطلنطى غربا وما الى هذه الأرجاء من جزيرة صقلية فى البحر الأبيض المتوسط ، فأمر بعض رجاله أن يصطادوا له من سمكه ، وجعل السمك فى قلال الماء وحمله الى المعز . ولما عاد جوهر من حروبه الى القيروان ، كان المعز قد أصبح فى ذلك الوقت الحاكم الذى لا ينازعه منازع فى كافة أرجاء شمال إفريقيا (٣)

(١) ابن أبي دينار (ص ٦٠)

(٢) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٨٩) والمقرئى ، انعاظ (ص ٥٩ و ٦٠) .

(٣) ابن أبي دينار ص ٦١

(ب) صلاح مصر للدعوة الشيعية

لقد كانت مصر صالحة للدعوة الشيعية من أجل ثروتها وهدوء الأمر فيها ، مع فقر الشرق واضطراب الأمر فيه ، بتغلب المتغلبين عليه من جهة وإغارة الروم من جهة أخرى . ولا غرو فقد كانت مصر من القوة في ذلك الوقت بحيث أصبح الأمن مستتباً والهدوء شاملاً في عهد الأخشيد الذي بلغ عدد جيوشه أربعمئة ألف رجل ، عدا حرسه الخاص به . وكانت تدفع رواتب هؤلاء جميعاً بانتظام من الموارد التي هيأتها ثروة هذه البلاد . وإن نظرة واحدة إلى ما بذله نهارويه ابن أحمد بن طولون في جهاز ابنته قطر الندى (أو أسماء) التي تزوجت من الخليفة المعتضد في سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) ، لتتألف نفس المؤرخ دهشة وعجبا .

فقد كان من جملة صداق قطر الندى وما قدم إليها من هدايا ، سرير من أربع قطع من الذهب ، عليه قبة من ذهب مشبك ، في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حجر من الأحجار الكريمة لا يقوم بمال . هذا إلى ما كان هنالك من مائة هاون من الذهب ، وألف حُجْرة^(١) ثمن الواحدة منها عشرة دنانير . أما قيمة بقية الهدايا فتركها إلى اتساع مدارك القارئ وقوة تصوره وخياله .

ولسنا نشك في أن هذا التبذير أفقر نهارويه . فقد أمر ، توفيراً لأسباب الراحة لابنته في طريقها إلى بغداد ، أن يبنى على رأس كل مرحلة قصر تنزل فيه ، وأعد هذه القصور بكل ما تحتاج إليه من فائز الأثاث وغيره ، لتكون في سفرها ممتعة بكل وسائل الرفاهة كما لو كانت في قصر أبيها^(٢) .

على أن ثروة مصر وما ساد فيها من طمأنينة وهدوء قد تعرضا للزوال حينما من الدهر ، بعد أن بلغ هذا البلد ذروة مجده في الشطر الأخير من أيام كافور . يؤيد ما قلناه من تبذير نهارويه الذي أفقره من وراء زواج ابنته ، هذه العبارة التي نقلها عن التتوخي في كتابه "نشوار المحاضرة"^(٣) قال : "ولما حصلت (كذا) قطر الندى ببغداد ، أضاق نهارويه إضاقة شديدة ، لأنه افتقر بما جمه معها وخرج من جميع نعمته ، حتى طلب شمعة فاحتبست عليه ساعة إلى أن احتيلت فقال : لعن الله ابن الجصاص أفقرني في السر" .

(١) الحجرة معقد الأزار .

(٢) ابن خلكان (ج ١ ص ٢١٨) ، ابن دقاق (ج ٤ ص ٦٧) .

ذكر ابن دقاق أن عبد الله بن الجصاص الذي عهد إليه بإعداد الجهاز ، نال جائزته وهي أربعمئة ألف دينار بقيت بعد إعداد كل ما تحتاج إليه العروس .

(٣) (ص ٢٦٢) Prof. Margoliouth's Translation into English, p. 273

وفي سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤-٩٤٥ م) انكشست الدولة العباسية الى حدود بغداد تقريباً ، وغدت الولايات الاسلامية معرضة لهجمات البيزنطيين ، وتعدّرت على بغداد أن تصد الحملة الفاطمية على مصر . هذا ، ومن الضروري أن نوجز القول الآن فيما جرى في مصر من أمور خلال هذه الفترة القصيرة التي سبقت الفتح الفاطمي ، أي منذ حوالى سنة ٣٢٠ هـ (٩٣٢ م) .

ولقد صادفت الدعوة للبيت العلوي نجاحاً عظيماً في هذه البلاد ، بالرغم من القضاء على هذه المحاولات التي قام بها الفاطميون لغزو مصر في سني ٣٠١ و ٣٠٢ و ٣٠٧ و ٣٠٩ و ٣٢١ و ٣٢٤ هـ . فقد كان الفاطميون يدمجون في صفوف جندهم دعاة عهد اليهم أن يختلطوا بالناس ويعلموهم عقائد المذهب الفاطمي^(١) ، فلم يلبث أن صار في مصر — قبل فتح هذه البلاد على أيدي الفاطميين بزمن طويل — عدد غير قليل يعتنق المذهب الشيعي ويرجو نجاحه .

ولم يقتصر ما قام به الفاطميون في سبيل نشر دعوتهم على هؤلاء الدعاة فحسب ، بل كان خلفائهم أيضاً نصيب وافر في تشجيع هذه الدعوة ، فقد أثر عن بعضهم أنهم كانوا يرسلون كتباً يكتبونها بأيديهم ويذيلونها بامضاءاتهم .

ولقد ذكر لنا ابن سعيد أن أبا القاسم (هو الخليفة القائم ٣٢٢ — ٣٣٤ هـ و ٩٣٤ — ٩٤٥ م) كتب بيده كتاباً خاصاً بعث به مع رسول من قبله الى محمد الأخشيد ، رغبة منه في أن تفعل سياسة اللين والمسالمات ما لم تفعله سياسة العداء والحرب ، تلك السياسة التي أخفق فيها هو وأبوه من قبل ، واليك هذا الكتاب بنصه :

” قد خاطبتك أعزك الله في كتابي المشتغل على هذه الرقعة بما لم يجز لي في عقد الدين ، وما جرى به الرسم من سياسة أنصار يستجلبون ، وصمّنت رقعتي ما لم يطلع عليه أحد من كتابي وذوي المكانة عندي . وأرجو أن تردك صحة عزيمتك وحسن رأيك الى ما أدعوك اليه ، فقد شهد الله على ميلي اليك وإيثاري لك ، ورغبتى في مشاطرتك ما حوته يميني واحتوى عليه ملكي . وليس يتوجه لك العذر في التخلف عن إجابتي ، لأنك قد استفرغت مجهودك في مناصحة قوم لا يرون احسانك ولا يشكرون اخلاصك ، يخلفون وعدك ويخفرون ذمتك ، لم يعتقد منهم أحد حسن المكافأة ولا جميل المجازاة . وليس ينبغي لك أن تعدل عن منهج من نصحك وإيثارك من

(١) ينبغي أن نشير الى الأعمال الدينية والسياسية التي قام بها الفاطميون بقولنا ” الدعوة الفاطمية “ ، لنميز بذلك بين طائفة

الفاطميين وغيرهم من الطوائف الشيعية الأخرى ، لأن هذا التعبير أصح وأدق .

آثرك ، الى من يجهل موضعك ويضيع حسن سعيك . وأنا أعلم أن طول العادة في طاعتهم قد كره اليك العدول عنهم . فان لم تجد من نفسك معونة على اتباع الحق ولزوم الصدق ، فانتى أرضى منك بالمودعة والأمر والطاعة ، حتى تقيمنى مقام رئيس من أهلك ، تسكن اليه فى أمرك وتعمل عليه بمثل ذلك . واذا تدبرت هذا الأمر ، علمت أن الذى يحملنى على التطاطى لك وقبول الميسور منك ، إنما هو الرغبة فىك . وأنت حقيق بحسن مجازاتى على ما بذلته ؛ والله ىريك حسن الاختيار فى جميع أمرك ؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل“ (١)

على أن هذا الكتاب لم يكن له من تأثير فى نفس الأخشيد الذى دافع رسول الخليفة الفاطمى وسوف الرد يوما بعد يوم . غير أن أموراً حدثت فبدلت صلة هذه المودة التى ربطت الأخشيد بالخليفة العباسى ، على أثر ما وصله من الأنباء بمسير ابن رائق (٢) الى مصر بتولية البلاد من الخليفة العباسى نفسه . لهذا ثارت نائرة الأخشيد ، فأمر بايقاف الخطبة لهذا الخليفة وذكر اسم الخليفة الفاطمى بدله .

ولقد روى لنا ابن سعيد ، تقلا عن عمر بن الحسن الخطيب العباسى فى مصر ، حكاية نعلم منها كيف أمر الأخشيد بذكر اسم الخليفة الفاطمى فى الخطبة ، وكيف كان ذلك خطوة مهد بها للاعتراف بسلطان الفاطميين ، وقد زاد عدد أتباعهم الذين أخذوا يدعون لهم جهارا ولا يبالون بذلك . وهاك نص هذه الحكاية :

”دعانى الأخشيد يوما فقال لى : إذا كان يوم الجمعة ، فأتم الدعوة لأبى القاسم صاحب المغرب واسقط الدعوة للراضى حتى يعلم محمد بن طنج ... فقلت : كإأمر الأخشيد . فغدوت إليه ثانية واستأذنته ، وقلت لعله يرجع . فقال : نعم ! فلم أزل على هذا ثلاثة أيام الى يوم الخميس ؛ فاتهمت أن يكون أبو الحسين محمد بن عبد الوهاب — وكان رجلا جردا جردا رأى شيعيا — قد حسن له هذا رأى ؛ لأنه أقام فى اعتقاله سبع سنين ، وكان لما أطلقه اختص به . فبحثت الى ابن عبد الوهاب وخلوت به وحدثته فقال : إن السوداء ربما ثارت به ، أفعادوته ؟ فقلت : قد عادوته أربعة أيام . فقال لى : أنا أدخلو به كل جمعة بالغداة ، فافرق به وقل أين أعمل الذى أمرتنى به ، فى جامع أسفل أوفى جامع ابن طولون ؟ وخطى وإياه . فبحثت اليه ورفقت به وقلت :

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٢٥ و ٢٦) .

(٢) هو محمد بن رائق وكان خزريا . انظر صلة تاريخ الطبرى لمرىب بن سعد (ص ١٢) .

أيها الأمير ! الذي أمرتني به أين أعمله ، في الجامع العتيق أم جامع ابن طولون ؟ فقال لي : أنت في الجامع العتيق وخليفتك في جامع ابن طولون . فقال له ابن عبد الوهاب : إيش ^(١) هذا الذي فعل ؟ فقال الأخشيد : شيء . فقال ابن عبد الوهاب : الله المستعان ! شيء يعمل على المنبر يكرم ، وبعد ساعة يعلم به الجمهور ؟ فقال له : قد نأذيتُ بالراضى وبهذا الصبي ابن رائق ؛ وقد أمرت الخطيب أن يدعو لأبي القاسم صاحب المغرب . فقال له : وفق الله الأخشيد ! فلقد وضعت الضيعة في موضعها ؛ ولقد أخبرتُ أنه في الحزن على أبيه إلى الساعة ، وما جلس في مرتبته إلا حزينا كائبا ، ولا جرد سيفا ، وهو من الشرف والملك على ما سمعت ؛ فالحمد لله الذي جعل رجوع هذا الأمر إلى أهله على يدك وبك . فاستبشر الأخشيد وأسفر وجهه . ثم التفت ابن عبد الوهاب إلى الخطيب وقال له : اقرأ الذي عملت . قال : ما عملت شيئا . فقال ابن عبد الوهاب : تؤمر منذ خمسة أيام بهذا الأمر فلم تعمل فيه شيئا ؟ فقال الأخشيد : إيش يُعمل ؟ قال يحتاج إلى نحو خمسة آلاف كلاما معمولاً في فضل النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى وفاطمة والحسن والحسين ، وأهل البيت عليهم السلام ، ويذكر أنهم أحق بالامامة ، ويقول ذلك الناس يسمعون ؛ فمن كان يشتهي هذا قويت نفسه ، ومن كرهه انحل . فقال له الأخشيد : اعمله . فقال لي ابن عبد الوهاب : تلحق اليوم ؟ فقلت : لا . فقال : الجمعة الأخرى . فقال الأخشيد : الجمعة الأخرى . فانصرفت ؛ فلما كنت من الغد دخلت على ابن عبد الوهاب فقال لي : قلت له بعدك إنه رأيي وهوأي فنيا تعلمه . ولكني أصدقك تكون أنت من أبرك الناس على ابن رائق ، لأنك اذا عملت هذا كاتبه من مصر من يكره هذا ، وكتب بذلك إلى العراق . فان كان الراضى لم يقلده ، قلده وأنفذ إليه الأموال والعساكر ، وصيرت له شيعة وخاصة ؛ ولكن دع هذا إلى وقت آخر ^(٢) .

على أن كتب التاريخ لم تذكر لنا اذا كانت الخطبة قد أقيمت فعلا للخليفة الفاطمي ؛ إذ أن الخطيب العباسي الذي تلقى الأمر بتنفيذ هذه السياسة لم يزد هذه المسألة بيانا . بيد أنه ينبغي أن لا يعزب عن أذهاننا أنه ، لو كان اسم الخليفة العباسي لم يذكر في الخطبة على منابر مصر أيام الأخشيد ، لما ضن علينا المؤرخون بذلك ، على حين أنهم لم يضمنوا بموافقتنا بنبا سير ابن رائق لتسلم زمام الولاية من الأخشيد ، وظهور العداء بينه وبين الخليفة العباسي .

(١) بمعنى أي شيء . ولقد قلنا هذه الحكاية بنصها بالرغم مما فيها من عبارات وألفاظ ركيكة ؛ وذلك حفاظا لأمانة النقل .

(٢) ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٢٦ و ٢٧) .

غير أنه إذا ذكرنا أن هذه الحوادث وقعت في أواخر أيام الأخشيدي ، في وقت قد هدد فيه بنوبويه سلطان الخليفة العباسي ثم استولوا على بغداد بعد قليل ، فلا نستبعد أن الأخشيدي قام بتنفيذ ما اعترمه ولو مدة قصيرة من الزمن . وكان من السهل أن تظل علاقة الصداقة بين الأخشيدي والخليفة الفاطمي ، وأن تكون النتيجة الاعتراف بسلطان الفاطميين على مصر قبل استيلائهم عليها نهائياً (سنة ٣٥٨ هـ) بزمن طويل .

ولا شك في أن التزعة السياسية (والمذهبية) في مصر أصبحت منذ أيام الأخشيدي في جانب الفاطميين . ولقد قيل إن القائم الفاطمي تسلم من الأخشيدي كتاباً يعرض فيه عليه زواج ابنته من المنصور بن القائم وولى عهده ، وأن القائم قرأ الكتاب على أنصاره ، فأشاروا عليه بالقبول ؛ فكتب الخليفة الفاطمي بذلك إلى الأخشيدي ، وبعث إليه بصدقتها وقدره مائة ألف دينار . على أن آمال الأخشيدي لاقت الخيبة والفشل ؛ فقد استقل هذا المال وطمع في أن يحصل على صداق يفخر به وبياهي . ولم يحقق أمله في تزويج ابنته ، وقد توترت العلاقات بينه وبين الفاطميين^(١) .

وسرعان ما اعترضت القائم هذه الثورة التي أذكى نارها أبو يزيد ؛ فتطلبت أحوال بلاد المغرب الداخلية كل نشاط الخليفة الفاطمي الذي لقي حتفه وقد بلغت الثورة أشدها ، ثم لحق به الأخشيدي بعد قليل ، وانقطعت العلاقات بين مصر وشمالي إفريقيا طوال عهد الخليفة المنصور ٣٣٤ — ٣٤١ هـ (٩٤٥ — ٩٥٢ م) الذي قصر كل همه وأفق موارده بلاده على القضاء على ثورة أبي يزيد . وبذلك خابت مسألة الزواج ، وفشل مشروع غزو مصر ، وأعلى الأقل اعتراف الأخشيديين بسلطان الفاطميين .

تولية كافور حكم مصر^(٢) :

مات الأخشيدي في دمشق في الثاني والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) ،

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب (ص ٢٧ و ٢٨) .

(٢) قد اعتمدت في العبارة التي كتبها عن تاريخ مصر إلى وفاة الأخشيدي ، على ما كتبه الكندي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، وابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ هـ . وقد نقل ابن سعيد ما ذكره الكندي وابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧ هـ عن الأخشيديين . وقد شك روفن جست (Rhuvon Guest) ، الذي نشر "كتاب الولاة وكتاب القضاة" (B. J. W. Gibb Memorial, Series XXX, 1912) ، في اسم الكاتب الذي ذيل كتاب الكندي . هذا ، وقد نقل ابن زولاق كتاب الكندي الذي ينتهي الجزء الذي تكلم فيه عن ولاية مصر في سنة ٣٣٤ هـ ، وهي السنة التي مات فيها الأخشيدي . والكتاب الذي ذيل كتاب الكندي —

ودفن بيت المقدس ؛ خلفه ولده الأكبر أبو القاسم أنوجور (أو أنوجور) ^(١) ؛ فأصدر الخليفة العباسي المطيع ^(٢) كتاب اقراره في ولاية مصر والشام والحجاز . وكان أنوجور لا يزال طفلاً في ذلك الحين ، اذ كان في الخامسة عشرة من عمره ؛ فقام بتدبير أمره كافور ^(٣) الذي بهت علاقته بهذا الوالى الجديد على ما كانت عليه من قبل ، وهى علاقة الأستاذ بالتلميذ ، وأصبح بذلك صاحب السلطان المطلق في الامبراطورية الأخشيدية ، وظل على ذلك الى أن مات سنة ٣٥٧ هـ ^(٤) .

ولما توفى الأخشيد وقبض كافور على زمام الأمور في جميع البلاد الخاضعة لحكم الأخشيدين ، قام أهل مصر بثورة ، فنجح في القضاء عليها ؛ فعلا شأنه وارتفع ذكره عند الموظفين على اختلافهم . وبعد ذلك بقليل وردت الأنباء باضطراب الأمور في الشام واستيلاء أبي الحسن على الملقب بسيف الدولة الحمداني على دمشق ، وبأنه عول على المسير الى الرملة لأخذ مصر ؛ فنجح كافور أيضاً في الحيلولة دون مسيره الى مصر ، وغنم منه الغنائم الوفيرة ؛ فعظم شأنه وزادت شهرته ، واستطاع بذلك أن يقبض على زمام الأحكام من غير أن يكون له نفوذ شرعى ، وخاطبه عليه القوم بالأستاذ ، وذكر اسمه في الخطبة ، ودعى له على منابر مصر والشام والحجاز ، وأتيح له بما أفدقه من العطايا والهبات أن يكتسب محبة رؤساء الجند وكبار الموظفين ^(٥) .

= هو ابن سعيد الذى يقول في كتاب " المغرب " : " وقد ذلت هذا الكتاب بسيرة أنوجور وأخيه على كافور وأحمد بن على بن الأخشيد والقائد جوهر ، الى أن دخل المعز لدين الله عليه السلام مصر وصارت دار خلافة الخ " : كتاب المغرب (ص ٥) والكندى (ص ٢٩٣ — ٢٩٨) .

(١) ومناه بالعربية محمود على ما ذكره ابن خلكان (ج ١ ص ٥٤٥) .

(٢) ذكر ابن خلكان أن خلع الولاية أرسلت لأنوجور في عهد الراضى الذى مات قبل ذلك بنحو سنوات (أى في ٧ شعبان سنة ٣٢٩ هـ) .

(٣) أبو المسك (أطلقت هذه الكنية من قبيل التلميح والمشاكلة ؛ لأنت المسك أسود اللون ، وكان كافور كذلك . وكثيراً ما يستعمل العرب ذلك . قال عنترة العبسي :

فان أك أسوداً فالمسك لوني وما لسواد جلدى من دواء

ولكن تبعدُ الفحشاء عنى كبعد الأرض من بحر البهاء

نعم ! الدعاية انما هى في اطلاق لفظ كافور عليه ؛ لأن الكافور أبيض وكان هو أسود اللون) . وكافور كان عبداً خصياً . وكان قبيح الخلقة بديناً ثقيلاً ، ورجلاه مشوهتان . وكان مملوكاً لأحد أهل مصر ، فاشتراه أبو بكر محمد بن طنج الأخشيد سنة ٣١٢ هـ ، وكان اذ ذاك من رؤساء الأجناد . ولما آلت ولاية مصر للأخشيد ، ترقى كافور في بلاطه .

(٤) مسكويه (ج ٢ ص ١٠٤) ، وابن سعيد : كتاب المغرب (ص ١٤٥) قتل عن ابن زولاق .

(٥) ابن خلكان (ج ١ ص ٥٤٧) .

على أن أنوجور لما كبر وشعر بجرمانه من سلطته ، ظهرت الوحشة بينه وبين كافور ؛ وناصر كلا منهما فريق من الأهليين ، ووقف كل واحد لآخر بالمرصاد . وقد تفاقمت العداوة لهذا بين الجند فانقسم فريقين : الكافورية (١) والأخشيدية (٢) .

واتفق أن مات أنوجور في سنة ٣٤٩ هـ ، فحملت جثته الى بيت المقدس ودفن بالقرب من أبيه (٣) . وبموت أنوجور أمن كافور الفتن والفلاقل وأصبح قادرا على تولية خلف للأمر المتوفى ؛ فخلقه أخوه علي بن الأخشيد ؛ فعين له كافور كما عين لأخيه من قبل أربعائة ألف دينار كل سنة ، واستبد بالأمر دونه .

وكان هذا الأمير قد دخل في الثالثة والعشرين من العمر ؛ الا أن هذا لم يمنع كافورا من التضيق عليه ، حتى منع أن يدخل عليه أحد . وظل على ذلك الى أن مات سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) ، فقال كافور دون تعيين ابن الأمير المتوفى بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه ؛ فبقيت مصر بغير أمير نحو من شهر . وفي المحرم سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتابا من الخليفة العباسي بتقليده واليا على مصر ؛ لكنه لم يغير لقبه — الاستاذ — ودعى له بعد الخليفة على المنابر . وفي العاشر من صفر (فبراير سنة ٩٦٦ م) لبس الخلعة على مرأى من الناس (٤) .

محاولة المعز الاستيلاء على مصر . تلقى الأهليين دعائه بالقبول :

بق كافور على رأس الحكومة المصرية زهاء سنتين (١٠ صفر سنة ٣٥٥ — ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧) . وبعد توليته بقليل ، حاول الخليفة المعز الفاطمي إعادة الكرة لغزو مصر ، وسار بجيشه

(١) الكافورية هم عماليك كافور ، وقد رقام الى المناصب العالية في الدولة .

(٢) الأخشيدية هم عماليك الأسرة الأخشيدية وأنصارها .

(٣) قيل ان كافور مسم أنوجور .

(٤) ذكر ابن سعيد (كتاب المغرب ص ٤٦ و ٩٩) ، قولا عن أبي عبد الله محمد بن سعد القرطبي (لمعرفة اشتقاق هذا اللفظ راجع القاموس المحيط ، طبعة مصر سنة ١٣٠١ هـ ، وكتاب الأنساب للسمعاني ورقة ٤٤٧ ؛ وهذا اللفظ منسوب الى القرط الذي يعلق في الأذن ، أو الى قروط ، وهو اسم يطلق على بعض أنفاذ بني كلاب اخوة قُوط وقُريط وقُريط) . والقرطبي الذي نحن بصدد الكلام عليه مشتق اسمه ، على ما ذكره ابن سعيد (كتاب المغرب ص ٩٩) ، من القرط الذي تأكله الدواب بمصر . وكان أبو عبد الله محمد بن سعد القرطبي من ولد عمار بن ياسر ؛ وكان مولعا بالتاريخ ، رحل الى اليمن وبلاد الهند ، وصنف كتاب " تاريخ مصر " في عهد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . وقد وقف عليه ابن سعيد واستعاره من رجل كان هذا الكتاب في حوزته ، وقد منه بعض ما أودع أباه المغرب . ومحمد بن سعد القرطبي هذا من أخفاد محمد بن جعفر القرطبي . وكان معاصرا للأخشيديين في مصر ، قلده مؤنس الحسبة بمصر ثم قلده الخراج (ابن سعيد ص ٨) ، ثم قلده خراج مصر والشام في عهد ولاية تكين (ص ٩) — ولى تكين ثلاث مرات (٢٩٧ — ٣٠٣ و ٣٠٧ — ٣٠٩ و ٣١١ — ٣١١ هـ) .

الى حدود هذه البلاد الغربية ؛ فأوقف كافور تيار تقدمه ؛ ولكنه استقبل في بلاطه بعض دعاة الفاطميين الذين أرسلهم المعز من قبله لدعوة كافور للاعتراف بسيادته بالقبول ، كما وعد معظم رجال بلاطه وكبار موظفي الدولة بتقديم الولاء للخليفة الفاطمي^(١).

وتظهر لنا صحة ما ذكره المقرئ ؛ لأن ميول كافور تجاه أهل البيت تجلت على الدوام في أجلى مظاهرها . ذلك أن سياسته كانت مطبوعة بطابع الاحترام لآل النبي . ولا غرو فقد اتصف كافور بالهمة ، كما كان عارفا بأقدار العلماء والوجوه والأشراف ، حتى لقد أثر عنه أنه بينما كان راكبا في موكبه ذات يوم سقط سوطه ، فناوله إياه أحد الأشراف^(٢) ؛ فقبل كافور يده وقال له : نعتني الى نفسي ، فما بعد أن ناولني ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطي غاية يتشرف لها . ومن ثم انهالت على الرجل هبات كافور وخلعه وعطاياه^(٣) .

وتتبين لك سياسة كافور مع العلويين وشغفه بتوفير أسباب الراحة والسعادة لهم من هذه الحادثة التي نقص لك خبرها عن ابن سعيد . ذلك ان امرأة وقفت لكافور في طريقه مرة وصاحت به : ارحمني يرحمك الله ! فدفعها أحد رجاله دفعا عنيفا ، فسقطت ؛ فأخذ الغضب من كافور كل مأخذ وأمر بقطع يد الرجل ، فشغعت له المرأة حتى لا تكون شؤما عليه . فأعجب بها كافور وأمر أحد رجاله أن يسألها عن أصلها ونسبها ، فاذا بها علوية ؛ فشق ذلك على كافور وعزا الى الشيطان ما وقع واغفاله إياه هؤلاء الأشراف ؛ وأحسن الى العلوية وأدر عليها وعلى سائر أبناء الأشراف الهبات والأرزاق^(٤) .

ومن هنا يتضح لنا أن عزمه على تحويل طاعته من العباسيين الى الفاطميين كان قد اختمر منذ ذلك الحين . هذا فضلا عن أن حالة مصر الداخلية في السنين الأخيرة من حكم كافور قد دلت على أن حكم الاخشيديين قد آذن بالزوال ، مما سهل غزو مصر على أيدي الفاطميين .

الاضطراب والفوضى في عهد كافور :

في هذا العهد قاست مصر البؤس والشقاء بدرجة لم ترها من قبل . وكانت أشد هذه المحن انخفاض النيل الذي بدأ سنة ٣٥١ هـ ، وما تلاه من حط ووباء . وقد ظل هذا الانخفاض تسع سنين

(١) المقرئ : خطط (ج ٢ ص ٢٧) .

(٢) ذكر السيوطي (ج ٢ ص ١١) أن هذا الشريف هو أبو جعفر مسلم بن عبيد الله ، من سلالة الحسين بن علي ، وأحد الرسل الذين ندبوا لطلب الصلح من جوهر .

(٣) ابن سعيد (المغرب ص ٤٧) ، قلعا عن القرطبي .

(٤) شرحه (ص ٤١) .

حتى عام ٣٦٠ هـ . ويحدثنا المقرئى^(١) بما كان متوقعا ، وهو ان القحط أعقبه الوباء ؛ ففسا الموت بسببه ، حتى عجز الناس عن تكفين الموتى وعن دفنهم ، فاضطروا الى القاء جثث موتاهم فى النيل^(٢) . وكان من أثر ذلك أن اشتد الغلاء وندرو وجود القمح ، وأغار الأشرار على المزارع والحقول ، وعم السلب والنهب .

وما زاد هذا البلاء الذى انصب على البلاد عجز كافور عن صد القرامطة الذين أغاروا على الشام سنة ٣٥٢ هـ ونهبوا حجاج مصر فى طريقهم الى مكة سنة ٣٥٥ هـ ، ثم عدم قدرته على الدفاع عن البلاد حين غزاها ملك النوبة ، حتى نهب البلاد الجنوبية فوصل الى إنجم^(٣) وعاد الى بلاده محملا بالأسلاب والغنائم . يضاف الى ما تقدم ما كان من عجز كافور أيضا عن دفع رواتب حرسه وأرزاقهم ، فثاروا عليه^(٤) .

مصر بعد وفاة كافور :

هذه حالة مصر عند وفاة كافور (٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ ٩٦٨ م) ، وما صارت البلاد اليه من الفوضى والبؤس .

وقد اجتمع رجال البلاط لاختيار والٍ يحل محل كافور ، على ما جرت به العادة فى هذا العهد . وليس من عجب فى ذلك ، فان الخليفة العباسى غدا فى عهد بنى بويه أشبه شىء بالعبوبة ، ولم يعد له من أمر تعيين الولاة شىء ؛ وقد وقع الاختيار على أبى الفوارس أحمد حفيد الأخشيد ، وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة من العمر^(٥) .

وقد صادف أن وصل مصر بعد ذلك أبو محمد الحسن بن عبيد الله الذى تركه أخوه محمد الأخشيد فى الشام سنة ٣٢١ هـ ؛ فأقام فيها نحو ثلاثين سنة ، ومرت به أطوار شتى ؛ ففرا بنه من وجه القرامطة ، فتلغاه أمراء الأتراك فى مصر بقبول حسن وولوه قيادة الجيش . لكنه ما لبث أن استبد بالأمر وقبض على الوزير ابن الفرات وصادر أمواله ، ثم عاد الى الشام^(٦) .

(١) خطط (ج ١ ص ٣٣٠)

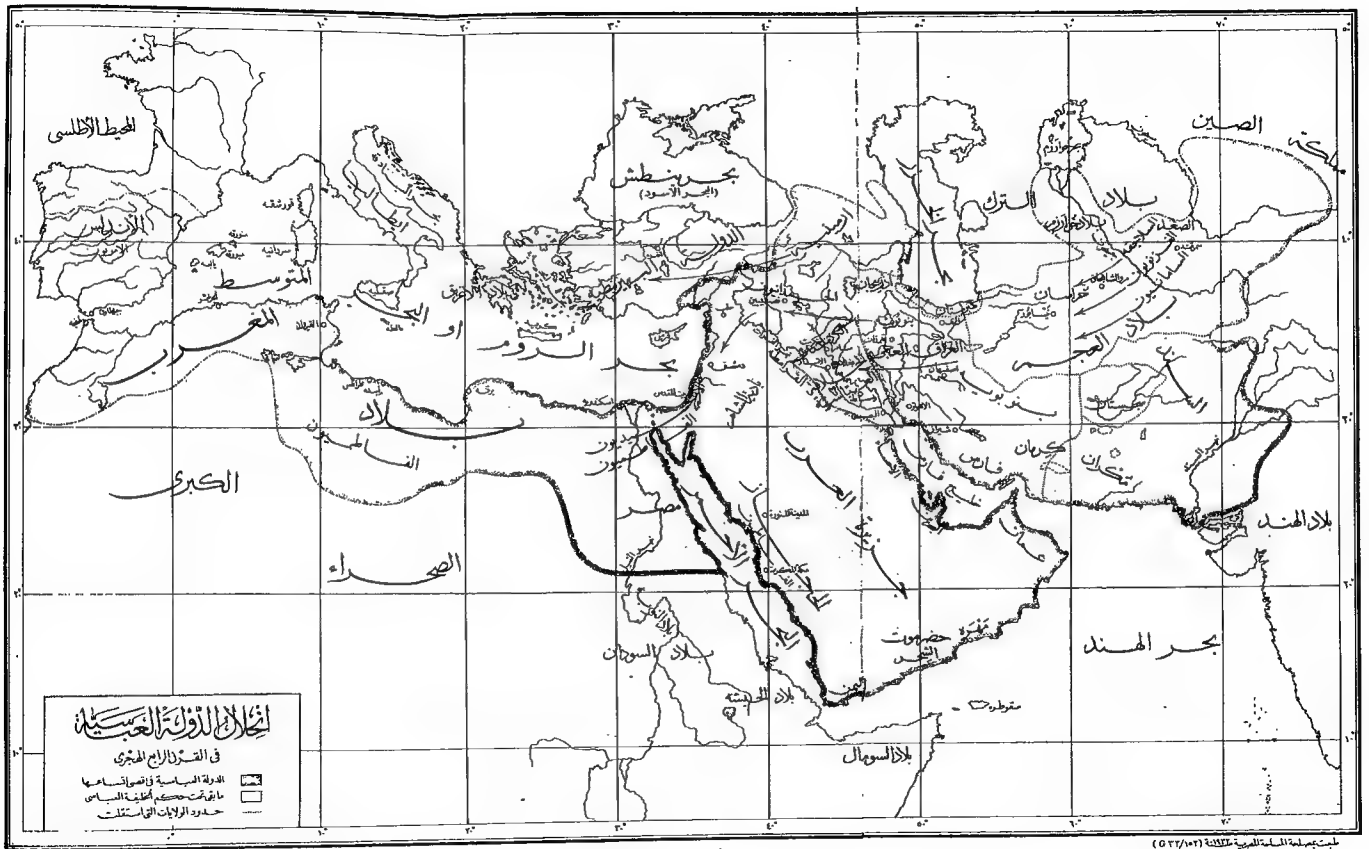
(٢) يؤكد لنا ابن خلكان أن ستمائة ألف من المصريين ذهبوا ضحية هذا الوباء .

(٣) مدينة واقعة على الضفة اليمنى للنيل فى مديرية سوهاج .

(٤) المقرئى : خطط (ج ١ ص ٣٣٠)

(٥) ابن خلكان (ج ١ ص ٤٥٧)

(٦) شرحه (ج ٢ ص ٥٥٥ و ٥٦٠)



وبعد رحيل الحسن بن عبيد الله الى الشام سنة ٣٥٨ هـ ، ظلت مصر خمسة أشهر تحت سلطة الأخشيديين الاسمية ، في حالة شديدة من الفوضى والاضطراب . وكانت ادارة البلاد في يد الوزير ابن الفرات الذي لم يستطع أن يدفع رواتب الجند أو يخفف عن الأهليين ما أصبحوا فيه من يؤس وشقاء ؛ لهذا لا نجب اذا عجزت البلاد عن صد هجمات المغيرين . وكانت هذه الحالة فرصة سانحة اتخذها الخليفة الفاطمي لغزو مصر . ولم تكن بغداد في ذلك الوقت قادرة على أن ترسل جيشا يصد الفاطميين عن هذه البلاد .

عجز بغداد عن ارسال الجيوش :

سبق أن بينا ما كان من ضعف الدولة العباسية وانقسام المسلمين الى شيع وطوائف . والآن نمجّل القول عن حالة الخلافة العباسية في بغداد في الوقت الذي تم فيه استيلاء الفاطميين على مصر ، لنبين كيف تعذر على السلطة المركزية في بغداد أن تبعث لمصر يجيش يصد الفاطميين عنها ، كما فعلت ذلك مرارا من قبل .

ولا غرو فقد استقل الأمويون بالأندلس ١٣٨ هـ - ٨٩٧ هـ (٧٥٦ - ١٤٩٢ م) على يد عبد الرحمن الأول ١٣٨ هـ - ١٧٢ هـ (٧٥٦ - ٧٨٨ م) ، وتأسست دولة الأدارسة في مراكش ١٧٢ هـ - ٣١١ هـ (٧٨٨ - ٩٢٣ م) على يد ادريس بن عبد الله ، ودولة الأغالبة في تونس ١٨٤ هـ - ٢٩٦ هـ (٨٠٠ - ٩٠٨ م) على يد ابراهيم بن الأغلب ؛ كذا كانت سيادة الطولونيين ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ (٨٦٨ - ٩٠٥ م) والاششيديين ٣٢٣ - ٣٥٨ هـ (٩٣٥ - ٩٦٩ م) في مصر . كل ذلك كان ضربة شديدة فتت في جسم الدولة العباسية بتقلص نفوذها عن جزء كبير من ولاياتها في الغرب .

(١) الهجوم على بغداد من الشرق :

هذا في الغرب . أما في الشرق فلم تكن الأمور أحسن حالا ؛ فقد قامت في بلاد الفرس وبلاد ما وراء النهر دويلات عدة ، يرجع سبب قيامها الى انتعاش روح القومية التي ظهرت منذ أيام المأمون ١٩٨ هـ - ٢١٨ هـ (٨١٣ - ٨٣٣ م) ؛ فقامت الدولة الطاهرية ٢٠٥ - ٢٥٩ هـ (٨٢٠ - ٨٧٢ م) في خراسان ، ومنهم انتقلت السلطة الى أسرة جديدة هي الدولة الصفارية ٢٥٤ - ٢٩٠ هـ (٨٦٨ - ٩٠٣ م) التي تأسست على يد يعقوب بن الليث الصفار ، والدولة

السامانية ٢٦١ — ٣٨٩ هـ (٨٧٤ — ٩٩٩ م) التي تفرعت عنها الدولة الغزنوية ٣٦٦ — ٥٧٩ هـ (٩٧٦ — ١١٨٣ م) ؛ لأن ألبتكين مؤسس هذه الدولة كان من الموالي الأتراك الذين استخدموا في البلاط الساماني .

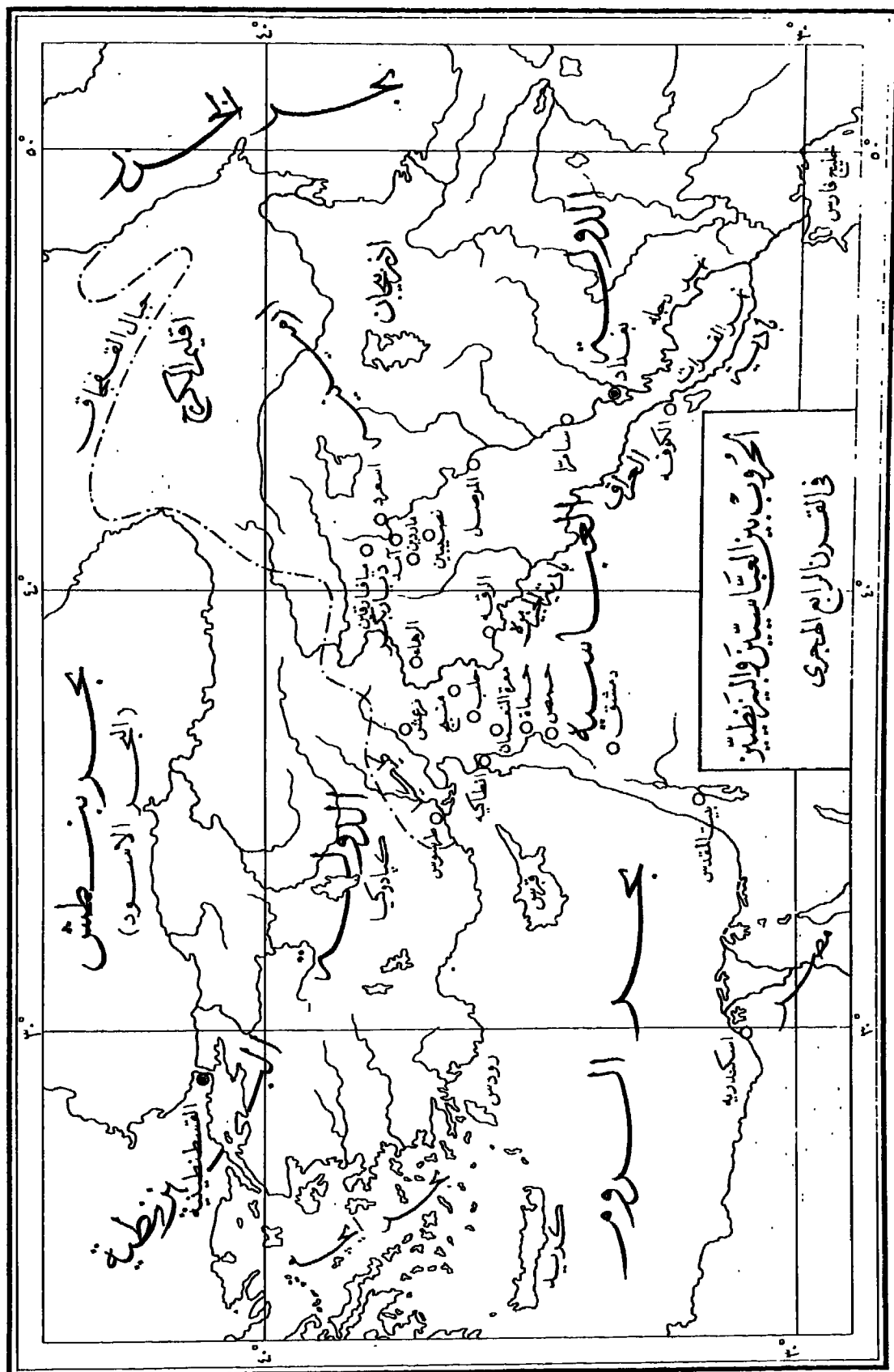
ولقد تفاقم خطر كثير من هذه الدول ، فقويت شوكة بنى بويه ٣٣٤ — ٤٤٧ هـ (٩٤٥ — ١٠٥٥ م) ، وكانوا من الشيعة الغلاة ، وامتد شرهم إلى حياة الخلفاء أنفسهم . ومما يدل على مبلغ الضعف الذى وصلت إليه الدولة العباسية ، وعلى قوة هذه الدولة التي آل إليها الحكم ، أنه لم يعد للخليفة من الأمر شيء ، سوى سلطته الدينية ممثلة بذكر اسمه في الخطبة ونقشه على السكة ؛ ولم يكن ذلك إلا لأغراض سياسية غايتها احتفاظ هؤلاء الحكام بمراكزهم أمام الجمهور .

وقد وصف لنا المؤرخ جبون الحالة التي وصلت إليها الدولة العباسية في ذلك العصر فقال : ”لم تكن حالة الضعف التي وصلت إليها الخلافة العباسية راجعة إلى السياسة فحسب ، بل تعدتها إلى الدين أيضا . فقد نشأت من المذهب الشيعي على ممر الزمن مذاهب متعددة ، أهمها المذهب الفاطمي ، والمذهب الدرزي في لبنان ، والمذهب البابي في بلاد الفرس ، وقد ظهر في الأزمنة الحديثة . كذلك ظهرت الاختلافات الدينية في بغداد ؛ فقام أنصار ابن حنبل ^(١) وانقضوا على بيوت الأمراء وذوى اليسار ، وكسروا أواني الخمر ، وحطموا الآلات الموسيقية وضربوا المغنين ، وأهانوا الفتيان والفتيات وأساءوا بهم الظنون . ولم يكن من سبيل للقضاء على هذه الفئة إلا بقوة حربية ؛ ولكن من ذا الذى يمكنه أن يسد جشع طائفة المرتزقة أو يؤيد النظام بالقوة بين أفرادها ؟ هذا إلى ما كان من سل الحرس من الأتراك وأهل إفريقية السيوف كل في وجه الآخر ؛ وأصبح في يد أمير الأمراء ^(٢) حبس الخليفة وخلعه وقتله . فكان هذا تعديا على سلطة الخليفة الدينية وما لها من حمة في النفوس ؛ ولم يكن عند الخليفة من سبيل يأمن به على نفسه الأذى إلا هربه إلى معسكر أحد الأمراء .

(١) ولد في بغداد سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ م) ، ومات بها سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) . انظر ابن خلكان (ج ١ ص ٢٠ — ٢١)

(٢) أول من تلقب بهذا اللقب هرون بن غريب سنة ٣١٦ هـ . مسكويه (ج ١ ص ١٨٨ و ٣٥٠ و ٣٥١) . وقد قلد الخليفة العباسي الراضي محمد بن رائق ”الإمارة ورياسة الجيش“ وجعله أمير الأمراء ، ورد إليه تدبير أعمال الخراج والضياح ، وأعمال المعاون في جميع النواحي ، وفوض إليه تدبير الملكة ، وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر في الممالك وبأن يكنى “ .

انظر كتاب ”مجارب الأمم“ لمسكويه (ج ١ ص ٣٥٠ — ٣٥١) ، وترجمته إلى العربية للاستاذ مرجوليوت (Prof. Margoliouth) (ج ٤ ص ٣٩٥) بمناسبة كلام مسكويه عن ابن رائق .



تمت بحمد الله تعالى. الطبعة الأولى (١٩٢٢م) (١٩٢٢م)

فكان إنقاذه تحولا عما كان فيه من مذلة إلى مذلة أخرى ، حتى دفعه اليأس إلى دعوة بني بويه لمعاونته وتخليصه مما هو فيه ؛ فإذا ما وقع تحت رحمتهم صار ألعوبة في يدهم^(١) .

(٢) إغارة البيزنطيين على الولايات العباسية وعيبتهم بها :

لم تكن الحالة في الحدود الشمالية الغربية أقل سوءا واختلالا منها في الجهات التي بينها . فقد ساد العداء منذ ظهر الاسلام بين المسلمين والأغريق بحكم الجوار . على أنه كثيرا ما كانت كفة المسلمين راجحة إلى أن جاء الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ و ٨٧٠ — ٨٩٢ م) ، فانكشت الأمباطورية العباسية في عهده إلى حدود الجزيرة والعراق ، وفيهما أيضا قامت الثورات وعم الاضطراب ، مما أدى إلى قيام النزاع بين المسلمين والروم منذ ذلك الوقت ، وإن لم يكن قد أدى إلى نتيجة حاسمة .

ولقد قويت شوكة الأمباطورية البيزنطية ، وانتشر الأمن والسلام في أرجائها منذ اعتلاء باسيل الأول (Basil I.) العرش ؛ فتمكن بكل قوته من مقابلة جيوش بعض الأمراء ، وساعد على انتصار باسيل ما كان من ضعف أعدائه بسبب إغارة خصومهم على مؤخرة جيوشهم .

وفي عهد قسطنطين السابع (Constantine VII.) ، توطدت صلوات السلام بينه وبين ما جاوره من البلاد ، إلا البلاد الإسلامية . فساد هذا السلام بينه وبين أرمينية في الشرق ، والروسيا وبلغاريا في الشمال ، والبندقية وألمانيا في الغرب^(٢) .

وفي سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) استولى القائد تقفور فوكاس (Nicephorus Phocas) على جزيرة كريت . وبعد ذلك بقليل ، انتصر على سيف الدولة الحمداني . وفي سنة ٣٥١ هـ استولى على كثير من مدائن الأناضول مثل مرعش وديبق ؛ وبالقرب من منبج أسر أمير هذه المدينة أبو فراس الحمداني الشاعر المشهور^(٣) ، وأخيرا استولى تقفور في ديسمبر من السنة نفسها على حلب حاضرة الحمدانيين بعد حصار شاق^(٤) .

(١) Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire (4th ed.), vol. VI, pp. 54-55

(٢) Vasil'Ev., Cambridge Mediaeval History, vol. IV, pp. 138, 139

(٣) ، (٤) مسكويه (ج ٢ ص ١٩٢ و ٢٢٠) ، ويحيى بن سعيد (ص ١١٨)

وبعد موت رومانوس (Romanus) رابع أباطرة الدولة البيزنطية من سلالة باسيل في صفر سنة ٣٥٢ (مارس سنة ٩٦٣) ، تزوجت أرماته تيوفونيا (Theophonia) من نقفور فوكاس^(١) ، ثم من قاتله جون زيميسكيس (John Tzimiscees) ، بطل ذلك العصر ، وإليهما آلت الوصاية على أولادها الصغار . وقد امتدت غزوات هذين الامبراطورين من تلال كبادوكيا (Cappadocia) إلى صحراء بغداد . والاثنتا عشرة سنة التي تولى فيها هذان الرجلان قيادة الجيوش البيزنطية أبهى عصور الامبراطورية البيزنطية وأزهاها^(٢) .

وفي سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٤ م) تقدم البيزنطيون إلى حدود سورية ، ووقعت في أيديهم مدينتا المصيصة وطرسوس في سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٥ م) بعد أن نال منهما القحط والموت ، فلم تقويا بعد على مواصلة الدفاع : ذلك أنه في ١٣ يونيه سنة ٩٦٥ م وقعت المصيصة في أيدي البيزنطيين ، وفي ١٦ أغسطس من السنة نفسها سلمت إليهم مدينة طرسوس^(٣) .

هذا ، وقد عاث نقفور فوكاس فسادا في البلاد السورية قبل الشروع في محاصرة أعظم وأشهر مدينتين في سورية ، وهما أنطاكية وحلب ، حصارا منظما ، حيث سلمت له مدائنهما الواحدة بعد الأخرى^(٤) .

أما نتيجة هذه الغزوات فقد وصفها قاسيل إلف في هذه الكلمات : "لم يبلغ قط اخضاع العرب وأذلهم في وقت من الأوقات مثلما بلغه في عهد نقفور فوكاس . فقد انتزعت من أيديهم كيليكيا^(٥) وجزء من بلاد سورية ، واعترف شطركبير من بلاد الدولة (العباسية) بالتبعية للامبراطورية"^(٦) .

(١) ذكر مسكويه (ج ٢ ص ٢٣٩) أن وفاة نقفور كانت في سنة ٣٥٦ هـ . وقال يحيى بن سعيد (ص ١٣٧) إنه مات في المحرم سنة ٣٥٩ . وعدد الذهبي (مسكويه ج ١ ص ٢٥٣ حاشية ١) انتصارات نقفور في الشام عند كلامه على حوادث سنة ٣٥٧ هـ .

(٢) مسكويه (ج ٢ ص ١٣٩) ، ويحيى بن سعيد (ص ١٢٠ و ١٣٦) ، وأبو شجاع (ص ١٢ و ١٣) .
Vasil' Ev., Cambridge Medieval History, vol. IV. p. 144; Gibbon, vol. VI. p. 58;

(٣) مسكويه (ج ٢ ص ٢١٠ و ٢١١) ، ويحيى بن سعيد (ص ١١٨)

(٤) يحيى بن سعيد (ص ١٤٧)

(٥) يراد من كيليكيا أو كيليكيا البلاد التي فوق زاوية خليج اسكندرونه ، وهي المعروفة عند العرب بقالقلا .

(٦) Vasil' Ev., Cambridge Medieval History, vol. IV, pp. 146-147

عبور الإغريق الفرات :

كان عبور الفرات في الجهات الواقعة أسفل جبال طوروس مستحيلا على الإغريق منذ أيام هرقل . ولكن زيميسكيس استطاع أن يكتسح كثيرا من المدن العريقة في الشهرة ، من أمثال الرها وديار بكر وميافارقين ونصيبين الواقعة عند حد الامبراطورية القديم على مقربة من نهر دجلة ^(١) .

ولقد تفاقم رعب الناس بما أذاعه الغالة عن زيميسكيس وما كان يصحب ذكر اسمه من خوف وهلع ، حتى إن المطيع العباسي لم يتمالك ، على ما ذكره مسكويه ^(٢) ، أن أعلن أن أسلحته ونحاج دولته قد اترع من يديه ، وأنه لم يعد قادرا على الدفاع عن بغداد

على أن مخاوف أهل بغداد قد تبددت بانسحاب البيزنطيين ، الذين لم يقووا على تحمل العطش والجوع اللذين تعرضوا لهما في حربهم في الصحراء ^(٣) ؛ ولم يتمكن العباسيون ، بالرغم مما تكبدوه من المشاق في حربهم مع البيزنطيين ، إلا من استرجاع مدينة كلكتا وجزيرة قبرص ^(٤) .

(٣) الأحوال التي ساعدت على استقرار سلطان الفاطميين في مصر وفي الشرق

عقب غزوهم مصر

على أن هذه الحالة التي سادت البلاد الخاضعة لسلطان القاهرة وبغداد قد سهلت — كما بينا من قبل — على الفاطميين القضاء على سلطان العباسيين في كل من مصر والشام . إذ أنه بتوطيد نفوذهم في مصر استطاعوا أن يمدوا هذا السلطان إلى الشرق ، أعني إلى الشام والحجاز ، إن لم يكن إلى أبعد منهما ، لأن هذين القطرين كانا في ذلك الحين خاضعين لحكم الأخشيديين .

إعداد المعز المعدات لفتح مصر :

وكان الاستعداد لفتح مصر قائما على قدم وساق منذ سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) . فقد شرع المعز في إنشاء الطرق وحفر الآبار ، وإقامة المنازل للاستراحة في فترات منتظمة ؛ وبدأ في نفس الوقت

(١) مسكويه (ج ٢ ص ٣٠٣ و ٣٠٤) ويحيى بن سعيد (ص ١٣٩ و ١٤٠ و ١٤٧ و ١٤٨ و ١٥٨ و ١٥٩)

وأبو القدا (ج ٢ ص ١١٨)

(٢) (ج ٢ ص ٣٠٦)

(٣) ابن الأثير (ج ٨ ص ٢١٤)

(٤) يحيى بن سعيد (ص ١٤٣)

يجمع الأموال لينفق منها على حروبه ، ويجزّل الأموال على كثامة ليمدوه يحنّ من أنصارهم مجهزين بما يحتاجون اليه من معدات (١) .

وقد ساعد على فتح مصر ومد سلطان المعز منها الى الشرق ، ذلك الهدوء الذى انتشر فى أرجاء إفريقية ، وبخاصة بلاد مصر عند ما ظهر فيها الاضطراب وسوء النظام وانتشر فيها القحط والوباء بعد وفاة كافور ، وانه كان بمصر جماعة يُعتد بهم من أصحاب المناصب العالية الذين يدينون بمذهب الشيعة ، مما لم يُخف على المعز لدين الله .

وقد أورد لنا المقرئى ، ولا ندرى من أى مصدر أخذ ولا من أى تاريخ استقى ، أن المعز كشف عن سياسته فى خطبة ألقاها على رؤساء كثامة ، لا بأس من نقلها هنا ، لأنها ولا شك وثيقة تاريخية متضمنة للخطة السياسية التى اعتمزم المعز نهجها من الناحية السياسية والدينية والأدبية قال :

” واستدعى المعز وهو بالمنصورية فى يوم شات بارد الريح ، عدّة شيوخ من شيوخ كثامة ، وأمر بادخالهم اليه من غير الباب الذى جرى الرسم به . فاذا هو فى مجلس مربع كبير مفروش بالبود على مطارح ، وحوله كساء ، وعليه جبة ، وحواليه أبواب مفتحة تفضى الى خزائن كتب . وبين يديه مرفع ودواة وكتب وحواليه فقال : يا إخواننا ! أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد فقلت لأُم الأمراء ، وإنها الآن بحيث تسمع كلامى : أترى إخواننا يظنون أنا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ، وتنقلب فى المثلث والدياج والحرير والفنك ، والسمور والمسك والخمر والغناء ، كما يفعل أرباب الدنيا ؟ ثم رأيت أن أفهّد اليكم فأحضركم لتشاهدوا حالى اذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم . وإنى لا أفضّلكم فى أحوالكم الا فيما لا بدلى منه من دنياكم ، وبما خصنى الله به من إمامتكم . وإنى مشغول بكتب ترد على من المشرق (٢) والمغرب ، أجيب عنها بخطى . وإنى لا أشتغل بشيء من بلاد الدنيا إلا بما صان أرواحكم ، وعمر بلادكم وأذل أعداءكم ، وقع أضدادكم . فافعلوا يا شيوخ فى خلوتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا التكبر والتجبر ، فيتزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم . وتحننوا

(١) ابن أبى دینار (ص ٦٢)

(٢) ذكر أبو المحاسن (طبعة Jaynball ج ٢ ص ٤٤٣) ، نقل عن ابن عبد الجبار ، أن الشيعيين فى مصر أرسلوا الى المعز كتباً قالوا فيها ” إذا زال الحجر الاسود (هو كافور الذى كان يتولى حكم مصر) ، ملك مولانا المعز الدنيا كلها “ .

على من ورأكم ممن لا يصل الى كتحنى عليكم ، ليتصل في الناس الجليل ويكثر الخير وينتشر العدل . وأقبلوا بعدها على نسائكم والزموا الواحدة التي تكون لكم ؛ ولا تشرهوا الى التكاثر منهن والرغبة فيهن ، فيتنقص عيشكم وتعود المضرة عليكم ، وتهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ويضعف تمايزكم ؛ فحسب الرجل الواحد الواحدة . ونحن محتاجون الى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . واغلبوا أنكم اذا لزمتم ما أمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم . انهضوا رحمكم الله ونصركم» (١) .

والنسياسة التي جرى عليها المعز تظهر ظهورا ينسأ من هذه الخطبة البليغة ؛ وفيها عناية خاصة ببعض المسائل . ولقد اتتهز الخليفة الفاطمي هذه الفرصة ، فأوضح لأشياعه عيشة الزهد والتقشف التي يعيشها ؛ فبين لهم أنه خصص وقته وهيمته لبلوغ غاية واحدة ، هي نشر نفوذه الديني والزمني في المشرق .

وقد شرح لهم بعد ذلك الوسائل التي يستطيع بها أن ينفذ سياسته ، حتى يكون لها أثرها فتأق بالغرض المطلوب منها : فصيانة أرواح رعاياه ، وتعمير بلاده ، واخضاع أعدائهم واذلالهم (يقصد بذلك قمع الثورات التي قد تذكى نارها الأحزاب المعادية لهم في شمال إفريقيا) ، كان هذا كله الخطوات التي لا بد له من أن يدرج فيها لاستتباب النظام ، عسى أن يتمكن بذلك من نشر ألوية السلام والطمأنينة في كافة ربوع بلاده .

واذا ما تحققت هذه الغاية ، لم يفت الخليفة الفاطمي معنى المثل المشهور ” العدل أساس الملك “ . ولا غرو فقد عرف أن الظلم والاستبداد يثيران كامن السخط ويذكيان روح العصيان ، مما يؤدي الى القضاء على هذه المجهودات التي يبذلها لاستتباب الأمن والعدل في بلاده .

ولا يعزب عن أذهاننا أن هذا الخليفة لم يقرأ أتباعه على التزوج من أكثر من واحدة . ” فحسب الرجل الواحد الواحدة “ ، عبارة تنطوي تحتها كراهة تعدد الزوجات كراهة تكاد تبلغ التحريم ، مما يؤدي بلا ريب الى انهالك أبدانهم وإضعاف عقولهم ؛ وبذلك يكون الخليفة قد أدرك أثره بنفسه . ونحن نستطيع أن نريد على هذا القول بأن لهذا الأمر أثرا عظيما في إضعافهم من الناحية الخلقية أيضا .

وقد وثق الخليفة من أنهم لو أخلصوا لأوامره ونواهيته ، لسهل عليهم أمر المشرق كما سهل عليهم أمر المغرب من قبل . وإن ما جاء في آخر هذه الخطبة التي نستطيع أن نعدّها وثيقة من الوثائق التاريخية الهامة يمكننا من أن نوازن — ولو بعض الشيء — بين المعز وعمر بن الخطاب ، من حيث سياسته التي تنطوي على الحزم وسمو الأخلاق والقدرة على تصريف الأمور — هذه الصفات كلها التي سهلت عليه فتح مصر والشام .

وفي الحق ، إن ما جاء في بيان هذا الخليفة من أنه كان مشتغلا بما يرد عليه من الرسائل والكتب من المشرق والمغرب ، وأنه كان يجب عليها بنفسه ، يبين لنا ما كان هنالك من علاقة بين الخلافة الفاطمية وبلاد المشرق حيث انتشرت الدعوة الفاطمية وتمكنت أصولها .

(٤) اختيار مصر مقرا لدعوة الشيعة

لوفرة ثروتها وقربها من الأمصار الإسلامية

لم تكن موارد بلاد المغرب مما يمكن المقارنة بينها وبين موارد مصر؛ إذ لا شك في أن مصر كانت تفضلها من حيث ثروتها وموقعها الجغرافي ، وبذلك كانت أكثر صلاحية لتكون مركزا لسلطان الإمبراطورية الفاطمية . هذا فضلا عن أن مصر أقرب إلى المشرق الذي دأب المعز على إخضاعه كما دأب على ذلك أسلافه من قبل . فكان نجاحه في هذا المشروع يؤدي إلى استيلائه على المراكز الإسلامية القديمة أو بعضها : وهي المدينة ودمشق ، وعلى بغداد التي قد استولى عليها بنو بويه سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) .

أما السهولة التي لاقاها النفوذ الفاطمي ، وما كان من امتداد هذا النفوذ إلى سورية والحجاز بعد فتح مصر ، فلم قد تحقق بالفعل ؛ على أن الأمل بأن تخو بغداد منحنى دمشق والمدينة بعد ، أمر لم يحققه الأيام .

نعم ! لقد كان بنو بويه من الشيعيين المتحمسين لمذهب الشيعة ، كما كان الفاطميون أنفسهم ؛ وكانت مسألة تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين من المسائل التي فكر فيها بنو بويه بادي ذي بدء بعد انتقال السلطان إليهم . ولكن الميول في اتحاد المذاهب قل أن يكون لها أثر إذا تنازعت مع المصالح السياسية .

وكان معز الدولة كغيره من آل بويه شيعيا متمكنا في مذهب الشيعة ؛ وقد اعتنق هذا المذهب على مبادئ الزيدية التي أدخلها في بلاده الحسن بن زيد العلوي . وكان من أثر شرعائه هذا المذهب أن اعتقد بنو بويه أن العباسيين قد اغتصبوا الخلافة من أصحابها وهم العلويون .

بيد أن معز الدولة بن بويه لما فكر في تنفيذ هذه الفكرة ، أشار عليه أحد أنصاره بالعدول عنها ، كما يتبين لك ذلك من هذه الكلمات التي قالها له أحد هؤلاء الأنصار ، تنقلها عن ابن الأثير حيث قال :
” فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ؛ ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحطين دمه ؛ ومتى أجلسست بعض العلويين خليفة ، كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافتهم ؛ فلو أمرهم بقتلك لفعلوه “ (١) .

ونحن نميل إلى ترجيح صحة هذا القول ؛ فقد انتصح بنو بويه بهذا النصيح ، فعدلوا عن مسألة تحويل الخلافة إلى العلويين . وسنقف من أعمال الفتوح التي قام بها الفاطميون على أنهم جعلوا مصر المركز الذي انتشرت منه دعوتهم في الشرق والغرب . وسندرك أيضا أن الفاطميين لم يفكروا في الاستيلاء على بغداد حتى في ذلك الوقت الذي ذكرت فيه أسماؤهم في الخطبة على منابر الدولة العباسية .

ويحدثنا المقرئ (٢) أنه عند ما رحل جوهر يريد مصر ، خطب المعز في المشايخ الذين انضوا تحت لوائه بهذه الكلمات : ” والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر . ولتدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب ، ولتترنن في نرايات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا “ .

رحيل جوهر إلى مصر :

في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٨ (فبراير سنة ٩٦٩) ، خرج المعز لوداع جوهر وجيشه عند رحيلهم لغزو مصر . وبعد أن قبل جوهر يد الخليفة وخافر فرسه ، أذن له الخليفة بالمسير . ولما عاد المعز إلى قصره ، بعث لجوهر كل ما كان عليه من لباس خارجي عدا خاتمه (٣) .

وتقدم جوهر في مسيره حتى وصل إلى الاسكندرية ؛ فسلمت هذه المدينة له بعد أن أجاب أهلها إلى ما التمسوه من شروط ؛ ولم يشك أحد من الأهالي من عنف أو نهب . ولا غرو فقد

(١) ابن الأثير (ج ٨ ص ١٦٢)

(٢) نخط (ج ١ ص ٣٧٨)

(٣) ابن خلكان (ج ١ ص ١٤٨)

استطاع جوهر أن يكبح جماح عساكره الذين أغدقت عليهم الأرزاق ، وكان النظام بين وحدات جيشه يدعو إلى الإعجاب^(١).

وقد اضطرب أهل القسطنطين حين اتصل بمسالمهم نبأ وصول جوهر إلى الاسكندرية واستيلائه عليها ، فعولوا على نذب الوزير ابن الفرات لمراسلة جوهر بشأن الصلح وطلب الأمان على أدراجهم وأملاكهم ، وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبيد الله — وكان من الأشراف ومن ذوى المكانة عند قومه ، ونسبته إلى الحسين بن علي — أن يذهب بنفسه ويفاض جوهر في الصلح . وقد رأوا أن سفيرا من العلويين قد يكون له شأن يذكر مع الشيعة أمثاله ، فتجاب مطالب أهل مصر . فاجابهم أبو جعفر الى ذلك ، وشرط أن يكون معه جماعة من أهالى هذه المدينة^(٢) .

وتوجه هذا الوفد في يوم الاثنين الثامن عشر من شهر رجب سنة ٣٥٨ هـ (١٨ يونيو سنة ٩٦٩) ، وتلاقوا مع جوهر في مدينة تروجة ، وهي قرية على مقربة من الاسكندرية ؛ فأدى الشريف الرسالة عنهم ؛ فأجابه جوهر الى ما التمسوه وكتب له عهدا بما طلبوه . وفي السابع من شهر شعبان عاد الوفد ومعه العهد إلى القسطنطين ؛ فركب الوزير ابن الفرات ولقى الناس وقرأ عليهم العهد ؛ فتناظروا فيه ، واختلفوا على قبوله ورجعوا عن الصلح .

وهنا اضطرب أهل المدينة اضطرابا شديدا ، وعول أنصار الأخشيديين والكافورية وجماعة من العسكر على عدم الإذعان لعهد الصلح وصد جوهر بجند السلاح ، وولوا تحريرا قيادتهم ؛ فسار على رأس جند المصريين الى الجيزة ، فقتلوا بها وحفظوا الجسور^(٣) .

وفي الحادى عشر من شعبان وصل جوهر ، وقد علم بما اعترمه أهل مصر من المقاومة ، وسار الى منية الصيادين واستولى على المخاضة بمينة شلقان ؛ فلم يجد جماعة من عسكر المصريين بدا من العبور في القوارب والتسليم لجوهر وطلب الأمان منه ، ووقف غيرهم من العسكر المرابطين في الجانب الآخر من القسطنطين على المخاضة لحفظها .

(١) يحيى بن سعيد (ص ١٣٢)

(٢) الكندى (ص ٥٨٤) ويحيى بن سعيد (ص ١٣٢)

(٣) يحيى بن سعيد (ص ١٣٢ و ١٣٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١٤٩)

فلما رأى جوهر ذلك انتزع ملابسه الخارجية وعبر مع رجاله وهو في مركب ، وخاض رجاله وأعمالوا السيف في الأخشيدية وأوقعوا بهم ؛ فهربت الفالة منهم في غلس الظلام (١٦ شعبان سنة ٣٥٨ ، أول يولييه سنة ٩٦٩) ، وحلوا من منازلهم كل ما قدروا عليه .

ولم ير النساء بدا من طلب الأمان . فخرج بعضهن مشاة ودخلن على الشريف أبي جعفر ، وطلبن إليه مكتبة جوهر باعادة الأمان ؛ فكتب إليه يهنئه بالفتح ويسأله الأمان من جديد . فقبل القائد الفاطمي متمسهم ، وأذاع على الجند منشورا يحرم فيه عليهم أن يقوموا بعمل من أعمال العنف والنهب . فهدأت المدينة وسكن الناس ، وعاد الأمن إلى نصابه ، وفتحت الأسواق وعادت الأعمال التجارية الى ما كانت عليه (١) .

ولقد أورد لنا المقرئى شروط الصلح التي عرضها جوهر على المصريين في بيان واف . ومع أن جوهر منح المصريين الحرية التامة في أمورهم الدينية وإقامة شعائرهم - كل حسب المذهب الذي يدين بعقائده - فإن أغراضه التي كانت ترى إلى نشر عقائد المذهب الفاطمي قد مُتِرت مع ذلك وراء ستار من الجهاد السرى الحكيم .

هذا ، ويجل بنا أن نورد هنا نص العهد الذي قطعه جوهر على نفسه ؛ لأنه يمدنا بوصف تام لحالة العالم الأسلامى وقت الفتح الفاطمى ، ويرسم لنا صورة واضحة للسياسة التي عول الفاطميون على الأخذ بها من الوجهة السياسية والدينية في مصر خاصة والشرق عامة . وسنعلم بعد إلى أى حد نجحت سياسة جوهر . والآن نأتى بهذا العهد نقلا عن المقرئى :

” بسم الله الرحمن الرحيم ! هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر الساكنين بها (من أهلها) ، ومن غيرهم ، أنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معى : وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطل الله بقاه ، وأبو اسماعيل الرسمى أيد الله ، وأبو الطيب الهاشمى أيد الله ، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله ، والقاضى أعزه الله ، وذكروا عنكم أنكم التستم كتابا يشتمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ؛ فعرفتم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم . فلتحمدوا الله على ما أولاكم وتشكروه على ما حباكم ، وتدأبوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا الى طاعته العاصمة لكم العائدة

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٤٣)

بالسعادة عليكم وبالسلامة لكم ؛ وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراج العساكر المنصورة والجيوش المظفرة ، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم^(١) ؛ إذ قد تحفظتكم الأيدي واستطال عليكم المستذل ، وأطمعته نفسه بالاعتداد على بلدكم في هذه السنة ، والتغلب عليه وأسر من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان الشرق ؛ وتأكد عزمه واشتد كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر المنصورة ، وبإفاده بانفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان الشرق الذين عمهم الخزي وشملتهم الذلة ، واكتفتهم المصائب وتتابعت الرزايا ، واتصل عندهم الخوف وكثرت استغاثتهم ، وعظم ضييعهم وعلا صراخهم ؛ فلم يغتهم إلا من أرمضه أمرهم ومضه حالهم وأبكى عينه ماناهم ، وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فرجا بفضل الله عليه وإحسانه لديه ، وما عوده وأرجاه عليه ، استنقاذ من أصبح منهم في ذل مقيم وعذاب أليم ؛ وأن يؤمن من استولى عليه المهمل ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل . وآثر إقامة الحج الذي تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم ؛ ولما لا يؤمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ؛ وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى ، فسفكت دماؤهم وابتزت أموالهم ، مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها ، ليطرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ، ويتحفوا بالأطعمة والأقوات ، إذ كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها ، إذ لا زاجر للعتدين ولا دافع للظالمين ؛ ثم تجوّد السكة وصرفها إلى العيار الذي عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة ، وقطع الغش منها ، إذ كانت هذه الثلاث خصال هي التي لا يتسع لمن ينظر في أمور المسلمين إلا اصطلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها ؛ وما أوعز به سيدنا ومولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عبده من نشر العدل وبسط الحق ، وحسم الظلم وقطع العدوان ، ونهى الأذى ورفع المؤن والقيام في الحق ، وإعانة المظلوم مع الشفقة والاحسان ، وجميل النظر وكرم الصحبة ، ولطف العشرة واقتفاء الأحوال ، وحيطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم وحين تصرفهم في أوان ابتغاء معاشهم ، حتى لا تجرى أمورهم إلا على ما لم شعثم وأقام أودهم ، وجمع قلوبهم وألف كلمتهم

(١) قد تكون الإشارة هنا إلى الغارات التي شنتها جيوش الامبراطورية البيزنطية ، وقد استولت على كيليكيا وقبرص ، وكانوا على وشك التقدم نحو بلاد الجزيرة وقلب الشام وتهديد مصر . وقد تقدم القول بأن الجيوش البيزنطية استطاعت أن تصل في غزواتها إلى بلاد الشام تحت قيادة تقيفوقاس ، الذي وقعت في يده انطلاقية سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩ م) ، وأوقع الهزيمة بعساكر الشام والأساطيل المصرية التي كان قد بعث بها جوهر بعد أن تم له فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ؛ وكان قد حول على إرساله لمحاربة الخليفة الباسي الذي كان ينظر إليه نظرة الخارج على الدين لاعتناق مذهب السنة ؛ وكذلك لمقاتلة القرامطة الذين هاجموا الحاج وسلبوا أمتعتهم .

على طاعة (وليّه) مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وما أمره به مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضى صلوات الله عليه بإثباتها عليكم . وأن أجيركم في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال . وأن أتقدم في رم مساجدكم وترينها بالقرش والایقاد ، وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم ، وأدرها عليهم ولا أقطعها عنهم ولا أدفعها الا من بيت المال ، لا بإحالة على من يقبض منهم ؛ وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه مما ضمنه كتابه هذا ، من ترسل عنكم أيدهم الله وصانكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، من أنكم ذكركم وجوها التسم ذكراها في كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ؛ فلم يكن في ذكرها معنى ولا في نشرها فائدة ؛ اذ كان الاسلام سنة واحدة وشرعية متبعة ، وهي إقامتكم على مذهبكم ، وأن تركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم ، وشبانكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ؛ وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام ليليه ، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه في سنته ؛ وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه . ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم ، وأهلكم ونعمكم وضياكم ورباعكم ، وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ويمنع منكم ؛ فلا يتعرض إلى أذاكم ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم ولا في الاستطالة على قويمكم فضلا عن ضعيفكم ؛ وعلى ألا أزال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ، ويصل اليكم خيره وتعرفون بركته ، وتغبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . ولكم على الوفاء بما التزمته وأعطيتكم إياه ، عهد الله وخليط ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله ، وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم ، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف اليها ، وتخرجون الي وتسلمون على ، وتكونون بين يدي الى أن أعبأ الجسر وأنزل في المناخ المبارك ، وتحفظون وتحفظون من بعد على الطاعة وتابرون عليها وتسارعون الى فروضها ، ولا تحذلون وليا لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وتلزمون ما أمرتم به . وفقكم الله وأرشدكم أجمعين ! (١) ” .

وإن ما تضمنته هذه الخطبة التي ألقاها المعز على شيوخ كتامة قبل مسير جوهر الى مصر ، توضح لنا اشتغال الخليفة بما كان يرد عليه من مكاتبات تأتيه من الشرق . وهي حقيقة يؤيدها الواقع من أن جيوش الفاطميين لم تلاق مقاومة ذات بال من جانب السواد الأعظم من المصريين . فن الجلى أن جوهر تقدم في السير من تروجة الى الجيزة من غير قتال ولا حرب ؛ بل ولم نسمع أيضا عن أية مقاومة لاقاها جوهر من حامية الاسكندرية التي سلمت اليه بشروط مقبولة لديهم .

أجل ! لقد مهد السبيل أمام جوهر السلطات المصرية برئاسة الوزير ابن الفرات ، الذى بعث الى جوهر بوفد يمثل المصريين جميعا على اختلاف طوائفهم الدينية ونزعاتهم السياسية . وقد عهد برئاسة هذا الوفد الى أبى جعفر مسلم ، وكان — كما تقدم — ذا مكانة عالية ، ومن سلالة الحسين بن على . وقد دفع الوزير الى اختياره أنه من العلويين ، مما جعل له شأنًا يذكر فى انجاح المفاوضات . ولقد ظهرت الحكمة التى أوحى الى الوزير باختياره ؛ فسرعان ما تعاهد معهم جوهر على هذه الوثيقة التى نقلناها عن المقرئ .

ويحدثنا ابن خلكان أن فتح الفاطميين لمصر كان أمرا متظرو الوقوع لدى العساكر المصريين وبعض رجالات مصر من أصحاب المراتب العالية ، وأنهم كتبوا الى المعز يطلبون اليه أن يرسل جيشا يستولى على العاصمة (١) .

ولا غرو فان المقاومة الوحيدة التى تكلم عنها المؤرخون لم يقم بها الا أشياع الأخشيديين والضباط الذين كانوا فى خدمة كافور ؛ على أن هؤلاء وأولئك لم يكونوا الا أقلية ضئيلة من العساكر المصريين . وإن اعتزل بعض رجالهم الذين عبروا فى القوارب واستأمنوا لجوهر ، جعل القضاء على مقاومة الجيوش المصرية أسهل وأيسر .

ولم يعارض المصريون فى تحويل طاعتهم من خليفة عباسى الى خليفة علوى ، لأنهم كانوا يدركون الادراك كله ان انتقال السلطة من عباسى الى فاطمى ، أو من سنى الى شيعى ، ليس من شأنه أن يحدث أى تغيير فى حالتهم السياسية ، لأنهم سيخضعون فى كلتا الحالتين لسلطان هذا الحاكم أو ذاك .

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٤٨) .

على أن تفسير الحكم قد يصحبه تحسين في أحوالهم الداخلية . فقد وصلوا تحت حكم العباسيين الى الدرك الأسفل من البؤس والشقاء . وقد جعل هذا العهد الذى أعطاه جوهر للمصريين تحقيق هذه الآمال أمرا محتمل الوقوع . ذلك أن تأمينهم على أرواحهم وأموالهم ، وحمايتهم مما لحقهم من ظلم حكامهم السابقين ، ومن غارات القرامطة الذين طامسوا تعدوا على حجاجهم ، ومن غزوات الاغريق ، وقد وقع في أيديهم إقليم كيليكيا ، وكانوا على أهبة المسير الى الشام ، كل ذلك قد أقره الخليفة الفاطمى في هذا العهد على لسان قائده .

يضاف الى ذلك أن المصريين قد رحبوا بهذه الدعوة التى كانت ترمى الى اصلاح المساجد وتحسين السكة والغناء السخرة ، ومنحهم الحرية التامة — مسلمين كانوا أو ذميين — فى اقامة شعائرهم الدينية ، كل حسب دينه ومذهبه .

وقد قصد من هذه السياسة التى تتجلى لك من بيان جوهر العمل لصالح مصر ؛ ودأب جوهر على تنفيذها هو ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، اللهم الا اذا استثنينا من ذلك ما كان من وعده منح الحرية التامة فى اقامة شعائر الطوائف الدينية على اختلاف نحلها ومذاهبها ، لأن جوهر ا قد أقر فى بيانه ما للعلويين من حقوق ؛ حتى اذا ما تم الفتح ، أصبحت السيادة للذهب الشيعى . وسيتضح لك ذلك فى الباب الآتى .

تأسيس القاهرة^(١) :

وضع جوهر أساس القاهرة عاصمة الفاطميين الجديدة، والتى لا تزال الى اليوم، فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ بعد أن استولى على مدينة مصر (كانت تطلق على الفسطاط والعسكر والقطائع) . وكانت هذه المدينة الجديدة محاطة بسور من أبركبير الحجم ، شاهد المقرئ بقاياها سنة ٨٠٢ هـ (١٤٠٠ م)؛ وقد تخلل هذا السور فضاء متسع أطلق عليه فيما بعد ” بين القصرين “ ، وكان يسع عشرة آلاف من الجنود ، ولا زال بعضه يعرف اليوم بسوق النحاسين . وإلى الشرق منه يقع قصر الخليفة ؛ ويعرف جزء منه الآن بخان الخليلي ، وآخر بمسجد الحسين ، وهذا (بين القصرين) أطلق على الميدان فيما بعد ، بعد أن بنى العزيز بالله قصرا أصغر من القصر الذى بناه جوهر لمولاه المعز على جانبه الغربى ، عند مبدأ هذه الحديقة الغناء التى أنشأها كافور ، واستحوذ عليها الخلفاء الفاطميون فيما بعد .

Prof. Margoliouth : Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 21. (١)

• راجع كتاب الخطط التوفيقية لملى مبارك باشا الجزء الأول (ص ٤ — ٢٢)

وقد اختط طريق عام يخترق وسط القاهرة من باب زويلة جنوبا ، ويتصل بمدينة الفسطاط مارا فيما بين القصرين حتى باب الفتوح ، وكان يوصل الى الفضاء الواقع في الشمال . والى الجنوب الشرق من قصر الخليفة يقع الجامع الأزهر الذي شرع جوهر في بنائه (في ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩) بعد أن وضع أساس العاصمة الجديدة . وقد تم بناء السور المحيط بالقاهرة سنة ٣٥٩ هـ . والى الجنوب والشرق منه كانت تقع مدينة الفسطاط التي ظلت مركز الحركة التجارية وموطن الأهالي حتى نهاية عهد الفاطميين . والى الغرب تقع المقس ، وكانت تمتد الى النيل ؛ وظلت ميناء القاهرة الى أن تحول مجرى النيل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ليلاذ ، فهد ذلك السبيل لتأسيس بولاق .

وكانت القاهرة وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم الى باب زويلة ؛ وكانت حدودها الشرقية هي بنفسها حدود القاهرة الحالية . وأما من الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليج .

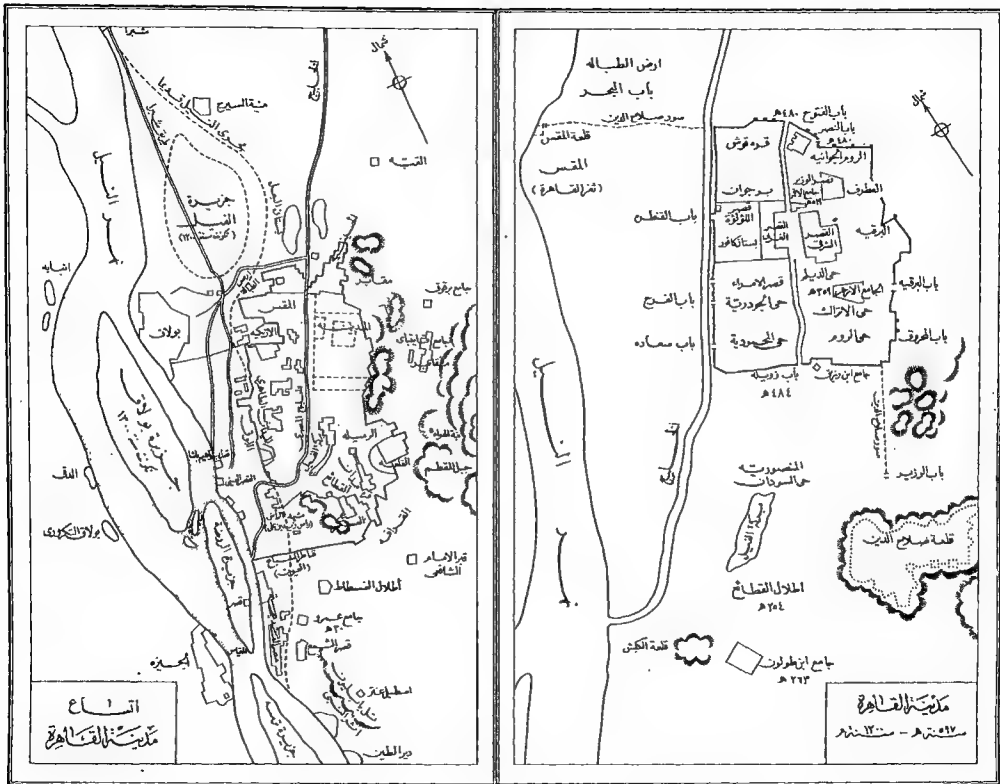
وقد ذكر على مبارك باشا أن طول كل جانب من جوانب المدينة التي أسسها جوهر (القاهرة) كان يبلغ ألفا ومائتي متر . ومساحة هذا المكان ٣٤٠ فداناً (الفدان ٤٢٠٠ متر مربع) ، كان القصر يشغل منها مساحة مقدارها سبعون فداناً ؛ وكانت حديقة كافور تشغل خمسة وثلاثين ؛ وخمسة وثلاثين للكان المخصص لاستعراض الجنود ، والباقي وقدره مائتا فدان لسكنى العساكر . وقد زاد السور الذي أقامه أمير الجيوش بدر الجمالي في مساحة المدينة ستين فداناً . وقد بنى هذا السور من الحجر الكبير الحجم ؛ وكان به ثلاثة أبواب لا تزال باقية الى اليوم ، وهي باب زويلة وباب الفتوح وباب النصر .

استقرار سلطان الفاطميين في الشام والحجاز :

رأى جوهر بحكم ولايته على مصر ضرورة التدخل في أمور الشام السياسية . وكان بعض جهاتها جزءا من أملاك الدولة الأخشيديية ؛ وكانت تدن لها بالتبعية الاسمية على الأقل . وقد استقل بولاية حلب أمراء من الشيعة ، كما استقل الحسن الأخشيدي (الذي عاد الى الشام بعد أن صادر الوزير ابن الفرات) بولاية الرملة . وبعث جوهر الى الحسن هذا جيشا تحت إمرة أحد قواده جعفر ابن قلاص^(١) ؛ فشن الغارة على بلاده وأوقع به (ذو القعدة سنة ٣٥٨ سبتمبر سنة ٩٦٩) (٢) .

(١) كان جعفر بن قلاص من قبيلة كامة من البربر ، ومن قواد المعز ، وقد بعث به فيمن أرسلهم مع جوهر لنزو مصر .

(٢) أمر الحسن وسبق الى الفسطاط ، ثم حبس في شمال إفريقيا حيث مات بها سنة ٣٧١ هـ .



وقد واصل جعفر مسيره الى طبرية حيث علم أن الدعوة قد أقيمت للخليفة الفاطمي ، ثم استأنف المسير الى دمشق ، ودخلها في المحرم سنة ٣٥٩ بعد أن لاقى من الأهلى قتيلا من المقاومة . وفي يوم الجمعة التالى حذف من الخطبة اسم الخليفة العباسي ، وأقيمت للخليفة الفاطمي (١) .

على أن استيلاء الفاطميين على دمشق قد أوقعهم في نزاع مع القرامطة ؛ وذلك أن دمشق كانت تدفع الجزية لزعم القرامطة ردحا من الزمن ؛ فغدت هذه الجزية لا تدفع اليهم بعد استيلاء الفاطميين على هذه المدينة . وقد سار جعفر الى الدكة (٢) ، الواقعة على نهريديبالقرب من دمشق ، لملاقاة الحسن القرمطي الملقب بالأعصم ، وكان قد خف للزحف وشن الغارة عليه . ولما دارت رحى الحرب ، أسرج جعفر وقتل ، ووقع كثيرون من أتباعه صرعى في حومة القتال (يوم الخميس ٦ ذو القعدة سنة ٣٦٠ وسبتمبر سنة ٩٧١ م) (٣) .

وقد أسرع الحسن بالسير نحو الجنوب بعد استيلائه على دمشق ؛ فمر بالرملة واقضى على مصر ، وهاجم القلزم (السويس) والقرما على غرة ، وتحكم بذلك على برزخ السويس ، فاعترفت بسلطانه مدينة تيس . ومن ثم تقدم في داخل البلاد ، وعسكر برجاله في عين شمس (هليوبوليس) وهدد القاهرة .

ولما تلقى جوهر نبأ وصول الحسن الى برزخ السويس ، شرع في اعداد وسائل الدفاع ، وبعث في الحال رجالا من عنده الى معسكر القرامطة ، فاندسوا بينهم وتظاهروا بالسخط على الفاطميين ؛ وما زالوا بهم حتى أوقعوا بينهم الفساد . وبعد قليل حاول الحسن الاستيلاء على الخندق عنوة ؛ ولكنه ارتد على أعقابيه وقد تكبد خسائر فادحة ، بفضل ما أظهره المتطوعون من المصريين الذين انضموا تحت لواء جوهر وماربوا في صفوفه من بلاء لم يكن يتوقع منهم ؛ وأسر من عساكر

(١) ذكر أبو الفدا (ج ٢ ص ١١٥) أن أهالى دمشق ثاروا على الخلافة الفاطمية وقطعوا الخطبة لفر ، ومرعان ما قضى جعفر بن فلاح على الثائرين وأعاد سلطان الفاطميين .

(٢) راجع هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت .

(٣) بعد موت جعفر وجدت هذه الأبيات مكتوبة على باب قصره :

يا مزلّا عَيْتَ الزّمانِ بأهله فابادهم بفسقٍ لا يُجْعُ

أين الذين عهدتهم بك مرة ؟ كان الزمان بهم يضر ويشفع

ابن خلكان (ج ١ ص ١٤١)

الأنخشيدين خلق كثير ، وكانوا قد انضموا الى الحسن وقاتلوا في صفوفه . وبذلك أرغم القرامطة على الرجوع الى القلزم ، تاركين المصريين ينهبون أمتعتهم (١) .

وكانت أخبار القرامطة وما كان من حروبهم في مصر قد اتصلت بمسمع الخليفة الفاطمي . ولما وقعت الهزيمة بالحسن القرمطي ، وصلت الامداد من القيروان تحت إمرة ابن عمار ، فتقوى بذلك جوهر وزحف الى تنيس ، وعفا عن هفوات أهلها التي ارتكبوها بانضمامهم الى العدو .

وسرعان ما ارتد أسطول القرامطة من النيل ، تاركا وراءه سبعة مراكب حربية وخمسمائة أسير . وبهذا كله استطاع جوهر أن يقضى على هذه الحروب التي شنها القرامطة على مصر ، وما لبث أن اقتنى آثارهم وخلص يافا من أيديهم ؛ أما الحسن فإنه عاد الى دمشق وأخذ في التأهب للقتال من جديد .

ويحدثنا أبو الفدا (٢) أن قرعوية ، الذي آلت اليه ولاية حمص وحلب بعد موت مولاہ سيف الدولة الحمداني ، أقام الخطبة للعز ؛ وأقيمت الدعوة في المدينة للطبع العباسي ، وفي مكة للعز (٣) .

رحيل المعز الى مصر :

ورأى جوهر في ذلك الحين أن الوقت قد حان لحضور المعز بنفسه وتسلم زمام الحكم . ويذكر ابن خلكان (٤) أن جوهر اكتب بذلك للعز غير مرة ، ثم بعث اليه رسولا يحمل خبر خضوع مصر والشام والحجاز (٥) لسلطانه ، وأن الدعوة قد أقيمت له في كافة أرجاء هذه البلاد ؛

(١) أبو الفدا (ج ٢ ص ١١٧ و ١١٨)

(٢) (ج ٢ ص ١١٧)

(٣) ذكر المقرئ (خط ج ١ ص ٣٥٣) أن الحسن بن جعفر الحسني أقام الدعوة للعز على أثر فتح مصر على يد جوهر ، فبعث جوهر بالخبر للعز ، فقلده ولاية مكة وخلع عليه . ويقول ابن الأثير (ج ٨ ص ٢٢٠) إن الدعوة كانت تقام في مكة سنة ٣٦٠ هـ للخليفة العباسي ، وفي المدينة للعز الفاطمي . هذا ، ولم تقم الدعوة للظفاء الفاطميين الا في عهد العزيز سنة ٣٦٦ هـ ، "حيث خطب للعزيز بمكة والمدينة ، ولم يخطب للطائفة" .

تاريخ ابن الجوزي — مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوط (Pocock) ٣٧٠ ، ورقة ٨٧ أ .

(٤) (ج ٢ ص ١٣٤)

(٥) يعلم مما أورده أبو الفدا (ج ٢ ص ١١٧) أن سلطان الفاطميين لم يستقر في الشام والحجاز حيث كانت الدعوة تقام باسم الخليفة العباسي .

فسر المعز بذلك سرورا عظيما . ولما تقررت قواعد ملكه في مصر ، استخلف بلكنين بن زيري ابن مناد الضنهاجي على إفريقية ،^(١) ”وتوجه الى مصر بأموال جلييلة المقدار ورجال عظيمة الأخطار ، وحمل معه جيش آباءه الثلاثة الذين تولوا الخلافة قبله“ .

ونخرج المعز من المنصورية^(٢) دار ملكه يوم الاثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١ هـ (٥ أغسطس سنة ٩٧٢) ، ومر في طريقه على برقة ودخل الاسكندرية يوم السبت ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢ هـ^(٣) (٢٩ مايو سنة ٩٧٣) وهو ممتط جواده ، قدم عليه القاضي أبو الطاهر محمد بن أحمد وأعيان البلاد وسلموا عليه .

وجلس الخليفة عند المنارة ذلك اليوم ، وخطبهم خطبة طويلة ؛ فقال إنه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه ولا لمال ، وإنما أراد إقامة الحق وحماية الحجاج وعلان الجهاد ضد الكفار ، وأن ينحتم حياته بالأعمال الصالحة ، ويعمل بما أمر به جده صلى الله عليه وسلم ، ووعظهم وأطال في الوعظ حتى استرد دموع بعض الحاضرين ؛ وخلع بعد ذلك على القاضي وبعض من كان في جماعته ، وحملهم على الخيل المطهمة ، ثم انصرفوا^(٤) .

ثم غادر المعز الاسكندرية في أواخر شعبان ، فوصل الى ساحل مدينة مصر المقابل للبحيرة ؛ فخرج اليه القائد جوهر ، وتربل عند لقائه وقبل الأرض بين يديه . وأقام المعز في البحيرة ثلاثة أيام ؛ ثم أخذت عساكره في العبور الى ساحل مصر . وفي يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان ، عبر المعز النيل ودخل القاهرة من غير أن يمر على مصر في طريقه ، وقد أقام له الأهليون معالم الزينة على جانبي الطريق ، ظننا منهم أنه سيسرفها بزيارته .

(١) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ١١٥) أن ذلك كان يوم الأربعاء ٢٢ ذي القعدة سنة ٣٦١ (سبتمبر سنة ٩٧٢) . وقد أمر المعز الناس بطاعة بلكنين الذي أصبحت له ولاية هذه البلاد ، وبيح باسمه الخراج .

(٢) أطلق اسماعيل بن المنصور ثالث الخلفاء الفاطميين هذا الاسم على مدينة صيرة ، وتصل بالقيروان . وقد بناها المنصور الفاطمي في سنة ٣٣٧ هـ واستوطنها سماها المنصورية . (انظر البكري ص ٢٥)

(٣) خالف ابن خلكان في ذلك ما أجمع عليه المؤرخون ، وهو أن رحيله كان سنة ٣٦٢ هـ .

(٤) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٤)

ولما وصل القاهرة ودخل القصر الذى بناه له جوهر وصار فى احدى ردهاته ، ختر
ساجدا لله تعالى ؛ ثم صلى ركعتين ، وانصرف الناس عنه . وقد أطلق على المدينة التى بناها
جوهر للعز اسم القاهرة المعزية ، نسبة الى الخليفة المعز^(١) .

وفى يوم الجمعة السابع عشر من المحرم سنة ٣٦٤ (٧ أكتوبر سنة ٩٧٤) تسلم المعز من جوهر
دواوين مصر وجباية أموالها والنظر فى أحوالها . وقد تولى جوهر^(٢) أمور مصر زهاء أربع سنين
وعشرين يوما حتى دخل المعز القاهرة واستقر فى قصره^(٣) .

وهكذا ثبتت قواعد الخلافة الفاطمية فى مصر ، وأصبحت القاهرة ، بدل القيروان ، مركز
هذه الامبراطورية الشاسعة الأرجاء^(٤) .

(١) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٥)

(٢) كان جوهر محسنا الى الناس الى أن توفى يوم الخميس العشرين من ذى القعدة سنة ٣٨١ هـ (يناير سنة ٩٩٦ م)
ولم يبق شاعر الارثاء وذكر مآثره .

(٣) ابن خلكان (ج ١ ص ١٤١ و ١٤٢)

(٤) إن الامهات فى بيان العلاقات التى كانت بين مصر والشام والعالم الاسلامى عامة فى عهد الفاطميين مما لا يتسع له
هذا البحث . على أننى لن أغفل الاشارة الى ذلك كما دعت الحالة اليه . هذا وقد نجح الفاطميون فى تأسيس سلطانهم فى القاهرة
التي اتخذوها حاضرة لامبراطوريتهم ؛ فخذت المركز الذى منه انتشرت شعائر المذهب الفاطمى الذى لم يدخر الفاطميون جهدا
فى نشره وتأيدته . ولقد خطب العزيز سنة وفاته (٣٨٦ هـ ٩٩٦ م) فى مصر والشام والحجاز ، وأقيمت الدعوة فى الموصل على يد أبى
دؤاد محمد بن المسيب أمير هذه البلاد الملقب بحسام الدولة ، وفى البين أقيمت الخطبة باسم هذا الخليفة (ابن خلكان ج ٢
ص ٢٠١) .

الباب الثالث

تنظيم الدعوة الفاطمية في مصر

الدعاية العلمية

خطوات الفاطميين الأولى لنشر دعوتهم

لقد آل الملك للفاطميين ونجحوا في تأسيس خلافة علوية مستقلة باسم الدين وبفضل انتسابهم إلى النبي ، مؤيدين دعواهم بما نشره من عقائد ذات صبغة دينية بحتة ؛ ودلّوا على صحة هذه الدعوة بأنهم خلفاء النبي حقا ، وأن حقهم المقدس في الخلافة قد اغتصب منهم اغتصابا .

ومنذ النصف الأخير من القرن الثالث للهجرة تأثر مذهب الشيعة الأول بما طرأ عليه من تغيرات عظيمة ؛ وذلك من تأثر بعض هؤلاء بالفلسفة الإغريقية وأخذهم ببعض العقائد المبينة على الرجعة والتناضح ؛ ومن ثم غدا مذهب الشيعة في عهد الفاطميين خليطا من الدين والفلسفة . وكان من نتيجة هذا المظهر الجديد أن نشأ من الشيعة مذاهب أخرى كالدروز والحشاشين ، لكل منهما عقائده الخاصة .

وقد حدثت هذه الأمور كلها بدعاة الفاطميين وغيرهم ممن دخل هذا المذهب إلى رفع أئمتهم ونسبة صفات التقديس إليهم ، هذه الصفات التي رفعتهم إلى مستوى الخلود والألوهية .

ولم يكد يستقر سلطان الفاطميين في مصر حتى رأينا جوهر لا يدخر وسعا في بث الدعوة للعز خاصة وللعلويين عامة . بيد أنه لم يكن من السهل عليه أن يجعل المصريين جميعا يعتقدون المذهب الفاطمي ؛ لأن السواد الأعظم كان يدين بالمذهب السني على اختلاف درجاتهم في الاخلاص له . أما الشيعة فانهم كانوا بالنسبة إلى المصريين أقلية صغيرة ، تحملت قبل فتح الفاطميين لهذه البلاد

شيئا غير قليل من الاضطهاد وسوء المعاملة . ولا غرو فان المصريين قاموا في وجه نفوذ الإخشيديين ودانوا بالطاعة للفاطميين لأسباب سياسية لا غير .

نعم ! لقد ساعدوا على إحداث هذا التغير ورغبوا فيه ، لما حاق بالبلاد في أواخر أيام الإخشيديين من مصائب متتابعة ، في وقت لم يتمكن فيه السلطة المركزية في بغداد من صد غزو الفاطميين .

وكانت أولى المشاكل التي جابهت جوهر في هذه البلاد ، العمل على تخفيف وطأة القحط والمجاعة التي انتابتها . وكان من حسن حظه ، أن المعز لما علم بفتح هذه البلاد بعث إليه بعدد من السفن المحملة بالحبوب ، مما خفف على أهل مدينة مصر كربهم ردحا من الزمن . كذلك أنشأ جوهر في الوقت نفسه مخزنا عاما للحبوب عهد برقايته الى المحتسب^(١) ، ومهمته منع احتكار هذه الحبوب والافتراء بتقدير أثمانها ، وجلد كل من لم يتزل عند أوامره من أصحاب المطاحن .

على أن هذه الوسائل لم تؤد الى انفراج الأزمة نهائيا ، وإن كان لها أثرها في اكتساب الفاطميين محبة الأهليين ورضاهم . وقد استمرت المجاعة والوباء حتى نهاية سنة ٣٦٠ هـ (٩٧٠ — ٩٧١ م) ؛ ولم تنته المجاعة الا في الشتاء التالي ، في غضون الشهور الأولى من سنة ٣٦١ هـ (أكتوبر وما يليه من سنة ٩٧١) ، حيث بدأت البلاد تسترد نشاطها أثر زوال الوباء^(٢) .

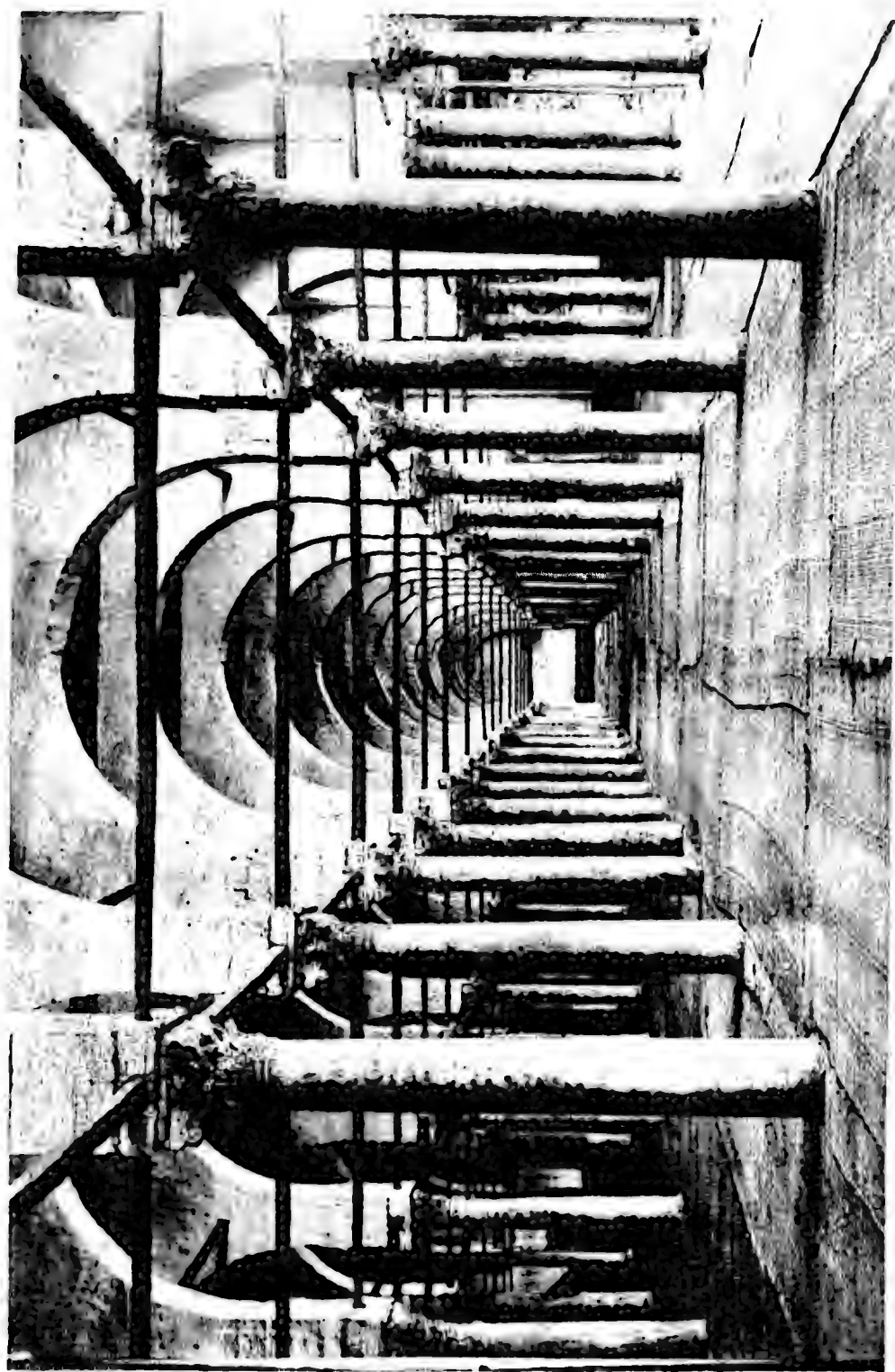
وبعد أن وضع جوهر أساس مدينة القاهرة حاضرة هذه البلاد الجديدة ، بعث الى مولاه المعز بكتاب ينثيه فيه بفتح مصر ؛ ثم أمر بقطع الخطبة للعباسيين على كافة منابر مصر ، وأن تضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي دون الخليفة العباسي ؛ فضرب على أحد وجهيها "باسم مولاى المعز" . وذكر المقرئى أنه ضرب على أحد وجهيها "دعا الامام معد بتوحيد الاله الصمد" ، وفي السطر الثانى "المعز لدين الله أمير المؤمنين" ، وفي السطر الثالث " (بسم الله !) ضرب هذا الدينار^(٣) بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة" ؛ وضرب على الوجه الآخر "لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، على أفضل الوصيين وزير خير المرسلين" (٤) .

(١) سفرد في الباب الخامس كلة خاصة لبيان واجبات المحتسب

(٢) يحيى بن سعيد (ص ١٢٩ و ١٣٠)

(٣) ذكر ابن ميسر (ص ٤٥) أن قيمة الدينار المضروب باسم الخليفة العباسي الراضى تزلت الثلث ، وأن الدينار المضروب باسم الخليفة الفاطمي المعز بلغت قيمته خمسة عشر درهما ونصفا .

(٤) المقرئى : انماظ (ص ٧٦)



جامع عمرو بن العاص - منظرة امام للأيوان السفلى

كذلك أمر جوهر بالكف عن لبس السواد شعار العباسيين ^(١) ، وأمر الخطباء بإرتداء الملابس البيضاء ، ونهى عن التكبير بعد صلاة الجمعة ، وكان من العادات المألوفة عند السنيين ^(٢) . وكان جوهر يعقد في أيام السبت مجلسا للظالم ^(٣) يحضره الوزير والقاضي وكبار الفقهاء ^(٤) ، وكان يصدر الأحكام بنفسه ^(٥) .

١ — الدعوة الفاطمية في المساجد

(١) الدعوة الفاطمية في الجامع العتيق

دخل الاسلام مصر سنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م) . ولم يكن الباعث على بناء المساجد منذ ذلك الوقت مقصورا على الأغراض الدينية وحدها ، بل كان ذلك راجعا أيضا إلى أسباب سياسية واجتماعية . وكانت هذه الأمكنة وأمثالها تستخدم منذ ظهر الاسلام لاجتماع العلماء فيها ، كما اتخذها علماء التفسير والحديث مقرا لهم . ولما لم يكن من الممكن الفصل بين السياسة والدين ، كان المسجد المكان الذى تداع فيه الأخبار الهامة التى تتعلق بالصالح العام ^(٦) .

(١) كان يلبس هذا الزى أعضاء الأسرة العباسية وغيرهم من كبار الموظفين .

أنظر دى سامى (De Saoy : Chrestomathie Arabe, Tome II. pp. 263-266)

(٢) المقرئى : انماط (ص ٧٦)

(٣) " كان الأمير أو أحد كبار موظفيه يرأس مجلس النظر فى المظالم ويحكم فى القضايا . ومما دعا إلى إنشاء هذا المجلس ما كان يعترض تنفيذ أحكام القاضى من عوائق ومصاعب ، ولا سيما إذا كان المدعى عليه من أصحاب المراتب العالية ، أو كان يشغل وظيفة من وظائف الدولة . فلم يكن أحد يجزؤ على عدم الخضوع لما يصدره هذا المجلس من أحكام ، ولم يكن أحد من القوة بحيث يستطيع التخلص من بطشه وشدة أحكامه " De Slane : Ibn Khallikan's Biographical Dictionary, English Translation, vol. I. pp. 346-347, n. 14.

أنظر الماوردى ، الأحكام السلطانية (ص ١٢٨ — ١٦٤)

(٤) لابد أن يكون الفقهاء من الشيعة ، اللهم الا اذا استثنينا القليل من الفقهاء السنيين الذين كانت يعهد إليهم بالمناصب العالية فى الدولة .

(٥) ابن خلكان (ج ١ ص ١٤٩)

(٦) Prof. Margoliouth: Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 40

بعد ذلك استخدمت المساجد معاهد للتعليم ، يتلقى فيها الأطفال اللغة العربية وأصول الدين ^(١) . ومن الأمثلة الصادرة على ذلك الجامع الأزهر ، الذي كان مركزا للتعالم الإسلامية قرونا عدة ، ولا تزال شهرته باقية الى اليوم .

وأقدم هذه المساجد جامع عمرو ^(٢) . وقد بنى عام ٢١ هـ ، بعد أن فتح مصر عمرو بن العاص مؤسس الفسطاط العاصمة الإسلامية . وقد زاد عدد سكان الفسطاط أيام فتح الفاطميين لمصر عما كانت عليه مدينتا العسكر ^(٣) والقطائع ^(٤) ، حيث أُقيم فيهما مسجدا العسكر وابن طولون .

وقد أقيمت صلاة الجمعة في المسجد العتيق ، وخطب فيه للعزفي التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) ، بعد استيلاء جوهر على الفسطاط بأيام قليلة ، وبذلك تحققت الفكرة التي كانت ترمى إلى بث الدعوة الفاطمية باسم الفاطميين ^(٥) . وقد خطب في هذا اليوم هبة الله بن أحمد خليفة إمام الجامع ، وأدخل العبارة الآتية في الخطبة بدل ما كان يقال عن العباسيين :

”أللهم صل على عبدك ووليك ، ثمة النبوة ، وسليل العزة الهادية المهديّة ، عبدالله (الامام) معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين . اللهم ارفع درجته ، وأعل كلمته ، وأوضح حجته ، واجمع الأمة على طاعته والقلوب على موالاته . واجعل الرشاد في موافقته ، وورثه مشارق الأرض ومغاريها ، وأحده مبادئ الأمور وعواقبها ، فانك تقول وقولك الحق (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) ^(٦) . فقد امتعض لدينك ، ولما انتهك من حرمتك ، ودرس من الجهاد في سبيلك ، وانقطع عن الحج إلى بيتك وزيارة قبر رسولك صلى الله عليه وسلم ، فأعد للجهاد عدته وأخذ

(١) كانت بعض المساجد بمثابة قلاع محاطة بأسوار عالية سمكية .

(٢) كان هذا المسجد أقدم مساجد مصر ، أطلق عليه المسجد العتيق وتاج الجوامع والمسجد الجامع — ابن دقاق (ج ٤ ص ٥٩)

(٣) أسس هذه المدينة سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ — ٧٥١ م) صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ، بعد أن تعقب مروان آخر خلفاء الأمويين ، وقبض عليه وقتله . وكان موضع هذه المدينة قضاء قاحلا ، أطلق على جزء منه جبل يشكر . وقد استقر فيه صالح بفسكه ؛ ومن هنا اشتق لفظ العسكر . ابن دقاق (ج ٤ ص ٣٤)

(٤) أسس القطائع أحمد بن طولون (٢٥٤ — ٢٧٠ هـ ٨٦٨ — ٨٨٣ م) سنة ٢٥٤ هـ في سفح جبل المقطم ، حين قضت عليه زيادة عساكره من التبيين والاغريق وغيرهم باقتطاعهم اقطاعات خاصة . وقد بدأ ابن طولون في بناء مسجده سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ — ٨٧٧ م) ؛ وخطب فيه لأول مرة في رمضان سنة ٢٦٥ هـ (ابن دقاق ج ٤ ص ١٢١ و ١٢٢) .

(٥) ابن خلكان (ج ١ ص ١٤٩) .

(٦) سورة ٢١ ، آية ١٠٥

لكل خطب أهبت به ، فسير الجيوش لنصرتك ، وأنفق الأموال في طاعتك ، وبذل المجهود في رضاك ؛ فارتدع الجاهل وقصر المتناول ، وظهر الحق وزهق الباطل . فانصر اللهم جيوشه التي سيرها ، وسراياه التي ندبها لقتال المشركين وجهاد الملحدين والذب عن المسلمين ، وعمارة الثغور والحرم ، وإزالة الظلم وبسط العدل في الأمم . اللهم اجعل راياته عالية مشهورة وعساكره غالبية منصوره ؛ وأصلح به وعلى يديه ، واجعل لنا منك واقية عليه^(١) .

وفي جمادى الأولى سنة ٣٥٩ (٩٧٠ م) زيد في الأذان "حى على خير العمل" ، وقرئت بالبسملة بصوت مرتفع ؛ وذلك في الجامع العتيق ، بعد أن انقضى ثمانية شهور على فتح الفاطميين مصر وقراءة الخطبة باسم الخليفة الفاطمي المعز . وفي رمضان سنة ٣٥٩ أمر جوهر بأن تنقش جدران الجامع العتيق باللون الأخضر شعار العلويين^(٢) .

وكان ذكرا اسم المعز في خطبة الجمعة في التاسع عشر من شعبان عام ٣٥٨ هـ بدل اسم الخليفة العباسي حادثا هاما في تاريخ الخلافة الفاطمية في مصر . وهذا يبين لك ما كان من رواج الدعوة الفاطمية في عهدهم ؛ وإقامة الخطبة للخليفة الفاطمي هي صورة موجهة من هذا البيان الذي أذاعه جوهر على المصريين ، يعرض فيه عليهم السلام والطمانينة .

ولقد ألقى الخطيب خطبته بصورة شاد فيها بفضائل العلويين — الأئمة الصالحين — الذين اتهمك الخارجون من السنين حقهم ، على ما جاء في كلام الخطيب ، وكان ينتمى إلى المذهب السني . أما كلمة الجهاد التي وردت في الخطبة ، فانه ينطوي تحتها ما عقد الفاطميون النية عليه من فتح المشرق والمغرب .

وهذا الداء للخليفة الفاطمي يبين لنا ذلك المظهر الديني الجلي الذي تدرع به العلويون للوصول إلى أغراضهم الدنيوية . ولقد بدأ النزاع الديني بين الشيعة والسنيين — كما تقدمت الإشارة إلى ذلك — في عصر متقدم ؛ ولكن هذا النزاع ظهر بصورة أشد عداء في الأجيال التالية ، حين أخذ كل حزب يلعن الحزب الآخر ويحط من قيمته ، حتى إن الشيعة أرغموا أحيانا على دفع الجزية^(٣) ، كما أرغم السنيون على دفعها حينما آخر في عهد الفاطميين^(٤) .

(١) المقرئى : اتعاط (ص ٧٥ - ٧٦)

(٢) شرحه : اتعاط (ص ٧٦) .

(٣) رسائل بديع الزمان الهمداني (ص ٤٢٤) .

(٤) رسائل الحاكم بأمر الله ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوطات الشيعة ، رقم ٢٠ ، ورقة ١١١ . انظر العبارة التي كتبتها عن الدعوة الفاطمية في مكتبة القصر .

وقد وجدت العقائد الشيعية في مصر مرعى أكثر خصبا ونماء منه في شمال إفريقيا ؛ وسرعان ما تعرضت وعم أثرها . وفي يوم الجمعة الثامن عشر من ذى القعدة من السنة نفسها ، دعا الخطيب لآل البيت ، وزاد في الخطبة العبارة الآتية : ” اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرا ؛ اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين ، المهديين المهديين (١) ” .

وفي عهد الخليفة العزيز ٣٦٥ - ٣٨٦ هـ (٩٧٥ - ٩٩٦ م) استبدل بمنبر الجامع العتيق في ربيع الأول سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) منبر آخر مذهب ، بقي إلى أن استبدل به منبر أكبر منه سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) في عهد الخليفة الحاكم ٣٨٦ - ٤١١ هـ (٩٩٦ - ١٠٣١ م) ؛ ولا يزال هذا المنبر باقيا إلى اليوم (٢) .

كان من أثر سيادة المذهب الفاطمي أن عزل بنو عبد السميع ، وكانت اليهم الخطبة زهاء ستين سنة ؛ فحل محلهم جعفر بن الحسن الحسيني ، وعهد إليه بإقامة الخطبة في جامع عمرو كما عهد إلى أخيه بإقامتها في الجامع الأزهر (٣) .

ويحدثنا المقرئ (٤) نقلا عن المسيحي ، أنه في سنة ٤٠٣ هـ نقل من القصر إلى الجامع العتيق أجزاء من المصحف الشريف مختلفة الشكل والحجم ، مكتوب بعضها بالذهب ؛ وفي هذا الجامع سمح للعامة بالقراءة في هذه المصاحف . وفي السنة نفسها وضع الحاكم تتورا فيه من الفضة ما يقوم بعشرة آلاف درهم ؛ هذا فضلا عما وقفه هذا الخليفة أيضا على هذا الجامع من الأوقاف والعطايا . وقد زاد بعض أمراء مصر في بناء الجامع العتيق مذ شيد للمرة الأولى ، كما وقف عليه الخلفاء الفاطميون الأوقاف والعطايا .

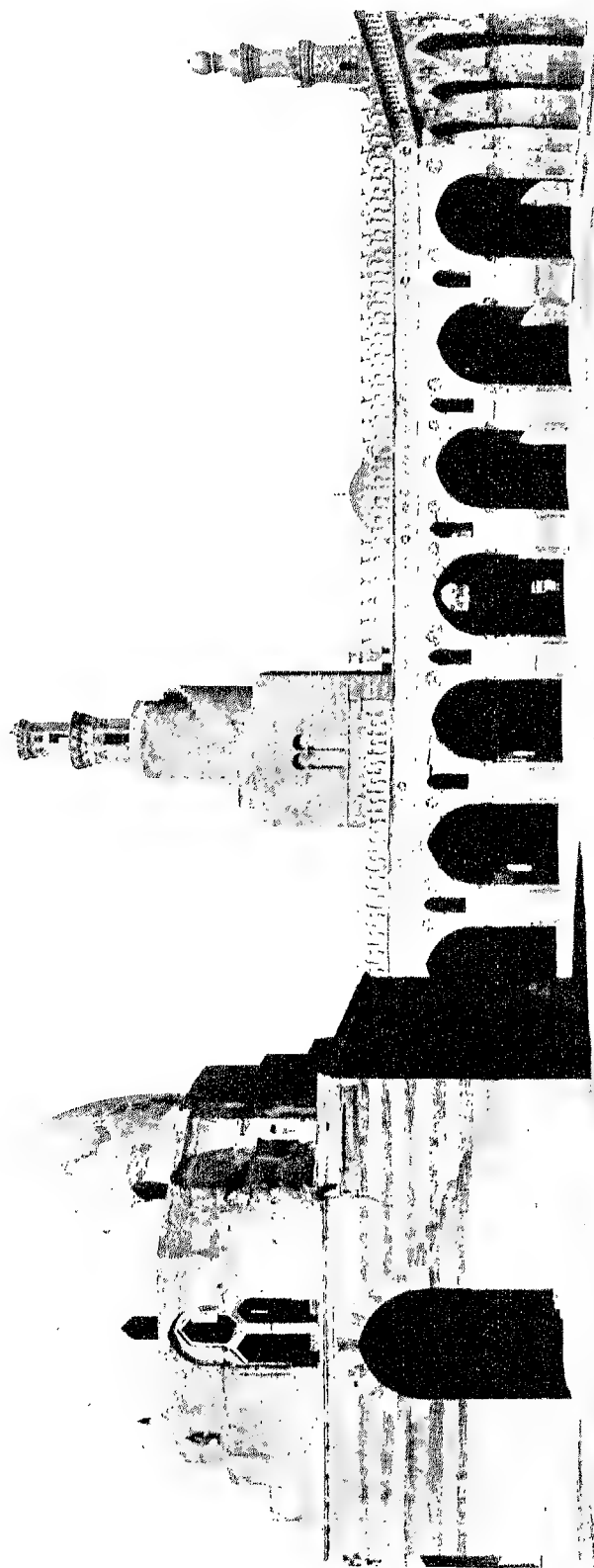
(١) المقرئ : اتعاظ (ص ٧٧) ، وأبو الحسن (طبعة Juyaboll) (ج ٢ ص ٤٠٨) .

(٢) ابن دقاق (ج ٤ ص ٦٤) .

(٣) شرحه .

ذكر ابن دقاق (ج ٤ ص ٦٤) أن أولاد عبد السميع عزلوا نهائيا سنة ٣٧٩ هـ ، عزلهم الخليفة العزيز .

(٤) خطط (ج ٢ ص ٢٥٠) .



جامع بن طولون — إيوان جامع وصحنه ، تعلوه المنارة ، وتظهر فيه قبّة البصنة

وفى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ - ١١٦٩) أصبح الفاطميون فى حالة من الضعف لم يتمكنوا معها من مقاومة جيوش الصليبيين التى استولت على القاهرة وأوقعت الهلع والرعب فى قلوب الأهلىن ، حتى إن شاور وزير العاضد آخر الخلفاء الفاطميين أمر باحراق الفسطاط ، فظلت النار تلتهمها التهاما زهاء أربعة وخمسين يوما ؛ فحل بالجامع العتيق شىء من التلف غير قليل . ولما جاء صلاح الدين وتسلم زمام الأمور فى مصر بعد سقوط الدولة الفاطمية ، عمر هذا الجامع وزاد فيه سنة ٥٦٨ هـ^(١) .

(ب) الدعوة الفاطمية فى جامع ابن طولون

فى يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٩ هـ ، أى بعد ثمانية شهور من إقامة أول خطبة فى جامع عمرو ، تطورت الدعوة الشيعية فى أيام الفاطميين بما طرأ عليها من زيادات فى جامع ابن طولون ؛ وذلك بأن أدخل المؤذنون على الأذان "حى على خير العمل" ، وهى من العبارات التى يمتاز بها الأذان عند الشيعيين ؛ ومن ثم زيدت هذه العبارة فى الأذان فى مساجد العسكر ، ومنها انتقلت الى جامع عمرو فى شهر جمادى الأولى من السنة نفسها .

كانت هذه الأمور كلها مما أرضت جوهرًا ؛ فبعث للعزىف اليه هذه الأنباء . وقد حضر الصلاة فى جامع ابن طولون فى ذلك اليوم عدد غير قليل . وقد أشاد عبد السميع فى خطبته بذكر أهل البيت وعدد مآثرهم ؛ كما أنه دعا للقائد جوهر^(٢) . ولم يجهر بالبسملة^(٣) فى الخطبة . وقرأ بعد سورة الفاتحة سورة الجمعة^(٤) وسورة المنافقين^(٥) ، ثم قرأ القنوت^(٦) بعد الركعة الثانية . ولما هم بالسجود كان قد فاتته أن يركع ، فصاح به على بن الوليد قاضى عسكر جوهر : "بطلت الصلاة ، أعد ظهرا أربعاء"^(٧)

(١) ابن الأثير (ج ١١ ص ١٣٦) وأبو شامة (طبعة القاهرة ص ١١٥) .

(٢) لم يقر جوهر ذكر اسمه فى الصلاة ، وقال ان مولاه المزلم يأمر بشىء من ذلك . المقرئى خطط (ج ٢ ص ٢٧٠)
(٣) لا يجهر الخائبة والخفية بالبسملة لأنهم لا يعتبرونها جزءا من كل سورة من القرآن . أما الشافعية والمالكية والشيعية فكانوا على العكس يجهرون بها . ولم يرض جوهر أن تحذف البسملة من كل سورة ؛ والمردوف أنها مكتوبة قبل كل سورة منذ كتب المصحف .

(٤) القرآن سورة ٦٢

(٥) القرآن سورة ٦٣

(٦) يقرأ الدعاء الذى يطلق عليه القنوت بعد الركعة الأولى ، أو قبل الركوع مباشرة ، أو عند الوقوف بعد الركعة الثالثة من الوتر بعد صلاة العشاء . ويركب القنوت فى أبسط صورة منه من هذه الكلمات : "إنا لك قانتون" .

Muhammad 'Ali : The Holy Qur'ân, Preface, pp. XXIV, XXV.

(٧) المقرئى : خطط (ج ٢ ص ٢٧٠) واناظ الحفا (ص ٧٩) .

(ج) الدعوة الفاطمية في الجامع الأزهر

كان بناء مسجد يجتمع فيه المسلمون للجمعة أول ما كانت ترمى إليه سياسة أمراء المسلمين ، وخاصة عند تأسيسهم عاصمة جديدة لما يفتحونه من بلاد . وكان الفاطميون قد رأوا من الحزم ألا يأخذوا السنين على غرة في المساجد في مبدأ حكمهم ، بإضافتهم إلى الخطبة هذه العبارة وهي : ” السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله “ .

وما كاد جوهر يضع أساس القاهرة حتى شرع في بناء مسجد يتلقى الناس فيه عقائد المذهب الفاطمي ؛ وقد شرع في بناء الأزهر^(١) في الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ ، وأقيمت الصلاة فيه أول مرة في اليوم السابع من رمضان سنة ٣٦١ هـ^(٢) .

أما ما كان هنالك من زيادة في الأذان والخطبة منذ أقيمت الصلاة في الأزهر إلى أن وصل المعز إلى القاهرة ، فشيء لم يكشف لنا التاريخ الستار عنه . ويلوح لنا أن ما زيد في الخطبة والأذان في الجامع العتيق ومسجد ابن طولون هو الذي أدخل على الخطبة والأذان في الأزهر ؛ وقد ظلت الحال على ذلك إلى أن وصل المعز إلى القاهرة ، ومن ثم تطورت الحالة تطورا محسوسا من حيث تنظيم الدعوة الفاطمية على يد الخلفاء أنفسهم .

وقد ذكر لنا المقرئ أن المعز والعزير كانا يقيمان الخطبة في الأزهر إلى أن فتح مسجد الحاكم سنة ٣٨٠ هـ ؛ ومن ثم أصبحت الخطبة تقام بانتظام في مساجد عمرو وابن طولون والحاكم والأزهر على التوالي . وفي عهد الفاطميين زين الأزهر ومنازاته بأنقر زينة ، وأثير بالألوان الساطعة في أيام المواسم العامة ، مما حدا بالمعز إلى بناء منظرة في قصره ليشاهد منها هذه الزينات ، فأطلق عليها منظرة الجامع الأزهر^(٣) .

(١) أطلق عليه هذا الاسم لأنه كان يحيط به قصور نفخة ، ولأنه كان أكثر الجوامع نخامة ورواء . وقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأنه سمى باسم فاطمة الزهراء التي يتنسب إليها الفاطميون .

(٢) و (٣) المقرئ : خطط (ج ٢ ص ٢٧٣)



الجامع الأزهر - الباب الخارجى للجامع

وفي خلافة المعز تطورت الدعوة الفاطمية في الأزهر تطوراً عظيماً ؛ فقد أمر هذا الخليفة على أثر وصوله الى مصر بأن تنقش العبارة الآتية على جدران مصر القديمة^(١) وهي : ” خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين على بن أبي طالب “^(٢) .

وفي غرة المحرم سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) أقام الخليفة المعز صلاة العيد في مصلى القاهرة^(٣) ؛ وقرأ في الركعة الأولى الفاتحة ، ثم سورة الفاشية^(٤) ، ثم كبر . وقد أطل الركوع والسجود ، وسبح في كل ركعة وسجدة ثلاثين تسبيحة^(٥) . وذكر لنا المقرئ نقيلاً عن ابن زولاق الذي أدى صلاة الجمعة خلف الخليفة ذلك اليوم ، أنه سبح نيلاً وثلاثين تسبيحة في كل ركعة وسجدة ؛ وكان القاضي محمد بن النعمان يبلغ عنه التكبير .

(١) نستطيع أن نفهم من قصر هذه الأوامر على مصر القديمة ، أن القاهرة كانت لا تزال صغيرة جداً بالنسبة الى القسطنطينية ؛ إذ كانت تشمل قصر الخليفة والجامع الأزهر وبعض المساكن الأخرى . أضف الى ذلك أن سكان القاهرة كانوا من الشيعة قلوباً أو كثراً ، فقد كانوا يؤلفون حرس الخليفة ورجال الحاشية .

(٢) ذكر المقرئ (خطط ج ٢ ص ٢٧١) نقلاً عن التسابة الشريف محمد بن سعد ، أن علي بن محمد بن علي بن اسماعيل بن الحسن الزيدى هو الذى زاد في الأذان العبارة الآتية : ” محمد وعلى خير البشر “ ؛ وهي تشبه العبارة التي أمر العزيز بزيادتها ، وكان ذلك سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) . وقد زيد في الأذان فيما بعد على منابر حلب ” حتى على خير العمل “ و” محمد وعلى خير البشر “ المألوفة لدى الشيعة . وظلت الحال على ذلك الى أيام نور الدين محمود صاحب حلب ، فأمر بالقائها ، وأمر الفقهاء فصعدوا المنارة وقت الأذان وقال لهم : ” مروه يؤذنوا الأذان المشروع ، ومن امتنع كبه على رأسه “ .

(٣) وقد عين المقرئ (ج ١ ص ٤٥١) و (ج ٢ ص ٤٧ و ٣٦٤) موضع هذا المصلى فقال انه خارج باب النصر ، وان جوهر أنشأه في رمضان سنة ٣٥٨ لصلاة العيد . وقال بعد ذلك ان المذركب يوم عيد الفطر لصلاة العيد في مصلى القاهرة (الذى هو مصلى العيد أيضاً) .

(٤) القرآن سورة ٨٨

(٥) التسبيح في الصلاة هو أن يقال في الركوع : ” سبحان ربى العظيم “ مرة أو أكثر ، كما يقال في السجود : ” سبحان ربى الأعلى “ مرة أو أكثر كذلك . وأما ما ذكره المقرئ من ترديد عبارة ” سمع الله لمن حمده “ ، ووصفه بأن هذا تسبيح فهو خطأ ؛ إذ هذا هو التسبيح . وأول ما عرف عن التسبيح أن موسى بن عمران هو أول من ابتدعه ؛ وسار عليه الناس حتى ظهرت المسيحية . وكانوا يسبحون في المزيج الأخير من الليل ، فيعظمون الله بكلام منزل بالوحى حتى مطلع الفجر ، ويضربون عند ذلك بالآلات الموسيقية كالعود والدف والمزمار ونحوها . أما في الإسلام فكان بدء استعمال التسبيح في مصر في ولاية مسعدة بن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) . فقد بنى مسعدة هذا مناراً في جامع عمرو واعتكف فيه ، فسمع أصوات النواقيس ذات ليلة ، فشكا الى عريف المؤذنين ، فأشار عليه أن يأمر بمنع ضرب النواقيس اذا أذن من نصف الليل حتى مطلع الفجر . فلما ولي أحمد بن طولون مصر ، أفرد بمنزلة حجر أقام فيها اثني عشر مكبراً ؛ فكانوا يكبرون ويسبحون ، ويقرءون القرآن . ويؤذنون . وكانت يقوم بذلك في كل ليلة أربعة منهم ، يجلسون الليل نوباً بينهم ، وأغلق على هؤلاء الأرزاق والعطايا . ولما خلف ابن طولون ابنه تشارويه ٢٧٠ — ٢٨٢ هـ (٨٨٣ — ٨٩٥ م) ، أقر المكبرين على ما كانوا عليه أيام أبيه ، وأجرى عليهم أرزاقهم . عرف الأذان بعد ذلك بالتسبيح ، وبقي على ذلك الى أن آلّت مصر الى حكم الفاطميين ، فندا مالوقا عند الشيعة . المقرئ (ج ٢ ص ٢٧٢ — ٢٧٣) ، يتصرف واختصار .

وفي الركعة الثانية قرأ الخليفة الفاتحة ثم سورة الضحى^(١) ، وكرر ما قرأه في الركعة الأولى ؛ ثم جهر بالبسملة ، وقد حذا في ذلك حذو علي بن أبي طالب . ولما فرغ من الصلاة صعد المنبر وسلم على الناس يمينا وشمالا فقال : ” السلام عليكم ورحمة الله ! “ وكان في أعلى المنبر وسادة من ديباج مثقل أعدت لجلوس الخليفة بين الخطبتين . وكان معه على المنبر جوهر وابن عمار من رؤساء كاتبة ، وشفيع صاحب المظلة .

بعد ذلك نشر العلمان اللذان كانا على المنبر ، وقرأ الخليفة خطبة أخرى من خلفهما ، فبدأها بالبسملة جهرا ، وأعقبها بالتكبير مرتين . وقد ألقى الخطبة بنخسوع وخشوع ؛ وكانت من الفصاحة والتأثير بحيث استدرت دموع المصلين .

ولما فرغ الخليفة من خطبته وأتم صلاته ، انصرف في عساكره وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والحوذ ، ممتطين الخيل ، وهم في أحسن زى ، يحف بهم فيلان . فلما وصل الخليفة الى القصر سمح للناس بالدخول ، فمدت لهم الموائد فأكلوا ما يشتهون^(٢) .

وفي عهد الفاطميين أدخل على الدعوة الشيعية مظاهر جديدة لم تكن معروفة في مصر من قبل ، وكان أول ما عرف ذلك في الجامع الأزهر . ذلك أنه لما مات بعض بني عم المعز ، صلى عليه هذا الخليفة في الجامع الأزهر وكبر عليه سبعا ، وكبر على ميت آخر نحسا فقط ، مقتفيا في ذلك أثر علي ابن أبي طالب الذي كان يكبر على الميت بقدر ما يتناسب مع مكانته ؛ وهذا يخالف مذهب السنة ، اذ يكبرون على الميت أربعا فقط^(٣) . يضاف الى ذلك ما كان من احتفال المعز بعيد الغدير^(٤) أو مرة في مصر .

(١) القرآن الكريم ، سورة ٩٣

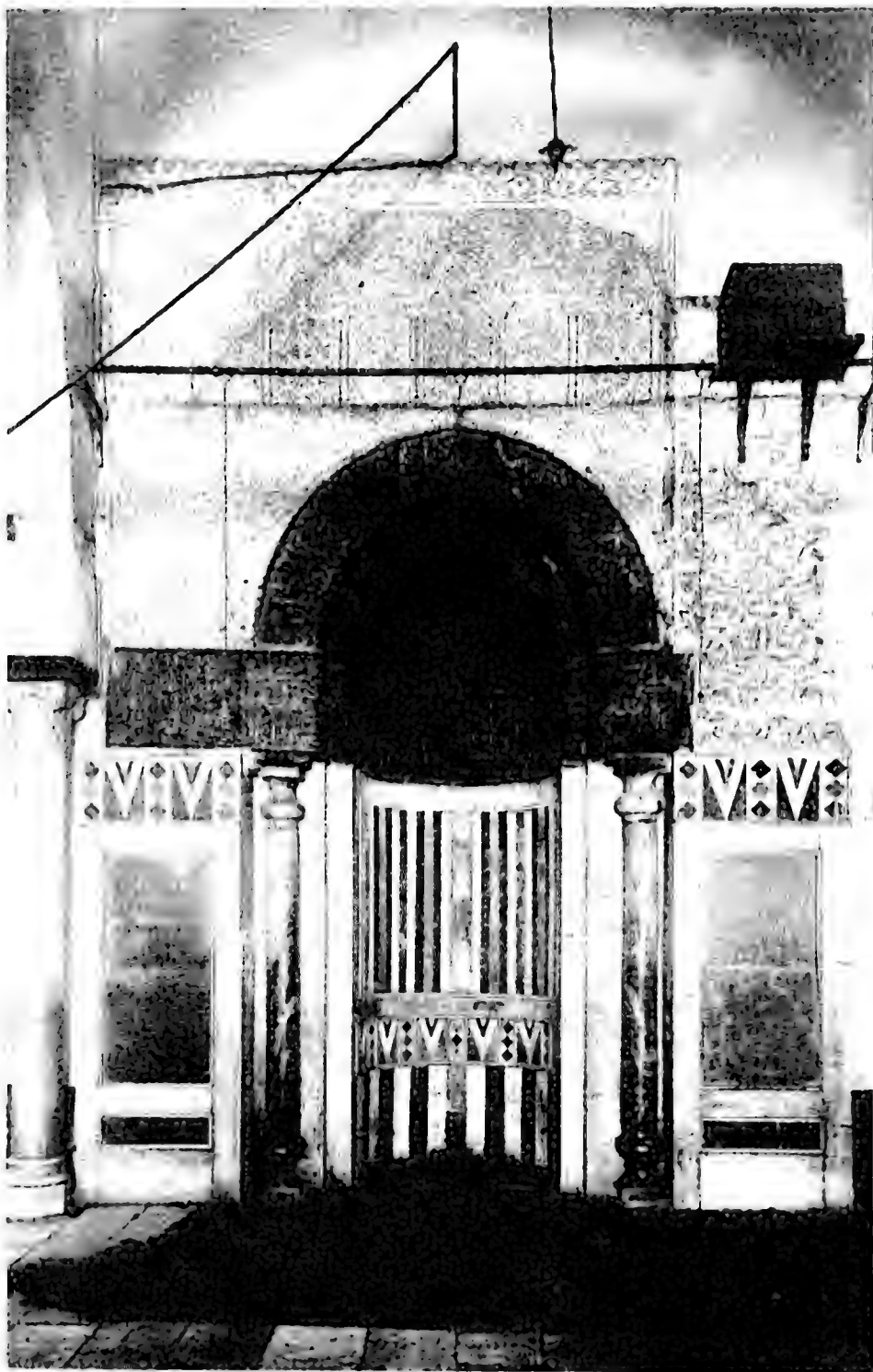
(٢) المقرئى : اعطاء الحنفا (ص ٩٢)

(٣) المقرئى — خطط (ج ٢ ص ٣٥٣)

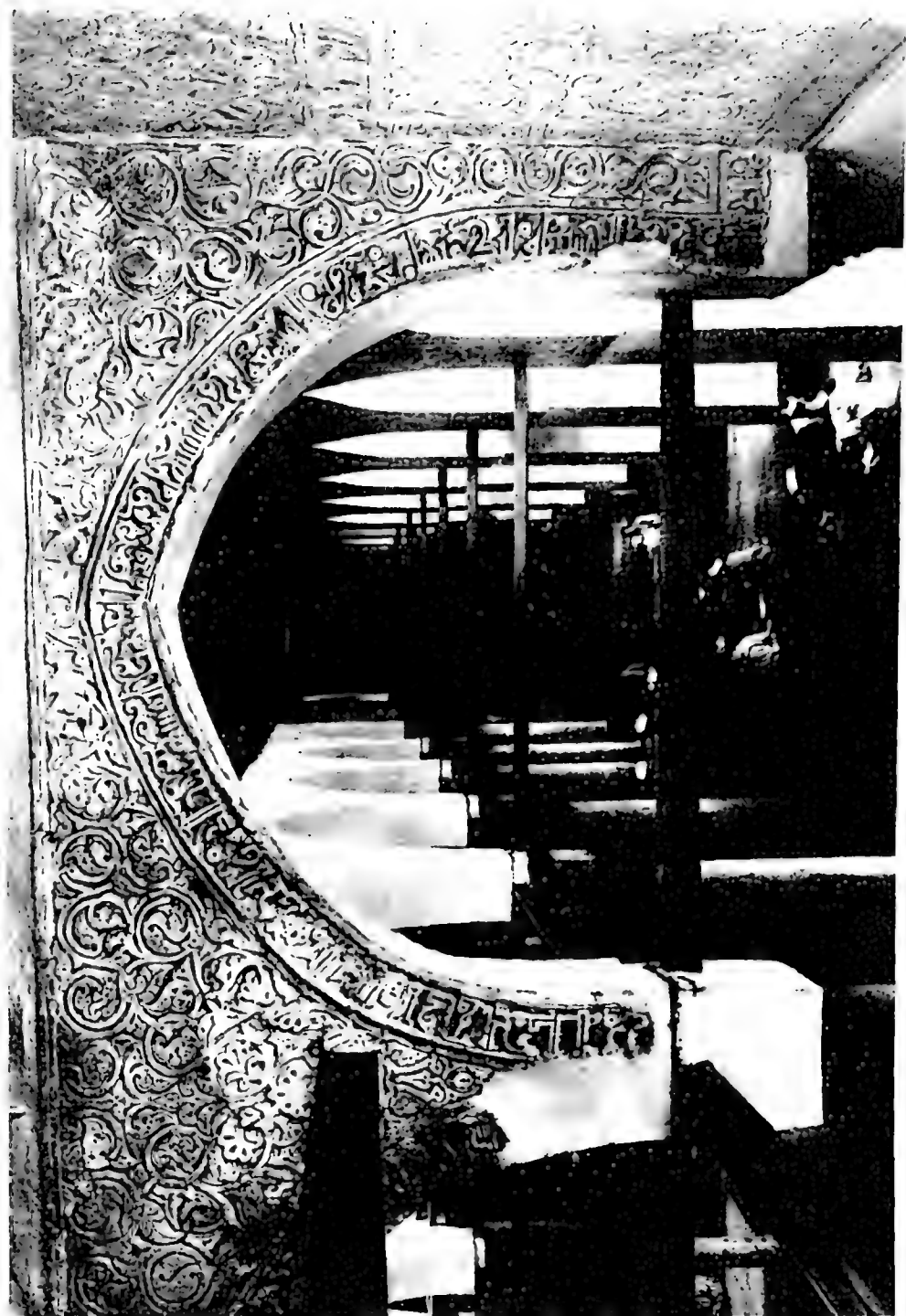
(٤) قد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ” على منى بمنزلة هارون من موسى ؛ اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله “ . ويرى الشيعة هذا الحديث عن النبي ، ويقولون انه قاله في الثامن عشر من ذى الحجة سنة عشر للهجرة ، وهو العام المعروف بحجة الوداع ، أى العام الذى ودع فيه النبي مكة وخرج فيه لآخر مرة . فنزل بغدير خم (ويقع بين مكة والمدينة) ، وآتى على بن أبي طالب . ومن ذلك الوقت أصبح يوم غدير خم عيداً يعنى به الشيعة عناية عظيمة ويحتفلون به .

شرف الدين الهدوى ، مكتبة المتحف البريطانى ، القسم الشرقى . رقم ٣٨٦٨ ، ورقة ٣٣١ . وابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٦) والمقرئى ، خطط (ج ١ ص ٣٨٨)

هذا ما رواه بعض المؤرخين . ولكنى لا أشك في أن مسألة غدير خم من مخترعات الشيعة ، يريدون بها إثبات أمر ، وهو أن عليا ولي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينتو على ذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان غاصبون للخلافة . ولو أن هذه =



الجامع الأزهر - صحن الجامع وبه القبلة الوسطى



الجامع الأزهر - بعض عقود الجامع ، وهي من عهد إنشائه

وأهم خصائص الأزهر أنه وإن بدأ كثيره من المساجد ، إلا أنه لم يلبث أن أصبح جامعة يتلقى فيها طلاب العلم ورواده من كل صوب وحذب الكثير من مختلف العلوم والفنون .
وأول من فكر في تحويل هذا الجامع الى جامعة هو يعقوب بن كلس ، وكان يدين باليهودية أولا ، ثم تحول عنها الى الاسلام ؛ وهو الذى أشار على المعز الفاطمى بفتح مصر .

ولما صارت الوزارة الى ابن كلس ، سار على ما كان عليه الوزراء من قبله من حيث تشجيع العلوم والآداب^(١) . وفى سنة ٣٧٨ هـ وقف العزيز الجامع الأزهر على العلم ، فأصبح نبراسا للجامعات الاسلامية . ولقد رغب الخلفاء الفاطميون فى جعله من الأهمية وعظم الشأن بحيث يجتذب طلاب العلم من كافة أرجاء البلاد الاسلامية . ولكى يشجع الطلاب وطنيين وأجانب ، كان يقدم اليهم المأكل والمسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة من غير أجر .

ولقد تعاقبت الزيادات على البناء الأصلى ، وزيد فى العين الموقوفة عليه عاما بعد عام ؛ وتحول الأزهر من مسجد صغير الى مركز عظيم للعلم ، وغدا يشغل مساحة قدرها ١٢٠٠٠ متر مربع ، وبلغ عدد أعمدته ثلاثمائة وخمسة وسبعين .

وقد زاد فى بناء هذا الجامع كثير من الأمراء الذين ولوا مصر بعد المعز ، فاستغنى بما أغدقوه عليه من هبات وأوقاف . وكان العزيز الفاطمى أول من حول الأزهر الى جامعة ، وأول من ابتنى بجواره دارا للجماعة من الفقهاء عدتهم خمسة وثلاثون ؛ فكانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة و يقرءون القرآن الى صلاة العصر . وقد أجرى عليهم هذا الخليفة الأرزاق ، وأغدق عليهم وزيره ابن كلس الصلوات .

ولقد أمر الخليفة الحاكم بنقل الكتب التى كانت بدار الحكمة^(٢) الى مساجد الأزهر والحاكم

= العبارة كانت صحيحة لاحتج بها على ، واستشهد الصحابة على ذلك ، ولما طابا الأنصار وهم شهود ليلة الغدير ؛ وفى ذلك يقول المعرى :

ضمنت وقائى للعشائر كلها وأمسكت لما عظموا الفارأونخا

وقد ذكر المقرئى (خط ج ١ ص ٣٨٨) أن معز الدولة بن بويه احتفل لأول مرة بهذا العيد سنة ٣٥٢ (٩٦٣ م) ، فاحتفله الشيعة عيدا يحتفلون به كل عام .

Prof. Margolionth : Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 40 (١)

(٢) وتسمى دار العلم أيضا . وقد وزعت معنم الكتب التى كانت بدار العلم ، على ما ذكره المقرئى (خط ج ٢ ص ٢٧٣ - ٢٧٥) ، على المساجد الثلاثة التى ذكرناها قبل .

والمقدس ، نخص الأزهر منها بما يقرب من النصف . وقد أورد لنا المقرئى^(١) وثيقة تاريخية نتين منها ما كان يجرى على المؤذنين وغيرهم من خدام المساجد ، وما وقف عليها من العين والمال ؛ وقد اتخذت كل الوسائل الممكنة للمحافظة على حرمة هذا المكان .

وفى الوقت نفسه نقل الى جامعى راشدة والأزهر ثلاثة تناير وتسعة وثلاثون قنديلا ، نخص الأزهر منها تتوران وسبعة وعشرون قنديلا . وكان فى محرابه منطقة من الفضة على مثال المنطقة الموجودة بمحراب المسجد العتيق ، فاقنلعهما صلاح الدين وغيرهما من المناطق فى كافة المساجد ، وذلك فى ١١ ربيع الأول سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) ، أى بعد سقوط الدولة الفاطمية بسنتين^(٢) .

وقد زاد الخليفة الحاكم الفاطمى ٣٨٦ — ٤١١ هـ (٩٩٦ — ١٠٢٠ م) فى بناء الأزهر ، وزاد على ما وقفه عليه أبوه من قبل من أوقاف وما قدم له من هبات^(٣) .

وفى سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) بنى الخليفة الأمر فى الجامع الأزهر مقصورة عليها كتابة منقوشة حفرا . وفى عهد الأيوبيين حل بهذا الجامع الدمار ، لما قام به هؤلاء السنيون الغلاة من إزالة آثار الفاطميين الشيعيين ؛ فأبطل صلاح الدين الخطبة فى الأزهر ، كما انتزع كثيرا من الأوقاف التى وقفها عليه الحاكم الفاطمى ؛ وظلت صلاة الجمعة معطلة فى هذا الجامع نحو من قرن ، الى أن أمر الملك الظاهر بيبرس باقامة الخطبة فيه من جديد ؛ وقدم اليه الهبات واتخذة معهدا للعلم ، وذلك سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) .

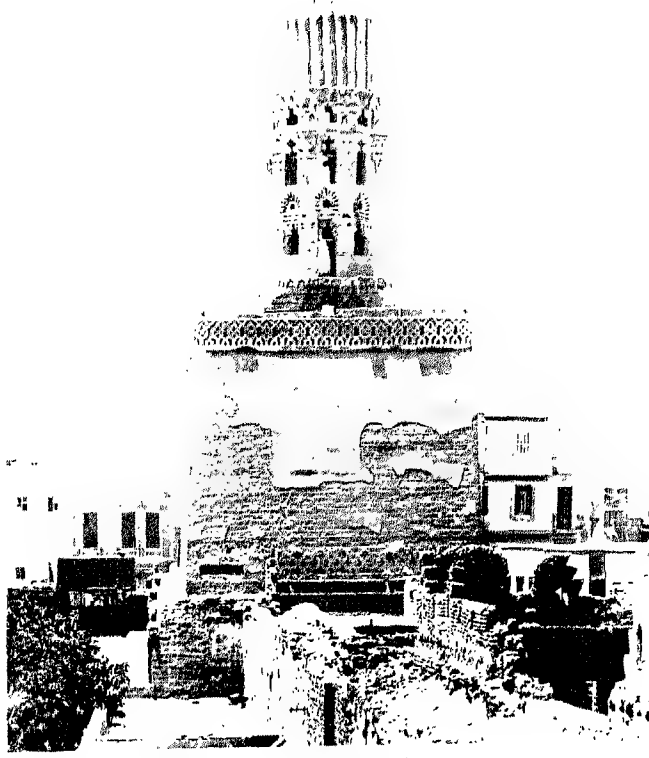
وقد سار بعض الأمراء على مثال الظاهر . ومنذ ذلك الحين غدا الأزهر مسجدا ودارا للعلم كما كان أيام الفاطميين ، فأزهر وأنبع . وفى سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) أضربه الزلزال الذى كان بمصر فى ذلك العهد ، فسقط الجامع ؛ فتولى الأمير سلاى عمارته ، وجدد ما تصدع من بنيانه ؛ ومن ثم بنيت حوله المدارس التى ألحقت به فيما بعد ، ولا تزال تابعة له الى اليوم^(٤) .

(١) و (٢) المقرئى (خطط ج ٢ ص ٢٧٣ — ٢٧٥)

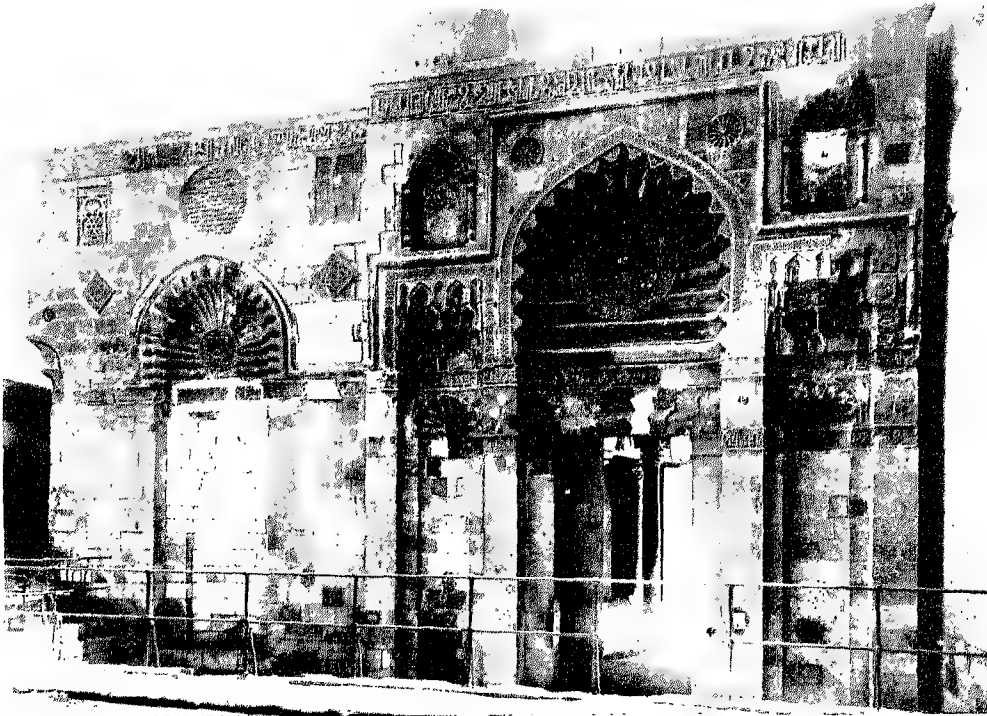
(٣) وزعت هذه الهبات حصصا على جوامع الأزهر والحاكم وراشدة وعلى دار العلم — المقرئى ، خطط (ج ٢

ص ٢٧٣ و ٢٧٤)

(٤) المقرئى (خطط ج ٢ ص ٢٧٦)



جامع الحكـم - منارة الجامع



جامع الأقمر - واجهة الجامع الذي بناه الأمر باحكام الله ٥١٩هـ

(د) الدعوة الشيعية في المساجد الأخرى

(١) في مسجد الحاكم :

أسس مسجد الحاكم الخليفة العزيز أبو الحاكم سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) تحت إشراف وزيره يعقوب بن كلس . وقد وضع أساسه العزيز في العاشر من شهر رمضان من هذه السنة خارج باب الفتوح ؛ ولكنه أصبح داخل القاهرة بعد أن وسع بدر الجمالي هذه المدينة . ولما كمل بناء هذا المسجد ، انتقلت إليه الخطبة وقراءة القرآن بعد أن كانت مقصورة على الجامع الأزهر ؛ فكان يطلق عليه جامع الخطبة .

ويحدثنا المقرئ^(١) عن المسيحي أن الخليفة العزيز صلى الجمعة وخطب في هذا المسجد في الرابع عشر من رمضان سنة ٣٨١ هـ ، وذلك قبل أن يتم بناؤه ؛ وسار في ركابه ذلك اليوم ثلاثة آلاف ، وعليه طيلسان ويده الصولجان .

وزاد المسيحي أن الحاكم أمر سنة ٣٩٣ هـ (٩٠٥ م) بأكمل بناء هذا الجامع . فتم ذلك في سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ؛ وعلق على سائر أبوابه الستور ، ووضع فيه أربعة تناير من الفضة وكثيرا من القناديل الفضية أيضا ، ونصب فيه المنبر وفرش بالحصر . وفي يوم الجمعة السادس عشر من رمضان من هذه السنة أذن فيه المؤذن أذان الصبح ، وصلى فيه الحاكم صلاة الجمعة ، وهي أول صلاة أقيمت فيه بعد الفراغ من بنائه ؛ وفي سنة ٤٠٤ هـ حبس الحاكم عليه الأوقاف مع ما وقفه على المساجد الأخرى ، فخصه الشيء الكثير منها^(٢) .

وفي سنة ٧٠٢ هـ تخرب هذا المسجد مع ما تخرب من المساجد من جراء الزلزال الذي حدث بمصر في ١٣ ذى القعدة من هذه السنة ؛ فأعاده إلى ما كان عليه سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ — ١٣٠٤ م)^(٣) الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، ووقف عليه أوقافا ، وعين فيه فقهاء لتعليم الفقه على المذاهب الأربعة والحديث والنحو والقراءات السبع ؛ وجعل فيه من يقوم بتلقين القرآن الكريم ، وطائفة من القراء يتناوبون قراءة القرآن ، ومعلماء يعلم أولاد المساكين ، وجعل فيه خزانة كتب جليلة^(٤) .

(١) (خط ج ٢ ص ٢٧٧)

(٢) شرحه

(٣) ذكر المقرئ (خط ج ٢ ص ٢٧٨) أنه سقط في هذا الزلزال كثير من بدعات الجامع ، وترب أعالي المنبتين وتشقق سقفه وجدرانه .

(٤) شرحه (ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٨٢) .

(٢) في جامع راشدة :

اشتق اسم هذا الجامع من اسم الخطة التي بنى فيها ، وهي خطة راشدة . وقد روى لنا ابن دقاق والمقرئى أنه بدئ ببناء هذا الجامع في ١٧ ربيع الثانى سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٣ م) . وكان في المكان الذى بنى فيه كنيسة حولها مقابر لليهود والنصارى . وفي رمضان سنة ٣٩٥ هـ تم بناؤه وفرش وعلقت فيه القناديل وأصبح معدا للصلاة^(١) .

وفي رمضان سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م) صلى الحاكم الجمعة وأقام الخطبة في جامع راشدة . وفي سنة ٤٠٠ هـ علق فيه ثور من الفضة وقناديل من الفضة الثقيلة الوزن . وفي رمضان سنة ٤٠٣ هـ صلى الحاكم الجمعة في هذا الجامع ، وعليه عمامة خالية من الجواهر ، وكان يحمل سيفاً على بالفضة البيضاء الدقيقة الصنعة . ومشى الناس في ركابه ؛ فكان يتناول بيده شكاياتهم ويقف لبحثها واستقصاء أسبابها^(٢) .

ومن أعجب ما حدث بجامع راشدة ما كان من إقامة خطبتين على منبره في يوم الجمعة ١١ جمادى الآخرة سنة ٤١٤ هـ ، وذلك أن أبا طالب على بن عبد السميع العباسى استقر في الخطابة بأمر قاضى القضاة أبى العباس أحمد بن محمد العوام ، بعد سفر خطيب هذا الجامع الى الشام ؛ فعهد الخليفة الظاهر (٤١١ — ٤٢٧ و ١٠٢٠ — ١٠٣٥) الى ابن عصفورة أن يقيم الخطبة فيه .

وكان من تعيين رجلين على هذه الصبورة لإقامة الخطبة في هذا الجامع أن صعدا المنبر في آن واحد ، ووقف أحدهما دون الآخر وخطبا معا ؛ ولما علم بذلك الخليفة وقاضى القضاة أقرأ أبا طالب في إقامة الخطبة ، وجعل ابن عصفورة خليفة له^(٣) .

(٣) في جامع المقس^(٤) :

بنى هذا الجامع الخليفة الحاكم بأمر الله على شاطئ النيل بالمقس ، وكانت ميناء مصر في ذلك الحين . وقد بناه أن الأوقاف التي وقفها الحاكم شملت جامع الحاكم والجامع الأزهر ودار العلم وجامع المقس ؛ وذكر المقرئى أن الكتاب الذى تضمن وقفية الحاكم نص على

(١) ابن دقاق (ج ٤ ص ٧٩٧٨) والمقرئى (خطط ج ٢ ص ٢٨٢) .

(٢) و (٣) المقرئى خطط (ج ٢ ص ٢٨٢)

(٤) المقس أو المكس أو المكسم (لفظ يحتمل أن يكون مشتقا من رجل روماني اسمه مكسيموس (Maximus) ، هو ميناء القاهرة على النيل .

أن يصرف جميع ما يتبقى مما تصدق به الخليفة على هذه الأماكن فيما يتطلبه جامع المقس ؛ هذا عدا ما وقفه الخلفاء الفاطميون عليه من النخل الكثير^(١) .

وفي الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ احتفل لأول مرة في مصر بعيد غدير خم . وفي هذا اليوم ركب الخليفة المعز الى منطرة المقس^(٢) ؛ فعرض الأسطول ثم عوّذه^(٣) ، ليحفظه الله سبحانه وتعالى من سوء . وقد بنى صلاح الدين قبة شامخة على أطلال هذه المنطرة ، أطلق عليها قلعة المقس ، بقيت الى سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) ؛ وأنشئ في مكانها حديقة^(٤) .

لقد أتينا عند كلامنا على تطور الشعائر الفاطمية في المساجد على طائفة من هذه المساجد التي كانت تقام فيها هذه الشعائر ، وبيننا أن هذه الشعائر كانت تقام في جميع المساجد . على أنه ينبغي ألا يفوتنا أن نذكر أنه كانت هناك فترات من الزمن أبطل فيها بعض عبارات من هذه الشعائر ، أى من الخطبة أو الأذان .

ذلك أنه في سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) أبطلت عبارة ”حى على خير العمل“ التي أمر جوهر بأن تزداد على الأذان بعد أن استقر سلطان الفاطميين في مصر . وقد دعا الحاكم في نفس هذه السنة (٤٠٠ هـ) المؤذنين في قصره وفي المساجد الأخرى الى اجتماع حضره قاضى القضاة ، وأصدر مرسوما يحرم ذكر هذه العبارة في الأذان ، وأن يقول مؤذنو القصر بدلها عبارة ”الصلاة خير من النوم“ ، فيذكرها المؤذنون عند ذكر عبارة ”السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله“ .

(١) المقرئى (خطوط ج ٢ ص ٢٨٣)

(٢) ذكر المقرئى أنه كان بالمقس ثلاث مناظر : إحداها تقع بين باب الذهب وباب البحر ، والثانية على قوس باب الذهب ، وأما الثالثة فكان يقال لها الزاهرة والناصرة والقاهرة . وكان الخليفة يجلس في إحدى هذه المناظر لعرض العساكر يوم عيد الغدير ؛ ويقف الوزير في قوس باب الذهب (خطوط ج ١ ص ٤٠٤) .

(٣) يطلق لفظ ”معوذتان“ على سورتين من سور القرآن الكريم ، لأن كلا منهما تبدئ بعبارة (قل أعوذ) ؛ أولان قراتهما تحفظ القارئ من كل سوء . والمعوذة الأولى (وهي سورة الفلق — القرآن الكريم سورة ١١٢) هي كما على : (قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد) . والمعوذة الثانية كما على : (قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) .

(٤) المقرئى اتماظ (ص ٩٤) وخطوط (ج ٢ ص ٢٨٣) .

وفي ربيع الثاني سنة ٤٠١ هـ (١٠١٠ م) عاد المؤذنون الى ذكر "حى على خير العمل" ؛ وفي سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) أمر هذا الخليفة مؤذنى الجامع الأزهر ألا يستعملوا عبارة "السلام على أمير المؤمنين" فى الأذان ، وأن يقولوا بدلها عبارة "الصلاة رحك الله" (١) .

وقد أبطل الحاكم عادة تقبيل الأرض بين يديه ولثم يديه وركابه (٢) ؛ وعلم المقرئى سبب العدول عن هذه العادة بأنها كانت من عادات البيزنطيين (٣) . كذلك أمر هذا الخليفة ألا يزداد على السلام "السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته !" (٤) ، وأن يقتصر فى مكاتبتة على هذه الكلمات "سلام الله وتحياته ونوامى بركاته على أمير المؤمنين !" ، وأن يقتصر الخطباء على ذكر العبارة الآتية : "اللهم صل على محمد المصطفى ، وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى ، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين آباء أمير المؤمنين ، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك" (٥) .

(١) روى المقرئى عن البلاذرى (لم تقف على هذا فى كتاب فتوح البلدان للبلاذرى) أن بلالا مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقف بياحه ويقول : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، الصلاة يا رسول الله ! فلما رأى أبو بكر كان المؤذن يقف بياحه ويقول : السلام عليك يا خليفة رسول الله ورحمة الله وبركاته ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، الصلاة يا خليفة رسول الله ! وفى خلافة عمر بن الخطاب كان المؤذن يردد هذه الكلمات مبتدئا بقوله : السلام عليك يا خليفة خليفة رسول الله... الخ . ومننا تكرار لفظ خليفة بالنسبة إلى من يتولى أمور المسلمين من الخلفاء بعد أبي بكر ، أمر عمر بن الخطاب أن يستبدل هذا اللفظ بعبارة أمير المؤمنين ، وأن تراد عبارة رحك الله على الأذان (ذكر المقرئى أن عثمان هو الذى أمر بإضافة هذه العبارة — الخطط ج ٢ ص ٢١٧) . ويقول ابن خلدون (مقدمة ، طبعة بيروت سنة ١٩٠٠ ص ٢١٧ — ٢١٩) أن المؤذنين كانوا يختصون الأذان بعبارة : "السلام عليك" ، يعنون بذلك الخليفة أو أحد عماله . وظلت الحال على ذلك طوال عهد الأمويين وفى الصدر الأول من أيام العباسيين ، حين تولى الخلفاء والولاة الصلاة بأنفسهم . على أن الخلفاء تخلفوا عنها فى أواخر أيام العباسيين ، لوتوعهم تحت سلطان الأتراك ؛ فتبخل الخلفاء عن إقامة الصلاة بأنفسهم ، فبطل استعمال هذه الكلمات ؛ وحذا حذوهم الخلفاء الفاطميون ممن لم يقيموا الصلاة ، فلم تذكر هذه الكلمات الا فى أذان القجر . الأحكام السلطانية للوردى (ص ٩٦ — ٩٩) وابن خلدون ، مقدمة (ص ١٩٧ — ١٩٩) .

وقد أورد لنا كاتب "محاسن الملوك" (ورقة ٢٥ — ٢٧ ، وهو مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة — راجع كتاب التاج طبعة أحمد زكى باشا ص ٨٨ — حاشية ٣ ص ٨٦ — ٨٨) عن هذا الاستعمال منذ أيام عمر مانصه : "قال المغيرة لعمر رضى الله عنهما : يا خليفة الله ! فقال عمر : ذاك نبي الله داود . قال : يا خليفة رسول الله ! قال : ذاك صاحبكم المفقود . قال : يا خليفة خليفة رسول الله ! قال : ذاك أمر بطول . قال : يا عمر ! قال : لا تنجس مقامى شرفه ؛ أتم المؤمنون وأنا أميركم . فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين !" .

(٢) يحيى بن سعيد (ص ٢٠٥) ، وابن ميسر (ص ٧٥)

(٣) خطط (ج ٢ ص ٢٨٨)

(٤) يحيى بن سعيد (ص ٢٠٥)

(٥) المقرئى : خطط (ج ٢ ص ٢٨٨)

وقد قال المقرئى عند كلامه على الدعوة الفاطمية أيام الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى : ” وكان الأفضل أبطل الموالد الأربعة : النبوى والعلوى والفاطمى والإمام الحاضر ، فأعيدت فى سنة ست عشرة وخمسمائة “ (١) .

وفى سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) تقلد أبو على بن الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى الوزارة فى خلافة الحافظ ؛ فقبض على الخليفة وحبسه ، واستولى على ما فى القصر من الأموال والذخائر ، وقبض على زمام الأمور . وكان إماميا مغاليا ؛ فأظهر الدعاء للإمام المنتظر ، وأزال من الأذان ” على خير العمل “ وقولهم ” محمد وعلى خير البشر “ ، وأسقط ذكر اسماعيل بن جعفر الذى تسب إليه الاسماعيلية . ولما قتل فى السادس عشر من المحرم سنة ٥٢٦ هـ عاد الأمر الى الخليفة الحافظ ، وعاد الأذان الى ما كان عليه (٢) .

ولما استبد صلاح الدين يوسف بن أيوب بالأمر فى مصر أبطل شعائر الفاطميين ، فأعاد سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) الى أذان الفجر ” السلام عليك يا رسول الله ! “ .

٣ — الدعوة الفاطمية فى مكتبة القصر

رغب الفاطميون فى الحصول على أكبر عدد من الكتب ابتغاء نشر تعاليم مذهبهم . وقد حمل المهدي معه ، على ما ذهب اليه ابن الأثير (٣) ، من سلبية جميع الكتب والوثائق التى كانت لآبائه ؛ ولكنها سرقت منه وهو فى طريقه الى سجلماسة ، فى مكان يقال له الطاحونة بالقرب من طرابلس . ويزيد هذا المؤرخ على ما تقدم أن أبا القاسم بن المهدي استعاد هذه الوثائق حال مسيره لغزو مصر للمرة الأولى سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) .

أما كون هذه الكتب أو بعضها قد حملها المعز معه الى القاهرة ، فشىء لا يمكننا الجزم به . ولقد كان مذهب السنة هو المذهب السائد فى مصر قبل أن يتم فتحها على يد الفاطميين ؛ ولهذا نشك

(١) المقفى الكبير ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثانى ، ورقة ٢٠٦ ب .

انظر كتاب ” تاريخ الخلافة الفاطمية “ لوستفالد *Geschichte der Fatimiden—Chalifen*, pp. 270-289 .

(٢) ابن ميسر (ص ٧٥) ، وأبو الفدا (ج ٣ ص ٥٦) ، والمقرئى (خط ج ٢ ص ٢٧١) .

(٣) (ج ٨ ص ١٤) .

فإنما إذا كان في مكاتب الفسطاط والقطائع شيء من الكتب التي تتناول الكلام عن المذهب الشيعي ،
أذ ليس هناك دليل واضح يشير إلى أنه كانت هناك مكاتب عامة . ولهذا نرجح أن المعز قد حمل معه
إلى مصر عددا عظيما من الكتب التي كانت في مكتبته الخاصة بالقيروان مع ما حمله من الأثقال
عند رحيله إلى هذه البلاد .

وقد ولع خلفاء الفاطميين ووزراؤهم منذ العصر الأول من خلافتهم باقتناء الكتب الخطية
النادرة في مختلف العلوم . وقد تحققت أغراضهم ، ففاقت مكتبة القصر في القاهرة غيرها من مكاتب
العالم الإسلامي .

وكان للوزير يعقوب بن كلس^(١) نصير العلوم والآداب مركز رفيع بين وزراء الفاطميين . فقد
كان يحب العلم ويجمع بداره العلماء ؛ وكان يعقد مجلسا في كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاته على
الناس ؛ وتحضره القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وغيرهم من وجوه الدولة وأصحاب الحديث . وكان
في داره قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون ينسخون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطب ؛
وكانوا يعارضونها^(٢) ويشكلونها وينقطنوها .

وقد صنف يعقوب نفسه كتابا في الفقه أخذه عن المعز وابنه العزيز ، يتناول فيه الكلام على
العقائد الفاطمية ، ويعرف بالرسالة الوزيرية . وفي رمضان سنة ٣٦٩ (مارس — أبريل سنة ٩٨٠)

(١) كان يعقوب بن كلس يهوديا . ولد في بغداد ونشأ بها ، وسافر مع أبيه إلى الشام ، فأخذ منه إلى مصر سنة
أحدى وثلاثين وثلاثمائة للهجرة ، فأتصل ببعض خواص كافور ، فعهد إليه بعمارة داره ، ورأى فيه النجابة والزهادة ، فعيته
في ديوانه الخاص . ولم تزل حظوته تزداد مع كافور حتى أمر أصحاب الدواوين ألا يصرف شيء من المال إلا بتوقيع ابن
كلس (سنة ٣٣٦) . وفي شعبان سنة ٣٥٦ هـ أظهر ابن كلس إسلامه وصل في الجامع ، فزادت حظوته عند كافور .
بعد ذلك لزم ابن كلس الصلاة وقراءة القرآن ، ورتب لنفسه شيئا من أهل العلم يعرف القرآن ويحجده ، ويحفظ كتاب السيرافي
في النحو (ياقوت : ارشاد ج ٣ ص ٨٤ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٦١) فكان يبيت عنده ويصلي به ويقرأ عليه .
وظل ابن كلس على حظوته عند كافور إلى أن مات . وكان الوزير ابن الفرات يحسد ابن كلس ويحقد عليه فحبسه ، فتدخل
بعض الناس في الأمر ، وبذل ابن كلس له الأموال حتى أطلق من اعتقاله ، فاقترض من أخيه وغيره مالا ، ثم سار مخفيا
يريد بلاد المغرب . وقيل أنه لقي جوهر وهو في طريقه لغزو مصر فصاد معه ، وقيل أيضا أنه سار إلى بلاد المغرب واتصل
بخدمته المعز ، ثم عاد معه إلى مصر . ومهما يكن من الأمر فإن ابن كلس ظل في خدمة المعز ، واكتسب حظوة ابنه العزيز
وتولى أموره ، ثم ولي الوزارة في رمضان سنة ٣٦٨ هـ (١٩ أبريل سنة ٩٧٩ م) ، وأدار شؤون الدولة الفاطمية بمهارة ومهنة
إلى أن مات سنة ٣٨٠ هـ ابن منجب (ص ١٩ — ٢٢) ، وابن ميسر (ص ٤٥ و ٥١) .

(٢) يقابلون بين نسخ الكتاب الواحد .

دعا ابن طلس الناس على اختلاف مراتبهم الى اجتماع وقرأ عليهم من تصانيفه ؛ وكان يعقد المجالس بالجامع العتيق ، فيقرر المسائل الفقهية على حسب المذاهب التي وضعها^(١) .

ولا غرو فقد استفادت مكتبة القصر أيما استفادة من غيرة ابن كلس وولعه بجمع الكتب . هذا اذا صح القول بأن عددا عظيما منها قد نقل من داره الى هذه المكتبة بعد وفاته .

وقد روى المقرئى عن ابن الطوير أن المكتبة كانت في المارستان العتيق في القصر الشرقى ؛ وكان بها عدد من الرفوف مقسم الى أقسام ، لكل قسم منها باب . وزاد هذا المؤرخ أن هذه المكتبة كانت تحتوى على مائتى ألف كتاب مجلد ، عدا الكتب الأخرى . وقد اشتملت هذه الكتب على مصنفات في الفقه في جميع المذاهب ، واللغة العربية والحديث والتاريخ والسير ، والفلك والدين والكيمياء ؛ هذا عدا المصاحف التي احتوتها المكتبة ، ومجموعة القوائم المكتوبة بخط ابن مقلة وابن البواب^(٢) وغيرهما من مشاهير الخطاطين .

وكان من عادة الخليفة إذا زار المكتبة أن يترجل ، ثم يسير الى دكة مرتفعة فيجلس عليها ؛ فيأتيه الخازن بنسخ من المصحف مختلفة الحجم ، ويكتب أخرى في مواضيع مختلفة لمصادقة الخليفة على اقتنائها^(٣) .

وقد روى المقرئى عن مؤلف كتاب ” الذخائر ” أنه كان في القصر أربعون خزانة ، من جملة خزانة بها ١٨,٠٠٠^(٤) مجلد في العلوم القديمة^(٥) . وذكر أبو شامة ، نقلا عما أورده ابن أبي طى عن القصر بعد سقوط الخلافة الفاطمية ، أن مكتبة الخلفاء كانت من بين محتويات القصر التي باعها الأيوبيون في عهد صلاح الدين .

(١) ابن منجب (ص ٢٢)

وقد أتى المقرئى (خطوط ج ٢ ص ٣٤١) ببيان موجز من هذا الكتاب الذى صنفه ابن كلس ، وقال انه كان في حوزته ، وأنه يتكلم عن أصول المذهب الاسماعلى .

(٢) ذكر ياقوت (ارشاد ج ٥ ص ٤٤٥ — ٤٥٣) وابن خلكان (ج ١ ص ٤٣٥ و ٤٣٦) وأبو الفدا (ج ١ ص ١٦٠) ترجمة على بن هلال الكاتب المعروف بابن البواب ؛ وهو شاعر وخطاط مشهور مات ببغداد سنة ٥٤١٣ هـ

(٣) المقرئى : (خطوط ج ١ ص ٤٠٩)

(٤) لا بد أن يكون هذا العدد أكثر من ١٨,٠٠٠ مجلد ، لأن بعض هذه الكتب كان يقع في أكثر من مجلد واحد .

(٥) المقرئى : (خطوط ج ١ ص ٤٠٩)

وقد وصف هذا المؤرخ مكتبة القصر بأنها كانت من عجائب الدنيا فقال : "ويقال إنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التي كانت في القاهرة في القصر . ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري ؛ ويقال انها كانت تشتمل على ٦٠٠,٠٠٠ كتاب ، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة^(١) .

ولقد دأب الخلفاء الفاطميون في جمع أكثر ما يمكن الحصول عليه من نسخ كتاب واحد ، حتى لا يتاح لمكاتب بغداد وقرطبة اقتناء هذه الكتب ؛ لذلك نجح الفاطميون في جمع عدد عظيم من نسخ بعض الكتب التي لم يكن لها وجود في المكاتب الأخرى . ويحدثنا المسبحي أن آتاب العين للخليل بن أحمد^(٢) ذكر عند الخليفة العزيز ؛ فامر خازن مكتبته فأخرج من خزائنه نيفا وثلاثين نسخة من هذا الكتاب ، منها نسخة من خط الخليل نفسه .

وفي مناسبة أخرى أحضر رجل الى الخليفة نسخة من تاريخ الطبري كان قد اشتراها بمائة دينار ؛ فامر الخليفة خازن مكتبته أن يحصل على نسخ أخرى من هذا الكتاب ، فحصل على أكثر من عشرين ، منها نسخة بخط الطبري نفسه . وذكر عنده أيضا كتاب الجهرة لابن دريد ، فأحضر في الحال أكثر من مائة نسخة منه^(٣) .

أما ما كان من مقتنيات المكتبة الملحقه بقصر الخلفاء الفاطميين ، وما كان لها من شهرة في أنحاء العالم الاسلامي ، فقد دلل عليه أسامة بن منقذ فيما أورده لنا من حقائق رواها عن أبيه فقال ما نصه : "وكان الوالد السعيد مجد الدين أبو سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ رضي الله عنه ، حدثني أنه لما توجه الى خدمة السلطان ملك شاه رحمه الله ، وهو اذ ذاك بأصفهان ، قصد القاضي الامام الصدر العالم أبا يوسف القزويني رحمه الله ، عائدا ومسلما بمعرفة قديمة كانت بينهما ، ويد كانت عنده للجد سيد الملك ذي المناقب أبي الحسن علي بن مقلد رحمه الله . وذلك أن القاضي المذكور سافر الى مصر في أيام الحاكم صاحب مصر ، فأحسن اليه وأكرمه ، ووصله بصلات سنية ، فاستغنى منها وسأله أن يجعل صلته كتباً يقترحها من خزانة

(١) كتاب الروضتين لأبي شامة (طبعة القاهرة) (ج ١ ص ٢٠٠) . وقد روى هذا الكاتب عن عماد الدين الأصفهاني ان عدد كتب هذه المكتبة يبلغ ٢٠٠,٠٠٠ كتاب .

(٢) انظر ترجمته في ارشاد الأديب لياقوت (ج ٤ ص ١٨٠-١٨٢) وابن خلكان (ج ١ ص ٢١٦-٢١٨) . وقد مات الخليل سنة ١٦٠ هـ أو ١٧٠ هـ على ما ذهب اليه لياقوت (ارشاد ج ٢ ص ١٨٠) . وأما لنا ابن خلكان بتاريخين لوفاته هما ١٧٠ و ١٧٥ هـ .

(٣) المقرئ : (خط ج ١ ص ٤٠٨)

كتبه ، فأجابه الى ذلك ؛ فدخل الخزانة واختار منها ما أراد من الكتب ، ثم ركب في مركب وتلك الكتب معه يريد بلاد الاسلام التي في الساحل ؛ فتغير عليه الهواء ، فرمى بالمركب الى مدينة اللاذقية وفيها الروم ، فبعل بأمره وخاف على نفسه وعلى ما معه من الكتب ، فكتب الى جدى سعيد الملك رحمه الله تعالى كتابا يقول فيه : قد حصلت بمدينة اللاذقية بين الروم ومعى كتب الاسلام ، وقد وقعت لك رخيصة ، فهل أجذك حريصا ؟ فسير اليه من يومه ولده عمى عز الدولة أبا المرهف نصرا رحمه الله ، وسير معه خيلا كثيرا من غلمانة وجنده وظهرها لركوبه وحمل أثقاله ، فأناه وحمله وما معه ؛ فأقام عند جدى رحمه الله مدة طويلة (١) .

دار العلم :

ولع الخلفاء الفاطميون بتشجيع المشتغلين بنشر المذهب الشيعي ؛ فكان من ذلك أن جعل العزيز الجامع الأزهر مقرا للطلاب تحت إشراف وزيره الكبير يعقوب بن كلس ، فنقل اليه والى غيره كثيرا من المصاحف والكتب .

وفي جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) أنشأ الحاكم جمعية علمية "أكاديمية" على مثال "الأكاديميات" الموجودة ببغداد وغيرها من البلاد ، وأطلق عليها دار الحكمة . فالتحق بها عدد من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين والأطباء ؛ وألحق بدار الحكمة مكتبة أطلق عليها دار العلم ، حوت ما لم يجتمع مثله في مكتبة من المكاتب . وأجرى هذا الخليفة ومن جاء بعده من الخلفاء على خدامها ومن بها من الفقهاء الأرزاق السنية ، وجعل فيها ما يحتاج اليه المطالعون والناسخ من الجبر والأقلام والمجاهر والورق (٢) .

وفي سنة ٤٠٣ هـ عقد الحاكم في قصره مجلسا من مشاهير العلماء في الرياضة والمنطق والفقه والطب وغيرها من العلوم ، فتناظروا في شتى المسائل . وعند ارفضاض هذا المجلس منح الخليفة هؤلاء العلماء الخلع والجوائز الثمينة (٣) .

(١) Dorenbourg : Vie d'Ousama, pp. 503,504.

(٢) المقرئى : (خطوط ج ١ ص ٤٥٨ وج ٢ ص ٣٤٢) ، عن المسجى .

(٣) لم تليث أن انقطعت هذه الاجتماعات من دار الحكمة في القصر . وهذا التغير من جانب الحاكم مما لا يدهش له ، اذا علمنا أن موظفيه توقفوا عن تنفيذ أوامره بعد ما أصاب عقله من خبل وسياسة من اضطراب .

وقد ظلت هذه المكتبة مفتوحة ينتفع الجمهور بما فيها من الكتب الى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ، حيث أمر الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي باغلاقها ، اذ نعى اليه أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التي يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة : وهى الشافعى والحنفى والمالكي ، يترددان على هذا المكان ، وأن كثيرين من الناس أصغوا اليهما واعتنقوا هذا المذهب . وقد اعتنق هذا المذهب شيخان من الأساتذة المحنكين فى القصر . لهذا وذاك أمر الأفضل باغلاق هذه المكتبة ، لأن وجودها أصبح لا يتفق مع الغرض الذى أنشئت من أجله ، وهوبث عقائد المذهب الشيعى لا غير . وكان من أثر ذلك أن قتل نفر من دانوا بعقائد هذا المذهب ^(١) .

وبعد وفاة الأفضل أصدر الخليفة الأمر ٤٩٥ — ٥٢٤ هـ (١١٠١ — ١١٣٠ م) أمرا بإعادة دار العلم الى ما كانت عليه ؛ فتردد عليها حامد القصار أحد زعماء البديعية ، وادعى الربوبية ؛ ونعى الى الخليفة أنه دان بمذهب أبى الحسن الأشعرى ^(٢) ، ثم انسلك عن الاسلام . ويقول المقرئى ^(٣) ان حامدا هذا سلك طريق الحلاج ^(٤) فى التمويه ، فاستهوى من ضعف عقله وعميت بصيرته .

أما المكتبة الكبرى التى كانت فى القصر وما أودع فيها من الكتب الجليلة المقدار ، فقد كان لها أن تعاني ما عاناه غيرها من المصائب والبلايا التى حلت بالخلافة الفاطمية فى عهد المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ ١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) وانتهت بسقوط الفاطميين .

ولقد تلاشى أغلب الكتب التى كانت فى القصر وفى دار العلم فى غضون الشدة التى حلت بالبلاد سنين طويلة فى عهد المستنصر ^(٥) ؛ ونزع من هذه المكتبة ما يقرب من ألفين وأربعمائة "خزمة" مكتوبة بخط على بالذهب والفضة ؛ وذهب ذلك كله فيما أخذه الأتراك فى مقابل ما كان متاخرا لهم من الأرزاق ، فلم يبق فى خزائن القصر الخارجية شئ مطلقا . أما الخزائن الداخلية التى يتعذر الوصول اليها ، فقد عثر فيها على صناديق ملاءى بالأقلام ، براها وشذب أطرافها ابن مقلة وابن البواب وغيرهما من الخطاطين ^(٦) .

(١) المقرئى : (خطط ج ١ ص ٤٦٠)

(٢) وهو إمام من أئمة التوحيد ، ومن أساطين مذهب السنة .

(٣) خطط (ج ١ ص ٤٦٠)

(٤) وهو أحد المتصوفين . ويروى عنه أنه قال ما فى الجنة غير الله — يعنى جبهته — وقد قتل من أجل ذلك .

(٥) سنكلم عن هذا القحط فى الباب السابع .

(٦) المقرئى (خطط ج ١ ص ٤٠٨)

و يتحدثنا المقرئ عن مؤلف كتاب "الذخائر" الذي زار هذه المكتبة فيقول : " وكنت بمصر في القسطنطينية في العشر الأول من المحرم سنة إحدى وستين وأربعمائة ، فرأيت فيها خمسة وعشرين جملا موقرة كتبها رسالة إلى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي ؛ فسألت عنها ، فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير بن الموفق في الدين^(١) عما يستحقانه وعلمانهما .

هذا ، ويستطرد بعض من شاهد ذلك بنفسه فيقول : " إن الكتب التي نقلت إلى دار الوزير وفاء لخمس ألف دينار ، بلغت قيمتها أكثر من مائة ألف دينار " .

أضف إلى ذلك أن الكتب التي كانت بدار العلم وغيرها من الكتب التي صارت إلى عماد الدولة بن أبي الأفضل بن المحرق والتي حملها معه إلى الاسكندرية^(٢) ، وكذا الكتب التي ظفرت بها بنو لؤثة ، كان خسارة فادحة لحقت بدور الكتب .

ذلك أن عددا عظيما من هذه الكتب قد بيع أو نهب ، أو حمل في النيل إلى الاسكندرية سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ - ١٠٦٩ م) وما بعدها . ويقول هذا المؤرخ إن عددا غير قليل "من الكتب الجليلة المقدار المكدومة المثل في سائر الأمصار صحة وحسن خط وتجليدا وغرابة" ، قد اتخذ من جلودها عبيدهم وإماؤهم نعالا وأحذية ، ثم أحرقوا أوراقها ، زعما منهم أنها تحوى كلام المشاركة الذي يخالف مذهبهم^(٣) (يعني أهل السنة) .

وقصارى القول ، فإن الكتب التي كانت بمكتبة القصر ودار العلم ، إما أن تكون قد سرقت أو أغرقت في النيل ، أو حملت إلى سائر الأقطار ، أو آلت إلى الإحراق . أما ما تعرض منها للجو فقد سفت عليه الرياح التراب ، فصار تلالا عرفت بتلال الكتب^(٤) .

وقد بدأت هذه المحن التي حاقت بمجموعتي الكتب (بمكتبة القصر ودار العلم) سنة ٤٦١ هـ ، وتوالت عليها سنون عدة . على أنه في الوقت الذي سقطت فيه الدولة الفاطمية ، أي بعد هذه الفترة التي تخللت سنتي ٤٦١ و ٤٦٥ هـ بنحو قرن ، كانت لا تزال هناك مكتبة كبيرة في قصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين .

(١) يتحدثنا ابن ميسر أن أبا غالب عبد الظاهر بن فضل بن الموفق في الدين تولى الوزارة ثلاث مرات ، وقتل في قس اليوم الذي قتل فيه ابن حمدان .

(٢) نقلت هذه الكتب إلى بلاد المغرب بعد وفاته .

(٣) المقرئ (خط ج ١ ص ٤٠٩)

(٤) شرحه .

ويظهر أن هذه المكتبة قد استعادت شيئاً من سابق عظمتها وروائها ، إما باسترجاع بعض كتبها التي ضاعت في هذه المحن ، أو بإضافة كثير من الكتب الجديدة . يؤيد هذا القول ما أجمع عليه المؤرخون من أنه كانت هناك سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) مكتبة عظيمة في قصر آخر الخلفاء الفاطميين ، وأن هذه الكتب قد تم بيعها شيئاً فشيئاً على يد رجل خبير يدعى ابن صورة ، واستغرق هذا البيع بضع سنين .

ولم يبق من هذه الكتب شيء كثير : فمنها ما حمل إلى المدرسة الفاضلية التي أسسها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي اليبساني^(١) سنة ٥٨٠ هـ . ويحدثنا المقرئ أن المكتبة التي كانت بهذه المدرسة قد اشتملت من الكتب على ما يقدر بمائة ألف مجلد ، آلت كلها إلى الضياع سنة ٦٩٤ هـ (١١٩٤ — ١١٩٥ م) في غضون المجاعة التي أصابت البلاد في ذلك الوقت ، إذ باع طلبة هذه المدرسة جميع ما كان فيها من الكتب ، وكانوا يبيعون كل مجلد برغيف^(٢) .

وقد اختلف المؤرخون في مسألة عدد الكتب التي كانت بمكتبة القصر في ذلك الوقت : فذكر أبو المحاسن^(٣) أنها بلغت مليون مجلد ، وقال ابن واصل إن هذه المكتبة اشتملت على مائة وعشرين ألف مجلد^(٤) ؛ وبذلك خالف ابن واصل وأبو المحاسن غيرهما من المؤرخين من أمثال ابن أبي طى وابن الطوير وعماد الدين الأصفهاني^(٥) ؛ فقد ذكروا أن هذا العدد بلغ مائتي ألف (٢٠٠,٠٠٠) ومستمائة ألف (٦٠٠,٠٠٠) ومليونين (٢,٠٠٠,٠٠٠) على التوالي .

(١) كان شافعي المذهب . تقلد أبوه قضاء بيسان (وهي بلدة من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين) ، ومن هذا اللفظ اشتق اسمه (اليبساني) نسبة إلى هذه المدينة . قدم القاهرة ، وخدم في ديوان الأنشاء في أيام الخليفة الحافظ الفاطمي (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ و ١٠٣٠ — ١٠٤٩ م) ، وترقى حتى صار صاحب هذا الديوان . ولما قدم أسد الدين شيركوه الديار المصرية ، اتخذ كاتباً له (سكرتيراً) . فلما مات أسد الدين وآلت الوزارة إلى صلاح الدين ، استخلص اليبساني واستعان به في إزالة الدولة الفاطمية ، ثم جعله وزيراً له ومشيئاً ، فظل في الوزارة إلى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) ، حيث مات وهو في طريقه لقتال الملك العادل بن أيوب ، وكان إذ ذاك يسير لأخذ مصر . ابن خلكان (ج ١ ص ٣٥٧ — ٣٥٩) والمقرئ (خطوط ج ٢ ص ٣٦٦ — ٣٦٧)

(٢) شرحه (ج ٢ ص ٣٦٦)

(٣) طبعة جوينبول (ج ٢ ص ٤٨٢)

(٤) ابن واصل ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٧٧٠ ، ورقة ٣٢ ب .

(٥) ذكر أبو شامة ، تقلد عن عماد الدين الأصفهاني ، أن بيع مقتنيات القصر استغرق عشر سنين ، وأنه قد خصص يوماً في الأسبوع لبيع الكتب بطريق المساومة ، فبيعت بأبخس الأثمان . وتبعثرت المجلدات — وبعضها يشتمل على نسمين جزاً في شتى الأماكن — حتى استحال جمع كل أجزاء الكتاب الواحد . ويؤكدنا عماد الدين الأصفهاني أن هذه الكتب كانت تباع بالوزن (أبو شامة ، طبعة القاهرة ج ١ ص ٢٦٨)

هذا ، ولا يعزب عن أذهاننا ماسبق أن أوردناه عن المقرئى : وهو أنه بعد سقوط الدولة الفاطمية ، حمل من مكتبة القصر مائة ألف مجلد الى المدرسة الفاضلية التى تأسست سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) (١) .

وهذا ما يجعل ذلك التقدير الذى أتى به ابن واصل غير صحيح . بيد أن العدد الذى ذكره ابن الطوير هو ثلاثة أمثال العدد الذى ذكره ابن أبى طى ، فى حين أن العدد الذى أورده عماد الدين الأصفهانى يبلغ عشرة أمثال ما أتى به ابن أبى طى .

لكننا لو طرحنا عدد الكتب التى حملها البيسانى من هذه المكتبة ، وهو ١٠٠,٠٠٠ مجلد ، من مجموع الكتب الذى ذكره ابن أبى طى ، وهو ٢٠٠,٠٠٠ مجلد ، لما بقى لابن صورة الا عدد قليل جدا يتولى بيعه على مر السنين . وكيف يعقل هذا اذا علمنا أن مدرسة واحدة وهى الفاضلية كان نصيبها نصف مجموع هذه الكتب ؟ أضف الى ذلك ما ذكره ابن ميسر (٢) ، وهو أنه لما مات الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، صادر الخليفة الأمر كافة ممتلكاته ، فكان من ضمنها خمسمائة ألف مجلد (٥٠٠,٠٠٠) (٣) نقلت كلها الى مكتبة القصر .

وليس من السهل أن نأتى باحصاء دقيق لهذه الكتب ، اذا عرفنا أن هذا التقدير الذى أتى به المؤرخون على اختلافهم يشير الى ظروف عدة ، أى قبل هذه المجاعة التى انتابت البلاد فى أيام الخليفة المستنصر (٤٦١—٤٦٥ هـ) وبعدها ، وكذا قبل سقوط الخلافة الفاطمية (٥٦٧ هـ) وبعده .

ويظهر لنا أن العدد الذى أورده ابن الطوير : وهو ٦٠٠,٠٠٠ ، يقرب من العدد الحقيقى لهذه الكتب ، الذى كان فى هذه المكتبة فى هذه الظروف كلها .

ومهما يكن من الأمر ، فلا شك فى أنه كان فى القصر وفى دار العلم مجموعة عظيمة من الكتب ، الغرض منها تعصيد نشر عقائد الفاطميين وتلقينها الناس . ولا غرو فقد عنى الفاطميون

(١) المقرئى (خط ج ٢ ص ٣٦٦)

(٢) تاريخ مصر (ص ٥٧)

(٣) ذكر باقوت فى كتابه ارشاد الأديب (ج ٥ ص ١٥٠) أن مكتبة الوزير أبى القاسم بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ

(٩٩٥ م) (ابن خلكان ج ١ ص ٩٣—٩٥) اشتملت على ٢٠٦,٠٠٠ مجلد .

عناية خاصة بازدياد عدد الكتب والحصول على النسخ الفريدة النادرة كما قلنا ، حتى أتيح لمكتبة القصر في القاهرة أن تنافس وتبذ غيرها من المكاتب في العالم الاسلامي^(١)

على أن ضياع هذه المجاميع جعل من الصعب ، إن لم يكن من المستحيل ، على الباحثين في تاريخ الفاطميين في مصر أن يقفوا وقفا تاما على تاريخ الأبراطورية الفاطمية العظيمة .
فلأيوبويون السنيون الغلاة ، الذين كانوا أعداء ألداء للشيعية ، لم يحاولوا القضاء على الشعائر الشيعية فحسب ، بل عملوا على إزالة كل معالم الحضارة الفاطمية وثقافتها .

التعاليم الفاطمية في القصر :

كان داعي الدعاة في عهد الفاطميين من كبار الموظفين ؛ وكان يلى قاضى القضاة في الرتبة ويتربى بزيه . وكانت وظيفتنا قاضى القضاة وداعى الدعاة تسندان في كثير من الأحيان الى رجل واحد . وقد خصص لداعى الدعاة قسم كبير من قصر الخليفة . وكان يساعده في نشر التعاليم الفاطمية اثنا عشر نقيبا ، كما كان له نواب ينوبون عنه في البلاد .

وكان فقهاء الدولة تحت نفوذه ، ولهم مكان خاص بالقصر : هو دار العلم ؛ فكانوا يتصلون به ويتلقون عنه الأوامر ، ويقدمون اليه في يومى الاثنين والخميس ما أعدوه للحاضرة في أصول المذهب . ويجدر بنا أن نلاحظ أن هذه المحاضرات كانت تعرض قبل القائتها على الخليفة ، فيقرها ويذيلها بامضائه ، ثم تبلغ اليهم عن طريق داعى الدعاة الذى كان يعرضها بنفسه^(٢) .

وكان داعى الدعاة يعقد المجالس ويقرأ على الناس من مصنفاته ، ويجلس على كرسي الدعوة في الإيوان الكبير فيحاضر الرجال ، ويعقد للنساء مجلسا خاصا هو مجلس الداعى ، وفيه يلقنهن أصول مذهب الاسماعيلية .

لم يكن ذلك كل ما قام به الفاطميون في هذا السبيل . فقد ذكر لنا المقرئى نقلا عن ابن عبد الظاهر ، أن هذه المجالس كانت تفرد للناس كل حسب طبقتة : فكان لآل على مجلس ،

(١) ذكر الأستاذ نيكلسن في كلامه عن مكتبة الحَكَم الثاني في أسبانيا : "كان القرن العاشر الميلادى عصر إزهار ورياء في تاريخ الأندلس ... وكان الحكم محبا للكتب شغوقا باقتنائها . وكانت يرسل عماله الى مختلف النواحي لاقتناء المخطوطات ، بضع من وراء ذلك أربعمائة ألف مجلد أودعها قصره الذى غص بخازنى الكتب والنساخ والمجلدين" .

(Literary History of the Arabs, p. 419).

انظر أيضا ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٦) والمقرئى : فتح الطيب (ج ١ ص ١٨٢)

(٢) المقرئى (مخطوط ج ١ ص ٣٩١)

وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، ولئن يتصل بالقصور من الخدم وغيرهم مجلس ، وللعامة والطارئين من البلاد الأجنبية مجلس . وللحرم وخواص نساء القصور مجلس خاص بهن . وكان النساء يحضرن في الجامع الأزهر^(١) .

وإذا فرغ داعي الدعاة من إلقاء محاضراته على المؤمنين والمؤمنات ، أقبلوا عليه يقبلون يده ، فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذي عليه إمضاء الخليفة . ومن خصائص داعي الدعاة جمع النجوى^(٢) من الاسماعيلية ، وأن يدقن اسم من يدفع اليه أكثر من المال المقرر ؛ وفي عيد الفطر كان يجمع مال كثير يودع بعضه في بيت المال^(٣) .

ويظهر أن الفاطميين هم أول من أفرد لداعي الدعاة مكانا كبيرا في القصر : ذلك أنه في ربيع الآخر سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) في خلافة العزيز ، قُلب قاضي القضاة محمد بن النعمان وظيفة الدعوة الى المذهب آل البيت في القصر ، كما كان أخوه الحسين في القاهرة وأبوه في بلاد المغرب . ويحدثنا المقرئ عن المسيحي أن الزحام اشتد بالناس فأت منهم أحد عشر رجلا^(٤) .

وقد لاقت الدعوة الفاطمية السياسية منها والدينية نجاحا عظيما في خلافة الحاكم بأمر الله ؛ فقد بذل مجهودا كبيرا في سبيل نشر هذه الدعوة ، حتى لقد أرضع كثيرا من الناس على اعتناق المذهب الفاطمي بما سنه من القوانين الجائرة . كما كان من أثر إقبال الناس على الدخول في هذه الدعوة أن جعل لهم يومان في الأسبوع لتلقى تعاليم هذا المذهب^(٥) . وفي السادس عشر من رجب سنة ٣٩٧ هـ (٩٣٨ م) صرف قاضي القضاة عبد العزيز بن النعمان ، وأقر في الدعوة مكانه مالك ابن سعيد الفارقي ؛ فسلم منه كتب الدعوة التي كانت تقرأ على الناس في القصر^(٦) .

أما كتب الدعوة التي يشير اليها المقرئ ، فهي من غير شك الكتب التي ألّفها رجال من أمثال أبي حنيفة النعمان المغربي ويعقوب بن كلس ؛ وقد وصف لنا المقرئ نسخة من كتاب ابن كلس

(١) المقرئ (خط ج ١ ص ٣٩١) -

(٢) زاد المقرئ (خط ج ١ ص ٣٩١) على هذا فقال : إن النجوى كانت ثلاثة دراهم وثلاث ؛ ومن مرة الاسماعيلية من دفع النجوى ثلاثة وثلاثين دينارا وثلاثي دينار ، فيمتاز بذلك عن غيره في الجول ، ويعطى رقعة مذيبة بأعضاء الخليفة ، وفيها ما يأتي : " بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك ! " ، فيذكر ذلك ويفخر به .

(٣) شرحه (ج ١ ص ٣٩١)

(٤) المقرئ (خط ج ١ ص ٣٩١ وج ٢ ص ٣٤١ - ٣٤٢)

(٥) و (٦) شرحه (ج ٢ ص ٢٨٦)

كانت في حوزته . هذا ، ويجب أن نشير هنا الى وثيقة أخرى لها أهمية عظيمة ، وهى الرسائل المخطوطة بدار الكتب الملكية بالقاهرة^(١) وعنوانها : ” رسائل الحاكم بأمر الله والقائمين بأمر دعوته “ . وأنا أشك في أن هذه الرسائل الموجودة بدار الكتب الملكية بالقاهرة هى نسخة ثانية من المجلد الأول للمخطوطات الأربعة التى اعتمد عليها دى ساسى في كتابه *Exposé de la Religion des Druzes و Chrestomathie Arabe* . فقد ذكر لنا دى ساسى في الكتاب الأول أنه لم يطلع من المخطوطات التى تتناول الكلام على الدروز الا على ما يوجد منها بمكاتب أوروبا فقط .

“Jo ne puis dispenser de faire connaitre sommairement ces différents écrits ; et d'indiquer les manuscrits des diverses bibliothèques de l'Europe dans les quels ils se trouvent.” (٢)

ولست هذه المسألة مما يحط من قدر بحث هذه الرسائل الموجودة بدار الكتب الملكية بالقاهرة ؛ لأننى اقتصرت في بحثها على اقتباس بعض العبارات التى لم يتصد دى ساسى ولا غيره من المؤرخين لترجمتها أو بحثها بشئ من الإسهاب . والمخطوط الذى اطلع عليه دى ساسى هو بالمكتبة الأهلية بباريس تحت أرقام ١٥٨٠ و ١٥٨١ و ١٥٨٢ و ١٥٨٣ ، (Ancien fonds, ie. 1408, 1415, 1419, 1427) على التوالى ؛ وعنوانه : ” كتاب المشاهد والأسرار التوحيدية لمولانا [الحاكم] “^(٣) .

والمجلد الأول من مجلدات هذا المخطوط يشتمل على ست وعشرين رسالة ؛ ويكاد يتفق في ست عشرة منها مع مثيلاتها من رسائل المخطوط الموجود بدار الكتب الملكية بالقاهرة . على أن دى ساسى اقتصر على ترجمة أربع من هذه الرسائل^(٤) ؛ أما الأخرى فانه تناول الكلام عليها بشئ كثير من الإيجاز ؛ فذكر خلاصة كل منها ، وشرح موضوعها ، وذكر التاريخ الذى دقت فيه^(٥) .

(١) هذا المخطوط الذى يحتوى على ٦٤ ورقة يشتمل على عشرين رسالة ، ويوجد بدار الكتب الملكية بالقاهرة (مخطوطات الشيعة) رقم ٢٠

(٢) De Sacy : *Exposé*, Tome I. pp. ccccliv.

(٣) Ibid : Tome I. pp. cccclix.

(٤) *Chrestomathie Arabe*, Tome II. pp. 209-226

(٥) *Exposé*, Tome I. pp. cccclxxii—ccccxxii

فقد ذكرت هذه التواريخ حسب تقويم حمزة بن على ولى الزمان وقائم الزمان (De Sacy : *Chrestomathie Arabe*, Tome II. p. 246, n. 71).

والسنة الأولى من تقويم حمزة توافق سنة ٤٠٨ هـ (Tome II. p. 246, n. 73) . ويسمى حمزة أيضا الامام حمزة ابن على . المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ٢١ (ب) . وهذه الألقاب الخاصة بقائم الزمان وولى ، أعنى حمزة بن على ، قد ذكرت بوضوح في الرسالة التاسعة عشرة من المخطوط الموجود بالقاهرة ، ورقة ٤٩ (ب) حيث يقول : ” توصلت اليه بولى قائم الزمان حمزة بن على “ .

وسنبحث الان في الأساليب التي اتخذها الخلفاء الفاطميون في سبيل تأييد عقائدهم ، والطرق التي اتهجها أشياعهم في هذا السبيل ، معتمدين في ذلك على مخطوط القاهرة ؛ ومنها يتجلى للقارئ ما ادعاه الحاكم من صفات الألوهية . ولا غرو فقد أصبح قسم كبير في القصر مركز حركة الدعوة الفاطمية . وفي هذا المكان كان داعي الدعاة وأعوانه يلقنون الناس تعاليم هذا المذهب في أوقات منتظمة .

أما اللهجة التي كتبت بها هذه الرسائل ، فانها تدلنا على ماتوقعه الفاطميون من مقاومة الأهلين ، وما تنبأوا به أيضا من معارضة من الجانب الأعظم من المصريين . يؤيد هذا القول ما جاء بهذه الرسائل عن الحاكم وأهل مصر : ” وتنه عن سوء الظنون ؛ إشارة ذلك أنه لما غاب ، ظنوا به ظن سوء من العجز والعدم والظلم “ (١)

هذا ، وقد قرئت هذه الرسالة بعد أن قام الدرزي (حمزة بن علي) بتعليم العقائد الجديدة التي انتحلها الحاكم الذي ظهر سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) بصورة التوحيد ، على ما يتبين من هذه العبارة : ” فلما غاب مولانا الحاكم بصورة التوحيد انكشف المكنون : الإشارة الى قيامه في الكشف سنة ثمان وأربعمائة ، انكشف المكنون ، يعني التوحيد ، واستمر مكنونا من غيبة الباري “ (٢) .

وهذه الرسائل قد بنيت على آراء فلسفية مصدرها عقائد الباطنية والمعتزلة ؛ لأن الفلسفة ، وهي أساس الشريعة عند الفاطميين ، قد حلت في عهد الحاكم محل القرآن والسنة . ومما تختص به هذه الرسائل ما جاء فيها من أن داعي الدعاة كان يعاونه مائة وواحد وخمسون داعيا ، فضلا عما قام به المؤذنون وخطباء المساجد في سبيل نشر الدعوة الفاطمية ١٣ .

والرسالة الأولى ليس لها عنوان يدل على موضوعها ؛ ولكنها بمثابة تمهيد لما تلاها من الرسائل ؛ وهي تعرض للكلام على ما استجد في عهد الحاكم من عقائد . ويقول كاتب هذه الرسالة :

(١) رسائل الحاكم بأمر الله ، مخطوطات الشيعة ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ٤٣ أ
(٢) يدل لفظ ” كشف “ على الفترة التي كانت من اخفاء الحاكم الى وقت دعوته واطهار دينه الجديد للناس . وقد ذكر دى سامي (Chrestomathie Arabe, Tome II. p. 276, n. 144) أن هذه الفترة يعبر عنها في كتب الدرزي بالكشف .

(٣) شرحه ، ورقة ٤ (ب) .

”العالم ناطق الشريعة ، لأن ناطق الحقيقة الإمام ؛ وهو مبدع الكل ، يعنى العشرة : الخمسة^(١) حدود^(٢) الحق (الحقيقة) ، والخمسة حدود الشريعة“ ، وعال عليهم^(٣) ، والعلة العقل الكلى ، ومصدر صورتهم الدينية^(٤) .

”أما موضوع هذا الكتاب ، فهو بيان الدقائق بالاختصار فى إبطال قول من قال إن مولانا هو الناطق والأساس ، ثم ذكر هذه الحجج العظيمة التى هى السجلات“^(٥) .

(١) كان الخمسة حدود الحق عبد الرحيم ولى عهد الخليفة ، وعباس ، وختكين الداعى ، وجعفر ، وأحمد بن العوام قاضى القضاة . المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ٢ (ب) . وذكر دى سامى عن الرسالة السابعة عشرة (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٤٠٨) ، وعنوانها ”التزيه“ ، أن الخمسة حدود هم : عبد الرحيم بن الياس ، وعباس بن شعيب ، والداعى ختكين ، وجعفر الملقب بالضرير ، وأحمد بن العوام قاضى القضاة (Exposé, Tome I, pp. CCCLXXII seq.)

(٢) ذكر دى سامى أن كلمة ”حدود“ فى اصطلاحات الدرر الدينية تشير — بطريق المجاز لما جاء فى القرآن — إلى الحدود التى لها السلطة الدينية حسب أصول هذا المذهب . وعلى ذلك ، فإن ”إقامة الحدود“ معناها الشرائع التى أوجدها الأئمة (الحدود) فى طائفة الدرر (Chrestomathie, Tome II, pp. 199, 242, n. 46) . وقد أوضح دى سامى فى كتابه Chrestoma (thie Arabe, Tome II, p. 275, n. 147) كلمة حدود ، فزعم أن المؤلف يشير بقوله ”شرح الحدود“ إلى الرسالة الثامنة عشرة من المخطوط الموجود بالمكتبة الملكية (اذ ذلك) بباريس تحت رقم ١٥٨١ (Ancien fonds, No. 1415, Bibliothèque Nationale) ، وعنوانها : ”ذكر معرفة الإمام وأسماء الحدود العلوية روحانيا وجسمانيا“ .

(٣) ذكر دى سامى (Chrestomathie, Tome II, pp. 219, 274, n. 136) أن حمزة بن على هو علة الوجود . ويسمى فى شرائع الموحدين تارة بالعقل ، وتارة أخرى بعلة الطل ؛ وتدين له بوجودها الأشياء كافة . ويزيد دى سامى هذه المسألة بيانا فيقول : إن الحاكم هو الاله الأعلى ، ويسمى أحيانا العلة الفعالة لعلل (La cause efficiente de la cause des causes) . بيد أن دى سامى لم يجزم بذلك حيث يقول : ”إن هذه الآراء ليست خاصة بالدرور ، بل قال بها الاسماعيليون أيضا ؛ وأعتقد أنها شائعة عند من يقولون بما وراء الطبيعة بين بعض الطوائف الاسماعيلية“ .

(٤) المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ، ورقة ١١ .

(٥) قال دى سامى إن النبى أو الناطق يخلفه سبعة من الأئمة ، أولهم يدعى الأساس أو السوس ، وهو خليل الناطق والأمين على تعاليمه فى الزهد . والناطق والأساس هما مجد وعلى ، وهما خادما الحاكم ليس غير . وينوب عنهما عبد الرحيم بن الياس وعباس بن شعيب . ويزيد دى سامى هذا الموضوع بيانا فيقول : ونقرأ عبارة تستحق الذكر فى كتاب آخر ألقه حمزة فى نفس هذه السنة (٤٠٩ هـ) وعنوانه رسالة التزيه (أى تزيه الحاكم) . ويريد هذا الكاتب أن يدل على أن مولانا — أى الحاكم — لا يشترك فى شئ مع الناطق والأساس ، وهما مجد وعلى ، بل ولا فى عقائدهما ، أى الاسلام أو التنزيل ، وعقيدة مولانا المجازية التى يمثلها عبد الرحيم بن الياس وعباس بن شعيب — A.H. 409 — (”Dans un autre écrit de Hamza, daté de la même année — A.H. 409 — on lit un passage remarquable. L'auteur veut prouver que notre Seigneur, c'est-à-dire Hakem, n'a rien de commun avec le Natek et l'Asas, c'est-à-dire Mahomet et Ali, ni avec leurs doctrines, c'est-à-dire le Mahométisme littéral ou Tenzil, et la doctrine allégorique, serviteur de notre-Seigneur, représentés par Abd-Arrahim, fils d'Elyas, et Abbas, fils de Schoaib (Chrestomathie Arabe, Tome II, p. 238, n. 23).“

ويشير المؤلف فى رسالة النساء (المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ورقة ١٠ (ب) إلى عبد الرحيم وعباس كالناطق والأساس . شرحه ورقة (أ ب) .

بعد ذلك يفسر لنا الداعى كلمة إمام التى تقوم مقام ”ذو معة“ ، وهو العقل الكلى الذى يربى الدعاة ، وعنه يتلقون العلم (لأن السابق الحقيقى هو الإمام الأعظم... الذى هو العقل الكلى .. أن الامام الكلى هو الذى يربى الدعاة ... يأخذون العلم ، يعنى الدعاة) .

وفي الرسالة الثانية (رسالة النساء) يؤكد الداعى خطر تعدد الآلهة ، ويدافع عن ضرورة الاعتقاد بوحداية الحاكم (الخالق الرازق)^(١) و (علام الغيوب)^(٢) ، ثم يستطرد الداعى فى الكلام فيقول : ”والمراد بالدين هنا المجالس والسجلات“^(٣) . ومن هذا يتبين أن الدين الاسلامى قد عطل فى عهد الحاكم ، وعمل بدين جديد مبنى على التعاليم التى قام بها دعائه ، والتى شرحها الشراح فى مجالس الحكمة ، وفى الوثائق التى قامت مقام القرآن والحديث .

والرسالة الثانية تبين لنا أيضا أن مجالس الحكمة إنما كانت تتعقد لتعليم طائفة من الناس أصول مذهب الباطنية ، لئلا يتجنبوا بذلك معارضة السواد الأعظم من المصريين . ومع ذلك فانه يظهر لنا من نفس هذا الكتاب أن روح السخط قد ظهرت بين المصريين ، بل ولم تلاق هذه السياسة قبولا عند قاضى القضاة عبد العزيز بن النعمان ، فكان نصيبه أن عزله الخليفة سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) ، وأقر مكانه مالك بن سعيد .

وكان من عزل ابن النعمان أن لعن فى هذه الرسالة . على أن الفارقى لم يصادف من النجاح شيئا ، فلحق بسلفه بحجة أنه لم يعتقد بصحة مذهب الحاكم ، ولأنه اغتصب أموال اليتامى . ويتبين ذلك مما جاء فى هذه الرسالة حيث يقول الداعى الذى كتبها :

”لأن المجالس الباطنية لا تقرأ على كل الناس“ ... وعبد العزيز كان قاضى مصر ، ثم بعده تولى مالك بن سعيد قضاء مصر... فنظرنا الى قولهم تيس من تيوس بنى أمية ... وجدناه عبد العزيز عبد بن النعمان ... ولد عبد العزيز فى أيام العزيز أيضا الى أيام الحاكم ، وعزله سنة ثمان وتسعين وثلثمائة ، وولى مكانه مالك بن سعيد آكل أموال اليتامى والمتبرئ من دين الرحمن“^(٤)

(١) رسائل الحاكم بأمر الله ، ورقة ١٢ (ب) .

(٢) شرحه ورقة ١١ (ب) .

(٣) شرحه ورقة ١٠ (ب) .

(٤) شرحه ورقة ٨ (ب) .

لقد كان من أثر هذه السياسة التي سار عليها الحاكم ان أبطلت مجالس الحكمة سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ^(١) . نعم ! قد حال دون نجاح الفاطميين ما كان من مقاومة السواد الأعظم من الأهلين واستهجان فريق من عليّة القوم لهم . ولا عجب في ذلك ؛ فقد بلغت الجرأة بالحاكم أن أبطل الأديان كافة ، وطلب الى الناس اعتناق مذهبه الذي بنى عليه هذه الكتب التي كانت تتلى في مجالس الحكمة .

وقد جاهر دعاة الفاطميين بهذا المذهب الجديد (واقطعت المجالس... أهل التأويل والأقوال الباطلة من جهة المقام جل ذكره والكتاب... ^(٢)) وهذه الفصول التي تقدمت جميعها تشير إلى بطلان الشرائع ودحض الألوهية من الأساس ^(٣)... والمراد بالدين هنا المجالس والسجلات ^(٤) .

أما الرسالة الثالثة عشرة وعنوانها "المناجاة" ، فهي تشتمل على الدعاء الذي كان يقوله المؤمنون في مجلس الحكمة . أما الداعي فانه يثب الدعوة بين الناس ، مؤيدا ألوهية الحاكم وسرمديته (سرمدي الثبات) ^(٥) ، وغيرها من الصفات التي هي من صفات الله سبحانه .

فكان الحاكم في نظر هذا الداعي هورب العرش ^(٦) (فأنت صاحب العاجلة ، أى الدنيا ، واليك حكم الآجلة ، أى الآخرة) ^(٧) ، و (بارى البرايا) ^(٨) . ولا شك في أن غرض الداعي كان حث الناس على اعتناق مذهب الحاكم ونبذ غيره من المذاهب (التي هي باطل وزور) ^(٩) .

والرسالة الرابعة عشرة ، وعنوانها "الدعاء" ، كتبت بنفس الأسلوب والروح الذي كتب به ما سبقها من الرسائل ، وفيها يوضح الداعي الاصطلاحات التي كان يلقيها من يدين بمذهب الحاكم . ويحذف هذه الشروح المطولة التي لا حاجة الى نقلها لطولها يصبح الدعاء كما يأتي :

(١) المقرئى (خطوط ١ ص ٤٥٨) .

(٢) المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٠ ورقة ٨ (ب) .

(٣) شرحه ، ورقة ١٠ (أ) .

(٤) شرحه ، ورقة ١٠ (ب) .

(٥) شرحه ، ورقة ٢٠ (أ) .

(٦) شرحه ، ورقة ٢٢ (أ) .

(٧) شرحه ، ورقة ٢٥ (أ) .

(٨) شرحه ، ورقة ٢٧ (ب) .

(٩) شرحه ، ورقة ٢١ أ وما يتبعها .

”سبحانك يا مبدع الأشياء ، يا مخترع العالمين ، يا صفوة العالمين ! سبحانك يا من تعزز بالكبرياء والجبروت ! سبحانك يا من تعاظم أن يكون كمثل شيء ، أو يلحقه وصف واصف ! سبحانك يا من تعالى عن المساوى ! سبحانك يا من لا تلحقه صفة ولا له صفة ! شهدت وأمنت وأيقنت بأنك الله المبدع العزيز الواحد الأحد ، وأنتك بارى لا بارى لك ، وخالق لا ضد لك ، وقادر لا مقدور عليك ، وحاكم لا محكوم عليك . أسألك يا مولانا وسيدنا بعظيم جلال قدرتك ونور سلطانك ؛ أسألك يا مولانا بأول شيء ظهر من توحيدك وتنزيهك ونفى التشبيه عنك ، أن تمت على بخالص معرفتك وحيد طاعتك ، والبلوغ الى مرضاتك والثبات على أمرك والتجنب لنهيك ، والصبر على ما ينالني في عبادتك من شدائد المحن والبلوى . يا أرحم الراحمين ! بمحكك على من يصرف هويته عن تسيحك وتمجيدك الى سواك . لا أصرف ذاتي الى غيرك ، تأتب اليك معترف بالوهيتك ، متبرئ من كل عدوك ؛ لا شريك لك ولا دافع لأمرك ؛ تجاوز عنى واغفر ذنبي ، واجعل معرفتك التي مننت بها على مخلدة في نفسي . لا إله غيرك ولا معبود سواك (١)“.

وهكذا كان الدعاء الذي قام به الداعي في القصر والمؤمنون بوحدانية الحاكم . ومع ذلك فقد أنكر كثير من الناس هذه الصفات ، على ما يشير اليه كاتب هذه الرسالة . بيد أن هذا الكاتب قد ذكر أن الحاكم ظهر في صورة إنسان ، وتسمى باسم إنسان ، وقام بأفعال البشر ، ثم تجرد عن صفاتهم . وأخيرا دعا الناس الى الاعتقاد بالوهيته وتنزيهه ، اذ صار البرهان المطلق . ويتضح ذلك من هذه العبارة التي نقلها بنصها :

”يعني أنهم أنكروا بعد أن ظهرت الصورة عند الإثبات المحض ، يعني وجوده في صورة مرئية ظاهرة مكشوفة حيث صورنا ؛ وتسمى بأسمائنا وظهر بجميع أفعالنا ، ثم تجرد عن صفات البشر ، ودعا الخلق الى معرفته ووجوده وتنزيهه ، فصار إثباتا محضا ، أى خالصا (٢)“

(١) رسائل الحاكم بأمر الله ، ص ٢٧ (ب) — ٣١ (أ) .

(٢) شرحه ، ورقة ٣١ (ب) .

الباب الرابع

الدعاية الأدبية

تشجيع الشعراء والعلماء والكتاب بالصلوات والمناصب

١ - الكتاب والعلماء

لقد عُنى الفاطميون عناية عظيمة بالشعراء والكتاب وغيرهم من رجال الادب لنشر مذهبهم وإذاعة ما بلغت خلافتهم من أبهة وسلطان . وكان من بين هؤلاء عدد غير قليل من الكتاب ومن طبقة الموظفين المتصلين بديوان سر الخليفة (السكترية) أو بدار العلم ؛ وكان الخلفاء يميزون لهم الأموال الكثيرة ويحودون عليهم بالخلع .

ولقد أتى لنا القلقشندي بيان رواتب الموظفين ، ومنه يتبين لنا أن الكتاب كانوا يتقاضون رواتب كبيرة ، فضلا عما كان يغدق عليهم من هبات ويدفع لهم من ارزاق . فكان صاحب الانشاء والمكاتبات يتقاضى راتبا شهريا قدره مائة وخمسون دينارا ، وكان يتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت ادارته ثلاثين دينارا^(١) .

وعلى صاحب الانشاء^(٢) في الرتبة صاحبُ القلم الدقيق الذي كان يوقع على المظام ويمالس الخليفة في خلوته ، فيذاكره ما يحتاج اليه من كتاب الله أو سير الأنبياء والخلفاء وعظماء الرجال ، ويحدثه عن مكارم الأخلاق ويعلمه تجويد الخط . وكان راتبه مائة دينار في كل شهر .

(١) القلقشندي : صبح الأعشى (ج ٣ ص ٤٩٠)

(٢) زاد القلقشندي على ذلك أن هذا الكاتب كان يطلق عليه أيضا اسم صاحب الدست الشريف ؛ ومن واجباته تسليم المكاتبات الواردة ، ثم عرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها . ويستشير الخليفة في أكثر أموره (ج ٣ ص ٤٩٠) . وقد ذكر ابن ميسر (ص ١١٣) أن كاتب الانشاء كان يطلق عليه كاتب السر ، وأن أبا الفرج محمد بن جعفر المغربي كان أول من تلقب بهذا اللقب في عهد المستنصر الفاطمي سنة ٨٤٥٤ (١١٥٩م) .

وإذا جلس وضعت أمامه دواة محلاة بالذهب والفضة ؛ فإذا انتهى المجلس أُلقي في هذه الدواة كاغدة فيها عشرة دنانير ، وقرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ند (ممزوج بالمسك) ليتخربه عند دخوله على الخليفة في المرة التالية .

وفي الشطر الأخير من الخلافة الفاطمية ، حين أصبح الوزير صاحب السيف والقلم ، كان يجلس الوزير للمظالم ، وإلى جانبه صاحب القلم الدقيق يقوم مقام كاتب السر ، وكانت له سلطة التوقيع تحت توقيع الوزير ، بل والنظر في الشكاوى قبل انعقاد الجلسة^(١) .

وبلى صاحب القلم الدقيق في الرتبة صاحبُ القلم الجليل^(٢) ، ومهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق ووضعها في الصيغة القانونية قبل أن تعرض على الخليفة للتصديق عليها^(٣) .

وكان الكتاب يختارون عادة ممن اشتهروا بسعة الاطلاع في الأدب ، ويمتازون بالمقدرة في فن الانشاء ، كما كانوا من كبار رجال الدولة ممن تُجرى عليهم الصلات والهبات .

٢ - الشعراء

(١) الشعراء في الصدر الأول من عهد الفاطميين

(٣٦٢ - ٤٦٦ هـ ٩٧٢ - ١٠٧٣ م)

(١) الشعراء في عهد المعز :

أكثر رجال الأدب في قول الشعر مدح الخلفاء الفاطميين ، لما كان يقدقه هؤلاء من العطايا الجزيلة والخلع والجوائز والأرزاق المخصصة لهم . ولقد دفعت الرغبة في الحصول على هذه الجوائز والهبات بالشعراء من أهل السنة إلى محاكاة الشعراء الشيعة ، فاتصل بعضهم ببلاط الخلفاء الفاطميين . على أن الشعراء السنيين ، وإن كانوا في مدحهم أكثر اعتدالا من الشيعة كابن هانئ وغيره ، فقد انتشر الغلو في شعرهم للاشادة بمجد الفاطميين . وكثيرا ما دفع بهم هذا الغلو إلى الكفر والإلحاد .

(١) القلقشندي (ج ٣ ص ٤٩١)

(٢) ولو أن هذه العبارة تدل على أن هذا الموضع كان أعلى في المرتبة من صاحب القلم الدقيق ، إلا أن مرتبته كانت في الواقع أدنى من مرتبة صاحب القلم الدقيق ، إذ كانت تسمى الخدمة الصغرى .

(٣) شرحه (ج ٣ ص ٤٩١ و ٤٩٢)

ولما كان ابن هاني^(١) أول من ضرب المثل في ذلك لغيره من الشعراء الذين جاءوا بعده ، رأينا أن تأتي بشيء من سيرته ، عسى أن نثين تلك العناية العظيمة بالشعر والشعراء التي كانت تظهر لدى الخلفاء الفاطميين في نشر دعوتهم ونجاح سياستهم . ولقد ناط المعز بابن هاني الآمال الكبار ، عساه أن يحاكي الشعراء العباسيين ويذهبهم . يؤيد هذا القول أنه لما بلغت المعز وفاة ابن هاني وهو بمصر ، أسف عليه أسفا شديدا وقال : ” هذا الرجل كما نرجو أن تهاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك “ (٢) .

ولا شك في أن المعز قد أصاب فيما قاله ؛ لأننا إذا تصفحنا ديوان ابن هاني الذي يقع في مائتين وست وأربعين صفحة ، ألفينا أن أكثره قد نظم في مدح المعز وأسرته . وليس لدينا دليل تاريخي على أن ابن هاني قد اعتنق مبادئ المذهب الشيعي في صباه . غير أنه لا بد أن تكون نفسه قد أشربت روح العطف على هذه العقائد ؛ بذلك على هذا ما كان من إظهار هذه العواطف حال وصوله الى بلاد المغرب .

ويظهر لنا أن ابن هاني أصبح شيعيا متحمسا لهذا المذهب استندارا لكرمهم ، لا حبا في عقائدهم واستمساكا بها ، حتى لقد ذهب به هذا التحمس إلى أن ينسب لحسامه من صفات التشيع ما نسبته إلى نفسه . وقد تكلم عن ذلك في هذين البيتين :

(١) أبو القاسم ، ويلقب بأبي الحسن أيضا ، هو محمد بن هاني ، من قبيلة أزد . ولد في إشبيلية في بلاد الأندلس فقضى بها أيام صباه . وكان أبوه هاني من قرية من قرى المهديّة في شمال إفريقية (في بلاد تونس الآن) . وقد مجلت مواهب في الشعر والفلسفة ، وانتقل إلى الأندلس ، فولد له محمد الذي اتصل فيما بعد بصاحب إشبيلية وحظي عنده ، وانهمك في الملاذ واتهم بمذهب الفلاسفة . ولما اشتهر به ذلك ، قم عليه أهل هذه المدينة وأخذوا يسيثون الظن بالملك بسببه ، حتى اتهمه الناس باعتناق مذهب هاني ، فأشار عليه الملك بالبعد عن هذه المدينة ريثما ينسى الناس ما كان من أخباره . فرحل عنها وله من العرس سبع وعشرون سنة (سنة ٣٤٧ أو ٣٥٣ هـ ، ٩٥٨ أو ٩٦٤ م) ، فلقى جوهر القائد ومدحه ، ثم ارتحل إلى جعفر ويحيى ابني علي بن أحمد بن حمدان الأندلسي أمير المسيلة وإقليم الزاب ، ومن أنصار العلم والعلماء ، فبالغا في إكرامه والأحسان إليه ، فتمنى خبره إلى المعز فطلبه منها . فلما وفد عليه بالغ في الانعام عليه . ثم توجه المعز إلى الديار المصرية ، فثبته ابن هاني ورجع إلى المغرب لأخذ عياله والهاق بمولاه . وقد أعد ابن هاني معداته للرحيل وسار يريد مصر . فلما وصل برقة أضافه شخص من أهلها ، فأقام عنده أياما في مجالس الأتس والطرب . ويقول ابن خلكان إنهم عربدو عليه فقتلوه . وفي رواية أخرى أنه خرج سكران ، فنام في الطريق فوجد ميتا في الصباح ، فلم يقف الناس على سبب وفاته . وكان ذلك صبيحة الأربعاء الثالث والعشرين من رجب سنة ٣٦٢ (٣٠ أبريل سنة ٩٧٣) ، وعمره ست وثلاثون سنة ، وقيل اثنتان وأربعون (ياقوت — إرشاد (ج ٧ ص ١٢٦ و ١٢٧) ، ابن خلكان (ج ٢ ص ٥) ، المقري — قح الطيب (ج ٢ ص ١٠١) ، أبو المحاسن — طبعة جوينبول (ج ٢ ص ٤٣٧ — ٤٣٨)

(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ٥)

لى صارمٌ وهو شيعيٌّ كماله يكاد يسبق كراتي إلى البطل
إذا المعزُ معز الدين سلطه لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل^(١)

وربما كان أمر اعتناقه المذهب الشيعي راجعا إلى ما لقيه من عطف المعز وكرمه ،
كما يتبين لنا من إحدى قصائده في مدح المعز ، حيث يذكر لنا كيف أخذ يتلمس السبيل إلى المعز
طمعا في صلاته وعطاياه ، فيقول :

٢٧ وطفقتُ أسأل عن أغر^(٢) محجل^(٣) فأذا الأثامُ جيلةٌ^(٤) دهاء^(٥)

٢٨ حتى دُفعتُ إلى المعز خليفةً فعلمتُ أن المطلب الخلفاءُ

٢٩ جودٌ كأنت^(٦) أليم^(٧) فيه نفائهُ وكأنا الدنيا عليه غشأ^(٨)

ويقول ابن هاني في قصيدة أخرى رائعة ، قيل إنها أول ما أنشد بالقيروان في مدح المعز :

٢١ قد كان رشحٌ حديده أجلا وما صاغت مضاربهُ الرقاقَ قيون^(٩)

٢٢ وكأنا يلقى الضريبةَ دونه بأُسُ المعز أو اسمه المخزون

٢٣ هذا معد والخلائق كلها هذا المعز متوجا والدين

٢٤ هذا ضمير النشأة الأولى التي بدأ الآله وغيها المكنون

٣٨ وصواهل ، لا الهُضب يوم مغارها هضب ، ولا البيض الحزون حزون

٤٢ عُرِفَتْ بساعة سبقتها لا أنها عَلِقَتْ بها يوم الرهان عيون

٤٣ وأجل علم البرق فيها أنها مَرَّتْ بجائحتيه وهي ظنون

(١) ديوان ابن هاني* (ص ١٨٢)

(٢) الأغر السيد في قومه .

(٣) التحجيل بياض يكون في قوائم القرس ، وقيل هو أن يكون البياض في ثلاث منهن دون الأخرى في رجل ويدين

(٤) الجيلة بمعنى الطيبة والخلقة والغريزة .

(٥) من الدهمة وهي السواد .

(٦) أليم البحر .

(٧) النفائة البصقة .

(٨) التناء الزبد — ديوان ابن هاني* (ص ٧)

(٩) القيون الحدادون .

ملاحظة : الأرقام التي على يمين الأبيات تشير إلى ترتيبها في قصائدها .

- ٤٤ في النيث شبّه من نذاك كأنما مسحّت على الانواء منك يمينُ
٤٥ أما الغنى فهو الذي أوليتنا فكأن جودك بالخلود رهينُ
٥١ وأذنّ له يُغرق أمية معلناً ما كلُّ مأذون له مأذونُ
٧٦ النور أنت وكلُّ نور ظلمة والقووق أنت وكل فوق دون
٨٣ فارزق عبادك منك فضل شفاعه وأقرب بهم زلفى فانت مكيّن^(١)

وعلى هذا النحو نظم ابن هانيّ مدائح في المعز معليا مآثره مشيدا بأحقية الفاطميين بالخلافة . وقد غلا في ذلك فنسب الى مولاه بعض صفات النبوة والألوهية . وبهذا مهد ابن هانيّ السبيل لمن جاء بعده من الشعراء . يدل على ذلك هذه القصيدة الطويلة التي أنشدها في حضرة المعز ، تنقل منها هذه الأبيات :

- ٣١ هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعله ما كانت الأشياء
٦٨ ولك الجوارى المنشآت مواخرا^(٢) تجرى بأمرك والرياح رضاء^(٣)
٨٦ فَعَنَّتْ لك الأبصارُ واتقادت لك الـ أقدارُ واستجيت لك الأنواء
٩٩ لا تسألن عن الزمان فانه في راحتك يدور حيث تشاء^(٤)

هذا ، ولم يفتر ابن هانيّ عن مواصلة مدحه للمعز ؛ ولكنا رأينا أنه يُفرق فيجعل في منزلة عيسى ومحمد ، بل وينسب اليه بعض صفات الألوهية ، كما يتضح ذلك في قصيدة أخرى حيث يقول :

(١) ديوان ابن هانيّ (ص ٢١١ — ٢١٦)

صدر ناشر ديوان ابن هانيّ هذه القصيدة بمقدمة نقلها فيما يلي :

”وقبل إن هذه القصيدة أول ما أنشده بالقيروان ، وأنه (المعز) أمر له بدست قيمته ستة آلاف دينار ، فقال له : ”يا أمير المؤمنين ! مالي موضع يسع الدست اذا بسط “ ، فأمر له ببناء قصر ، فخرم عليه ستة آلاف دينار ، وحل اليه آلة تشاكل القصر والدست ، قيمتها ثلاثة آلاف دينار“ .

(٢) مقتبسة من القرآن سورة ٥٥ آية ٢٤

(٣) شرحه سورة ٣٧ آية ٣٦

(٤) ديوان ابن هانيّ (ص ٧ — ١١)

- ١٩ ندعوه منتقما عزيزا قادرا غفّار موبقة الذنوب صفوحا
٥٨ أقسمتُ لولا أن دعيتُ خليفةً لدعيتُ من بعد المسيح مسيحا
٥٩ شهدتُ بمفخركُ السمواتُ العلى وتنزل القرآنُ فيك مسيحا^(١)

وفي قصيدة أخرى يصف المعز فيشبهه بحمد ، ويشبه أشياعه بأنصار النبي حيث يقول :

- ١ ما شئتُ لا ما شئتُ الأقدار فاحكمُ فانت الواحدُ القهار
٢ وكأنا أنت النبيُّ محمدُ وكأنا أنصارك الأنصار
٦ هذا الذي تُجدي شفاعته غدا حقا وتحمّد أن تراه النار^(٢)

ولم يفت ابن هاني أن يعلى من شأن الانتصار الذي حازته جيوش المعز على جند البيزنطيين في سورية حيث يقول :

- ١ يوم عريضٌ في الفخار طويل ما تنقضي غررٌ له ومجول
٢٠ لو أبصرتك الرومُ يومئذٍ درتُ أن الإله بما تشاء كفيل
٢١ يا ليت شعري عن مقاولهم اذا سمعتُ بذلك عنك كيف تقول
٢٢ ودوا ودادا أن ذلك لم يكن صدقا وكلُّ تاكلُ مشكول
٢٥ قل للدُّستق مورِ الجمع الذي ما أصدرته له قنا^(٣) ونُصول
٢٦ سل رَهط منويل وأنت غررتَه في أى معركة نوى منويل
٢٧ منع الجنودَ من القفول رواجعا تبّا له بالثنيات قُقول
١٠٣ من يهندي دون المعز خليفةً إن الهدايةً دونها تضليل^(٤)

ومما قاله في عيد النحر يمدح المعز ويذكر هذا العيد :

- ١٩ هذا ابنُ وحى الله تأخذ هديها عنه الملائكُ بكرةً وأصيلا

(١) ديوان ابن هاني (ص ٣٤ — ٣٦)

(٢) شرحه (ص ٩٦)

(٣) القنا الرع

(٤) شرحه (ص ١٤٧ — ١٥٣)

- ٣٠ دَعَرَتْ مَوَاكِبَهُ الْجِبَالَ فَأَعْلَنْتْ هَضْبَاتُهَا التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَا
١٠٨ وَعَلِمَتْ مِنْ مَكْنُونِ سِرِّ اللَّهِ مَا لَمْ يُوْتَ فِي الْمَلَكُوتِ مِثْلًا
١١٢ لَوْ كَانَ آتَى الْخَلْقَ مَا أُوتِيَتْهُ لَمْ يَخْلُقِ التَّشْبِيهَ وَالتَّمثِيلَا^(١)

هذا ، ولقد بلغ تمجيد ابن هانيٍّ للمعز أقصى حد يمكن أن تتصوره ، حيث ينسب إليه القدرة على إتيان المعجزات فيقول :

- ١٤ فَقَدْ شَهِدْتُ لَهُ بِالْمُعْجَزَاتِ كَمَا شَهِدْتُ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالْأَزَلِ^(٢)

ويغلب على ظننا أن ابن هانيٍّ تأثر في عقائده بآراء الفلاسفة اليونان ، وأن كرم المعز أوحى إليه أن يشيد بذكر مآثر الفاطميين ، وأن يأخذ بنصيبه فيما قاموا به في سبيل نشر دعوتهم ، كما يتجلى ذلك في هذين البيتين من قصيدة قد تكون آخر ما نظمه هذا الشاعر ، وقد بعث بها إلى المعز وهو بمصر فيقول :

- ٣١ وَرُوحٌ هَدَى فِي جِسْمٍ نَوْرٌ يُمِدُّهُ شُعَاعٌ مِنَ الْأَعْلَى الَّذِي لَمْ يُجَسِّمْ
٣٢ فَأَقْسَمُ لَوْ لَمْ يَأْخُذِ النَّاسُ وَصْفَهُ عَنْ اللَّهِ لَمْ يُعْقَلْ وَلَمْ يُتَوَهَّمْ^(٣)

(٢) الشعراء في عهد العزيز والحاكم (٣٦٦-٤١١هـ ٩٧٥-١٠٢١م) :

لقد قدمنا لك ما كان من أثر هذه الأموال التي كان يصدقها الوزير ابن كلس والخليفة العزيز على الشعراء ، مما دفع بهم إلى نظم القصائد الرائعة . والآن تأتي بأمثلة قليلة تبين أعمالهم في هذا السبيل :

من هؤلاء أبو عبد الله محمد بن أبي الجرع ، وهو من الشعراء الذين عاشوا في زمن العزيز الفاطمي . ولقد بلغ هذا الشاعر مرة أن الوزير كان يشكو من ألم في يده ، فنظم ابن أبي الجرع

(١) ديوان ابن هانيٍّ (ص ١٥٣-١٦٠)

(٢) شرحه (ص ١٦٤)

(٣) شرحه (ص ١٨٨)

قصيدة يُظهر فيها شديد حزنه لمرض الوزير ، ويصف ما كان لمنح العزيز عليه من أثر . وفي ذلك يقول :

يدُ الوزير هي الدنيا فان أملت	رأيت في كل شيء ذلك الأمل
تأمل الملك وانظر فرط عنته	من أجله واسأل القرطاس والقلم
وشاهد البيض في الأعماد حائمة	إلى العدا ، وكثيرا ما روين دما
وأفقس الناس بالشكوى قد اتصلت	كأنما أشعرت من أجله سقما
هل ينهض المجدُ الا أن يؤيده	ساق تقدم في إنهاضه قدما
لولا العزيز وآراء الوزير معا	تحيقتنا خطوب تُسعب ^(١) الأئمة
فقل لهذا وهذا أنما شرف	لا أوهن الله ركنيه ولا انهدما
كلا كما لم يزل في الصالحات يدا	مبسوطةً ولسانا ناطقا وفا
ولا أصابكما أحداثٌ دهركما	ولا طوى لكما ما عشتما علما
ولا انمحت عنك يا مولاي عافية	فقد محوت بما أوليتني العدا ^(٢)

يضاف الى ذلك ما أورده لنا ابن خلكان^(٣) ، وهو أنه غداة وفاة ابن كلس زار الشعراء قبره ، فرتاه مائة شاعر ، فأجيز كل منهم .

ولم تقتصر هذه المنح على الخلفاء والوزراء ، بل كان لغيرهم من كبار رجال الدولة يد في ذلك أيضا . ومن هؤلاء القائد الفضل بن صالح ، وكان من الأمراء الذين يسرون في ركاب الخليفة العزيز اذا خرج في الموكب . ولقد نظم أبو القاسم عبد الغفار شاعر الحاكم قصيدة يمدح فيها الفضل ، نذكر منها هذه الأبيات :

إنما الفضلُ غُرَّةٌ في وجوه المدائح
أريحي رياحه عبقاتُ الروائح

(١) تشعب بمعنى تصدع .

(٢) المقرئ (خطط ج ٢ ص ٧)

(٣) (ج ٢ ص ٤٤٣)

كعبة الجود كفه بين غاد ورائح

إنما تصلح الأمور ر برأى ابن صالح^(١)

ومع ذلك فإن ما أظهره الوزراء من جود وكرم لم يكن الا صورة مصغرة لهبات الخلفاء أنفسهم ، وعلى الأخص في الصدر الأول من أيام الفاطميين ، حين كانت سطوة الخلفاء لا تزال في أشدها .
يدل ذلك على صحة ما نقول هذه الأبيات التي نوردتها من هذه القصيدة التي أنشدها الشاعر المشهور أبو حامد الأنطاكي^(٢) يمدح فيها العزيز ووزيره ابن كلثوم . ومن هذه الأبيات نقبين أن الوزير كان يستمد نفوذه من نفوذ مولاه وتعضيده :

لم يدع للعزيز في سائر الأثر ض عدوا إلا وأحمد ناره
كل يوم له على نوب الدهر ر وكر الخطوب بالبلل غاره
نويدها شأنها الفرار من البخ ل وفي حومة الندى كزاره
قد أقلت عن العزيز عداه بالعطايا وكثرت أنصاره
هكذا كل فاضل يده ثم مى وتضجى نقاعة ضاراه
فاستجره فليس يأمن الا من تقياً ظلاله واستجاره
واذا مارأيت مطرقا يه حل فيما يريد أفكاره
لم يدع بالذكاء والذهن شيئا في ضمير الغيوب إلا آثاره
لا ، ولا موضعا من الأرض الا كان بالرأى مدركا أقطاره
زاده الله بسطة وكفاه خوفه من زمانه وحذاره^(٣)

(١) الثعالبي ، يتيمة الدهر (ج ١ ص ٣٤٧)

(٢) كان أبو حامد أحد الأنطاكي من أهل أنطاكية بالقرب من مدينة حلب ، وكان من مشهورى الشعراء . وقد تكلم عنه الثعالبي في كتابه "يتيمة الدهر" (ج ١ ص ٢٣٨) فقال : "هو نادرة الزمان وجملة الاحسان وهو أحد المداح المحيدين والشعراء المحسنين ، هو بالشام كان حجاج بالمرق" وذكر ابن خلكان أنه أقام بمصر زمنا طويلا ، وأن معظم شعره قد نظم في مدح أمراءها ورواساتها ، فدلح من الخلفاء الفاطميين المعز والعزيز والحاكم ، وشاد بذكر جوهر وابن كلثوم وغيرهما . وقد ذكره المسجى في كتابه "تاريخ مصر" فقال إن وفاته كانت سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ - ١٠٠٩ م) - ابن خلكان (ج ١ ص ٤٨ - ٤٩)

(٣) الثعالبي ، يتيمة الدهر (ج ١ ص ٢٣٩)

ولم ينقطع تشجيع الخلفاء للشعراء الى آخر أيام خلافتهم . ويحدثنا المقرئ^(١) في عبارة شائقة أوردها في سياق كلامه عن المنظرة التي كانت تطل على بركة الحبش ، التي شيدها الخليفة الأمر فيقول : ” في هذه المنظرة طاقات ، وعليها صور الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده . وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش ، كتب عليها قطعة من شعر الشاعر في المدح . وعلى الجانب الآخر رف لطيف مذهب . فلما دخل الخليفة وقرأ الأشعار ، أمر أن توضع على كل رف صرة مخومة فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده “ .

(٣) الشعراء في عهد الظاهر (٤١١-٤٢٧ هـ ١٠٢٠-١٠٣٥ م) :

هكذا كان تشجيع الشعر والشعراء على يد الفاطميين ، مما دفع بكثير من الشعراء إلى هجرة أوطانهم والاستقرار في مصر رجاء التمتع بسخاء الفاطميين ورجال بلاطهم . ولا غرو فانهم لم يلقوا من تشجيع في بلاط الخلفاء العباسيين في بغداد ، وقد ذهب ما كان لهم من حول وطول . بيد أن بلاط الفاطميين كان يرحب بمن يفد عليه من الشعراء النابيين ، سنيين كانوا أو شيعيين .

فقد كان عبد الوهاب بن نصر المالكي من أهل بغداد ، وكان فقيها مالكيًا مبرزًا ، كما كان أديبا وشاعرا . وقد وصفه أبو بكر البغدادي في كتابه ” تاريخ بغداد “ فقال إنه كان ثقة في الحديث ، وأنه لم يلق من المالكيين أحدا أفقه منه^(٢) . وكان عبد الوهاب هذا من كبار الشعراء الذين تركوا بغداد وارتحلوا الى القاهرة .

ولقد تولى ابن نصر القضاء ببادرايا وبأكساي ، وهما مدينتان تقعان على مقربة من النهروان . وقد روى ياقوت عن ابن بسام ، أنه تولى القضاء أيضا بمدينة إسعرد الواقعة في أرض الجزيرة ، على مقربة من نهر دجلة ، على مسيرة يوم ونصف يوم جنوبي ميفارقين . وخرج في أنحريات أيامه الى مصر بعد أن نبذته بغداد^(٣)

(١) خطط (ج ١ ص ٤٨٦-٤٨٧)

(٢) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٨٢) والكتبي (ج ٢ ص ٢٧).

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، انظر لفظ بغداد .

ويحدثنا ياقوت أنه في اليوم الذي رحل فيه ابن نصر المالكي عن بغداد ، خرج كبار رجالها يودعونه ، فقال هذا الفقيه والشاعر الكبير ، معبرا عما كان يشعر به من ألم الفراق ، إنه ما فارق هذه المدينة "عن كره لها ، بل لأن الأرزاق فيها لم تساعفه" ، ثم ختم كلامه بهذه الكلمات : "لو وجدتُ بين ظهرائكم رغيّفين كل غداة وعشية ، ما عدلت عن بلدكم لبلوغ أمنيّة"^(١)

ولقد أصاب ابن بسّام حيث يقول هذه الكلمات التي تتطوى على غاية الاحتقار : "والخبز يومئذ كل ثلثائة رطل بدينار . وهذا في غاية الذم لهم ، لأنه أراد أن يخبرهم بسقوط (بسقاطة في الأصل) همّهم وخسة نفوسهم"^(٢)

وقد أظهر ابن نصر ما كان يخالج نفسه من حزن لمفارقة بغداد في إحدى قصائده ، وفيها يودع بلده ويشير إلى هذه الأحوال التي أحاطت برحله حيث يقول :

سلامٌ على بغدادَ من كل متلِّ وحقُّ لها مني السلامُ المضاعفُ
فوالله ما فارقتها عن قِلِّ^(٣) لها واني بشطِّي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت عليَّ برُحبا ولم تكن الأرزاقُ فيها تساعف
وكانت نخل كنت أهوى دتوه وأخلاقه تنأى به وتخالِف^(٤)

ويعصف لنا ابن نصر في قصيدة أخرى معيشته في بغداد فيقول :

بغدادُ دارٌ لأهل المال طيبة وللفاليس دار الضنك والضيق
أصبحتُ فيها مُضاعا بين أظهرهم كأنني مصحفٌ في بيت زنديق^(٥)

هكذا كان ما عاناه هذا الفقيه الكبير ، والقاضي والشاعر المشهور ؛ فقد بلغت معاملة الناس له إلى هذا الحد من الإهمال ، حتى هام على وجهه في شوارع حاصمة العباسيين ، حيران لا يلوى على شيء . وقد لحا في النهاية إلى القاهرة حاصمة الخلافة الفاطمية الشيعية واتخذها مقرا ووطنا ثانيا له .

(١) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٨٢)

(٢) ابن الجوزي ، مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات بوكوك ، القسم الشرق ، مخطوط ٣٧٠ ، ورقة ١٦ (أ)

(٣) القلي البض

(٤) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٨٣)

(٥) ياقوت : معجم البلدان ، انظر لفظ بغداد .

رحل ابن نصر إلى مصر^(١) ، واجتاز في طريقه معرة النعمان^(٢) ، وبها يومئذ أبو العلاء المعري ؛ فأضافه عنده ، ثم أشار إلى هذا الحادث في قصيدته إلى خازن دار العلم ببغداد حيث يقول :

والمالكي ابنُ نصرٍ زار في سفر بلادنا فحِمِدنا النأي والسفرا
إذا تفقّه أحياء مالكا جدلا وينشر الملك الضِّلِيلُ^(٣) إن شعرا^(٤)

ولما وصل إلى مصر ، استقبله الناس أحسن استقبال . وقد وصف ذلك ابن خلكان^(٥) في هذه العبارة حيث يقول : ” فحمل لواءها ، وملأ أرضها وسماءها ، واستنيع ساداتها وكبراءها ، وتناهت إليه الغرائب وانثالت في يديه الرغائب “ . وقد زاد هذا الكاتب فذكر أن ذلك كان في خلافة الظاهر سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م) ، وهي نفس السنة التي مات فيها . وذكر لنا ابن خلكان سبب موت ابن نصر فقال : إنه ما كاد يصل مصر حتى مات من أكلة اشتهاها ، وقال وهو على فراش الموت : ” لا إله الا الله ، إذا عشنا متنا ! “ .

(ب) الشعراء في الشطر الأخير من أيام الفاطميين

(٤٦٦—٥٦٧ هـ ١٠٧٣—١١٧١ م)

لقد أمدنا كاتب من الكتاب المعاصرين لهذا العهد ، وهو عماد الدين الأصفهاني^(٦) ، بمادة غزيرة استعنا بها في كتابة هذه الكلمة عن أثر الشعراء في الشطر الأخير من أيام الدولة الفاطمية .

(١) أيد ابن الجوزي (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات بوكوك ، القسم الشرق ، مخطوط ٣٧٠ ، ورقة ١٦ ” أ “) هذا القول ، مستندا إلى ما ذكره ابن عساكر من أن ابن نصر وصل إلى دمشق في طريقه إلى مصر سنة ٤١٩ هـ . ويظهر لنا عدم صحة هذا القول لأن ابن نصر وصل إلى مصر سنة ٤٢٢ هـ قبل وفاته بقليل . وغير محتمل أن يكون قد أقام سنتين في دمشق والمرة ، لأن عبارة ” اجتازا إلى مصر “ تفيد أن إقامته كانت قصيرة الأمد . ” وذكره الحافظ بن عساكر وقال : قدم دمشق سنة تسع عشرة وأربع مائة مجتازا إلى مصر “

(٢) هي مدينة من أعمال حمص ، وتقع بين مدينتي حلب وحماه .

(٣) الملك الضليل لقب لأمرئ القيس الذي عدّه النبي صلى الله عليه وسلم أشعر الشعراء . وقد روى الكنتي (ج ٢ ص ٢٧) هذه الأبيات الأربعة التي ذكرها في كلامه عن ابن نصر .

(٤) أبو العلاء المعري : ديوان سقط الزند (ص ١٣٤)

(٥) ج ١ ص ٣٨٣

(٦) ولد أبو عبد الله محمد بن الرجا ... هبة الله الأصفهاني الملقب عماد الدين بأصبهان سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ؛ وكان فقيها شافعي المذهب ، تفقه بالمدسة النظامية ببغداد وتخرج فيها ، وأتقن المجادلة وفنون الأدب ، واتصل بخدمة الوزير عوّن =

على أن هناك كثيرين من الكتاب المعاصرين غير عماد الدين ، من أمثال عمارة اليميني وأسامة بن مشد ، وكانا يتصلان بغيرهما من شعراء هذا العصر بروابط المودة والصداقة . وقد أمدنا كل منهما بمعلومات عن هذا الموضوع . وكذلك الحال مع ابن ميسر الذي استقى أخباره من بعض الكتاب المعاصرين للفاطميين .

والعصر الذي يتكلم عنه عماد الدين في كتابه يمكن تقسيمه إلى قسمين :

الأول - ويبحث في الشعراء الذين عاشوا في المدة التي تتخلل سنتي ٤٨٦ و ٥٤٩هـ (١٠٩٣ - ١١٥٤ م) ، وذلك في عهد الخلفاء المستعلي ٤٨٧ - ٤٩٥ (١٠٩٤ - ١١٠١) والآخر ٤٩٥ - ٥٢٤ (١١٠١ - ١١٣٠ م) والحافظ ٥٢٤ - ٥٤٤ (١١٣١ - ١١٤٩ م) والظافر ٥٤٤ - ٥٤٩ (١١٤٩ - ١١٥٤) .

الثاني - ويتناول الكلام على الشعراء الذين عاشوا في عهد الخليفين الأخيرين من الخلفاء الفاطميين ، وهما الفائز ٥٤٩ - ٥٥٥ (١١٥٤ - ١١٦٠ م) والعاقد ٥٥٥ - ٥٦٧ (١١٦٠ - ١١٧١ م) .

لقد بينا فيما تقدم أن كثيرين من الشعراء هاجروا إلى مصر رغبة في التمتع بتعاضد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيرهم من كبار رجال الدولة ، وضرربنا لذلك مثلا هذا الشاعر الكبير عبد الوهاب بن نصر المكي . ولقد أمدنا عماد الدين الأصفهاني بفوائد عظيمة عن غير من ذكرنا من الشعراء الذين غادروا بلادهم إلى مصر فاتخذوها دار إقامة .

= الدولة بن هيرة ، فأحسن إليه وقربه وشمله بقطعه . فلما توفي الوزير رحل عماد الدين إلى دمشق ، فوصلها سنة ٥٥٢ هـ (١١٦٥ م) ، وهناك عهد إليه بإدارة البريد . وفي سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، فوض إليه التدريس بالمدرسة في دمشق . فلما توفي نور الدين ذهب إلى الموصل حيث مرض بها مرضا شديدا ، وبقي فيها حتى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) . ولما عاد إلى دمشق ، رحل إلى حلب واتصل بخدمة صلاح الدين ، فخازنته . ولما توفي صلاح الدين عاد إلى دمشق ، وكرس بقية حياته على الأدب حتى توفي سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) .

أنظر ياقوت ، ارشاد الأديب (ج ٨ ص ٨١ - ٩٠) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٩٧ - ١٠٠) ، وأبا القدا (ج ٨ ص ١٠٥)

(١) الشعراء بين سنتي (٤٨٦-٥٤٩ هـ ١٠٩٣-١١٥٤ م) :

نزل مصر أبو الفتيان مفضل بن حسن بن خضر العسقلاني ، فتمتع بما أغدقه عليه الأفضل بن أمير الجيوش من صلوات . ولقد امتدحه ابن خضر في قصيدة تقتطف منها هذه الأبيات :

- ١ أقولُ والنجمُ مرقومٌ بغيرته سطرًا نظرتُ وضوءُ الصبحِ مبتسم
- ٣ أماءُ خديه أضخى في زجاجته يدير أم ماؤها في وجنتيه دم ؟
- ٤ صيغ الصباح ضياءً من مياسمه فاستنبطت حلكا في شعره العثم^(١)

هذا ، وقد اجتذب جود الأفضل وكرمه إلى مصر شاعرا آخر ، هو أبو الحسن علي بن إبراهيم الملقب بابن العَلاني ، من أهل معرة النعمان منبت الشاعر أبي العلاء المعري . أتى ابن العَلاني إلى مصر فحاز تشجيع الأفضل ونعم بما أغدقه عليه من صلوات . يدل على ذلك هذه الأبيات القليلة التي نقلها من قصيدة يمدح فيها ولي احسانه ونعمه حيث يقول :

- ٣ فكهٌ مصرٌ والحجيج وفوده ويمناه ركنُ البيت والنيلُ زمزم
- ٤ وشاكرٌ ما تولى مقررٌ بعجزه ولو أنه في كل عضوله قم^(٢)

وهناك طائفة أخرى من الشعراء الذين وفدوا على مصر ، رجاء الحصول على ما حصل عليه غيرهم من تشجيع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم . ومن بينهم أبو الحسن علي بن جعفر بن البون^(٣) ، وهو من أهل المعرة أيضا . ولقد اعتمد عماد الدين في عبارته على ما ذكره أسامة بن منقذ^(٤) ، وهو أن ابن البون "حازنقة الأفضل وقال حظوته ، وأنه أفاض عليه من سحائب إحسانه ، وأدر عليه حلوبة إنعامه ، ولقبه بأمين الملك واستخلصه" .

(١) عماد الدين الأصفهاني ، المكتبة الملكية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١٨١ (ب) .

(٢) شرحه ورقة ١٣٣ (ب)

(٣) ذكر أسامة بن منقذ (Derenbourg, Vie d'Ousama, p. 504) اسم ابن البون فقال : ان جده سديد الملك أبا الحسن علي بن مقلد اتخذ كاتباً له . وزاد على ذلك أنه تقابل معه في بيت أبيه ببغداد ، فلم يعرفه أبوه لكبر سنه . لكنه لما سمع اسمه عرفه واحتفى به وقال له : أنت الشاعر النحوي الكاتب ؟

(٤) لم يذكر أسامة شيئا عن ذلك في كتبه . ونحن نظن أن عماد الدين دون هذه العبارة بعد أن التقى بأسامة في سورية أو في غيرها من البلاد .

ويحسن بنا أن ننقل هنا بضعة أبيات من قصيدة يمدح فيها الأفضل :

يا مَنْ تنافس فيه السَّمْعُ والبصرُ كما تغاير فيه الشمس والقمر
ومن نَحَكَّم في الأرواح فاحتكت ألا يحكم فيها بعده بشر^(١)

وقد أمدنا أيضا عماد الدين بمعلومات نافعة عن أبي الحسن علي بن محمد الأخفش ، وهو شاعر من أشراف المغاربة ، أجاد في مدح الخليفين الأمر والحافظ وغلا في تمجيد الفاطميين وإعلاء شأنهم . يدل على صحة ذلك هذا البيت الذي نقله من قصيدة يمدح فيها الخليفة الأمر :

إلى ذروة النور العلاني^(٢) إنه إلى ذروة النور الإلهي يُنسب^(٣)

وقال هذا الشاعر في قصيدة أخرى يمدح فيها الخليفة الحافظ :

بَشَّرَ في العين إلا أنه من طريق العقل نورٌ وهدى
جَلَّ أن تدركه أعيننا وتعالى أن تراه جسدا^(٤)

هذا كان حال الشعراء الذين وفدوا على مصر في ذلك العصر . أما غيرهم من الشعراء المصريين الذين رحلوا عن بلادهم ، فانهم لم يلقوا ما لقيه هؤلاء من رعاية وتقدير في عاصمة العباسيين . وجعفر ابن أبي زَيْد مثال صالح لما ذكرنا ؛ فقد عبر عما خالج ضميره من أسى بعد مغادرته مصر إلى بغداد في قصيدة نذكر منها هذين البيتين :

وما قصْدُنَا بغدادَ شوقاً لأهلها ولا خفيت مذْقَطُ أبصارنا عنا؟
ولا أتنا آخترنا على مصرَ بلدةً سواها ، ولكنَّ المقادير ساقتنا^(٥)

وقد يتبين مبلغ جود الخلفاء الفاطميين وكرمهم من هذين البيتين اللذين نظمهما أبو العباس أحمد بن مفرّج ، أحد الشعراء الذين عاشوا في عهد الخليفة الحافظ ، الذي أمر الشعراء أن يختصروا قصائدهم إذ يقول :

(١) عماد الدين الأصفهاني شرحه ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٤٣ (١)

(٢) ذكر هذا اللفظ في المخطوط ” العلاني ” . ويظهر أنه نسخ خطأ بدل لفظ العلاني .

(٣) شرحه ، ورقة ١١٨ (١)

(٤) شرحه ، ورقة ١٤٢ (١)

(٥) شرحه ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ (١)

أمرت أن نصوغ المدح مختصرا لم لا أمرت ندا كفيك يختصر؟
والله لا بد أن تجرى سوابقنا حتى يبين لها في مدحك الأثر^(١)

والآن نسوق اليك مثلاً آخر من الشعراء الفاطميين الذين كان لهم أثر عظيم في نشر العقائد الفاطمية ؛
مثل أبي الحسن بن الزُّبَيْد^(٢) الذي وصفه عماد الدين ، نقلاً عن القاضي الفاضل ، فقال :
” وإنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله “ . وقد قال يهنئ الخليفة الحافظ بالانتصار على الصليبيين :
” الحمد لله الذي فضّل دولة أمير المؤمنين على سائر الدول ... وجعل أيامه واضحة المجول والغرر ،
مخصوصة بالفتوح والظفر ، يخفي النصر على بنوده ، وتسير السعادة أمام جنوده ، نسأل الله أن يجعل
الأرض قبضة يده ، والأفلاك الجارية من أعوانه وعدده “^(٣) .

ولم تقتصر مدائح ابن الزبد على الخلفاء الفاطميين وحدهم ، بل تعدتهم إلى غيرهم من الوزراء
وبكار رجال الدولة ، فتراه يمدح الأفضل في قصيدة يقول فيها :

خلع الزمان على حلة مَـفـخـر شرفاً بمدح الأفضل المفضل
يلقي المدائح بالمنائح واهبا ويصدق الأقوال بالأفعال^(٤)

ويمدح ابن الزبد هذا الوزير في قصيدة أخرى فيقول :

لولا وجودك في الزمان وجودك لا محيي المكارم بعد بُـد وفاتها
لم يُعرف المعروف في الدنيا ولو طفنا عليه في جميع جهاتها^(٥)

وقد ذكر عمارة^(٦) ابن الزبد عند كلامه عن الكتاب في عهد الوزير ابن رزيك ،
فوصفه بأنه كان من رجال الدولة الذين نالوا حظوة لدى الوزير ، وأنه كان يتردد عليه ؛ وزاد أنه
كان فاطمياً مغالياً . وقد بلغ من وفائه لبني رزيك أن خاطر بحياته في الدفاع عن هذا الوزير ،
وقاتل عنه أشد قتال ، ولم يزل يضرب بسيفه حتى انقطع من وسطه . وهنا ألقى بنفسه على الوزير
ووقاه من ضربات التي أنهالت عليه ، وبذلك هيا السبيل لنجاة الوزير .

(١) عماد الدين الأصفهاني ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١٠٨ (ب)

(٢) أطلق عليه عماد الدين (مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ “ب”) اسم أبي علي حسن بن زُبَيْد . وخالفه في ذلك
عمارة البني (ص ٣٥) حيث أطلق عليه علي بن الزبد ، وسماه في مكان آخر (ص ١٤٤) المكرم علي بن الزبد .

(٣) شرحه ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ (ب)

(٤) شرحه ، ورقة ١١٨ (ب)

(٥) شرحه ، ورقة ١٢١ (ب) .

(٦) (ص ٣٥ و ١٤٤ و ١٤٥)

فليس من عجب إذا ارتفعت مرتبة ابن الزبد وعلت منزلته في عين الوزير، فأمر الشعراء أن ينظموا القصائد في مدحه^(١). ولقد أشار عمارة اليمنى الى ذلك في بعض قصائده حيث يقول :

أوجبت في ذمة الأشعار والخطب دينا أبا حسنٍ يبقَى على الحقب
أيامك البيض لا تُحصى ، وأفضاها يومٌ خُصصت به في قاعة الذهب
وفيت للصالح الهادي وقد غدرت به الصنائع من ناء ومقرب^(٢)

وبالرغم مما قام به ابن الزبد في سبيل نشر الدعوة الفاطمية ، فقد ختمت حياته بمأساة محزنة . فقد روى عماد الدين عن القاضي الفاضل ، أن رجلا يدعى ابن قادوس^(٣) نظم بيتين من الشعر هجا فيهما الحسن بن الخليفة الحافظ ، ثم دسهما ضمن أوراق لابن الزبد وسعى به الى الحسن فأمر به قتل^(٤).

ولقد أتى عماد الدين بعبارة أخرى رواها عن علي بن عباد^(٥) ، وهو من أهل الاسكندرية ، وكان شاعرا نابها ، نال في بلاط الحافظ الفاطمي حظوة كبيرة . ولما اعتقل أبو علي بن الوزير الأفضل الخليفة الحافظ ، نظم ابن عباد قصيدة ينهى فيها الوزير وفيها يقول :

تبسم الدهر لكن بعد تعيس وقوض الدهر لكن بعد تعريس
إذا دعونا بأن تبقِ لأنفسنا دعاؤنا : فابق يا ابن السادة السوس
وقد أعاد إليه الله خاتمَه فاسترجع الملك من صخر بن ابليس^(٦)

(١) عمارة اليمنى ، التكت المصرية (ص ٦٣ — ٦٥ و ٤٦ و ٤٨ و ٥٠ — ٥٣ و ١٤٦ و ١٤٧)

(٢) شرحه (ص ١٤٦)

(٣) ذكر عمارة (ص ٣٥) أبا الفتح محمد بن قادوس في سياق كلامه على رجال الأدب الذين اتصل بهم في مصر ، فوصفه بأنه من مشهورى شراء هذا العصر . ويسميه ابن ميسر (ص ٩٧) القاضي المفضل أبا الفتح محمود بن قادوس ، ويذكر أنه توفي في ٧ المحرم سنة ٥٥٣

(٤) عماد الدين الاصفهاني ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١١٠ (ب).

(٥) اللفظ الذي جاء في المخطوط هو ابن عباد . ومع ذلك فقد ذكر هذا اللفظ ثلاث مرات : عبادة وعباد وعباد . وواضح أن اللفظ الأخير خطأ ، اذ لا يسمى به غير القبط . أما لفظ عباد فهو الصحيح (مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ٩٧ (ب) وما يتبعها) . انظر ابن ميسر (ص ٨١)

(٦) هو اسم الجن الذي أخذ الخاتم من سليمان بن داود ، الذي يوازن هذا الشاعر في قصيدته بينه وبين الوزير . (انظر تفسير الجلالين — طبعة القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ ، ج ٢ ص ١٣٨) . وهذه الأبيات عبارة عن مقارعة بين الوزير الأفضل وسليمان الذي فقد خاتمَه وملكه ، ولكنه استرده بعد أربعين يوما (انظر الباب الثامن من هذا الكتاب) .

(٧) شرحه ، ورقة ٩٨ (أ) . =

وهذا البيت الذى هجا فيه ابن عباد الخليفة كان سببا فى قتله بعد أن أطلق الخليفة من اعتقاله ، واسترجع ملكه بعد وفاة هذا الوزير .

ولم تقتصر مدائح الشعراء على الخلفاء الفاطميين ووزرائهم ؛ فقد كان لغير هؤلاء من كبار رجال الدولة نصيب وافر من مدائح هؤلاء الشعراء الذين طمعوا فى صلاتهم . ومن الأدلة على هذا أبو الفضل جعفر بن المفضل الملقب بالمهذب ، وكانت معظم قصائده فى مدح الوزير الأفضل . وقد بين لنا عماد الدين ما كان بين المهذب ووالى الاسكندرية من علاقات ، ويقول إن أحد الحاضرين سأل المهذب أن ينظم شعرا يصف فيه خاتم الأمير وقد ضاق عن خنصره ، فقال مرتجلا :

قَصَّرْ فى أوصافك العالمُ فاعترف الناصر والناظم
من يكن البحرُ له راحةً يضيق عن خنصره الخاتم^(١)

فأمر له الأمير بعتاء فأخذه ، فسئل أن يصف غزالا قد استأنس فى حجر الأمير ، فأنشد على الفور :

عجبتُ لجرأة هذا الغزال وأمرٍ تخطى له واعتمدُ
وأعجبُ به إذ بدا جاثيا فكيف اطمان وأنت الأسد^(٢)

فأمر له الأمير بعتاء آخر ، فسأله الرجل ممتحنا أن ينظم فى هذه الشبكة المسدولة على هذه الدار فقال :

رأيتُ بياك هذا المتيف شبا كافأدركنى بعضُ شك
وفكرتُ فيما جرى لى فقلت مكانَ البحار يكون الشبك

فقال الأمير لمتحنه : دعه وإلا أخذ ما على !^(٣) .

= ذكر ابن ميسر (ص ٨١) الشطر الأول من البيت الأول ، وذكر البيت الرابع كما يلى :

هذا سليمانكم قد رد خاتميه واسترجع الملك من صخر بن ابليس

وزاد ابن ميسر على ذلك أن عبدا لما أنشد البيت الرابع فى حضرة الوزير ، قام القاضى عبد الله محمد بن ميسر طربا لهذا البيت ، فكان ذلك سببا لصرفه عن القضاء وقتله بعد أن أطلق الخليفة من اعتقاله .

(١) عماد الدين الأصفهاني ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٨٧ (ب) .

(٢) شرحه ، ورقة ٨٧ (ب) .

(٣) » ، » ٨٧ (ب) .

وهكذا كان كرم الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وقادة عصرهم . فلا ندهش اننا غلا بعض هؤلاء الشعراء في مدحهم ، حتى أدى بهم ذلك الى الإلحاد والمروق عن الدين . وكان عماد الدين — كما بينا — سنيا ، يرى أن الشعر الذي يتعرض لهذه المسائل يؤدي بصاحبه الى الخروج عن الدين . لذلك لا نجد في هذا الكتاب القيم الذي خلفه لنا عماد الدين ، إلا أمثلة قليلة من هذه القصائد التي نظمها غلاة شعراء الفاطميين .

هذا ، وكان ابن الضيف ، وهو من شعراء الفاطميين الذين عاشوا في عهد الخليفة الأمر ، ملحدا في نظر عماد الدين ، الذي أبى أن يودع كتابه بعض القصائد التي نظمت في مدح الفاطميين ، معللا ذلك بهذه الكلمات :

” ابن الضيف كلن من دعاة الأدعياء ، المغالين لهم في الولاء . وكان في حدود سنة خمسماية في عهد أمرهم . وله فيه مدائح كثيرة ... وكنت عازما على حطه ، لأنه أساء شرعا وإن أحسن شعرا ، بل أظهر فيه كفرا ... لكنني لم أر أن أترك كتابي منه صفرا ؛ لأن البحر الزانح يركبه المؤمن والكافر ، ويقصده البر والفاجر “ (١) .

(٢) الشعراء بين سنتي (٥٤٩-٥٦٧ هـ ١١٥٤-١١٧١ م) :

والمهذب أبو محمد الحسن بن علي بن الزبير^(٢) ، الذي وصفه عماد الدين بقوله : ” ولم يكن في زمانه أشعر منه “ (٣) ، مثل بين للشعراء الذين جذبهم تعصيد الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وغيروهم من علية القوم ، آمليين في نيل عطاياهم والتمتع بصلاتهم .

(١) عماد الدين الاصفهاني ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٥٢ ب وما يتبعها .

(٢) ذكر عمارة (ج ١ ص ٨٦ و ٩٦ و ١٨٤ و ٢٦٨) و (ج ٢ ص ٥١٤ و ٥٥٥ و ٥٧٣ و ٦٠٠ و ٦٠٢ و ٦٣٦ و ٦٣٧) الرشيد بن الزبير وولديه أحمد والحسن . ووصف ولديه (ج ١ ص ١٨٤) بأنهما شاعران ناهبان ، عاشا في زمن الوزير الصالح بن رزيك . وفي إحدى قصائده (ج ١ ص ١٨٤) يمدح عمارة أحد هذين الشاعرين (البيت الأخير من هذه الصفحة هو في مدح الحسن) . ويقول في ” النكت المصرية “ (ص ٣٥) إن الحسن كان من مشهورى شعراء هذا العصر ، ممن كانوا يحضرون مجلس الوزير ابن رزيك . وقد سماه عمارة المهذب في موضع آخر (ص ٤١٥) .

وقد اقتصر أسامة بن منقذ (سيرة أسامة (ص ١٨ حاشية ٢) و (ص ٢٠٧ و ٢٨٩ حاشية ٦) و (ص ٤١٩ و ٥٣٢ و ٦٢١) وعماد الدين (المكتبة الأهلية بباريس مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ٣٥ ب) وابن ميسر (ص ٩٥) وابن خلكان (ج ١ ص ٦٣) على ذكر ابن الحسين الملقب بالقاضي الرشيد أحمد بن الزبير .

وقد أورد لنا الكنتي (ج ١ ص ١٥٩ — ١٦١) نبذة عن الحسن بن علي بن الزبير ، وقال انه اتصل بالوزير ابن رزيك ، فاستفاد كثيرا من وراء اتصاله به (شرحه ص ١٥٩) .

(٣) عماد الدين الاصفهاني ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٣٧ ب) .

وإليك ما قاله في قصيدة طويلة يخاطب بها الوزير الصالح طلائع بن رزيك ويصفه بأنه بطل من أبطال المسلمين حيث يقول :

أفارسَ المسلمين اسمعْ ، فلا سمعتْ عدالك غيرَ صليل البيض في القليل
مقال ناءٍ غريب الدار قد عدم الـ أنصار ، لولاك لم يسمع ولم يقل
يشكو مصائب أيام قد اتسعت فضايق منها عليه أوسع السبل
وكيف ألقى من الأيام مُرزية حلّت ولي من بني رزيك كلُّ ولي^(١)

هذا من جهة الوزراء . أما من جهة الخلفاء الفاطميين ، فإن الشعراء كانوا يدركون ما بينهم وبين وزرائهم من تباين في الرتبة ؛ يدل عليه ما قاله هذا الشاعر في إحدى قصائده يمدح فيها رضوان ابن الوخشي حيث يقول :

ما كان بعدَ أمير المؤمنين قتيٍّ فيه الشجاعةُ إلا أنت والنبل^(٢)

ويمدح ابن الوزير هذا الوزير في البيت الآتي مترنماً بمجوده وكرمه حيث يقول :

لا يرتضى في الجود سبق سؤال من يرجوه حتى يسبق الآمالا

وإن هذا البيت الذي نرويه لابن الوزير ، ليدلنا على مبلغ ما كان يلقاه الشعراء في مصر من حفاوة وإكرام .

حيثُ اغتربتُ فلي من عقتي وطنٍ آوى اليه وأهلٌ من ذوى الأدب^(٣)

وقد شاد بعض الشعراء بذكر الفاطميين وأنصارهم ، وهم في بلادهم لم يفتدوا إلى مصر في وقت من الأوقات . ومن بين هؤلاء المهذب بن أسعد . وكان من أهل الموصل ، ثم اشتغل بالتدريس في مدرسة حمص . وقد كان من الفقهاء الأعلام ومن الشعراء النابيين . استمع الأصفهاني لشعره عند ما لقيه بمحصر سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧-١١٦٨ م) . وهو مثل ي لهؤلاء الشعراء الذين بعثوا بقصائدهم رغبة في عطاء الوزراء ونوالهم .

(١) عماد الدين الاصفهاني ، مخطوط ٣٣٢٨ شرحه ، ٣٩ (١)

(٢) شرحه ، ٤٢ (١)

(٣) شرحه ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٧٧ (ب) .

وقد قال عماد الدين إن ابن أسعد نفسه أنشده في سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ — ١١٧٠ م) قصيدة يمدح فيها الوزير ابن رزيك ، وكان قد نظمها وبعث بها إليه ، فأنته من هذا الوزير جائزة سنية . ومن هذه القصيدة الأبيات الآتية :

٩ هادى الدعاة أبو الغارات خيرُ قتي أدنى عطياته أدنى أمانيكَا

١٤ يشكو اليك بنو الآمال فقرهم فيثنتون ويدُّ المال يشكوكَا

١٥ يخافك الملكُ ناءٍ عنك منزله ويُقترُّ المرءُ عن بعيدٍ فيرجوكَا

٣٠ من أرتجى يا كريم الدهر تتعشنى جدواه فخاب سعي في رجايكَا ؟

٣١ أأمدحُ التركُ أبغى الخيرِ عندهم والشعر ما زال عند الترك متروكَا ؟^(١)

ولما دالت الدولة الفاطمية وغدا الأيوبيون أصحاب النفوذ في مصر ، نظم ابن أسعد قصائده في مدح نور الدين وصلاح الدين . ولقد زاد عماد الدين أن صلاح الدين لما رحل عن مصر الى بلاد الشام سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) وعسكر بظاهر حمص ، قصده ابن أسعد ومدحه . وكان القاضي الفاضل لا يزال يذكر هذا البيت الذي نظمه ابن أسعد عن الترك (سطر ٣١) ، فأنتشه صلاح الدين وقال له : " فعجل جائزته لتكذيب قوله وتصديق ظنه " ، فأجابه الى ذلك صلاح الدين^(٢) .

ولقد ساعد ما بذله الفاطميون من عطاء وما أغدقوه من صلوات على زيادة أنصارهم وأشياعهم . ولا غرو فان هذا الاطراء الذي صاغه قلم شاعر نابه كابن أسعد في مدح الفاطميين ، قد اشتهر أمره وذاع خبره في كافة الأقطار الاسلامية . ويتبين لنا ما كان من إغداق الفاطميين الهبات على الشعراء من هذا البيت الذي نظمه ابن أسعد^(٣) يعبر فيه عن أمنيته في العودة الى وطنه — الموصل — ويذكر أن تحقيق هذه الأمنية يتوقف على جود ابن رزيك وكرمه :

ثقي بلإياي عن قريب فأننى يجود ابن رزيك على القرب وأنثى^(٤)

(١) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٧٧ (ب) — ١٧٨ (ب)

(٢) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٧٨ (ب)

(٣) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٢٩٨ — ٢٩٩) المهذب عبد الله بن أسعد ، وهو من أهل الموصل وتولى حمص ، في العبارة التي أوردها عن الوزير ابن رزيك .

(٤) عماد الدين ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٨١ (ب) .

ولم يكن لهذا الجود الذى أظهره الفاطميون إلا غرض واحد ، هو تعظيم خلافتهم وإكبارهم سلطان دولتهم . وكان ذلك هو الغرض الذى كانت ترمى إليه أعمالهم .

ولقد عرف الوزير ابن رزيك ما للشعراء من أثر . فكان يؤثر هؤلاء الشعراء على نفسه ويترلم منزلة أصدقائه . ولا غرو فقد كان بعض وزراء الفاطميين شعراء (بطبيعتهم) . فكان طبعيا أن ينصروا الشعر والشعراء ، بدليل ما كان هنالك من روابط بين ابن رزيك وهذا الفقيه والشاعر المشهور ، وهو نصر بن عبد الرحمن ، وكان من أهل الاسكندرية ، وقد لقيه عماد الدين في بغداد سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ — ١١٦٥ م) . وقد أورد لنا عماد الدين قصيدة نظمها ابن رزيك ، يرد بها على قصيدة أخرى يمدح فيها هذا الشاعر . وفيها يقول الوزير :

أهدى لي القاضي الفقيه عرايسا	فيه بديع الوشى من تميقة
فأجلك طرفي في بديع رياضه	من ورده وبهاره وشقيقه
فكأنما اجتمع الأجنة فأنبرث	يد عاشق تهوى الى معشوقه
ترهت في بستان نظمك ناظري	فخطبت من زهر الربا بأنيقه
وأنا أرى تقديم حاجة صاحبي	من دون حاجاتي أقل حقوقه
وكذا الكريم فهمل لحقوقه	لامهمل أبدا حقوق صديقه ^(١)

ولم تقتصر جميع قصائد ابن نصر على امتداح الوزير ، فقد خص بعضها بالاشادة بذكر الخلفاء الفاطميين . بيد أننا ، لسوء الحظ ، نرى عماد الدين لم يضرب لنا أمثلة مما قاله هذا الشاعر في مدح الخلفاء . ويحتمل أن يكون ذلك لما كان من غلو هذا الشاعر في تعظيم الفاطميين والاشادة بذكورهم ، كما يتجلى ذلك من وصف عماد الدين الأصفهاني لابن نصر حيث يقول : ” وما أكله ، لولا أنه من مداح المصرى والله له غافر ! “^(٢) .

ولقد روى لنا عماد الدين بضعة أبيات نظمها أحد الشعراء ، وقد اتصل به أن رجلا من أنصار الشعراء بعث إليه مع رسول بنصف دينار فلم يوصله إليه :

(١) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٦٩ (١)

(٢) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ٥٩ (١)

أنا نصف دينار سماعاً فهمنا له في نصف شكر
وهذا ممسك لوصول هذا فتوصل مثله قدرا بقدر
ولو زدتم على الأحسان زدنا وأحسننا لواحدة بعشر^(١)

ولقد أمدنا أبو محمد هبة الله بن علي بن عرام السديدي^(٢) بمثل آخر لشاعر عبر عن استيائه
وسخطه ، وقد خابت آماله في اكتساب جائزة رجل من أنصار الشعر بعد أن مدحه على غير جدوى
فقال :

أتعبتُ نفسي وفكري في مدح قوم لئام
وغرني حسنُ بشر منهم وطيبُ كلام
فأحصلتُ لديهم إلا على الإعدام
ولو جعلتُ قريضي مراثيا في الكرام
لحزتُ ذكرا جميلا يبقى على الأيام^(٣)

ويقول ابن عرام من قصيدة أخرى يمدح فيها الوزير رضوان بن الوخشي ويشيد في بعض أبياتها
بذكر الأسرة الحاكمة ويصفها بأنها عامل قوى من عوامل تمكين قوة الاسلام فيقول :
جددت بعد دروسه الإسلاماً ومحوته عنه الظلم والإظلاما
وطويت رايات الضلال مجاهداً ونشرت في غر الهدى أعلاما^(٤)

(١) عماد الدين الأصفهاني ، المكتبة الأهلية ياريس ، مخطوط ٣٣٢٨ ورقة ١٤٢ (ب) - وقد زاد هذا
الكاتب أن هذا الشاعر عاش في أيام الوزير ابن رزيك (شرحه ورقة ١٤٣ "أ") .

(٢) نقل عماد الدين الأصفهاني (شرحه ، ورقة ١٧٦ "ب") عن قاضي اسوان الذي أهدى إليه ابن عرام ديوانه ،
فنقل عنه عبارة التي يصف فيها هذا الشاعر . وقد مات ابن عرام سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) ؛ ووصفه الأصفهاني بأنه كان
شاعرا نابها .

(٣) شرحه ، مخطوط ٣٣٢٨ ، ورقة ١٧٦ (ب) .

(٤) شرحه ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ١٨١ (ب) .

عمارة اليمن^(١) :

لقد كان لنفوذ الخلفاء الفاطميين الأدبي ، ذلك النفوذ الذي عملوا على تأييده بعطفهم على الشعراء وتشجيعهم رجال الأدب ، أثر عظيم في نفس عمارة اليمن ، حتى أصبح من أنصارهم ومن الشعراء الممثلين لهم . وكان عمارة هذا شاعرا سنيا شافيا المذهب ؛ ظهرت له أعمال عظيمة في تاريخ الخلافة الفاطمية . ولكنه قتل في آخر أمره لاشتراكه في المؤامرة التي قامت لتقويض سلطان الأيوبيين .

وهو من الأمثلة الواضحة على تعلق الفاطميين بالشعراء والاستفادة من شعرهم . ويحسن بنا أن ننقل بعض أبيات من أولى قصائده ، وقد أنشدتها في قاعة الذهب في قصر الخلفاء الفاطميين :

- | | | |
|----|------------------------------|------------------------------|
| ١ | الحمد للعيس بعد العزم والهنم | حمدا يقوم بما أولت من النعم |
| ٣ | قرّين بعد مزار العز من نظري | حتى رأيتُ إمام العصر من أم |
| ٤ | ورحن من كعبنة البطء والحرم | وفدا الى كعبة المعروف والكرم |
| ٦ | حيث الخلافة مضروب سراقها | بين التقيضين من عفوي ومن تقم |
| ٧ | والامامة أنوار مقدسة | تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم |
| ٨ | وللنبوة آيات تنص لنا | على الحقيقين من حكم ومن حكم |
| ٩ | واللكارم أعلام تعلمنا | مدح الجزيلين من بأس ومن كرم |
| ١٠ | واللعللى السن تلتى محامدها | على الحميدين من فعل ومن شيم |

(١) لقد خلف لنا عمارة بن أبي الحسن الحكيم نجم الدين أبو محمد سيرته ، وكان من أهل تهامة باليمن (التكت المصرية ص ٨٧) . وفي سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ - ١١٥٥ م) حج الى مكة ، وبعث به القاسم بن فليته أمير مكة رسولا من قبله الى مصر ، فدخلها في غرة ربيع الأول سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) ؛ فلقاه الخليفة الفائز ووزيره الصالح طلائع بن رزيق بالعطف والقبول على أثر انشاده أولى مدائحه في قاعة الذهب بالقصر . وقد أقام في مصر الى شوال سنة ٥٥٠ هـ (شرحه ص ٣٢ - ٤١٠) . ثم عاد الى مكة ، ومنها ألقاه أميرها بمهمة أخرى في صفر سنة ٥٥١ هـ (أبريل سنة ١١٥٦) (ص ٤٢) . ومن ثم أقام في القاهرة وصار من مشاهير شعراء البلاط في عهد الخليفين الفائز والعاقد ، آخر خلفاء الفاطميين . وقد شئت في اليوم الثاني من شهر رمضان سنة ٥٦٩ هـ (أبريل سنة ١١٧٤) .

أنظر أيضا عماد الدين الأصفهاني ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٣٣٢٩ ، ورقة ٢٥٧ (أ) وما يتبعها ، وعمارة اليمن (ج ١ ص ٣٩٥ و ٣٩٦) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٤٧٥ - ٤٧٧) وابن دقاق (ج ٥ ص ٩٣ - ٩٤) .

- ١٢ أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا فوز النجاة وأجر البر في القسَم
١٣ لقد حمى الدين والدنيا وأهلها وزيره الصالح الفراج للنعم
١٤ اللابس الفخر لم تنسج غلائله إلا يد الصائعين السيِّف والقلم
١٥ وجوده أوجد الأيام ما اقترحت وجوده أعدم الشاكين للعدم
١٦ قد ملكته العوالي رِقَّ مملكة تُعير أنف الثريا عزة الشم
١٧ أرى مقاما عظيم الشأن أوهنى في يقظتي أنها من جملة الحلم
١٩ ليت الكواكب تدنولى فانظّمها عقود مدح فما أرضى لكم كلى
٢٠ ترى الوزارة فيه وهى باذلة عند الخلافة نصحا غير متهم
٢٢ خليفة ووزير مد عدلها ظلا على مفرق الإسلام والأثم
٢٣ زيادة النيل نقص عند فيضها فاعسى يتعاطى منة الديم^(١)

ولقد ذهب الخليفة الفائز ووزيره في استحسان هذه القصيدة كل مذهب ، كما يحدثنا بذلك عمارة نغمه ، حيث يقول إنه بعد أن أنشد قصيدته خلعت عليه الخلع الموشحة بالذهب ، ودفع اليه الوزير خمسمائة دينار ، وأتته مثلها من السيدة أخت الخليفة . يضاف الى ذلك هذه الرسوم التي أطلقت له من دار الضيافة في مناسبات كثيرة مما لم يطلق لأحد قبله ، وما كان أيضا من الولايم التي أقامها أمراء الدولة في بيوتهم تكريما له ، ومن نظمه في سلك جلساء الوزير ، يدل عليه ما ذكره عمارة وهو : ” فأوسعى إكرامهما توقيرا وإنعامهما توفيرا “^(٢) .

بقى عمارة في مصر يبحر في مجبوحة الرفاهة والمجد . وقبل رحيله بزمان قصير ، أنشد قصيدة يودع فيها الخليفة ووزيره ، فنقحه الخليفة وأخته ألف دينار ، ومنحه الوزير ابن رزيك مائتي دينار لقصيدة أخرى أنشدها له في داره . كما كان لتدخل هذا الوزير أثر في إعفاء عمارة من دفع ثلاثة آلاف دينار كانت عنده لداعى اليمن السابق وقد مات ، فأشير على ولده ووريثه أن يعدل عن دعواه في المطالبة بها . ويحدثنا عمارة عن هذه المسألة فيقول : ” فلما وقف عليه (كتاب الوزير اليه) صاحب عدن ، أسقط عني الآلاف الثلاثة وأبرأني منها “^(٣) .

(١) التكت المصرية ، (ص ٣٢ — ٣٤)

(٢) ، (ص ٣٧)

(٣) ، (ص ٣٨ و ٤٠)

ولما مات ابن رزيك آلت الوزارة الى شاور^(١) ، فتقلد أعباءها تسعة أشهر^(٢) . فقرب هذا الوزير عمارة اليه ، وأولاه رعايته وضمه إلى جماعته ؛ فصار يتردد على داره ويجلس الى مائدته مرتين في كل يوم ، ونال الخير الكثير على يديه .

ولقد أحصى لنا عمارة هبات الوزير ابن رزيك^(٣) وذوى قرياه وغيرهم من الأمراء ، وختم هذا الشاعر قوله بهذه الكلمات : ” ذكر الله أيامهم بحمد لا يكلُّ نشاطه ولا يطوى بساطه ، فقد وجدت فقدهم وهنت بعدهم “^(٤) .

ولما عاد عمارة الى مصر في شوال سنة ٥٥٠ (ديسمبر سنة ١١٥٦) ، أحسن اليه الوزير الصالح بن رزيك وبنوه وأهله كل الاحسان ، وصحبوه لما امتاز به من حسن الصحبة وسمو المواهب ، بالرغم من اختلافه عنهم في العقائد المذهبية^(٥) .

ولقد أبى عمارة اعتناق عقائد الفاطميين ، وأشار الى ذلك في ديوانه بأبيات خاطب بها الوزير الذي ألح عليه في التحول الى المذهب الشيعي ، ومنحه ثلاثة آلاف دينار ، ووعد أن يزيد في إغداقه عليه إن هو أجاب الى ما طلبه منه . ولكن عمارة لم يكن بالرجل الذي تنفع معه الحيلة . فرفض في شيء من الحصافة ، ولم يتأثر بنصح الوزير^(٦) . ويشير عمارة الى هذا الاختلاف في العقيدة الذي كان بينه وبين الفاطميين في هذا البيت :

مذاهبيهم في الجود مذهبٌ سُنَّةٍ . وإنْ خالفوني في اعتقاد التشيع^(٧)

ولما مات ابن رزيك في ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ (سبتمبر سنة ١١٦١) ، أصبح حزن عمارة على وفاته مثارا لنظم أشعاره ، وظل على ولائه للفاطميين حتى بعد أن زال سلطانهم وسقطت دولتهم . وقد نظم في هذا الحادث قصيدة طويلة تناقلها عنه الكتاب ، من أمثال ابن واصل

(١) التكت المصرية ، (ص ٦٨)

(٢) » ، (ص ٧٣)

(٣) » ، (ص ٩٣ — ١٢٠)

(٤) » ، (ص ١٢٠)

(٥) ابن خلكان (ج ١ ص ٤٧٦)

(٦) التكت (ص ٤٥)

(٧) ديوان عمارة (ص ٢٨٨ و ٤٩٣)

والقلقشندى والمقرىزى . ولقد نظم عمارة شعرا كثيرا فى الإشادة بذكر صلاح الدين وغيره من أهل بيته . ولكن إخلاص هذا الرجل للفاطمين أقصاه عن عطف هذه الدولة الجديدة . ونستطيع أن نقف على مبلغ ما لحقه من بؤس وشقاء من هذه القصيدة التى وجه بها الى صلاح الدين ، وعنوانها : ” شكايه المتظلم ونكايه المتألم “ (١) .

ولا غرو فان تحيز عمارة للفاطمين قد جلب عليه كراهة الأيوبيين ، وانتهت حياته الحافلة بسنقه فى رمضان سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) لاتهامه بالاشتراك فى التآمر لإعادة سلطان الفاطميين (٢)

(١) ديوان عمارة اليمنى (ص ٢٨٧ — ٢٩١)

(٢) د د (ص ٢٨٧ — ٢٨٨)

ابن دقاق (ج ٥ ص ٩٣ — ٩٤) ، قلا عن ابن المتوج (٥٧٢٠ هـ ، ١٣٣٠ م) فى كتابه خطط مصر المسمى بإحاط المتغل وأقماظ المتأمل . انظر الحاشية التى كتبها مسيو درنورد (سيرة عمارة ج ٢ ص ٥٥٢) .

الباب الخامس

إسناد المناصب إلى المتشيعين خاصة - عمل الفاطميين على حمل المصريين على
اعتناق المذهب الفاطمي

قد يتأنا أنه بعد أن تم للفاطميين فتح مصر، لم يلبث جوهر أن أمر بإبطال الخطبة للعباسيين على كافة المنابر في أرجاء هذه البلاد، وحرم لبس السواد شعار العباسيين، وأمر بأن تضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي بدل اسم الخليفة العباسي؛ وأدخلت مراسم المذهب الشيعي في المساجد لتحل محل مراسم المذهب السني. ولقد خطا الفاطميون خطوات واسعة في سبيل تحويل جميع المصريين إلى جماعة واحدة تعتنق المذهب الفاطمي وتدين بعقائده.

على أن نجاح هذه السياسة نجاحا تاما لم يكن بالأمر السهل، وبخاصة في أوائل حكم الفاطميين؛ فقد كان السواد الأعظم من السكان سنيا، على حين كان الشيعة أقلية ضئيلة، تتألف من بعض المصريين ومن مقاتلة المغاربة. ولهذا لم يكن بد من أن تسند أمور الدولة إلى هؤلاء المغاربة، وإلى الكماميين منهم بوجه خاص.

ولا يعزب عن بالنا أن الفاطميين قد اعتبروا مصر إقليما آل إليهم بطريق الفتح والغزو. فكان طبعيا إذاً أن تؤول أكثر وظائف الدولة إلى أنصارهم - وهم المغاربة كما قدمنا - كما كانت الحال في الدولة العباسية، حين أسند المنصور كثيرا من أمور الدولة إلى الخراسانيين لما بذلوه من مساعدة في إقامة دولتهم، وكما فعل المأمون معهم بعد أن وقعت بغداد في يده بفضل مساعدتهم ومعوتهم.

ولقد أخذ كل أثر من آثار قوانين المذهب السني وتقاليده، سواء أكان من الوجهة الدينية أم المدنية، يزول وينهار شيئا فشيئا. ولا عجب في ذلك، فقد كان الفاطميون ينظرون إلى السنيين نظرة الخارج على الدين. ولقد فعلت هذه السياسة التي اتبناها الفاطميون فعلها في الناس؛ فلعنوا أبا بكر وعمر وعثمان، بل والصحابية من أمثال طلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص، ممن قاتلوا عليا بعد مقتل عثمان.

ومنذ بدأ سلطان الفاطميين يسود ربوع هذه البلاد ، أمر الفاطميون فنقشت فضائل على وأولاده من بعده على السكة ، وعلى جدران المساجد والمنازل والخوانيت . على أن هذا لم يكن كل ما قام به الفاطميون في سبيل نشر دعوتهم . فقد عملوا أيضا على نقش السباب في لعن الصحابة ، كما حاولوا أن يثبتوا عقائدهم ، وعملوا على أن يعتنق الناس مذهبهم ، لا في مصر فحسب ، بل في كافة أرجاء العالم الاسلامي .

على أنه لم يكن من المتظر أن تصادف هذه السياسة شيئا من النجاح في مصر لو كان القائمون على تنفيذها من أهل السنة . فكان طبيعيا إذا أن تسند المناصب الكبرى — كما قدمنا — الى رجال ممن يعتقدون مذهبهم ويدينون بنحلتهم في التشيع .

ولما كان السنيون يشغلون أكثر مناصب الدولة في العهد السابق ، كان من شأن كل تغيير فجائي في حالة هؤلاء الموظفين كافة أن يحدث ارتباكا في سير الأعمال الادارية . ولقد فطن جوهر نفسه الى هذه السياسة ؛ فأقر جعفر بن الفرات في وزارته .

بيد أنه يلوح لنا أن ابن الفرات لم يكن له من مركز الوزارة إلا الاسم فقط . يدلك على ذلك ما ذكره المقرئ (١) من أن جوهر عين خادما فرض عليه أن يلازم الوزير في داره ، وأن يسير في ركابه أنى سار ، ليكون عينا عليه ياقب حركاته وسكاته . وهذه العبارة التي أدلى لنا بها المقرئ لا تترك مجالا للشك في أن سلطة الوزير قد زالت أو كادت ، وأنه إنما سمح له بالبقاء في مركزه لإرضاء شعور السنيين لا غير .

ولقد ذكر ياقوت أن الخليفة الفاطمي المعز مرض الوزارة على ابن الفرات ، فاعتذر عن قبولها ؛ فأظهر له الخليفة رغبته في ضرورة بقائه في هذه البلاد بعد اعتزاله ، ليستأنس برأيه في مهام الأمور ؛ فأجابه الى ذلك (٢) .

وفي المحرم سنة ٣٦٣ هـ أسند الخليفة المعز الى ابن كلس وعُسلوج بن الحسن ادارة شئون الدولة الحربية والمدنية . ولا ريب في أن اسناد ادارة شئون الدولة الى هذين الرجلين قد آذن بانتهاء سلطة ابن الفرات .

(١) إتمام الحنفيا (ص ٥٨) .

(٢) ارشاد الأديب (ج ٢ ص ٤١٢) .

ومع ذلك فقد بقي اسم ابن الفرات ذائعا بعد هذه السنة ، كما ذكر ابن خلكان في عبارته التي أوردها عن الوزير يعقوب بن كلس^(١) أن ابن الفرات هذا كان يغدو اليه ويروح ، وأن الوزير قد أولاه ثقته ، وكان يعول عليه في محاسبة العمال ؛ ويجالس الوزير ، فيدعوه الى تناول الطعام معه^(٢) . ومن المدهش أن تكون هذه العلاقة بين الرجلين على هذا النحو الذي ذكره ابن خلكان ، بالرغم مما كان بينهما من العداوة القديمة التي كان منشؤها التنافس على الوزارة .

ويتضح لنا مما ذكره ابن ميسر عن وزراء العزيز الفاطمي ، أن ابن الفرات تقلد الوزارة في عهد هذا الخليفة ، وأن وزارته في عهد الفاطميين لم تدم أكثر من سنة واحدة ، وأنه تقلد بعض المناصب الحكومية مرتين في عهد العزيز : فقد تقلد الخراج في سنة ٣٨٢ هـ ، بعد أن قبض على الوزير أبي الحسن على بن عمر العداس لاثامه بتبديد أموال الدولة ؛ ثم أسندت اليه الوزارة في ربيع الأول من السنة التالية^(٣) .

ويقول ابن ميسر^(٤) أن ابن الفرات بقي في دس الوزارة سنة واحدة . وفي سنة ٣٩١ هـ^(٥) توفي هذا الوزير العظيم ، بعد أن تقلد الوزارة في عهد العباسيين والأخشيديين والفاطميين .

١ - إسناد المناصب العالية للمتشييعين

بعد أن تم للفاطميين فتح مصر ، أصبح أكثر المناصب العالية في أيدي المتشييعين ؛ حتى اذا ما دخلت سنة ٣٦٣ هـ ، كان من بين كبار الموظفين الذين شغلوا هذه المناصب في عهد المعز ، القائد جوهر ، وكانت إليه إدارة الدواوين وجباية الخراج والإشراف على أمور الدولة ؛ وأبو الطاهر ،

(١) ١٨ رمضان سنة ٣٦٨ (ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٠) . وقد ذكرنا ياقوت أن أبا العباس الفضل بن الوزير ابن الفرات تزوج بابتة الوزير ابن كلس . وقد كان لهذا الزواج أثر كبير في تمكن أواصر الصداقة بين هذين الوزيرين .

(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٤١) .

(٣) ابن منجب (ص ٢٤ و ٢٥) .

(٤) (ص ٥١) .

(٥) ياقوت : ارشاد الأديب (ج ٣ ص ٤٠٥) . وقد ذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ١٣٩) أنه توفي في يوم الأحد الثالث عشر من صفر ، وذكر في رواية أخرى أن وفاة هذا الوزير كانت في شهر ربيع الأول من هذه السنة . وقد أورد ابن سعيد (كتاب المغرب ص ٨٧) أنه توفي في صفر سنة ٣٩١ هـ ، وفي رواية أخرى في سنة ٣٩٢ هـ .

وكان على القضاء ؛ وعبد السميع بن عمر العباسي ، وكانت إليه إمامة الجامع العتيق وخطابته ؛
والحسن بن موسى الخياط ، وكان إماما للصلوات الخمس ؛ وشفيع الصقلي ، وكان صاحب
المظلة ؛ وموسى بن العازار ، طيب الخليفة الخاص .

أما جباية الخراج فقد جعلت قسمين : أحدهما في يد علي بن محمد بن طباطبا وعبد الله بن
عطاء الله ، وثنانيهما في يد الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذباري^(١) . وكان صاحب
بيت المال محمد بن الحسين بن مهذب ؛ كما قسمت الشرطة قسمين : (أ) الشرطة العليا^(٢) ،
وقد أسندت الى جبر (ب) والشرطة السفلى ، وقد أسندت الى عروبة بن ابراهيم وشبل المعرضي^(٣)

ولم يمض قليل من الزمن حتى أدخل على ادارة المناصب الحكومية تغير كبير . فقد ذكر
ابن ميسر^(٤) أن يعقوب بن كلس وعُسلوج بن الحسن قد عهد اليهما سن نظام جديد للضرائب ،
وقلدهما الخليفة في منتصف المحرم سنة ٣٦٣ الخراج وجميع وجوه الأعمال والحسبة^(٥) والسواحل

(١) كان هؤلاء الموظفون تحت اشراف يعقوب بن كلس وعُسلوج بن الحسن ، ينوبون عنهما في جباية الخراج .

(٢) ذكر ابن دقاق (ج ٤ ص ١١) أن الموظف الذي كان يشغل هذا المنصب قد توفي في اليوم الذي وصل فيه

جوهري الى مصر .

أما عن الشرطين ، فانه بعد فتح مصر على يد عمرو بن العاص ، كانت دار الشرطة في مدينة القسقاط . ولما تأسست
مدينة العسكر أسست فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ؛ كما أطلق على دار الشرطة الأولى الشرطة السفلى .
وفي أيام الفاطميين انقسمت الشرطة قسمين :

(أ) الشرطة العليا ومقرها القاهرة .

(ب) والشرطة السفلى ومقرها القسقاط .

(٣) المقرري : اتعاظ الحنفا (ص ٩٥)

ذكر ابن ميسر أن جوهرا صرف عن ادارة هذه المناصب في يوم الجمعة ١٤ المحرم سنة ٣٦٣ ؛ ولا بد وأن يكون
استناد الأعمال الادارية الى يعقوب بن كلس وعُسلوج بن الحسن قد أثر في نفوذ جوهري .

(٤) (ص ٤٥)

(٥) كانت أعمال المحتسب ، على ما ذكره المسعودي (ص ٢٢٧ — ٢٣٠) ، متعددة مختلفة . فكان اليه النظر
في الأسواق ، والمحافظة على الآداب والفضيلة ، وادارة الشرطة . وكانت وظيفته واسطة بين القاضي وصاحب النصارى في المطالم
(ص ٢٢٩) . ومن أهم أعماله المحافظة على الآداب وعلى الفضيلة والأمانة ، وإيقاف مضايقة الجمهور ، والاشراف على
الموازين والمكاييل ، وعلى استيفاء الديون ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتحيلة دون بروز الحوانيت مما يعوق
نظام المرور .

والأعشار^(١) والجوالى^(٢) والأحباس^(٣) والمواريث والشرطين وكل ما يضاف الى ذلك في مصر وسائر الأعمال^(٤).

٢ - جباية الخراج

بقى على بن يحيى بن العرمم قائما على جباية الخراج ؛ ولكنه لم يمض شهر حتى شاركه في ذلك رجل آخر ، هو رجاء بن صولاب^(٥) . ومع أن المقرئ لم يذكر لنا أكان هذا العامل الجديد مصر يا سنيا أو شيعيا ، أو مغربيا ، فانه من المحقق لدينا أنه كان مغربيا ، كما يؤخذ من العبارة التي نقلها عن المقرئ (اتعاض ص ٨٧) وهي : ” أن جوهر لم يدع عملا الاجعل فيه مغربيا شريكا لمن فيه “ .

= وقد ارتق نظام الحسبة في عهد الفاطميين ؛ فكان المحتسب ، على ما رواه المقرئ عن ابن الطوير (خطط ج ١ ص ٤٦٣ و ٤٦٤) ، ينتخب من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين ، لأن وظيفته كانت ديفة الى حد كبير . وكان ينوب عنه في القيام بهذه الأعمال نواب في القاهرة ومصر وغيرها من المدن . وكان يجلس للحكم في جامعي القاهرة ومصر يوما بعد يوم ، ويطوف نوابه على أبواب الحرف وعلى التجار ، ويفتشون قنود الأطلعة ويختمون الخوم ، ويباشرون محال الجزارة والمطاعم ، ويحولون دون مضايقة الجمهور ، ويلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر مما يجب حمله من السلع . وكانوا كذلك يشرّفون على السقائين لضائت تفتيتهم القرب ، ويرقبون لبسهم السراويل حتى لا يخرجوا على الآداب العامة ، ويراعون عيار القرب (وهو أربعة وعشرون دلو) ، ويمنعون معلمى الكتائب من ضرب صفار الأولاد ضربا مبرحا ، ويحولون دون تهريب معلمى السباحة بالبصار ، وينظرون الموازين والمكاييل . والمحتسب النظر في ضرب العيار . وكان يطلع عليه ويقرأ سجله بمدينة مصر (القسطنطينية) والقاهرة على المنبر ؛ فعدت سلطته من الاتساع بحيث لا يحال بينه وبين ما يريد ؛ كما كان له أن يستعين بالشرطة على تنفيذ أحكامه الحافظة على الآداب والنظام . وكانت يتقاضى مرتبا قدره ثلاثون دينارا في كل شهر .

أتى ابن خلدون (” مقدمة “ ، طبعة بيروت سنة ١٩٠٠ ص ٢٢٥ و ٢٢٦) على كثير من أعمال المحتسب التي ذكرها المقرئ .

(١) كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من فرضها على التجار من غير المسلمين ، لأنهم كانوا يأخذون في بلادهم عشرين ما مع المسلمين من التجارة ؛ ففرض عليهم عمر العشر ، وعلى أهل الذمة نصف العشر ، وعلى المسلمين ربع العشر .

(٢) الجوالى هي اختيار الأحسن من كل شيء ، سواء أكان من الممتلكات أو من الشاء ، الهزيل منها والصغير . وربما كانت هذه هي وظيفة العامل في الزكاة .

(٣) الأحباس هي كل ما يوقف على جهة من جهات الخير ؛ وما تحصل من أموالها يصرف فيها أرادته الواقف .

(٤) ابن ميسر (ص ٤٥)

(٥) أورد القضاعى (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١١٧ ب) هذا اللفظ ” رجيا “ . وقد أتى لنا نفس مؤلف هذا المخطوط على أسماء خمسة من الموظفين تقلدوا هذا المنصب في عهد جوهر فقال : ” تولى الخراج منذ دخل =

وقد أبطل نظام جباية الضرائب القديم ، وأنشئ نظام جديد في تقدير الأملاك وتعيين ما يخص كلا منها من الضرائب ، وجمعت كل دوائره في مركز واحد وفحصت مصادر الضرائب على اختلافها ، وتشدت الحكومة الجديدة في تحصيل ما تأخر منها ، كما اهتمت بالنظر في كل ما تقدم إليها من الالتماسات والشكاوى . وسلكت الحكومة في تنفيذ نظام الضرائب الجديد سبيل الحزم ، وحثت دافعي الضرائب من دفع الأموال كرها وعسفا . فكانت نتيجة هذه السياسة الرشيدة أن زادت موارد الدولة زيادة كبيرة ؛ فبلغ ما كان يستخرج من الفسطاط في يوم واحد مقدارا يترواح بين خمسين ألفا ومائة وعشرين ألف دينار ، واستخرج من تنيس ودمياط والأشمونين في يوم واحد أكثر من مائتين وعشرين ألف دينار .

٣ - الوزير

ولم يكن سلوك الوزير ابن الفرات إزاء هذه الدولة الشيعية أقل أثرا من سلوك غيره من المتعصبين السنيين . فلقد أبى في بادئ الرأي أن يستقبل المعز في الاسكندرية ، غير مكترث بما قد يجره هذا الامتناع عليه وعلى السنيين جميعا من اضطهاد الحكومة الفاطمية . ولكن تدخل كبار السنيين من المصريين ، ونصحهم للوزير بالعدول عن هذا العمل ، قد حال دون الوقوع فيما كانوا يخشونه من أعمال العنف والقوة . فقد أتوا اليه في الليلة السابقة ليوم وصول المعز القاهرة ، واتهموه بتعريض أرواح السنيين للخطر وتهئية الأسباب للفاطميين لملهم على الانتقام والتشفي .

فلم يكن بدا إذا من أن يذعن الوزير لهم ؛ حتى اذا ما بزغ صبح اليوم التالي ، دخل فيمن دخلوا على الخليفة المعز . وقد حاول الخليفة أن يتلمس وسيلة للايقاع به واتخاذ الشدة والعنف معه ، فسأله قائلا : " أسيح الشيخ ؟ قال : نعم ! فقال الخليفة : وزرت قبر الشيخين (أبو بكر وعمر) ؟ " .

== جوهر على بن العرمم ، أبو محمد الروذباري ، رجاء بن صولاب ، عبد الله بن عطاء الله ، أبو الحسن الكرخي . " على أن هذه العبارة لا تدل على أن هؤلاء الموظفين الخمسة تقلدوا هذا المنصب في وقت واحد ، فان المؤلف أو الناصح لم يضع علامة العطف الدالة على الترتيب بين كل اسم وآخر . هذا الى أن لفظ " منذ " يقرب الى الدهن أن هؤلاء الخمسة قد تقلدوا هذه الوظيفة بالتعاقب ؛ أو شغلها واحد منهم أوائنا أحيانا ، وذلك منذ استولى جوهر على مصر سنة ٣٥٨ هـ ، الى أن وصل المعز الى هذه البلاد سنة ٣٦٢ هـ ، وأسد كافة أمور الدولة الى يعقوب بن كاس وعسلوج بن الحسن . "

وكان الوزير ذكى الفؤاد حاضر البديهة ، فأجابه على الفور : ”شغلنى عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولى العهد ؛ السلام عليك يا ولى عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته !“ .

وقد زادنا ياقوت^(١) أنه كان من أثر هذا الحديث أن عرض المعز على ابن الفرات أن يستمر فى الوزارة ، فاعتذر . وبذلك انتهت مدة وزارته فى عهد الدولة الفاطمية بدخول المعز .

وكان لعسكر المغاربة قاض يدعى على بن الوليد ، وكل إليه النظر فى قضاياهم . ولا شك فى أن هذا القاضى كان إليه النظر أيضا فى كثير من القضايا التى نشأت من هذا العداء الذى ظهر بينهم وبين المصريين .

ع — حالة مصر الداخلية

لم تكن الحالة الداخلية قد استتبعت بعد فى مصر ؛ لأن أنصار الاخشيديين وجماعة الكافورية لم يكن قد تم القضاء عليهم . أضف الى ذلك الحملات التى وجهها القرامطة الى هذه البلاد ، وانتصار كثيرين من المناوئين لسلطان الفاطميين لهذا العدو الطارئ^(٢) .

ولإيضاح ذلك نقول ، انه فى سنة ٣٢١ هـ ثار عبد العزيز بن هيج الكلابى فى الصعيد ودعا للعباسيين . فأرسل اليه جوهر جيشا قضى على الثوار وأسر رئيسهم . وبعث به الى القاهرة مكبلا فى قفص ، فسلخ جلده وصلب جسمه^(٣) .

وطالب أثار المغاربة الفتن والفلاقل بما أتوا من أعمال العنف والشدة ضد الأهلىين . فلم يكن بد من أن يعدهم هؤلاء من أعدائهم ، لاختلافهم فى المذهب ، ولاغتصابهم ما كان لهم من حقوق سياسية . ويتضح ذلك من هذه الحوادث التى نأتى بها للقارئ على سبيل التمثيل : ففى شهر ذى الحجة

(١) ارشاد الأديب (ج ٢ ص ٤١٠ ، ٤١١)

(٢) ابن القلائى (ص ٢)

(٣) المقرئى : اتماظ الحفا (ص ٨٧)

من سنة ٣٦١ ، نهبت المغاربة بعض أحياء مدينة مصر ؛ فثار الأهليون ، ونشب بين الفريقين القتال . فأفند إليهم جوهر سعادة بن حيان في الحال ؛ فحسم النزاع وعوض جوهر الناس ما نهب منهم ^(١) .

ويظهر لنا أن سلوك المغاربة قد استثار الأهليين ودفعهم إلى إعلان ماجاش في نفوسهم من الاستياء والسخط في مناسبات مختلفة . ففي ربيع الأول من سنة ٣٦٢ أنب المحتسب جماعة من الصيارفة ، لسبب لم يكشف لنا التاريخ اللثام عنه . وكانت نتيجة ذلك أن شغب غيرهم من الصيارفة احتجاجا على ما أتاها هذا المحتسب وصاحوا بهذه الكلمات : ” معاوية ابن عم علي بن أبي طالب ” ؛ كما أن شعور الكره الذي أضمره السنيون نحو الشيعة يكشف لنا عما كان يضمرة السنيون في مصر للفاطميين .

ولم يبين لنا المقرئ ^(٢) السبب الذي أدى إلى إثارة هذا الشغب ؛ وإنما اقتصر على القول بأن جوهر افكر في إحراق رحبة الصيارفة . وكان المحتسب الى عهد الفاطميين مصريا ، فأقبل (ربيع الثاني سنة ٣٥٩) على أمر الفتح — كما تقدم — وحل محله رجل آخر من المغاربة .

أما سليمان بن عَشْرَة الذي حدث هذا الشغب في عهد ولايته الثانية على الخراج ، فقد أعيد إلى الحسبة بعد موت المحتسب المغربي . ونستطيع أن نستخلص من أقوال المقرئ أن المحتسب كان مصريا سنيا ؛ لأنه لو كان شيعيا ، لأقره جوهر في منصبه .

ولم تنقطع القلاقل والاضطرابات بعد وصول المعز . فمن ذلك ما حدث عند الاحتفال بعيد غدیرُخَم (١٨ ذى الحجة سنة ٣٦٢) . ولم يُدَلِّ لنا المقرئ ^(٣) بشيء جلي عمن كانوا سبب إثارة هذه القلاقل . وكل ما قاله أن جوهر ا قتل جماعة ، لأنهم نهبوا بعض جهات القرافة . إلا أن هذا لا يمنعنا أن نقول إن المغاربة كانوا السبب في إثارة هذا الشغب الذي آل إلى التطاحن ، وأن جوهر أمر بجماعة منهم فُضِرت أعناقهم ليضع بذلك حدا لما أتوه من ضروب التعدي ^(٤) .

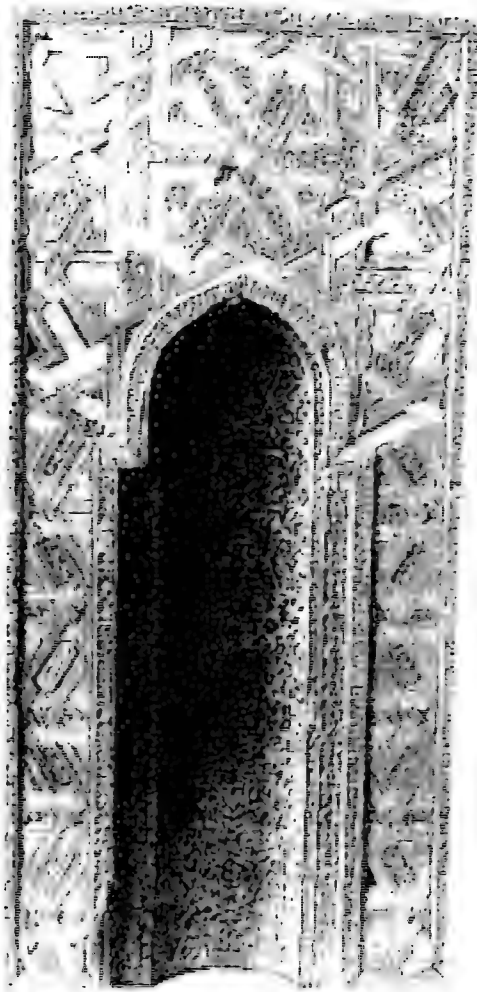
هذا ، وإن مسألة قيام التشيعيين من المصريين بنصرة المغاربة ، أو وقوفهم في صف بني وطنهم وأبناء جلدتهم دفاعا عن أملاكهم ، مسألة جدية بالنظر والاعتبار . وإنه وإن لم يكن في المصادر

(١) المقرئ : اتعاط الحفا (ص ٨٧)

(٢) شرحه .

(٣) شرحه (ص ٩٤)

(٤) ابن ميسر (ص ٤٥) ، والمقرئ : اتعاط الحفا (ص ٩٤)



محراب من خشب أصله من مشهد السيدة نفيسة



محراب من خشب أصله من مشهد السيدة رقية

التي رجعنا إليها ما يرجح أحد هذين الرأيين ، فلا شك في أن المغاربة إنما قاموا بنهب أملاك الأهليين ، غير آبهين بأى حزب أو دين ينتمى إليه أى شخص ، وأن الأهليين — سنيين وشيعيين وغير مسلمين — هبوا يدفعون عن أنفسهم هذا التعدى الذى كان قوامه السلب والنهب . وإن إظهار الشيعيين شعورهم العدائى نحو أهل السنة ، أمر كان يتجلى في احتفالاتهم ببعض أعيادهم ومواسمهم .

وفي سنة ٣٦٣ هـ تفاقم شر هذا العدوان الذى أضمره المتشيعون للصريين . وعاد المغاربة سيرتهم الأولى في القرافة ، فاحتلوا الدور وأجلوا سكانها عنها ، فشكا الأهليون إلى المعز واستغاثوا به — وكان قد أمر المغاربة أن يسكنوا أطراف المدينة — فأصدر الأوامر إلى المغاربة بإخلاء هذه الدور والتحول إلى الخندق الكائن على مقربة من عين شمس ، وركب هو بنفسه فعين مواضع لتزولهم ، وأقر المال المطلوب للبناء ، كما جعل لهم وإلياً وقاضياً عهد إليهما النظر في أحوالهم ^(١) .

على أن هذه الاجراءات لم تكفل للصريين الاطمئنان على أنفسهم وأموالهم من المغاربة ، فقد ظلوا يخالطون أهل مصر حتى يتم إعداد مساكنهم الجديدة . أما المتشيعون من المصريين فكان عددهم قليلاً ، غير أنهم كانوا أقوياء بالمغاربة الذين كانوا يشدون أزهرهم ، وبوجود حكومة شيعية تعضدهم ، ولا سيما بعد وصول المعز .

وطالما كان يشور بركان العداء المستحكم بين هاتين الطائفتين في مناسبات كثيرة ، وبخاصة عند الاحتفال ببعض الأعياد والرسوم الشيعية . أما الشيعيون فكانت تناصرهم الحكومة طوال العهد الفاطمى ، كما كان المغاربة يشدون أزهرهم .

وكثيراً ما كان يصحب هذا العداء الذى أضمره السنيون للشيعيين الفتن والقلاقل . ففي العاشر من المحرم سنة ٣٦٣ هـ — وهو ذكرى اليوم الذى قتل فيه الحسين بكربلاء — انصرف جماعة من المصريين المتشيعيين ، ومعهم فريق من فرسان المغاربة ورجالاتهم من مشهديات أم كلثوم (بنت محمد بن جعفر الصادق) ونفيسه ^(٢) ، وساروا في موكبهم ينوحون ويكفون على الحسين ، وحملوا الناس على مشاركتهم في الحزن حملاً ، فكسروا أواني السقائين في الأسواق ، ومسبوا من ظهر بغير مظاهر الحزن والأسى في هذا اليوم . فأغلقت الدكاكين وتعطلت حركة الأسواق ، وكثرت القلاقل

(١) ابن ميسر ص ٤٥

(٢) هي نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب . دخلت مصر مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق وكانت صالحة تهية ، سمع منها الشافى الحديث . ولما مات أدخلت إليها جنازته فصلت طيه ، وتوفيت في شهر رمضان سنة ثمان ومائتين .

بين السنيين والشيعة . فخرج ابن عمار — وكان من زعماء المغاربة — على جناح السرعة ، وتم على يديه انفصال الفريقين بعضهما عن بعض (١) .

وكانت تقوم هذه الاضطرابات في مصر عند الاحتفال بهذا العيد ، حتى قبل أن يتم فتح هذه البلاد على يد الفاطميين . ففي عهد الدولة الأخشيدية ، كان يتجمع السودانيون الذين أتى بهم كافور — وقد عرفوا بالتعصب ضد مذهب الشيعة — في الطرقات ، وكانوا يسألون كل من يمر عليهم : من خالك ؟ فإن قال معاوية ، أكرموه وسمحو له بالمسير ؛ وإن سكت لقي المكروه ، واترعت ثيابه وأخذ ما معه . ولقد حاول كافور أن يحول دون وقوع هذا العدوان ، فكان يعين في هذا اليوم حراسا على أبواب المدينة المؤدية إلى الصحراء ، فيمنعون الناس من الخروج (٢) .

وقد تم عزل المغاربة عن أهل مصر بإنشاء الأحياء الخاصة بهم ؛ فحظرت عليهم السكنى مع المصريين والمبيت في المدينة . وكان ينادى كل عشية ، ألا يبيتن في المدينة أحد من المغاربة (٣) . ولم يُسمع بعد موت المعز بشيء من أعمال العنف الكثيرة التي كنا نسمع بها من قبل ، اللهم إلا عند إقامة بعض الأعياد الدينية ، حيث كانت تتجدد الشحناء بين السنيين والشيعة .

ه - قاضي القضاة

كان جوهر ينوب عن الخليفة الفاطمي في حكم بلاد دخلت في حوزة الفاطميين منذ أمد قريب ؛ وكانت سياسته تنطوي على كثير من الحكمة وبعد النظر . ولقد رمى جوهر من وراء هذه السياسة إلى إفساح المجال أمام المغاربة ، ليملأوا بالنظم الادارية التي كانت تسير عليها الحكومة المصرية . ولكنه رأى بصائب نظره أن يكون تنفيذ هذه السياسة تدريجيا ؛ لأن العلاقات التي كانت بين السنيين والشيعة ، وبين المغاربة والمصريين ، لم تكن على صفاء دائم .

يؤيد هذا القول أن صيام شهر رمضان عند السنيين ينتهي بمجرد ظهور القمر ، سواء أكان شهر شعبان تسعة وعشرين يوما أم ثلاثين ، وذلك عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : ” صوموا لرؤيته

(١) المقرئى : انماط الحنفا (ص ٩٦)

(٢) شرحه (ص ٩٧)

(٣) ابن ميسر (ص ٤٥)

(هلال رمضان) وأنظروا لرؤيته (هلال شوال) ؛ فان غمَّ عليكم (يعنى إذا لم يكن من الممكن رؤية الهلال في نهاية اليوم التاسع والعشرين من شعبان بسبب تكاثف الغيم في السماء) ، فأكلوا عدة شعبان ثلاثين يوما “ .

ولكن جوهرًا لم يرتض السير وفق هذه الطريقة التي لا تتفق مع أصول المذهب الشيعي . ففي سنة ٣٥٨ هـ أبطل الصوم بعد اليوم التاسع والعشرين من رمضان ، وصلى العيد قبل رؤية الهلال . فاعترض أهل الفسطاط على ما فعل ، وصاموا اليوم الثلاثين حسب أصول المذهب السني ، ثم جعلوا العيد بعد ذلك بيوم ، أي بعد رؤية الهلال ؛ واتبعوا في ذلك قاضيهم السني الذي تلمس الهلال جريًا على هذه العادة فوق سطح الجامع العتيق ، وأعلن انقضاء شهر الصوم . ولما بلغ ذلك جوهرًا أنكر على القاضي ما فعل وتهده (١) .

وظل أبو الطاهر — الذي تقلد القضاء قبل وصول الفاطميين — في منصبه حتى سنة ٣٦٦ هـ . ولكن سلطة القاضي قد ضعفت ضعفا شديدا على أثر وصول المعز إلى القاهرة ؛ وكان في ذلك أشبه بالوزير الذي أقر في منصبه لاعتبارات سياسية لاخير .

وأولى هذه الاعتبارات هي أن المصريين لم يكن ينتظر منهم أن يسارعوا إلى اعتناق المذهب الشيعي . لذلك كان بقاء أبي الطاهر رغم كونه سنيا من الأمور السياسية التي لا مندوحة عنها ، وإن كان ذلك صوريا ، ولا سيما أن جوهرًا أخذ على نفسه العهود والمواثيق بأن يطلق للمصريين الحرية التامة في اعتناق مذهبهم . فكان عزل هذا القاضي الذي ظل في منصب القضاء منذ ربيع الأول سنة ٣٤٨ وإحلال قاض من الشيعة محله ، مما يثير شعور الجمهور .

ولما سلوك أبي الطاهر عند وصول المعز ليدل على مقدار ما كان يضمه المتعصبون من السنيين من عدا للشيعة في شخص هذا الحاكم الشيعي ؛ فقد نزل جميع المستقبلين عن مطاياهم وقبّلوا الأرض بين يديه ما عدا أبا الطاهر . يدلك على ذلك ما أورده لنا المقرئ في مخطوطه المقفى الكبير حيث يقول :

”لما ورد المعز مصر ، استقبله الناس على طبقاتهم مشاة ؛ فلما رأوه ، قبلوا الأرض بين يديه كلهم ، سوى القاضي أبي الطاهر ، فإنه كان راكبا . ولما قرب ترجل وسلم عليه ، ولم يقبل الأرض . فالتفت المعز إلى خواص حجابيه وقال : من هذا الذي خالف الناس كلهم ؟ فقيل قاضي

(١) الكندي ص ٥٨٤ ، والمقرئ : انماظ الحفا ص ٧٦

مصر ، وهو من أهل العلم والدين . ثم لأمه أحد الحجاب سرا (هكذا) فيما فعل ؛ فرفع صوته وقال جهرًا بحيث يسمع المعز : وما (هكذا) هذا ؟ (أ) هو الشمس التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها ، وقال الله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ؛ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم إياه تعبدون) ؟ ، فأرضاه بذلك ، واستحسن قوله ؛ فرجع وهو قاض وعلت منزلته ^(١)

وليس ما يمتنعنا من أن نظن أن هذا القاضي انما بقى في منصبه طبقا لهذه السياسة العامة التي جرى عليها الفاطميون ؛ لا لأن الخليفة قد اقتنع بخطابه الذي نتبين من ثناياه ما أضمره هذا الفقيه من كراهة لأهل الشيعة ؛ فان سلطة أبي الطاهر ما لبثت أن اضمحلت ، وألزم في أواخر عهده في القضاء أن يصدر أحكامه وفق قوانين المذهب الشيعي ^(٢) .

٦ - تضائل نفوذ القاضي

ظل القضاء والإمامة والخطابة في يد رجال من السنين الذين تقلدوا هذه المناصب في أواخر أيام الأخشيدين . ثم ظهر تضائل نفوذ القاضي في سنة ٣٦٣ هـ ، بل ألزم — كما قلنا — أن يصدر أحكامه طبقا لأصول المذهب الشيعي الذي ساد البلاد في ذلك الوقت ، كما اشترك به في منصبه قاضيان من المغاربة .

ويحدثنا ابن ميسر ^(٣) أن أبا سعيد عبدالله بن أبي ثوبان ، الذي صحب المعز الى مصر ، تقلد في شوال سنة ٣٦٣ النظر في المظالم ^(٤) الخاصة بالمغاربة . ولم تلبث أن ازدادت سلطة ابن أبي ثوبان هذا ، فلم تقتصر على النظر في قضايا المغاربة وحدهم ، أوفى القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين ،

(١) المقرئى : المقفى الكبير ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الأول ، ورقة ٨٢ .

(٢) الكندى ص ٥٨٤

وقد خالف ابن زريق ذلك فقال ، انه بعد أن وصل الخليفة المعز الى الاسكندرية ، خلع على أبي الطاهر الذي سار معه الى القاهرة وهو معتمد جواده ، وقد سأله المعز وهو في الطريق : ” كم رأيت يا قاضى خليفة ؟ “ فقال القاضي : ” واحدا والباقي ملوك ! “ .

(٣) (ص ٤٤)

(٤) هى محكمة عليا كانت تعقد من قبل برئاسة الخليفة نفسه .

بل آل إليه النظر أيضا في قضايا المصريين أنفسهم ، وغدا يطلق عليه اسم قاضي مصر والاسكندرية (١) .

كذلك نُصِب من المغاربة قاض آخر - صحب المعز الى مصر أيضا - وشارك القاضي أبا الطاهر في سلطته . وهذا التنصيب يدل على ما ظهر في سياسة الفاطميين من تغير جديد بعد أن تم لهم فتح مصر ، حيث أصبح القضاء يقلد لاثنتين من الموظفين ، أحدهما سني والآخر شيعي . وليس معنى ذلك زوال سلطة القاضي السني تدريجيا فحسب ، بل ذلك ايدان أيضا بانتهاء عهد تقلد السنيين منصب القضاء (٢) .

(١) الكندى (ص ٢٨٧)

(٢) نعم ! كان منصب القضاء يهدد به بعض السنيين أحيانا ، إذ أن الفاطميين في أواخر عهدهم لم يسيرا دائما على قاعدة اسناد القضاء الى المتشيعين خاصة . ولنضرب لذلك مثلا ما كان من اسناد الحاكم بأمر الله هذا المنصب في العشرين من شعبان سنة ٤٠٥ هـ لرجل من أهل السنة ، بقى فيه اثنتي عشرة سنة وسبعة أشهر ، ثم مات في عهد الخليفة الظاهر . ويحدثنا ابن حجر (رفع الإصر ، ورقة ٢١٤ ب) أن القاضي مالك بن سعيد الفاروق قتل لأربع بقين من شهر ربيع الأول سنة ٤٠٥ هـ ، نفلا منصب القضاء ثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يوما ، أى الى العشرين من شعبان ، فتقلده أبو العباس ابن العوام الحنبلى المذهب . وان ظل هذا المنصب طوال هذه المدة يؤيد ما ذهبنا إليه ، من أنه لم يكن من السهل العثور على فقيه من الشيعيين يصلح لتولى هذا المركز . ولقد أدلى لنا ابن حجر (رفع الإصر ورقة ٤٣ ب وما يتبعها) بالفاروق التى أدت الى تقلد ابن العوام أعباء هذا المنصب فقال : ” وكأنت قد قدم مصر رجل مكفوف يقال له أبو الفضل جعفر ، من أهل العلم بالنحو واللفظ ، قدم على الحاكم فأعجب به وخلع عليه ، وأقطعاه انقطاعا ولقبه عالم العلماء ، وجعله يجلس فى دار العلم التى أنشأها ، ليدرس للناس اللغة والنحو . نفلا به الحاكم بفعل يسأله عن الناس واحدا واحدا ، من يصلح منهم للقضاء ؟ وكان الحاكم عارفا بهم ... فلم يزل يذكر ، حتى وقع الاختيار على أبى العباس ، فقبل للحاكم : ليس هو على مذهبك ، ولا على مذهب من سلف من آبائك ، فقال : هو فقيه مأمون مصرى ، عارف بالقضاء وبأهل البلد ، وما فى المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره “ .

ومن المهم أن نلم بما ذكره ابن حجر (رفع الإصر ، ورقة ١٤٥ أ) من أن ابن العوام قد شهد عند القاضي محمد بن النعمان (الكندى طبعة رومة ، سنة ١٩٠٨ ، ص ١٦٢) فى سنة ٣٨٤ هـ . ومن هنا يتضح ما كان لمنصب القضاء من حرمة وقداة ، حيث يقف رجل سبق له تولى هذا المنصب أمام القاضي . ويغلب أن يكون ذلك فى القضايا الهامة التى قد يكون هذا القاضي أعلم بها من غيره .

ويزيدنا ابن حجر (رفع الإصر ورقة ٤٤ ب) أن ابن العوام تقلد القضاء وخلع عليه (وأضيف اليه فى الأحكام مصر وبرقة وصقلية والشام والحرمان ، ماعدا فلسطين ، فان الحاكم كان قد ولاها أبا طالب بن بنت الزيدى الحسينى ، وجعل للعباس النظر فى العيار ودار الضرب والصلاة والمواريث والمساجد والجوامع) بسبب ما كان لأب الفضل من نفوذ لدى الخليفة الحاكم . ولكنه لما لم يكن هذا القاضي يدين بمقائد المذهب الشيعى ، اشتغل بمجالة الذى قرئ فى القصر وعلى منبر الجامع العتيق على فقرة شرط فيها عليه أن يصدر أحكامه طبقا لقانون الشيعة ، وأن يكون معه فى مجلس القضاء أربعة من القضاة (الشيعيين بلا مراة) يعينون من قبل الخليفة . ومن ذلك يتضح أن تعيين غير الشيعيين كان قليلا حدوثه ، وعلى شريطة خضوعهم لأحكام مذهب الشيعة .

ولم يذكر لنا المؤرخون تاريخ تقلد علي بن النعمان القضاء . غير أنه يظهر مما ذكره ابن ميسر (ص ٤٤) أنه بدأ حياته في القضاء منذ سنة ٣٦٣ هـ ، أى بعد أن تقلد ابن أبي ثوبان منصبه بأشهر قلائل .

ولما اقتسم القضاء ابن النعمان وأبو الطاهر ، كان لكل منهما شهوده الذين يستعين بهم في أحكامه . وجلس أولهما للحكم في الجامع العتيق ، وثانيهما في الجامع الأزهر^(١) ، وظلت الحال على ذلك الى شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ ، وفيه اضطلع علي بن النعمان بالقضاء عامة .

وتظهر لنا صحة ما رواه ابن حجر عن استقالة هذا القاضي . وهو يختلف عما ذكره القضاعي^(٢) والمقرئى ؛ فقد أيد كل منهما القول بأن القاضي قدم استقالته الى الخليفة العزيز^(٣) لأسباب صحيحة . وزاد المقرئى أن العزيز ركب في صفر سنة ٣٦٦ الى الموضع المعروف بالحنان في جزيرة الروضة على مقربة من جامع عمرو ، حيث يعقد أبو الطاهر مجلس الحكم . وهناك استقبل أبو الطاهر وشهوده الخليفة العزيز ، وسأله أن يأذن له في استخلاف ولده^(٤) بسبب ضعفه . ولقد قبلت استقالة القاضي على الفور ، وكأن الخليفة كان ينتظرها بتلهف .

ونحن نعلم أن سياسة الفاطميين كانت ترمى الى إضعاف نفوذ السنيين تدريجياً ، بحيث لا يقف معها دولا ب الأعمال الحكومية أو يتكدر صفاء البلاد بتذمر السنيين وسخطهم . ولم تنقض ثلاثة أيام على تقديم القاضي استقالته ، حتى قلد العزيز علي بن النعمان الشيعى المذهب^(٥) .

ويحدثنا الكندى^(٦) أنه قرئ على منبر الجامع العتيق سجل بتقليد ابن النعمان القضاء . وزاد ابن حجر^(٧) فقال إنه ”ولى القضاء على مصر وأعمالها ، والخطابة والإمامة والقيام في الذهب والفضة“ . ويستطرد هذا المؤلف الكلام فيقول إن أبا الطاهر امتنع عن العمل مع ابن النعمان ، فاستخلف

(١) ابن حجر : رفع الإصر ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٢٢١٥ ورقة ١٩٤ ب .

(٢) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١١٩ ب .

(٣) ذكر المقرئى (المقفى الكبير ، لندن ، مخطوط ١٣٦٦ ورقة ٨١) أنه الخليفة المعز (المتوفى سنة ٨٣٦ هـ) . ويرجح عندنا أن ذكر لفظ العزيز خطأ من النسخ ، يدلل إرادته بعد ذلك في سياق أقوال هذا المؤرخ .

(٤) قد أورد ابن زولا هذه الحقيقة التاريخية (الكندى ص ٥٨٧) .

(٥) الكندى ص ٥٨٥ .

(٦) شرحه .

(٧) رفع الإصر ورقة ١٩٤ ب .

هذا أخاه مجدا والحسن بن خليل الفقيه الشافعي ، وشرط عليه أن يصدر أحكامه وفق المذهب الشيعي الذي يدين بعقائده الفاطميون .

ولقد ظل القضاء في يد الشيعيين من الاسماعيلية ، وبقى أولاد النعمان يتقلدون هذا المنصب الى سنة ٣٩٨ هـ ؛ ففي صفر سنة ٣٩٣ ، تقلد الحسين بن علي بن النعمان القضاء في مصر وما يتبعها من الأعمال ، وأسندت مقاليد الدعوة أول مرة لقاضي القضاة ؛ فعدا يطلق على ابن النعمان لقب "قاضي القضاة وداعي الدعاة" .

أما عن الخطابة ، فقد أقبل بنو عبد السميع بعد أن تقلدوها نحو أربع وستين سنة ، وأسندت الى جعفر بن الحسن الحسيني في الجامع العتيق ، والى أخيه في الجامع الأزهر^(١) .

وفي سنة ٣٧٩ هـ كانت أكثر أمور الدولة المدنية والحربية والدينية قد تحولت الى أيدي الشيعيين ، وكان لزاما على الموظفين السنيين الذين ظل في أيديهم بعض المناصب الصغيرة ، أن يسيروا وفق أحكام مذهب الاسماعيلية . وأصبح عزل كل من رمى منهم بالتقصير في مراعاة هذه الأحكام أمرا لا مفر منه ؛ وقد يكون ذلك خشية العزل أو الاضطهاد ، أو لرغبة الناس في تقلد مناصب الحكومة أو الترقى في سلكها ، مما دفع الكثيرين من الموظفين السنيين وغيرهم الى اعتناق ميادئ المذهب الفاطمي .

وكذلك كانت الحال بالنسبة الى غير المسلمين من النصارى واليهود ؛ فقد دفع بهم الخوف من سوء معاملة الحكومة الى سلوك الطريق الذي سلكه غيرهم من المضريين .

٧ — قانون الوراثة في عهد الفاطميين

لقد ذكر لنا ابن حجر قضية رجل ادعى ملكية حمام كان لجدّه ، وكان ينبغي أن ينتقل الى أمه حسب قانون الشيعة . وكان القاضي أبو الطاهر قد حكم في هذه القضية بأنه لم يكن لهذا الشخص حق في ادعاء الملكية ، لأن جدّه قد وقف هذا الحمام على الأعمال الخيرية . ولقد أثارت هذه القضية شعور القاضيين السني والشيعي ، وهذا الأخير قد حكم للدعي ، وأبطل بذلك ما حكم به أبو الطاهر .

(١) ابن دقاق ج ٤ ص ٦٤ ، والمقرئ خط ج ٢ ص ٢٤٨ . كان ذلك في سنة ٣٧٩ هـ ، على ما ذكره ابن

دقاق (ج ٤ ص ٦٤) .

ويظهر أن هذه المسألة قد أحدثت اهتماما خاصا ؛ لأنها أفضت الى الخلاف في وجهة نظر كل من القاضيين اللذين حكم كل منهما حسب قانون المذهب الذي يدين بعقائده . ويحدثنا ابن حجر نقلا عن ابن زولاق (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ) أن المدعى شكا الى الخليفة المعز ، فأمر قاضيه الشيعي بأن ينظر هذه القضية ثانية (١) .

ولقد ذكر ابن زولاق أن هذه الحوادث هاجت شعور الترد في نفوس الشهود الذين كانوا يعملون مع ابن أبي ثوبان ، حتى ان الخليفة المعز أمر أخيرا بإبطال الحكم الذي أصدره ابن أبي ثوبان ، ليزيل السخط الذي دب في نفوس الشهود السنيين في ذلك الوقت على الأقل (٢) .

وكانت نتيجة هذه الحوادث أن امتنع الشهود عن حضور مجالس الحكم التي كانت تعقد برئاسة ابن أبي ثوبان ؛ فبدلهم هذا بشهود آخرين ، ولعلمهم كانوا من الشيعيين . على أن هؤلاء اضطروا الى الاستقالة . وكان غضب أبي الطاهر والشهود سببا في علة ابن أبي ثوبان التي أودت بحياته (٣) .

ونستطيع مما أدلى به ابن حجر أن نقول إن العلاقات بين أبي الطاهر وابن أبي ثوبان لم تكن تتطوى على شيء من الود والصداقة . وهذا أثر الخلاف المذهبي الذي أدى بهذين الرجلين الى الحالة التي وصفناها . فقد أصدر القاضي الشيعي أحكامه طبقا لعقائد مذهب الشيعة الذي يخالف مذهب القاضي السني .

ويحيز قانون الشيعة للبنت أن ترث كل ما يترك أبواها ، إذا لم يكن لها أخ أو أخت . وهذا يخالف قانون مذهب السنة الذي يقضى ألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة . ولقد تمسك القاضي الشيعي بتطبيق قانون الشيعة على أحكامه ، وغدا في استطاعته نقض ما يصدره أبو الطاهر من أحكام .

(١) الكندي ص ٥٨٧ و ٥٨٨ .

(٢) شرحه ص ٥٨٨ .

(٣) شرحه .

وللقريزي كلام مستفيض عن قانون الوراثة في عهد الفاطميين ، عند كلامه عن الفقيه المالكي محمد بن الوليد الطرطوشي . ويحدثنا ياقوت أن الطرطوشي ينتسب الى مدينة طرطوشة^(١) التي ولد فيها سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) . وهي مدينة بالأندلس تقع الى الشرق من مدينة بلنسية التي تتصل بالكورة المسماة باسمها .

وقد تنقل الفقيه الطرطوشي في الحجاز والشام والعراق ، وتلقى العلم على أئمة العلماء والفقهاء في أمهات العواصم الاسلامية ، من أمثال مكة وبيت المقدس وبغداد والبصرة ؛ ثم رحل أخيرا لمشاهدة مصر ، ونزل الاسكندرية واستوطنها ، وبقي بها الى أن مات سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) . ولم يلبث أن تقرب الى الوزير المأمون ، وأهدى اليه كتابه "سراج الملوك"^(٢) .

وكان من مظاهر سرور الوزير باهداء الطرطوشي له هذا الكتاب ، أن رتب له خمسة دنانير في كل يوم من مال الجوالي ؛ فلم يقبل منها غير دينارين كان الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي قد أجراهما عليه .

وقد عدلت القاعدة التي تجيز للبنت بمقتضى قانون الشيعة أن تستولى على جميع الثروة التي يخلفها أبواها^(٣) اذا انفردت بالميراث . "وكان الداعي لحضور الطرطوشي أمر المواريث ما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام ، وهو ربح العشر ، وتوريث البنت نصف المال ، وكانوا يورثونها جميع المال مع وجود ذوى العصبية ، كما هو مذهب آل البيت . فاعتذر المأمون (البطائحي) بأن هذه قضية لم يقل بها ، وأن أمير الجيوش بدر هو الذى ابتكرها واستمرت المناقشة الى أن

(١) ذكر هذا اللفظ السماعي في كتاب الأنساب (ورقة ٣٧٠) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٦٠٧) . وخالفه في ذلك ياقوت ، فذكره في "معجم البلدان" طرطوشه .

(٢) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٦٠٦) أن هذا الكتاب ليس "سراج الملوك" ، وإنما هو كتاب "سراج الهدى" .

(٣) السرفى أن الشيعة يورثون البنت كل المال ويجهلون حاجتها لا عماء أمران : أحدهما أن أبا بكر أخذ فدية (قربة بخير) من يد فاطمة ، وكان رسول الله أعطاه تلك الضيقة لارتفاقها بها ، فادعت أنها تراث ذلك ؛ فاحتج أبو بكر بأن الأنبياء لا يورثون ، واستدل بحديث ميمه من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك . ثانيهما أن بنى العباس يدعون إيلولة ميراث رسول الله من إمامة المسلمين لهم ، لأنه عم رسول الله والوارث له يوم وفاته ، لأن ابنته فاطمة لا يحرز كل المال ، وعلى أنزل من العباس . فقالوا هم أنها تترك كل الميراث ، لينمو بنى العباس من دعواهم . وإلى ذلك يشير شاعر بنى العباس بقوله :
أنى يكون وليس ذلك بكانن لبني البنات وراثة الأعمام ؟

قال المأمون للفقهاء : أنا لا أرى مخالفتك ، وكتب توقيع شملته العلامة الآمرية والمأمونية ، وهذا نصه بعد البسملة :

- (١) يخلص لحرم ذوى الشيع الوارثات جميع موروثهم ، وهو المنهاج القويم لقوله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، إن الله بكل شيء عليم) (١) .
- (٢) إن كل دارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم ، يحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه فى حياته ، والمشهور من اعتقاده الى حين وفاته ويحمل من سواهم على مذهب مخلفهم ، ويشترك معهم بيت مال المسلمين فى موجودهم ، ويحمل اليه جزء من أموالهم التى أحلها الله لمن بعدهم .
- (٣) إن أخذ ربع العشر من أموال الأيتام يعود الى ما كانت عليه الحال .
- (٤) أن يعوض أمناء الحكم عن ربع العشر من مال الموارث الحشرية .
- (٥) من لا وارث له ، حاضرا أو غائبا ، فموجوده لبيت المال ، إلا ما يستحقه زوج أو دين عليه .
- (٦) وإن كان للتوفى وارث غائب ، فليحتفظ الحكماء والمستخدمون بتركته . وإذا حضر وأثبت استحقاقه فى مجلس الحكم بالباب على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتباب ، فليخرج الأمر بتسليمه اليه .
- (٧) يعتمد القاضى ذلك بالباب ، ويصدر الإعلام به الى سائر النواب . وبعد تلاوة هذا التوقيع بالمسجدين الجامعين (٢) ، بالمعزية القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رؤوس الأشهاد ، ترسل نسخ منه الى جميع النواب عنه فى البلاد ؛ وليؤخذ فى مجلس الحكم بعد ثبوته فى ديوانى المجلس والخاص الآمرى .

للبتين بقيتا من ذى القعدة سنة ٥١٦ هـ (٣) “

ومما هو جدير بالذكر أن تغير قانون الوراثة أوائل القرن الرابع فى حكم العباسيين قبل هذا التغير الذى حصل فى عهد الفاطميين . وذلك أنه فى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) مات ببغداد رجل من أصحاب اليسار يدعى أبا عيسى أحمد ، ولم يخلف ولدا ، فألت ثروته الى بيت المال بمقتضى قانون الوراثة المعمول به فى ذلك الحين (٤) .

(١) سورة ٨ آية ٧٦

(٢) جامع عمرو والجامع الأزهر .

(٣) الحنفى الكبير للقرزى ، لندن ، مخطوط ١٦٤٧ ، المجلد الثالث ، ورقة ١٩٥ أ — ١٩٧ ب .

(٤) هلال الصابى ، تاريخ الوزراء ص ٢٤٦

حدث ذلك في خلافة المعتمد العباسي ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ (٨٦٩ — ٨٩٢ م) ، فأمر خلفه المعتمد ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ (٨٩٢ — ٩٠٢ م) بإرجاع القانون الى ما كان عليه من قبل . وظل الحال على ذلك الى عهد المكتفي ٢٨٩ — ٢٩٥ هـ (٩٠٢ — ٩٠٨ م) ^(١) ، فصدرت الأحكام في الميراث على حسب التعديل الذي أدخل على هذا القانون ^(٢) .

ولقد أنكر هذا التعديل الوزير أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات ، وعدّه مخالفا لما جرى به قانون مذهب السنة ، فحصل على موافقة الخليفة بتعديل قانون الوراثة ، وصدر مرسوم مذيّل بامضاء الخليفة المقتردي قضى ^(٣) :

١ — بأن يُصَرَّف القائمون بأعمال الموارث في سائر النواحي ويبتل أمرهم ، ويرد النظر في أعمال الموارث الى الحكماء على ما كان يجري عليه قبل أيام المعتمد على الله .

٢ — وبأن يُردَّ على ذوى الأرحام ما أوجب الله عز وجل ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ، ومن اتبعهم من أئمة الهدى .

٣ — وبأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثا على أهل ملته .

٤ — وأن يعمل على اذاعة ما أمر ، وإظهاره وقراءته على الناس في المسجدين الجامعين بمدينة السلام (بغداد) ، ليكون مشهورا متعارفا ، والخبر به الى الأداني والأقاصي واصلا ^(٤) .

ولنشرع الآن في الكلام عن حالة غير المسلمين من المصريين في عهد الفاطميين .

كان الأقباط عادة أعرف من مواطنيهم المسلمين بالأعمال الكتابية والحسابية والتحرير في ديوان الخليفة ، وكانوا هم وبعض النصارى الملكيين يستخدمون في كافة فروع الإدارة ، وتدرجوا في المناصب حتى أُسندت إليهم الوزارة .

(١) هلال الصابئ ص ٢٤٧ — ٢٤٨

(٢) شرحه ص ٢٤٨

(٣) شرحه ص ٢٤٨

(٤) شرحه ص ٢٤٨ — ٢٥٣

ولقد حازت هذه السياسة القبول من الوجهة العملية . إلا أنه قد دبت الكراهة لهم في النفوس عند ما أصبح منهم كل جباة الضرائب والقائمون على أموال الدولة .

ويقول أوليري (O'Leary) : "إن النظام الإدارى للشئون المالية في الشرق قد أمد القبط واليهود بفرصة أظهرها فيها ما انطوت عليه نفوسهم من الظلم والخيانة ، تلك العواطف التى لم يستطيعوا كبح جماحها ؛ حتى لقد قام الدليل على صحة ما رُموا به من التهم الكثيرة . على أن استخدام النصارى واليهود في المناصب المدنية هو عُرف شائع قليلا أو كثيرا في البلاد الإسلامية ، فقد بالغ الفاطميون أنفسهم في استعماله أكثر مما جرت به العادة من قبل"^(١) .

والآن نبحث في سياسة الفاطميين مع المصريين . ويمكن تقسيم هذا الموضوع الى ثلاثة أقسام من حيث العلاقة التى كانت بينهم وبين : (١) أهل الذمة — وهم النصارى واليهود (٢) أهل السنة (٣) السكان عامة .

(١) O' Leary De Leacy, p. 114

الباب السادس

سياسة الفاطميين للمصريين

١ - سياسة الفاطميين للنصارى واليهود

سنبين فى هذا الباب كيف كانت أعمال الفاطميين السياسية والدينية موجهة الى غاية واحدة ، هى العمل بكل جد لخلق التماس على اعتناق مذهبهم وجعل المذهب الفاطمى سائدا فى كافة أنحاء الديار المصرية وغيرها من البلاد التى كانت تحت حكمها .

لقد كان العزيز يعطف على النصارى واليهود كما كان أبوه قبله . ولكن العزيز كان أكثر عطفًا على النصارى لما كان بينه وبينهم من صلة النسب ؛ فانه تزوج بنصرانية وعمل على تعيين أخويها بطريقتين ملكيين — أعنى بطريقتين للكنيسة التابعة للكنيسة الاغريقية الأرثوذكسية المخالفة للكنيسة اليعاقبة — وجعل أحدهما فى الاسكندرية ، والآخر فى بيت المقدس (١) .

ولقد توالى عطف الخليفة على الكنيسة القبطية ، كما توالى أيضا على جماعة الملكيين التى كانت تتبعها زوجتيه ، وسمح للبطريق القبطى إفرام بأعادة كنيسة أبى سيفين المحترقة بظاهر القسطنطينية (٢) .

ورفع العزيز عيسى بن نسطورس الى كرسى الوزارة ، كما عين منشأ اليهودى والبا على الشام . فأظهر ابن نسطورس ومنشأ محابة جليلة لبنى ملتهم ؛ فعينوه فى مناصب الدولة بعد أن أقصوا المسلمين عنها (٣) ؛ ومن ثم عاد شعور الكراهة نحو أبناء الطائفتين اليهود والنصارى . ولقد تجلى

(١) يحيى بن سعيد ص ١٤٤ — ١٤٥

(٢) أبو صالح ص ٤٦٤٥

(٣) أبو شجاع ص ١٨٦ Mann : The Jews in Egypt, etc., pp. 19, 20

ذلك الشعور ، فقدّم المسلمون الاحتجاجات على تلك المحاباة التي أظهرها الخليفة لغير المسلمين .
ويبلغ من حال هؤلاء الساخطين أن كتب أحدهم شكاية وأعطاهام امرأة^(١) ، ورغبها
بالمال لتقف في سبيل الخليفة العزيز^(٢) وتقدمها إليه ، وفيها : ” بالذي أعزّ النصارى بعيسى
ابن نسطورس ، واليهود بمنشا بن ابراهيم القّرار ، وأذل المسلمين بك ، إلّا نظرت في أمرى ؟ ”

ويقول أبو شجاع إن العزيز أمر بالبحث عن هذه المرأة ، فلم يعثروا عليها . فأمر في الحال
بالقبض على ابن نسطورس^(٣) وسائر الكّاب من النصارى ، وكتب إلى الشام بالقبض على منشا
وغيره من الموظفين اليهود ؛ وأمر برد الدواوين والأعمال إلى الكّاب المسلمين ، وعين القضاة
للاشراف على أعمالهم في جميع أنحاء الإمبراطورية الفاطمية . ولكن الأميرة ست الملك ابنة الخليفة
شفعت له ، فرد العزيز الوزارة إلى ابن نسطورس ثانيا ، وشرط عليه استخدام المسلمين في دواوين
الحكومة^(٤) .

(١) روى أبو الفدا (ج ٢ ص ١٣٨) وابن اياس (ج ١ ص ٤٧ و ٤٨) عن المسبحي ، أن هذه المرأة
التي اعترضت العزيز لم تكن امرأة حقيقية ، وإنما هي صورة مصنوعة من الورق على هيئة امرأة . ويقول ابن اياس
إن الصورة كانت عبارة عن مبخرة حديدية في زى امرأة ، ويدها ممتدة بالشكوى ؛ وهذا يخالف ما ذكره أبو شجاع
وقهره من الكّاب الذين عاشوا قبله كآبن القلاسي (ص ٣٣) ، بل وغيره من المؤرخين الذين جاءوا بعده كالسيوطي (ج ٢
ص ١٧) .

(٢) ذكر أوليري (ص ١٤٣) أن هذه الحادثة كانت في خلافة الحاكم ؛ وربما كان ذلك لأن أبا الفدا ، الذي
روى أوليري عنه هذه الحكاية ، قد ذكرها عند كلامه على سنة ٣٨٦ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها العزيز وتولى الحاكم .
ويظهر لنا أن رواية أبي الفدا لا تعتمد على مرجع صحيح ؛ لأن هذه الحادثة وقعت في سنة ٣٨٠ هـ (انظر ” أبو شجاع “
ص ١٨٦ وابن القلاسي ص ٣٣) .

(٣) ذكر ابن زولاق (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ١٥٠) أن العزيز ” أرسل من وقته
وساعته و صلب النصارى على باب القصر ، وأرسل لليهودى بدمشق ، و صلبه على باب المدينة “ . ولكن ابن زولاق
لم يبين لنا أن كانت هذه المدينة هي القاهرة أو دمشق . على أنه يظهر من كلام ابن زولاق أن الصلب كان على باب
القاهرة ؛ لأن قوله ” أرسل لليهودى بدمشق “ (رسولا يحضره) تقرب إلى الذهن أن الصلب كان على باب مدينة القاهرة ،
وأن صلب ابن نسطورس لا يقتضى موته ، لأنه عاش بعد ذلك ما يقرب من سبع سنين . وموته مع ابن زولاق في سنة واحدة ،
وهو عمدتنا في هذه المسألة ، مما يجعل هذه الرواية أقرب إلى الصحة من غيرها ؛ فان رواية ابن اياس (ج ١ ص ٤٩)
التي نقلها عن المسبحي بأن ابن نسطورس ومنشا شقا ، وأن الأول شق على باب القصر والثاني على أحد أبواب دمشق ،
بعيدة عن الصحة ؛ لأن ابن نسطورس عاش بعد ذلك عدة سنوات .

(٤) أبو شجاع ص ١٨٧

غير أن رد ابن نسطورس إلى الوزارة لم يحز رضى المسلمين ، بل زاد في كراحتهم ؛ فسرعان ما اتفق بركان هذه الكراهة عندما ارتقى الحاكم عرش الخلافة . فتقدم الكثاميون — وهم عصب الخلافة الفاطمية وقوتها في مصر — إلى الخليفة الجديد ، طالبين عزل ابن نسطورس وتولية زعيمهم أبي عهد الحسن بن عمار ، وهددوا هذا الخليفة بالامتناع عن تقديم فروض الطاعة والولاء ، بل وبالقتل إذا لم يصنع إلى شكواهم ويعمل على تحقيق رغباتهم^(١) . فلم ير الحاكم بدا من إجابتهم . وفي ٣ شوال سنة ٣٨٦ تقلد ابن عمار أمانة الأمور ، وتلقب بأمين الدولة^(٢) . وكان الحاكم في غضون الأربع السنوات الأولى من خلافته (٣٨٦ — ٣٩٠) صغيرا لا يستطيع القيام بمهام الدولة ، فانه ارتقى عرش الخلافة في الحادية عشرة من عمره ؛ وعهد بالوزارة — التي كان يطلق عليها ” الوساطة “ في ذلك الوقت — إلى ابن عمار (٣ شوال سنة ٣٨٦ — ٢٧ شعبان سنة ٣٨٧) ، ومن بعده إلى برجوان^(٣) (٢٧ شعبان سنة ٣٨٧ — ٢٦ ربيع الثانى سنة ٣٩٠) أستاذ الحاكم ومستشاره^(٤) .

ولقد ظهر سوء إدارة ابن عمار في كثير من الأعمال بما أتاه في عهد تقلده الوساطة . إذ بالغ في محاربة الكثامين وأبطل أعطيات الأتراك^(٥) ، واعتمد على معونة أحداث المغاربة الذين أتوا من الأعمال ما أثار عليهم الأتراك وأدى إلى التطاحن بين الفريقين . وكان برجوان ينافس

(١) ابن القلائس ص ٤٤ و ٤٥ .

(٢) أبو شجاع ص ٢٢٢ .

(٣) انظر ترجمة برجوان في ابن خلكان (ج ١ ص ١١٠) . وقد أطلق عليه أبو شجاع وابن الأثير (ج ٩ ص ٤٢) أرجوان . وذكر هذا اللفظ الأستاذ مرجوليوت في ترجمته لكتاب ” تجارب الأم “ لسكويه ، المذيل بتاريخ أبي شجاع . ويستعمل هذا اللفظ في أغلب كتب تاريخ الأدب باسم برجوان ، ولا يزال باقيا الى اليوم في الحارة المسماة بحارة برجوان في القاهرة بجهة الخرقش . ويطلق عليه أبو شجاع بتليس . ونقل ناشر الأصل العربى لتاريخ أبي شجاع هذا اللفظ عن ابن القلائس (ص ٤٤) .

انظر يحيى بن سعيد (ص ١٨٤) وابن القلائس (ص ٤٤) وابن منجب (ص ٢٧) وابن ميسر (ص ٥٣) وابن خلكان (ج ١ ص ١١٠) والمقرئى (خطط ج ٢ ص ٢٨٧) .

(٤) ابن منجب ص ٢٧ .

(٥) هذه الحقيقة قد أدلى بها ابن منجب (ص ٢٧) .

ابن عمار ويناوئيه العدا ، مع تعصيد الأتراك له ؛ فكان من أثر هذا التطاحن أن هرب ابن عمار إلى الصحراء^(١) وحل محله بروجوان^(٢) .

وبالرغم مما أظهره الكّاميون من الكراهة الشديدة للنصارى واليهود ، فإن الحساكم قد قلد ابن نسطورس ديوان الخلاصة . ويغلب على الظن أن ذلك كان بسعى بروجوان ونفوذ ست الملك أخت الخليفة التي كانت السبب في حفظ حياته وإرجاعه الى مركز الوساطة . ويحدثنا ابن ميسر^(٣) أن ابن نسطورس قتل في المحرم من سنة ٣٨٧^(٤) ، أى بعد تقلده هذه الوظيفة الجديدة بعدة أشهر .

والعبارة التي أوردها لنا أبو شجاع^(٥) عن قتل ابن نسطورس تشوبها شائبة الغموض . فانه قد ذكر أن ابن عمار قتله (ابن نسطورس) وهو في الوزارة . وفي ذلك يقول : ” وكان عيسى ابن نسطورس على حاله في الوزارة ، فبلغه عنه ما أنكره فضرب عنقه “^(٦)

ولعل هذا الغموض الذى يبدو في عبارة أبى شجاع يرجع الى جهله بالتاريخ الذى تقلده فيه ابن عمار مقاليد الوساطة (الوزارة) ؛ ويؤيد ذلك أنه لم يذكر لنا شيئا عن هذا التقليد . ولكن ما ذكره أبو شجاع من زعامة ابن عمار للكّامين وتلقيبه بأمين الدولة ، يجعلنا نميل الى القول بأنه تقلد الوزارة قبل قتل ابن نسطورس .

يضاف الى ذلك ما قاله يحيى بن سعيد من أن ابن نسطورس لم يكن حين وفاته في دست الوزارة حيث يقول : ” وكان عيسى بن نسطورس قد رسم أيام نظره رسوما جائرة ، وأحدث مكوسا زائدة فحذف ابن عمار جميع ذلك ورد الأمور الى ما كانت عليه ، وقبض على ابن نسطورس واعتقله ثم قتله “^(٧) .

(١) ذكر ابن منجب (ص ٢٧) أن ابن عمار قدم استقالته الى الخليفة الذى بادر الى قبولها وعين بروجوان في محله . ولكن فراره الى الصحراء مع جماعة من أعوانه وبقاءه مختفيا مدة من الزمن الى أن أتمته بروجوان ، يقرب الى الظن أنه لم يستقل (انظر أبا شجاع ص ٢٢٦) . وقال يحيى بن سعيد (ص ١٨١) إنه بقى مختفيا في داره في القاهرة ؛ وخالفه ابن القلانسي في ذلك فقال ان ابن عمار اختفى في بيت رجل من العامة ؛ وهذا أرجح في نظرنا .

(٢) ابن القلانسي ص ٤٤

(٣) ص ٥١ و ٥٤

(٤) يقول المقرئ (خطوط ج ٢ ص ٢٨٧) إن وفاة ابن نسطورس كانت في سنة ٤٠٣ ، وهو خطأ واضح .

(٥) يظهر أن ابن القلانسي (ص ٣٣) قد نقل هذه العبارة .

(٦) ص ٢٢٣

(٧) ص ١٨٠

ومع ذلك فإن ما أورده يحيى بن سعيد يناقض ما ذكره ابن ميسر^(١) ، من أن ابن نسطورس تقلد ديوان الخليفة الى أن قتل بعد شهر قلائل .

وإنما نيل الى صحة عبارة ابن منجب ونراها أرجح من رواية يحيى بن سعيد ، ولو أن وفاته (٥٤٢ هـ) كانت بعد وفاة يحيى بن سعيد (٤٥٨ هـ) بما يقرب من ثمانين سنة . فانه فضلا عن كونه مصرى المولد والدار ، فقد تقلد أيضا ديوان الرسائل ؛ فيحتمل أن يكون قد حصل على هذه الأخبار من وثائق رسمية . وإذا فأننا أرجح أن ابن نسطورس قد نقل الى ديوان الخليفة عند صرفه من الوزارة ، أو بعد ذلك بقليل ، وأنه قد اتهم بالعبث بأموال الدولة ، فأعطى بذلك خصمه زعيم الكّامين سلاحا للتخلص منه بقتله .

ولقد ظل الخليفة الحاكم تحت إشراف برجوان الى اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة ٣٩٠ هـ ، وهو اليوم الذى قتل فيه برجوان^(٢) . وفى الشطر الأول من خلافة الحاكم (٣٩٠ - ٣٩٥ هـ) ، حين أصبح عقله مختلا وسياسته مضطربة ، أظهر تعصبا شديدا للمذهب الفاطمى . وفى الشطر الثانى من خلافته (٣٩٦ - ٤٠١ هـ) ، اضطرب أن يغير سياسة التعصب المذهبي ، لما كان من اضطراب جبل الأمور فى داخل البلاد ، بسبب ما نزل بها من المجاعة والفتنة وتهديد الأعداء بالإغارة على حدودها الغربية ؛ فكان لا بد له من القضاء على الثورة الداخلية وصد هؤلاء الأعداء المهاجمين .

ففى سنة ٣٩٣ هـ نشط فى عمارة المساجد وفى إغداق الإحسان على المساجد . واهتم مع ذلك بتشجيع مبادئ المذهب الفاطمى ، وقسا على اليهود والنصارى فى المعاملة ، مسوقا بضغظ الرأى العام الذى لا يُشك فى أنه قد هاجمه ما رآه من الخلفاء الفاطميين من محاباة غير المسلمين^(٣) .

كان من أثر هذه السياسة التى جرى عليها الحاكم أن قتل فهد بن ابراهيم فى الثامن من جمادى الأولى سنة ٣٩٣ هـ . وقد بينا قبل أن برجوان تقلد الوساطة فى السابع والعشرين من

(١) ص ٥٤

(٢) ذكر هذا التاريخ ابن منجب (ص ٢٧) . وقال أبو شجاع (ص ٢٣٠ و ٢٣١) بعد أن أدلى بالأسباب التى أفضت الى قتل برجوان ، إن وفاته كانت فى سنة ٣٨١ ، أى قبل ولاية الحاكم الخلافة بخمس سنين . وذكر ابن القلانسى (ص ٥٥) أن الخطوط التى اتخذت لقتل برجوان بدأت فى سنة ٣٨٩ . واتفق الذهبي مع ابن منجب (شرح ، حاشية ١) ، فذكر كل منهما أن وفاة برجوان كانت سنة ٣٩٠ هـ .

(٣) O'Leary, 143.

رمضان سنة ٣٨٧ هـ ، وجعل فهدا كاتباً له ، وتلقب بالرئيس ، وعهد إليه بفض الشكايات والاشراف على غلمان القصر ، ومعاونة برجوان في ادارة شئون الدولة والنيابة عنه اذا غاب . فلما مات برجوان وحل محله الحسين بن جوهر ، كان فهد معه كما كان مع سلفه ، وبقي كذلك الى أن قتل في أيامه^(١) .

ولقد كان لتعصب الجمهور وتعصب الحكّامين بوجه خاص ، وروح التبرم التي أثارته عليه حفيظة رجال الدولة ، وشعور الكراهة التي سادت النفوس ضد النصارى تأثير كبير في قتل فهد بن ابراهيم .

ففى جمادى الثانية من سنة ٣٩٣ هـ أشار ابن العداس — وكان من وزراء العزيز الفاطمى — على أبى طاهر النحوى الذى كان يعرف بالكاتب ، وكان يتولى ديوان الشام^(٢) ، أن يخبر الخليفة بما تشكوه العامة من النصارى ومناصرة فهد لهم وتفويضه اليهم الأموال والدواوين^(٣) ، وأن يضيف الى ذلك أن فهدا ” آفة على المسلمين وعدة للنصارى “ .

وقد أجاب أبو طاهر الى ذلك . ولقى الحاكم عشية ذلك اليوم وكرر ما كان قد سمعه من ابن العداس ثم قال : ” يا مولانا ! ان كنت تؤثر جمع الأموال واعزاز الإسلام ، فأرني رأس فهد بن ابراهيم فى طست ، وإلا لم يتم من هذا شيء “ . فقال الحاكم : ” ويحك ! ومن يقوم بهذا الأمر “ ؟ فاقترح اسم ابن العداس ؛ فرضى الحاكم على كره منه ، كما يظهر ذلك من ملاحظته على كلام ابن النحوى^(٤) .

ثم أعلم ابن النحوى ابن العداس بما كان من موافقة الخليفة ؛ فلم يشك هذا فى أن الحاكم سوف يشار لقتل فهد وقال له : ” ويحك ! قتلتنى وقتلت نفسك “ .

وان هذا رأى الذى أبداه ابن العداس ، يبين بوضوح أن الحاكم شعر بشيء من التبرم لارتكاب هذا العدوان على رعاياه من غير المسلمين . وعلى كل ، فقد خلف ابن العداس فهدا فى مركزه ؛ ولم يمض تسعة وعشرون يوماً حتى قتل وأحرق (٦ شعبان سنة ٣٩٣) .

(١) يحيى بن سعيد (ص ١٨٥) ، وابن القلانسى (ص ٥٦)

(٢) كان أبو طاهر متقلداً ديوان الجواز على ما ذكره ابن القلانسى (ص ٥٩) .

(٣) ابن القلانسى (ص ٥٩) .

(٤) ابن القلانسى (ص ٥٩ و ٦٠) ، والمقرئى خطط (ج ٢ ص ٣١) .

وفي الخامس عشر من رجب — أى بعد مقتل فهد بأسبوع واحد — لحق به أبو طاهر (١). أما فهد ، فإن الحاكم أحضر أولاده على أثر مقتله ، وخلع عليهم وكتب لهم سجيلا بجماعتهم ومنع الأذى عنهم (٢) .

وكانت الخطوة الأولى التي اتخذها الحاكم لتنفيذ سياسته أن اشتد على كبار موظفيه وحملهم على الاسلام ، ليزيل بذلك الأمور التي اتهموا بها ، فأمر بالقبض على بعض رؤساء الكُتَّاب من النصارى . ولكن الحاكم قد أطلق سراحهم وأعيدوا الى مراكزهم بشفاعة أبي الفتح سهل بن مُقشَّر النصراني ، طبيب الخليفة الخاص الذي كان مقربا منه كما كان مقربا من أبيه العزيز (٣) .

وفي سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ — ١٠٠٥ م) أمر الحاكم النصارى واليهود بشد الزنار وليس الغيار (٤) . وفي سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ — ١٠٠٨ م) بدأت سياسة الحاكم العدائية إزاء النصارى واليهود ، فهدم بعض الكنائس ونهب البعض ، واستولى المسلمون على ما فيها من الأواني المقدسة والأثاث ، وبيعت الأواني في الأسواق (٥) .

وقال يحيى بن سعيد (٦) إنه قد سمح للنصارى بأن يبنوا ثلاث كنائس في مقابل الكنائس التي هدمت . وقد يكون السبب الذي دعا الى ذلك أن موقع الكنائس التي بنى على أطلالها مسجدا الحاكم وراشدة قد اعتبر من المنافع العامة ، فهدمت لذلك لاشيء آخر .

وفي سنة ٤٠٠ هـ تقلد الوزارة منصور بن عبّدون النصراني بدل صالح بن عليّ الروذباري (٧) (١١ صفر سنة ٤٠٠) ، في وقت كان الاضطهاد قائما على قدم وساق . ولقد أطلقت يد ابن

(١) ابن القلانسي (ص ٦٠ و ٦١) .

لقد تناول كل من أبي شجاع (ص ٢٢٦ و ٢٣٠ و ٢٣٢ و ٢٣٦) ويحيى بن سعيد (ص ١٨٥) الكلام على هذه المسائل بإيجاز .

(٢) ابن القلانسي (ص ٦٠) .

(٣) يحيى بن سعيد (ص ١٨٥ و ١٨٦) ، والقفطي (١٧٨ و ٤٢٨) .

(٤) هو الشارة التي يعرف بها كل من الرعايا غير المسلمين التابعين للحكومة الاسلامية .

(٥) يحيى بن سعيد ص ١٨٦ و ١٩٥ .

(٦) ص ١٨٦ .

(٧) هذا اللفظ مشتق من روذبار وهي ، على ما ذكره السمعاني (كتاب الأنساب ورقة ٢٦١ ب) ، أما كن ممية تقع في جهات مختلفة على الأنهار الكبيرة . ويطلق هذا اللفظ كذلك على قرى كثيرة تقع على مقربة من أصفهان ، وعلى قرية قرية من بغداد .

عبدون وأصبحت له السلطة التامة في إدارة البلاد ، حتى إنه كان يوقع نيابة عن الخليفة .
وعهد تقلد ابن عبدون الوزارة أمر جدير بالملاحظة ، لما كان من إشارته على الخليفة بوجوب هدم
كنيسة القمامة^(١) في بيت المقدس^(٢) .

وقد أصدر الحاكم الأوامر بمنع النصارى من الاحتفال بالتوروز على شواطئ النيل ، وحرّم
الألعاب التي كانت تقام عند الاحتفال بهذا العيد^(٣) .

ويقول ابن زولاق إن المعز أبطل إقامة هذا الاحتفال (وربما كان ابنه العزيز هو الذي أعاده)
بسبب ما كان يلازمه من المفاسد ؛ فكان ينادى بعدم الاحتفال وصلب كل من لم يطع أمره .
ونحن ننقل قول ابن زولاق للقارىء : ” ثم لما تولى المعز بمصر ، منع القبط من صب
المياه في يوم التوروز في الطرقات ، ووقود النار [في] تلك الليلة ، ومن النزول في المراكب ،
وضرب الخيام على شاطئ البحر (يعنى النيل) عند المقياس ، لأنه كانت تحصل بسبب ذلك مفساد
عظيمة ؛ فأبطل ذلك جميعه ، ونادى أن كل من يفعل ذلك يصلب “^(٤) .

ولقد اتسع نطاق اضطهاد النصارى الذي قام به الحاكم . وربما كان ذلك ناشئاً من إسناده
مركز الوزارة إلى بعض النصارى واليهود ؛ فقد كان ذلك يوغر صدور المسلمين عليهم . ولما غضب
عليهم الحاكم ، اشتدت حكومته عليهم في تنفيذ الأوامر التي تقضى بلبس الغيار .

فى المحرم سنة ٤٠١ أقال ابن عبدون من الوزارة بعد أن تقلدها أحد عشر شهراً ، وترجع
في دستها رجل من المسلمين ، هو أحمد بن محمد القشيري^(٥) . ولكن هذا عزل بعد عشرة أيام^(٦) ،

(١) إطلاق لفظ القمامة على الكنيسة المعروفة في القدس ، لأن موضعها كان قد اتخذته اليهود مزبلة ، حتى جاءت هيلانة
أم قسطنطين وسألت عن المكان الذي يزعمون أن المسيح صلب و غسل ودفن فيه ، فدلّت على القمامة . فأزالته منه القمامات وبنت
في موضعها الكنيسة . ويطلق هذا اللفظ أحياناً على الكنيسة بغير أداة التعريف .

(٢) يحيى بن سعيد ص ١٩٤ ، ابن القلائس ص ٦١ و ٦٧

(٣) يحيى بن سعيد ص ١٩٦

(٤) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٤٨ أ . ذكر ابن ميسر (ص ٤٦) وابن إياس عن المسيحي
(جزء ١ ص ٤٦) أن المعز أصدر الأوامر بمنع إيقاد النيران في الليلة التي قبل يوم التوروز ، ومنع صب الماء
في هذا اليوم .

(٥) قد أورده يحيى بن سعيد (ص ١٩٨) القسورى . ويحتمل أن يكون هذا اللفظ محرفاً عن لفظ القشيري (انظر كتاب
الأنساب للسماعى ، ورقة ٤٥٥ ب) . وذكره ابن منجب (ص ٢٨) قسورى ، وصححه كما ذكره السماعى (كتاب
الأنساب ، ورقة ٤٥٣ أ وما يتبعها) قشيري ، منسوب الى بن قشيرهى قبيلة كانت تقيم في البصرة ، ينتسب اليها المحدث
المشهور مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري صاحب الصحيح .

(٦) أوتسمة أيام على ما ذكره يحيى بن سعيد ص ١٩٨

ثم قتل وحل محله في الوزارة زُرعة أخو عيسى بن نسطورس ، وتلقب بالشافى ، وظل يطلق عليه هذا اللقب الى حين وفاته في صفر سنة ٤٠٣ هـ^(١) .

وفي ذلك الوقت بدأت سياسة الحاكم تظهر بمظهر أكثر تقبلا وتذبذا ، وأصبح عقله أكثر ارتباكا واضطرابا . أما سياسته مع غير المسلمين ، وخاصة النصارى ، فقد كانت تابعة لرأى جمهور الأمة . ولم يكن استيائهم راجعا لنحلهم الدينية فحسب ، بل ولأنهم كانوا يشتغلون بجمع الضرائب .

وفي سنى ٤٠٠ و ٤٠١ هـ لم يقتصر الاضطهاد على غير المسلمين ، بل تعداهم الى بعض ذوى المناصب العالية من الفاطميين ، ثم انتهى بشموله جميع السكان على اختلاف طبقاتهم . فهرب من البلاد الحسين بن جوهر وأولاده ، وعبد العزيز بن النعمان قاضى القضاة سابقا ، وأبو القاسم الحسين المغربي^(٢) ، من الوزراء السابقين ، وقتل كثير من كتاب " البلاط " والدواوين وخدام القصر . وفي شوال سنة ٤٠٠ قتل صالح بن على الروذبارى الذى كان قد أقيـل وحل محله ابن عبدون . وقتل أيضا أحمد بن محمد القشـيرى (١٤ المحرم سنة ٤٠١) ، ولحق به بعد قليل ابن عبدون وصودرت أملاكه . كذلك قتل الحسين بن جوهر والحسين بن النعمان وصودرت أموالهما ، بعد أن أخذنا من الحاكم أمانا حادا على إثـره الى القاهرة^(٣) .

وفي سنة ٤٠٢ هـ صدرت قوانين ضد النصارى واليهود أكثر صرامة من القوانين التى سبقتها . فقد أمرهم الحاكم بلبس الطيالس وبوضع صلبان على أعناقهم ، طول كل صليب منها قدم وزنته خمسة أرتال (أى ما يقرب من عشرة أرتال الآن) ، وأمر اليهود بحمل قرأى الخشب فى رقابهم ، زنة كل منها زنة صليب النصارى ، وألا يركبوا الدواب المحلاة السروج ، وأن تكون ركابهم من خشب ، وألا يستخدموا أحدا من المسلمين ، وألا يركبوا حمارا لمكابر مسلم ، ولا سفينة ربانها مسلم ؛ وأن تكون الصلبان فى أعناق النصارى اذا دخلوا الحمامات العامة ،

(١) يحيى بن سعيد (ص ١٩٨ و ١٩٩) .

وقد رافانا ابن منجب (ص ٢٨) بتاريخ وفاته .

(٢) قتل ابنه محمد بعد مقتل ابن النعمان والحسين بن جوهر (أبو شجاع ص ٢٣٣) .

(٣) ابن الفلاسـى (ص ٦١) .

والجلال في أعناق اليهود لتمييزوا بذلك عن المسلمين^(١). ثم افرد في سنة ٤٠٨ حمامات اليهود^(٢) وحمامات النصارى عن حمامات المسلمين ، وميز حمامات النصارى بوضع الصليبان فوقها ، وميز حمامات اليهود بالقراى^(٣) .

ومن الصعب علينا أن نحدد الوقت الذي انتهى فيه الاضطهاد تحديدا تماما . ولكننا نظن — كما يظن دى ساسى — أن وطائمه أخذت تتخف حول سنة ٤٠٠^(٤) . وزادنا دى ساسى أنه حول سنة ٤٠٤ اجتمع النصارى واليهود وقابلوا الحاكم ، كما يعلم ذلك من كتب الدروز .

وبينا كان الحاكم يسير يوما في مقبرة قباب الطير ، اذ قابله جماعة من ممثلى الطائفتين ، وكانوا في انتظاره ، واستأذنوه في الكلام والتعبير عما خالج نفوسهم من أحزان وآلام . فأذن لهم وأمنهم ، وأعطاهم الحرية في القول ؛ فتكلموا وقالوا له إن سلوكه معهم يغير ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ، وسألوه كيف يبرر هذه السياسة التى تناقض العهد والميثاق الذى أعطى لهم . فأمرهم بالانصراف والحضور لمقابلاته في نفس المكان من الليلة التالية مع علمائهم ، وأكد لهم أنه لا يتألم منه ضرر اذا ما تكلموا عما بأنفسهم .

وفي الليلة التالية ، أخبرهم الحاكم بأن هذا السلوك الذى كان في عهد النبي ، كان القصد منه الترغيب في الدخول في الدين الاسلامى ؛ ولكنه لم يؤت ثمرته المنتظرة . والآن وقد مضى على الاسلام أربعة قرون ، وكان في مكنتهم الدخول فيه ، لأنه في تناول كل انسان ، وكانت مبادئه تحت أنظار الجميع ، وفي قدرتهم أن يفحصوها ويحسوها ، "فليس لكم الآن عندي الا اختيار واحدة من اثنتين : اما اعتناق الاسلام بعد كل هذا التأخير ، واما العقوبة العاجلة اذا أبيت الدخول فيه" . فلم يحسر المندوبون على الاحتجاج على ما فاه به الخليفة وانصرفوا من حضرته^(٥) .

(١) يحيى بن سعيد (ص ١٨٧) .

(٢) يظهر من كلام ابن زولا (ورقة ١٥١ أ) وابن إياس (ج ١ ص ٥٠) أن تخصيص حارة زويلة لليهود كان في ذلك الوقت .

(٣) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

(٤) Vie de Khalife Hakem-Biamr—Allah, Vol. I, P. 376 .

(٥) شرحه (ج ١ ص ٣٧٦) وما يتبعها .

ويحدثنا يحيى بن سعيد^(١) أن الحاكم أجاز لليهود والنصارى الذين لم يدخلوا في الاسلام ولم يخضعوا لقوانينه بالهجرة الى بلاد الأغرريق^(٢) . فهاجر كثير منهم الى بلاد الدولة الرومانية الشرقية ، وإلى بلاد النوبة والحبشة ؛ ومن بقى منهم دخل في الاسلام^(٣) .

كانت سياسة الحاكم مضطربة لا تستقر على حال . ففي سنة ٤١١ هـ تأثر بتعاليم الدرزي الذي كان ينادى بأن روح الاله حلت في الحاكم^(٤) ؛ وكذلك تأثر بتعاليم الأخرم الذي نادى بكل جسارة في المسجد العتيق وبحضرة قاضي القضاة ، ” باسم الحاكم الرحمن الرحيم ! “ ؛ وبذلك أعطاه الصفات التي هي من صفات الله سبحانه . كما أنه تأثر بتعاليم حمزة الذي كان أصحابه يركعون^(٥) . عندما يرون الحاكم في الشوارع ويصيحون قائلين له : ” أنت الواحد الأحد والمحبي الميت “ . وبذلك انصرفت الحكومة الفاطمية عن تأييد المذهب الفاطمي الى تأييد هذه العقائد الجديدة .

انتهى في ذلك الوقت اضطهاد النصارى واليهود تماما ؛ وزاد اختلال عقل الحاكم ، فاعتقد أنه الشخص الأعلى والمخلوق الأعظم ، وأن الاسلام ليس بأرقى من الأديان الأخرى . وهذا التغير الفجائي في سياسة الحاكم كان في غضون المدة من سنة ٤٠٨ هـ الى ٤١١ هـ . ولا شك في أن هذا الانقلاب كان راجعا الى التعاليم الاسماعيلية التي تلقاها في أرقى درجاتها من الغلو .

ففي سنة ٤١١ هـ (نوفبر - ديسمبر سنة ١٠٢٠) رجع جماعة ممن اعتنقوا الاسلام خوفا الى دينهم القديم^(٦) . وفيها أمر الحاكم باعادة بناء الكنائس التي كان قد هدمها ، وأعاد اليها

(١) (ص ٢٠٧)

(٢) ذكر المقرئ (خطط ج ٢ ص ٢٨٨) أن كافة النصارى واليهود أمروا بالهجرة الى بلاد الاغريق . ويظهر أن دى سامي (Vie de Khalife Hakem, etc. Vol. I p. 376) أخذ عبارته عن يحيى بن سعيد (ص ٢٠٧) .

(٣) المقرئ (خطط ج ٢ ص ٢٨٨) .

(٤) يحيى بن سعيد (ص ٢٢٠ و ٢٢١) .

(٥) ذكر أبو المحاسن (ج ٢ رقم ١ ص ٩٧) أن عادة الركوع كانت شائعة منذ سنة ٣٩٦ هـ ، حين أقيمت الخطبة للحاكم ، لا في مصر وحدها ، بل وفي المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، وسائر الولايات الفاطمية .

(٦) يقول ابن زولاق (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥١ ب ، وابن إياس ج ١ ص ٥١) أنه قد ارتد أكثر من سبعة آلاف يهودي الى دينهم القديم في يوم واحد .

أَمْلَاكُهَا . وكان من أثر هذا التغير الجديد في سياسة الحاكم إزاء النصارى واليهود أن عاد إلى مصر كثير من كانوا قد هاجروا إلى البلاد الأجنبية — وذلك في سنة ٤١١ هـ ، وهي السنة التي انتهى فيها الاضطهاد^(١) .

هكذا كان مسلك الحاكم طوال حياته في منتهى الغرابة . وبعد وفاته ، أو بعبارة أدق بعد انتهاء اضطهاده الذي دام تسع سنين (٣٩٨ — ٤٠٧ هـ) ، تمتع النصارى واليهود بحريتهم الدينية في عهد الخلفاء من بعده ؛ وأخذ الشعور العدائى الذى كان فى نفوس المسلمين نحو مخالفيهم فى الدين يقل ويضعف . وما كان يظهر له أثر إلا فى فترات قصيرة ، وبخاصة عند ما يتقلد نصرانى أو يهودى منصباً من مناصب الدولة ، ولا سيما الوزارة ؛ فان انتقالها إلى يد رجل من غير المسلمين يترتب عليه تقوية نفوذهم واستئثارهم بكثير من هذه المناصب .

وقد أمدنا ابن ميسر بأمثلة كثيرة من هذا النوع ، حيث يصف لنا وفاة أبى سعيد التستري اليهودى عند كلامه عن سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) . وقال إن أم الخليفة المستنصر كانت من قبل أمة فى بيت التستري ، وأنه أهداها إلى الخليفة الظاهر . وبعد وفاة الظاهر ارتفع قدر التستري وتقرب من الخليفة المستنصر ، وإن كان لم يستطع أن يناوئ سلطة الوزير أبى القاسم الجرجرى^(٢) .

ولكن بعد وفاة الجرجرى عظمت سلطة التستري ، لأنه تولى نظارة الخليفة المستنصر ، وقبض على أزمة الأمور فى عهد الوزير أبى منصور صدقة بن يوسف الفلاحى^(٣) . فخذ عليه الوزير ، لأنه لم يكن له من الوزارة معه إلا الاسم فقط^(٤) .

أما الأسباب التى أدت إلى قتل التستري فقد وافانا بها ابن ميسر ، فذكر أن بنى قرة من سكان البحيرة قاموا بثورة عظيمة اشتد وقعها على الدولة . فأنفذ المستنصر اليهم عزيز الدولة

(١) يحيى بن سعيد (ص ٢٣١ و ٢٣٢) .

(٢) ذكر ابن منجب (ص ٣٦) أن الجرجرى تقلد الوزارة فى ذى الحجة من سنة ٤١٨ هـ ، وأتى لنا ابن القلانسى (ص ٨٠ — ٨٤) بنص سجل تقليده الوزارة التى بقى فيها إلى حين وفاته فى ٦ رمضان سنة ٤٣٦ هـ .

(٣) أطلق عليه ابن القلانسى (ص ٨٤) أباً نصر صدقة بن يوسف .

(٤) ابن منجب ص ٧٦ و ٧٧ ، وابن ميسر ص ٢١ .

ريحان على رأس قوة كبيرة لقمعها . وكانت نتيجة انتصاره عليهم أن نال الخطوة عند الخليفة ، وشمله بعطفه ورعايته ، وقربه إليه ، واجتذب ريحان المغاربة إليه بزيادته في أعطياتهم وتقليله من أعطيات الأتراك واشتداده عليهم . فكان من أثر هذه السياسة أن وقع الخصام والتطاحن بين الفريقين . ومات ريحان في ذلك الوقت من مرض ألم به على حين غفلة ، فاتهز الوزير الفلاحى هذه الفرصة ونال من خصمه التستري القديم الذى كان يحقد عليه لاستنثاره بالسلطة دونه ، وعزا موت ريحان إلى أنه سقاه سما ونشر ذلك بين الجنود .

وفي ٣ جمادى الأولى من سنة ٤٣٩ (١٠٤٧ م) ، بينما كان التستري في طريقه الى القصر ، انقض عليه ثلاثة من الأتراك وقتلوه . ثم مثل الأتراك بجثته ، فقطعوها إربا إربا ، وأحرقوا بعضها ، ثم دفنوه في التراب ، وما بقى من جثته أخذه أهله ووضعوه في نعش وأحاطوه بالشموع الموقدة ، وتركوه في مكان منغل ، فامتدت النار إلى النعش فأحرقت به فيه (١) .

وبعد مقتل التستري أسند الخليفة المستنصر ديوان خاصته إلى أخيه أبى نصر ، وقلد ابنه إدارة أحد الدواوين الحكومية . ولكن قتل التستري قد ألم أم الخليفة ، ولم يكن بالحادث الذى تناساه . ولا غرو فقد أثار حفيظتها على الفلاحى ، فأقيل وحبس ، ثم قتل في المحرم سنة ٤٤٠ (٢) .

والحقيقة أن شعور المسلمين العدائى نحو التستري وأهل ملته كان من الشدة بحيث أعطى الفلاحى فرصة للإيقاع به . ويحدثنا ابن ميسر أن التستري كان مكروها لدى المسلمين ، وأن أبناء دينه الذين كانوا بعيدين عن مناصب الحكم بدءوا يشغلون في عهده كثيرا من مناصب الدولة ويضطهدون المسلمين إلى درجة أن شاعرا من الشعراء المعاصرين يسمى الرضى (٣) كتب هذه الأبيات :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشارُ والملكُ

(١) انظر ابن ميسر (ص ٢)

(٢) ابن منجب (ص ٣٧ و ٣٨) ، وابن ميسر (ص ٢)

(٣) يحتمل أنه الرضى بن البواب . وقد ورد في تاريخ ابن ميسر لقطة "البواب" من غير قطع ، الأمر الذى يحقق صحتها . والخطوط الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس لا يحمل هذه الصيغة ، فإن ناشر هذا الكتاب لم يستطع أن يبين صحة هذا اللفظ .

يا أهل مصر إني قد نصحت لكم تهودوا ، قد تهود الفلك (١)

(١) السيوطي (ج ٢ ص ١١٦)

وقد نقل هذه الأبيات الأستاذ أ. ج. براون في كتابه "الأدب الفارسي في عهد التار" ١٢٦٥ — ١٥٠٢ م — ص ٣٢ ، (Persian Literature under Tartar Dominion, 1265-1502 A.D., p 32) عن كتاب "تاريخي وصاف" (ألفه عبد الله بن فضل الله المعروف بوصاف الحضرة — أنظر كتاب "كشف الظنون" لحاجي خليفة ، طبعة بولاق ج ١ ص ١٨١) ، عند كلامه عن أرغون (١٢٨٤ — ١٢٩١ م) الذي كان وزيره سعد الدولة يهوديا ، وكان مكروها لدى المسلمين الذين اتهموا مولاه بأنه يكيد الاسلام ويتآمر عليه . وهذه المسألة تشبه كثيرا ما كان من التسرى مع أبناء دينه ؛ فإن اليهود قد استفادوا من مركز سعد الدولة ، وتغلغلوا في الحكومة وشغلوا كثيرا من المناصب العالية ، وزادوا في ذلك إلى درجة أحفظت المسلمين حتى نظم شاعر من الشعراء المعاصرين قصيدة نقل منها هذه الأبيات :

يهود هذا الزمان قد بلغوا مرتبة لا يناها فلك
الملك فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يامعشر الناس قد نصحت لكم تهودوا ، قد تهود الفلك
فانتظروا صيحة العذاب لهم فعن قليل تروهم هلكوا

والحق أن هذه الأبيات تشبه الأبيات الأولى في بحرهما وقافيتها ، بل وجل ألفاظها . وليس للشاعر الثاني أكثر من تغير بسيط في بعض الألفاظ . وهذا يجعلنا نرجح أن هذا الشاعر ، الذي عاش بعد الشاعر الأول بقرنين ونصف قرن قد نقل عنه البحر والقافية والمعنى وكثيرا من الألفاظ . وما يجب ملاحظته ، أن ابن ميسر ناقل الأبيات الأولى قد توفي في القرن السابع الهجري (سنة ٦٨٨ هـ) ، وصاحب "تاريخي وصاف" توفي بعد سنة ٧١٧ هـ (لم يعين حاجي خليفة تاريخ وفاة هذا الرجل) ، وهي آخر سنة تناول الكلام عليها في تاريخه (*).

والبيت الرابع من أبيات الشاعر الثاني يتنبأ بما سيحل باليهود جميعا من الاضطهاد . وقد كان ما تنبأ به هذا الشاعر . فإنه بعد مقتل سعد الدولة ووفاة أرغون ، حلت بهم الاضطهادات من نهب وقتل في كثير من الأحيان . وهناك قصيدة ثالثة من البحر والقافية لا بأس من نقل أبيات منها ، فانها تمدنا بمجادة أخرى مشابهة للحوادث السابقة . وناظم هذه القصيدة هو زين الدين بن سعيد الخطيب ؛ ومنها نستدل على ما كان يضره مسلول هذا العصر من كراهة لليهود ، وكيف كان يثار المسلمون منهم عند سماع الفرصة ، لأنهم كثيرا ما اضطهدوهم عند ما كانت أمور الدولة بأيديهم :

١ نحمد من دار باسمه الفلك هذى القروء اليهود قد هلكوا
٢ وفارق النحس سعد (†) دولتهم وافضحوا في البلاد وانتهكوا
٣ وشئت الله شمل ملكهم وبالخسام الصقيل قد سبكوا
٤ كم حكوا في البلاد لا حكوا وارتكبوا الموبقات وانتهكوا
٦ سقام الخصف سادة شخن فامتلات بالجماجم السكك
٧ واستخلصوا المال من ديارهم والحريم الحبرام قد هتكوا
١٠ فأتى شر أمة سلفت وأتم شر أمة تركوا
٢٢ هجوتهم ، أتيتي بهجوم جنان خلد يزيدا البرك
٢٣ رغما لمن قال في قصيدته "تهودوا ، قد تهود الفلك"

(*) حاجي خليفة ، طبعة القاهرة (ج ١ ص ١٨١) Browne : Persian Literature under Tartar Dominion, p. 33 seq.

(†) سعد الدولة هنا معناه حسن حظ الدولة . وفي هذا البيت من المحسنات البديعية التقابل بين لفظي سعد الذي يطلق على أثر الكواكب السعيدة ، والنحس الذي يطلق على أثر الكواكب المشئومة .

هذا ، ولقد وصف لنا ابن ميسر^(١) عند كلامه على حوادث سنة ٥٢٣ هـ (١١٢٨-١١٢٩ م) سبب موت أبي نجاح ، وهو نصراني يعرف بالراهب ، وكان موته على يد المقداد والى مدينة مصر في ذلك الوقت . وقد أمر بجثائه فُصِّل ، ثم أنزل وربط على لوح من الخشب ، ثم قذف به في النيل . وأصدرت المنشورات الى الأقاليم داعية الناس الى التفرج عليه ؛ وكان جثائه كلما جذبته التيار الى جهة من الجهات ، خرجوا لرؤيته . وكانوا يضعون في طريق الجثة شيئا يرفعها الى الأعلى ؛ فاذا تم لهم غرضهم من التفكه برؤيتها ، رفعوا هذا الحاجز ، فتتصدر الجثة الى النهر . وهكذا دواليك ، حتى سار جثائه الى البحر الأبيض المتوسط ، فكان مقره الأخير .

وزيدنا ابن ميسر أن أبا نجاح كان في مبدأ أمره في خدمة أبي البركات يوحنا بن الليث . ويظهر لنا أنه نصراني كما يدل على ذلك اسمه هذا . وقد اتصل أبو نجاح بخدمة الخليفة الأمر بعد وفاة المأمون البطائحي (٢٠ رجب سنة ٥٢٣) ، وبذل له في مصادرة قوم من النصاري مائة ألف دينار ؛ فأطلقت يده فيهم ، وامتد بلاؤه إلى كبار الموظفين ومن بينهم القضاة والكتاب ، بل وسائر الناس عامة .

وكان يجلس بالجامع العتيق ويستدعى من أراد مصادرته . وقد طلب يوما رجلا من العدول المتنازين يعرف بابن الفرس ، وهو ممن نال اجلال الناس واحترامهم ، فأهانته . فخرج من عنده ووقف في الجامع في يوم الجمعة حيث يشتد ازدحام الناس ، وصبر عما شعر به من آلام وأحزان فقال : ” يا أهل مصر ! انظروا عدل مولانا الامر في تمكينه النصراني من المسلمين “ . فهاجت هذه الكلمات عوامل الغضب في النفوس ، وكادت تُفضي الى نشوب الفتن والاضطرابات ، لولا أن تداخل خواص الخليفة في الأمر ، وأعلموا مولاهم بما حل بالمسلمين من عدوان الوزير ، وخوفوه سوء العاقبة^(٢) .

فبعث الخليفة في طلب أبي نجاح . فلما مثل بين يديه انطلق رجل من الأشراف كان في حضرته ، فأنشده هذا البيت :

ان الذي شُرِّفَ من أجله يزعم هذا أنه كاذب

وعندئذ التفت الخليفة الى أبي نجاح وقال له : ماتقول ياراهب ؟ فسكت ؛ فأمر به فقتل^(٣) .

(١) ص ٧١ .

(٢) شرحه .

(٣) شرحه (٧٢ و ٧١) .

وهذه الحادثة تشبه ما حدثنا به ابن ميسر عند كلامه على سنتي ٥٢٩ و ٥٣٥ ، حيث يقول إنه في ١٦ جمادى الثانية^(١) من سنة ٥٢٩ ، قدم الى القاهرة بهرام الأرمني والى الغربية ، فحاصرها يوما ؛ فرأى الخليفة الحافظ أن يوليه الوزارة ؛ فأشار عليه بعض خاصته أن يعدل عن هذا الرأي : أولا — لأنه نصراني ، فلا يرضى عنه المسلمون اذا تقلد هذا المنصب .

ثانيا — ان الوزير كان حتما عليه أن يصعد المنبر مع الامام في الأعياد ليزرر عليه المَزَرَة (الستارة) التي تحجبه عن الناس .

ثالثا — ان القضاة كانوا نواب الوزراء منذ أيام أمير الجيوش . وكانت هذه النيابة تذكر في الوثائق الرسمية التي تنفذ الى الآفاق ، كما كانت تكتب أيضا في وثائق الزواج^(٢) .

فلما أصبح الحافظ لقول النصحاء ، وتقلد بهرام الوزارة بالرغم من نفور الناس من هذا التقليد الذي لم يدم طويلا^(٣) .

ويزيدنا ابن ميسر على ما تقدم أن نفوذ بهرام سرعان ما تزايد ، وأنه سأل الخليفة أن يأذن له باحضار إخوته وأهله وكانوا في تل باشروأرمينية ، ومالبت أن بلغ عدد الأرمن ثلاثين ألفا بعد زمن قصير ؛ فسلكوا مع المسلمين مسلكا عدائيا وصادروهم في أموالهم وجاروا عليهم ، وبنوا الكنائس والأديرة حتى بلغت من الكثرة درجة أفلقت بال المسلمين وخوفتهم عاقبة هذا وطغيان المسيحية على الاسلام .

(١) أورد ابن ميسر هذا التاريخ في محل آخر ، وهو اليوم الحادى عشر من نفس هذا الشهر .

(٢) كانت الخصال التي يختم توافرها عند تعيين القاضي ، على ما أورده الماوردى كما يأتي :

(١) أن يكون ذكرا بالفا . بيد أن أبا حنيفة يرى أنه يجوز أن تقضى المرأة فيما تصح فيه شهادتها ؛ أما الطبرى فيرى أنه يجوز أن تتولى القضاء مطلقا .

(٢) العقل ، بمعنى أن يكون صحيح التمييز جيد الفطنة بعيدا عن السهو والغلطة .

(٣) الحرية . ولكن الرق لا يمنع من الفتيا ؛ لأن مركز الاقناء لم يكن معتبرا في ولاية الحكم .

(٤) الاسلام . ولا يجوز أن يقلد الذمى القضاء على المسلمين .

(٥) العدالة .

(٦) السلامة فى البصر والسمع . ولا يعتبر مالک العمى مانعا من القضاء .

(٧) أن يكون عالما بالأحكام الشرعية ملها بأصولها وفروعها .

وبمقتضى قوانين الشريعة القراء لم يحقق فى بهرام الشرط الرابع . ويبعد أن يكون متحققا فيه الشرط السابع (الماوردى ص ١١٤) .

(٣) ابن ميسر (ص ٩٧) .

لم يجد المسلمون بدا من رفع شكاياتهم الى الخليفة من بهرام ومن أهله . وزاد في غضب المسلمين ما لاقاه أهل قوص من أخى بهرام المعروف بالبأساك واليه من الجور والظلم واستباحة الأموال . وقد ظلت الحال على ما وصفنا حتى نفذ صبر المسلمين ؛ فبعث الأمراء الى رضوان ابن الوثيقي^(١) والى الغربية يستحثونه على المسير اليهم وتخليصهم مما هم فيه من كرب وبلاء^(٢) .

فوصلت الى رضوان استغاثة الأمراء ؛ فاتجهت آماله الى الوزارة . وفي سبيل — إحدى مدن الغربية — صعد المنبر وخطب في الناس خطبة بليغة حضهم فيها على الجهاد ؛ ثم جمع ثلاثين ألف رجل سار بهم الى القاهرة . فلما دنا رضوان من هذه المدينة خرج بهرام على رأس جيش كثيف لصدهم هجائهم .

ولما تقارب الجيشان أمر رضوان برفع المصاحف على رؤوس الرماح ؛ فلم يكن من عسكر المسلمين الا أن اعتزلوا بهرام وانضوا تحت لواء رضوان . ويحدثنا ابن ميسر أن هذا الأمر كان على أثر اتفاق سابق بين المسلمين من جند بهرام وجند رضوان^(٣) . وهذه الخدعة الحربية تشبه من بعض الوجوه الخطة التي ابتدعها عمرو بن العاص في موقعة صفين المشهورة .

ولما وقف بهرام على حقيقة الحال أرسل الى الحافظ يعلمه بكل ما حدث ؛ فأمره الخليفة بالمسير الى ولاية قوص بالوجه القبلي ، والاقامة مع أخيه حتى يرى رأيه ويقرر ما ينبغي اتباعه في هذا الأمر . فعاد بهرام الى القاهرة وأخذ معه ما خف حمله وغلائمه ، وسار في الحادي عشر من شهر جمادى الأولى ؛ فأتاح مسير بهرام للغوغاء فرصة لنهب دور الأرمن في حي الحسينية — الواقع في ظاهر باب الفتوح — وبعض كنائسهم ، وبنش قبر أخيه الذي كان بطريقاً للأرمن . وفي هذا الوقت ثار أهالي قوص المسلمون على البأساك أخى بهرام وقتلوه ، وجعلوا في رجله كلباً ميتاً ، ورموا بجثته في صندوق القمامة .

(١) ذكر ابن ميسر (ص ٧٩ - ٨٠) أن رضوان كان يلى حجابة باب ابن الخليفة الحافظ وقت قتل بهرام الوزارة ؛ وكان من الأمراء ، عرف بالشجاعة والافتداف ، كما كان شوكة في جنب بهرام الذي كان يخشى منه أن يكيد له ويحل محله ؛ فجد بهرام في التخلص منه ، فولاه عسقلان في آخر رجب من سنة ٥٢٩ . ولم يكديستقر برضوان المقام في مركزه الجديد ، حتى علم بوصول جماعة من الأرمن الى عسقلان قاصدين مصر ؛ فوضع العراقي في سبيلهم وأرغم كثيرين منهم على الرجوع الى بلادهم . وكان من أثر هذه الاجراءات التي اتخذها ضد هؤلاء القوم أن صرف عن هذه الولاية ، واستدعى الى القاهرة ، وولى الغربية في صفر سنة ٥٣١

(٢) شرحه (ص ٨٠) .

(٣) شرحه (ص ٨١) .

ثم وصل بهرام الى قوص بعد قتل أخيه بيومين في جماعة من أهله وجنده ؛ فثار له ونهب المدينة وقتل الكثير من أهلها ؛ ثم رحل الى أسوان ، فأقام في الموضع الحصين المعروف بالأديرة البيض^(١) .

أما رضوان فقد خلا له الجو بمبارحة بهرام القاهرة ؛ ففقد الوزارة في الحادى عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٥٣١ ، وُخلع عليه وتلقب بالأفضل . وكان أول ما بدأ به رضوان أن أنفذ اخاه ناصر الدين على رأس جيش كثيف ، فوصلوا الى الأديرة البيض . غير أنه لم يدر بين الفريقين قتال ؛ وتم الاتفاق على أن يبقى بهرام في هذه الجهة ، وأن يُطلق من كان معه من الجند ليعودوا الى القاهرة ، ومنها يُسرحون الى بلادهم^(٢) .

ولكن هذا الاتفاق لم يطل أمده . فقد ذكر لنا ابن ميسر أن العداء ظل مستحكما بين المسلمين والأرمن الى سنة ٥٣٥ ، وأنه في سنة ٥٣٢ شدد رضوان على أعوان بهرام واستولى على أملاكهم وقتل الكثير منهم ؛ وأدى به ما كان يمحش بنفسه من حقد لبهرام الى العمل على إبادة الأرمن . ويظهر أن هذه الأعمال لم ترض الخليفة الحافظ ، بدليل أنه بعث في سنة ٥٣٣ من أحضر بهرام ، فأسكنه في قصره وأحله من نفسه محل الاكرام والتعظيم^(٣) . فعظم ذلك على رضوان ، وأخذ الحافظ يثير الجند على هذا الوزير ؛ فنشب التطاحن بين الفريقين . وطلب رضوان من الخليفة أن ينزله في القصر ؛ فلم يجب طلبه ولم يعره التفاتا ؛ فأدى ذلك الى ازدياد الوحشة والتفور بينهما .

بذلك ضعف أمر رضوان ؛ فلم يقو على منازلة خصمه ، وخرج في الخامس عشر^(٤) من شهر شوال من هذه السنة هاربا من القاهرة ، ولحق بوالى صرخد^(٥) ؛ فلقاه بالاكرا ، وأقام معه الى آخر المحرم سنة ٥٣٤ ، حيث عاد الى القاهرة على رأس جيش كثيف^(٦) ، وحارب جند الخليفة بقرب باب الفتوح . ولكنه أرغم على المسير الى الوجه القبلى ؛ وهناك طارده الأمير أبو الفضل ابن مصال ، فلحق به وأمنه . وفي اليوم الرابع من شهر ربيع الثانى ، مثل رضوان بين يدى الخليفة ؛ فأمر به فحسب في القصر^(٧) ، على حين عفا عن الجند الأتراك الذين حاربوا معه ؛ ولكنه فر في سنة ٥٤٢ هـ^(٨) .

(١) ابن ميسر (ص ٨١) . (٢) شرحه (ص ٨٢) . (٣) شرحه .

(٤) خالف ابن ميسر ذلك فذكر اليوم الثالث عشر من شوال .

(٥) بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق - أنظر لفظ صرخد في "معجم البلدان" لياقوت .

(٦) ابن القلائسى (ص ٢٧٠) .

(٧) ابن القلائسى (ص ٢٧٢ و ٢٧٣) ، وابن ميسر (ص ٨٣ و ٨٤) .

(٨) ابن القلائسى (٢٩٦) .

وكانت سنة ٥٣٥ نهاية هذا النزاع الطويل الذى قام به بهرام ورضوان ؛ وفيها انتهت حياة بهرام . ويحدثنا ابن ميسر أن بهرام عاش فى القصر مع الخليفة ، يشاوره فى أمور الدولة من غير أن يخلع عليه أو يقلده عملا من الأعمال الرسمية .

وقد ظلت الحال على ما وصفنا الى أن توفى بهرام فى الرابع والعشرين من شهر ربيع الثانى سنة ٥٣٥ . فزن عليه الخليفة حزنا شديدا ، وأمر باغلاق الدواوين ثلاثة أيام ، وبعث فى طلب بطريق الأرمين ، وأعدت معدات المآتم . فلما حان وقت صلاة الظهر ، أخرج النعش من القصر يحمل على الديباج ويحف به النصارى يحملون المباخر؛ وشيعه الأشراف وغيرهم من علىة القوم مشاة . وسار الخليفة الحافظ فى الموكب راكبا بغلة ، وعليه عمامة خضراء وثوب أخضر . وما زال الناس فى سيرهم ، والقسس يرتلون الانجيل ، حتى وصلوا الى دير الخندق ؛ فقتل الخليفة وجلس على حافة القبر ، وبكى بكاء شديدا^(١) .

وبالجملة ، فقد عامل الفاطميون النصارى واليهود معاملة تتطوى على العطف والرعاية . وما كان الاضطهاد الذى قام به الحاكم ازاءهم الا حلقة من سلسلة حلقات الظلم الذى حاق بالمصريين عامة . والحق ، أن أبناء هاتين الطائفتين قد عوملوا غير مرة معاملة تتجلى فيها المحابة^(٢) .

ولقد تقلدوا أرقى المناصب وأعلاها فى عهد الخليفة العزيز ٣٦٥-٣٨٦ هـ (٩٧٥-٩٩٦ م) ، وشغلوا فى عهد المستنصر ٤٢٧-٤٨٧ هـ (١٠٣٥-١٠٩٤ م) ومن جاء بعده من الخلفاء معظم المناصب المالية فى الدولة ، بل وتقلدوا الوزارة أيضا ، وتمتعوا بقسط وافى من سياسة التسامح الدينى ؛ وهو أمر نستطيع تحقيقه بما كان من بناء عدد من الكنائس أو من إعادتها الى ما كانت عليه .

ولم تقتصر هذه المعاملة على ما تقدم ؛ فقد ولع بعض الخلفاء الفاطميين — كالحافظ مثلا — بزيارة أديرة النصارى . وكان الأمر يعطى الرهبان فى ديرنهم الواقع الى القرب من البحيزة عشرة آلاف درهم كلما خرج للصيد بالقرب من هذا الدير^(٣) . ويحدثنا أبو صالح النصرانى أن موارد الكنائس المصرية زادت زيادة عظيمة فى عهد الفاطميين^(٤) .

(١) ابن ميسر (ص ٨٤) . (٢) أبو صالح (ص ٣٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٧٧ و ٧٨) .

(٣) شرحه ص ٧٧ و ٧٨ و تاصرى خسرو ص ١٥٥ و ١٥٦ والأسناذسير توماس أرنولد "تعاليم الإسلام"

ص ١٠٦ و ١٠٧ . Prof. Sir Thomas W. Arnold : The Preaching of Islam, pp. 106, 107.

(٤) أنظر لفظ "Kibt" فى دائرة المعارف الاسلامية (Encyclopaedia of Islam; Mann, The Jews

in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs).

٢ — سياسة الفاطميين مع أهل السنة

لقد عمل الفاطميون على لعن الخلفاء الثلاثة الأول (أبو بكر وعمر وعثمان) وغيرهم من الصحابة ، إذ عدوهم أعداء لعل^١؛ ونقشت فضائل علي وأولاده من بعده على السكة وعلى جدران المساجد . ويحدثنا ابن زولاق^(١) أن الخطباء كانوا يلعنون الصحابة على كافة منابر مصر .

ولقد ألزم جميع الموظفين المصريين أن يعتنقوا المذهب الفاطمي ، كما حتم على القضاة أن يصدرُوا أحكامهم وفقَّ قوانين هذا المذهب . ويلوح لنا أن الرغبة في الحصول على مناصب الدولة هي التي دفعت بفريق من السنيين إلى التحول إلى المذهب الشيعي ، كما دفعت تلك الرغبة أيضا بعض الذميين إلى اعتناق الإسلام واتخاذ التشيع مذهبا لهم .

ويظهر أيضا أن هذه الرغبة كانت في أشدها حتى قبل تأسيس الخلافة الفاطمية في مصر . ولقد أشار ابن خلكان إلى هذه الحقيقة ، معتمدا في ذلك على ما ذكره أخو محسن الذي شهد هذه الحوادث بنفسه حيث يقول : ” رأيتُ يعقوبَ بن كلث قائما يسار كافور ؛ فلما مضى ، قال لي : أي وزيرين جنييه ! “^(٢) ويزيدنا ابن عساكر أن كافورا قال : ” لو كان مسلما لصلح أن يكون وزيرا “؛ فأسلم طمعا في الوزارة^(٣) .

وعند ما عدَّد ابن ميسر^(٤) أسماء من تقلدوا الوزارة للسننصر (٤٢٧—٤٨٧ هـ) ، ذكر أسماء عدة من الوزراء غير المسلمين ؛ ومن هؤلاء الوزراء أبو علي الحسن بن أبي سعيد بن سهل التُّستري ، وأصله يهودي ثم أسلم . ولكن ابن ميسر لم يذكر لنا إذا كان التُّستري قد اعتنق الإسلام قبل تقلده الوزارة أم بعده .

كذلك تكلم ابن ميسر عن أبي منصور بن أبي اليُمْن^(٥) بن مَهْرَوَاه بن زُبُور — وكان نصرانيا — فاتخذ الإسلام ديناً ، وذكر أن النصاري قد أنكروا إسلامه^(٦) .

(١) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٤٨ ب .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٢ .

(٣) المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٢١٣٧ ، ورقة ١٨ أ وما يتبعها .

(٤) ص ٣٢ .

(٥) ذكر ابن ميسر (ص ٣٣) أن هذا الاسم ” أبو اليم “ .

(٦) ابن منجب ص ٥٤ وابن ميسر ص ٣٣ .

وكانت تنزل العقوبة الصارمة بمن يتدح بذكر الخلفاء السنيين . ويحدثنا المقرئ (١) أن الخليفة العزيز أبطل صلاة التراويح (٢) في سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ — ٩٨٣ م) من جميع مساجد الديار المصرية . ويظهر أنها قد أبطلت في سورية قبل ذلك بعدة سنوات . ويدلنا على ذلك ما ذكره الذهبي عند كلامه على حوادث سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ — ٩٧٤ م) ، وهو أنه في أوائل شهر رمضان أصدر المعز الأوامر بإبطال التراويح . وما كاد أبو القاسم الواسطي يرفع صوته احتجاجا على هذا القانون ، حتى قبض عليه أعوان الفاطميين وأودعوه غياهب السجون ؛ وكان من أثر رفع هذا الحادث إلى السلطات في القاهرة أن صدر الأمر بقطع لسان أبي القاسم وضربه خمسمائة سوط وصلبه بعد ذلك (٣) .

واشتد الفاطميون في ذلك الوقت على أهل السنة ومنعهم من إقامة مراسيمهم . ففي سنة ٣٨١ هـ — في عهد الخليفة العزيز — ضرب رجل من أهل مصر وطيف به في المدينة ، لأنهم وجدوا عنده كتاب "الموطأ" لمالك بن أنس (٤) . وفي صفر سنة ٣٨٥ (٩٩٥ م) أمر الخليفة

(١) المخطوط ج ٢ ص ٣٤٠

(٢) التراويح (جمع ترويح) هي ستة كان يفعلها النبي صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العشاء في رمضان ، ولكنه أبطلها بعد ذلك خشية أن يصير فرضا . ولما جاء عمر بن الخطاب أحيا هذه السنة ، وجمع الناس على إمام واحد ، ووافق المسلمون على ذلك ؛ فكان إجماعا مكتوبا . والسفر في امتناع الشيعة عن صلاة التراويح هو ما يتقدمونه من أن عمر ابن الخطاب هو أول من منها .

(٣) ونحن نشك في صحة ما أورده لنا الذهبي وزاه بعيدا عن الحقيقة التاريخية . ويتبادر إلى الذهن من سياق هذه العبارة أن أبا القاسم كان مؤثما في بعض مساجد سورية ؛ ويحتمل أنه بيت المقدس ، بالرغم من أن لفظ المقدس لم يذكر . أما عبارة الذهبي فهي كما يأتي : "قال مشرف بن مريج المقدسي : أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن الحسن قال : كنت مجاورا بيت (هكذا ذكر) ؛ فأمروا في أول رمضان بقطع التراويح ؛ فصحت ، أنا وعبد الله والأسلام ، وأجدهاء ! فأخذني الأعوان وحبسوا ؛ ثم جاء الكتاب من مصر بقطع لساني فقطع . وبعد أسبوع وأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقل في فتي يرد ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد زال عني الألم . فتوضأت وصليت ، وعدت إلى المسأفة فأذنت : الصلاة خير من النوم ! فأخذوني وحبسوا وقيدوا ، وكتبوا إلى مصر ، فورد الكتاب بقطع لساني وبضرب خمسمائة سوط ؛ وبصلي ، ففعل بي ذلك" .

المكتبة الملكية بالقاهرة ، (مخطوط ٤٢ ، ورقة ١١٠٥) .

وما أورده لنا الذهبي من قطع لسان أبي القاسم وعدم استطاعته أداء الأذان ، وأنه هو الذي حدث بما ناله بعد قطع لسانه لرة الثانية ، وضربه خمسمائة سوط ثم صلبه — كل ذلك يظهر لنا أنه بعيد عن الصحة كل البعد . أما أنه قد ناله بعض العقوبة على هذه الحادثة ، فأمر محتمل الوقوع ؛ لأن هذا هو مسلك الفاطميين ضد من يجهر بخلافاتهم في عقائدهم .

(٤) المقرئ (مخطوط ج ٢ ص ٣٤١) .

العزير بنقش سب الصحابة على الجدران داخل الجامع العتيق وخارجه ، وكذا على أبواب الخوانيت والحجرات وعلى المقابر ، ولون ذلك كله بالذهب في كثير من أحياء القاهرة وفي غيرها من المدن . ولقد كان لهذه السياسة أثرها في تحويل كثير من السنيين الى المذهب الشيعي (١) .

وعندنا كثير من الأدلة على أن تعصب الفاطميين لمذهبهم زاد في أيام الحاكم عما كان عليه في عهد الخلفاء من قبله . ذلك أنه في جمادى الأولى من سنة ٣٩١ هـ ، أُلقي القبض على رجل من الشام لاتهامه بعدم الاعتراف بفضل عليّ ، وحبس قاضي القضاة وبعث أربعة من الفقهاء للتحقيق معه ؛ فبدلوا قصارى جهدهم في حمله على الاعتراف بإمامة عليّ . ولكن هذا الرجل ظل على إباته ، بالرغم من تدخل قائد القواد الحسين بن جوهر في الأمر وعمله على إقناعه . ولما لم يفلح رفع أمره الى الحاكم ، فأمر به فقتل وصلب (٢) .

وفي سنة ٣٩٣ هـ قبض في مدينة القاهرة على ثلاثة عشر رجلا ، لأنهم صلوا صلاة الضحى ، وهي من السنن التي ينبغي إقامتها مع الصلوات الخمس ، وإن كان الشيعة لا يعترفون بها . وقد شُهر هؤلاء المذنبين في الشوارع وضربوا وحبسوا ثلاثة أيام (٣) .

أضف الى ذلك ما ذكره المقرئ وأبو المحاسن ، من أن رجلا من أهل دمشق يدعى الأسود الحكي حلت به العقوبة في شهر ربيع الثاني من السنة نفسها (٣٩٣ هـ) لارتكابه جريمة لم يأت لنا هذان المؤرخان بتفصيلها . ولكن يظهر لنا أنها كانت من أجل محبة هذا الرجل للتيفتين أبي بكر وعمر ، بدليل أنهم طافوا به في شوارع المدينة ونادوا عليه : ” هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر “ ؛ ثم أمر به فضربت عنقه (٤) .

وفي شهر صفر سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤-١٠٠٥ م) أمر الحاكم أيضا بنقش سب الصحابة على جدران المساجد ، وفي الأسواق والشوارع ؛ وصدرت الأوامر بذلك الى سائر العمال في البلاد المصرية (٥) .

(١) المقرئ (خط ج ٢ ص ٢٨٦) .

(٢) شرحه .

(٣) شرحه .

(٤) المقرئ : ” فتح الطيب “ (ج ٢ ص ٦٦٥) ، وأبو المحاسن (ج ٢ رقم ١ ص ٩١) .

(٥) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

وفي سنة ٣٩٥ هـ صدر قانون يحرم بيع الملوخيا^(١) ، لأنه اثر عن معاوية انه كان يحبها ؛ وينهى أيضا عن أكل الجرجير ، لأن عائشة كانت تأكله ؛ وعن المتوكلية ، وهي النبات المنسوب الى المتوكل الخليفة العباسي . وزاد ابن زولاق أن الحاكم نهى أيضا عن أكل القرع ، وطلب الى الفلاحين أن يعطوه وثائق كتابية بعدم زرع الملوخيا والقرع .

ولم يكن لهذا التعيين من سبب سوى أن أبا بكر وعائشة كانا يحبان أكلهما . وقبض على جماعة كانوا يأكلون الملوخيا ، وضربوا بالسياط وطيف بهم في الشوارع ثم ضربت أعناقهم^(٢) . يتبين لك ذلك من عبارة ابن زولاق التي ننقلها فيما يلي :

” ومنع من أكل الملوخيا وأكل القرع ، وكتب قسما على الفلاحين أنهم لا يزرعون ذلك ولا يبيعونه ، لأن أبا بكر الصديق كان يكثر من أكل ذلك ، وأن عائشة كانت تأكل ذلك أيضا . ثم إنه رأى جماعة يأكلون الملوخيا ؛ فقبض عليهم وضربهم بسياط ، وطاف بهم البلد وأمر بضرب رقابهم “ .

وفي هذه السنة نهى الحاكم عن بيع الفُقَّاع (وهو نوع من الخمر) وشدد في ذلك ، لأن عليا كان يكرهه . كذلك نهى عن أكل الدِّلِيس (وهو نوع من السمك الصغير لا قشر له) لسبب لم يذكره لنا المؤرخون ؛ وصدرت الأوامر في منع بيع كافة أنواع السمك الذي لا قشر له .

وقد دعا الحاكم السماكين الى اجتماع أخذ فيه عليهم العهد ألا يبيعوا هذا النوع من السمك ؛ ومن أبي إطاعة هذه الأوامر كان جزاؤه القتل^(٣) . وهذا التشدد يحملنا على الظن بأنه لا بد أن يكون هذا المنع راجعا الى أحد أمرين جرت بهما عادة الشيعة : إما لأن أحد الصحابة كان يكثر من أكل هذا السمك ، وإما لأن عليا أو بعض أهل بيته كانوا يكرهون أكله . وإما أن هذه النزعة يهودية ، لأن التوراة نصت على تحريم السمك الذي لا خُرشف له (أى لا قشر له) . ولا يبعد أن يكون أحد اليهود المقربين الى الحاكم أفضى اليه بذلك فعلق بذمته .

(١) هذه الأشياء وغيرها مما ينسب الى الخلفاء الفاطميين وأشياهم من سب الصحابة والطنن فيهم ، مبالغ فيها ؛ ويعد تصديق كثير منها ، لاسيما ألوان الطعام التي ربما لم تكن موجودة في عصرهم . ونحن زورينا هنا على علائها غير واقعين بصحتها .

(٢) ابن زولاق ، المكتبة الأهلية بباريس ، (مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ١٥٢) .

تناول ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) الكلام على تحريم بيع هذه الخضراوات بشئ من الإيجاز .

(٣) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

هذا ، ولقد اشتملت القوانين الكثيرة التي عاد الحاكم فأصدرها ضد النصارى واليهود في سنة ٣٩٥ هـ ، وكذا المراسيم التي صدرت بالتشدد في مراعاة هذه القوانين ، على كثير من عبارات الطعن في أبي بكر وعمر^(١) .

وفي هذه السنة أمر الحاكم بأن تقام صلاة الظهر في الساعة السابعة ، والعصر في الساعة التاسعة^(٢) (من التوقيت العربي) . ولو قارنا بين ما جرى عليه الحاكم وما يجري عليه المسلمون الآن ، لوجدنا أن الحاكم قد راعى في التوقيت الساعات ، ولم يراعِ التقاليد الإسلامية في التوقيت بالشمس . فان الظهر يدخل وقتها بالزوال ، والعصر يدخل وقتها بأن يصير ظل كل شيء مثله بعد ظل الزوال ؛ وحينئذ تكون صلاة العصر حاضرة اذا وقعت في الزمن الذي تأخذ فيه الشمس في الانحراف عن كبد السماء ، وصار ظل كل شيء مساويا له بعد اعتبار ظل الزوال . وكذلك العصر تكون حاضرة اذا وقعت في الزمن الذي بين هذا الوقت وغروب الشمس . ونحن نرى أن الحاكم قد تبدل بهذا العمل ما كان يجري عليه المسلمون وما كان معمولاً به الى هذا الوقت ، وألزمهم بالصلاة في ساعات معينة مستعينين بالمزولة .

ولا شك في أن هذه الأوامر قد أساءت أيما إساءة الى اهل السنة ، الذين كانوا لا يزالون السواد الأعظم من الأهلين . وتعتبر الفتنة التي أثارها أبو ركة^(٣) (٣٩٦—٣٩٧ هـ) دورا هاما من الأدوار التي مرت بها سياسة الحاكم إزاء رعاياه السنيين .

ففي سنة ٣٩٧ هـ خفف من تشدده في مراعاة عقائد المذهب الفاطمي ، ليصلح بينه وبين رعاياه السنيين ؛ فأبطل بعض ما قام به من الأعمال الموجهة ضد هؤلاء الرعايا ، كلعن الخلفاء الأول وغيرهم من الصحابة ؛ وسلك مسلكا أكثر شدة مع النصارى واليهود . وفي شهر ربيع الثاني من هذه السنة أمر بحمو ما نقش في لعن هؤلاء الخلفاء ، وعوقب كل من أقدم على لعنهم وعنف في الشوارع على مرأى من الناس^(٤) .

(١) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

(٢) المقرئ (خط ج ٢ ص ٣٤١) .

(٣) أنظر يحيى بن سعيد (ص ١٨٨—١٩٢) ، وابن القلانسي (ص ٦٤—٦٥) ، وأبا الفدا (ج ٢ ص ١٤٥) لمرة الثورة التي قام بها أبو ركة .

(٤) يحيى بن سعيد (ص ١٩٢) .

وفي هذه السنة صدر مرسوم يميز للناس صوم رمضان وفطره بمقتضى حساباتهم الفلكية ، بدون أن ينظروا رؤية الهلال . كذلك أجازت القوانين الجديدة للمؤذنين أن يستعملوا العبارات المعتاد ذكرها في الصلاة حسباً يرون ، وألا تقدم شكاوى لسبب من الأسباب التي تتعلق بذكر هذه العبارات ، وألا يُسبَّ أحد من الخلفاء الأول ، ولا يمنع أحد من أن يقول هذه العبارة التي تتطوى على احترامهم وإجلالهم وهي : ” اللهم ارحمهم ! ” إذا ما ذكر أسماءهم ؛ وبذلك عوملوا معاملة الأبرار . وإذا أراد أحد أن يستعمل هذه العبارة التي تدل على أسى مراتب التعظيم لعلّى وهي : ” اللهم ارحمه ! ” فلا حرج عليه . وجعل لكل مسلم الخيار في اتباع الرسوم السنّية أو الشيعية^(١) .

وقد أبطل الحاكم بعد ذلك استعمال كثير من الرسوم الشيعية البحتة ؛ فأمر بإعادة القنوت في الصلاة ، وكان قد أبطل في سنة ٣٧٠ هـ . ومنع كذلك المؤذنين من إضافة عبارة ” حتى على خير العمل ” الى الأذان ، وسمح بصلاة الضحى ؛ وهذه من الصلوات التي تؤدي في ضحى اليوم من ارتفاع الشمس قدر مخ الى الزوال ؛ وكان قد منعها منعا باتا في سنة ٣٩٣ هـ^(٢) .

وقد أنشأ الحاكم في هذه السنة نفسها مدرسة لتعليم المذهب السنّى ، الذي كان يدين بعقائده السواد الأعظم من المصريين قبل وصول الفاطميين الى هذه البلاد ، وأهدى هذه المدرسة دار كتب ، وعين أبا بكر الأنطاكي ناظرا لها ، وخلع عليه وعلى مدرسي هذه المدرسة وأجلهم في مجلسه^(٣) .

فكان من أثر هذه السياسة التي سار عليها الحاكم أن ساءت سمعته عند المتشيعين الذين وفدوا على القاهرة ، حيث وجدوا أنفسهم في مدينة تسير في اتجاه عادات المذهب السنّى^(٤) . ولكن الحاكم عوّدنا القلب في سياسته وأهوائه .

نعم ! لقد جعلته بعض الحوادث الأخرى مبغضا جدا حتى عند الشيعيين في تلك الآونة . وذلك أنه في سنة ٤٠٠ هـ أرسل بعض الموظفين الى المدينة المنورة ليفتحوا المنزل الذي كان لمجهر الصادق ويحضروا منه ما قد يعثرون عليه . فلما فتح المنزل ، وجد فيه هؤلاء الموظفون نسخة من القرآن الكريم وسريرا وحصيرا وبعض الأثاث . وقد حمل هذه الأشياء الداعي ختكن الذي كلف بالإشراف على فتح هذه الدار ، وأخذ الموظفون في الوقت نفسه الضرائب التي كان يدفعها الأشراف .

(١) المقرئى (خطط ج ٢ ص ٢٨٧) . (٢) المقرئى (خطط ج ١ ص ٤٥٨) وما يتبعها .

(٣) أبو المحاسن (ج ٢ رقم ١ ص ١٠٥) . (٤) شرحه .

ثم عاد ختكين الى مصر وبصحبته عدد كبير من الأشراف كانوا يؤملون أن ينعموا بكرم الحاكم وحسن معاملته لهم . ولكنهم لما مثلوا بين يديه ، لم يعطهم غير جزء يسير من المال الذى عاد به ختكين ، وأبقى أكثره لنفسه قائلاً إنه أحق به منهم ، لأنه كان رأس الأشراف باعتباره وريث على حقا . فعاد هؤلاء الأشراف الى المدينة ، وألستهم تتطلق بالسخط والدعاء عليه^(١) .

وظلت سياسة اللين التى سار عليها الحاكم لإزاء السنين ثلاث سنوات ، غير أنها ما لبثت أن تبدلت على حين غفلة . ففى سنة ٤٠١ هـ أمر بإعادة الأذان الى النحو الشيعى ؛ كذلك أعاد التثويب وعبرة "سعى على خير العمل" الى ما كان عليه من قبل ، كما أبطل صلاتى الضحى والتراويح . ولما اتصل بالحاكم ما كان من صلاة التراويح فى شهر رمضان فى الجامع العتيق ، أمر بامام هذا المسجد فضربت عنقه . وقد أعاد فى الوقت نفسه مجالس الحكمة فى القصر ، كما أمر بأن تجمع النجوى ، وهى التبرعات التى كانت تؤخذ من كل من يتعلم أصول المذهب الاسماعيلى ثانية ، وكانت قد أبطلت منذ سنة ٤٠٠ هـ .

واعترم الحاكم بعد ذلك نبش قبر أبى بكر وعمر بالمدينة ؛ فرشوا الرسل الذين أنفذهم لتأدية هذه المهمة رجلا من العلويين كان يسكن فى منزل قريب من مدفن الخليفتين ؛ ومن ثم شرعا بمعاونته يحفران طريقا يوصل الى ما يريدون . الا أن عاصفة شديدة ثارت ، وبلغ ثورانها درجة أدخلت الخوف والهلع فى قلوب الأهالى ؛ فتنمس كثير منهم ملجأ فى الحرم حيث يوجد الجسد الشريف وأجساد الخلفاء الأول . ولما لم تهدأ هذه العاصفة ، خشى ذلك العلوى وأبلغ الأمر لوالى المدينة ؛ فأحل به عقوبته وحال دون إتمام ما كان يريد الحاكم^(٢) .

وجملة القول أن لعن السنين كانت تفيض به ألسنة الناس من على المنابر فى كافة أرجاء مصر طوال الحكم الفاطمى تقريبا . ويحدثنا ابن خلكان أن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين كان من غلاة الشيعة ؛ فكان له ولع خاص بلعن الصحابة ، حتى إنه كان لا يتردد فى قتل أى سنى تقع عليه عيناه .

(١) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) والمقرئى خطط (ج ٢ ص ٣٤٢) .

(٢) المقرئى خطط (ج ١ ص ٣٣٨) .

٣ - سياسة الفاطميين مع المصريين عامة

أقام الفاطميون في مصر حكومة منظمة قائمة على أساس متين ؛ فتقدمت البلاد نحو الرقي بفضل هذه النظم الرشيدة التي اتخذوها من جاء بعدهم من الملوك . غير أن سياسة الفاطميين (التي كانت ترمي أولا الى نشر مذهبهم) كثيرا ما كانت تتصادم مع صالح الأهليين وسعادتهم ؛ وذلك لأن أكثريتهم الساحقة كانوا سنيين .

ولقد تطلب نجاح تلك السياسة أن يحل أنصار الفاطميين - حتى من غير المسلمين - محل السنيين في مناصبهم . ومن ذلك نرى السنيين من أول حكم الفاطميين ينظر إليهم بعين السخط والكراهة ؛ فتحملوا لذلك كثيرا من جور القوانين التي كان يسنها الفاطميون . وذلك أنه كان لزاما على أبناء الطوائف الثلاث (السنيين والنصارى واليهود) الذين كان منهم المصريون ، أن يطيعوا تلك القوانين ، حتى ما كان منها غير متفق مع معتقداتهم الدينية .

ولقد أضاف الفاطميون الى النقوش التي كانت تنطق بسبب السنيين ، كتابة أخرى كلها إشادة بمدح عليّ وأهل بيته . وقد كان من أثر تعاليم دعاة الشيعة والقوانين الجائرة التي كانت تسن لمن عداهم ، أن تحول كثير من غير الشيعيين الى هذا المذهب . ولقد حفز ذلك التحول الكبير الى ناحية الشيعة قاضى القضاة عليّ بن النعمان - الذي كان يطلق عليه أيضا داعي الدعاة - فأملى على مجتمع حافل في الجامع العتيق في شهر صفر سنة ٣٦٥ خلاصة الكتاب الذي كان قد صنفه أبوه أبو حنيفة النعمان المغربي في أصول المذهب الشيعي^(١) .

وكان يعقوب بن كلس - ذلك الرجل الذي كانت له منزلة ممتازة لما كان يقوم به من تمصيد المذهب الشيعي - يعقد الاجتماعات ، فيحضرها الناس على اختلاف طبقاتهم ، ويقرأ عليهم مصنفه في القانون الشيعي ، ذلك القانون الذي كان لزاما على القضاة أن يصدرُوا عنه في أحكامهم ، كما كان مصنفه هذا من الكتب التي تقرر تدريسها في الجامع العتيق ، فيتدارسه الطلبة وأساتنتهم^(٢) .

(١) يحيى بن سعيد (ص ٢٠٦) وابن ميسر (ص ٧٥) والمقرئزي خطط (ج ٢ ص ٣٤١) وأبو الحسن المجدد

الثاني (ج ١ رقم ١ ص ٤٠٣) .

(٢) يحيى بن سعيد (ص ١٧٢ و ١٧٣) .

ولقد سبق أن ذكرنا أن محمد بن النعمان منح لقب أستاذ للدعوة بالقصر في ربيع الثاني سنة ٣٨٥ في خلافة العزيز، فقرأ قانون أهل البيت على جمع عظيم، كما فعل أخوه الحسين في القاهرة من قبل وأبوه بالمغرب . ويحدثنا المقرئ (١) أن الجمع الذي سمع لمحمد بن النعمان كان من الكثرة بحيث مات أحد عشر شخصا من دفع الناس بعضهم بعضا .

ولقد كانت سياسة الحاكم تمتاز بعنف كثير تناول جميع المصريين ، وخاصة من لم يكن شيعيا . وظهرت تلك السياسة جلية واضحة بعد أن شعر بأنه صار خلوا من كل رقابة ؛ وذلك بعد وفاة برجوان ، وحينما بدأ الاضطراب ينال من عقله ، ذلك الاضطراب الذي كانت مصدرا لتقلباته في سياسته .

وكان أول ما بدا من أعمال الحاكم الغريبة ، أن أصدر قانونا سنة ٣٩٠ هـ حرم فيه على الناس أن ينادوه بلقب "مولانا" أو "سيدنا" ، وحرم فيه عليهم أن يلقبوه بأمر المؤمنين ؛ وجعل نصيب من يخالف ذلك الموت العاجل . كما كان من آثار حالته العقلية أن أصبح يفضل الليل على النهار . ففي سنة ٣٩٢ هـ بدأ يتجول في المدينة ليلا ؛ فكانت الأنوار تسطع في جنبات المدينة ، كما كانت محلات التجارة تفتح في الليل بدل النهار . وكان السرور يعم الجميع لهذه المناظر التي كانت تزيدها روعة الأنوار الصناعية ، حيث أخذ الناس يتنافسون في تعليق الثريات على بيوتهم كي يكسبوا بذلك رضا الخليفة (٢) .

وقد ظل الحاكم على عادته من التجول ليلا في أنحاء المدينة الى عام ٣٩٣ هـ . وزاد فحرم على الناس الخروج ليلا من مغرب الشمس حتى مطلع الفجر : ففي سنة ٣٩١ هـ أصدر أمره بمنع النساء من الخروج في الليل ، وأتبع ذلك بعد قليل من الزمن بقانون آخر حرم فيه على الأهليين فتح محلاتهم للتجارة ليلا .

ويحدثنا السيوطي أن الحاكم رأى شيئا "يعمل التجارة في أثناء النهار فقال له : ألم تنهكم عن هذا ؟ فقال : يا سيدي ! أما كان الناس يسهرون لما كانوا يتعيشون بالنهار ؟ فهذا من جملة المهر ! فتبسم وتركه" (٣) .

(١) الخطط (ج ٢ ص ٣٤١ و ٣٤٢) .

(٢) يحيى بن سعيد (ص ١٨٥ ، ٢٠٥) .

(٣) السيوطي (طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ ج ٢ ص ١٧ — ١٨) .

وفي سنة ٣٩٥ أصدر قاتونا منع فيه النساء من الظهور سافرات^(١) ، وألا يتبعن الجنائز أو يظهرن للناس في حالة منافسة للأدب والحشمة ؛ كما حرم أيضا أن يدخل أحد مطلقا الحمامات بدون إزار^(٢) .

وقد ذكر لنا الذهبي عند كلامه على حوادث سنة ٤٠٤ ، أن الحاكم منع النساء من الخروج من المنازل ومن الظهور في أعلاها ، ومن دخول الحمامات العامة ؛ كما منع أيضا أن يصنع صانعو الأحذية أحذية خاصة بهن . وزاد على ذلك أنه كان إذا توفيت امرأة ، ذهب أحد أقاربها الى قاضى القضاة^(٣) وأعلن اليه نبأ وفاتها ، وطلب اليه أن يجيز لإحدى النساء أن تذهب معه لتتولى أمر غسلها وما اليه . وكان قاضى القضاة طبقا للأموال المتبعة يحيل المسألة الى صاحب المعونة ؛ وهذا يجتار إحدى النساء لقضاء هذه المهمة ، ويندب معها اثنتين يحرسانها ، حتى تفرغ مما انتدبت له وتعود الى منزلها^(٤) . ويتضح ذلك مما جاء في عبارة الذهبي التى ننقلها للقارئ بنصها : ” فاذا ماتت امرأة جاء وليها الى قاضى القضاة يلتمس غاسلة ، فيكتب الى صاحب المعونة ، فيرسل غاسلة مع اثنتين من عنده ، ثم تعاد الى منزلها “ .

على أنه من الحق أن نقول إن كثيرا من التبعة يقع على عاتق النساء أنفسهن لما نالهن من تضيق الحرية . ذلك أنهن كن يكثرن الخروج ليلا وينغمسن في حمأة الملاهي والزوائل . ولهذا يحدثنا ابن خلكان^(٥) أن النساء قبعن في بيوتهن سبع سنوات ، حتى ارتقى عرش الخلافة ابن الحاكم ، وهو الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ)^(٦) .

(١) يحيى بن سعيد (ص ٢٠٨) .

(٢) المقرئى خط (ج ٢ ص ٢٨٥) .

(٣) ذكر يحيى بن سعيد (ص ٢٠٨) أن وفاة أى امرأة إنما كان ينبأ بها المحتسب لا قاضى القضاة .

(٤) الذهبي ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٤٢ ، ورقة ١٤٧ أ .

(٥) ج ٢ ص ١٦٦ .

(٦) ذكر يحيى بن سعيد (ص ٢٠٨) أن النساء ظالن على هذه الحالة الى سنة ٤٠٩ ، أى قبل وفاة الحاكم بسنتين .

وفي سنة ٣٩٥ أمر الحاكم بقتل جميع الكلاب^(١) ، نفلت منها الطرقات ؛ كما حرم بيع "الفقاع" (الجنة) والترمس والسّمك الذي لا فصوص له^(٢) ؛ ونهى أيضا عن ذبح السلم من البقر الا في عيد لأضحى^(٣) . وكان العقاب الشديد نصيب من يعصى هذه القوانين ؛ فكان من يتهم ببيع شيء من الممنوع بيعها يُسهر ويُضرب ثم يقتل^(٤) .

ولقد أدت هذه الأعمال الى تحول كثير من المصريين — كما قدمنا — الى المذهب الفاطمي . كما كان من أثر هذه القوانين الجائرة أن دخل كثير من الناس في القاهرة وفي الجهات الأخرى في المذهب الاسماعيلي ؛ ومعنى هذا دخولهم في المذهب الشيعي^(٥) .

وقد شغل الحاكم في ستي ٣٩٦ و ٣٩٧ بقمع ثورة أبي ركوه ، كما اضطرت له تلك الثورة الى مصانعة السنيين ، والى القسوة على غير المسلمين . وقد سبق أن أشرنا الى القوانين الأخرى التي سنّها الحاكم في سنة ٤٠١ ، والتي كانت وليدة التقلبات الفجائية في سياسته حيال السنيين .

وقد كان من أثر انخفاض النيل الذي دام ثلاث سنوات متواليات تبتدئ من سنة ٣٩٨ هـ ، أن صدرت قوانين تحرم الاجتماعات للهو واللعب على شواطئ الخليج ، أو أن تفتح الأبواب والنوافذ على هذه الشواطئ . وتلتها قوانين أخرى يمنع بعضها سماع الموسيقى والاستمتاع بالألعاب وما إليها ، ويمنع البعض الآخر سماع المغنيات أو بيعهن^(٦) .

وفي سنة ٤٠٢ هـ منع الحاكم بيع الزبيب قليلا أو كثيرا ؛ ونهى التجار من أن يستوردوه ، كما جمع كميات كبيرة منه وأحرقها . ومن نفقات اتلاف هذه الكميات البالغة خمسمائة دينار — على ما يحدثنا به ابن خلكان — يمكننا أن نتصور مقدار ما أحرق من الزبيب . وفي هذه السنة أيضا منع بيع العنب ، وأرسل رسله الى الجزيرة^(٧) فقه طعوا ما بها من الكروم وألقوها للثيران فداستها .

(١) ذكر يحيى بن سعيد (ص ١٨٨) أن كلاب الصيد كانت مستثناة .

(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

(٣) لم يكن لهذا الأمر الذي أصدره الحاكم خاصا بالقرية صلة بالرسوم الشيعية . وقد ذكرنا أبو المحاسن (ج ٢ رقم ٢ ص ١٣٤) أن الخليفة الظاهر أصدر في سنة ٤١٧ أمرا يقضى أيضا بمنع ذبح البقر الصالح للحرق الا في عيد الأضحى ؛ وأرسلت بذلك الكتب فحرقت باسم الخليفة .

(٤) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) .

(٥) أنظر العبارة التي أوردتها عن سياسة الفاطميين في دار العلم والقصر في الباب الثالث .

(٦) المقرئى خطط (ج ٢ ص ٢٨٧) .

(٧) المراد بها هنا طبعاً جزيرة الروضة .

كذلك أرسل الحاكم الى حكام الولايات بأن ينحوا هذا السبيل ، كما منع بعد ذلك أن يشتري أحد أكثر من أربعة أرتال من العنب دفعة واحدة ، خشية أن يتخذ منه نبيذا . وشمل هذا المنع أيضا العسل ، حتى لقد جمع خمسة آلاف جرة ، وذلك ما كان بالمخازن ؛ وألقى بها في النيل حيث أهرق ما بها ، كما أهرقت أيضا إحدى وخمسون زجاجة من عسل النحل . وتبع ذلك أن حرّم بيع الرطب ؛ فقد جمعت منه مقادير كبيرة ثم أحرقت (١) .

وفي سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ - ١٠١٤ م) نهى الحاكم أيضا أن يسترشد الناس بالنجوم ، وأن يباشروا علم الفلك ، وأمر بنفى جميع المنجمين عن البلاد ؛ فاستغاثوا بقاضى القضاة مالك بن سعيد الفارقى ، وتابوا على يديه مما ظنه الحاكم جريمة . وذلك ألغيت عقوبة النفى ؛ وعومل نفس هذه المعاملة المشتغلون بالموسيقى (٢) .

وبعد وفاة الحاكم (٤١١ هـ) وتولية ابنه الظاهر (٤١١ - ٤٢٧ هـ) ، تمتع المصريون مدة ولايته بالسلام والطمأنينة . وهذا ما كان مرجوا ، لأن الظاهر كان رجلا عاقلا حليما دمث الأخلاق عادلا ؛ فألغى القوانين التى كان قد أصدرها أبوه ؛ وتشتهر هذه الفترة بالعدل الشامل والعمل لصالح الرعية (٣) .

وفي أواخر عهد المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) ظهرت روح العداء والكراهة إزاء أهل السنة ، عندما تقلد أمير الجيوش بدر الجمالى مقاليد الحكم وحكم البلاد حكما مطلقا ؛ فأمر بإضافة "حى على خير العمل" إلى الأذان ، وقش لعن الصحابة على الجدران ، كما أمر بأن يكون التكبير على الميت خمسا فقط (٤) .

(١) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) ، والمقرئى خطط (ج ٢ ص ٢٨٧) .

(٢) يحيى بن سعيد (ص ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٦) .

(٣) يحيى بن سعيد ص ٢٣٤ و ٢٣٥ ، وابن القلانئ ص ٨٠ ، وأبو المحاسن . المجلد الثانى رقم ٢ ص ١٣٠

Corpus Inscriptionum Arabicarum, Tome II. Egypte, p. 86.

(٤) أبو المحاسن المجلد الثانى (ج ٢ رقم ٢١ ص ٢٧٦) .

وفي عهد المستعلي (٤٨٧ — ٤٩٥ هـ) ، الذي سار على نهج أبيه في التعصب للشيعة ، زاد النباح والصباح والبكاء والعيول في اليوم العاشر من المحرم ، وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين ، وظهر ذلك بصورة لم تعهد من قبل . ولكنه كان مع الأفضل بن بدر الجمالي مسلوب السلطة والارادة كما كان المستنصر مع أبيه بدر . وبعد سنة ٤٦٧ هـ أصبح النفوذ والسلطان المطلق في يد الوزراء . وكان التمسك للذهب الشيعي ونصرته ، أو إضعافه ومناهضته ، تابعا لرغبة الوزراء وميولهم .

ولما تولى أبو علي أحمد بن الأفضل الملقب بالأكل وزارة الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ) ، عزله وشل يده عن التصرف في أمور الدولة في سنة ٥٢٤ هـ ، ومنع الناس من زيارته إلا بأذن منه ؛ ثم استولى على مافي القصر ، ومنع ذكر اسم الخليفة في الخطبة . ولما كان يدين بمذهب الإمامية ، أمر بالدعاء للإمام المنتظر في الخطبة ؛ وبذلك قضى على شيء من تقاليد المذهب الاسماعيلي الذي كان منتشرا الى عهده . كذلك أمر الخطباء بذكر اسمه في الخطبة ، وبتلقيه بألقاب اختارها لنفسه ، مثل "ناصر إمام الحق" ، وهاذى القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده ، ومولى النعم ، ورافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتي السيف والقلم" (١) .

ولم يكن هذا كل ما عمله الأكل . فقد زاد على ذلك أن عين في سنة ٥٢٥ هـ أربعة من القضاة: اثنين من الشيعة ، واثنين من السنيين . وكان القاضيان الشيعيان أحدهما إماميا والآخر اسماعيليا . أما السنيان ، فكان أحدهما شافعيا والآخر مالكيا . وأعطى لكل السلطة المطلقة في إصدار أحكامه على وفق مذهبه . وقد حدثنا المقرئ أن هذه السياسة التي انتهجها أبو علي الأكل أثارت غضب دعاة الشيعة وحتفهم ، وكذلك الأمراء وغيرهم من أعيان المتشيعين ، حتى دبروا مؤامرة لاغتياله . وفي اليوم السادس عشر (٢) من المحرم سنة ٥٢٦ هـ ، بينما كان الأكل سائرا في طريقه ممتطيا جوادا لمشاهدة لعبة الكرة ، كمن له جماعة من أنصار الخليفة . ولما اقترب منهم هجم عليه أحد غلمان الخليفة وقتله ، واحترق الباقون رأسه . بعد ذلك أطلق هؤلاء الغلمان سراح الخليفة ، ودانوا له بالطاعة والعبودية ، وهاجم الناس بيت الوزير واتهبوه (٣) .

(١) ابن ميسر (ص ٧٥) .

ويلقب الأكل أيضا بكتيفات أو كتيفات . ويرجح الأستاذ فييت (G. Wiet) أن اسمه كتيفات ، لأنه كان في بغداد زمن الإسماعري طبيب اسمه كتيفات (القفطى ص ٢٦٧) .

(٢) ويقول أبو المحاسن (المجلد الثالث ، ج ٣ رقم ١ ص ٤) إن هذه الحادثة كانت في العشرين من هذا الشهر . ويخالفه في ذلك ابن ميسر (ص ٧٥) والمقرئ (خطط ج ١ ص ٤٩٠) ، الذي يقول إن إطلاق سراح الحافظ كان في السادس عشر من هذا الشهر ، وإن الحكومة اتخذت هذا اليوم عبدا سنويا تقام فيه الاحتفالات بخلاص هذا الخليفة .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢٧٩ و ٣٨٠ .

واستمرت الحال على ذلك إلى سنة ٥٢٦ هـ ، وهي السنة التي قتل فيها الأكل . وبذلك عادت السلطة ثانية إلى الاسماعيلية ، وبقيت على ذلك إلى أن جاء صلاح الدين ؛ فعمل في سنة ٥٦٤ هـ على القضاء على الخلافة الفاطمية ، وحبس الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، واضطهد الأمراء وكبار رجال الدولة ، وأسس في سنة ٥٦٦ مدرستين لتعليم الفقه : إحداهما على مذهب الإمام الشافعي ، والأخرى على مذهب الإمام مالك .

وبسعى قاضي قضائه صدر الدين عبد الملك بن درباس ، صرف صلاح الدين جميع قضاة الشيعة (٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٦) ، وعين بدلهم قضاة من السنيين الشافعية الذين كان يدين بمذهبهم . وبذلك أخذ المصريون يرجعون شيئا فشيئا إلى المذهب السني ، وهو المذهب الذي كانت له السيادة من قبل الدولة الفاطمية ، وأخذ المذهب الشيعي بنوعيه الاسماعيلي والإمامي يضمحل من الديار المصرية ، إلى أن قضى عليه نهائيا^(١) .

(١) أبو شامة (طبعة القاهرة) ج ١ ص ١٩١

الباب السابع

ثروة مصر . صلات الخلفاء

١ - مصادر ثروة مصر

لم يكذب فتح شمال إفريقية حتى وجه الفاطميون أنظارهم إلى فتح مصر ، لعلهم أنهم سيجدون من ثروتها ما يساعدهم على نشر عقائدهم في ميادين أخرى أوسع مما في بلاد المغرب ، ولأنهم يستطيعون بذلك أيضا نشر حضارة فاطمية تنافس حضارة الأمبراطورية العباسية ، بل وتتفوق عليها .

وفي الحق إن ثروة مصر الضخمة مكنت الفاطميين من بسط سلطانهم على الشام وفلسطين والحجاز بعد أن فتحوا مصر بقليل ، كما تسنى لهم بعد قليل أيضا أن يقيموا الدعوة باسمهم في الموصل واليمن ، بل وفي بغداد أيضا نحو من ثمانية أشهر .

يضاف إلى ذلك أن نظام الضرائب الذي وضعه يعقوب بن كلس وعُسلوج بن الحسن ، كانت نتيجته أن زاد خراج مصر بمقدار كبير في المحرم من سنة ٣٦٣ ، حتى لقد كان خراج الفسطاط وحدها يتراوح بين ٥٠,٠٠٠ و ١٢٠,٠٠٠ دينار في اليوم ، كما زاد خراج مدن دمياط وتبنس والأشمونين عن ٢٠٠,٠٠٠ دينار من تلك السنة ؛ وذلك كله أمر لم تعهده مصر من قبل (١) .

على أن تلك الثروة الضخمة أغرت الفاطميين ، فأسرفوا في نفقاتهم التي جرم إليها البذخ وحب الظهور ، حتى لقد أصبح ذلك من مميزات الدولة الفاطمية ؛ فكانت النتيجة التي لامناص منها أن انحطت أخلاق الأهالي ووقعت البلاد فريسة ذلك الانحطاط ؛ وكان ذلك أحد أسباب انحلال الدولة الفاطمية وسقوطها في النهاية .

(١) ابن ميسر .

وقد ذكر لنا ابن اياس (ج ١ ص ٤٦) نقلا عن المسيحي أن خراج مصر بلغ في عهد جوهر ١٢٠٠,٠٠٠ دينار . لمعرفة خراج مصر في عصورها المختلفة منذ الأزمان القديمة ، راجع النهرس الذي عمله إيفس لكتاب أبي صالح المسي "كنائس وأدرة مصر" (Evetts' Index to Abu Salih's "Churches and Monasteries of Egypt")

٢ - عرش الخلفاء الفاطميين

استقر المعز منذ وصوله للقاهرة سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) هو وأسرته وحشمه وأتباعه وغلماؤه وعبيده في القصر الذي ابتناه وأثنه له جوهر القائد ؛ وفي إحدى غرف القصر اتخذ المعز عرشه الذي نقل المقرئى^(١) لنا وصفه من كتاب "الذخائر والتحف" . فقد ذكر أنه كان به من الذهب ما يزن ١١٠,٠٠٠ مثقال ، كما كان ما رصع به الستر ١,٥٦٠ قطعة من الجواهر المختلفة الألوان ؛ وكان هذا الستر — وهو من عمل الوزير اليازورى — موضوعاً قبالة العرش ، وقد حُلّ بما زنته ٣٠٠,٠٠٠ مثقال من الذهب الخالص .

٣ - هدية جوهر للمعز

وفي منتصف شهر رمضان من سنة ٣٦٢ هـ ، مثل الأشراف والزعماء وكبار الموظفين بين يدي الخليفة ، فقدمهم إليه جوهر . وبعد ذلك تقدم قليلاً إلى الأمام ، وأرى الحضور هديته التي أعدها لمولاه ؛ وكانت — كما يقول المقرئى^(٢) نقلاً عن ابن زولاق وهو من الثقات في هذا الموضوع — تتألف من مائة وخمسين فرساً مسرجة ملجمة ، بعضها مذهب وبعضها مرصع ، والبعض الآخر معتبر ، وإحدى وثلاثين قبة على نوك بختاى بالدباج والفرش . وكان من هذه البختاى تسع نوك مجهزة بالحرير ، كما كانت النوك الأخرى ولودا . واشتملت الهدية أيضاً على ثلاث وثلاثين بغلة ، كان منها سبعة ملجمة مسرجة ، تتبعها مائة وثلاثون بغلة معدة للنقل وتسعون نجيباً ؛ كما اشتملت على أربعة صناديق يرى ما داخلها ؛ وجعل فيها أواني الذهب والفضة . وكان في الهدية مائة سيف محلاة بالذهب والفضة ، ودرجان من فضة مخرقة فيها ثمين الجواهر والشيشان المرصعة بالجواهر .

ولم يكن هذا كل ما قدمه جوهر لمولاه في هذا اليوم . فقد اشتملت الهدية أيضاً على ستمائة آنية فيها طرائف مختلفة انتخبها له هذا القائد من ذخائر مصر .

(١) الخطط ج ١ ص ٣٨٥ و ٣٨٦

(٢) شرحه ج ١ ص ٣٨٥

٤ — الكُسوة التي عملها المعز للكعبة^(١)

ويبين لنا مدى ثروة مصر في ذلك الوقت من وصف الكسوة التي أمر المعز بعملها للكعبة ، كما يبين لنا هذا أيضا كيف نافست مصر بغداد ، بل كيف تفوقت عليها وعلى غيرها من المراكز الإسلامية . ففي يوم عرفة أمر المعز بنصب الكسوة التي اتخذها للكعبة على الإيوان الذي جعله لعقد الجلسات الرسمية .

وكانت هذه الكسوة مربعة الشكل من ديباج أحمر ، وسعتها مائة وأربعة وأربعون شبرا ، وكان في حافتها اثنا عشر هلالا ذهيبا ، في كل هلال إترجة ذهبية ؛ وفي داخل كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام في الكبر ، كما كان فيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق . وقد قش في حافتها الآيات التي وردت في الحج^(٢) بحروف الزمرد الأخضر ، وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة . وكانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك ؛ وكانت موضوعة في القصر بحيث يراها جميع الناس من داخل القصر أو من خارجه^(٣) .

(١) اللفظ الذي استعمله المقرئ هنا هو "شمسية" ؛ ويريد به طبعا الستور التي كانت تسمى بها الكعبة . وقد تناول كترمير (Quatremère) الكلام على اشتقاق هذا اللفظ في المجلد الثاني من تاريخ المسالك في مصر الذي عربه عن المقرئ (ويعرف باسم كتاب السلوك في معرفة دول الملوك) . وتبعنا لما ذكر كترمير ، نجد هذا اللفظ (شمسية) مستعملا يأتي :

١ — نافذة مربعة في أعلى الخواطر ، تترك مفتوحة عادة ، أو تزين بالزجاج حسب إيشاء المرء من مرور الهواء أو الضوء فقط (رحلة ابن بطوطة ، طبع وترجمة ديفريمير وسانجيتي D.G. Defrémery et R.R. Sanguanetti) ، (باريس سنة ١٩١٤ ج ١ ص ١٩٩) . وفي هذه الرحلة يقول ابن بطوطة في وصفه لجامع دمشق ، ان به أربعة وسبعين من شمسيات الزجاج ؛ وجاء ذكر شمسيات الزجاج في عبارة المقرئ عن جامع قرطبة في كتابه "فتح الطيب" (ج ١ ص ٢٩٣) . وعند كلام المقرئ على المسجد الجامع بمراكش ورد في نفس هذا الجزء (ص ٢٦٧) ما يأتي : "وفي أعلاه ثلاث شمسيات تسمى رمانات" وفي كتاب هست المسمى "مراكش وفاس" (ص ٢٦٥ Host: Morocco and Fez) جاء لفظ شمسة ، ويراد بها النافذة .

٢ — مظلة : فقد جاء في تاريخ ابن خلدون أن الخليفة خرج من خيمته وعليه الشمسية ؛ وهنا أقول ان كترمير استعمل في هذا الموضوع لفظ parasol ، ومعنى هذا المظلة الخاصة بالسيدات . لكنني أفضل استعمال لفظ (umbrella) الدال على المظلات التي يستعملها الرجال ، لأنها أكبر وأصلح لاستعمال الخليفة .

٣ — الكسوة أو الستور ، فقد جاء ذلك في المقرئ في خطفه (تقلا عن ابن ميسر في تاريخ مصر ص ٤٤ ، وعن الأول أخذ كترمير) . فانا نجد في المقرئ "أن المعز أمر بنصب الشمسية (يراد بها هنا كما قدمنا الكسوة التي معناها الستر) التي عملها للكعبة على إيوان القصر .

أنظر ترجمة كترمير لكتاب "السلوك في معرفة دول الملوك" (Histoire des Sultans Mamlouka) للمقرئ ، المجلد الثاني ، الجزء الأول ص ٢٨٠ — ٢٨١

(٢) القرآن الكريم سورة ٣ آية ٩٥ ، وسورة ٩ آية ٣

(٣) ابن ميسر ص ٤٤

ه - دار الوزير ابن كلس وثروته

وفي وصف قصر الوزير ابن كلس وبيان ما تركه من الثروة ما يكفي لأن يبين ثروة البلاد في ذلك العصر . ولقد سبق أن ذكرنا أن ابن كلس كان يشجع العلوم والفنون ، وأنه كان يجمع الاجتماعات الكبيرة في بيته في كل يوم خميس ، ويقرأ على المجتمعين مؤلفاته . وكان يحضر هذه المجتمعات القضاة والفقهاء ، وأساتذة القراءات والنحاة ، وعلماء الحديث وكبار رجال الدولة أصحاب المواهب المتأيزة ، وكان يتقدم إليه الشعراء حين ينتهي الاجتماع فينشدونه مدائحهم .

وكان يجمع في قصره عددا كبيرا من الموظفين : يشتغل بعضهم بكتابة نسخ من القرآن ، وبعضهم ينسخ شيئا من كتب الحديث والفقه والأدب وبعض كتب العلوم حتى الطب . وكان هؤلاء النساخ يراجعون ما يكتبونه ، ويضيفون إليه علامات الشكل والنقط ؛ وكان من بين الفقهاء الذين يحضرون مجلس ابن كلس رجل اسمه الحسين بن عبد الرحيم ، يلقب بالزلازلي ، وهو صاحب كتاب الأصباج .

وجعل ابن كلس في قصره جماعة من القراء والأئمة ، وعين لهم الرواتب الخاصة ووكّل إليهم إقامة الصلاة في المسجد الذي بناه في هذا القصر . وكذلك جعل ابن كلس في قصره مطابخ خاصة له ولأضيافه ، وأخرى لغلمانه وحاشيته وأتباعه . وكانت تُمد في كل يوم مائدة كبيرة للعلماء وصفوة كتابه وأتباعه ولأضيافه ، وموائد أخرى تمتد لجبابه وحاشيته وسائر الكتاب^(١) .

وجعل في القصر أيضا مبخضة للطهور وثمان غرف كانت معدة على الدوام لمن يأتي إليه من الأغراب . وكان يجلس بعد صلاة الصبح كل يوم ، فيدخل الناس للتسليم عليه ، ثم تعرض عليه الرقاع بظلمات الناس وحاجاتهم ؛ واتخذ كمولاه العزيز عددا من الضباط منح كلا منهم رتبة القائد ؛ فكانوا يصحبونه في غدواته وروحاته ؛ ومع هؤلاء القواد جماعة من الموالى أطلق على كل منهم لقب القائد أيضا .

(١) ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٤١) قلا عن المسجى .



لوحة من الرخام مزينة بصور الأسماك والطيور
وهي من العصر الفاطمي



شاهد من الرخام عليه كتابة بخط الكوفي
من أوائل القرن السادس الهجري

ولم يفت هذا الوزير تحصين قصره ودور غلمانه بالدروب^(١) ، فاتخذ لذلك حراسا أمدهم بما يحتاجون اليه من السلاح والعدد وسائر المؤن ؛ وأعد لهم وسائل البيع والشراء ، حتى أصبح يحيط بداره ودور أتباعه الخوانيت التي تباع فيها كل أنواع الحاجيات من ما كل ومشرب وملبس^(٢) .

وزادنا المقرئ أن هذا الوزير جعل في قصره عدة دواوين ، بعضها للعزيرة^(٣) ، والبعض الآخر للجيش والمالية والكتاب (السكرتيرية) والسجلات وما يتعلق بإجابة الخراج ؛ وجعل لكل ديوان ما يلزمه من الكتاب . وجعل هذا الوزير أيضا في قصره مخازن للملابس والمشروبات وبيت المال والسجلات ؛ وكان لكل منها مدير خاص يشرف على أعمالها .

وأفرد الوزير في قصره جانبا خاصا للعلماء والشعراء والأدباء والفقهاء وعلماء الكلام والصناع ؛ وجعل لكل طائفة من هؤلاء قسما يخصهم ، كما رتب لكل من الجميع راتبا يدفع اليه بانتظام . ولم يفته أن يجعل في قصره مستشفى فيه عدد كاف من الأطباء يقومون بفحص المرضى ووصف ما يلزمهم من الأدوية التي كانت تعطى اليهم بدون ثمن .

لم يكن هذا كل ما اتخذه ابن كلس من وسائل الأبهة والعظمة . فقد كان في قصره عدا ذلك طائفة من الحجاب يرتدون الملابس الحريرية ، ويتقلدون السيوف ويتمنطقون بالمناطق . وقال المقرئ إنه في شهر رمضان كانت تقام الولائم في قصر هذا الوزير ، فكان يأتيها الفقهاء ومشاهير الرجال ، كما كان يدعى اليها الفقراء وعامة الناس .

(١) كانت الدروب عبارة عن حارات غير نافذة ، فكان في نهاية كل منها باب .

(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٤٠ و ٤٤١) قلا عن المسبج .

ذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٤١) أن الحارة التي تعرف في القاهرة بالوزيرية ، وهي الواقعة داخل باب سعادة ، تنسب إلى أصحابه لاتخاذها سكنا لهم .

(٣) يقصد بديوان العزيرة ، كما يظهر من اللفظ ، الديوان الذي ينظر في الأمور التي تتعلق بشخص الخليفة مباشرة ، كالحرص وشئون معينة .

ويحدثنا ابن منجب^(١) أن عطاء الوزير من الخليفة العزيز كان مائة ألف دينار^(٢) (أكثر قليلا من ٥٠,٠٠٠ جنيه) كل عام ، وأنه ترك بعد وفاته من الغلمان الشبان أربعة آلاف ، ومن الجواهر الثمينة ما قدرت قيمته بأربعمائة ألف دينار ، ومن المصوغات ما بلغت قيمته خمسمائة ألف دينار ، وأنه حين توفي كان عليه للتجارسة عشر ألف دينار ، فقضاها عنه الخليفة العزيز من بيت المال وأداها لأصحابها على قبره .

هذه هي حياة أحد وزراء الصدر الأول من أيام الفاطميين ، وتلك هي ثروته الضخمة التي يحدثنا ابن منجب^(٣) أنها بلغت أربعة ملايين دينار ، عدا مائتي ألف دينار خصصها لينفق منها في زواج ابنته ، وعدا ستائة حظية^(٤) ، وأرضا أعطيت له على سبيل الالتزام قدرت بثلاثمائة ألف دينار . ويحدثنا ابن خلكان^(٥) أيضا أن ما أنفق في تكفين ابن كلس وفي العطر الذي استعمل لتجهيز جسمه بلغ عشرة آلاف دينار .

(١) (ص ٢٣)

(٢) هذا اللفظ مشتق من دينار يوس (Aureus) Denarius الأغرقي اللاتيني ، وهو ، أى الدينار ، اسم وحدة من العملة الإسلامية القديمة . ومنذ أدخل الخليفة عبد الملك ٦٠ — ٨٦ هـ (٦٨٤ — ٧٠٥ م) إصلاحه في السكة سنة ٧٧ هـ (٦٩٦ م) ، أصبحت قيمته ثابتة (أنظر لفظ Dinar في دائرة المعارف الإسلامية) . ومن ذلك الحين أصبح يضرب الدينار في كافة دور الضرب في أرجاء الامبراطورية الإسلامية طوال العهد الأموي . وكان وزن الدينار ٦٥ حبة ، والدرهم ٤٣ حبة ؛ وظل الأمر كذلك حتى العصور الإسلامية المتأخرة . وكان عيار الدنانير العباسية ٩٧٠ ر . ؛ وظلت هذه النسبة مرعبة قرونا طويلة ، كما كانت تلاحظ أيضا في الدنانير التي تصدر عن دور الضرب عند الفاطميين والموحدين ، وأحيانا عند المرابطين . وكان الدينار يساوي أول الأمر عشرة دراهم ؛ غير أن ذلك كان يختلف بين عصر وعصر (Lane-Poole, Coins and Medals, pp. 166-167)

وقد ذكر لين بول (Lane-Poole, the Story of Cairo, p. 59) أن الدينار كان عملة ذهبية تساوي في الوزن نصف الجنيه الإنجليزي المسمى guinea ، وأنه — كما ذكره المقرئ — كان ٣٦ درهما ؛ وعلى هذا فيكون الدرهم ثلاثة بنسات ونصفا .

أنظر المقدسي (طبعة دي غويه ص ٢٤٠)

(٣) (ص ٢٣)

(٤) أطلق الأستاذ مرجوليوت في كتابه " القاهرة وبيت المقدس ودمشق " (Prof. Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 27) طعن زوجات .

(٥) (ج ٢ ص ٤٤٣ ، قلا عن ابن عساكر) .

وفي الحق ، ان البذخ والاسراف هما من مميزات الدولة الفاطمية كما قدمنا . فهذا ابن منجب يقول إنه لما مات برجوان وزير الحاكم ، وجد في خزانته ملابس ألف سروال ديبق^(١) وألف تكة حريرية ، وكمية كبيرة من الملابس الأخرى والأثاث والآلات الموسيقية^(٢) والكتب والطرائف المختلفة^(٣) .

هذا ، وقد كانت سلطة الوزير في الصدر الأول من أيام الفاطميين محدودة ، اذ كان يتوقف بقاؤه في مركزه على تمتعه بتعضيد الخليفة ورضاه ؛ ولذلك نرى المقرئ يذكّر لنا أن ابن كاس صُرف عن الوزارة في سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ - ٩٨٤ م) ، واعتقل في القصر ثمانية أشهر ، ثم أطلق بعدها ، وألقيت إليه مقاليد الأمور من جديد ، ووهب الخليفة بهذه المناسبة خمسمائة غلام من الناشئة وألف من الموالي المغاربة^(٤) .

غير أنه في العهد الأخير من أيام الفاطميين (٤٦٦ - ٥٦٧ هـ و ١٠٧٣ - ١١٧١ م) ، عند ما صار الوزير رب السيف والقلم ، ضعف نفوذ الخلفاء كثيرا ، بحيث أصبحوا طوال هذا العهد تقريبا تحت نفوذ الوزراء الذين استفحلّت قوتهم وتضخمت ثروتهم ؛ فأعانهم ذلك على أن يعيشوا معيشة قوامها حب الظهور وما يستدعيه ذلك من سرف وبذخ أكثر مما كان عليه أسلافهم في العهد الأول .

(١) نسبة الى مدينة ديبق الواقعة بين الفرما وتينيس ؛ وقد اشتهرت بما كان يصنع فيها من الملابس .
أنظر كتاب الموشى (طبعة برينو Brünnow) ص ١٢٤ وترجمة أسامة بن مقفد ص ١٢٠ . أنظر هذا اللفظ أيضا في معجم البلدان لياقوت ، وكتاب " مذكرات جغرافية وتاريخية " تأليف كترمبر (Quatremère) ج ١ ص ٣٤٠ ،
Von Kramer: Culturgeschichte des Orients, vol. II, p. 280.

(٢) ذكر المقرئ أن برجوان كان شديد الولع بالموسيقى .

(٣) ابن منجب ص ٢٨

ترك لنا ابن اياس (ج ١ ص ٥١ و ٥٢) صحيفة طويلة بما تركه برجوان . غير أنه لا يمكننا الاعتماد طبعا على كلامه اذ اعلمنا أنه يقول إن برجوان ترك مائتي مليون دينار ذهبا ، ونحسب أن هذا قدره . أما الدرهم ، فنع أن هذا القدر بعيد أن يتركه برجوان ، فانه رغم ذلك يمكن القبول . وأما الدنانير فأحسب ابن اياس قد غلط في تقديرها ، أو غلط الناشئون في نقلهم ذلك عنه . ولو قال مليونين ، لكان قريبا من الصواب ، وبخاصة اذا عرفنا أن اللدة التي ولها برجوان لم تكن من الطول بحيث تقسم لجمع هذا القدر من المال .

(٤) المقرئ يخطئ (ج ٢ ص ٦)

٦ - ثروة الوزراء في العهد الأخير من أيام الفاطميين

أما عن ثروة الوزراء الفاطميين في هذا العهد ، فقد أمدنا ابن ميسر بمعلومات طريفة في هذا الموضوع . فقد ذكر لنا في كلامه عن الثروة التي خلفها الأفضل (٤٨٧-٥١٥ هـ) بن أمير الجيوش بدر الجمالي ، ما كان من ركوب الخليفة الأمر ٤٩٥-٥٢٤ هـ (١١٠١-١١٣٠ م) الى دار الوزير وختمه عليها بعد وفاته .

ففي صبيحة الغد بعد صلاة العيد ، غُسل جثمان الوزير وكُفّن وورى التراب ؛ ثم أمر الخليفة بنقل ثروة الوزير الى دار الخلافة ، وجعل على ذلك جماعة من الكُتاب يقومون باحصائها . وتم ذلك في أكثر من شهرين بين سمع الخليفة وبصره ، حيث كان يقضى صدر النهار في الجزء الذي عين من قصره لنقل تلك الثروة اليه ، كما كان يقضى سائر النهار في أحد دور الوزير ليعمل الترتيب اللازم . ويظهر لنا من عبارة ابن ميسر أن الخليفة قضى معظم وقته في الاشراف على نقل ما في دار الوزارة ودار الملك^(١) . وهذه الدار - كما ذكر المقرئ في كلامه عن مناظر الخلفاء الفاطميين - بناها الأفضل سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧-١١٠٨ م) ، ثم صارت بعد وفاته ضمن مناظر الخلفاء . وقد جعل الأفضل مسكنه الخاص في هذه الدار ؛ فنقل الى بعضها الدواوين ، كما جعل فيها محال خاصة تقام فيها الأسمة في الأعياد ، واتخذ في إحدى أبنائها مجلسا يجلس فيه للعطاء ، كانت تعقد فيه الجلسات . وسمى هذا المجلس مجلس العطاء ، اذ كان الوزير يجلس فيه ويعطى ديناراً لكل من يأتيه مستجدياً .

(١) قد يظن من لفظ دار الملك أن الأفضل كان يلعب بالملك أيضاً ؛ ولكن اعتماداً على ما ذكره أسامة بن منقذ (ص ٢٢) ، نرى أن هذا القرب لم يضاف الى ألقاب الوزير قبل سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥-١١٣٦ م) . وقد كان رضوان بن الرنثي وزير الخليفة الحافظ يلعب بالسيد الملك الأفضل ؛ وظل الوزراء الفاطميون يتمتعون بهذا القرب منذ ذلك الحين .

ابن خلكان ج ١ ص ٦٦٠ ، والمقرئ خط ج ١ ص ٤٣٨ و ٤٨٣-٤٨٥ ، Ravaisse, Essai sur la Topographie du Caire d'après Maqrizi (Mémoires publiées par les Membres de la Mission Archéologique française du Caire, tome III. Paris, 1887, pp. 470-471).

وقد كان الأفضل يحتفظ لذلك في دار العطاء بثمانية أكياس من حرير، في سبعة منها خمسة وثلاثون ألف دينار؛ كما جعل في قاعة اللؤلؤ بجوار الحشية التي كان يجلس عليها كيسين : في أحدهما دنانير، وفي الآخر دراهم ينفق منها إذا كان في الحرم . أما ما كان في مجلس العطاء، فكان يعطى منها للمستجدين كما قدمنا وللشعراء .

وقد ذكر المقرئ أن الأفضل كان إذا انفرط عقد المجلس أمر بكتابة ما أنفق من كل كيس على البطاقة التي كانت ترفق به ، ثم يمضيها ؛ وتبقى في الكيس ويختتم عليه . ولما جاء رجب سنة ٥١٢ (١١١٨ م) تضاعف عدد الأكياس وتوالى الاحسان بصورة تم عن البذخ ؛ فأغدقت العطايا على الشعراء في جوامع مصر المتقاربة من قصر الوزير، وعلى الفقراء بحى القرافة^(١) .

والآن فلنعد الى ثروة الأفضل ، فنجد أن ابن ميسر يقول عنها : ” فوجدوا له من الذخائر النفيسة ما لا يحصى : فوجد له ستة آلاف ألف دينار عينا ، وفي بيت الخالصة ثلاثة آلاف ألف دينار، وفي البيت البراني^(٢) ثلاثة آلاف ألف ومائتين وخمسين ألف دينار، وخمسين أردبا دراهم ورق ، وثلاثين راحلة من الذهب العراقي المعزول برسم الرقم ؛ وعشرة بيوت في كل بيت منها عشرة مسامير ذهب ، كل مسمار وزنه مائتا مثقال ، عليها العائم المختلفة الألوان^(٣) ؛ وتسعمائة ثوب ديباج ملونة ، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتنيس برسم كسوة بدنه ؛ ولعبة عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه ليكسب الراحة . ومن الطيب والنحاس والالوات ما لا يحصى عددا ؛ ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ما بلغ ضمان ألبانه وضياعه أربعين ألف دينار في السنة ؛ ودواة يكتب منها مرصعة بالجواهر ، قوم جواهرها باثني عشر ألف دينار ؛ وخمسمائة ألف مجلد من الكتب^(٤) .

وقد ذكر لنا ابن ميسر أيضا طرفا من ثروة الأفضل العظيمة — نقلا عن الخازن بالقصر — حسب ما تذكره ذلك الخازن الذي يقول ان هذا كان قُلًّا من كُثْر مما استطاع أن يتذكره عند ما ذكر هذا الأمر .

(١) المقرئ ج ١ ص ٤٨٣ و ٤٨٤

(٢) يحتل أنه دار الوزارة في أجناح من دار الملك والقاهرة .

(٣) هذه المسامير كانت تستعمل مشاجب لتوضع عليها العائم .

(٤) ابن ميسر ص ٥٧

من ذلك أنه وجد في دار الأفضّل (دار الملك) ستة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار من الذهب ، وسبعمائة طبق ما بين فضة وذهب ، وما لا يحصى من الأدوات كاللّءاء والصّحاف وأكواب الشراب ، والأباريق والقذور والأواني المستعملة في اللّبن (الزبادى) ، وغير ذلك من القطع المختلفة من الذهب والفضة . وكان هناك غير ذلك شيء كثير من البراني^(١) الصّيني الكبيرة المملوءة بالجوهر ، الذي كان بعضه منظوما على هيئة عقود ، وسائر مثورا .

كما كان مما تركه الأفضّل أيضا تسعون ألف ثوب عتّابي^(٢) من الديباج ، وثلاث خزان كبيرة ممتلئة بالثياب الدّيبقية من صنع تنيس ودمياط ، وخزانة أخرى للطيب مملوءة بأسقاط العود وغيره ، مكتوب على كل منها وزنه ونوعه ؛ أما أواني المسك والكافور والعنبر فكانت من الكثرة بحيث لا يمكن عدّها^(٣) .

وكان في ثروة الأفضّل غير ما تقدم أربع حجرات ملاءى بالمقاطع والستور والفُرش والوسائد والمسائد الديباج ، وأنواع مختلفة من الدّيبق الحرير المذهب ، وعدة صناديق ملاءى بأحقاق الذهب خاصة لاستعمال الوزير ، وخزان أخرى ملاءى بمختلف الثياب الديباجية المحلاة بالذهب .

أضف إلى ذلك أربعة آلاف من البسط والستور المصنوعة من خيوط السجاد ، وخمسمائة قطعة من البلور ما بين كبيرة وصغيرة ، وخمسمائة قطعة مُحْكَم^(٤) لنقل الأمتعة ، وألف عدل من أمتعة الين والاسكندرية وبلاد المغرب ، وسبعة آلاف سرج . ولم يكن هذا كل ما خلفه الأفضّل من ثروة . فقد كان في بيته ثمانمائة جارية ، منهن خمسون حظيّة ، لكل واحدة منهن حجرة تخصّها^(٥) .

أما مجلس شرب الأفضّل فقد وصفه لنا ابن ميسر ، إذ ذكر أنه كان فيه ثمانية تماثيل لثمان جوار متقابلات ؛ وكان منهن أربع بيض من الكافور ، وأربع سود من عنبر . وكن مرتديات أنف الثياب ومترينات بأثمن الحلّى ، ويمسكن بأيديهن أحسن الأحجار الكريمة .

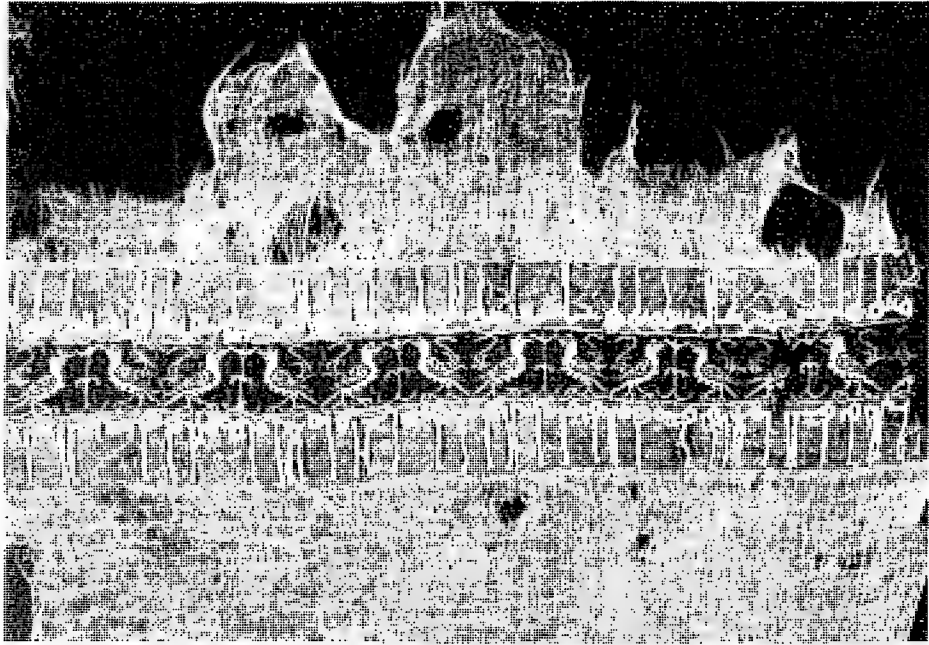
(١) جمع برنية وهي إناء معروف .

(٢) نوع من الثياب الحريرية ، تنسب كما ذكر دوزى في شرح تاريخ هذا اللفظ ، الى ابن حفيد عميرة المسمى عتاب ؛ واليه ينسب حتى ببغداد ، وفيه تصنع هذه الثياب التي صارت تعرف بالثياب التنايية (أنظر Dozy, Supplément)

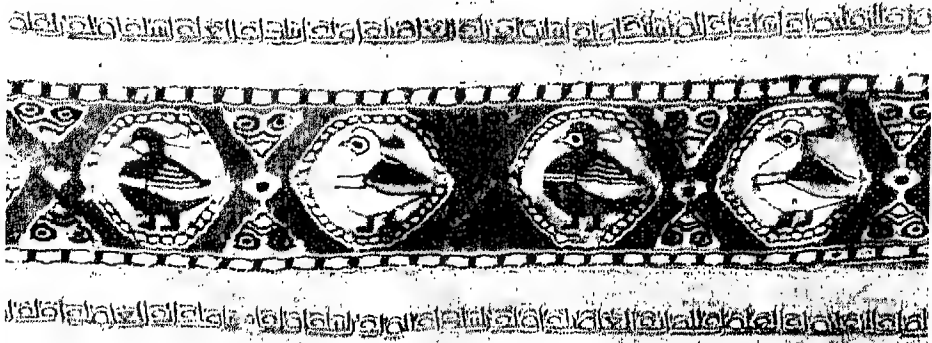
(٣) ابن ميسر ص ٥٧

(٤) لم أعر على معنى هذا اللفظ رغم رجوعي الى قاموس دوزى المسمى قاموس الملابس عند العرب (Dozy, Dictionnaire des Vêtements chez les Arabes) والى غيره من الموسوعات العربية كالقاموس المحيط للفيروزبادى .

(٥) ابن ميسر ص ٥٨



قطعة نسيج من كتان أبيض مزين بشرائط به صورطيور متقابلة



قطعة نسيج من كتان مزينة بجامات على أرضية حمراء

وكان الأفضل إذا دخل من باب المجلس ، نكس رءوسهن إجلالا له ؛ فإذا ما أخذ مكانه في صدر المجلس استوين قائمات . وهذه التماثيل لم يبين لنا ابن ميسر — وهو المرجع الوحيد في هذا الموضوع — إن كانت حركاتها تلك من تلقاء نفسها أو بوسائل أخرى . والظاهر أن ذلك منها كان بوسائل هندسية مرتبطة بمكان دخوله إلى مجلسه .

وكان الأفضل حين يجلس للشرب يجعل في مجلسه صواني الذهب مصفوفة ، وفيها الأواني المملوءة بالجواهر . فإذا أمر جُعل ما في الآنية على الصينية فيملؤها ، ويجعل بدله الشراب^(١) .

هذا ، وقد ذكر متولى الخزانة في القصر الذي استمد منه ابن ميسر هذه المعلومات الطريقة : ” هذا ما حضرني حفظه في داره ؛ وأما ما كان في مخازنه وتحت يد عماله ، والجباة وضممان التواشي ، وأصناف الغلال والحبوب والقطن والكتان ، والشمع والحديد والخشب وغير ذلك ، فما لا يحصى“ . أما عن أخلاق الوزير فيقول ابن ميسر : ” كان الأفضل من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة... ولم يعرف أحد صودر في زمانه“^(٢) .

هذا هو مبلغ ثروة الوزير في العهد الفاطمي الأخير . ومما ذكره ابن ميسر والمقريزي نستطيع أن نبين ما كان هناك من القوة والثروة ، والحالة الاجتماعية ، والحياة الخاصة التي عاشها الوزراء وغيرهم من أصحاب المراكز الكبيرة . ولانتمك في أن الوزير في هذا العهد كان يتمتع بالسلطة المطلقة ، كما كان في قبضة يده خراج الدولة ؛ وكانت داره المحور الذي تدور عليه أعمال تلك الدولة الواسعة التي لم تكن تابعة للخلفاء إلا اسما فقط .

وإن كثيرا من ثروات هؤلاء الوزراء كانت تصدر عند وفاتهم ؛ إلا أن بعضها كان يرد إلى من يخلفهم من أبنائهم . فقد روى أبو المحاسن أن أبا علي أحمد بن الأفضل لما آلت إليه السلطة بعد أبيه ، حبس الخليفة الحافظ سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) واستولى على مافي القصر ، زاعما أن ذلك كان لأبيه . غير أن الخليفة قد استرد هذه الثروة بعد وفاة الوزير وجعلها في قصره^(٣) .

وقد كان هذا النزاع بين الخلفاء والوزراء من المميزات التي امتاز بها هذا العهد الفاطمي الأخير ؛ وربما كان ذلك نتيجة تولى الأطفال عرش هذه الدولة . وقد يكون الأستاذ مرجوليوت مصيبا

(١) ابن ميسر ص ٥٨

(٢) شرحه ص ٥٨ و ٥٩

(٣) أبو المحاسن ج ٣ رقم ١ ص ٣

فما يراه من أن تسنم أطفال للعرش كان مبعثه حب اطلاق الحرية للوزراء ، مما كان سببا لمصائب كثيرة نزلت بالوزير والخليفة جميعا^(١) .

على أنه في عهد انحلال الدولة الفاطمية ، لم يكن الخلفاء بأقل انفاقا في سبيل الكرم مما كان عليه أسلافهم في أيامهم الأولى ؛ فقد ذكر ابن ميسر أنه لما مات الأفضل ، كانت على قبره أربعائة وعشرون شخصا من القراء والوعاظ والمنشدين ؛ فأمر الخليفة الأمر ٤٩٥ — ٥٢٤ م (١١٠١ — ١١٣٠ م) لكل منهم بثمانين دينارا . وبالرغم من اعتراض أحد رجال بطانته استكثارا لذلك القدر ، أمضى الخليفة ما أراده ؛ وكان مجموع ذلك نحو الأربعة وثلاثين ألف دينار أخذت من بيت المال^(٢) .

٧ — ثروة الخلفاء الفاطميين ويسرهم

لاشك أن ثروة الخلفاء كانت أعظم من ثروة وزراءهم . وإن ما ذكرناه في وصف عرش المعز وهدية جوهر إليه ، والكسوة التي عملت برسم الكعبة ، ليبين لنا مبلغ ثروة مصر في أيام الخلفاء ، وثروتهم وحالة البذخ التي كانت تسود مظاهرهم . أما وصف القصر وما كان فيه من كنوز ، فذلك ما سنتكلم عليه بعد .

يقول لين پول : ”إن الخلفاء الفاطميين كانوا أكثر الملوك الذين حكموا مصر حبا للظاهر“ . ومع هذا يقول : ”إن ثروات الفاطميين كما دونها المؤرخون ليس من الممكن تصديقها بدون تردد ، فانتا نقرأ في المقرئ أن بنتين للعز قد تركت إحداهما (واسمها رشيدة) ما يقرب من مليون ونصف من العملة الذهبية (١,٧٠٠,٠٠٠ دينار كما جاء في المقرئ أي زهاء ٢/٣ مليون جنيه) ، وتركت الأخرى (عبدة) كثيرا من خزائن الحلى والصناديق التي تحتوى على خمسة أكياس من الزمرد ، وثلثمائة قطعة فضية ، وثلاثين ألف ثوب صقل ، وغير ذلك من الذخائر، حتى كان الشمع الذي استخدم في الختم على هذه الثروة أربعين رطلا . كما أنا نقرأ أيضا أن المعز اشترى ستارة من الديباج من فارس بما يقرب من اثني عشر ألف جنيه“^(٣) .

(١) Prof. Margoliouth: Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 30.

(٢) ابن ميسر (ص ٦٠)

(٣) (ص ١٣٣) The Story of Cairo, p. 133. (مقتبسا من الخطوط للمقرئ (ج ١ ص ٤١٥) .

(١) جامع القرافة

في سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ - ٩٧٧ م) أنفقت تغريد زوجة المعز أموالا جمة على تشييد مسجد لها بالقرافة . وقد قام برسم المسجد الحسن بن عبد العزيز الفارسي المحتسب ؛ وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة ؛ وكان يحيط بهذا الجامع من غربيه حديقة غناء وصهرج . واختط هذا المسجد على شكل مربع الزوايا ؛ وفي جوانبه أروقة كالأزهر ؛ بيد أن نقوشه كانت في غاية الإبداع . أما بابه فكان ذا مصطبة كبيرة تحت المنارة الجالية ، وكان مصفحا بالحديد . وكانت المقصورة يدخل إليها من أربعة عشر بابا مربعة ، أمام كل باب قنطرة مقوسة على عمودين من الرخام في ثلاثة صفوف . وكانت الأبواب مكنندجة^(١) مدهونة بالأزرق والأحمر والأخضر ، كما كانت السقوف ملونة بمختلف الألوان . وكان أمام الباب الأوسط قنطرة على هيئة قوس ، ملونة بألوان مختلفة ، يكاد الناظر إليها يخالها شكلا طيعيا ؛ وقد حاول النقاشون أن يحاكيوها فما استطاعوا^(٢) .

وقد أمرت زوجة المعز الحسن بن عبد العزيز المحتسب الذي رسم مسجد القرافة ، فبنى لها قصر القرافة في سنة ٣٦٦ هـ . وكان يتصل بهذا القصر بستان لطيف وحمام وبئر ؛ وكان — كما يقول المقرئ^(٣) — قصرا فخما يسر الناظرين ، يتردد عليه أهلوه طلبا للراحة . وكان بهذا القصر قنطرة مقامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس .

وفي الخطط للمقرئ أن اثنين من الفنانين كان يتنافس أحدهما الآخر : هما القصير وابن عزيز العراقى ، وكانا يتمتعان بحماية الوزير وتفضيده . وكان من أمرهما أن صوّر أحدهما راقصة في ثياب بيض في قوس ملون بالسواد ، يحسبها الناظر داخلة فيه ؛ وصوّر الآخر فتاة أخرى بثياب حمراء في قوس أصفر ، يخالها الناظر بارزة عن القوس . وقد نالا بذلك إعجاب الوزير ؛ فخلع عليهما ووهبهما ذهباً كثيرا . ويزيدنا المقرئ أنه كان في إحدى دور القرافة صورة للكائن^(٤) أحد نقاشي جامع القرافة ، تمثل يوسف عليه السلام يتها للراحة وهو في الحب^(٤) .

(١) هو لفظ معرب عن كَنَدَه ومعناها مجوف .

(٢) المقرئ خطط (ج ١ ص ٤١٥) .

(٣) شرحه (ج ١ ص ٤٨٦) .

(٤) (ج ٢ ص ٣١٨) .

ويستطرد المقرئ في الكلام على هذا القصر ، حتى يذكر أن الخليفة الامر جده سنة ٥٢٠ هـ (١٠٢٩ م) ؛ وكان يجلس في أعلاه ويشاهد ذكر الصوفيين من نافذة عملت لذلك ، وألويتهم بين أيديهم والشموع نضى لهم ؛ وكانت تقام لهم الموائد وعليها ما لذ وطاب من سائر أنواع الأطعمة .

وقد أمر الخليفة الأمر عند انتهاء الذكر^(١) ، بفىء بألف نصفية^(٢) من خزائن الكسوة^(٣) ، فوزعت على الحاضرين . وأمر صاحب بيت المال فأحضر ألف دينار من بيت المال ؛ ونثر كل ذلك على الناس من النافذة التي كان الخليفة يشاهد منها الذكر . واختفى بعض هذه الدنانير في الأرض ، فاشتغل كثير من الناس بغرلة الأرض طلبا لها في الأيام القليلة التي تلت هذه الحادثة^(٤) .

وقد فاقت دولة العزيز ٣٦٥-٣٨٦ هـ (٩٧٥-٩٩٦ م) ، الذي بنى مسجد القرافة وقصرها في عهده ، دولة أبيه في اتساع الرقعة : إذ دعى له على منابر الجوامع من بلاد العرب الى المحيط الأطلسي . وكان العزيز خيرا بالجواهر ؛ وقد ابتدع نوعا جديدا من العائم محلاة بخيوط الذهب ، وسروجا كذلك معطرة بالعنبر ؛ كما كانت أسلحته مكفئة بالذهب أيضا . واقتنى كثيرا من الطُرف يزين بها موائده . وشغف تكمارويه بن أحمد بن طولون بجوارح الطير الغريبة ، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان ؛ وكان مغرما أيضا بالصيد ، وخاصة صيد السباع . ومع هذا فقد كان ذكيا أدبيا ، ورث أباه في مواهبه السياسية^(٥) .

ولقد ابتنى كثيرا من المنشآت التي تنطق بغزارة ثروته ، والتي يحتاج الكلام عليها إلى مجلدات ؛ وذلك كالجوامع المعروف بجامع الحاكم الذي أسسه سنة ٣٨٠ هـ ، وقصر الذهب وجامع القرافة العظيم ، وقصور أخرى في عين شمس ، وقصر البحر الذي يقول فيه ابن خلكان لا يوجد شبيه له في الشرق ولا في الغرب^(٦) .

(١) الذكر هو حمد الله وتجيده وتنزيهه عن كل شائبة وقص ؛ ولذلك أقوال ينشدونها بترتيل خاص ونفثات خاصة ، مثل الحمد لله ! الله أكبر ! وغير ذلك .

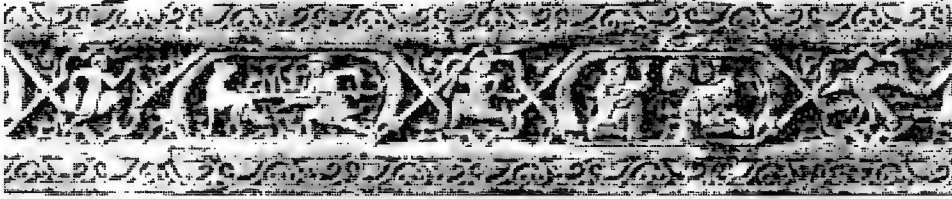
(٢) ثياب تصنع من خليط من الحرير والقطن (انظر Dozy, Supplément)

(٣) وبكسر الكاف أيضا . انظر القاموس المحيط للفيروز بادى ؛ وهي مشتقة من كلمة كساء أى لباس .

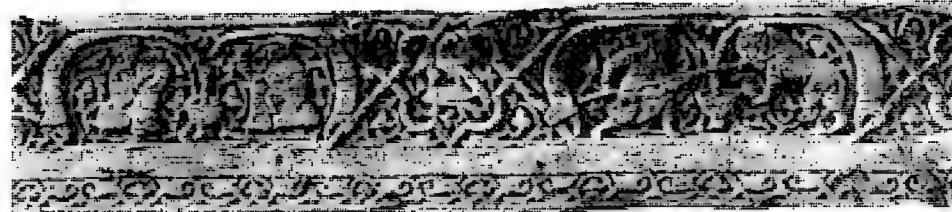
(٤) المقرئ خطط (ج ١ ص ٤٨٦) .

(٥) ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠٠) .

(٦) شرحه .



مناظر تمثل الرقص والصيد والموسيقى



مناظر منقوشة تمثل طيور اوتيسا وصائدات يقتنص سباعا مع جوقه من الموسيقيين

وكان العزيز فوق ذلك كريماً محباً للعفو ، وصنيعه مع إفتكين التركي خير مثل لذلك^(١) .
فقد عامله معاملة قوامها منتهى العطف والرعاية ، وقد جاء به أسيراً الى القاهرة حين عاد من حربه
منصوباً عليه ؛ إذ خلع عليه ووصله بهبات ، وخصص له داراً لإقامته ، ثم أذن له أن يدخل بلاط
الخليفة ضيفاً مكرماً ؛ حتى لقد كان إفتكين يقول : ”لقد احتشمت من ركوبى مع الخليفة مولانا
العزيز بالله ونظرى إليه ، بما غمرنى من فضله وإحسانه“ . فلما بلغ العزيز ذلك قال لعمه حيدرة :
”يا عم ! أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر ، ولهم
الخليل واللباس والضياح والعقار ، وأن يكون ذلك كله من عندى “ .

(ب) الثروة التى خلفها الحاكم

كانت الثروة التى تركها الحاكم — كما يقول أبو المحاسن — عظيمة . ولا غرو فقد كان من بين
الخلفاء الفاطميين مشهوراً بحب العظمة ، حتى إن أبا المحاسن يقول ، أن الحاكم لما اتصل به خبر
رسول إمبراطور الروم وأنه فى طريقه الى القاهرة ، وأنه قد يمثل بين يديه ، أمر بترتين القصر ؛
فكان من بين الأكياس التى تحتوى على الحرير المشغول بالذهب كيس عليه رقم ٣٣١ .

وقد نقل كل ذلك إلى الإيوان المعد لاستقبال الرسول وعلق على حوائطه ، فغدا الإيوان كله
يتلألأ ببريق الذهب . وقد وضع أمام الإيوان قطعة من العسجد على هيئة درقة^(٢) مرصعة
بالأحجار الكريمة ؛ فكان لانعكاس أشعة الشمس عليها بريق يخطف الأبصار ويضئ ماحولها^(٣) .

ونرى فى العبارة التى أوردها أبو المحاسن عن ثروة ست الملك أخت الحاكم ، أن تلك الثروة
اشتملت على ثمانمائة جارية ، وثمان جرات ملأى بالمسك ، وكثير من الأحجار الكريمة ، من بينها
قطعة من الباقوت وزن ثمانية مثاقيل ؛ وكانت مخصصات هذه الأميرة السنوية خمسين ألف دينار ؛
وكانت مشهورة بالكرم والحلم^(٤) .

(١) هلال الصابى ، مسكويه ج ٣ ص ٣٨٤ و ٤٠٣ ، وابن القلانسى ص ٢٠ و ٢١

(٢) معربة عن لفظ فارسى هو ”دريجة“ ، وهى درع بيضاوى الشكل غالباً ، وفيه نتوءات فى وسطه ، وله مقبض
فى ظاهره ؛ ويتراوح طوله بين قدم ونصف وقدمين . وتصنع الدرقة غالباً من جلد فرس البحر وغيره من الحيوانات ذات
الجلود السمكية ، وأحياناً من جلد التمساح (انظر Lane's Arabio-English Lexicon)

(٣) المقرئى خطط ج ١ ص ٤١٥ ، وأبو المحاسن ج ٢ رقم ١ ص ٧٧

(٤) شرحه .

(ج) زيارة ناصري خسرو مصر

لقد آمدنا ناصري خسرو ، ذلك الشاعر الفارسي ، حين زيارته لمصر في سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) في عهد المستنصر ، بوصف ضافٍ عن ثروة البلاط الفاطمي وأهله ، وما كانت عليه القاهرة من يسر ورخاء .

وكان ناصري خسرو وزيراً في خراسان ؛ ثم اعتزل الأعمال السياسية ومال الى الدين ؛ فحج بيت الله ، وأصبح داعياً للاسماعيلية . وانه ليقص علينا في كتابه "سَفَرُ نَامِه" (١) ما لاقاه في رحلته الى مكة ، ثم الى دمشق فبيت المقدس ، وأخيراً الى القاهرة التي وصلها في السابع من صفر سنة ٤٣٩ (٧ أغسطس سنة ١٠٤٧) ، فأقام فيها الى يوم الثلاثاء ١٤ ذى الحجة سنة ٤٤١ .

وبعد أن شاهد كثيراً من المدن العظيمة في بلاد الفرس والعراق ، رأى أن القاهرة قد فاقت غيرها من مدن العالم الاسلامي في العظمة والجلال . وكان مغالياً في الاسماعيلية ، فاعتبر القاهرة المركز الرئيسي للذهب الذي يدين بعقائده ، كما اعتقد أيضاً أن الفاطميين هم الأئمة حقاً ؛ وقد عبر عن كل ذلك في كتابه .

ويذكر لنا أن الفنادق والحمامات وغيرها من المنشآت العامة كانت كلها ملكاً خاصاً للخليفة . وكانت الدكاكين في القاهرة كلها كذلك ملكاً له ؛ وكان ايجار كل منها في الشهر من دنانير الى عشرة دنانير (٢) ؛ وكانت الدور محكمة البناء ، مبنية بالججر لا باللبن ، يفصل بعضها عن بعض حدائق بهيجة (٣) .

(١) النسخة الفارسية وترجمتها ، قام بشرها وترجمتها شارل شيفير (Charles Schefer) ، باريس سنة ١٨٨١ .

(٢) ناصري خسرو "سَفَرُ نَامِه" ، ص ١٢٧ .

(٣) شرحه ص ١٣٢ .



باب ذو مصرعتين ، أصله من جامع السلطان قلاوون . وكان مركبا على أحد أبواب القصر الفاطمي الغربي

ويقول لنا ناصرى خسرو^(١) أيضا انه كان بالقصر الملكي ثلاثون ألف^(٢) جارية ، وانه كان فيه اثنا عشر بهوا (سلامك) وعشرة أبواب^(٣) . وكان موضعه وسط القاهرة التي كان بها عشر حارات^(٤) . وكان حراسه ألفا : منهم خمسمائة فارس وخمسمائة راجل . واذا ما انتهت صلاة العشاء ضربت الطبول والأبواق وعزفت الصنوج ، وكون الحرس من أنفسهم دائرة ، وظلوا كذلك حتى مطلع الشمس^(٥) .

(د) جبر الخليج

أما عن الاحتفال بوفاء النيل ، فنكتفى بذكر ما قاله ناصرى خسرو أيضا من أنه كان من أعظم الاحتفالات التي كانت تقام في مصر في كل عام . فقد كان يحتفل بوفاء النيل بحضور الخليفة المستنصر ، وفي ركبه عشرة آلاف فارس يتطون الخيول المطهمة الملجمة ، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة ، المكسوة بدياج مطرز باسم الخليفة . ويلي هؤلاء صفوف من الجبال عليها هودج مزركشة ، تقودها طائفة من جند الخليفة ؛ وكذا كانت عدد البغال محلاة بالذهب .

أما الجند فكانت تسير في صفوف منتظمة ، فصيلة تلو فصيلة ، ميمين فم الخليج ، والبربر من هؤلاء يسرون في عشرين ألفا من أشداء قبيلة كّامة (من قبائل البربر في شمال إفريقيا) من سلالة جند المعز . ويلي هؤلاء خمسة عشر ألفا من المغاربة ؛ ومن المصامدة^(٦) عشرون ألفا . ويسير

(١) ناصرى خسرو ص ١٢٨

(٢) ذكر المقرئى أنه كان بالقصر ثمانية عشر ألفا ، منها عشرة آلاف من الأشراف وثمانية آلاف من الخدم . وفي عبارة أخرى للمقرئى نقلا عن ابن عبد الظاهر ، أنه كان بالقصر حين استولى عليه صلاح الدين عند سقوط الدولة الفاطمية اثنا عشر ألفا كلهم من الإناث ، عدا الخليفة وأولاده .

(٣) ذكر لنا ابن دقاق (ج ٤ ص ٥٦ و ٥٧) أسماء أبواب القصر الشرقى الكبير هي : باب الذهب ، وباب البحر ، وباب الرمح ، وباب الزمرد ، وباب العيد ، وباب قصر الشوك ، وباب الدليم ، وباب تربة الزعفران ، وباب الزهومة (أضنى الباب الذى يشتم منه رائحة اللحم) .

(٤) ناصرى خسرو ص ١٤٤ و ١٤٥

كانت أسماء هذه الحارات أو الأحياء كما يلي : حارة بريحوان ، وحارة زويلة ، وحارة الجندرية ، وحارة الأمراء ، وحارة الديالة ، وحارة الروم ، وحارة الباطنية ، وقصر الشوك ، وعيد الثراء ، وحارة المصامدة . وفي المقرئى (خط ج ٢ ص ٣ — ٢٠) تفصيل لهذه الحارات في عبارة شائعة تبين أسباب تسمية بعضها بهذه الأسماء الخاصة .

(٥) ناصرى خسرو ص ١٢٨

(٦) قبيلة من قبائل البربر بشمال إفريقيا .

خلف هؤلاء وأولئك الأتراك والفرس في عشرة آلاف ، ويطلق عليهم اسم المشرقيين ، ولو أن مسقط رأسهم هو مصر . ويتبعهم من بدو الحجاز خمسة عشر ألفا ، ومن السودان ثلاثون ألفا ، وكان يطلق عليهم عبيد الشراء ^(١) .

وبلى هؤلاء أيضا عدد غير قليل من الأرقاء ورجال الحاشية ، وكذلك الموظفون على اختلاف مراتبهم ، والشعراء والعلماء والأمراء ^(٢) من مراکش واليمن ، وبلاد النوبة والحبشة ، وآسيا الصغرى وجرجان وتركستان ، حتى الأمراء من أبناء سلطان دهل — وكانت أمهم تقيم في القاهرة .

أما الخليفة فكان شابا في مقتبل العمر ، بهي الطلعة حليق اللحية ، عليه كساء طويل ^(٣) ناصع البياض ، يمتطي بغلة عارية من كل ما يزينها . وكان حرس الخليفة يتألف من ثلثائة من الديلم المشاة ، مرتدين الحلل السندسية المصنوعة في بلاد الروم ، حاملين المعاول والمزاريق . ويسير إلى جانب الخليفة أحد كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة ^(٤) ؛ ويحف بهما خصيان يطلقون البخور على جانبي الطريق . حتى إذا ما وصل إلى القسطنطينية المقام عند فم الخليج وسجد له الناس اكبارا واجلالا ، قذف المزراق في سد النيل . ومن ثم ينطلق الناس يعملون في هذا السد بمعاولهم ، فينساب الماء ؛ وعندئذ يهرع الناس إلى زوارقهم فرحين جزلين ، يتقدمهم زورق يحمل جماعة من الصم والبكم تيمنا وتفاؤلا ^(٥) .

وأخيرا يقول ناصري خسرو ان مصر كانت في ذلك الوقت في مجبوحة من العيش ، ويقول ان الخليفة كان محبوبا جدا من الشعب ، وانه لم يكن أحد يخشى سلبا أو تعديا في ظل حكمه . ويقول في كلامه عن أسواق القاهرة وحوالياتها الفخمة الغنية بما فيها من الطرف ، ان تجار الجواهر والصيارف لم يكونوا يحفلون بأعلاق حوائثهم ، اذ لا يخشون عليها من اللصوص ^(٦) .

(١) أى الأسارى الذين كانوا يشترون بالمال .

(٢) يقول ناصري خسرو (ص ١٣٩) ان هؤلاء قد كزنوا من أنفسهم فصيلة متحدة ، غير أنها لم تكن معتبرة من جيش الخليفة ؛ وكان بعضهم يعطى معاشا قدره خمسمائة دينار على الأقل ؛ ويعطى البعض ألفي دينار . أما أن تكون هذه المعاشات لشهر أو لسنة ، فذلك ما لم يبيته ناصري خسرو . ويبدو أنهم كانوا يتقاضون هذا المبلغ عن الشهر الواحد ، فان مالية الدولة لا تقوى على تحمل مثل هذه المبالغ إذا كانت شهرية .

(٣) يقول ناصري خسرو ان ثوب الخليفة هذا كان من صنع ديبق ، وكانت قيمته ألف دينار .

(٤) كانت عمامة صاحب المظلة مزينة بالأجوار الكريمة ، وكان ثوبه من جنس ثوب الخليفة . أما المظلة فكانت مرصعة باللازكي والأجوار الكريمة .

(٥) شرحه ص ١٣٦ — ١٤٢ وقد ترجم معظم ذلك لين بول في كتابه The Story of Cairo, pp. 145, 146.

(٦) شرحه ص ١٥٥ — ١٥٦

(هـ) النفائس التي كان يحوزها الخلفاء الفاطميون في عهد المستنصر

وبعد زيارة ناصرى خسرو لمصر بقليل ، حلت بالقاهرة الأيام السيئة وعاودتها المصائب التي لم تشعر بها قبل قرن من تأسيسها . وقبض على نواصى العناصر المتألبة المعادية على اختلافها في هذه الأثناء الوزير اليازورى^(١) مدة تسع سنين ، وبذل قصارى جهده في معالجة خطر المجاعة التي كانت تهدد البلاد دائماً ، تلك المجاعة التي كان يصحبها غالباً الوباء والبؤس العام ، وما يتبع ذلك من الفوضى والجرائم . ووجد اليازورى في مخازن الغلال التي كان مستولياً عليها ما أبعد ذلك الخطر مدة حياته . غير أنه بعد قتله (صفر سنة ٤٥٠ هـ و ١٠٥٨ م) لم يكن هناك من يقف في وجه هذه العناصر المتطاحنة^(٢) .

وبين لنا ترعزع مركز الحكومة ما كان من تعاقب أربعين وزارة مختلفة في تسع سنوات . وقد كانت السلطة في هذه الآونة بيد الجنود التركية ، وقد طردوا الجنود السودانية التي كانوا يكرهونها ، والتي كانت تعتمد عليهم أم الخليفة ، وكان عددهم خمسين ألفاً ، فأبعدوا جهة الصعيد حيث استقر منهم خمسة عشر ألفاً . وكان من أمرهم أن أخافوا الأهليين وحالوا دون زراعة الأراضي (٤٥٩ هـ) ؛ وقد اكتسح الفالة منهم ، وعددهم خمسة عشر ألفاً ، الدلتا حتى وصلوا الإسكندرية فاستقروا بها .

(١) هو أبو محمد الحسن اليازورى بن علي بن عبد الرحمن ، من أهل يازود : وهي قرية من كورة الرملة . وقد عهد إليه بالوزارة في السابع من المحرم سنة ٤٤٢ (١٠٥٠ م) ، وسمح له بالبقاء في منصبه الأول ، وهو مدير خاصة أم الخليفة . وكان يلقب بهذا اللقب المركب : وهو الناصر للدين ، غياث المسلمين ، الوزير الأجل المكرم ، سيد الوزراء ، تاج الأصفياء ، قاضى القضاة ، داعى الدعاة . وبقى في منصبه حتى قبض عليه المستنصر في أول المحرم سنة ٤٥٠ (١٠٥٨ م) بتهمة مراسلته لطغرل بك السلجوقي ودعوته لغزو مصر . وأبعد اليازورى مع زوجاته وأولاده وخدمته إلى تنيس ، حيث ظل محبوساً بها ، حتى أنفذ إليه الخليفة سيافاً قطع رأسه (٢٢ صفر سنة ٤٥٠ هـ و ١٠٥٨ م) . ثم أرسلت جثته إلى القاهرة ، فألقيت في مزبلة ثلاثة أيام ، أخرج بعدها وغسل وحنط وكفن ودفن - ابن منجب ص ٤٠ - ٤٥ وابن ميسر ص ٨ - ٣٤ . وهذا الذى ذكره ابن منجب وابن ميسر يختلف عما ذكره لين بول في كتابه "The Story of Cairo, p. 147" من ناحيتين : (١) أن اليازورى مات مسموماً (ب) وأن موطنه الأصلي بلد من كورة يافا .

(٢) ابن ميسر ص ١٣ و ١٤ و ١٦ و ١٧ - ٢٢ و ٢٤

اما الأتراك فقد اتهموا تلك الفرصة واتهبوا المدينة ، وارتكبوا أعمال العنف والشدة لإيذاء الخليفة الذى لم يكن له ظهير ، والذى أصبح بيت ماله خلوا من المال المطلوب لإرضاء مطالبهم التى كانوا يركنون الى القوة فى سبيل الحصول عليها^(١) .

وأُتلف هؤلاء الأتراك فى ثورتهم قصور الخلفاء الجميلة ، وبددوا المجموعات الفنية التى لا تقوم ، والأحجار الكريمة والمجوهرات ، وأمر من هذا كله ، أنهم أغاروا على المكاتب المنقطعة النظير^(٢) . وقد شل حركة الفلاحين ذلك الرعب الذى ألقته الجنود السودانية المشتتة فى جميع أنحاء البلاد . ومع ذلك لم يكن هناك ما يخفف وطأة انخفاض النيل أو ما يساعد على زراعة الأراضى للفصل الجديد .

ولقد شعرت القاهرة ومصر اللتان حرمتا من الإمدادات التى كانت تأتىها عادة من الأقاليم بندرة الأقوات شعورا قاسيا . فقد بلغ ثمن الرغيف خمسة عشر دينارا ، كما كانت تباع بعض المنازل بربع من الدقيق . وكان بعض كريمات النساء يعرضن حلين النادر الثمين ، فلا يوجد من يشتريه فى مقابل شيء من الطعام ، وكانت الخيل والحمر والكلاب والقطط تباع بأثمان فادحة ، ويقبل الناس الجوع على التهام لحمها .

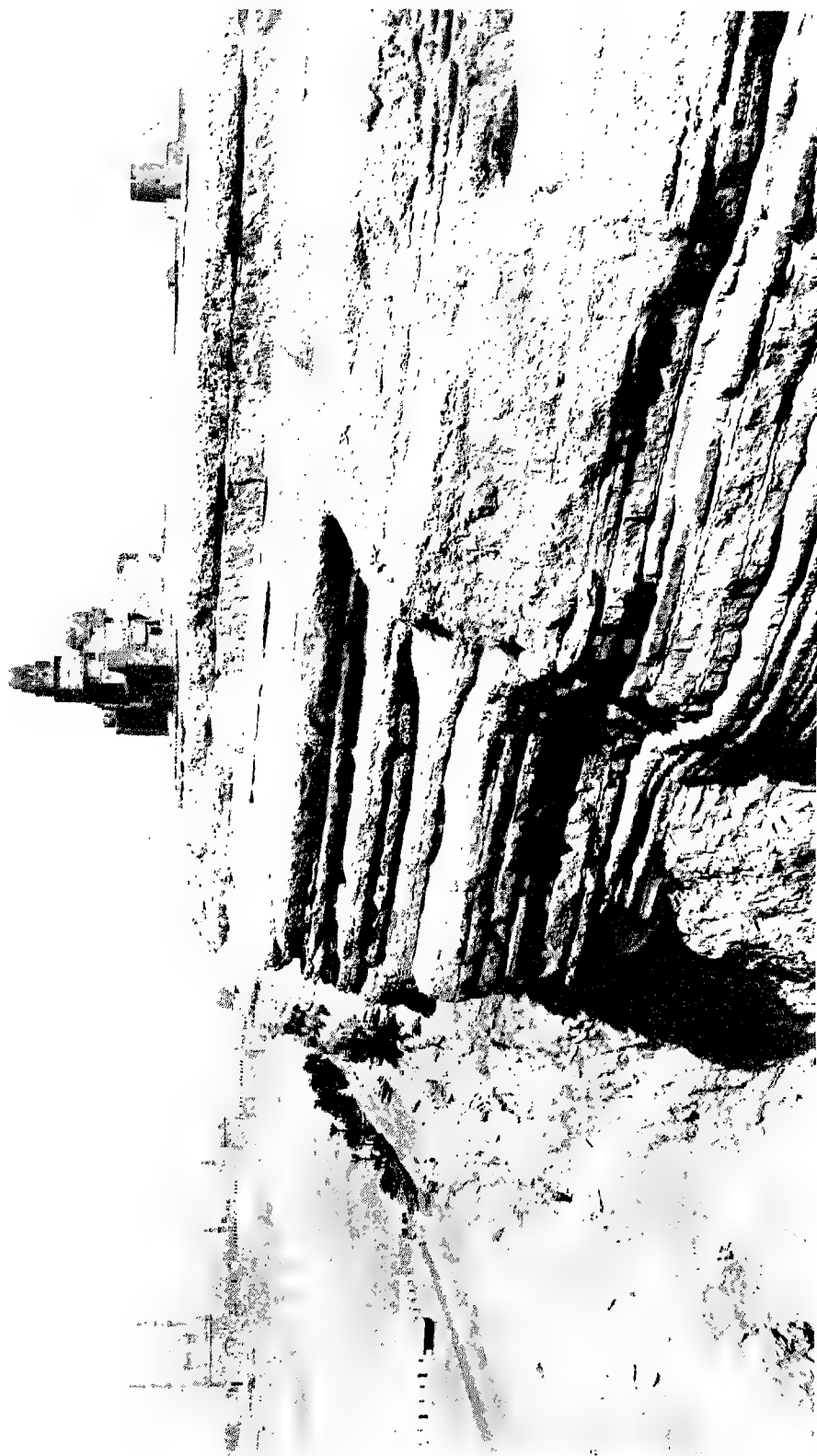
وسرعان ما عُدِمَت أمثال هذه الحيوانات فلم يوجد ما يذبح منها ، حتى إن اصطبيل الخليفة قُلت دوابه ، بحيث لم يستطع خدام الخيول الجوع جمع أكثر من ثلاثة أفراس صغيرة لمولاهم . وكانت نتيجة هذا كله أن أصبح الناس يخطف بعضهم بعضا من الطرقات ، وأصبح لحم الإنسان يباع عند الجزارين^(٣) .

وجاء بعد ذلك الوباء ، فحصد الأرواح بمنجمله حصدا ذريعا ، فكان يكتسح الديار دارا بعد دار . ولم يكن هناك فرق بين عظيم وحقيق ؛ بل نالت المصائب من الجميع على السواء ، حتى إن الخليفة نفسه ، الذى أُلِفَ الأتراك ماله ، والذى كان معتزلا فى داره ، كان مدينا بحفظ حياته الى بنت أحد الفقهاء ، إذ كانت تجرى عليه رغيفين كل يوم . أما زوجته وبناته فقد فررن الى بغداد هربا من الطاعون .

(١) يقول ابن ميسر (ص ١٧) عند كلامه على حوادث سنة ١٤٦٠ هـ ، ان مخصصات الأتراك التى كانت قبل ذلك عشرين ألف دينار فى الشهر (٢٤٠.٠٠٠ فى السنة) ، بلغت فى ذلك الوقت أربعة آلاف دينار فى الشهر (٨٠.٠٠٠ فى السنة) .

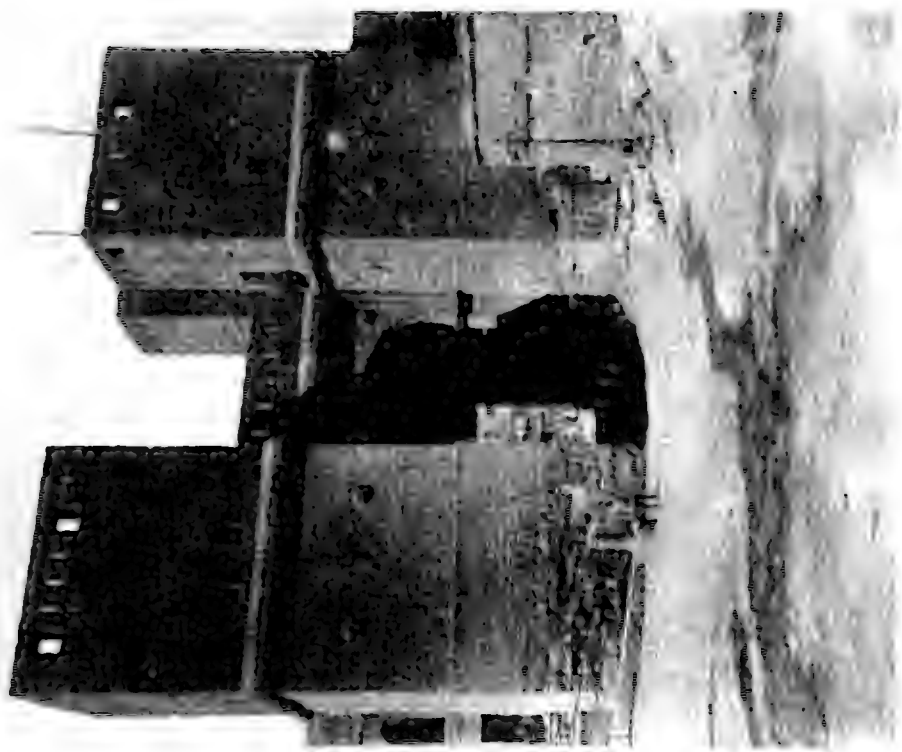
(٢) شرحه ص ١٧ و ١٨

(٣) شرحه ص ٢٠

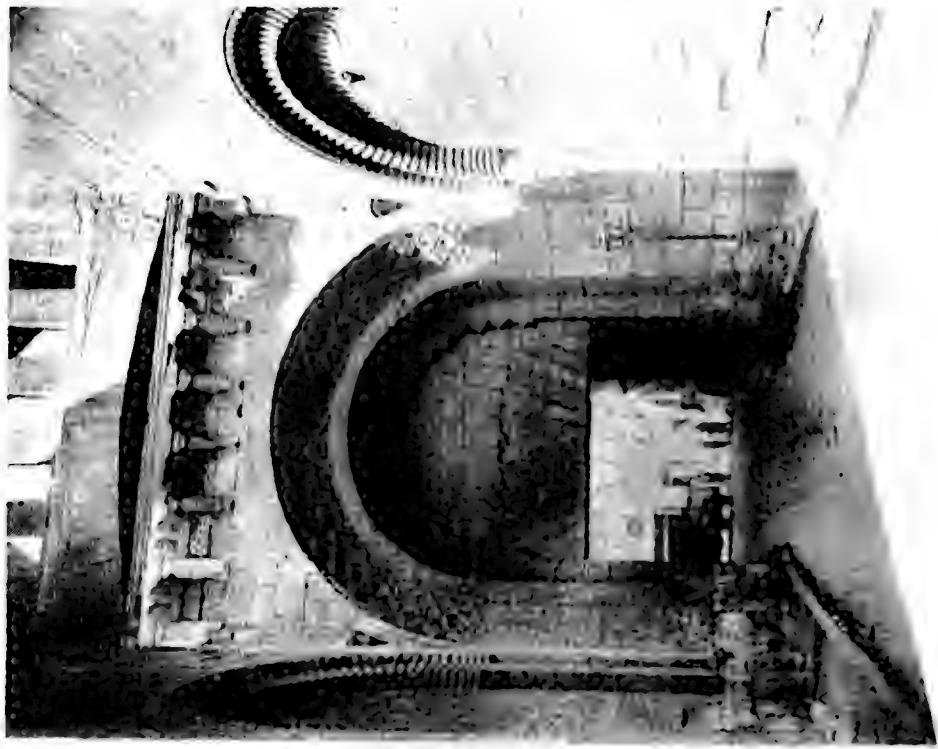


جامع الجبوشي - منظر ابرج الجامع على سفح جبل المقطم

القصير. بني سنان ١٨٠٤ هـ



القنوج. بني سنان ١٨٠٤ هـ



وقد ظلت مصر مدة سبع سنوات في حالة يرثى لها من البؤس الذى أعقبته المجاعة وما صحبها من الجرائم ، وبلغت الحالة درجة لم تعرفها البلاد من قبل . وأخيرا انتهت تلك الأيام وما فيها من البلاء ، وجاءت غلة عام ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م) وفيرة . وفي رجب من هذا العام قتل زعيم أشراف الأتراك ناصر الدولة بن حمدان الذى هدد مصر بوضعها تحت سيادة بغداد ؛ وجاء الوزير الخطير بدر الجمالى ، فأقنذ الدولة الفاطمية المزعزعة الأركان^(١) .

(و) النفائس التى كان يحوزها المستنصر

أمدنا ابن ميسر ببيان موجز عن كنوز المستنصر استمدته من مجلد ضخيم يقع في نحو العشرين كراسة ؛ وقد اطلع عليه بنفسه . وكان يشتمل على بيان بما في تلك الكنوز من طُرف وأثاث وملابس وذهب وغيره ، مما نقل من القصر في غضون ثورة الأتراك وبعدها . ويقول ابن ميسر أيضا ، إن من هذه النفائس ما أرسله البساسيرى الى مصر سنة ٤٥٠ هـ ،^(٢) حين أقام الخطبة باسم الخليفة الفاطمى المستنصر على منابر بغداد ؛ وقد استولى عليها الأتراك أيضا سنة ٤٦٠ هـ . وكان مما بعث به البساسيرى ثلاثون ألف قطعة كبيرة من البلور ، وخمسة وسبعون ألف ثوب من الحرير الخسروانى^(٣) ، وعشرون ألف سيف محلى بالذهب^(٤) .

وقد أمدنا المقرئى ببيان آخر يضيئ هذا المقام عن نقله . لكنا نذكر شيئا منه مثلا للثروة التى كان الخليفة المستنصر يملكها في مبدأ سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م) ، تلك الثروة التى تبين لنا مصادر ثروة مصر وما كانت عليه من يسر ؛ وذلك كله ما ساعد على تنفيذ سياسة

(١) وصف ابن منجب حالة مصر بإيجاز عند كلامه على وزارة بدر الجمالى (ص ٥٥ و ٥٦) .

راجع ما كتبه مسيو فييت (Wiet) عن بدر الجمالى في مذكرات المعهد الفرنسى للأثار الشرقية في القاهرة ، المجلد الثانى والحمدون (Mém. (Publiés par les membres) de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire (M.I.F.A.O.).

(٢) يقول المقرئى (خطوط ج ١ ص ٤٣٩) ان هذه الذخائر أرسلت الى القاهرة سنة ٤٤٧ هـ ، وفيها بدأت العلاقات العدائية بين البساسيرى والخليفة العباسى القائم ، وانتهت باستيلاء البساسيرى على بغداد سنة ٤٥٠ هـ ، فأصبح في مركز يسمح له أن يستولى على ما في قصر الخليفة من الذخائر . غير أن سلطة البساسيرى لم تستقر في بغداد قبل سنة ٤٥٠ هـ . وعليه فان عبارة ابن ميسر (ص ٢٠) أقرب الى التصديق .

(٣) الخسروانى أو الخسروانى نوع من القماش ينسب الى خسرو شاه أحد ملوك الفرس

(انظر Lane's Arabic-English Lexicon)

(٤) يقول المقرئى : وكان من بين ممتلكات قصر الخليفة القائم التى أرسلها البساسيرى الى مصر ، ثوبه الخاص وعمامته التى لفها بيده (وكانت محفوظة في صندوق من المرمر) ، وشباك نخم يصفه المقرئى بأنه كان كشرقة يجلس فيها الخليفة ويعتمد يديه على حافته ، وكان مصنوعا من الخشب المتقاطع (انظر Lane's Arabic-English Lexicon) . ويقول المقرئى أيضا ان هذا الشباك نقل الى دار الوزارة واستعمله الأفضل ، وبقى في الدار بعد وفاته الى أن نقل أخيرا الى دار الأمير بيبرس . أما عمامة الخليفة العباسى وثوبه الخاص ، فقد أعادها صلاح الدين الى بغداد سنة ٥٦٧ هـ

الفاطميين . وكان من ضمن ثروة المستنصر شيء كثير ورثه عن آباءه ، فاتهبه الأتراك سنة ٤٦٠ ، كما استولوا على بعض ممتلكات القصر ، وعرض البعض الآخر للبيع فبيع بأبخس الأثمان ، ووزع كل ذلك عليهم . وهذا بخلاف ثلاثين مليون دينار من الذهب تقاسمها الثوار الأتراك و " ليس لأحد منهم درهم واحد قبضه عن استحقاق " .

ويتبين لنا مما ذكره المقرئ أنه لم يتأخر شيء من عطاء الأتراك . ويمكن أن نضيف إلى هذا ، أن الأتراك إنما ثاروا على الخليفة الذي لا ناصر له ، رغبة منهم في الثأر من الجنود السودانيين المكروهين لهم والذين كانوا أنصار أم الخليفة ، وليحوزوا من الأسلاب ما تسمح لهم به الأحوال .

وقد كان من ممتلكات الخليفة الكثيرة التي لا تقوم بحال ، سيفه الخاص ، وسيف الخليفة المعز ، وسيف النبي صلى الله عليه وسلم ، وسيف الحسين بن علي رضي الله عنه ، وسيف جعفر الصادق ، وكميات من الرماح والقسي وغيرها من الأسلحة ، وعشرة آلاف سرج ، بعضها كان يساوي سبعة آلاف دينار^(١) . وكذلك أكواب من العنبر ، وسبعة من الأحجار الكريمة تُقَوِّم بثمانين ألف دينار على الأقل (وبيعت بالدين فقط !) ، وصندوق من الجواهر قوم بثمانمائة ألف دينار (بيع بخمسمائة !) ، وأربع عشرة كيلة من الجواهر أيضاً ، وألف ومائتان من الخواتم ما بين ذهب وفضة ، بيع ثلاثة منها مرصعة بالأحجار الكريمة باثني عشر ألف دينار^(٢) .

يضاف إلى هذا كله مقادير كبيرة من الصفاف وقطع البلور^(٣) ، وأواني الذهب والفضة والحلابة بالذهب ، وأصص الزهر المنقوش عليها اسم هرون الرشيد ، وثمان وعشرون صينية أخرى محلاة بالذهب أيضاً ، قوم كل منها بثلاثة آلاف دينار ، كانت مهداة من امبراطور الروم إلى الخليفة العزيز ، وأطباق أخرى مزينة بالذهب ، وكثير من الصناديق الملائم بالمحابر المختلفة الأنواع والأحجام ، المصنوعة من الذهب والفضة والعاج والأبنوس وغير ذلك ، مرصعة بالجواهر والأحجار الكريمة^(٤) ، وصناديق عدة من السكاكين مذهبة ومفضضة ، بمقابض مختلفة الأنواع ، كلها مرصعة بالأحجار الكريمة أيضاً^(٥) .

(١) الخطط (ج ١ ص ٤١٨) . (٢) شرحه (ج ١ ص ٤١٤) .

(٣) ذكر المقرئ (خطط ج ١ ص ٤١٤) أن أبا سعيد التهرتاني أحد أمناء البيع اشترى في أيام قليلة ثمانية عشر ألف قطعة من البلور ، قيمة بعضها ألف دينار .

(٤) ذكر المقرئ أيضاً (ج ١ ص ٤١٤) أن بعض هذه المحابر قومت الواحدة منها بألف دينار ، عدا الأحجار الكريمة التي كانت مرصعة بها .

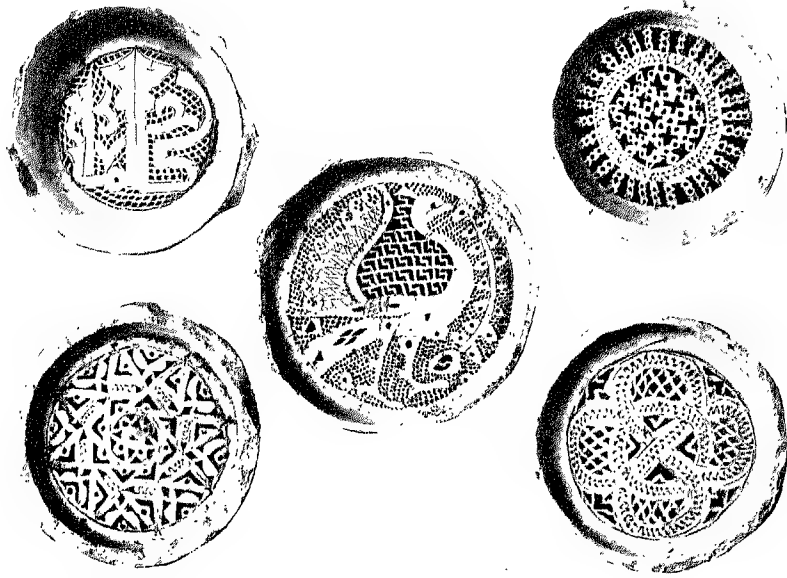
(٥) ذكر المقرئ (خطط ج ١ ص ٤١٤) أن هذه السكاكين بيعت بأبخس الأثمان ، وبلغ ثمنها كلها ستة وثلاثين ألف دينار .



طبق من خرف ذی بریق ذهبی



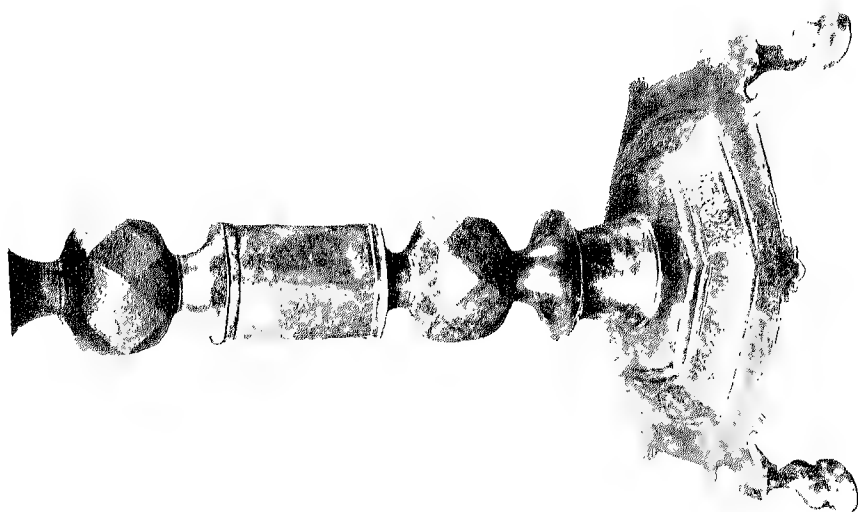
قدر من خرف ذی بریق ذهبی مزیّن من الخارج بثلاث دوائر بكل منها صورة طائر فی سفارة فرج نباتی



شبابيك قلل من فخار مزييه برضارف تشبه الدتلا



قطعتان من خرف ذي بريق ذهبي. على الأولى رسم المسيح عليه السلام
وعلى الثانية صور ثلاثة أشخاص مكتوب فوق أوسطهما "أبو طالب"



شمعدان من الشهبان



ظهر مرآة من الشهبان

يضاف إلى هذا أيضا نسيج بديع مطرز بالذهب ، وكافة أنواع الأواني الخزفية ، وعدد كبير من الشطرنج ورفقته من الحرير ، وقطعة من الذهب والفضة والعاج والأبنوس المحلى بالأحجار الكريمة ، وأربعائة صندوق ملاءى بالقطع الذهبية (حولت فيما بعد إلى تقود تقاسمها الثوار) ، وعمامة زنة ما فيها من الحلى سبعة عشر رطلا ، وثمان وثلاثون زورقا تابعة للدولة ، أحدها من الفضة^(١).

واشتملت الذخائر — زيادة على ما تقدم — على حصيرة منسوجة بالذهب زنتها ثمانية عشر رطلا ، ويقال إن بوران^(٢) بنت الوزير الحسن بن سهل جاست عليها يوم زفت إلى الخليفة العباسي المأمون ، وعدد كبير من المراتى المصنوعة من الصلب والمحلة بالذهب والفضة ، والحلى بعضها

(١) المقرئى (خط ص ٤١٤ و ٤١٥) .

(٢) وصف لنا الطبرى (٢ : ١٠٨٤) وابن خلكان (ج ١ ص ١١٦) والمقرئى (خط ص ١ ص ٤١٥) هذه القطعة الدقيقة من الفن .

وكان مهر بوران (التي كان اسمها أيضا خديجة) (كتاب الديارات ، برلين ، مخطوطات ويمار ، رقم ١١٠) ١٠٥٠٠٠٠ درهم . ويقول الطبرى (٢ : ١٠٨٣ و ١٠٨٤) إن المأمون مكث في طريقه إلى بوران تسعة عشر يوما مع الحسن بن سهل (أبو بوران وزير المأمون) الذى أمد المأمون بما كان يحتاج إليه هو وحاشيته . وبلغت النفقة في ذلك ٥٠٠٠٠٠ درهم . وعند رحيل المأمون ، أمر الحسن بن سهل بعشرة ملايين من الدراهم وأن يعطى خراج قم الصلح ، (وهو إقليم على قناة كبيرة تعرف بهذا الاسم ، تأخذ من دجلة فوق واسط وتقع بين هذه المدينة وتل تقع عليه مدة مدن صغيرة ، زوج في أحدها الوزير الحسن ابنته للمأمون — انظر معجم البلدان لياقوت) . وقد وزع الحسن ما أخذه من المأمون على قواد الخليفة وأتباعه وخدমে في اجتماع عام ، وأعطاه المأمون أيضا خراج إقليم فارس والأهواز عن ستة وأحدة (ابن خلكان ج ١ ص ١١٦) . وكلام الشافى قريب للتصديق ، متى علمنا أن الأخشيذ تالم حين أرسل إليه الخليفة الفاطمى القائم مائة ألف دينار فقط مهرًا لابنته لما اقترح عليه تزويجها لولده . وهذا المهر القليل كان — كما يقول ابن سعيد (المقرب ص ٢٨) — سببا في قطع العلاقات بين الأخشيذ والخليفة الفاطمى .

ويستطرد الشافى في الكلام عن زواج الرشيد (حين كان ولي عهد) في المحرم سنة ١٦٦ فيقول إن النفقات بلغت من مال الخليفة المهدي (أبو هرون) ١٣٨٨٠٠٠ دينار، وذلك عدا مبلغ كبير أنفق الرشيد نفسه . ثم يستطرد في الكلام فيذكر أن المأمون سأل زبيدة (زوجة الرشيد، ولم تكن أم المأمون ، لأن أمه كانت خراسانية) عن مبلغ نفقات هذا الزواج، فذكرت أنه يراوح بين ٣٥٠٠٠٠ و ٣٧٠٠٠٠ درهم (يحتمل أن يكون الشافى نقله عن الطبرى ٢ : ١٠٨٥) ؛ ويمكن أن يكون أقدم مصدر في هذا الموضوع هو "تاريخ بغداد" (طبعة ليزج ١٩٠٨) لتؤلفه أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور ، لأنه مات قبل وفاة الطبرى بنحو ثلاثين سنة ، أى سنة ٢٨٠ هـ . ولم يبين لنا الشافى إذا كان هذا المبلغ الذى ذكره أنفق على الاحتفال بالزفاف فقط ، أو أنه يشمل كافة ما أنفق في هذا الزواج . وعلى الاحتمال الثانى يشتمل هذا المبلغ على ما أنفق من المهر وعلى الجهاز من أثاث ومصوغ وما إلى ذلك ، وكذا في الاحتفال بالزواج . وهذا الاحتمال الثانى هو المقبول حتى ؛ لأن الحسن بن سهل ذكر أن ما أنفق في هذا الزواج ٣٥٠٠٠٠ درهم ، وذلك يشمل كل النفقات .

ومما هو جدير بالملاحظة أن المبلغ الذى ذكره الشافى وهو ١٠٥٠٠٠٠ درهم ، إنما أتى به الحسن بن سهل والد بوران ؛ وهذا المبلغ بلا شك ضخم جدا .

أما وفاة بوران فكانت سنة ٢٧١ في أيام المعتد ، وكان لها ممانون سنة .

بالأحجار الكريمة أيضا ، وستة آلاف آنية للرجس ؛ واثنين وعشرين ألف تمثال من العنبر ،
وثمانمائة تمثال من الكافور على هيئة البطيخة ؛ وكان أحدها محفوظا في شبكة من الذهب ،
وهو مرصع بالأحجار الكريمة ، وزنته ثلاثة آلاف مثقال ، وآخر كان وزن ستة عشر ألف مثقال ؛
ونخلة من مختلف الجواهر والأحجار الكريمة ، وكان ثمرها كذلك أيضا ، ومع هذا يحالها الناظر
طبيعية .

ومما بيع في هذه الأثناء طاووس من الذهب مرصع بالجواهر النفيسة والأحجار الكريمة ،
وعيناه ياقوتتان وريشه من الزجاج المموه بالذهب ، وديك من الذهب مرصع باللؤلؤ ، ومنضدة
قوائمها من العقيق^(١) .

وليس هذا كل ما تركه المستنصر من الكنوز . فإذا ما استثنينا الأحجار الكريمة والطُرف والعطور
والأسلحة ، وجدنا أيضا عددا عظيما من الكنوز التي لا تُقوَّم بمال في خزائن أخرى مثل خزائن
الأثاث والفرش .

وقد نقل المقرئ عن ابن عبد العزيز الأنماطى أحد أمناء البيع أن عدد مقاطع النسيج
الخسروانى بلغ خمسين ألفا ، وكان أكثره مذهبا . ويقول المقرئ في عبارة أخرى عن ابن عبد العزيز
هذا إن عدد هذه المقاطع بلغ مائة ألف ؛ وكان منها حشية خسروانية بيعت بثلاثة آلاف
وخمسمائة دينار ، كما بيعت حشية أخرى قلمونية^(٢) بألفين وأربعمائة دينار . وذلك كله عددا عشرين
ألف قطعة جديدة من النسيج الخسروانى . وقد بيع هذا كله في شهر صفر من سنة ٤٦٠ في نحو
خمسة عشر يوما^(٣) .

وأخذ بعد هذا بقليل من خزانة الرفوف^(٤) ألفا عدل من القماش الجديد المحلى بالذهب ،
كما بيع من خزانة أخرى من خزائن الفرش ثلاثة آلاف قطعة من القماش الخسروانى المطرز لم يستعمل
بعد ؛ وكان ذلك معدا لتأثيث بيوت كاملة بما تحتاج إليه من مساند ووسائد وحشيات وبسط وستور

(١) خطط (ج ١ ص ٤١٦)

(٢) نسبة إلى قلمون ، وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلاشى إذا انكسرت عليها أشعة الشمس . وكان أول ما ظهر
في بلاد اليونان ، ثم أصبح يصنع في مصر وخاصة في دمنياط وتنبس (انظر معجم البلدان لياقوت و Dozy, Supplément)

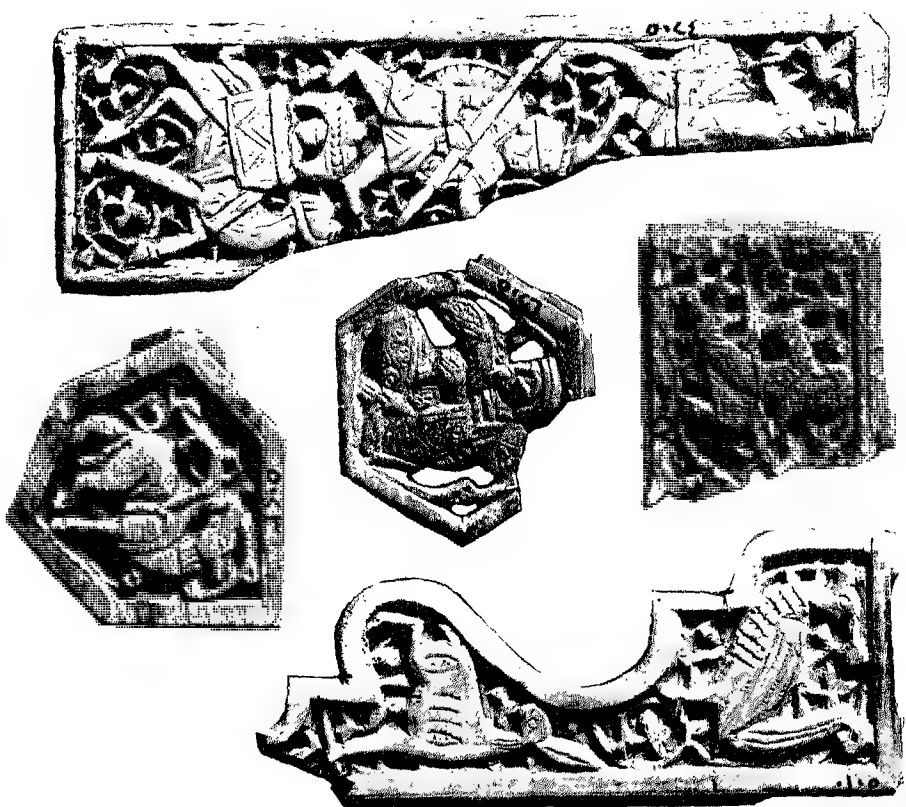
(٣) المقرئ خطط (ج ١ ص ٤١٦)

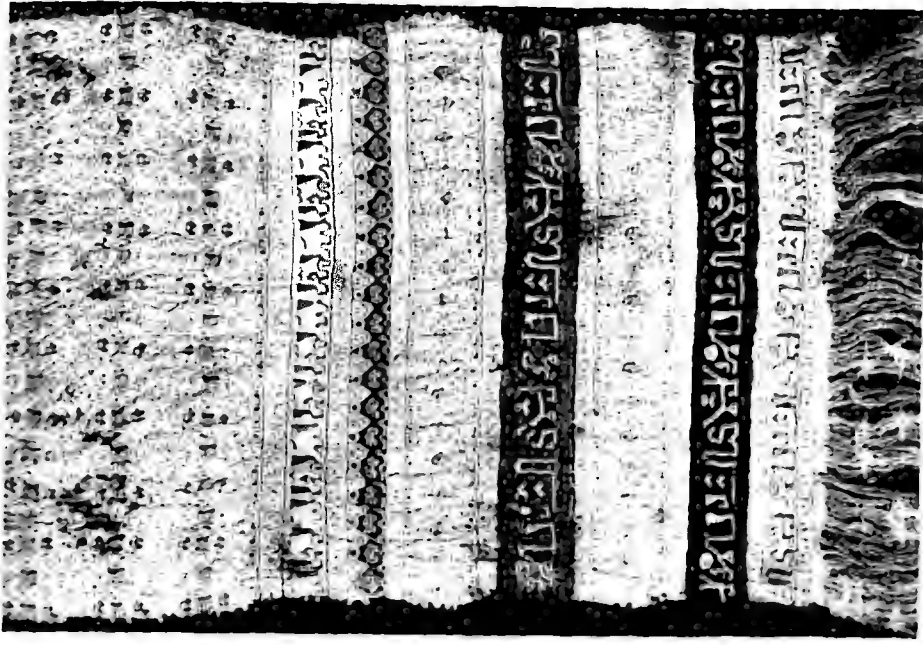
(٤) يقول المقرئ (خطط ج ١ ص ٤١٦) إنها سميت بذلك لكثرة ما بها من الرفوف

شوشن شیب تشبه مجرای صغیر ایک نغمہ ای نمودن عاز و تین



قطعه من المعاج مقوش علیها بین الرطاف الدنیا تیر صور اشخاص و حیوانات





قطعه نسج من کتان و حریر مستقیمه من اسفل پسر ارب



قطعه نسج من حریر و صنیمه صغیرا و بهما صور ظهور

وأحبّاس^(١) وغير ذلك ؛ وعدد عظيم من الحصير الساماني المشغول بالذهب والفضة ، وأربعة آلاف عدل من الخسرواني الحديد المطرز بالذهب ، وكان كل عدل منها كافيا لتأثيث غرفة بالبسط والستور وما إلى ذلك^(٢) .

وكان من بين أمتعة القصر مضرب الخليفة الظاهر ، وكان منسوجا من خيوط الذهب ومقاما على أعمدة من الفضة ؛ وكانت قيمته أربعة عشر ألف دينار . وكذلك مضرب الوزير اليازوري ، وكان مجموعة رسوم فنية ، كلفه ثلاثين ألف دينار ، واشتغل في صنعه مائة وخمسون فنانا مدة تسع سنوات حتى أتموه . وكان ارتفاع أعمدته مائة وعشرين قدما ، واتساع محيطه ألف قدم تقريبا ؛ وقد نقش على أحد جوانبه صور جميع حيوانات العالم^(٣) .

وليس هذا كل ما يمكن أن يذكر من ثروة المستنصر . فقد كان في القصر كثير من التحف الفنية ، تركها الخلفاء الفاطميون الذين كانوا يشجعون العلوم والفنون . وإن في وصف المقرئ الآتي لبعض مصوراتهم الثمينة المتقنة الرسم ، لدليلا على ما كانوا يحدونه من لذة خاصة في الجغرافية والتاريخ . وتبين لنا طرافتها وما كانت عليه من إبداع واتقان إذا ما نظرنا إلى مقدار ما أنفق على صنعها من الدنانير . ويقول المقرئ في ذلك أن المعز خلف لنا خريطة كان قد أمر بعملها سنة ٣٥٣ (٩٧٣—٩٧٤م) من الحرير الأزرق التستري^(٤) والقرقوبي^(٥) المنسوج بالذهب ، وكان مينا عليها بالذهب كافة أقطار العالم ، بما فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن . ومن ذلك المدينتان المقدستان مكة والمدينة بشكل يتبينه الناظر لأول وهلة . وكان مكتوبا في أسفل هذا المصور : ”عما أمر بعمله المعز لدين الله ، شوقا إلى حرم الله واشهارا لمعالم رسول الله ، في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة“ . وهذا المصور الذي كلف المعز اثنين وعشرين ألف دينار قد استولى عليه ابن حمدان زعيم الأتراك سنة ٤٦٠هـ .

(١) جمع حبس وهو الملاة

(٢) المقرئ (خط ج ١ ص ٤١٦ و ٤١٧) .

(٣) شرحه (ص ٤١٩) .

(٤) التستري نسبة إلى تستر ، وهي معربة عن شستر ، أشهر مدن خوزستان (انظر Dozy, Supplément)

(٥) القرقوب طائر يري في الغدير والمستنقعات (انظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت) . ومن هذا اللفظ قيل قماش قرقبي ، وهو نوع من القماش كان يصنع أولا في بلاد اليونان ، ثم أدخلت صناعته إلى مصر ، يصار يصنع غالبا في دمياط وتيس . وهذا القماش مشهور بألوانه اللامعة التي تتغير دائما ، لاسيما إذا انعكست عليها أشعة الشمس .

وقد وصف لنا المقرئى^(١) مصورا آخر تركه الحاكم ، فقال ان ذلك العمل الفنى الدقيق كان محلى بكتنين من الجواهر والأحجار الكريمة ، وقد كلف الحاكم سبعمائة ألف دينار ، غير أنه بيع سنة ٤٦٠ هـ بعشرين ألفا فقط .

وكان هناك بالقصر مصورات أخرى كثيرة كان حفظها كخط المصورات التى تكلمنا عنها . فان المقرئى يستطرد فى الكلام فيذكر أنه قد وجد بالقصر نحو ألف ستر مزركشة بالذهب ، تمثل الممالك المختلفة بملوكها وأسمائهم ، وموجز لحياة كل منهم^(٢) . وهذه الآثار الفنية تشهد بما كان يناله الصناعات الحاذقون من الفاطميين ؛ وهى تبين لنا أيضا كيف كان الماس الفاطميين بممالك العالم المعروفة لهم فى القرن الثانى عشر الميلادى .

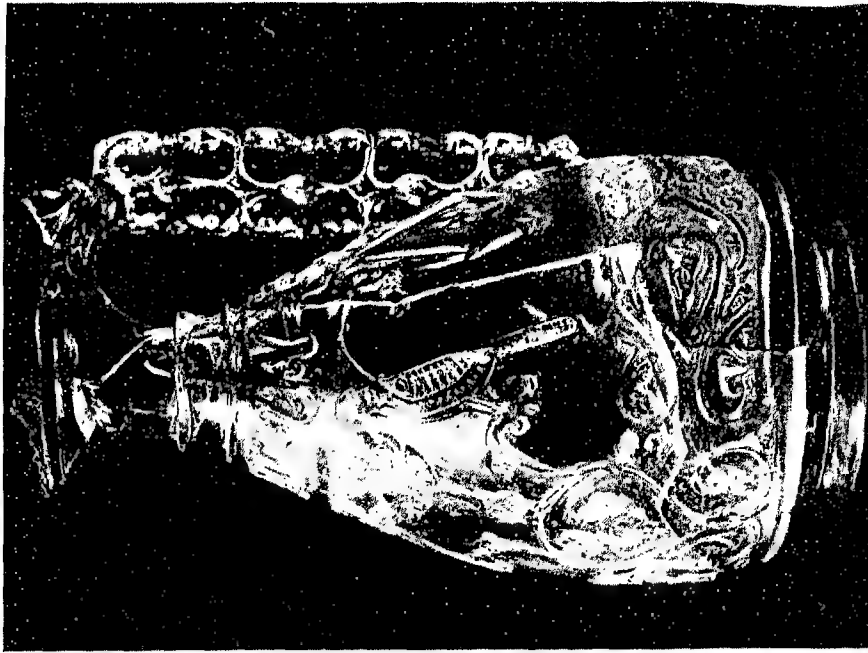
ويظهر أن القصر قد احتوت خزائنه مرة أخرى على ثروة ضخمة من الكنوز ، وذلك بعد سنى المجاعة والوباء التى انتهت بالقصر فى غضونها ، حتى رأى الخليفة المستنصر نفسه فى إحدى حجراته جالسا على حصير بالية لابسا قبقابا . وربما لم تكن تلك الثروة أقل مما كانت عليه سنة ٤٦٠ هـ كنية وقيمة . ويظهر أنه قد رد الى القصر بعض ما كان قد انتهت منه ، وذلك بعد أن أسندت الوزارة الى أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٣ م) الذى صارت له السلطة المطلقة ، فشتت جميع العناصر المناوئة للثائرة وصادر ممتلكاتهم .

ومع أن المؤرخين لم يملونا بيان عن الثروة التى خلفها العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مثل ما أمدنا به ابن ميسر والمقرئى ، فانه من الممكن أن نقين مقدار ضخامة ثروة القصر فى عهد آخر الخلفاء الفاطميين ، وقبل سقوط دولتهم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) من الوصف الذى أورده لنا الذهبى —
تقلا عن ابن أبى طى — للهدية التى قدمها صلاح الدين لنور الدين سنة ٥٦٩ هـ :

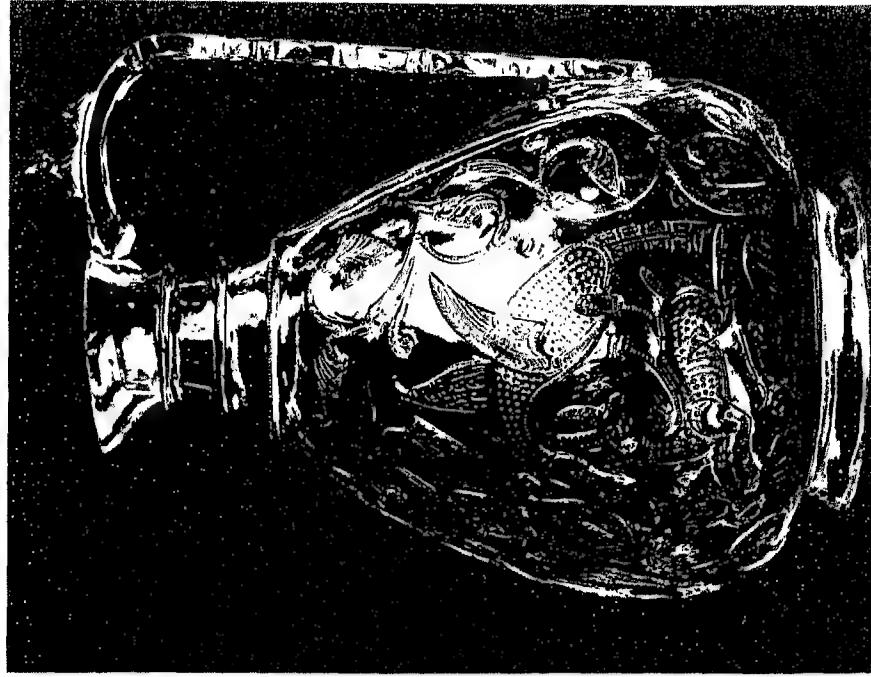
(١) خطط (ج ١ ص ٤١٦) .

(٢) شرحه (ج ١ ص ٤١٥) .

انظر كتاب "صفة جزيرة العرب" للهمدانى (طبعة Heinrich Müller, Leyden, 1884) (ج ١ ص ٦ — ١٠) ،
وخريطة العالم للأدريسي "Charta Rogeriana Weltkarte und Kleine Idrisikarte, Geschrieben im Jahre 1192 n. Chr.—A.H. 588, des Idrisi vom Jahr 1154 n. Chr.—A.H. 549) . وهو عمل مفيد جدا طبعه مسيو كزاد ملر Konrad Miller (Stuttgart, 1926-1927) . ومع مجموعة من خرائط أخرى رسمها الادريسي (٦٤٩ هـ و ١٢٥١ م) الذى عاش فى القرن السادس الهجرى ، وهو العصر الذى نشير اليه فى كلامنا الآن . وهذا العمل الدقيق الذى قام به الادريسي يرينا مدى معرفة العرب بممالك العالم المختلفة ؛ ومنه يلد لنا أن نعلم أن العرب كانوا لا يجهلون ألمانيا والسويد والنرويج ، ونحوها من الأصقاع المختلفة . ومن المحتمل أن تكون معلومات الادريسي هذه نتيجة اتصال المسلمين بأوروبا فى الحروب الصليبية . انظر أيضا Mappae Arabicae, Arabische Welt und Länderkarten (Stuttgart, 1926) والمجلد الثانى (Stuttgart, 1927) . ولا شك فى أن جميع الممالك التى ذكرها الادريسي كانت ممثلة على تلك الستور الحريرية التى كانت بقصر الفاطميين .



إبريق من البلور الصخري مزين سطحه بصور طيور وفروع نباتية وكتابات كوفية



إبريق من البلور الصخري مزين سطحه بصور طيور وحوانات تحملها فروع نباتية

”وذكر ابن أبي طي قال : وفي هذه السنة (٥٦٩ هـ) وصل الموفق بن القيسراني الى مصر رسولا من نور الدين ؛ فاجتمع بصلاح الدين وأنهى اليه رسالة ، وطالبه بحساب جميع ما حصله من ارتفاع البلاد ثم أرسل (صلاح الدين) معه هدية على يد الفقيه عيسى (بن القيسراني) : وهي ختمة بخط ابن البواب ، وختمة بخط مهليل ، وختمة بخط الحاكم البغدادي ، وربعة مكتوبة بالذهب بخط يانس ، وربعة بخط راشد^(١) ، وثلاثة أحجار بلخشي ، وست قصبات زمرد ، وقطعة ياقوت وزن سبعة مثاقيل ، وحجر أزرق ستة مثاقيل ، ومائة عقد جوهر وزنها ثمانية وسبعة وخمسون مثقالا ، وخمسون قارورة دهن بلسان ، وعشرون قطعة بلور ، وأربع عشرة قطعة حُرْج ، [و] صحون صيني وزبادي ، وأربعون وكرتان (هكذا وردت في الأصل) عود قماري وزن أحدها ثلاثون رطلا والأخرى إحدى وعشرون ، ومائة ثوب أطلس ، وخمسون ثوب حرير ، وحلة فلّفلّ مذهبة ، وغير ذلك من القماش ، وقيمتها ٢٢٥,٠٠٠ دينار ، وعدة من الخيل والغلمان والجواري والسلاح ، وخمسة أحمال^(٢) من المال^(٣).

كما تبين لنا ضخامة ممتلكات القصر عند سقوط الفاطميين مما جاءنا به المقرئ نقيلا عن القاضي الفاضل حيث يقول : ”وفي ثالث عشرية — يعني ربعا الآخر سنة سبع وستين [وخمسائة] — كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر ومقدار ما يحدد أنه خرج من القصر ، ما بين دينار ودرهم ومضاع وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ، ما لا يقى به ملك الأكاسرة ، ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ، ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ، ولا يقدر على حسابه الا من يقدر على حساب الخلق في الآخرة“^(٤).

(١) هذه الأسماء هي طبعا أسماء خطاطين مشهورين .

(٢) هو مقدار الجزية التي أرسل نور الدين رسولا يطلبها .

(٣) الذهبي ، مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات Land ، القسم الشرق ، رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٤١ ب .

(٤) خطط (ج ١ ص ٤٩٦) .

٨ - هبات المساجد والمكاتب

(١) هبات المساجد

كان الفاطميون يعتبرون المساجد والمكاتب منبعا لنشر دعوتهم ، فقد كانوا يعلمون فيها العقائد الفاطمية ؛ لذلك بذل الخلفاء جهودا خاصة لبناء مساجد جديدة وتأسيس مكاتب كثيرة . ولم يقصروا عن وقف الأوقاف وبذل العطايا والهبات للمساجد والأنفاق في زيتها وزخرفتها بالمصاييح والتنانير التي كان بعضها من الفضة ، كما نُقلت الى المساجد من مكتبة القصر نسخ من القرآن الكريم مختلفة الأشكال والأحجام ، بعضها مكتوب بالذهب . وقد كانت هذه المساجد تزين بأجمل زينة وتضاء بالأنوار الساطعة في المواسم العامة ؛ وكان الخلفاء يشاهدون ذلك من المناظر .

كما كانت هذه المساجد مئابة للعلماء ، وخاصة فقهاء المذهب الشيعي الذين كان عليهم أن يحاضروا الناس في عقائد المذهب الاسماعيلي ؛ وكان بعض الوزراء والقضاة يشتركون في تأليف كتب في هذا المذهب يدرسها الأساتذة في تعليم الناس . ومن أعظم تلك الكتب الكتاب الذي ألفه يعقوب بن كلث في الفقه الشيعي ؛ وكان على القضاة أن يصدرُوا عنه في أحكام محاكمهم التي كانت تعقد في المساجد عادة ، كما كان على الطلبة والأساتذة أن يتدارسوه فيما بينهم . ولا ننسى أن نذكر في هذا المقام ما كان من تحويل الأزهر الى جامعة في عهد العزيز .

ويقول القلقشندي عند كلامه على ركوب الخلفاء الفاطميين لصلاة الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان ، إنه كان من عادتهم أن يمنحوا دينارا لموظفي كل مسجد يمرُّون عليه في طريقهم الى القصر في هذه الجمع . وكانت هذه المساجد كثيرة ؛ ولهذا يلاحظ القلقشندي أن عدد الدنانير التي كانت تنفق في هذا السبيل كان عظيما . أما معرفة مقدار تلك الدنانير بالتحقيق ، فهذا ما لم يذكره القلقشندي ولا غيره من المؤرخين .

(ب) هبات المكاتب

ولم تكن المكاتب أقل أهمية من المساجد في بث عقائد المذهب الاسماعيلي بين الناس ؛ لهذا بذل الخلفاء ووزراؤهم مجهودات عظيمة في زيادة عدد الكتب التي تتناول شتى فروع العلم ، حتى فاقت مكتبة القصر كل المكاتب الاسلامية في العالم في ذلك الحين .

وقد كان الخلفاء الفاطميون ذوى شغف بتشجيع من يميل الى عقائد المذهب الشيعي . ففي سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥م) أسس الحاكم دار الحكمة ، وألحق بها عددا من أساتذة العلوم الثقيلة كالتفسير والفقه ، وكالعلوم الطبيعية أو العقلية . وكانت مكتبة دارالعلم متصلة بمكتبة دار الحكمة التي أمدت بكثير من المؤلفات للاطلاع والنسخ والبحث والدراسة . وكان يباح للناس الانتفاع بها ، فيأخذون ما يحتاجون اليه من المداد والأقلام والأوراق والمساند . وكان مشهورو الأساتذة المتصلين بدار الحكمة يقيمون مناظرات يحضرها الحاكم ، فيصلهم لأجلها بالهبات ويخلع عليهم الخلع^(١) .

وكانت تُعطى لموظفي المساجد أعطيات معتادة في مناسبات مختلفة ؛ فمن أمثلة ذلك ركوب الخليفة لصلاة الجمعة ، أو للاحتفال ببعض الأعياد الدينية ، أو لزيارة أحد القصور ، كدار الملك وقصر القرافة والهودج^(٢) ومنازل العز^(٣) التي كان من عادتهم الانتقال اليها تبديلا للهواء .

(١) أنظر العبارة التي أوردناها عن انتشار الرسوم الفاطمية في المساجد والمكاتب .

(٢) المراد به القصر الفخم الذي بناه الخليفة الأمر في جزيرة الروضة (أنظر ابن دقاق ج ٤ ص ١٠٩ و ١١٤ و ١١٦) لزوجته البدوية الطائية التي كان مشغوقا بها لجمالها ومواهبها الشعرية . وقد بنى هذا القصر على هيئة تجعلها لا تشعر بوطأة الانتقال من المعيشة البدوية التي كانت تعيشها بين أسرته ؛ فقد كانت له حديقة وحديقة على شاطئ النيل . ويحدثنا المقرئى أنها كانت تحب ابن عمها المسى ابن مياح ، وقد أياها الزواج من الاتصال به . وقد كتبت الى ابن عمها الذي كان مراقبا بأمر الخليفة الآيات الآتية :

يا ابن مياح إليك المشتكى مالك من بعدكم قد ملكا
كنت في حبي مطاها أمرا ناعلا ما شئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر مرمم لا أرى إلا خيضا ممسكا
كم شئت كأغصان اللوى حيث لا نخشى طينا دركا

فأجابها ابن مياح بقصيدة من نفس الزوى والفاية يقول فيها :

بنت عمى والتي قد غديتها بالهوى حتى علا واحتكا
يحب بالشكوى وعدى ضعفها لو غدا ينفع منا المشتكى
مالك الأمر إليه أشتكى مالك ، وهو الذى قد ملكا

ويقول المقرئى ان ما كان بين هذه البدوية وابن عمها من الحب ، وما كان من زواجها بالخليفة الذى لم تكن تشعر بحوه بأية عاطفة قد صار مشهورا ، حتى إن كثيرا من الكتاب ألفوا في ذلك قصصا تحاكي قصص "ألف ليلة وليلة" (خطوط ج ١ ص ٤٨٥) .

(٣) هو قصر فخم ابنته الملكة "تفريد" زوجة المعز على شاطئ النيل ، وقد اتخذها ابنها العزيز والخلفاء الفاطميون من بعده مكانا للنزه .

ويقول المقرئى انه كان من عادة الخلفاء الفاطميين أن يقيموا مواكب يركبون فيها في أيام السبت والثلاثاء سائر الشهر ، كما كانوا يركبون في الاحتفال بأول المحرم . وفي هذه الأيام كان يصحب الخليفة وزيره ، وحوله حرمه الخاص ، وكانوا يسمون صبيان الركاب ؛ فيمر الموكب كذلك بالطرق الرئيسية حتى الجامع العتيق . فاذا وصل اليه ، وجد الخطيب في انتظاره على مصطبة في المسجد ، ويده مصحف ينسب خطه الى على بن أبى طالب . فاذا قرب الخليفة من الخطيب ، تناول المصحف منه قبله مرات عديدة ، وأمر صاحب الكيس (المشتمل على المال المعتاد توزيعه في هذه المناسبة) أن يعطيه ثلاثين ديناراً ؛ فيأخذ الخطيب والمشرف على الجامع نصفها ، والباقي يقتسمه المؤذنون . فاذا ما انتهت الصلاة ، استأنف الخليفة السير الى دار الملك ؛ وفي اياه يعطى رئيس كل مسجد يمر به ديناراً^(١) .

٩ - هبات الخلفاء

سبق أن بينا ما كان يتناوله الموظفون من المرتبات الكبيرة في الدولة الفاطمية ، فضلاً عما كان يصل اليهم بطريق الهدايا من الفضة والذهب والملابس والأطعمة وما الى ذلك بمقادير وفيرة ، تلك الهدايا التي كان أزواجهم وأولادهم وخدمهم يتقاسمونها معهم .

وقد أمدنا القلقشندى بكلام مفصل بين فيه المرتبات التي كانت تعطى لرجال موظفى الدولة ؛ ومنه نعلم أن مرتب الوزير كان خمسة آلاف دينار في الشهر ، وأن ابنه أو أخاه كان يأخذ في الشهر راتباً يتراوح بين ما عشرين وثلاثمائة دينار ، زيادة على رواتب أتباعه وحشمه التي كان متوسط مجموعها أربعائة وخمسين ديناراً في كل شهر .

(١) المقرئى خطط (ج ١ ص ٤٨٤) .

وكان من كبار الموظفين تسعة يعرفون بالأستاذين المحكّين^(١) : منهم صاحب بيت المال ، وصاحب الرسالة ، وزمام القصر ؛ وكان راتب كل من هؤلاء مائة دينار في الشهر . وكان راتب كل من قاضي القضاة وداعى الدعاة مائة دينار ، وراتب كل من طبّبي الخليفة الخاضعين خمسين ديناراً^(٢) .

ولدينا فيما صلناه من ثروة الخلفاء الفاطميين وأبتهم وميلهم للظاهر ميلاً شديداً ما يدلنا على ثروة كبار رجال دولتهم وسائر الشعب عامة ؛ فقد كان كل هؤلاء يمنحون كثيراً من الهدايا والأطعمة في الأعياد الدينية وغيرها من سائر الأعياد العامة ، كما كانوا يكتسبون من بيت المال هم وأزواجهم وأولادهم وأتباعهم مرتين كل عام صيفاً وشتاءً .

ويعجبنا أن تقرأ عن مخصصات تبلغ ٦٠٠,٠٠٠ دينار ، أخذت من بيت المال عام ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) لعمل الملابس المطلوبة لدار الكسوة التي أنشأها المعز سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) ، وبقيت حتى سنة ٥٦٧ هـ ، وهي السنة التي سقطت فيها الدولة الفاطمية . وكان عدد الكسوى التي منحت لموظفي الدولة على اختلاف مراتبهم سنة ٥١٦ هـ ١٤٣٠٥^(٣) .

وقد أمدنا المقرئى بعبارة يبين فيها الكسوى الكاملة ، ومقدار قيمة كل كسوة ؛ منها التي كانت تمنح للأمرء على اختلافهم ، وللموظفين والكتاب ؛ ودون أسماءهم جميعاً . وقد كانت كسوة الأمر من الحرير الدقيق المزركش بالذهب ، وقيمتها خمسمائة دينار . وكان كبار الأمرء يمتازون بلبس الأطواق والأساور وحمل السيوف المحلاة^(٤) .

وكانت هناك كسوى تُصنع خاصة للخليفة في الاحتفالات أو الأعياد ، فيلبسها بمساعدة سيدة يعاونها ثلاثون خادمة^(٥) ؛ كما كانت تقدّم الحلل إلى الوزراء وبعض الأمرء ، وكما كانت توزع الملابس على الأشراف وغيرهم في عيد الفطر بسعة . ومن هنا سُمّي هذا العيد بعيد الحلل ، حتى قيل إنه صنع إحدى عشرة كسوة للخليفة الأمر فُدمت إليه في عيد الفطر سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) ، يضيق المقام هنا عن وصفها .

(١) جمع أستاذ محكّ ، رجل مدرب ؛ وكان يتلمّ بطرف من عمامته (معناه يجعل بعض عمامته تحت ذقنه وفكيه انظر Lane's Arabio-English Lexicon) . ومن الأساتذة المحكّين من يتولى شدّ التاج ؛ وصاحب المجلس ، ويشبه الآن كبير الأمراء ، وصاحب الرسالة ، وصاحب بيت المال ، وحامل الدواة ، وزمام الأقارب ، وزمام القصور ؛ ويعهد إليه بإدارة شئون القصر (القلقشندي ج ٣ ص ٤٨٤ و ٤٨٥) .

(٢) شرحه (ج ٣ ص ٥٢٥ و ٥٢٦) .

(٣) المقرئى خطط (ج ١ ص ٤٠٩ و ٤١٠) .

(٤) شرحه (ج ١ ص ٤٠٩) . أما الوزير فكان يلبس عقداً من الأجار الكريمة ، ومندبلاً يلقه من تحت حلقة ، وجلباباً قصيراً ، ودرعاً مفتوحاً من النحر إلى أسفل ، وأزراره من ذهب مشبك أو لؤلؤ ؛ وبذلك يمتاز عن سائر موظفي الدولة . وقد مُنح بدر الجبالى هذا لأول مرة (القلقشندي ج ٣ ص ٤٩٠) .

(٥) المقرئى خطط (ج ١ ص ٤١١) .

وكان صنع كل كسوة يختلف عن صنع غيره من سائر الكسوى ، وذلك لكي تصلح كل منها لاحتفال خاص ، كالاحتفال بآخر رمضان ، وإقامة صلاة العيد ، والجلوس على السباط في أول يوم من أيام عيد الفطر . ويذكر المقرئ أن إحدى هذه الكسوى اشتملت على ٧٠٣ من المتاعيل من خيوط الذهب والفضة ، وقد أنفق في زركشة كل مثقال منها دينار^(١) . أما المناديل فقد أنفق على الواحد منها خمسة دنانير^(٢) .

وكانت هناك مناسبات أخرى تقدم فيها الحلل المزركشة بالذهب للوزير وأئمة الخليفة ، كعيد أول رمضان ، والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه ، وجبر الخليج . وزيادة على ذلك كان الشعراء والكتاب وأعيان الرجال الذين يتفق وجودهم في القاهرة يمنحون حللا كان بعضها مزركشا بالذهب وكلها مصنوعة من الحرير الخالص^(٣) .

وقد أمدا ابن منجب بوثيقة^(٤) يرجع تاريخها الى سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) ، هي نص لكتاب أرفق بحلل بعث بها الخليفة لأحد الأمراء في عيد فطر هذا العام ، وهاك نصها : ” ولم يزل أمير المؤمنين متعيا بالرهائب ، موليا احسانه كل حاضر من أوليائه وغائب ... مجزلا حظه من منائحه ومواهبه وانك أيها الأمير لأولاهم من ذلك يجسيمه وأخلقهم بالجزء الأوفى منه عند فضه وتقسيمه ؛ اذ كنت في سماء المسابقة بدرا ، وفي جرائد المناجحة صدرا ، ومن أخلص في الطاعة سرا وجهرا ، وحظي في خدمة أمير المؤمنين بما عطرله وصفا وسيرله ذكرا . ولما أقبل هذا الغيد السعيد ، والعادة فيه أن يحسن الناس هيأتهم ويأخذوا عند كل مسجد زيتهم ؛ ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمه فيه ، وفي المواسم التي تجاريه ، بكسوات على حسب منازلهم ، تجمع بين الشرف والجمال ، ولا يبقى بعدها مطمع للأمال ”^(٥) .

هذا ، وقد جاءنا القلقشندي بعبارة شائقة عن الشكل الذي كانت تقدم به رواتب الموظفين للخليفة المستنصر كي يعتمدها ، اذ يقول ان الخليفة لم يغير شيئا في القائمة التي اشتملت على الرواتب ، وانه كتب فوق امضائه هذه الكلمات بخط يده : ” الفقير مر المذاق ، والحاجة تذلل الأعناق ، وحراسة النعم بادرار الأرزاق ؛ فليجروا على رسومهم في الأطلاق ؛ (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) ”^(٦) .

(١) انلخط (ج ١ ص ٤١٠) ، تبعاً للمقرئ كان كل تسع قصبات من الخيوط الذهبية والفضية ترن مثقالا ، فكان عدد القصبات ٦٣٢٧

(٢) شرحه .

(٣) شرحه .

(٤) هذه الوثيقة من انشاء ابن منجب نفسه . اذ كان يشغل في ذلك الوقت منصب كاتب الانشاء .

(٥) المقرئ خطط (ج ١ ص ٤١٢) .

(٦) القرآن الكريم . سورة ١٦ آية ٩٦ ، القلقشندي (ج ٣ ص ٤٩٥) .

هذه الفقرات المكتوبة بخط الخليفة ، ذات أسلوب خلاب يبين لنا قدرته في فن الكتابة وإلمامه بكتاب الله الكريم ، الذي اقتبس منه هذه الآية التي تناسب المقام .

ولم يكن الخلفاء الفاطميون الآخرون أقل من المستنصر في الكرم والجود . فهذا الخليفة الحافظ (٥٢٤ — ٥٤٤ هـ و ١١٣٠ — ١١٤٩ م) قد وقع في إحدى المرات على قائمة كهذه بما يأتي :
”أمير المؤمنين لا يستكثر في ذات الله كثير العطاء ، وليجروا في نسيبتهم (هكذا وردت في الأصل) على عادتهم كرما من أمير المؤمنين وفعلا مبرورا ، وعملا بما أخبر به عز وجل في قوله تعالى (انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا)“ (١) .

وشبهه هذا ما كان يحصل في عيد الفطر من توزيع ما جرت به العادة من النقود الذهبية والفضية ، والملابس والأطعمة على الموظفين والأضياف . يضاف الى هذا ما كان يعطى لرجال الموظفين في غرة المحرم من النقود الذهبية التي كانت تضرب خصيصا لهذا اليوم ؛ ولذلك كانت تسمى نقود الغرة . وكان هؤلاء الموظفون يعتبرون هذه النقود بركة من الخليفة (٢) .

يضاف الى هذا ما اعتاده الخلفاء الفاطميون من منح موظفي خزائن القصر على اختلافها مقادير من المال عند تفتيش تلك الخزائن . ومن أمثلة ذلك ، أن خازن خزانة الفرش كان يعطى خمسة عشر دينارا (٣) ، وأمين خزائن الأسلحة كان يعطى خمسة وعشرين دينارا (٤) ، كما كان يعطى صاحب خزائن السروج عشرين دينارا (٥) ؛ وكان يعطى صاحب خزائن المشروبات ومعاونوه ثلاثين دينارا (٦) . يضاف الى هذا أيضا ما اعتاد الخلفاء منحه عند ركوهم للناظر لرجال الحاشية والأستاذين ، وكتاب القصر والشعراء ، والمؤذنين والقراء ومن إلى هؤلاء . وكان هناك أحد الموظفين يحمل كيسا من الحرير فيه خمسمائة دينار (٧) ، لتوزيعه على من في الطريق الذي يجتازه الخليفة من الرجال والنساء الفقراء ، والقراء الذين يقرءون القرآن على جانبي الطريق ، فكان كل من هؤلاء ينال نصيبه من هذه النقود في أكياس خاصة ، في كل منها درهمان أو ثلاثة (٨) .

(١) القرآن الكريم . سورة ٧٦ آية ٩ ، المقرئ خط (ج ١ ص ٣٩٨) .

(٢) القلقشندي (ج ٣ ص ٥٠٩) .

(٣) المقرئ خط (ج ١ ص ٤٩٢ و ٤٩٣) .

(٤) شرحه (ج ١ ص ٤١٧) .

(٥) شرحه (ج ١ ص ٤١٨) .

(٦) شرحه (ج ١ ص ٤٢٠) .

(٧) يقول المقرئ خط (ج ١ ص ٤٨١) ان هذا الكيس كان يشتمل على ألف دينار في كل من المرات

التي كان يركب فيها الخليفة لأحد الميادين ، وربما كان ذلك لاستعراض الجند أو رجال الأسطول .

(٨) شرحه .

الباب الثامن

مظاهر الأبهة والجلال للخليفة في صلاة الجمعة والأعياد والولائم

لقد بينا ما كان من نجاح تعاليم أبي عبد الله الشيعي في جعل قبائل كُثَاة والبربر يعتقدون أن الخليفة كان قادرا على الإتيان بالمعجزات من إحياء الموتى وما إلى ذلك ، حتى إن كافة سكان شمالي افريقية انضوا تحت لوائه . وهذه التعاليم قد أثرت في عقول الناس تأثيرا عظيما ، كان من أثره أن اعتنق الشعراء ذلك المذهب الشيعي ؛ وقد خاطب أحدهم المهدي بهذه الأبيات :

حَلِّ بَرَقَادَةِ الْمَسِيحِ حَلِّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلِّ بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالِي وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

وكذا أنشد ابن هاني شاعر بلاط المعز الفاطمي بين يدي مولاه هذه الأبيات التي تتطوى على الغلو والأغراق ، ومنها :

ما شئتَ لا ما شاعت الأقدارُ فاحكمْ فأنْتَ الواحدُ القهارُ^(١)

من هذا يتبين مركز الخلفاء الفاطميين في أعين شعراء بلاطهم ، مما جعل هؤلاء الخلفاء يعتقدون في أنفسهم أنهم أعلى من سائر البشر ، إذ لم يختصوا ببعض الحقوق الإلهية فحسب ، بل بصفات الله أيضا . ومن الحق أن نقول إن هؤلاء الخلفاء لو لم يكونوا ينجشون ثورة شعوبهم ، لكشفوا للناس حقيقة معتقداتهم الضالة ، التي كان يدين بها خواصهم وحاشيتهم وغيرهم ممن كانوا يحضرون مجالسهم الشيعية في القصر . ولطالما قاوم الأهليون آراء بعض الخلفاء وصادموهم باحتجاجات كانت تأخذ في بعض الأحيان مظهر التهديد ، كما في حادث الدرزي والأشعرم .

(١) ديوان ابن هاني (ص ٩٦)

غير أن الخلفاء الفاطميين كانوا قادرين على بلوغ أغراضهم بالسياسة ، وبما اشتهروا به من مظاهر الكرم والأبهة والعظمة في كل العهد الفاطمي . من ذلك هداياهم النفيسة من النقود ، وجوائزهم للشعراء وكتاب القصر ، والعلماء وغيرهم من الموظفين ، وكذلك الاحسان للفقراء ، وإقامة الولائم في المناسبات المختلفة من الأعياد الدينية وغيرها من الأعياد العامة ؛ وكل هذا كان حقيقا بأن يستميل كثيرا من الناس إلى اعتناق مذهبهم .

وإن تقاليد البلاط الفاطمي كانت متفقة مع الدعاوى التي كان يدعيها الخلفاء . فكان من الشرف العظيم أن يسمح للوزير بثلث قدمي الخليفة على مرأى من جموع الرعايا المتحمسين . أما قاضي القضاة ، باعتباره حامى الشريعة الاسلامية ، فكان لا ينتظر منه إلا أن يثلث قدم الخليفة في الركاب القريب منه (١) .

ولم تكن مظاهر الاحترام هذه نحو الخلفاء مقصورة على وزرائهم وقضاتهم وغيرهم من مشهورى رجال دولتهم . فقد كان على عامة الناس أن يقوموا وقوفا كلما ذكر اسم الخليفة في الخطبة ، كما كان عليهم أن يظلوا واقفين أيضا إذا مر الخليفة في إحدى الطرقات (٢) .

وكان من المناظر المسلية أن يرى الخليفة الفاطمي جالسا في إحدى مناظره (٣) عند الاحتفال ببعض الأعياد الدينية أو العامة ، وحوله أنوار الشموع والمصابيح الوضاعة ؛ فقد كان شخصه المقدس يرى ظاهرا لرعاياه المتحمسين إذا ما فتحت نافذة المنطرة ، وأمامه أحد الأستاذين يلوح للناس بكلماته ، يحمل إليهم سلام الخليفة في هذه الكلمات : ” أمير المؤمنين يرد عليكم السلام ” . وعقب نفوه الأستاذ بهذه الكلمات تقفل النافذة ؛ فينصرف الناس المفعمون سرورا ، والذين كانوا يركعون إذا مارأوا شخص الخليفة .

وإن في الأبهة التي كانت تصاحب الخلفاء الفاطميين في مجلسهم (٤) لدليلا آخر على ما كانوا يعتقدونه مما كان يطلق عليه حق الملوك المقدس ؛ حتى كان بعضهم يعتقد لنفسه بعض صفات الله .

(١) المقرئى خطط (ج ١ ص ٤٧٧)

(٢) ابن زولاق ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٣ أ و ٥٦ أ والقضاى ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١٢٧ أ .

(٣) يقول المقرئى خطط (ج ١ ص ٤٣٥) في كلامه عن باب العيد — الذى كان مبنا عليه قبة على شكل قبو ، كان الخليفة يمر من تحتها عند ذهابه الى المصلى حيث تقام صلاة العيد — إن الخليفة كان يلوح بكفه ، فيسلك به الناس ويلثمونه . وهذا ، كما لاحظ المقرئى ، بعيد عن التصديق . وربما كان يحدث في مناسبات أخرى ، حين يسمح للناس بتقديم رفات تظلمهم الى الخليفة وهو راكب ، فكانت لهم فرصة يلثمون فيها كمام مولايم . وهذه العادة لم تزل باقية في بعض أنحاء العالم الاسلامى ، حيث يلتمس بعض الناس البركة من ثم أيدي وأكمام العلماء ، وحتى يثلث بعض أجزاء المساجد ، ككتبة القبر النبوى والكعبة المشرفة .

(٤) يسمى هذا المجلس الإيوان ، ويعرف بقاعة الذهب .

١ - قاعة الذهب ومجلس الملك

اعتاد الخليفة أن يبعث صاحب الرسالة الى الوزير يحمل اليه أمره الملكي بانعقاد المجلس . وصاحب الرسالة هذا كان أستاذا مميّزا ، وعمّاله هو حل أوامر الخليفة الى الوزير متى آن انعقاد المجلس . وكان إذا انتهى الأمر للوزير ، ركب في صحبة الأمراء الى مكان الوزارة من القصر ، حيث يترجل ويمشي الى قاعة الذهب^(١) .

أما قاعة الذهب فكانت مؤثثة أثاثا نفّيسا ، ومزينة بالسستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، التي كانت كلها من رسم وطراز ولون واحد . وكان في صدر قاعة الذهب حشّية عليها عرش الخليفة المحجوب بستور ، حتى إذا ما استوى الخليفة على عرشه والتأم المجلس ، رفعت تلك الستور .

وكانت العظمة الملكية تظهر بأجلى مظاهرها إذا ما انفرج الستران الحريريان بفعل اثنين من الأساتذة بأمر زمام القصر ؛ فيبين شخص الخليفة ، وحوله جماعة من القراء ؛ يأخذون في ترتيب بعض آيات بأنغام عالية . ثم يأتي حامل الدواة — وهو أستاذ محبّبك أيضا — فيضعها على طرف الحشّية المخصص لها . وكان زمام القصر وصاحب بيت المال والحجاب والأمناء يأخذون أمكتهم عند الأبواب في الوقت الذي يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكتهم المخصصة لهم ، وعندئذ يأخذ أحد الأمناء في تقديم من يرى من المناسب تقديمه للخليفة .

والوزير كان أول من يُقدم الى الخليفة . فيخطو الى الأمام ، ثم يحيي الخليفة بلثم يديه ورجليه ؛ ثم يتراجع الى مكانه الرفيع ويظل واقفا نحو ساعة ؛ فيؤذن له بوسادة يجلس عليها في جانب الخليفة الأيمن . ثم يتلوه قاضى القضاة ، فيقترب من الخليفة ويحييه برفع يده اليمنى ، ويشير بسبحته قائلا : "السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته" ! وكانت هذه التحية ميزة له على سائر أعضاء المجلس اعترافا بمركزه الدينى الرفيع . وكان أيضا يسمح لزعماء الطوائف المختلفة بتحية الخليفة باسم جماعاتهم . وكان أحد الأمراء يزودهم قبل أن يتقدموا للخليفة بتعليمات تين لهم ما يجب عليهم اتباعه في هذا السبيل .

(١) كان مجلس الملك يُعقد في الإيران الكبير قبل أن يبنى العزير قاعة الذهب . أما الإيران الكبير فقد استعمل فيما

بعد دارا السلاح .

وإذا رأى الوزير أن يشاور الخليفة في أمر من الأمور ، وجب عليه أن يقترب منه ويعتمد على سيفه ، ثم يشرع في حديثه . وكان مجلس الملك ينقد ثلاث ساعات في العادة ؛ فتقدم فيه الأمور الهامة لبحثها واعتمادها من الخليفة . وللوزير أن يقترح خلع الخلع أو إسناد المناصب المختلفة إلى من يقدم أسماءهم .

فاذا انفرط عقد المجلس ، انصرف الحاضرون والوزير في آخرهم بعد أن يلثم يدي مولاه ورجليه مرة ثانية ؛ ثم يركب إلى داره يحف به سائر أعضاء المجلس ؛ ثم ينزل الخليفة من سرير الملك وينادر الإيوان ، فتسدل الستور ويقفل الباب^(١)

هكذا كانت الأجهزة التي تحيط بالخليفة حينئذ يرأس مجلس الملك ؛ غير أن هذه التقاليد لم يكن الفاطميون أول مبتدعيها ؛ فقد كانت من رسوم آل ساسان ملوك الفرس (٢٢٩ — ٦٥٢ م) قبل ظهور الدولة الفاطمية في عالم الدول بنحو سبعة قرون .

يقول الأستاذ براون (E. G. Browne) : ” إن آل ساسان كانوا يعتبرون أنفسهم آلهة ، أو أناسا إلهيين ، من سلالة أسرة الكاياني الخرافية العريقة في القدم ، ووارثي العظمة الملوكية (Farri-Kayani) . وذلك نوع من الحق الإلهي الذي وصل إليهم بطريق الإشارة والرمز ، وبفضل هذا الحق كان لهم وحدهم حق حمل التاج الفارسي — فعملوا كل ما في مكنتهم للتأثير في رعاياهم ، حتى يذمنوا لهذا الحق الملكي الرفيع “ .

وقد اقتبس الأستاذ براون في صدد كلامه عن عظمة ” آل ساسان الملكية “ واعتلائهم العرش ، أسطورة أوردها ابن هشام في ” سيرة النبي صلى الله عليه وسلم “^(٢) حيث يقول : ” وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذي به تاجه ؛ وكان تاجه مثل القنقل^(٣) العظيم فيما يزعمون ، يضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد بالذهب والفضة ، معلقا بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في مجلسه ذلك . وكان عنقه لا تحمل تاجه ؛ إنما يستريح عليه بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك . ثم يدخل رأسه في تاجه ؛ فاذا استوى في مجلسه كشفت عنه الثياب ، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك إلا بمجد هيئة له “^(٤)

(١) القلقشندي (ج ٣ ص ٤٩٨ — ٥٠٠)

(٢) Literary History of Persia from Earliest Times until Firdawsi, p. 128.

(٣) الخسوف العظيمة .

(٤) ابن هشام (طبعة وسترغلد) (ج ١ ص ٤٢)

ويلاحظ الأستاذ براون " أن نظرية الحق الملكي المقدس لم تكن في دولة من الدول أثبت وأكثر ذيوها منها في فارس في عهد آل ساسان " . غير أن هذه النظرية كانت بمصر في زمن أعرق في القدم من عصر آل ساسان ، في عهد الفراعنة الذين ادعوا لأنفسهم كل صفات الله ؛ وأوضح مثل لذلك هو فرعون موسى عليه السلام .

وكان تأثير هذه العقيدة في العصور التي تلت عظيمًا ؛ فقد تأصلت وخطت إلى الأمام في عهد الخلفاء الفاطميين الذين كانوا يعتقدون أن لهم بعض صفات الله

٢ — المناظر وليالي الوقود^(١)

إن بناء المناظر التي كان يشرف الخلفاء منها على الاحتفال ببعض الأعياد ، يمدنا بمثل آخر من أمثلة حب الظهور الذي ملك قلوبهم ، فاستطاعوا أن يستميلوا به أكثر ما يمكن من الناس الذين يعتقدون المذهب الشيعي .

أما ليالي الوقود الأربع ، فقد كان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بها بأبهة عظيمة . وكانت المساجد في كل من هذه المناسبات تضاء بالأنوار الساطعة بعد غروب الشمس . وكان قاضي القضاة

(١) كانت المناظر غالبًا في القاهرة ومصر والروضة والقراة ؛ وكانت تستعمل أيضًا أما كن لزهة الخلفاء . وقد عدد القريري هذه المناظر في خطه ؛ ووصف لنا بعبارة شائقة الاحتفال ببعض الأعياد . ويجل أن تذكر أسماء المناظر هنا ، لأننا سنشير إلى بعضها عند الكلام عن الاحتفال ببعض الأعياد وهي : الأزهر ، اللؤلؤة ، الدكة ، المقس ، باب الفتوح ، البعل ، التاج ، الخمس وجوه ، الصناعة ، دار الملك ، منازل العز ، الهودج ، بركة الخبش ، الأندلس ، قبة الهواء ، والسكرية (خطوط ج ١ ص ٤٦٥) .

(٢) ليالي الوقود هي الليالي التي تسبق أول ومتصف شهر رجب وشعبان . وكان الناس تبعًا للتعاليم الشيعية يصومون بعض هذين الشهرين كهصومهم رمضان ؛ ولذلك كانوا يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون بربضان . واستمر الاحتفال بهذه الأيام إلى وقتنا الحاضر .

يتقدم الموكب نائبا عن الخليفة ؛ فكان يظهر ممتطيا جوادا ، يحيط به ثلاثة من ممثلي الخليفة وعشرة من الحجاب والقراء ، ومؤذنو المساجد المختلفة يحمدون الله ويدعون للخليفة . وكان الشهود يمتطون الجياد أيضا ، وبأيديهم الشموع ^(١) المضاءة ، ويحفون بقاضى القضاة حرسا له .

وكانت الجموع الغفيرة تتبع الموكب الذى يبدأ من دار قاضى القضاة ، ويسير مخترقا الطرق الكبيرة فى القاهرة حتى يصل الى باب الزمرد ؛ وهناك يكون الخليفة جالسا فى منظرته التى تسطع فيها الأنوار لانتظاره . وهنا يشتد زحام هذه الجموع فى الفضاء حول المنطرة ، والكل يتربص الفرصة كي يرى وجه الخليفة ^(٢) .

وكان خطباء مساجد الأنور والأزهر والحاكم يخطبون بين يدي الخليفة كما يخطبون على منابر مساجدهم ؛ فاذا ما انتهى الخطباء ، فتحت نوافذ المنطرة ؛ فيظهر وجه الخليفة وحوله الشموع الساطعة الضوء ؛ ثم يحيى أحد الأساتذة المختكين المميزين هذه الجموع المتلهفة ، ويلوح لهم بكمه علامة للانصراف ويقول : ”أمير المؤمنين يرد عليكم السلام“ . وبعد هذا يستأنف الموكب سيره حتى دار الوزير ؛ وهناك يترجل قاضى القضاة والشهود ويمثلون بين يدي الوزير ؛ ثم تلقى الخطب تكريما له ^(٣) . بعد هذا يعود الموكب مارا بالمساجد المضاءة فى طريقه الى مدينة مصر .

وكانت الحكومة تُعنى عناية خاصة بتنظيم هذه الاحتفالات ؛ فكان حكام القاهرة ومصر يعينون بعض رجال الشرطة والخفر لحفظ النظام ؛ وكان على الوليين أن يصحبا قاضى القضاة فى موكبه ويطيعا أمره فيما يأمر به . وكانت الأسواق تسطع بالأنوار ، وتكثر فيها الحلوى سدا لحاجة المشتريين ^(٤) .

(١) ذكر المقرئ عن ابن الطوير أن قاضى القضاة كان مخصصا له نحسون شمعة فى كل يوم من هذه الأيام ؛ وكانت كل شمعة تزن نحو ستة عشر رطلا ، غير الشموع التى كانت تحيط بالشهود ؛ وكان يعطى كل منهم عددا من الشموع يتراوح بين شمعة وثلاث حسب درجته . وكانت توزع كمية كبيرة من الزيت على المساجد المختلفة لإضاءتها فى تلك الليالى ؛ فكان ما ينحصر الجامع العتيق لكل ليلة أحد عشر قطارا . هذا عدا ما كان يوزع من الهبات والإحسانات المعتادة والحلوى ونحوها (خطط ج ١ ص ٤٦٦ — ٤٦٧) .

(٢) القلقشندي (ج ٣ ص ٥٠١) .

(٣) شرحه (ج ٣ ص ٥٠٢) .

(٤) المقرئ (ج ١ ص ٤٧٦) .

٣ - توديع الحملات الحربية

كان الخليفة يجلس بمنظرة باب الفتوح لتوديع الحملات الحربية ، وخاصة ما كان مرسلًا منها إلى أهالي الشام وفلسطين الذين كانوا في ثورة متواصلة ضد سلطة الفاطميين ؛ وفي هذه المنظرة كان يؤذن لقائد الحملة بالمثل بين يدي الخليفة ، فيخلع عليه خلعة مزركشة بالذهب . أما الصناديق والخزائن التي كانت تودع فيها معدات الجيش من أموال وسلاح ومؤن ونحو ذلك ، فقد كان من المعتاد أن يقوم صاحب بيت المال بتسليم القائد قوائم مفصلة بما حوته تلك الصناديق . وكانت نوافذ المنظرة تفتح ؛ فإذا رأى الجند وجه الخليفة ، تحروا له مقبلين الأرض ؛ ثم يومئ الخليفة للجيوش فتسير (١) .

بعد هذا يركب الخليفة لمنظرة المقس ، حيث يكون هناك أمير "الأسطول" (٢) . وبعد أن يستعرض الخليفة المراكب الحربية ، يأذن للأمير بالمثل بين يديه ؛ فيخلع عليه خلعة ويودعه ؛ فيبدأ الأسطول في المسير (٣) .

٤ - العقائد الفاطمية

كان أنصار الخلفاء الفاطميين يؤيدون دعوى هؤلاء الخلفاء بأن لهم قوة إلهية . ويرجع ذلك إلى أيام عبيد الله المهدي الذي كان يعتبره بعض رجال الشيعة الخالق الرازي ، كما كانت تعتقد جماعة أخرى أنه نبي . وهناك طائفة ثالثة كانت تزعم أنه النبي حقا (٤) . يدلنا على هذا ما رواه الذهبي عن ابن عبد الجبار حيث يقول : " كانت طائفة تزعم أنه الخالق الرازي ، وطائفة تزعم أنه نبي ، وطائفة تزعم أنه النبي حقيقة " .

(١) المقرئ خط (ج ١ ص ٤٨٣) .

(٢) ذكر المقرئ عن ابن أبي طي أن المعز بن مراكب حربية ، فكان منها الأسطول المصري . خط (ج ١ ص ٤٨٣) .

(٣) القلقشندي (ج ٣ ص ٥٢٣ ، ٥٢٤) .

(٤) الذهبي ، المكتبة الملكية بالقاهرة ، مخطوط ٤٢ ، ورقة ٤٤ أ

ويستطرد الذهبي في الكلام قولا عن ابن عبد الجبار ، حتى يذكر أن أبا القاسم بن عبيد الله أمر بلعن الأنبياء وأطلق مناديا ينادى بلعن الفاروسين لاذ به ، وأنه كان يكتب أبا طاهر القرمطي ، ونصح له بأن يحرق الكعبة والمصاحف . وقد أثارت أفاعيل أبي القاسم هذه سخط جماعة من الخوارج ، فتأروا تحت لواء ابن كيداد^(١) . هذا ما رواه الذهبي . ولكنه كان يغيض الشيعة ، فدرس عليهم ذلك وكذب في نسبة هذا إليهم .

إن من السهل أن نصدق أن الفاطميين كثيرا ما تقموا على السنين . لكن ما يروى عنهم من أنهم لعنوا الأنبياء ، وأنهم أشاروا على أبي طاهر القرمطي بحرق الكعبة والمصاحف ، يكذبه بعض الكتاب الأقدمين كسكويه (ج ١ ص ١٦٦ و ١٦٧) ، وهو حجة في ذلك العصر ، وتاريخه خال من التحيز والهوى .

وقد عضد سياسة الفاطميين السابقة وبثها شعراء الشيعة الذين درسوا العلوم الفلكية التي انتهت بهم إلى نسبة بعض القوى الإلهية إلى الخلفاء . ومن ذلك نصح بعضهم للعز بأن يقضى يوما خاصا محتجبا عن الناس ؛ لكنه ظل مختفيا تحت الأرض سنة كاملة^(٢) ، فاعتقد الناس أنه صعد إلى السماء ؛ وبلغ من هذا الاعتقاد أن الجندي كان إذا رأى سحابة في السماء ، ترجل وقال "السلام عليك يا أمير المؤمنين ! " ^(٣)

إن الخلفاء الفاطميين الأول لم يفلحوا في استمالة جميع المصريين لهذه الاعتقادات وأمثالها ؛ ولذلك نرى أن عقيدة تأليه الحاكم الجديدة قد أثارت أخيرا سخط الأهلين ، إذ كان لا يزال هناك كثيرون يناوئون سياسة الفاطميين ؛ فقد كتب ذات مرة أحد الشعراء بيتين من الشعر في ورقة وضعت على المنبر ، ف وقعت في يد الخليفة العزيز ، وقرأها فلذا فيها :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحقافة
إن كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطافة^(٤)

(١) شرحه ورقة ٦٩ أ

(٢) ذكر ابن زولاق أن المعز ظل مختفيا نحو من أربعة أشهر . غير أن ذلك ينقضه ما ذكره غيره ، كإبن القلانسي وابن الجوزي وابن الأثير الذين اتفقوا على أن مدة اختفاء المعز تحت الأرض كانت نحو سنة .

(٣) ذكر ذلك ابن زولاق (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٤٨ بهم وابن القلانسي (ص ١٤) وسبط بن الجوزي (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات بوكوك (Pocock) ، القسم الشرقي رقم ٣٧٠ ، ورقة ١٨٦) وابن الأثير (ج ٨ ص ٢٣٩) وأبو المحاسن طيبة جوينبول (Juybnoll) (ج ٢ ص ٤٤١ و ٤٤٢) .

(٤) ابن خلكان (ج ٢ ص ٢٠٠) وابن أبي دینار (ص ٦٥) .

وقد أمعن الحاكم في هذه الدعوى ، حتى إن ابن زولاق^(١) قص علينا في هذا الصدد حكاية ، وإن كان من البعيد تصديقها ؛ إذ يقول إنه كان على التجار أن يتركوا حوائيتهم مفتوحة ؛ فإذا سرق منهم شيء ذهبوا إلى القصر يشكون ما حل بهم . ففي ذات مرة ذهب جماعة منهم ورفعوا شكواهم إلى الحاكم من سرقة بعض سلهم . وكان عنده تمثال يدعى أبا الهول يجلس في داخله رجل ؛ يجلس الحاكم أمام التمثال . وقد أذن للشاكين أن يمثّلوا بحضرته ، فوصفوا ما فقدوه من متاع . فتكلم أبو الهول ذا كرا أسماء اللصوص واسم المكان الذي خبأوا فيه المتاع ؛ فكان كما أخبر به ، وقبض على اللصوص وصلبوا . وأضاف ابن زولاق إلى هذا أن هذه الأعمال ساعدت على استتباب الأمن والنظام ، حتى إن التجار كانوا يتركون حوائيتهم غير مغلقة كسائر الناس الذين لم يكونوا يحفلون باغلاق أبواب دورهم طوال الليل . ولنتقل للقارئ فيما يلي عبارة ابن زولاق بنصها :

” ونادى في الناس ألا يغلق أحد بابه ولا حانوته وأصبح الناس يستغيثون ؛ فاحضر صمّا كان عنده يسمى أبا الهول ؛ فكان كل من ضاع له شيء يجلس بين يديه ويقول له : يا أبا الهول ! ضاع كذا وكذا ، فيقول له شخص داخل الصنم (إن ضايحك — هكنا وردت في الأصل) ، ما ضاع منك أخذه فلان ووضع في المكان الذي يقول عليه الصنم ، فيخضّر لصاحبه ؛ ثم ما زال على ذلك حتى قرر جميع ما ضاع لأربابه . ثم صلب اللصوص ، وعادت الناس في أمان ينامون في بيوتهم وأبوابهم مفتوحة وحوائيتهم كذلك ، لم يسرق لهم شيء ، حتى إذا وقع من أحد درهم (يستمر — هكنا وردت في الأصل) ، يبقى في مكانه لا يجسر أن يأخذه أحد ، حتى يأتي إليه صاحبه فيأخذه ، ثم ينادى : رحم الله من اعتبر بغيره ! “^(٢) .

(١) يلاحظ في الباب الذي أفرده ليان المصادر أن مخطوط ابن زولاق الذي عنوانه ” فضائل مصر “ (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧) ، هو موجز لهذا السفر الضخم الذي ألّفه في تاريخ مصر؛ غير أن ذلك المخطوط قد أمدنا بمعلومات هامة عن تاريخ الخلفاء الفاطميين الأول إلى سنة ٣٨٦ هـ . وقد ذكرت في هذا الباب أن هذا المخطوط قد أكله أحد الأتراك ؛ ومن المحتمل أن يكون قد أدخل عليه معلومات استقاها من المؤرخين المتأخرين ، أمثال القضاي ، وأبي الفرج بن الجوزي ، وسبط بن الجوزي ، والذهبي . ومن المعلومات التي في هذا الكتاب ما يتناول الكلام على سنة ٣٨٧ (أي سنة وفاة ابن زولاق) وما تلاها من السنين . ومع هذا فذلك كله منسوب إلى ابن زولاق تمة العمل الذي بدأ فيه ، كما هو الحال في كتاب الكندي (كتاب القضاة) ، الذي بدأه الكندي (حتى وصل إلى سنة ٢٤٦ هـ) ، بغناء ابن زولاق وابن جبر فأكمله . ومع ذلك فالحقائق التي وردت في الكلام على سنة ٢٤٧ وما تلاها تنسب أيضا إلى الكندي ، مع أنه لم يكتب إلا الجزء الأول من ذلك الكتاب الذي ينسب إليه ويعرف بنفس هذا الاسم .

(٢) ابن زولاق ، المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ٥٣ أ وما يتبعها .
ذكر ابن زولاق أن هذا التمثال سرق وكسر ، فارتاع الرجل الذي بداخله حتى فقد حاسة النطق . ولو صحت تلك الحكاية ، لكانت تلك السرقة من صنيع أحد اللصوص العاديين ، أو أحد المسلمين التهمسين الذين لم يكونوا يرضون عن سلوك الحاكم .

وذكر نفس هذا المؤرخ حكاية أخرى يقول فيها : " إنه وقع من شخص كيس فيه ألف دينار عند باب جامع ابن طولون ، واستمر في مكانه أسبوعا كاملا لم يحسر أحد على أخذه ، حتى مر به صاحبه " وأقام الدليل على ملكه له (١) .

والظاهر أن هذه الحكاية لا تخلو من المبالغة ؛ إذ من الممكن جدا أن يكون رجال الشرطة قد أخذوا هذا الكيس أمانة لديهم ، حتى يستطيع صاحبه العثور عليه . على أن ما رواه ابن زولاق من أنه من لم يكن هناك أحد يحسر على أخذ مثل هذا الشيء ، يمكن تصديقه ، لا سيما في عهد الحاكم الذي كان يعاقب على هذا بالقتل .

وبهذه المناسبة نقول ، إنه ليس لدينا من الأدلة التاريخية ما يثبت أنه كان عند العرب ما يسمى الآن "مكتب الأمانات" . ومع هذا فقد كان ذلك موجودا في عصر النبي صلى الله عليه وسلم الذي شرع أحكام اللقطة .

ففي البخارى ما معناه أن رجلا وجد صرة فيها مائة دينار ، بغاء للنبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن ذلك فقال له : "عزفها حولا" . لكنه لم يجد من يعرفها ؛ فأمره النبي بتعريفها حولا آخر ؛ فلم يحصل لها على صاحب أيضا . بغاء الرجل للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأمره بتعريفها سنة ثالثة ، وبعدها تصير ملكا له . وفي البخارى في موضع آخر أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عما يصنعه في اللقطة فقال له : "عزفها سنة فان لم يظهر لها صاحب ، فشأنك بها" (٢) .

هذا ، وقد تكلم ابن زولاق على ادعاء الحاكم للألوهية ، ذلك الخليفة الذى كانت تملك نفسه تلك الرغبة التى استولت على كاليجولا من قبل فى أن يجعل نفسه فى مصاف الآلهة . فذكر أن الحاكم اتخذ لنفسه جواسيس من النساء يندسسن فى دور بعض أناس مخصوصين ؛ وكان من واجبه أن يكتشف ما يحدث فيها ، ثم يقدم تقاريرهن عن ذلك إليه فى اليوم التالى . فإذا ما أصبح الخليفة استدعى هؤلاء الناس للثول بحضورته ، فيخبرهم بتفصيل كل ما حدث فى دورهم . ولم ينس أيضا أن يتخذ جواسيس آخرين ، مهمتهم أن يقدموا إليه تقارير بكل ما يحدث فى الطرقات ؛ وكانت نتيجة هذا وذلك أن أصبح بعض الناس يعتقدون أنه يعلم الغيب (٣) .

(١) شرحه ورقة ٥٤ ب .

(٢) صحيح البخارى ، (ج ٣ ص ١٢٤ و ١٢٥) .

(٣) ذكر هذا ابن زولاق (شرح ورقة ٥٦ ب) وابن الجوزى (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات بوكوك ، القسم الشرق رقم ٣٧٠ ، ورقة ١١٣٠) نقلا عن هلال الصابى ، وقال ابن زولاق إنه كان يبعث بهؤلاء الجواسيس الى دور الأمراء ، ولما كن يتناولن مرتبات وفيرة .

ه - دعوى الحاكم الالهية

لم يترك الحاكم ادعاء الألوهية الذى شغل كل حياته الا فترة لم يطل أمدها ، ثم سرعان ما ادعى تجسم الإله فى شخصه - وإن لم يصرح علنا بذلك - فقد كان يوافق على آراء أنصاره كالأنجم والدرزى^(١) ، الذين نسبوا اليه الصفات التى لا يتصف بها إلا الله ؛ لهذا اعتقد الناس أن بيده الحياة والموت^(٢) . ولهذا كان اذا بدا للناس فى الطرقات ، خرواله سجيلا وقبلوا الأرض^(٣) ؛ ومن أبى ذلك كان نصيبه الموت^(٤) .

وقد شجع بعض الشعراء المتصلين بالبلاط الفاطمى هذا الاعتقاد ، ولم يترددوا فى أن ينسبوا الى الحاكم بعض صفات الله وهم يقرعون القرآن بحضرته . فقد أمدنا ابن خلكان بوثيقة عن الحافظ السلفى^(٥) بخط يده ، وهالك نصها : ” ان الحاكم المذكور كان جالسا فى مجلسه العام وهو حافل بأعيان دولته . فقرأ بعض الحاضرين قوله تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)^(٦) ؛ والقارئ فى أثناء ذلك يشير الى

(١) تكلم ابن سعيد (ص ٢٢٠ - ٢٢٤) عن الدرزى ، وذكر (ص ٢٢٤) خلافا لكثير غيره من المؤرخين أنه قتل بمدينة مصر . أما غيره من المؤرخين فيزعمون أن الدرزى أرسل الى لبنان ، حيث نجح فى بث عقائد مذهبه فيما يختص بالحاكم .

(٢) ابن زولا ، المكتبة الأهلية ياريس (مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ١٥٦) .

(٣) القضاعى ، المكتبة الأهلية ياريس ، (مخطوط ١٤٩١ ، ورقة ١١٢٧) .

(٤) ابن زولا ، المكتبة الأهلية ياريس ، (مخطوط ١٨١٧ ، ورقة ١٥٦) .

(٥) هو أبو طاهر أحمد بن محمد . . . السلفى من أهالى أصهان ، وكان يلقب بصدر الدين ؛ وكان حافظا غزير العلم شافعى المذهب . رحل الى بلاد كثيرة طلبا للحديث الذى أخذه عن أساتذته المبرزين ؛ ومر فى رحلاته بأصقاع مختلفة ، وساح فى بلاد كثيرة ؛ فركب البحر من صور الى الاسكندرية ، فوصلها فى ذى القعدة سنة ٥١١ هـ (مارس سنة ١١١٨ م) . ولما استقر به المقام ، انجبه كثير من أهالى البلاد النائية يستمعون لدروسه . وفى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) أنشأ المادل بن السلال كلية فى الاسكندرية ، وجعله عميدها . وكانت وفاته بهذه المدينة فى الخامس من ربيع الثانى سنة ٥٧٦ هـ (أغسطس سنة ١١٨٠ م) ابن خلكان (ج ٢ ص ٣٧ و ٣٨) .

(٦) سورة ٤ آية ٦٨

الحاكم . فلما فرغ من القراءة ، قرأ شخص آخر يعرف بابن المشجر ، وكان رجلا صالحا :
(يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا
له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله
حق قدره ، إن الله لقوى عزيز)^(١) . فلما انتهت قراءته ، تغير وجه الحاكم ، ثم أمر لابن المشجر
المذكور بمائة دينار ، ولم يطلق للآخر شيئا . ثم ان بعض أصحاب ابن المشجر قال له : أنت تعرف
خلق الحاكم وكثرة استحالاته (تقلباته) ، وما نأمن أن يحقد عليك ، وأنه لا يؤاخذك في هذا الوقت ،
ثم يؤاخذك بعد هذا فتأذى منه ، ومن المصلحة عندي أن تغيب عنه . فتجهز ابن المشجر للحج ،
وركب في البحر وغرق^(٢) .

بالرغم من حالة العداء التي كانت تملأ الناس من سياسة الحاكم الخرقاء ، فقد استطاع أن يدعى
الألوهية . فابتدأت الدعوة التي تقول بأن الله تجسم فيه . وعلى ما جاء في مخطوط القاهرة الذي عنوانه
”رسائل الحاكم بأمر الله“ ، نرى أن الحاكم ادعى أن له طبيعة إلهية ، بعد أن كان بشرا كسائر
الناس^(٣) . ومن المحتمل كثيرا أن يكون ما ظهر به الحاكم أخيرا هو نتيجة تعاليم الدرزي للعقائد
الفاطمية في أشد درجاتها غلوا .

منذ هذا الوقت أعلن الناس الذين اتبعوا سياسة الحاكم الدينية ما يعتقدونه من ”عبادته وتوحيده
وتزويده“^(٤) ، وأنه ”لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد“^(٥) ، وأن ”كافة الشرائع الأخرى باطل
وزور“^(٦) . وكان لما فعله الحاكم خطر عظيم ، حتى لقد أرغم من لم يصدق بقوله على دفع
الجزية كأهل الزمة^(٧) .

(١) سورة ٢٢ آية ٧٣ و ٧٤

(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٧) .

(٣) ورقة ١٦١ .

(٤) شرحه .

(٥) سورة ٦٢ آية ٣ و ٤ ، ومخطوط ورقة ١١١ .

(٦) مخطوط ورقة ٢١ ب .

(٧) شرحه ورقة ١٣٥ .

لكن تلك المعتقدات أثارت سخط أهالى القاهرة الوداعين ؛ وكان من أثر ذلك أن اغتيل كثير من الدعاة وأنصار المذهب الفاطمى . أما الحاكم المجنون — كما يقول الأستاذ مرجوليوث^(١) — فقد ثار لنفسه ، فأطلق العنان للسودانيين ، فأسرفوا فى الاعتداء على الأهلىن . وقد سببت المناوشات بين السودانيين والأهلىن خسائر لا يستهان بها .

غير أن سخط الأهالى كان ذا أثر . فقد كانت كتب الأمان التى أعطاه الحاكم لرعاياه المسيحيين سنة ٤١١ هـ — وهى عام وفاته — مفتوحة بما كان يفتح به الخلفاء كتبهم . فقد كان فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ! من أمير المؤمنين عبد الله ووليه المنصور أبى على الإمام الحاكم بأمر الله ابن العزيز الخ^(٢) .

٦ — سياسة الفاطميين الدينية فى عهد الأمر

سنة ٤٩٥ — ٥٢٤ هـ (١١٠١ — ١١٣٠ م)

لقد عنى الفاطميون عناية عظيمة بحفظ رسومهم الدينية حتى فى أيام انحلال دولتهم ، حين كان لوزرائهم السلطة المطلقة . وإن مقتل الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى لأظهر مثال تلك العناية ؛ لأن الأفضل كان يميل ميل السنيين ، فآلنى الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد فاطمة وعلى رضى الله عنهما ، ومولد الخليفة القائم بالأمر . وقد كان ذلك كافيا لتقويض دعائم حكم الفاطميين الذين كانوا يعملون دائماً على تأييد دعواهم ، وأنهم من سلالة على^٢ مما كان موضع شك رعاياهم طوال حكمهم .

وقد شرح لنا ابن القلانسى (+ ٥٥٥ هـ) الأحوال التى أحاطت بمقتل الأفضل شرحا وافيا . وابن القلانسى هذا توفى بعد الأفضل بنحو أربعين سنة ؛ وقد اعتمد فيما ذكره على الاعتقاد الذائع بأن مقتل الوزير كان تديرا من الخليفة الفاطمى وأنصاره ، لبواغث سياسية وحزبية . أما ابن ميسر فقد نسب من جهة أخرى مقتل الأفضل الى عداء جماعة الباطنية . غير أن ابن القلانسى يدحض ذلك ويقرر أنه وإن كان قد شاع أن الأفضل لقي مصرعه على يد الباطنية ، فإن ذلك كله كان بتدبير الخليفة الفاطمى .

Prof. Margoliouth : Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 30. (١)

(٢) يحيى بن سعيد ، (ص ٢٣٠ — ٢٣٣) .

ولأن من الحق أن نقول إن الخلف بين روايتي هذين المؤرخين يسير . فإن الفاطميين أنفسهم كانوا باطنيين ، وكانوا في أعمالهم يُصدرون عن العقائد الباطنية التي كانت قوامها ادعائهم علم الباطن وأن لهم قوى غير قوى البشر .

ويمكن بنا أن نأتي بعبارة ابن القلانسي بتصرف وهي : ان الخليفة الأمر الذي ضعفت سلطته كثيرا بتداخل الأفضل ، شعر بالحاجة الى التخلص من وزيره ، فدبر مكيده اغتياله في إحدى زيارته للقصر . لكن الأمير عبد المجيد بن أبي القاسم بن المستنصر وابن عم الخليفة — الذي صار خليفة فيما بعد وتسمى بالحافظ (+ ٥٤٤ هـ) — لاحظ أن ذلك العمل سيثير سخط الناس ويكون عارا يلحق بالبلاط الفاطمي . وذلك أن الناس كانوا يقدرون الأعمال التي أداها الأفضل وأبوه للأسرة الفاطمية حق قدرها ؛ فيكون قتله معناه نكران لهذه الأيادي ، وذلك مما يجلب انتقام أنصاره ويزعزع ثقة الوزراء في الفاطميين .

لذلك كله رأى الأمير أن يعمل لهذه الغاية بطريقة أخرى ، وهي أن يعهد بذلك الأمر الى أحد معتنقي المذهب الفاطمي ، ويُعطى من العهود ما يضمن له مركز الوزارة اذا نجح في هذا السبيل . وقد رأى الأمير أن أبا عبد الله المأمون بن البطائحي ، أحد خواص الوزير ، هو ابن يحدتها ، لما كان يعتقد من احتمال موافقته على هذا المشروع ، ذلك أنه :

أولاً — كان من معتنقي المذهب الفاطمي الذين أخلصوا في حب الفاطميين ..

ثانياً — لأن نجاح هذا العمل يؤول الى أن يخلف الأفضل في مركزه .

وقد رأى الأمير أيضا أن يختار البطائحي جماعة من الرجال يقومون بذلك ، على أن يُقتلوا عقب إتمامه ؛ كما رأى أن يظهر الخليفة ورجال بلاطه أشد مظاهر الحزن ، ويسعوا للانتقام من اغتيال الوزير ؛ وبذلك لا يتهمهم أحد بأن لهم يدا في هذا العمل^(١)

ولا بأس من أن نورد ما ذكره ابن ميسر في طريقة اغتيال الأفضل . وذلك أن الأفضل كان قد نفى أحد الباطنية ، واسمه البديع ؛ ولكنه وجد من ساعده حتى سمح له بالعودة لمصر ، حيث التف حوله كثير من الأنصار . غير أنه اقترح نفيه مرة أخرى الى اليمن ، حيث كان يسودها مذهب

(١) ابن القلانسي (ص ٢٠٣ و ٢٠٤) .

البديعية بزعامة الحرّة بنت الصليحي^(١) . وحدث أن تقدم عشرة من أتباع هذا المذهب ، وعبروا عن رغبتهم في الحاق بالبديع في سجنه ؛ وسرعان ما انضم اليهم غيرهم من أمثالهم فيما رغبوه . ولما رفع الأمر للأفضل أمر بقتل عشرين من هذه الطائفة ؛ فأثار ذلك غضب الباقين ، وصمموا على اغتياله انتقاما منه . وفي اليوم السابق لعيد الفطر سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) ، حين كان الأفضل في طريقه الى قصره دار الملك في مدينة مصر ، اعترضه رجلان كانا محتفين في حانوت ؛ فقبض عليهما بعض حراسه وقتلوهما على الأثر . وهناك كان خياط يتبع الوزير من القاهرة ، فباغته وأمسكه من طوقه وطعنه بسكين عدة طعنات مميتة ؛ لكنه لم ينج ؛ فقد قبض عليه حرس الوزير^(٢) وقتلوه . وقد نال البطائحي الذي نظم اغتيال الأفضل ما كان يرجوه ؛ فخلف ضحيته في الوزارة ، كما كان ذلك معتادا في ذلك الحين .

٧ - صلاة الجمعة

وفي الاحتفال بصلاة الجمعة ما يدلنا على العظمة التي كانت تحيط بالخلفاء الفاطميين ، ويرينا الكرم الذي مكّنهم من اجتذاب كثيرين من الأنصار اليهم . وقد سبق أن ذكرنا بالتفصيل موكب الخليفة^(٣) في الاحتفال بجبر الخليج .

وقد أمدنا القلقشندي والمقرئزي وأبو المحاسن بوصف صلاة الجمعة ، كما كان يقيمها الخلفاء الفاطميون ؛ ذلك أن هؤلاء الخلفاء كانوا يركبون في الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان إلى جوامع الحاكم والأزهري وعبروا على التوالى لصلاة الجمعة .

(١) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٥ — ٤٦٧) أنه بعد قتل الصليحي سنة ٤٧٣ (١٠٨٠ م) ، زال الاعتراف بسلطان الفاطميين على بلاد العرب . وكانت الخطبة قد أقيمت فيها للخليفة الفاطمي المستنصر سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) .

(٢) ابن ميسر (ص ٥٧) .

(٣) ذكر القلقشندي أن الخلفاء كانوا يركبون في مناسبات متعددة . لكنهم عتوا نهاية خاصة ببعض المواكب التي كانت تسمى بالمواكب العظام : وهي موكب أول العام ، وأول رمضان ، والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان ، وصلاة عيدى الفطر والأضحى ، وجبر الخليج (ج ٣ ص ٥٠٣ — ٥٢٠) . أما المواكب الأخرى فكانت تسمى بالمواكب المختصرة ، كما يقول القلقشندي أيضا ، وكانت تحدث أربع أو خمس مرات في السنة عند ركوب الخلفاء لمناظرهم . ويكون ذلك عادة في أيام السبت والثلاثاء (شرح ج ٣ ص ٥٢١) .

وكان صاحب بيت المال في صباح كل من هذه الأيام الثلاثة يشرف بنفسه على تأييث المسجد الذي يصل الخليفة الجمعة فيه ؛ فكانت توضع في المقصورة ثلاث طنافس دبيقية أو سامانية بيضاء — بعضها فوق بعض — وتوضع فوق الجميع الحصيرة التي يقال إنها كانت لجعفر الصادق وأحضرت إلى مصر سنة ٤٠٠ (١٠٠٩ م) في عهد الحاكم^(١) . وكان ينصب على جانبي المنبر ستران ، يكتب على الأيمن البسملة والفاطحة وسورة الجمعة ، وعلى الآخر البسملة والفاطحة وسورة المنافقين^(٢) .

وقبل وصول الخليفة بقليل ، كان قاضي القضاة يقف ويده مبخرة ، فيبخر المنبر والقبة التي كان الخليفة يقف تحتها وقت إلقاء الخطبة . أما الخطبة فقد كان يضعها أحد كتاب البلاط في ديوان الإنشاء . وكان الخليفة يرتدى في هذا اليوم ثوبا من الحرير الأبيض ، ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق ، ويحمل قضيب الملك بيده ، ويحف به عدد كبير من حرسه الخاص ومن الجنود الأخرى والأشراف^(٣) ؛ ويتبع هؤلاء جم غفير من الناس . وكان الخليفة يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وقراءة القرآن بنغمت شجية حتى يصل إلى قاعة الخطابة ، وهي قاعة استقباله الخاصة ، ويحرسها قائد القواد وكبير الأمراء ونجدة من حرس الخليفة ؛ ويظل في هذه القاعة حتى ينتهي الأذان .

وحينئذ يدخل قاضي القضاة ويقول : ”السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله !“ ؛ فيخرج الخليفة وحوله الأستادون المحنكون ، ويتبعه وزيره وجماعة من حرسه مدبجين بالسلاح ، فيتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر . أما الخليفة فيستمر في سيره حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر . ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة ؛ فاذا أومأ إليه ،

(١) أبو الحسن ، مجلد ٣ (ج ١ رقم ١ ص ٣٣١ — ٣٣٢)

(٢) القلقشندي (ج ٣ ص ٥١١) .

(٣) ذكر أبو الحسن أن الخليفة الأمر كان يحف به القيلة والأسود ، وهي مزينة بفانرا الكسي ، وطليا الأسلحة اللامعة (مجلد ٣ ج ١ رقم ١ ص ٣٣٢) . وأضاف الى هذا أنه بالرغم من شغف الحاكم بأن تكون مواكب في غاية الأبهة ، فقد رأى أن ينبذ وزيره في صلاة الجمعة ، لأنه كان يُرَّجَّح عليه في الخطبة ؛ إذ كان لا يجمع مزاي الخليل (مجلد ٣ ج ١ رقم ١ ص ٣٣٠) . وذكر ابن ميسر (ص ٤٤) أن الخليفة المعز كان يحيط به في موكب صلاة الجمعة جنده وأولاده الأربعة ، ممطين الخيل ، وعليهم الخوذات والدروع ، وفيلان .

صعد فقبل يدي مولاه ورجليه^(١) ، وزر السترين عليه^(٢) ؛ وبذلك يكون المنبر والقبة كالمودج ؛ ثم يتزل الوزير وينتظر على باب المنبر^(٣) .

وكانت الخطبة التي يلقيها الخليفة قصيرة ، وتشتمل على آية من القرآن . وقد نقل المقرئ عن المسيحي الذي حضر صلاة الجمعة في الأزهر سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) ، وكان موقفه خلف الخليفة العزيز ، أن هذا الخليفة ذكر بعد الآية نفسه وقومه بعبارة موجزة ، ثم قال : ” رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين “^(٤) . ودعا بعد ذلك لوالده وجده ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولعلي رضي الله عنه ، وللخلفاء أسلافه . ودعا لنفسه أخيرا قائلا : ” اللهم أنا عبدك وابن عبدك ؛ لا أملك لنفسي خيرا ولا نفعا (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون “^(٥) .

وكان الخليفة يختم خطبته بالدعاء للوزير وبنصر الجيش وخذلان الكفار والمشركين . فاذا ما فرغ من خطبته قال : اذكروا الله يذكركم . ثم يصعد الوزير فيجل السترين ، ويظل هو وقاضي القضاة على الباب ، ويقوم الأستاذون المحنكون وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة .

بعد هذا يأخذ الخليفة في الصلاة ؛ فيبلغ الوزير عنه ، ثم قاضي القضاة ، ثم المؤذنون . فاذا ما انتهت الصلاة ، يخلو الجامع من الناس ، ويخرج الخليفة يحيط به الوزير عن يمينه وقاضي

(١) ذكر أبو المحاسن عن ابن عبد الظاهر ، أن الخليفة كان يستره وهو في قاعة الخطابة ستر من الحرير . وكان قاضي القضاة ، ويقع صاحب بيت المال حاملا مبخرة بيده ، يدخلان القاعة متى سمعا الأذان ؛ فيتقدم الأول ويحل الستر ، ثم يأخذ المبخرة من صاحب بيت المال فيبخر المكان . وبعد ذلك يضادران القاعة ، ويقبلان الدرج حال نزولها (مجلد ٣ ج ١ رقم ١ ص ٢٣٢) .

(٢) ذكر المقرئ أن السبب في زر الستور ، أن الخلفاء الفاطميين لم يكونوا كسائر الخطباء يرتجلون خطبهم ، بل كانت تعد لهذا الغرض خاصة في ديوان الانشاء ، كما كان سبب كتابة آيات من القرآن بتحيوط حريرية حمراء ظاهرة ، على سترين يوضان على جانبي الخليفة (أحدهما على يمينه ليقرأ ما فيه في الركعة الأولى ، والآخر على يساره ليقرأ ما فيه كذلك في الركعة الثانية) ، هو حفظه من النسيان أو التلعثم حال إقامة الصلاة .

(٣) ذكر المقرئ (خطط ج ٢ ص ٢٨١) أنه إذا لم يكن الوزير صاحب السيف ، فإن قاضي القضاة هو الذي يزر السترين .

(٤) سورة ٢٧ آية ١٩

(٥) سورة ٧ آية ١٨٨

القضاة وداعى الدعاة^(١) عن يساره ، وحرسه الخاص ؛ ويعود بموكبه إلى مقره على الهيئة التي اتخذها في ذهابه إلى الجامع .

.. وفي أيام الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان ، كانت تزدان الدور والجوانيت والأسواق التي يمر بها الخليفة في طريقه إلى الجامع - حيث يصلى الجمعة - كما كان يصطف كثير من الناس على جانبي الطريق^(٢) .

٨ - الأعياد والولائم

(١) الأعياد

كانت هناك عدا مواكب الخلفاء الملكية أيام السبت والثلاثاء ، وأيام الجمع ، ويومى عيد الفطر والأضحى ، أيام دينية أخرى ذكرنا بعضها من قبل . وكان من اللازم ، ليكون لهذه الاحتفالات أثرها العظيم في النفوس ، أن تقام أسمطة في قصور متعددة ، وأن توزع الانعامات بمقادير وافية . وفيما يأتى بيان بأسماء الأعياد التي كان يحتفل بها الفاطميون . وسنشير إلى بعضها في كلامنا عن الأسمطة .

وهذه الأعياد هي :

- ١ - رأس السنة ٢ - أول العام ٣ - يوم عاشوراء (وهو يوم مقتل الحسين)
- ٤ - مولد النبي صلى الله عليه وسلم (١٢ ربيع الأول) ٥ - مولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه
- ٦ - مولد الحسن عليه السلام ٧ - مولد الحسين عليه السلام ٨ - مولد فاطمة عليها السلام
- ٩ - مولد الخليفة الحاضر ١٠ - ليلة أول رجب ١١ - ليلة نصف رجب ١٢ - ليلة أول شعبان ١٣ - ليلة نصف شعبان^(٣) ١٤ - موسم ليلة رمضان ١٥ - غرة رمضان

(١) ذكر أبو المحاسن عن ابن عبد الظاهر أن داعى الدعاة كان يتبع قاضى القضاة إذا لم يكن قاضى القضاة هو داعى

الدعاة .

(٢) القلقشندي (ج ٣ ص ٥٠٩ - ٥١٢) والمقرئى (خطوط ج ٢ ص ٢٨٠ - ٢٨١) .

(٣) كانت تسمى هذه الليالى الأربع الأخيرة لبالى الوقود .

١٦ - جبر الخليج ١٧ - يوم النوروز^(١) ١٨ - يوم الفطاس ١٩ - يوم الميلاذ
٢٠ - عيد النصر^(٢) ٢١ - خميس العهد^(٣) .

(١) كان النوروز من المواسم القديمة . اتخذ الفرس لإحياء العام الجديد ، وهو أول أيام السنة عندهم ؛ ويقع عند الاعتدال الربيعي ودخول الشمس في برج الحمل ، أي عند ابتداء فصل الربيع . ولقد سن ملوك خراسان سنة جديدة ، فاتخذوا هذا اليوم موسماً يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف ، وفيه يحتفلون بعيد النوروز . وأول من اتخذ هذا اليوم - على ما ذكره البيروني (ص ٢٠٠ و ٢٠١) - هو جشم شيد ، وهو - كما يقول الأستاذ براون في كتابه "تاريخ الفرس الأدبي" (Prof. Browne: Literary History of Persia, Vol. I, pp. 114, 259) - قلاع من بعض المصادر العربية - سليمان بن داود (يظهر أن هذه الفكرة أتت للأستاذ براون عن بعض المؤرخين كسكويه ج ٢ ص ٢٥ و ٢٤٨ و ٤٠٧ و ٤٩٩ والبيروني ص ١٩٩ و ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٥٨ والمقرئزي خطط ج ١ ص ٤٩٤) . وقد أطل المسلوب الاحتفال بهذا العيد في بلاد الفرس بعد الفتح الإسلامي ؛ غير أنه عاد في الصدر الأول من أيام العباسيين . ويقول البيروني (طبعة سناو Sachau ص ٣٧) أن إبطال نظام النوروز القديم أضر ضرراً بليغاً بالمزارعين ، لأن التقويم الجديد قدم يوم النوروز ، فكان يحى والزرع أخضر ، في الوقت الذي يجب أن تدفع فيه الضرائب .

ويستطرد البيروني في الكلام حتى يذكر أن الملوك اجتمعوا في عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ و ٧٢٤ - ٧٤٣ م) وشكوا إلى عامله خالد بن عبد الله القسري ، وشروا له ما يجحدونه من الصعاب ، وسألوه أن يؤخر النوروز شهراً ؛ فأبى وكتب إلى هشام بذلك ، فأجاب : إني أخاف أن يكون هذا من قوله (إنما النسيء زيادة في الكفر) (سورة ٩ آية ٣٧) . واستمرت الحال كذلك إلى أن جاء هارون الرشيد ، فاجتمع الملوك ثانية وشكوا إلى يحيى بن خالد البرمكي ، وسألوه أن يؤخر النوروز نحو شهرين . فهم يحيى بإجابة طلبهم ، ولكن أعداءه أخذوا يرمونه بالتعصب للجوسية ؛ فعدل عن ذلك ، واستمر الحال على ما كان عليه من قبل (البيروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، طبعة سناو ص ٢٧) .

ولما جاء المتوكل العباسي (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ و ٨٤٧ - ٨٦١ م) أمر بتأخير النوروز ، إذ تأثر من شكايه المزارعين حين جمعوا الخراج قبل نضوج الفسلات (انظر إرشاد الأديب لياقوت : ج ٢ ص ١٢٨) . غير أنه لما مات المتوكل وولى المستنصر (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ و ٨٦١ - ٨٦٢ م) أبطل ذلك ، وأمر بجمع الخراج في الوقت الذي كان يجمع فيه أولاً . ولما ولى المعتضد (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ و ٨٦٢ - ٨٦٦ م) أمر بتأخير النوروز من جديد (وكان النوروز في عهده في ٢١ يربيه ، أي قبله في أيام المتوكل ستة عشر يوماً) . انظر مسكويه (ج ٢ ص ٢٥ و ٢٤٨ و ٤٠٧ و ٤٠٧ حاشية ١) ، وابن عساکر (المكتبة الأهلية بباريس ، مخطوط ٥٩٨٦ ، ورقة ١٣٨ أ) .

ويقول البيروني أن الشهور المتضدية كانت تتفق مع الشهور الفارسية التي أولها "فروردین ماه" المقابل لشهر مارس .

أما عن أصل النوروز فيقول البيروني ، أنه يرجع إلى أن سليمان بن داود لما فقد خادمه ذهب عنه ملكه ، ثم رد إليه بعد أربعين يوماً ، فعاد إليه ملكه ، وأنته الملوك وعكفت عليه الطيور . فقالت الفرس "نوروز آمد" ، أي جاء اليوم الجديد . فسعى هذا اليوم النوروز . وأمر سليمان الربيع فخلعه ، ورآه خطاف فقال : "أيها الملك ! إن لي عشا فيه بيضات ، فاعدل لا تحطمها" ؛ فعدل سليمان . ولما نزل على الأرض ثانية ، حمل الخطاف في مقاره ماء ، فرشه بين يدي الملك ، وأهداه رجل جرادة ؛ فذلك أصل رش الماء والهدايا في النوروز (البيروني ص ١٩٩) .

(٢) كان للاحتفال بهذا العيد في ١٦ المحرم علاقة بالخليفة الحافظ ، إذ هو اليوم الذي أطلق فيه سراحه . وذلك أن أباً عليّ أحمد بن الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالي كان - كما تقدم - قد حبس هذا الخليفة وجعله في عزلة عن الناس منذ شهر ذي القعدة سنة ٥٢٤ هـ و ١١٣٠ م (ابن ميسر ص ٧٤ و ٧٥) .

(٣) خميس العهد هو الخميس الذي كان يحتفل النصارى فيه بانجيلهم ؛ وذلك قبل الفصح بثلاثة أيام . وهو أحد الأعياد التي بقيت في عهد الفاطميين مشاركة للصارى في شعورهم الديني . وكان الاحتفال بهذا العيد يتناز بالهدايا التي ينالها كبار الموظفين وغيرهم من الرجال المشهورين . ولفظ "عهد" استبدلت خطأ بلفظ عدس ، واستمر ذلك إلى اليوم (المقرئزي ، خطط ج ١ ص ٩٥) .

(ب) الولائم

كانت الولائم في كثير من الأحيان مظهرا من مظاهر الاحتفال بالأعياد ؛ وكانت تقام في بعض المساجد ، وفي القصر ، وفي دار الوزير . ففي القصر كانت تقام في المكاتب المعروفة بقاعة الذهب حيث يلتئم مجلس الملك . وكان الخليفة المعز الفاطمي أول من سن تلك السنة ؛ واستمر ذلك الى آخر أيام الفاطميين . وكانت الأسمطة لا تتقطع من قاعة الذهب أثناء شهر رمضان وأيام العيدين .

وكان السباط يمد من اليوم الرابع من شهر رمضان الى السادس والعشرين منه . وكان يدعى إلى هذه الولائم قاضي القضاة (وذلك يوم الخميس عادة) والأمراء وغيرهم من رجال الدولة كل بدوره ؛ وكان الوزير وابنه — أو أخوه — وكبير الأمناء يمثلون الخليفة . أما مقادير الأطعمة فكانت من الوفرة بحيث تكفي لياخذ كثير من الناس ما يريدون . وبلغت النقود التي كانت مخصصة لهذه الولائم في ثلاثة وعشرين يوما ٣,٠٠٠ دينار ؛ فيكون متوسط اليوم الواحد ١٣٠ دينارا .

٩ - سباط العيدين

(١) عيد الفطر

لم تكن العناية التي كان يوجهها الفاطميون لأسمطة العيدين بأقل منها في الأسمطة الأخرى . وقد كان يقام يوم عيد الفطر سباطان : أحدهما بعد صلاة الفجر ، والثاني بعد صلاة العيد ؛ وهذا يجلس عليه الخليفة . وكان طول السباط الأول الذي كان يمد في الأيوان (بقاعة الذهب) ٥٠ ذراع (نحو ١٧٥ مترا) ، وعرضه سبعة أذرع (نحو ٤ أمتار) .

أما هذا السباط فكان فيه صحاف ملأى بالفطائر والحلوى . وكان يدعى الناس من كل الطبقات إليه ؛ فيأخذ كل ما يحب ، اذ كانت الأطعمة من الوفرة بحيث كان ما يتبقى من الأطعمة يأخذه العامة الذين كان يسمح لهم بحمله وبيعه . وكان الخليفة يجلس في إحدى النوافذ ليمتع نفسه بهذا المنظر الذي كان مظهرا من مظاهر جوده وكرمه ، كما كان القصد منه أن يملك قلوب الناس .

وفي السماط الذى كان يمد بقاعة الذهب دليل آخر على رغبة الخلفاء الفاطميين فى استرضاء العامة . غير أن أعمال الكرم هذه خفضت من بيت المال كثيرا . ولكن من كان يحسر على مقاومة رغبات الخلفاء ووزرائهم الذين كانوا يرون أن لهذه الأعمال أثرا هاما فى تقوية مركز الفاطميين ، كما أنها كانت تزيد من إجلالهم وحب الشعب لهم ؟

وكان يقام بجانب سرير الملك بقاعة الذهب ديسق مربع ^(١) يجلس عليه الخليفة ، وقد وضعت عليه الصحاف الذهبية والصينية . أما السماط العام فكان من خشب مدهون ؛ وعرضه عشرة أذرع ، وطوله طول القاعة . وكان يزين بالأزهار ذات الرائحة والألوان المختلفة ؛ ويوضع فى طرفى السماط كئتان كبيرتان من الحلوى ، كل منهما على هيئة القصر ترن سبعة عشر قنطارا محلاة بطبقة من الذهب ، وقد مثل فيها بالتواء صور الانسان وغيره من الحيوانات المختلفة ^(٢) .

وقد وصف القلقشندي هذا السماط وصفا شيقا ، وأمدنا ببيان عما كان يستعمل فيه من الأواني . فقد كان يوضع عليه احدى وعشرون جفنة ، فى كل منها واحد وعشرون خروفا ، وثلاثمائة ونحسون من الطير ما بين دجاج وحمام ؛ وكان يوضع فيما بين هذه الجفان صحاف فى كل منها سبع دجاجات . وكانت هذه الصحاف والجفان تحاط بأنواع مختلفة من الفطائر والحلوى ^(٣) .

ومن هذا البيان نعلم أنه كان يقدم فى هذا السماط ٤٣١ خروفا ، وكذا ١٠٨٥٠ ^(٤) ما بين دجاج وحمام ، ومقدار كبير من الحلوى والخبز ونحو ذلك . هذا ، وان الناظر لأول وهلة ليخال أن ما أتى به القلقشندي من قبيل الأساطير ؛ غير أننا نقول ان ذلك لا يبعد تصديقه ، اذا علمنا أنه كان مخصصا لأسمطة العيدين الثلاثة ٤٠٠٠ دينار ^(٥) . وكان يدعى لهذا السماط الوزير الذى كان يجلس عن يسار الخليفة ، ويرتدى حلة خاصة للأكل ؛ كما كان يدعى إليه أيضا الأمراء وكبار الرجال . غير أنه لا يمتثل أن يأكل هؤلاء كل هذا الطعام . لذلك يقول القلقشندي إن ما تبقى

(١) الديسق الخوان من الفضة .

(٢) القلقشندي (ج ٣ ص ٥٢٧ و ٥٢٨) .

(٣) شرحه (ج ٣ ص ٥٢٨) .

(٤) ذكر أبو المحاسن فى بيان آخر أن ما كان يستهلك فى هذا السماط ٢٦٠٥٠ ما بين دجاج وحمام ، هذا ٤٤١

خروفا محمرا (طبعة جوينبول Juynebol ج ٢ ص ٤٧٧) .

(٥) القلقشندي (ج ٣ ص ٥٢٨) .

من هذه المقادير من الأطعمة كان يرسل بعضها الى دور اصحاب الرسوم ، وسائرهما يا كلة غيرهم ممن كان يسمح لهم بحضور السماط . بعد فراغ كبار المدعوين ^(١) .

ولم يكن هذا كل ما كان يقدم من الأطعمة في العيدين . فقد كان يصحب ذلك سماط آخر يدعى دار الوزير ، يدعى اليه كثير من رجال الدولة ، ثم يمنح ما يزيد عن حاجتهم من الأطعمة للعامة ^(٢) .

(ب) عيد الأضحى

كان الخليفة بعد أن يفرغ من صلاة العيد يركب الى المذبح ، حيث يكون الوزير وقاضى القضاة والأستادون وغيرهم في انتظار وصوله . حتى اذا ما وصل ذبح بيده ٣١ ما بين الأبرة والنوق . وفي اليوم الثانى كان يركب للمذبح أيضا ويذبح بيده ٢٧ رأسا ، كما كان يذبح في اليوم الثالث ٢٣ ^(٣) .

وقد وصف لنا القلقشندى ما كان يصنع بلحم أول ذبيحة ، فقال ان لحمها كان يحمر ويقدد ، وتعمل منه شرائح ترسل الى والى المدينة ، فيوزعها على من هناك من الشيعة . أما لحوم سائر الضحايا ، فكان يفرق بعضها على أرباب الرسوم ، ويوزعه قاضى القضاة على طلبة دار العلم وغيرهم ممن كانوا يأوون الى مساجد القاهرة ^(٤) .

(١) القلقشندى (ج ٣ ص ٥١٤) .

(٢) المقرئى خطط (ج ١ ص ٣٨٨) .

(٣) من هذا نرى أن ما كان يذبحه الخليفة هو ٨١ رأسا . وقد ذكر المقرئى في كتابه "المقنى" (مكتبة الجامعة ببلد ، مخطوط ١٣٦٦ ، المجلد الثانى ، ورقة ٢٠٦ ب) أن ما ذبح في عيد سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) كان ٢٥٦١ رأسا ، منها ١١٧ ناقة و ٢٤ بقرة و ٢٠ جاموسة و ٢٤٠٠ كبش . غير أنه لم يبين لنا عدد الحيوانات التى كان يذبحها الخليفة بيده . ومن المحتمل أن يكون قد سقط من عبارة المقرئى لفظ "عدا" ، وبها تكون العبارة "عدا ما يذبحه الخليفة ويذبحه بيده" . واذا جرينا على هذا الزعم ، كان ما يذبحه الخليفة بيده يتراوح بين ثمانين وتسعين رأسا ؛ إذ من المستحيل أن يذبح بيده عددا كبيرا يبلغ ٢٥٦١ رأسا . وما يجدر ملاحظته أن العدد الذى ذكره المقرئى وهو ٢٥٦١ ، كان يذبح في عيد الأضحى وعيد الغدير (غدير خم) معا . والى القارئ نص عبارة المقرئى : "وعدة ما ذبح ستة ست وعشرة ونعمائة في ثلاثة أيام عيد النحر وعيد الغدير ألفان ونعمائة وواحد وستون رأسا ، منها مائة وسبعة وعشرون من النوق ، وأربعة وعشرون بقرة ، وعشرون جاموسة . وهذا [عدا] ما يذبحه الخليفة ويذبحه بيده في مضى العيد في المنحر . ومن الكباش ألفان وأربعمائة" .

(٤) القلقشندى (ج ٣ ص ٥١٥ و ٥١٦) .

١٠ - الأسمطة الأخرى

وكان الاحتفال بالأعياد المختلفة يستلزم إعداد الولائم وتوزيع المأكول والحلوى ، والهبات والعطايا والاحسانات ، وغيرها مما جرى توزيعه عادة .

فقد كان يصنع في عيد مولد النبي صلى الله عليه وسلم عشرون قنطارا من الحلوى ، توضع على ثلثمائة خوان (صينية) ، وتوزع في الأزهر^(١) . وفي الاحتفال بجسر الخليج كان يقام سماط عظيم في سرادق رحب على شاطئ النيل ، على مقربة من المنطرة المعروفة بمنطرة السكره التي كان يجلس فيها الخليفة . وكان يأكل على هذا السماط من يدعوهم الخليفة ومن يتبعهم وعدد كبير ممن كانوا يسرون وراء الموكب^(٢) .

وهكذا كانت مظاهر أوائل الخلفاء الفاطميين الذين كان لهم ولع خاص بالانفاق في هذا السبيل . وقد نهج خلفاؤهم نهجهم وزادوا عليهم في البذخ حتى انتهى حكمهم ؛ وقد كان القصد من ذلك العمل على نجاح أعمالهم السياسية والدينية . وإن في اشتراك جماعات كبيرة في الاحتفال بتلك الأعياد ، وفي الأبهة والعظمة التي كانت تنطق عن نفسها في مواكبهم الملكية ولأئمتهم الفخمة ، وهباتهم الوفيرة من الملابس والنقود والطعام التي ينال منها كل الأهلين تقريبا ، والجماعات الغفيرة التي كانت تجتمع تحت المنطرة وتترقب التيمن بوجه الخليفة المقدس — إن في هذا كله لدليلا محسوسا على مبلغ نجاحهم في سياستهم .

غير أن ذلك النجاح وما يستلزمه صار عبئا ثقيلا على توالي الأيام ، حتى أدى الى سرعة انحلال خلاقهم وسقوطها ؛ وذلك ما سنبينه في الباب التالي . أما تأثير تلك السياسة فقد كان ظاهريا لم يتفد الى قلوب الناس ، بدليل أنهم لما زالت الدولة الفاطمية ، لم يلبثوا أن رجعوا الى مذهبهم السني القديم .

(١) القلقشندي (ج ٣ ص ٥٠٢ و ٥٠٣) .

(٢) شرحه (ج ٣ ص ٥٢٠) .

الباب التاسع

سقوط الفاطميين واسبابه

لما ترك الفاطميون حياتهم الفطرية التي كانت شعارهم في أيامهم الأولى عند ما كانوا يحكون البربر في القيروان ، وانغمسوا في الترف فسكنوا القصور الجميلة بالقاهرة وتمتعوا بكل أنواع اللذات في الحياة ، وكلوا أمور الناس وشئون الدولة الى خدامهم كما فعل قبلهم العباسيون مع مواليتهم . فكان من جراء ذلك أن استأثر الوزراء بمناصب الخلفاء شيئا فشيئا ، حتى كانوا يلقبون بلقب "ملك" ، بينما كان ساداتهم متروين في بيوتهم وقد أصبحوا العوبة في يدهم ، كما أصبح خلفاء العباسيين مثلهم في بغداد .

ومع أن سلطة الخليفة المستنصر ٤٢٧-٤٨٧ هـ (١٠٣٥-١٠٩٤ م) امتدت (في الشطر الأول من عهده) حتى شملت شمال إفريقيا والشام ، لما قام به دعااته الجريئون في الأبراطورية الاسلامية ، حتى كان اسمه يذاع في خطبة الجمعة في الجوامع بين المحيط الأطلسي والبحر الأحمر ، وفي اليمن والحجاز والموصل ، بل وفي حاضرة العباسيين نحوا من سنة - مع هذا كله ، فان قوة الفاطميين كانت قد أخذت في الانحلال ، وأخذ نجم الخلافة الفاطمية في الأفول .

ففي سنة ٤٤٣ هـ رفض أهالي شمال إفريقيا عقائد المذهب الشيعي وفضا نهائيا^(١) ، وتلا ذلك عدم الاعتراف بالخلافة الفاطمية في بلاد العرب لما توفي الصليحي سنة ٤٧٣ هـ^(٢) .

ولقد تولى الوزارة بعد وفاة الوزير اليازوري سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أربعون وزيرا في مدة تسع سنوات ، مما جعل الحروب العنصرية بين الجنود المرتزقة من الأتراك والسودانيين أكثر خطرا وشدة في بعض الأحيان تحت هذا الحكم الضعيف ، وإن كان تقلد بدر الجمالي للوزارة قد وضع حدا ، ولو الى حين ، لهذا الاستبداد العسكري .

(١) ابن ميسر (ص ٦)

(٢) ذكر ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٥ و ٤٦٦) أن الخطبة أقيمت هناك باسم الخليفة المستنصر سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) . ومن أراد الاستزادة ، فليرجع الى ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٥-٤٦٧)

وتدلتنا المباحث التاريخية على أن السبب الحقيقي في سقوط الدولة الفاطمية إنما يرجع الى الحروب الصليبية . وسندين الآن أنه بالرغم من انحلال قوة الفاطميين في الشطر الثاني من حكمهم ، فإن الحروب الصليبية قد عجلت بزوال دولتهم العظيمة التي سيطرت ردحا من الزمن على جميع الولايات الغربية للدولة العباسية الشاسعة الأرجاء . والكلام في هذا الموضوع مبسوط في كتب كثيرة . فقد أمدنا بكثير من المراجع بعض الكتاب الذين عاشوا في أواخر أيام الفاطميين ، أمثال عمارة الينى (+ ٥٥٦٩ هـ و ١١٧٤ م) وأسامة بن منقذ (+ ٥٥٨٤ هـ و ١١٨٨ م) اللذين شهدا ما كان يجري في مصر في هذا العصر ، كما اشتركا في أمور البلاد السياسية والحربية .

وبالرغم مما عسى أن تنهم به رواية هذين الكتاتين في هذا الموضوع لما كانا يتمتعان به من تعضيد الوزراء في مصر ، فالتنا نميل بناء على ما أهدتنا إليه مباحثنا ، الى صدق روايتهما في وصف هذه البلاد قبل زوال الخلافة الفاطمية بقليل .

وهناك كتاب آخرون أمثال وليم الصوري William of Tyre (نسبة الى صور) المتوفى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وأبي صالح الأرمني المتوفى سنة ٦٠٥ — ٦ (١٢٠٨ م) ، وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٣ م) ، وابن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) ، وأبي شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦ م) ، وابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) ، وابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) — ولهم من أعلام التاريخ يؤيدون الرواية السابقة .

١ - حالة مصر منذ عزل رضوان

الى مقتل ابن السلار

لقد أدى انتشار حكومة الأشراف (الحكومة البيروقراطية) في ذلك العصر الى تأليف مؤامرات سرية وأحزاب سياسية ، ومهد السبيل لسقوط الدولة الفاطمية التي مزقتها الانقسام ، فوقع في أيدي المغيرين عليها .

ويقول ستانلي لين بول : "إن أول تدخل لنور الدين في شئون مصر بقوة السيف كان من سعى وزير مخلوع" (١) . غير أن بداية تدخل نور الدين في أمور مصر يرجع عهده إلى أيام الوزير ابن السلار (رمضان سنة ٥٤٤ — محرم سنة ٥٤٨ هـ و ١١٥٠ — ١١٥٣ م) . وكان النزاع المتواصل بين الوزراء المتنافسين والحزبية في الجيش ، سببا في وقوع القلاقل من قبل ذلك في أيام الوزير بهرام الأرمني المسيحي ، الذي كانت تعيينه لكثير من بنى جلدته في مناصب الدولة سببا في إثارة كراهة الناس له ، حتى انتهى الأمر بعزله وعزل ألفين من الأرمن الذين كانوا يستظلون بحمايته ، وقد قضى بقية أيام حياته راهبا (٢) .

وقد خلف بهرام في الوزارة رضوان بن النخشي ، وكان شاعرا وجنديا مقداما ؛ تلقب لأول مرة في العهد الفاطمي بلقب "ملك" ، وصار ذلك من ألقاب الوزراء الفاطميين الذين أتوا بعده . غير أن رضوان لم يلبث أن عزل من الوزارة ، ففر إلى الشام ، وهناك طلب إلى زكي أتابك الموصل مساعدته .

كان رضوان ينوى غزو مصر ؛ ولم يثنه عن ذلك إلا أسامة بن منقذ الذي أوفد إليه من القاهرة واسترضاه بثلاثين ألف دينار ؛ فعدل عن ذلك (٣) ، وجاء إلى القاهرة بعد أن أتمنه الخليفة الحافظ على حياته . ولكن ذلك الخليفة لم يف بعهده ؛ فقد حبسه عشر سنوات تمكن في آخرها من الفرار ؛ ثم جمع له أنصارا كثيرين واستقر في الجامع الأحمر أمام القصر . غير أن جنود الخليفة السودانية هزموا أنصاره ، وشتوا شملهم ثم ظفروا به ؛ فقطعت رأسه كما قطع جسمه إربا ، والتهمة الجند اعتقادا منهم أنهم بذلك يماثلونه في بأسه وشجاعته (٤) .

وبعد يومين من مقتل رضوان توفي الخليفة الحافظ ؛ فنشب النزاع العنيف بين الجند السوداني والجند التركي ، وولى ابنه الظافر — وسنه ست عشرة سنة — الخلافة من بعده ؛ وقد عادت المنازعات بين الوزراء المتنافسين في هذا العهد سيرتها الأولى .

وقد ابتدأ هذا الشاب الأرعن حكمه بطرد الوزير ابن السلار — الذي كان يلقب بالملك العادل — وجعل في الوزارة نجم الدين بن مصال الذي كان مكروها من الأهليين . أما ابن السلار ، فسرعان

(١) Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 80.

(٢) أبو صالح (ص ٨٤) .

(٣) أسامة بن منقذ (ص ٢٢ و ٢٣) .

(٤) شرحه (ص ٢٤) .

ما جمع فرقة من أعيانه المسلمين وسار بهم إلى الجيزة في الرابع عشر من رمضان سنة ٥٤٤ هـ (١١٥٠ م) . وفي اليوم التالي تمكن من الحلول محل منافسه في الوزارة — وكان ذلك أمرا مألوفاً في ذلك الحين — وقد فر عند ما رأى تقدم ابن السلار ، ولم يكن قد مضى عليه في الوزارة أكثر من خمسين يوماً^(١) .

وقد التجأ ابن مصال بعد هزيمته إلى كورة الخوف . وهناك تمكن بما جمعه من أموال الخليفة من حشد قوة كبيرة حوله ؛ ثم استقر في الوجه القبلي ، فتبعه العباس ربيب ابن السلار . وفي مدينة دلاص — الواقعة جنوب الواسطي في الوجه القبلي — التقى الجنندان ؛ فدارت الدائرة على ابن مصال ، وتفرق جنده أيدي سبا ؛ أما هو فقد قتل وحمل رأسه إلى القاهرة . وبهذا استراح ابن السلار من منافسه ، واعترف الخليفة له بالوزارة مرغماً ؛ لكنه ما برح يعمل على الكيد له لطرده من الوزارة^(٢) .

وقد وصف لنا أسامة إحدى المكائد التي كادها له الخليفة الظافر . من ذلك أن جماعة من حرس الخليفة اختبأوا في دار تجاور دار الوزير ، وظلوا حتى انصرف أنصار الوزير في منتصف الليل . غير أن ابن السلار علم بذلك ، وكان معه في داره أسامة بن منقذ ؛ ولذلك فشلت المؤامرة وتشتت جمع المتآمرين^(٣) .

أما ابن السلار فقد أرسل أسامة بن منقذ — وهو مرجعنا في هذا الموضوع — في بعثة إلى الشام ليطلب من نور الدين العون في غزو مدينة طبرية ، فيمنع بذلك غزو الصليبيين مصر ؛ وفي تلك الأثناء يسير الوزير بنفسه إلى فزة وعسقلان^(٤) .

وقد كان معنى هذا الرجاء طبعاً هو تدخل نور الدين في شئون مصر ، أو على الأقل إفهامه أن مصر لم تعد قادرة على أن تقف وحدها في وجه الصليبيين ؛ وذلك ما أتاح أخيراً الفرصة لنور الدين لغزو هذه البلاد .

(١) ذكر ذلك أسامة بن منقذ (ص ٦) . أما الذهبي (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات (Loud) القسم الشرق رقم ٣٠٤ ، ورقة ١١٠٥) وأبو الفدا ، (ج ٣ ص ٢٣) قد ذكرا أنه لم يمتك في الوزارة إلا أربعين يوماً .

(٢) أسامة بن منقذ (ص ٦٥) .

(٣) (شرح ص ٦) .

(٤) (شرح ص ٧) .

ثم سافر أسامة إلى الشام وتقابل مع أسد الدين شيركوه في بصرى^(١) ، ومنها صحبه إلى دمشق . أما نور الدين فقد أبى امتشاق الحسام لمحاربة الصليبيين ، فقد كانوا هم وأهل دمشق أعداءه على السواء ، ورأى أنه يغرب بنفسه إذا دخل في حرب مع أحد الفريقين .

ومع هذا فقد أباح لأسامة أن يجند تحت لوائه أكثر ما يمكن تجنيده من المتطوعين . وقد انضم إليه ثلاثون من حرس نور الدين وأمير من الأكراد ليشترك نور الدين في ذلك اشتراكا فعليا ، فينسب إليه ما قد يحوزه جند أسامة من نصر . وقد حاصر أسامة عسقلان نحو من أربعة أشهر يجند كبير من الغز المرتقة . غير أن قواته اندحرت لعدم ثباتها أمام العدو من جهة ، ولإهمال قائده تنفيذ أوامره من جهة أخرى — كما يقول أسامة نفسه .

وسار أسامة بعد ذلك إلى الجنوب ، ثم جاءته أوامر الوزير ابن السلار فعاد إلى القاهرة من غير أن ينال أى نجاح حربى^(٢) . ومع ذلك فقد كان لطلب أسامة المساعدة من نور الدين نتيجةتان :

الأولى — ظهور مصر بمظهر الضعف وعدم قدرتها على صد هجمات الصليبيين ؛ ومن هنا طمع نور الدين في الاغارة عليها . غير أن عدم اخلاص السوريين له حمله على تأجيل ذلك حتى تتوطد أقدامه في سورية ويقوى أمره .

الثانية — أن الصليبيين أصبحوا على علم تام بحال البلاد المصرية . لهذا كله وقف المتنافسان (نور الدين والصليبيون) بعضهما لبعض بالمرصاد ، وأخذ كل فريق يراقب حركات الفريق الآخر .

أما عن أحوال مصر الداخلية ، فقد كان ابن السلار الذى تلقب بالملك العادل سيف الدين (ذلك اللقب الذى يدل على انضوائه تحت لواء المذهب الفاطمى) سنيا مغاليا . وربما كان ذلك سببا في تدمير الخليفة المكاكيد له حتى يخلص من شره . غير أن ما كان لابن السلار من أنصار كثيرين قد أذن بزوال سلطة الفاطميين الدينية . يضاف إلى هذا أن النزاع الذى كان بين ابن السلار ، وهو كما علمنا من غلاة السنيين ، وبين ابن مبال المغربى الأصل ومن أهالى لك (قرية قريبة من برقة)

(١) يسمى بهذا الاسم موضعان : أحدهما ببلاد الشام ، وهى حاضرة إقليم حوران ، والآخر قرية من أرباض بغداد

(انظر هذا اللفظ في معجم البلدان لياقوت) .

(٢) أسامة بن مقذ (ص ٧-١٣)

كان في الحقيقة نزاعاً بين السنيين والشيعة . وقد كان ابن السلار يطمع في مساعدة نور الدين ، ذلك الرجل السني المتعصب لمذهبه ، لنشر مذهب أهل السنة في مصر بدل مذهب الشيعة ، كما دللنا على ذلك مباحثنا المستفيضة في حياة ابن السلار واليا ووزيرا .

وكان ابن السلار — كما يقول ابن خلكان — من أصل كردى ، ومن قبيلة الزررى^(١) . نشأ في قصر القاهرة وشغل مناصب مختلفة في الوجه القبلى ، وتدرج فيها حتى ولى الوزارة في عهد الخليفة الظافر في رجب سنة ٥٤٣ هـ (نوفمبر — ديسمبر سنة ١١٤٨ م) .

وقد أظهر ابن السلار أخيراً اعتناقه للمذهب السنى ، وصار شافعى المذهب (وهو المذهب الذى كان يتبعه أيضاً أسد الدين شيركوه وصلاح الدين) . ولما ولى الاسكندرية بعد وصول الحافظ السلفى الفقيه الشافعى فى ذى القعدة سنة ٥١١ هـ (مارس سنة ١١١٨ م) ، عامله بكل تجلّة وإكرام ، وأنشأ فى سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) مدرسة للشافعية أسند إليه إدارتها^(٢) . وبهذا هيا ابن السلار السبيل لرجوع المذهب السنى إلى مصر .

وقد اعتمد الخليفة الظافر فى الكيد لابن السلار واغتياله على نصر بن عباس^(٣) ، وهو شاب فى سن الخليفة ومن أخص خواصه ، وكان من أمره أخيراً أن قتل الخليفة والوزير معا .

(١) انظر Quatremère: "Notices sur les Chérdes," in "Notices et Extraits," Vol. XIII, p. 316.

(٢) ابن خلكان (ج ١ ص ٣٧ و ٤٦٧ و ٤٦٨)

(٣) فى سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ — ١١١٠ م) وصلت إلى مصر بلّارة زوجة أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس مع ولدها أبى الفضل عباس بن أبى الفتوح ، وكان طفلاً إذ ذاك . وقد تزوجت بلّارة ابن السلار ، وأقامت معه ودحا من الزمن . وتزوج عباس ، وولده له ولد أسماه نصرا ، قترى فى كنف جدته فى دار ابن السلار الذى جاحه برعايته وعطفه العظيم . ولما شب عباس أنفذه ابن السلار إلى الشام ليشترك فى حرب الصليبيين ، فصحبه أسامة بن منقذ . ولما وصل إلى بليس ليتولى قيادة الجند ، أظهر لأسامة تأله من مغادرة مصر الجميلة ذات المناخ البديع التى تركها لا شئ إلا لمقابلة الأعداء ، كما أظهر له تأله أيضاً من عب الحياة العسكرية .

ويقال إن أسامة أراه حينئذ أنه فى مكنته أن يتجنب كل هذا بقتل ابن السلار ، وتقلده الوزارة بدله . وقد اتفق بعد ذلك أسامة وعباس فىا بينهما على أن يقوم نصر بتنفيذ ذلك المشروع الشائن ؛ ويمكن نصر من قتل ابن السلار وهو نائم فى سريره فى المحرم سنة ٥٤٨ هـ (أبريل سنة ١١٥٣ م) — جاء فى ابن خلكان (ج ١ ص ٤٦٨) والمقرئى (خطط ج ٢ ص ٤٤٧) أن جلة نصر بلّارة (بالوا) انظر أيضاً ابن ميسر (ص ٩٢)

ذكر أسامة (ص ١٣) أن نصرا عاد إلى القاهرة بعد أيام قليلة من سفره إلى بليس مع والده عباس بدون إذن الوزير ابن السلار ، الذى أمره بالرجوع ثانياً إلى الجيش والاشتراك فى الفزاة .

وكأنت الوزير يعتقد أن نصرا إنما عاد إلى القاهرة سعياً وراء أهوائه ؛ لكن الحقيقة أنه أرسل باتفاق أبيه لاغتيال الوزير، فكان له ما أراد بفضل ما لقيه من تعصب الخليفة . وقد دخل عباس القاهرة غداة مقتل الوزير وتقلد الوزارة ، وخلع عليه الخليفة (شرحه ص ١٣ و ١٤) .

٢ - مقتل الخليفة الظافر

لقد صدق لين بول في قوله "أن مقتل ابن السلار بيد حفيد زوجته نصر، وما تبعه من مقتل الخليفة بنفس هذه اليد الأثيمة، يعتبر من أخفى حوادث التاريخ في مصر." ويقص علينا ذلك أسامة بن منقذ، ذلك الرجل العظيم الذي اعتاد الصيد مع رجال بلاط الخليفة، وكان صديقا حميا وضييفا لابن السلار. وكان مع هذا من الذين دبوا أمر اغتياله.

وقد وضع الخليفة الذي تملكه الفرحة لمقتل ابن السلار، رأس القتيل في بيت المال، ونفخ قاتله بعشرين صخرة فيها ٢٠,٠٠٠ دينار، وحرضه على قتل أبيه بعد ذلك. لكن عباسا استشعر الخطر، فأعد العدة ليسم ابنه. وقد كان لتدخل أسامة بين نصر وأبيه أثر في اصلاح ما بينهما، اذ وعد نصر بأن يقتل الخليفة اذا زاره في داره.

وفي اليوم التالي بينما كان أسامة جالسا في الدهليز، اذ سمع صليل السيوف. ذلك أن صديقه عباسا ذهب الى القصر يصحبه ألف سيف من أتباعه متظاهرين بالاستفسار عن الخليفة. ولما علم عباس بقتله، أخذ في قتل أخوة الخليفة واتهمهم بأن لهم يدا في الجريمة^(١).

أثار قتل الخليفة أهالي القاهرة؛ فنشبت المعارك في طرقات المدينة وأخذ النسوة والأطفال يرجون أتباع الوزير بالحجارة من نوافذ دورهم. ولم يلبث هؤلاء الأعوان أن اعتزلوه. ولم يكن لعباس طاقة بمقاومة سخط الأهلين وثورة انتقامهم، ففر هو وابنه الى سورية^(٢). غير أنه لقي حتفه بغتة في طريقه على يد جماعة من الفرنجة أرسلتهم أخت الخليفة الظافر في اثره (ربيع الأول سنة ٥٤٩ و١١٥٤م). أما نصر ابنة فقد باعه الفرنجة في عسقلان، وأرسل إلى القاهرة (ربيع الأول سنة ٥٥٠) في قفص من حديد. فعذبته نساء البلاط وطيف به في المدينة بعد أن جُدع أنفه وصُلِمت أذناه، وصلب حيا على باب زويلة، وترك معلقا هناك شهورا كثيرة^(٣)؛ ثم أحرقت جثته في العاشر من المحرم سنة ٥٥١ (١١٥٦م)^(٤).

(١) أسامة بن منقذ (ص ١٦ - ١٨)

(٢) من أراد التفصيل فليظر أسامة بن منقذ (ص ١٩ وما يتبعها).

(٣) أسامة بن منقذ (ص ٢٠٠١٩)

(٤) ابن خلكان (ج ١ ص ٥٠٠)

ترك الخليفة المقتول طفلاً في الرابعة من عمره ؛ فدعى له بالخلافة وتلقب بالفائز سنة ٥٤٩ هـ . وكاد هذا الطفل يموت روعاً يوم استخلافه . وقد قص نساء القصر شعورهن لما راعهن من قتل الخليفة حدادا عليه ، ثم أرسلوها الى الأمير طلائع بن رزّيك وإلى الأشمونين ، "وذلك أقصى ما يمكن في التوسل عند المرأة المسلمة" ،^(١) وتضرعن اليه أن ينجي لتخليصهن .

ولما وصل هذا التوسل إلى رزّيك سار الى القاهرة . ولما قاربها جعل الشعور في رأس رجه واستولى على دار المأمون (قصر عباس^(٢)) .

وقد دفن جثمان الخليفة المقتول مع آبائه في وسط مظاهر الحداد العام ؛ وأخذ الوزير ابن رزّيك في إرجاع الأمن الى نصابه ومعاقبة الجناة ، وقتل القواد المناوئين الذين حل الدمار في أيامهم بالقاهرة سنين كثيرة ، وأعاد عصر سيادة القانون^(٣) .

وكان ابن رزّيك — الذي تلقب بالملك الصالح — قوى الشكيمة ؛ فكان هو الرجل الذي تحتاج اليه مصر في ذلك الحين . أما تلك المأساة فقد أفقدت الفاطميين عسقلان آخر ممتلكاتهم في فلسطين ، التي استولى الصليبيون عليها وقد دب التنافس بين الأحزاب في مصر ، إذ تركت من غير حامية بعد عودة عباس على أثر مقتل ابن السلار . وبذلك سقط في أيدي الصليبيين آخر حصن للفاطميين في هذه الولاية سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٣ م)^(٤) .

أما الصليبيون فلم يستمروا في سيرهم الى مصر ، إذ فت في عضدهم وزعزع ملكهم في بيت المقدس نداء قوى البلاد المتناحمة لها ، وفشل الحملة الصليبية الثانية تحت قيادة كُنْراد Conrad ولويس السابع ، واستخلاف نور الدين على عرش الشام واستقرار أمره في حلب شمالاً ودمشق شرقاً ، وقد تلقب ببطل الاسلام وقوى أمره بضم دمشق اليه سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٤ م) ، وكان في حلف دفاعي مع الصليبيين^(٥)

(١) (Lane-Poole: History of Egypt in the Middle Ages, p. 173).

(٢) هذا القصر بناه الوزير المأمون ، وبحول فما بعد على يد صلاح الدين الى مدرسة للأحناف ، وتعرف بالمدرسة

السلفية .

(٣) ابن ميسر (ص ٩٤) وابن خلكان (ج ١ ص ٢٩٨) وما يتبعها .

(٤) ابن ميسر (ص ٨٦)

انظر (Prof. Margolionth : Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 36).

(٥) ابن الأثير (ج ١١ ص ٤٦)

وقد قُتل الوزير طلائع بن رزيك (رمضان سنة ٥٥٦ هـ و ١١٦١) بدسيسة صهره (زوج ابنته) الخليفة العاضد ، الذي زالت الخلافة الفاطمية في أيامه ، وانتقص هذا الوزير سلطته من أطرافها . وقد كان لمقتله ضجة في القاهرة . وهنا يجمل أن نأتى بما أمدنا به عمارة البني ، وكان شاهد عيان لما حدث في مصر في عهد الخليفين الأخيرين من الخلفاء الفاطميين .

لقد نصح ابن رزيك وهو على فراش الموت ابنه أبا شجاع العادل أن يحذر شاور ويتجنب خلعه من منصبه . وقد دلت الأيام على أن تلك النصيحة كانت لخير ابنه . كان شاور عربي الأصل ، اتصل بابن رزيك ونال حظوة لديه ؛ فولاه الصعيد ، وغدا مركزه من الخطر بحيث لم يجرؤ ابن رزيك على عزله من منصبه . فلما توفي ابن رزيك خلفه ابنه العادل في الوزارة ؛ غير أنه لم يكد يأتى عليه عام في الوزارة حتى خلعه شاور وقتله ابنه طي بن شاور في ٢٢ المحرم سنة ٥٥٨ هـ (يناير سنة ١١٦٣ م) .

وصار شاور بفعلته هذه غير محبوب من الناس ، مما سهل لانصار سلفه الاجتماع على الكيد له وخلعه من الوزارة . وكان من مظاهر خرق شاور في سياسته أن أطلق لابنه طي عنان التدخل في شؤون الدولة . ولم تقتصر أعماله السيئة على بني رزيك ، بل تناول أذاها الأهلين عامة ؛ فاستثار شاور بذلك — كما يقول عمارة — بغض الناس (١) .

ويقول أبو شامة في عرض كلامه على مقتل العادل بن رزيك ، أن طي بن شاور هو الذي فعل تلك الفعلة دون رضى أبيه . ويقول ابن أبي طي (٢) الذي نقل عنه أبو شامة ذلك : " أشار

(١) عمارة البني ، كتاب "التكت المصرية" ، (ص ٨٨)

(٢) اسمه يحيى بن حمدة (أوحامد كما في رواية أخرى) ، ويكنى بابن أبي طي . وأصله من حلب ، وتوفي — كما يروى حاجي خليفة (رقم ٢٠٢ و ٢٠٧) — سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ — ١٢٣٣ م) . وكان والده أحد أشراف بلده ، وطرده نور الدين لخروجه في آرائه على الدين . ومن المحتمل أن يكون قد اعتنق العقائد الشيعية التي كان الفاطميون يجحدون في نشرها في البلاد السورية ؛ وأما ابنه يحيى فقد اعتنق تلك العقائد ؛ فريد هذا كتابه "معجم شعراء الشيعة" و"رسالة في فضائل الأئمة الاثني عشرية" . وقد أتى على مؤلفات ابن أبي طي في السير والتواريخ حاجي خليفة (رقم ٢٠٢ و ٢٠٧ و ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٢٢ و ٢٢٣ و ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٢ و ٢٣٣ و ٢٣٤ و ٢٣٥ و ٢٣٦ و ٢٣٧ و ٢٣٨ و ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٤١ و ٢٤٢ و ٢٤٣ و ٢٤٤ و ٢٤٥ و ٢٤٦ و ٢٤٧ و ٢٤٨ و ٢٤٩ و ٢٥٠ و ٢٥١ و ٢٥٢ و ٢٥٣ و ٢٥٤ و ٢٥٥ و ٢٥٦ و ٢٥٧ و ٢٥٨ و ٢٥٩ و ٢٦٠ و ٢٦١ و ٢٦٢ و ٢٦٣ و ٢٦٤ و ٢٦٥ و ٢٦٦ و ٢٦٧ و ٢٦٨ و ٢٦٩ و ٢٧٠ و ٢٧١ و ٢٧٢ و ٢٧٣ و ٢٧٤ و ٢٧٥ و ٢٧٦ و ٢٧٧ و ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨٠ و ٢٨١ و ٢٨٢ و ٢٨٣ و ٢٨٤ و ٢٨٥ و ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٨٨ و ٢٨٩ و ٢٩٠ و ٢٩١ و ٢٩٢ و ٢٩٣ و ٢٩٤ و ٢٩٥ و ٢٩٦ و ٢٩٧ و ٢٩٨ و ٢٩٩ و ٣٠٠ و ٣٠١ و ٣٠٢ و ٣٠٣ و ٣٠٤ و ٣٠٥ و ٣٠٦ و ٣٠٧ و ٣٠٨ و ٣٠٩ و ٣١٠ و ٣١١ و ٣١٢ و ٣١٣ و ٣١٤ و ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٧ و ٣١٨ و ٣١٩ و ٣٢٠ و ٣٢١ و ٣٢٢ و ٣٢٣ و ٣٢٤ و ٣٢٥ و ٣٢٦ و ٣٢٧ و ٣٢٨ و ٣٢٩ و ٣٣٠ و ٣٣١ و ٣٣٢ و ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٥ و ٣٣٦ و ٣٣٧ و ٣٣٨ و ٣٣٩ و ٣٤٠ و ٣٤١ و ٣٤٢ و ٣٤٣ و ٣٤٤ و ٣٤٥ و ٣٤٦ و ٣٤٧ و ٣٤٨ و ٣٤٩ و ٣٥٠ و ٣٥١ و ٣٥٢ و ٣٥٣ و ٣٥٤ و ٣٥٥ و ٣٥٦ و ٣٥٧ و ٣٥٨ و ٣٥٩ و ٣٦٠ و ٣٦١ و ٣٦٢ و ٣٦٣ و ٣٦٤ و ٣٦٥ و ٣٦٦ و ٣٦٧ و ٣٦٨ و ٣٦٩ و ٣٧٠ و ٣٧١ و ٣٧٢ و ٣٧٣ و ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٧٦ و ٣٧٧ و ٣٧٨ و ٣٧٩ و ٣٨٠ و ٣٨١ و ٣٨٢ و ٣٨٣ و ٣٨٤ و ٣٨٥ و ٣٨٦ و ٣٨٧ و ٣٨٨ و ٣٨٩ و ٣٩٠ و ٣٩١ و ٣٩٢ و ٣٩٣ و ٣٩٤ و ٣٩٥ و ٣٩٦ و ٣٩٧ و ٣٩٨ و ٣٩٩ و ٤٠٠ و ٤٠١ و ٤٠٢ و ٤٠٣ و ٤٠٤ و ٤٠٥ و ٤٠٦ و ٤٠٧ و ٤٠٨ و ٤٠٩ و ٤١٠ و ٤١١ و ٤١٢ و ٤١٣ و ٤١٤ و ٤١٥ و ٤١٦ و ٤١٧ و ٤١٨ و ٤١٩ و ٤٢٠ و ٤٢١ و ٤٢٢ و ٤٢٣ و ٤٢٤ و ٤٢٥ و ٤٢٦ و ٤٢٧ و ٤٢٨ و ٤٢٩ و ٤٣٠ و ٤٣١ و ٤٣٢ و ٤٣٣ و ٤٣٤ و ٤٣٥ و ٤٣٦ و ٤٣٧ و ٤٣٨ و ٤٣٩ و ٤٤٠ و ٤٤١ و ٤٤٢ و ٤٤٣ و ٤٤٤ و ٤٤٥ و ٤٤٦ و ٤٤٧ و ٤٤٨ و ٤٤٩ و ٤٥٠ و ٤٥١ و ٤٥٢ و ٤٥٣ و ٤٥٤ و ٤٥٥ و ٤٥٦ و ٤٥٧ و ٤٥٨ و ٤٥٩ و ٤٦٠ و ٤٦١ و ٤٦٢ و ٤٦٣ و ٤٦٤ و ٤٦٥ و ٤٦٦ و ٤٦٧ و ٤٦٨ و ٤٦٩ و ٤٧٠ و ٤٧١ و ٤٧٢ و ٤٧٣ و ٤٧٤ و ٤٧٥ و ٤٧٦ و ٤٧٧ و ٤٧٨ و ٤٧٩ و ٤٨٠ و ٤٨١ و ٤٨٢ و ٤٨٣ و ٤٨٤ و ٤٨٥ و ٤٨٦ و ٤٨٧ و ٤٨٨ و ٤٨٩ و ٤٩٠ و ٤٩١ و ٤٩٢ و ٤٩٣ و ٤٩٤ و ٤٩٥ و ٤٩٦ و ٤٩٧ و ٤٩٨ و ٤٩٩ و ٥٠٠ و ٥٠١ و ٥٠٢ و ٥٠٣ و ٥٠٤ و ٥٠٥ و ٥٠٦ و ٥٠٧ و ٥٠٨ و ٥٠٩ و ٥١٠ و ٥١١ و ٥١٢ و ٥١٣ و ٥١٤ و ٥١٥ و ٥١٦ و ٥١٧ و ٥١٨ و ٥١٩ و ٥٢٠ و ٥٢١ و ٥٢٢ و ٥٢٣ و ٥٢٤ و ٥٢٥ و ٥٢٦ و ٥٢٧ و ٥٢٨ و ٥٢٩ و ٥٣٠ و ٥٣١ و ٥٣٢ و ٥٣٣ و ٥٣٤ و ٥٣٥ و ٥٣٦ و ٥٣٧ و ٥٣٨ و ٥٣٩ و ٥٤٠ و ٥٤١ و ٥٤٢ و ٥٤٣ و ٥٤٤ و ٥٤٥ و ٥٤٦ و ٥٤٧ و ٥٤٨ و ٥٤٩ و ٥٥٠ و ٥٥١ و ٥٥٢ و ٥٥٣ و ٥٥٤ و ٥٥٥ و ٥٥٦ و ٥٥٧ و ٥٥٨ و ٥٥٩ و ٥٦٠ و ٥٦١ و ٥٦٢ و ٥٦٣ و ٥٦٤ و ٥٦٥ و ٥٦٦ و ٥٦٧ و ٥٦٨ و ٥٦٩ و ٥٧٠ و ٥٧١ و ٥٧٢ و ٥٧٣ و ٥٧٤ و ٥٧٥ و ٥٧٦ و ٥٧٧ و ٥٧٨ و ٥٧٩ و ٥٨٠ و ٥٨١ و ٥٨٢ و ٥٨٣ و ٥٨٤ و ٥٨٥ و ٥٨٦ و ٥٨٧ و ٥٨٨ و ٥٨٩ و ٥٩٠ و ٥٩١ و ٥٩٢ و ٥٩٣ و ٥٩٤ و ٥٩٥ و ٥٩٦ و ٥٩٧ و ٥٩٨ و ٥٩٩ و ٦٠٠ و ٦٠١ و ٦٠٢ و ٦٠٣ و ٦٠٤ و ٦٠٥ و ٦٠٦ و ٦٠٧ و ٦٠٨ و ٦٠٩ و ٦١٠ و ٦١١ و ٦١٢ و ٦١٣ و ٦١٤ و ٦١٥ و ٦١٦ و ٦١٧ و ٦١٨ و ٦١٩ و ٦٢٠ و ٦٢١ و ٦٢٢ و ٦٢٣ و ٦٢٤ و ٦٢٥ و ٦٢٦ و ٦٢٧ و ٦٢٨ و ٦٢٩ و ٦٣٠ و ٦٣١ و ٦٣٢ و ٦٣٣ و ٦٣٤ و ٦٣٥ و ٦٣٦ و ٦٣٧ و ٦٣٨ و ٦٣٩ و ٦٤٠ و ٦٤١ و ٦٤٢ و ٦٤٣ و ٦٤٤ و ٦٤٥ و ٦٤٦ و ٦٤٧ و ٦٤٨ و ٦٤٩ و ٦٥٠ و ٦٥١ و ٦٥٢ و ٦٥٣ و ٦٥٤ و ٦٥٥ و ٦٥٦ و ٦٥٧ و ٦٥٨ و ٦٥٩ و ٦٦٠ و ٦٦١ و ٦٦٢ و ٦٦٣ و ٦٦٤ و ٦٦٥ و ٦٦٦ و ٦٦٧ و ٦٦٨ و ٦٦٩ و ٦٧٠ و ٦٧١ و ٦٧٢ و ٦٧٣ و ٦٧٤ و ٦٧٥ و ٦٧٦ و ٦٧٧ و ٦٧٨ و ٦٧٩ و ٦٨٠ و ٦٨١ و ٦٨٢ و ٦٨٣ و ٦٨٤ و ٦٨٥ و ٦٨٦ و ٦٨٧ و ٦٨٨ و ٦٨٩ و ٦٩٠ و ٦٩١ و ٦٩٢ و ٦٩٣ و ٦٩٤ و ٦٩٥ و ٦٩٦ و ٦٩٧ و ٦٩٨ و ٦٩٩ و ٧٠٠ و ٧٠١ و ٧٠٢ و ٧٠٣ و ٧٠٤ و ٧٠٥ و ٧٠٦ و ٧٠٧ و ٧٠٨ و ٧٠٩ و ٧١٠ و ٧١١ و ٧١٢ و ٧١٣ و ٧١٤ و ٧١٥ و ٧١٦ و ٧١٧ و ٧١٨ و ٧١٩ و ٧٢٠ و ٧٢١ و ٧٢٢ و ٧٢٣ و ٧٢٤ و ٧٢٥ و ٧٢٦ و ٧٢٧ و ٧٢٨ و ٧٢٩ و ٧٣٠ و ٧٣١ و ٧٣٢ و ٧٣٣ و ٧٣٤ و ٧٣٥ و ٧٣٦ و ٧٣٧ و ٧٣٨ و ٧٣٩ و ٧٤٠ و ٧٤١ و ٧٤٢ و ٧٤٣ و ٧٤٤ و ٧٤٥ و ٧٤٦ و ٧٤٧ و ٧٤٨ و ٧٤٩ و ٧٥٠ و ٧٥١ و ٧٥٢ و ٧٥٣ و ٧٥٤ و ٧٥٥ و ٧٥٦ و ٧٥٧ و ٧٥٨ و ٧٥٩ و ٧٦٠ و ٧٦١ و ٧٦٢ و ٧٦٣ و ٧٦٤ و ٧٦٥ و ٧٦٦ و ٧٦٧ و ٧٦٨ و ٧٦٩ و ٧٧٠ و ٧٧١ و ٧٧٢ و ٧٧٣ و ٧٧٤ و ٧٧٥ و ٧٧٦ و ٧٧٧ و ٧٧٨ و ٧٧٩ و ٧٨٠ و ٧٨١ و ٧٨٢ و ٧٨٣ و ٧٨٤ و ٧٨٥ و ٧٨٦ و ٧٨٧ و ٧٨٨ و ٧٨٩ و ٧٩٠ و ٧٩١ و ٧٩٢ و ٧٩٣ و ٧٩٤ و ٧٩٥ و ٧٩٦ و ٧٩٧ و ٧٩٨ و ٧٩٩ و ٨٠٠ و ٨٠١ و ٨٠٢ و ٨٠٣ و ٨٠٤ و ٨٠٥ و ٨٠٦ و ٨٠٧ و ٨٠٨ و ٨٠٩ و ٨١٠ و ٨١١ و ٨١٢ و ٨١٣ و ٨١٤ و ٨١٥ و ٨١٦ و ٨١٧ و ٨١٨ و ٨١٩ و ٨٢٠ و ٨٢١ و ٨٢٢ و ٨٢٣ و ٨٢٤ و ٨٢٥ و ٨٢٦ و ٨٢٧ و ٨٢٨ و ٨٢٩ و ٨٣٠ و ٨٣١ و ٨٣٢ و ٨٣٣ و ٨٣٤ و ٨٣٥ و ٨٣٦ و ٨٣٧ و ٨٣٨ و ٨٣٩ و ٨٤٠ و ٨٤١ و ٨٤٢ و ٨٤٣ و ٨٤٤ و ٨٤٥ و ٨٤٦ و ٨٤٧ و ٨٤٨ و ٨٤٩ و ٨٥٠ و ٨٥١ و ٨٥٢ و ٨٥٣ و ٨٥٤ و ٨٥٥ و ٨٥٦ و ٨٥٧ و ٨٥٨ و ٨٥٩ و ٨٦٠ و ٨٦١ و ٨٦٢ و ٨٦٣ و ٨٦٤ و ٨٦٥ و ٨٦٦ و ٨٦٧ و ٨٦٨ و ٨٦٩ و ٨٧٠ و ٨٧١ و ٨٧٢ و ٨٧٣ و ٨٧٤ و ٨٧٥ و ٨٧٦ و ٨٧٧ و ٨٧٨ و ٨٧٩ و ٨٨٠ و ٨٨١ و ٨٨٢ و ٨٨٣ و ٨٨٤ و ٨٨٥ و ٨٨٦ و ٨٨٧ و ٨٨٨ و ٨٨٩ و ٨٩٠ و ٨٩١ و ٨٩٢ و ٨٩٣ و ٨٩٤ و ٨٩٥ و ٨٩٦ و ٨٩٧ و ٨٩٨ و ٨٩٩ و ٩٠٠ و ٩٠١ و ٩٠٢ و ٩٠٣ و ٩٠٤ و ٩٠٥ و ٩٠٦ و ٩٠٧ و ٩٠٨ و ٩٠٩ و ٩١٠ و ٩١١ و ٩١٢ و ٩١٣ و ٩١٤ و ٩١٥ و ٩١٦ و ٩١٧ و ٩١٨ و ٩١٩ و ٩٢٠ و ٩٢١ و ٩٢٢ و ٩٢٣ و ٩٢٤ و ٩٢٥ و ٩٢٦ و ٩٢٧ و ٩٢٨ و ٩٢٩ و ٩٣٠ و ٩٣١ و ٩٣٢ و ٩٣٣ و ٩٣٤ و ٩٣٥ و ٩٣٦ و ٩٣٧ و ٩٣٨ و ٩٣٩ و ٩٤٠ و ٩٤١ و ٩٤٢ و ٩٤٣ و ٩٤٤ و ٩٤٥ و ٩٤٦ و ٩٤٧ و ٩٤٨ و ٩٤٩ و ٩٥٠ و ٩٥١ و ٩٥٢ و ٩٥٣ و ٩٥٤ و ٩٥٥ و ٩٥٦ و ٩٥٧ و ٩٥٨ و ٩٥٩ و ٩٦٠ و ٩٦١ و ٩٦٢ و ٩٦٣ و ٩٦٤ و ٩٦٥ و ٩٦٦ و ٩٦٧ و ٩٦٨ و ٩٦٩ و ٩٧٠ و ٩٧١ و ٩٧٢ و ٩٧٣ و ٩٧٤ و ٩٧٥ و ٩٧٦ و ٩٧٧ و ٩٧٨ و ٩٧٩ و ٩٨٠ و ٩٨١ و ٩٨٢ و ٩٨٣ و ٩٨٤ و ٩٨٥ و ٩٨٦ و ٩٨٧ و ٩٨٨ و ٩٨٩ و ٩٩٠ و ٩٩١ و ٩٩٢ و ٩٩٣ و ٩٩٤ و ٩٩٥ و ٩٩٦ و ٩٩٧ و ٩٩٨ و ٩٩٩ و ١٠٠٠ و ١٠٠١ و ١٠٠٢ و ١٠٠٣ و ١٠٠٤ و ١٠٠٥ و ١٠٠٦ و ١٠٠٧ و ١٠٠٨ و ١٠٠٩ و ١٠١٠ و ١٠١١ و ١٠١٢ و ١٠١٣ و ١٠١٤ و ١٠١٥ و ١٠١٦ و ١٠١٧ و ١٠١٨ و ١٠١٩ و ١٠٢٠ و ١٠٢١ و ١٠٢٢ و ١٠٢٣ و ١٠٢٤ و ١٠٢٥ و ١٠٢٦ و ١٠٢٧ و ١٠٢٨ و ١٠٢٩ و ١٠٣٠ و ١٠٣١ و ١٠٣٢ و ١٠٣٣ و ١٠٣٤ و ١٠٣٥ و ١٠٣٦ و ١٠٣٧ و ١٠٣٨ و ١٠٣٩ و ١٠٤٠ و ١٠٤١ و ١٠٤٢ و ١٠٤٣ و ١٠٤٤ و ١٠٤٥ و ١٠٤٦ و ١٠٤٧ و ١٠٤٨ و ١٠٤٩ و ١٠٥٠ و ١٠٥١ و ١٠٥٢ و ١٠٥٣ و ١٠٥٤ و ١٠٥٥ و ١٠٥٦ و ١٠٥٧ و ١٠٥٨ و ١٠٥٩ و ١٠٦٠ و ١٠٦١ و ١٠٦٢ و ١٠٦٣ و ١٠٦٤ و ١٠٦٥ و ١٠٦٦ و ١٠٦٧ و ١٠٦٨ و ١٠٦٩ و ١٠٧٠ و ١٠٧١ و ١٠٧٢ و ١٠٧٣ و ١٠٧٤ و ١٠٧٥ و ١٠٧٦ و ١٠٧٧ و ١٠٧٨ و ١٠٧٩ و ١٠٨٠ و ١٠٨١ و ١٠٨٢ و ١٠٨٣ و ١٠٨٤ و ١٠٨٥ و ١٠٨٦ و ١٠٨٧ و ١٠٨٨ و ١٠٨٩ و ١٠٩٠ و ١٠٩١ و ١٠٩٢ و ١٠٩٣ و ١٠٩٤ و ١٠٩٥ و ١٠٩٦ و ١٠٩٧ و ١٠٩٨ و ١٠٩٩ و ١١٠٠ و ١١٠١ و ١١٠٢ و ١١٠٣ و ١١٠٤ و ١١٠٥ و ١١٠٦ و ١١٠٧ و ١١٠٨ و ١١٠٩ و ١١١٠ و ١١١١ و ١١١٢ و ١١١٣ و ١١١٤ و ١١١٥ و ١١١٦ و ١١١٧ و ١١١٨ و ١١١٩ و ١١٢٠ و ١١٢١ و ١١٢٢ و ١١٢٣ و ١١٢٤ و ١١٢٥ و ١١٢٦ و ١١٢٧ و ١١٢٨ و ١١٢٩ و ١١٣٠ و ١١٣١ و ١١٣٢ و ١١٣٣ و ١١٣٤ و ١١٣٥ و ١١٣٦ و ١١٣٧ و ١١٣٨ و ١١٣٩ و ١١٤٠ و ١١٤١ و ١١٤٢ و ١١٤٣ و ١١٤٤ و ١١٤٥ و ١١٤٦ و ١١٤٧ و ١١٤٨ و ١١٤٩ و ١١٥٠ و ١١٥١ و ١١٥٢ و ١١٥٣ و ١١٥٤ و ١١٥٥ و ١١٥٦ و ١١٥٧ و ١١٥٨ و ١١٥٩ و ١١٦٠ و ١١٦١ و ١١٦٢ و ١١٦٣ و ١١٦٤ و ١١٦٥ و ١١٦٦ و ١١٦٧ و ١١٦٨ و ١١٦٩ و ١١٧٠ و ١١٧١ و ١١٧٢ و ١١٧٣ و ١١٧٤ و ١١٧٥ و ١١٧٦ و ١١٧٧ و ١١٧٨ و ١١٧٩ و ١١٨٠ و ١١٨١ و ١١٨٢ و ١١٨٣ و ١١٨٤ و ١١٨٥ و ١١٨٦ و ١١٨٧ و ١١٨٨ و ١١٨٩ و ١١٩٠ و ١١٩١ و ١١٩٢ و ١١٩٣ و ١١٩٤ و ١١٩٥ و ١١٩٦ و ١١٩٧ و ١١٩٨ و ١١٩٩ و ١٢٠٠ و ١٢٠١ و ١٢٠٢ و ١٢٠٣ و ١٢٠٤ و ١٢٠٥ و ١٢٠٦ و ١٢٠٧ و ١٢٠٨ و ١٢٠٩ و ١٢١٠ و ١٢١١ و ١٢١٢ و ١٢١٣ و ١٢١٤ و ١٢١٥ و ١٢١٦ و ١٢١٧ و ١٢١٨ و ١٢١٩ و ١٢٢٠ و ١٢٢١ و ١٢٢٢ و ١٢٢٣ و ١٢٢٤ و ١٢٢٥ و ١٢٢٦ و ١٢٢٧ و ١٢٢٨ و ١٢٢٩ و ١٢٣٠ و ١٢٣١ و ١٢٣٢ و ١٢٣٣ و ١٢٣٤ و ١٢٣٥ و ١٢٣٦ و ١٢٣٧ و ١٢٣٨ و ١٢٣٩ و ١٢٤٠ و ١٢٤١ و ١٢٤٢ و ١٢٤٣ و ١٢٤٤ و ١٢٤٥ و ١٢٤٦ و ١٢٤٧ و ١٢٤٨ و ١٢٤٩ و ١٢٥٠ و ١٢٥١ و ١٢٥٢ و ١٢٥٣ و ١٢٥٤ و ١٢٥٥ و ١٢٥٦ و ١٢٥٧ و ١٢٥٨ و ١٢٥٩ و ١٢٦٠ و ١٢٦١ و ١٢٦٢ و ١٢٦٣ و ١٢٦٤ و ١٢٦٥ و ١٢٦٦ و ١٢٦٧ و ١٢٦٨ و ١٢٦٩ و ١٢٧٠ و ١٢٧١ و ١٢٧٢ و ١٢٧٣ و ١٢٧٤ و ١٢٧٥ و ١٢٧٦ و ١٢٧٧ و ١٢٧٨ و ١٢٧٩ و ١٢٨٠ و ١٢٨١ و ١٢٨٢ و ١٢٨٣ و ١٢٨٤ و ١٢٨٥ و ١٢٨٦ و ١٢٨٧ و ١٢٨٨ و ١٢٨٩ و ١٢٩٠ و ١٢٩١ و ١٢٩٢ و ١٢٩٣ و ١٢٩٤ و ١٢٩٥ و ١٢٩٦ و ١٢٩٧ و ١٢٩٨ و ١٢٩٩ و ١٣٠٠ و ١٣٠١ و ١٣٠٢ و ١٣٠٣ و ١٣٠٤ و ١٣٠٥ و ١٣٠٦ و ١٣٠٧ و ١٣٠٨ و ١٣٠٩ و ١٣١٠ و ١٣١١ و ١٣١٢ و ١٣١٣ و ١٣١٤ و ١٣١٥ و ١٣١٦ و ١٣١٧ و ١٣١٨ و ١٣١٩ و ١٣٢٠ و ١٣٢١ و ١٣٢٢ و ١٣٢٣ و ١٣٢٤ و ١٣٢٥ و ١٣٢٦ و ١٣٢٧ و ١٣٢٨ و ١٣٢٩ و ١٣٣٠ و ١٣٣١ و ١٣٣٢ و ١٣٣٣ و ١٣٣٤ و ١٣٣٥ و ١٣٣٦ و ١٣٣٧ و ١٣٣٨ و ١٣٣٩ و ١٣٤٠ و ١٣٤١ و ١٣٤٢ و ١٣٤٣ و ١٣٤٤ و ١٣٤٥ و ١٣٤٦ و ١٣٤٧ و ١٣٤٨ و ١٣٤٩ و ١٣٥٠ و ١٣٥١ و ١٣٥٢ و ١٣٥٣ و ١٣٥٤ و ١٣٥٥ و ١٣٥٦ و ١٣٥٧ و ١٣٥٨ و ١٣٥٩ و ١٣٦٠ و ١٣٦١ و ١٣٦٢ و ١٣٦٣ و ١٣٦٤ و ١٣٦٥ و ١٣٦٦ و ١٣٦٧ و ١٣٦٨ و ١٣٦٩ و ١٣٧٠ و ١٣٧١ و ١٣٧٢ و ١٣٧٣ و ١٣٧٤ و ١٣٧٥ و ١٣٧٦ و ١٣٧٧ و ١٣٧٨ و ١٣٧٩ و ١٣٨٠ و ١٣٨١ و ١٣٨٢ و ١٣٨٣ و ١٣٨٤ و ١٣٨٥ و ١٣٨٦ و ١٣٨٧ و ١٣٨٨ و ١٣٨٩ و ١٣٩٠ و ١٣٩١ و ١٣٩٢ و ١٣٩٣ و ١٣٩٤ و ١٣٩٥ و ١٣٩٦ و ١٣٩٧ و ١٣٩٨ و ١٣٩٩ و ١٤٠٠ و ١٤٠١ و ١٤٠٢ و ١٤٠٣ و ١٤٠٤ و ١٤٠٥ و ١٤٠٦ و ١٤٠٧ و ١٤٠٨ و ١٤٠٩ و ١٤١٠ و ١٤١١ و ١٤١٢ و ١٤١٣ و ١٤١٤ و ١٤١٥ و ١٤١٦ و ١٤١٧ و ١٤١٨ و ١٤١٩ و ١٤٢٠ و ١٤٢١ و ١٤٢٢ و ١٤٢٣ و ١٤٢٤ و ١٤٢٥ و ١٤٢٦ و ١٤٢٧ و ١٤٢٨ و ١٤٢٩ و ١٤٣٠ و ١٤٣١ و ١٤٣٢ و ١٤٣٣ و ١٤٣٤ و ١٤٣٥ و ١٤٣٦ و ١٤٣٧ و ١٤٣٨ و ١٤٣٩ و ١٤٤٠ و ١٤٤١ و ١٤٤٢ و ١٤٤٣ و ١٤٤٤ و ١٤٤٥ و ١٤٤٦ و ١٤٤٧ و ١٤٤٨ و ١٤٤٩ و ١٤٥٠ و ١٤٥١ و ١٤٥٢ و ١٤٥٣ و ١٤٥٤ و ١٤٥٥ و ١٤٥٦ و ١٤٥٧ و ١٤٥٨ و ١٤٥٩ و ١٤٦٠ و ١٤٦١ و ١٤٦٢ و ١٤٦٣ و ١٤٦٤ و ١٤٦٥ و ١٤٦٦ و ١٤٦٧ و ١٤٦٨ و ١٤٦٩ و ١٤٧٠ و ١٤٧١ و ١٤٧٢ و ١٤٧٣ و ١٤٧٤ و ١٤٧٥ و ١٤٧٦ و ١٤٧٧ و ١٤٧٨ و ١٤٧٩ و ١٤٨٠ و ١٤٨١ و ١٤٨٢ و ١٤٨٣ و ١٤٨٤ و ١٤٨٥ و ١٤٨٦ و ١٤٨٧ و ١٤٨٨ و ١٤٨٩ و ١٤٩٠ و ١٤٩١ و ١٤٩٢ و ١٤٩٣ و ١٤٩٤ و ١٤٩٥ و ١٤٩٦ و ١٤٩٧ و ١٤٩٨ و ١٤٩٩ و ١٥٠٠ و ١٥٠١ و ١٥٠٢ و ١٥٠٣ و ١٥٠٤ و ١٥٠٥ و ١٥٠٦ و ١٥٠٧ و ١٥٠٨ و ١٥٠٩ و ١٥١٠ و ١٥١١ و ١٥١٢ و ١٥١٣ و ١٥١٤ و ١٥١٥ و ١٥١٦ و ١٥١٧ و ١٥١٨ و ١٥١٩ و ١

بعض أقارب العادل بن رزيك بالتخلص من شاور بعزله ؛ فأبى الوزير ذلك بادئ الأمر ؛ ولكنه عزله أخيرا . فثار عليه وعضده قوم من الأعراب وأهل الصعيد ، فتمكن من دخول القاهرة . ثم غادر العادل بن رزيك المدينة واختفى ؛ ولكنه لم يلبث أن قبض عليه جماعة من الأعراب وحملوه الى شاور .

وهرب بعد ذلك سائر أسرة ابن رزيك خارج البلاد ؛ وبذلك انفرد شاور بالسلطة المطلقة . بيد أن أفاعيل أولاده مع الأهليين جعلته مكروها عندهم ، حتى أن ضرغام أمين الباب وأمير البرقية (فرقة من الجند من برقة) وأخاه مُلُهما ، وهما من خواص طلائع بن رزيك ، تفاوضا مع العادل — وكان محبوبا في ذلك الوقت — في أن يثير ثورة عليهم يتمكنون من إرجاعه للوزارة .

ولما اتصل ذلك بطى بن شاور ، حذر أباه عواقب تلك المؤامرة ونصح له بأن يقتل ابن رزيك . غير أن شاور تذكر ما ناله من عطف طلائع بن رزيك ، فلم ينع لرأى ابنه .

ذهب طى بن شاور بعد ذلك الى السجن وقتل العادل بن رزيك ، فحلب لنفسه بذلك سخط أبيه . ولما علم ضرغام أمين الباب وأمير البرقية بهذا الحادث ، أشعل نار الثورة وهزم جند شاور . ففر شاور الى سورية ؛ وبعد فراره قُتل ولداه طى وضرغام . أما ابنه الثالث الكامل ، فقد كانت له يد على ملهم أنسى ضرغام أمين الباب ، فلم يقتله ، بل اقتصر على اعتقاله . وبهذا انتهت وزارة شاور الأولى وحل محله فيها ضرغام ، وذلك في رمضان سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م)^(١) .

وقد تدخل نور الدين والفرنجية تدخلًا جديا في شئون مصر منذ ذلك الحين . وكان من اغارة هاتين القوتين على مصر وسياسة شاور المزعزعة ، وإسراف ضرغام في قتل قواد مصر — كان من هذه الأحوال مجتمعة ما عجّل بسقوط الدولة الفاطمية .

وقد هرب شاور في رمضان من هذا العام الى نور الدين بدمشق وطلب منه النجدة ، وأراه أنه على استعداد لأن يقوم بنفقات الحملة وأن ينزل له اذا تم له الأمر عن ثلث خراج مصر جزية

(١) أبو شامة : مجموعة تواريخ الحروب الصليبية (ج ٤ ص ١٦٥) .

Requiel des Histoires des Croisades. Historiens orientaux, Tome IV, p. 165

التكت المصرية (ص ٦٧ و ٧٨) ، وابن الأثير (ج ١١ ص ١١٧) .

سنوية^(١) . وكان نور الدين يعلم ما لمصر من المركز السياسي الخاص ، بمعنى أن من يملكها يمكنه أن يسيطر على غيرها من البلاد ، وأنها معين خصب للخراج .

وهنا قد يكون لين بول مصيبا في ظنه ، وهو أن عدم ثقة نور الدين بشاور ، وتخوفه من الأخطار التي تستهدف لها حملته في اجتيازها الصحراء ومرورها على الصليبيين — كل ذلك جعله يتردد في هذا المشروع . غير أني أميل الى الظن بأن لين بول تسرع في حركه ، فأسند عدم ثقة نور الدين بشاور الى أشياء جاءت بعد ، وذلك لعدم فهمه عبارة ابن الأثير (ج ١١ ص ١٢٠) هذه : ”وتخوف أن شاور ان استقرت قاعدته ، ربما لا يفي“ ؛ لأنه لم يكن قد ظهر بعد تزعم أخلاق شاور في الوقت الذي كان يحاول الاتفاق مع هاتين القوتين الأجنبية .

وقد أورد لنا ابن شداد (ص ٤٣) وأبو شامة (ص ١٠٧—١٠٨) وابن خلكان (ج ٢ ص ٤٩٩) وغيرهم الأسباب التي جعلت نور الدين يصمم على ارسال هذه الحملة الى مصر ، هذه الأسباب التي يمكن تلخيصها فيما يلي :

أولا — رغبته في اجابة شاور الى طلبه ، وقد تضرع اليه ورغب في الاستعانة به .
ثانيا — شغفه بالاطلاع على حقيقة الحال في مصر ، وقد اتصل به أن قوتها الحربية كانت ضعيفة جدا ، وأنها كانت في حالة اضطراب شديد .

٣ — حملة شيركوه الأولى على مصر

هكذا عجلت الحوادث تدخل نور الدين . وذلك أن ضرغام اختلف مع عمورى في الجزية السنوية التي كان يدفعها اليه : فسار ملك بيت المقدس الجديد (عمورى) الى مصر سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣ م) ليفرض عليها الجزية كرها . ولحقت الهزيمة المنكرة بضرغام في بلبس ، فأراد أن يتجنب

(١) ابن الأثير (ج ١١ ص ١٢١) .

ذكر ابن الأثير عن ابن أبي طي من جهة أخرى ، أن شاور أرسل الى شيركوه ثلاثين ألف دينار ، وطلب منه أن يعود الى الشام . غير أن شيركوه أجابه اتباعا لتعليمات نور الدين ، بأنه يجب أن يعطيه ثلث الخراج ، وأن يثق الثلث الثاني على جيش شاور ، ويخصص الثلث الأخير لتفقات القصر . فأنكر شاور اتفاقه على ذلك مع نور الدين ، وذكر له أنه إنما اتفقا على أن يساعده نور الدين ، ثم ترجع الجنود السورية الى بلادها متى صارت له السلطة ؛ فألح شيركوه في ضرورة تنفيذ أوامر نور الدين ؛ فكان من أثر ذلك أن أمر شاور باغلاق أبواب القاهرة ، وبدأ في مفاوضة الفرنجة (أبوشامة ، شرحه ص ١٦٦) .

الهزيمة النهائية . فأوحى له قصر نظره وغباوته فتح سدود النيل — وكان في إبان فيضانه — فأغرق البلاد . على أنه قد تم له ما أراد من رجوع عمورى الى فلسطين .

وعلم ضرغام بالمفاوضات التي دارت بين شاور ونور الدين ؛ فأدرك خطاه في عدم اتفاقه مع عمورى ، وسارع بعقد حلف معه ، وزاد فيه مقدار الجزية . وسرعان ما ظهر نور الدين في ساحة القتال حين اتصل به ذلك . وقبل أن يتمكن عمورى من المسير الى مصر (جمادى الثانية سنة ٥٥٩ هـ ، أبريل سنة ١١٦٤ م) ، سار شاور اليها مع جند قوى من التركمان من دمشق يقوده أسد الدين شيركوه ، وكان صلاح الدين قائد المقدمة . والتقى ذلك الجند مع المصريين في بليس ؛ فانهمز المصريون ، غير أنهم لما شعثهم ثانية واجتمعوا تحت أسوار القاهرة^(١) .

واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين عدة أيام ، تمكن شاور في أثنائها من الاستيلاء على القسطنطينية ، بينما كان ضرغام يحتل القصر في القاهرة . وأراد ضرغام أن يجمع الأموال ؛ فوضع يده على أموال الأوقاف ، فأخذ الناس ينفضون عنه . وقد امتنع الخليفة والجيش عن مؤازرته ، فتدهور حتى رأى راجعا مخترقا باب زويلة سائرا في طرقات القاهرة يدعو الناس للثورة ونصرة دعوته ، فلم يلق منهم الا صياح الاستهزاء وتزويده باللعنات . وقد استمر في سيره حتى جفل حصانه من صياح الناس ، فألقاه على الأرض في جوار ضريح السيدة نفيسة .

وسرعان ما قطعت رأس ضرغام وطيف بها في الطرقات وسط مظاهر الفرح بهذا النصر^(٢) . وهنا يقول لين بول : ”هكذا كانت النهاية المحزنة لذلك السيد الشجاع المقدم ، والشاعر البطل الحسن الخلق والخلق ، الكامل العقل ، الجامع محاسن الرجال ، الذى كان فارس عصره ، وأحسن من نبأ بالقوس في مصر“^(٣) .

وقد أدرك شاور غرضه ؛ فتولى الوزارة ، وتوطدت أقدامه وأضحت قوته ثابتة الأساس . ولوثوقه بقوة مكانته وأنه قد أمن ما كان يتخوفه ، خان عهده مع أسد الدين شيركوه ، وهزأ بمخالفه ولم يف بما عاهده عليه ، وأبى دفع ما فرضه على نفسه من جزية ؛ ومد له الفرنجة يد المساعدة

(١) عمارة ، النكت (ص ٦٨ وما يتبعها) ، ابن الأثير (ج ١١ ص ١٢٠ و ١٢١) ، Lane-Poole: History

of Egypt in the Middle Ages, p. 177

(٢) النكت (ص ٧٣)

(٣) Stanley Lane-Poole: Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, p. 82.

حين طلب شاور إليهم ذلك ، فحاصروا شيركوه في بليس وحملوه على العودة بجنده إلى الشام (دو الحجة سنة ٥٥٩ هـ نوفمبر سنة ١١٦٤ م) . وانتهر نور الدين ذهاب عمورى إلى مصر فهزم قواته في فلسطين ، فاضطر الى العودة لحماية بلاده^(١) .

ولكن شيركوه لم يفشل تماما في حملته على مصر، إذ عرف ما كان يسود هذه البلاد من الفوضى، فأطمعه ذلك في امتلاكها . لذلك بقى في الشام مدة يعد العدة في تجهيز حملة ثانية أملا في تأسيس إمبراطورية لنفسه، واستمر حتى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) يدبر الحطط بالاشتراك مع نور الدين^(٢) .

٤ - حملة شيركوه الثانية على مصر

لقد ظهرت أهواء شاور المضطربة وسياسته الخرقاء واضحة جلية في غضون وزارته الثانية . ويؤخذ من قول عمارة أن شاور لم يلبث أن ظهر قلقه واضطرابه بعد أن استرد قوته واستقر في مركزه . وفي اليوم التالى من وصوله القاهرة ، سار شيركوه إلى بليس حين علم بنجاسة شاور له ، وهزم الجيوش المصرية .

ابتدأ نجم شاور في الأفول في هذا الحين بسرعة ؛ ففرح أخوه صبح جرحا بليغا ، وحاصر الفرنجة بليس ، وأرغموا نور الدين على العودة من فلسطين إلى الشام ، ولم يلبثوا أن عادواهم أيضا إلى فلسطين .

ولم تكن حالة مصر الداخلية بأقل اضطرابا ؛ فقد كان لزاما على شاور أن يقمع ثورة يحيى بن الخياط أحد أنصار ابن رزيك^(٣) (عمارة ص ٦٧) ، الذى قام يطلب الوزارة لنفسه ؛ وتلا ذلك الاضطرابات التى أثارها بنو لؤثة ومن لف لفهم من العرب . وأدهى من هذا كله ما بلغه من إعداد نور الدين العدة لغزو مصر مرة أخرى^(٤) .

(١) ابن شداد (ص ٤٣)

(٢) شرحه .

(٣) قتله شجاع بن شاور (حياة عمارة ص ٣٤٨) .

(٤) عمارة (ص ٦٧ و ٧٥ - ٧٨) .

طلب شاور مساعدة الفرنجة ثانية ووعدهم موطنًا ثابتًا في مصر ؛ فأرسل نور الدين جيشًا إلى هذه البلاد تحت قيادة شيركوه ، إذ رأى أن اتفاق شاور مع الفرنجة من شأنه أن يكسبهم قوة في مصر ، وذلك يهدد مركزه في الشام . وغادر جيش شيركوه الشام في ربيع الأول سنة ٥٦٢ هـ (ديسمبر — يناير ١١٦٦ — ١١٦٧ م) ؛ ووافق وصولهم إلى مصر وصول الفرنجة ، كما يخبرنا بذلك عمارة وابن شداد وغيرهما من المؤرخين . وكان الفرنجة — كما ذكر أبو شامة عن ابن أبي طي — قد أحلوا شاور بسر الحملة السورية تحت قيادة شيركوه إلى مصر^(١) .

سار الجيشان بجذاء شاطئ النيل حتى وصلا إلى القاهرة . ف ضرب عموري سرادقه قريبا من الفسطاط ، وعسكر شيركوه في مواجهته تماما بالجيزة ؛ و وقعت موقعة عنيفة بين جيش شيركوه من جهة ، وجيوش شاور والمصريين الذين اتحدوا مع الفرنجة من جهة أخرى . والتقى الفريقان ثانيا في موقعة البابين ، على بعد عشرة أميال في جنوب المنيا ؛ فأحرز شيركوه بقوته القليلة نصرا مبينا ، وبذلك توطدت أقدامه في الصعيد . غير أنه لم يكن من القوة بحيث يمكنه أن يتابع انتصاراته ويسير إلى القاهرة ؛ فاختار أهون الأمور ، وذهب في الصحراء شمالا حتى وصل إلى الاسكندرية فدخلها من غير مقاومة .

أقام شيركوه بعد ذلك صلاح الدين واليا على الاسكندرية ، وجعل معه نصف الجيش ، وعاد بالنصف الآخر إلى الجنوب ، وأخذ يبيح الأموال في الصعيد . أما قوى الفرنجة والمصريين المتحدة فقد حاصرت الاسكندرية برا ، بينما كان أسطول الصليبيين يحاصرها بحرا . ولم يكن مع صلاح الدين لصده هؤلاء إلا ألف من أنصاره ؛ فأسرع شيركوه السير إليه ، واصطلح الفريقان آخر الأمر على أن يترك شيركوه مصر في مقابل خمسين ألف دينار .

عاد شيركوه إلى الشام ، لأن جيشه — كما يقول ابن شداد — قد ضعف كثيرا في حربه مع الفرنجة والمصريين . هذا إلى ما انتابه من البؤس وما حاق به من الأخطار^(٢) . إلا أن شيركوه صار ملما أكثر من قبل بأحوال مصر الداخلية ، ولذلك صمم كل التصميم على امتلاكها قبل أن تقع فريسة في أيدي الفرنجة .

(١) أبو شامة : *Recueil des Histoires des Croisades*, tom. IV. p. 168.

(٢) ابن شداد (ص ٤٤ و ٤٥) .

٥ - حملة شيركوه الثالثة على مصر

هكذا انتهت حملة الفرنجة والغز على مصر . وقد ارتد الأولون إلى فلسطين والآخرين إلى الشام ، وبذلك زالت مخاوف شاور . غير أن الأيام أظهرت أن أمنه هذا لم يكن إلا حلمًا من الأحلام . فقد ابتدأت حملة شيركوه الثالثة على مصر وانتهت بانتصاره على الفرنجة والمصريين واحتلاله البلاد ؛ وكان ذلك — كما يذكر عمارة^(١) — نذيرًا باندحار شاور وقتله .

لقد كان سبب حملة شيركوه الثالثة ما رآه من جمع الفرنجة قواتهم كافة وزحفهم بها على مصر من جديد ؛ إذ قد حملهم الأمل في امتلاك مصر على تقض ما عاهدوا المصريين وشيركوه عليه . لهذا خشى نورالدين أن تقع البلاد في أيديهم ؛ فأرسل هذه الحملة تحت قيادة شيركوه ، يصحبه أخواه ، وابن أخيه صلاح الدين العظيم ، وغيرهم من ذوى قرباه وجيوشه^(٢) .

وقد تجلّت سياسة شاور المتقلبة ثانياً ؛ فقد أرسل لأسد الدين شيركوه كتاباً يطلب فيه المساعدة . وصادف هذا الرجاء قبولاً من نفس شيركوه ، لأن اتحاده مع شاور معناه هزيمة الفرنجة من جهة ، وتخلصه من شاور من جهة أخرى .

سار الفرنجة نحو مصر ، ووصلوا إلى بليس في صفر سنة ٥٦٤ (نوفمبر سنة ١١٦٨ م) . وهناك كانت مذبحّة عامة ، إذ لم يبقوا — كما يقول المؤرخ اللاتيني وليم الأُصُورى William of Tyre — على أحد من كان بهذه المدينة من الناس على اختلافهم شيئا وشيئا ، ذكرانا وإناثا^(٣) . وقد أسخط عمل عمورى هذا جميع المصريين ، فأنحازوا إلى شيركوه ، كما بعث فيهم روح البطولة ؛ وأمر شاور بإحراق مدينة القسطنطينية ، حتى يكون ذلك حائلا بينه وبين الفرنجة . وقد استمرت النيران بها أربعة وخمسين يوما ، ولا تزال آثار الحريق باقية إلى يومنا هذا في التلال الرملية التي تغطي القمامة المدفونة في الفضاء

(١) التكت المصرية (ص ٨١) .

(٢) ابن شداد (ص ٤٥ و ٤٦) .

(٣) ذكر أبو شامة (ص ١٣٧) ما فعله الفرنجة في عبارة أقل بالغة فقال ، ان عمورى قتل عددا كبيرا من الأهلين ، وأتلف معظم المدينة ، وأحرق أكثر مبانيها ، وجعل الناس فيها فريقين : قتل أحدهما بحد السيف ، واستبقى الآخرين شكرا لله على ما آتاه من نصر .

المتد عدة أميال جنوبى القاهرة . وأسرع الناس بعد هذا لاثنين بالقاهرة التى ساد أهلها الحماس استعدادا لصد هجوم الفرنجة (١) .

غير أن الفرنجة لم يهاجموا القاهرة ، وذلك بفضل ما أبداه شاور من الحذق فى مفاوضاته معهم كى يبعد عمورى عن مصر بئذ مقدار من المال له . لكن سياسته معهم لم يكن يسودها الاخلاص ، فقد راسل نور الدين فى دمشق يطلب منه المعونة . وقد كتب الخليفة العاضد الشاب نفسه بذلك إلى نور الدين ، ووضع فى رسالته خُصلا من شعور النساء إمعانا فى الضراعة ، حتى لايسعه أن يرد توسله بعد ذلك (٢) .

وكان نور الدين قد صمم فى هذه الآونة على غزو مصر ، وكان يود أن يذهب بنفسه ، لولا أنه كان مشغول البال بحالة بلاد الجزيرة المزعزعة . فأرسل فى الحال قوة من ألفين اختارهم من حرسه الخاص وستة آلاف من التركمان بقيادة شيركوه ، يعينهم عدد كبير من الأمراء ومن أقاربه ، وكذا صلاح الدين ، وكان يدعمه اليمنى ، الذى قبل تلك المهمة على مضض لما لاقاه من المصاعب فى حصار الاسكندرية (٣) .

رحل شيركوه فى آخر صفر من السنة نفسها ، ووصل القاهرة فى السابع من جمادى الثانية . وكان عمورى لا يزال أمام أسوارها ينتظر أكثر مما ناله من الأموال المصرية . فباغته شيركوه وانضم إلى المصريين متجنباً جيش الفرنجة ، وقد سار إليه ليحول دون تقدمه . أما عمورى الذى خدعه شاور ، والذى رأى تفوق شيركوه عليه فى الحرب ، فقد عاد الى فلسطين من غير حرب ولا قتال . ودخل شيركوه القاهرة دخول المنتصر ، ورأى الناس فيه بطلا متقدماً لهم ، فقابلوه بالترحاب ، واستقبله الخليفة الذى قدر صنيعة وخلع عليه (٤) .

(١) ابن الأثير (ج ١١ ص ١٣٦) ، أبو شامة (ص ١١٥) .

(٢) شرحه .

ان ما وراء الذهبى (مكتبة بودليان باكسفورد ، مخطوطات . Iand . القسم الشرقى ، رقم ٢٠٤ ، ورقة ١٣٥ — ١٣٥ ب) يختلف عما رواه ابن الأثير وابن شداد . فقد روى الذهبى أن شاور هو الذى كاتب نور الدين وأرسل اليه شيئا من شعور النساء فى خطاباته ، كما روى أن تأثر نور الدين كان عظيما ، حتى إنه جعل شيركوه يقطع المسافة بين حصص وحلب فى ليلة واحدة ، فى جند يبلغ سبعين ألفا سار به الى مصر . وهالك عبارة الذهبى : ” وكاتب شاور فى غضون ذلك الملك العادل نور الدين يستنجد به ، وسود كتابه ، ويجعل فى طيه ذوائب النساء داخل كتبه يستحثه . وكان بحلب ، فساق أسد الدين من حصص الى حلب فى ليلة ، فجمع أسد الدين وسار الى دمشق ... ثم سار الى مصر فى جيش عرمرم ، فقبل كانوا سبعين ألف فارس وراجل ” .

(٣) ابن الاثير (ج ١١ ص ١٣٦)

(٤) شرحه (ص ١٣٦ و ١٣٧) .

٦ - مقتل شاور وتقلد شيركوه الوزارة

لم يكن الغرض الحقيقي من حملة شيركوه الثالثة على مصر مساعدة شاور ، بل كان ذلك تمويها . وفي الواقع أن الغرض الذي انطوى تحت هذه الحملة يختلف عن ذلك اختلافا تاما ، إذ كان يراد بها القضاء على شاور واحتلال مصر . وقد كان شاور وشيركوه يعلمان ذلك حق العلم ، كما كان كل منهما يعرف أيضا أن خصمه يكيد له كي يتخلص منه .

وقد صدق ابن خلكان فيما ذهب إليه من أن شيركوه كان واثقا من أن الفرصة بامتلاك مصر لن تتاح له ما بقي شاور فيها . لذلك قرر أخيرا أن يقبض عليه في إحدى زياراته له ؛ واضطلع صلاح الدين بتنفيذ هذه المكيده . فذهب راكبا جواده ، حيث لقي شاور وهو مقبل عليه يدعوه إلى وليمة دبر فيها أمر اغتياله ؛ فأمسك بطوقه ، وقاده إلى فسطاط منعزل ، وقطع رأسه بأمر من الخليفة الذي ولي شيركوه الوزارة في ١٧ ربيع الثاني سنة ٥٦٤ (١٨ يناير سنة ١١٦٩) وخلع عليه ، فظل فيها حتى مات في ٢٢ جمادى الثانية من السنة نفسها (٢٣ مارس سنة ١١٦٩)^(١) .

بهذا انتهى أول فصل من فصول مأساة سقوط الخلافة الفاطمية في مصر . وقد أصاب عمارة إذ يقول : ” ولم يرب أحد من الوزراء المصريين رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح بن رزيك ، ولا أفنى أعيانهم مثل ضبرغام ، ولا أتلف أموالهم مثل آل شاور . وشاور هو الذي أطمع الفرنجة والغز في الدولة حتى انتقلت عن أهلها “^(٢) .

الآن يجدر بنا أن نبين كيف كان من سياسة نور الدين قطع الخطبة للخليفة الفاطمي ، وكيف سقطت الدولة بعد ذلك على يد صلاح الدين .

(١) ابن شداد (ص ٤٧ و ٤٨) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٥٠١ و ٥٠٢) .

ذكر أبو شامة (ص ١٤٥) أن صلاح الدين نفسه هو الذي قتل شاور . وذكر الذهبي (مكتبة بودليان باكسفورد ، مخطوطات Land ، القسم الشرق رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٣٥) أن شيركوه ولي الوزارة قبل مقتل شاور .

(٢) عمارة : التكت (ص ٨٨) .

٧ - صلاح الدين وسقوط الفاطميين

لقد مهدت الأحوال والحوادث الماضية الطريق لسقوط الفاطميين قبل أن يلي صلاح الدين الوزارة خلفا لعمه . وقد أصبحت البلاد من الضعف بحيث لم تعد تقوى على صد الغزوات الأجنبية ، لما سادها من الأحوال السيئة دهرا طويلا ، وما مُنيت به من التطاحن الحزبي والمنافسات بين الوزراء المصريين ، حتى غدت في مركز يشابه مركزها حين فتحها الفاطميون على يد جوهر القائد .

وقد أيدت وفاة شريكه مركز صلاح الدين ، فابتدأت منذ ذلك عظمته . فقد وطد العزم في هذه الآونة على تأسيس امبراطورية واسعة الأرجاء . ولكي يصل الى بغيته ، خصص كل مجهوداته لطرد الصليبيين من البلاد . وفي ذلك يقول صلاح الدين : ” لما يسر الله لي فتح الديار المصرية ، علمت أنه أراد فتح الساحل “ (فلسطين) ^(١) . وقد كان لتجأه في هذا المشروع ما جعله يلقب بحامي الاسلام .

ولم يجعل صلاح الدين الى تقوية مركزه في مصر ، بل عمل على توطيده تدريجيا ؛ كي لا يفقد ثقة المصريين ولا يثير حسد نور الدين . وكانت هذه هي السياسة الحازمة التي كان لزاما عليه أن ينتهجها . وقد أراد اضعاف حزب الخليفة ، فعمل أولا على اكتساب ثقة الأهلين ؛ وكان له من كرمه — كما يقول ابن شداد — ما أكسبه قلوبهم وما جعل الناس من كل الأرجاء يسارعون الى طاعته . ولم يخيب رجاء قاصده له ، وبذلك نجح في اكتساب محبة الشعب ^(٢) . وأستند مهام الدولة الى أناس من أنصاره ، وما قتيء يعمل على اضعاف نفوذ الخليفة .

وكان رجال القصر من جند وأتباع لا يخفون عداؤهم لصلاح الدين ، والخليفة يعلم حق العلم أنه ولئى الوزارة إمعة لا سييدا مستقلا برأيه . لذلك قامت المكائد على قدم وساق للقضاء على هذا الوزير الجديد . وقد ترأس المؤامرة عليه ” نجاح “ كبير الخصيان السود . وكان من تدبيرهم أن يصلحوا ذات البين بينهم وبين الفرنجة ، فيجىء هؤلاء لغزو مصر ، فاذا ما خرج لهم

(١) ابن شداد (ص ٤٨ و ٤٩)

(٢) شرحه (ص ٤٩) .

صلاح الدين ، هاجمه المتآمرون من مؤخرته ؛ وبذلك يقع بين نارين ، فيُقضَى عليه وعلى جنده من التركان .

وقد علم صلاح الدين بما دبره أعداؤه له ؛ فأمر بمراقبة كبير الخصيان ، وقبض عليه وقُطعت رأسه (ذو القعدة سنة ٥٦٤ هـ ، يولييه سنة ١١٦٩) كما قتل كثير من بني جلدهته . فأثار ذلك حتى جند الخليفة ، وكان أكثرهم من السودانيين ، فثار منهم خمسون ألفا للأخذ بثأره . واشتبكوا مع جند صلاح الدين في معركة عنيفة في المكان المعروف بين القصرين ، أحرق فيها كثير من المنازل والشوارع . ودارت الدائرة أخيرا على السودانيين ، وأحرق حيهم المعروف بالمنصورية ، وطردها إلى الجيزة عن طريق النيل ، ومنها إلى الصعيد حيث استمروا في ثورتهم عدة سنوات ، إلى أن قُضى عليهم نهائيا سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م)^(١) .

(١) غزو الفرنجة مصر

ولما توطدت أقدام صلاح الدين في مصر ، شرع يرسل الحملات ضد الفرنجة . فبعث فرقا لغزو ولايتي الكرك والشوبك وغيرها مما أثار مخاوف الفرنجة . ولا غرو فقد كان ذلك نذيرا بذهاب سلطانهم في فلسطين .

واتحد الفرنجة مع البيزنطيين وساروا بحرا إلى مصر ؛ فقتلوا أولا على مقربة من دمياط . وقد ذهب جماعة منهم في ذلك الوقت ، فاستولوا في ربيع الثاني سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ — ١١٧٠ م) على قصر عكاء ، وكان يحتله خُطاطخ نائباً عن نور الدين ، وكان لقبه " علم دار " (أى دار السلطان) . ولما علم نور الدين بمسير الفرنجة إلى دمياط ، أسرع بحصار الكرك (شعبان سنة ٥٦٥ هـ ، ١١٧٠ م)^(٢) .

(١) ابن شداد (ص ٥٢) ، وابن الأثير (ج ١١ ص ١٣٩ و ١٤٠) . ذكر ذلك التاريخ الذهبي (مكتبة بودليان بأكسفورد ، مخطوطات Leud. ، القسم الشرق رقم ٣٠٤ ، ورقة ١٤٦) عن سبط بن الجوزي ، الذي أمدها بمعلومات عن ثورة السودانيين تحت قيادة زعيمهم الكُتْز ، الذي ثار في الصعيد سنة ٥٧٢ هـ ، ثم سار إلى القاهرة لارجاع الخلافة الفاطمية ؛ فنشب القتال بينهم وبين الأيوبيين ، وانهى بهزيمة السودانيين . وقد قُتل زعيمهم ونحو من ثمانين ألفا معه في الحرب ، وبذلك ضاعت آمالهم في استرجاع خلافة الفاطميين . وفيما يلي نص عبارة الذهبي : " وفيها (سنة ٥٧٢ هـ) كانت واقعة الكُتْز مقدم السودان بالصعيد ، جمع خلقا عظيما وساروا إلى القاهرة ليعيدوا الدولة فقتل الكُتْز ، وقتل خلق كثير من جموعه ، حتى قيل أنه قتل منهم ثمانون ألفا . هكذا قال أبو المظفر في رضى " .

ذكر ابن خلكان (ج ٢ ص ٥١٠) وأبو الفدا (ج ٣ ص ٥٩) أن ذلك كان في ٧ صفر سنة ٥٧٠

(٢) ابن شداد (ص ٥٠) .

أما صلاح الدين الذي كانت له السلطة المطلقة حينذاك ، فقد اعد جيوشه وملاً دمياط بالدخائر ، ووعده بارسال المدد الى المدينة ليخلص أهلها مما حاق بهم من هلع ، ووزع عليهم الهدايا والهبات .

وقد نجح نور الدين في احتلاله جزءاً من مملكة النصارى في فلسطين ، وأرسل الأمداد الى صلاح الدين الذي كان يعصده الخليفة العاضد أيضاً طول مدة الحصار الذي استمر خمسين يوماً ، وأمدّه بخمسة مليون دينار . وقد جعلت هذه الأمور اغارات الفرنجة عديدة الجدى ؛ فاضطروا لرفع الحصار^(١) بعد أن أحرقت مراكبهم ، واستولى المصريون على آلاتهم الحربية وقتلوا عدداً عظيماً من رجالهم^(٢) .

وبعد انتصار صلاح الدين على الفرنجة ، طلب من نور الدين أن يرسل اليه أباه وأقاربه ؛ فكان له ما أراد ، ووصلت أسرته في جمادى الثانية ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م)^(٣) . فجعل أباه على بيت المال ، وعصده إخوته باخلاص ؛ وأقطعهم أملاك المصريين الذين نفاهم الى حيث لا يمكنهم أن يثوروا ضده^(٤) .

(ب) غزو صلاح الدين مملكة الفرنجة في فلسطين

كان فشل الفرنجة في غزوهم دمياط — ذلك الفشل الذي يتمثل فيه ابن الأثير بالمثل المشهور عن النعامة وهو : ”خرجت النعامة تطلب قرنين فرجعت بلا أذنين“ — مشجعاً لصلاح الدين على أن يبدأ حياة الفتح بغزوهم في دارهم ؛ وبذلك بدأت سلسلة الاغارات التي لم تنته إلا بمعاهدة الصلح مع ريتشارد ملك إنجلترا بعد اثنتين وعشرين سنة .

وقد اعتبر المصريون والتركمان السنيون صلاح الدين حامياً لهم ، فاتفقوا معه على محاربة الفرنجة أعدائهم جميعاً . وشجعهم على ذلك ما شاهدوه في القاهرة من

(١) ابن الأثير (ج ١١ ص ١٤٢) .

(٢) ابن شداد (ص ٥٢) .

(٣) ذكر الذهبي (مكتبة بودليان بأكسفورد، مخطوطات لود، القسم الشرقى، رقم ٣٠٤ ، ورقة ٣٧ ب) أن الخليفة العاضد استقبل بنفسه نجم الدين والصلاح الدين خارج القاهرة . وفي ذلك يقول : ”وفي سنة خمس وستين وخمسة ، دخل نجم الدين أيوب مصر ، فخرج العاضد الى لقائه بنفسه .

(٤) ابن شداد (ص ٥٢) .

الأسلاب التي غنمها صلاح الدين^(١) . ولما استقرت سلطة صلاح الدين على أساس متين واتفاق تام بينه وبين المصريين ، أسند المناصب الدينية في مصر إلى الفقهاء المتضلعين في المذهب السني .

(ج) حذف اسم الخليفة الفاطمي من الخطبة . وفاة العاضد وسقوط الفاطميين

إن ما ذكره ابن الأثير عن سقوط الخلافة الفاطمية وإحلال نفوذ العباسيين محلها في المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) يعتبر مرجعا لما سذكه عن الخطوات التي اتخذها صلاح الدين لإبراز هذا الانقلاب إلى حيز العمل .

توطدت سلطة صلاح الدين في مصر في ذلك الحين ؛ وانضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة ، وسقطت إلى الحضيض سلطة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وأزال من الجيش بعض العناصر التي لم يكن يثق بأخلاصها . فكان لنور الدين — وهو من غلاة السنة — أن يرغب في إحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل الخليفة الفاطمي .

غير أن صلاح الدين تردد في تنفيذ رغبة نور الدين ، لما كان يخشاه من أن يثير هذا العمل ثورة أهالي مصر ، الذين كانوا لا يزالون متعلقين بالفاطميين إلى ذلك الحين . بيد أن هذا العذر لم يرض نور الدين ؛ فكتب إلى صلاح الدين يأمره أمرا لامناص لواليه من تنفيذه^(٢) .

وكان الخليفة العاضد مريضا في ذلك الوقت . فعقد صلاح الدين مجلسا من الأمراء واستشارهم في ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة بدل الخليفة الفاطمي . فوافقهم بعضهم وأخذوا على عاتقهم تعضيده ، ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح . غير أن أوامر نور الدين لم تكن بالتى لا تطاع .

وكان في هذا المجلس رجل فارسي يعرف بالأثير ، حل بمصر منذ عهد قريب ؛ فلما رأى ترددهم ، اعترم أن يتولى بنفسه هذا الأمر . فصعد المنبر قبل الخطيب في أول جمعة من المحرم ، ودعا للمستضيء العباسي . ولما لم يحتاج أحد على ذلك ، أمر صلاح الدين في الجمعة التالية الخطباء أن يخطبوا باسم

(١) ابن الأثير (ج ١١ ص ١٤٧) .

(٢) شرحه (ج ١ ص ١٤٨ و ١٤٩) .

الخليفة العباسي . وهكذا تم ذلك التغيير بلون أن يلقى أية مقاومة . وفي ذلك يقول ابن الأثير :
” فلم ينتطح فيها عزان “ (١) .

لم يخبر العاضد - وكان مريضا جدا - أحد من أسرته بذلك الحدث وقالوا : ” إن عوفى فهو يعلم ، وأن توفي فلا ينبغي أن نفعجه بمثل هذه الحادثة قبل موته “ . وتوفي في العاشر من المحرم من دون أن يعلم بهذا التغيير العظيم الذي تم ؛ بفلس صلاح الدين للعزاء ، واستولى على القصر وما احتواه .

وكان صلاح الدين قد أقام قبل وفاة العاضد الطواشي بهاء الدين قراقوش (٢) على القصر ، وأسكن أولاد العاضد وأعمامه وسائر أسرته في جناح منه . أما الموالى من الذكور والإناث فقد أخرجوا من القصر ، وأعتق صلاح الدين بعضهم وأعطى البعض لأنصاره وباع الآخرين .

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد ، بعد أن حكمت مصر عصرا طويلا كان عصر يسر ورخاء ، وتسامح ديني وثقافة ، لم تتمتع به مصر من قبل . وإن زوال الدولة الفاطمية الشيعية على يد الأيوبيين السفين الغلاة ، وإرجاع الخطبة للخليفة العباسي ، بعد أن قطعت في مصر كسائر الولايات الفاطمية الأخرى مدة قرنين وثمانى سنوات تقريبا - هو انتصار السنة على الشيعة .

(١) ابن الأثير (ج ١١ ص ١٤٩) .

(٢) معنى قراقوش باللغة التركية طائر أسود . وقد تولى بهاء الدين إنشاء عدة من الآثار غيرت معالم القاهرة ، مثل قلعة الجبل ، وقناطر الجيزة ؛ وسور القاهرة العظيم . ولما افتتح صلاح الدين عكا سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) عينه واليا عليها في السنة التالية . وقد أمر لما استولى عليها الفرنجة في سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ؛ لكنه أقدى نفسه ببلغ كبير ، ثم عاش في القاهرة حتى توفي سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠١ م) .

انظر عبد اللطيف البغدادي (طبعة دى ساسي ص ١٧١ و ١٧٢ و ٢٠٧ و ٢١٣) ، (طبعة أكسفورد سنة ١٨٠٠ ص ٨٨ و ٩٠) ، وابن الأثير (طبعة القاهرة ص ١٤٨ و ١٤٩) ، وابن شداد (مؤرخو الحروب الصليبية الشرقيون Historiens orientaux des croisades) ج ٣ ص ١٢٠ و ١٣٥ و ١٧٦ و ١٨٣ و ٢٣١ و ٢٣٩ و ٣٠٤ و ٣١٧ و ٣٥٥ و ٣٥٦) وابن خلكان (ج ١ ص ٥٤٣ و ٥٤٤ ، ج ٢ ص ٥٠٥ و ٥٢٦) وأبو الفدا (ج ٣ ص ٥٣ و ٧٤ و ٨٧ و ٨٨) و Derenbourg : Vie d'Ousâma, pp. 432, 433, n. 1

هذا وينبغي ألا نخلط بين اسم بهاء الدين قراقوش وشرف الدين قراقوش الأرمني ، الذي خدم الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وكانت حياته سلسلة مغامرات وقلاقل ومؤامرات ومذابح وسلب ونهب ؛ وبذلك ألفت أعماله في قلوب الناس الملح الذي لا تزال ذكراه باقية الى اليوم .

انظر Derenbourg : Vie d'Ousâma, p. 450, n. 4

الباب العاشر

الخاتمة

مقدار نجاح أعمال الفاطميين السياسية والدينية

يجل بنا في هذه الخاتمة أن نبين بإيجاز نتائج ما تصدينا لبحثه ، من الوقوف على الأغراض والنظم التي سادت أعمال الفاطميين .

ان فكرة الرجعة التي أدخلها ابن سبأ في الاسلام كان لها شأن عظيم في تاريخ الشيعة الإمامية والاسماعيلية . ذلك أن السبعية — الذين كثيرا ما يعرفون بالاسماعيلية — كانوا يعتقدون أن امامهم محمد بن اسماعيل سيرجع كالامام المهدي . وهذه هي العقيدة التي أذاعها أبو عبد الله الشيعي أثناء بث دعوته بين البربر .

لقد غلا الاسماعيليون الى حد بعيد في اعتقادهم بسلطة الامام الروحية ، حتى إنهم ذهبوا الى أن الاله قد تجسم في شخص على رضى الله عنه وأولاده من بعده ؛ وذلك رغم انكار على وأولاده الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وانكار معظم المسلمين الذين كانوا من رعايا الفاطميين . وإذا تتبعنا تاريخ الفاطميين وصلنا الى هذه النتيجة وهي : أن دعوتهم هذه إنما كانت تتخذ الدين وسيلة لنجاح أغراضهم السياسية .

ولما استقر حكم الفاطميين في شمال افريقية ، فكروا في امتلاك مصر ، اذ رأوا فيها مكانا صالحا لنشر دعوتهم . فقد كان استيلاؤهم عليها معناه بسط نفوذهم على الشام والمجاز — وكانت تحت حكم مصر — ثم تهديد بغداد نفسها . يضاف الى هذا أن الحالة الداخلية في مصر ، وفي الدولة العباسية التي كانت هدفا للغارات من الشرق ومن البيزنطيين في الغرب ، جعلت فتح مصر أمرا ميسورا . ولم يكن اختيار الفاطميين أولا شمال إفريقيا إلا لبعده عن حاضرة الدولة العباسية ، ولميل البربر الى خلع طاعة الأغلبة ، ولضعف هذه الدولة الحاكمة نفسها .

فتح الفاطميون مصر ، وأخذوا في نشر أغراضهم الدينية . ولم يذبحوا وسعا — منذ استقرت سلطتهم في هذه البلاد — في بث العقائد الاسماعيلية ، حتى أبطلت الخطبة للعباسيين واعترف بسلطان الفاطميين ، لا في الخطبة والسكة فحسب ، بل في كافة الأمور الحربية والدينية والمدنية ، وصارت الأحكام تصدر وفق المذهب الاسماعيلي ، وأصبحت الأعمال الحكومية تدار تدريجيا بالأيدى الشيعية ، كما نشطوا في ابتناء المساجد لنشر التعاليم الفاطمية .

كذلك كان من أعمال الفاطميين تأسيس دور الكتب لنشر عقائد مذهبهم وتشجيع البحوث في العقائد الاسماعيلية ؛ فأسسوا مجمعا علميا (أكاديمية) . وكانت المكاتب التي بالقصر ودار العلم بالقاهرة تفوق في هذه الآونة نظيراتها في بغداد وقرطبة ؛ وأصبح القصر في القاهرة مركزا للدعوة الفاطمية التي كان يقوم بها داعي الدعاة ومساعدوه تحت إشراف الخليفة .

ولم يحفل الفاطميون بما كان للشعراء ورجال الأدب من الأثر في نشر العقائد الاسماعيلية . فقد كان من سياستهم تشجيع الشعراء والأدباء بالهبات الوافرة والخلع والأعطيات ، كي يشيدوا بذكر هذه الأسرة ويكونوا ألسنة ناطقة بقوة الفاطميين وعظمتهم ، فيكتسبوا بذلك محبة رعاياهم .

لقد كانت سياسة الفاطميين في جعل مصر دون بلاد المغرب مركزا لأعمالهم سياسة زشيدة . فقد مكنتهم مصر من كسب ولاء الحكام في كثير من البلاد الاسلامية المختلفة ، كالبلن والحجاز والموصل وبلاد ما وراء النهر ، كما أمكنهم بثرة مصر أن يقيموا لأنفسهم حضارة عظيمة ، وأن يكسبوا كثيرا من الأنصار في مصر وغيرها . ولم يكن غرض دعاة الفاطميين ، معتمدين على السيف آنا ومستغلين مطامع الولاة العباسيين آنا آخر ، بأقل أهمية مما قام به غيرهم .

ويظهر أن مصر والشام (إذا استثنينا مدينة حلب) لم تدخلتا في طاعة الفاطميين الا بقوة السيف ، رغم ما بذله دعاةهم للاعتراف بالمهدى وخلفائه من بعده ، وأنهم الأئمة حقا . ولم تكف تسقط دولتهم حتى عادوا جميعا الى المذهب السني .

كذلك نرى أنه قد زال نفوذ الفاطميين في بلاد المغرب — وهي مهد الدولة الفاطمية — لم تجل للناس انحلال دولتهم ، وأضحى النفوذ الفاطمي في اليمن والموصل والحجاز وبلاد ما وراء النهر وبغداد روحيا فقط ، وصار لا يتمثل الا في السكة والخطبة . وكان لهذه السلطة — رغم ضآلتها — قيمة أدبية عظيمة .

يضاف الى ما تقدم ما كان من اعتراف جماعة من رجالات الدولة العباسية بسلطة الفاطميين (انظر الباب الثانى) . وفى نجاح البساسيرى وقتا ما فى تحويل الخطبة من الخليفة العباسى القائم الى المستنصر الفاطمى دليل واضح لذلك . غير ان البساسيرى كان يعمل عن بواعث شخصية حين ساءت العلاقة بينه وبين الخليفة العباسى وبعض رجالات بغداد . وعلى كل فقد أقام الخطبة للخليفة الفاطمى فى حاضرة العباسيين ، وأدخل فى الأذان عبارة "حى على خير العمل" التى كانت من شعار الفاطميين .

هكذا حاول الفاطميون تأسيس سلطانهم السياسى والدينى ، أو أحدهما على الأقل اذا لم يستطيعوا أن يصلوا اليهما معا ؛ وذلك بالدعاية تارة وبقوة السيف وبذل المال واستغلال مطامع الأفراد تارة أخرى . وقد نجحوا على توالى الأزمان فى بسط نفوذهم على شمال افريقية وصقلية ، ومصر والشام وآسيا الصغرى ، وعلى سواحل البحر الأحمر ، كما اعترف بسلطانهم أيضا أئمة اليمن ، وأمراء الموصل وبلاد ما وراء النهر ، ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، بل وبغداد حاضرة العباسيين .

نجح الفاطميون فى تأسيس امبراطورية شاسعة الأرجاء وحضارة باهرة لم يعرفها الشرق من قبل الا نادرا : تلك الحضارة التى اشتهرت بنظمها الادارية المحكمة ، وفنونها وجيوشها وأساطيلها ، وعدالة محاكمها وتسامحها الدينى . وأهم من هذا كله ما عُرِفَ به من تشجيع العلم والثقافة .

ولا تزال بعض آثار هذه الحضارة العظيمة باقية الى الآن . فقد خلفوا لمصر تراثا هاما هو الجامعة الأزهرية . ويمكننا أن نقدر المجهودات التى بذلها الفاطميون فى أيامهم من نظم التعليم التى ظلت فى الأزهر حتى الآن .

حقا لقد فقدت هذه الجامعة الى وقت ما شيئا من أهميتها بسقوط الفاطميين . ولا غرو فقد عنى الأيوبيون — وهم السنيون الغلاة — بتخريب ما تركه الفاطميون من آثار لتعليم عقائد الشيعة الفاطمية . وقد مضى على الأزهر نحو من قرن قبل ان يسترد شيئا من عطف الحكومة ورجالات الدولة .

ولما جاء الظاهر بيبرس زاد فيه وشغف بما يدرس هناك من العلوم ، وأعاد اليه الخطبة . ومن هذا الحين ابتدأ الأزهر يدخل فى عهد جديد من التقدم والرقى ، حتى صار الطلاب يهرعون اليه الى يومنا هذا من كل أرجاء العالم الاسلامى لاتمام دراساتهم .

أما العلوم التي تدرس في الأزهر ونظم التعليم فيه ، فمن الممكن أن نقول إنها بقيت تقريبا كما كانت عليه في عهد الفاطميين . فقد كان يدرس فيه التوحيد والفقه واللغة العربية والرياضة والمنطق والنحو والبيان والطب وغيرها من العلوم ، كما بينا ذلك أثناء الكلام عن التعاليم الفاطمية في الأزهر وفي مكتبة دار العلم ودار الحكمة . ومع أننا لا نعلم الا القليل عن نظم التعليم وأكثر المواد التي ذكرناها آنفا ، فما لا شك فيه أن الفاطميين كانوا أول من أدخل ذلك في الأزهر .

أما من الناحية الدينية ، فقد أثار ادعاؤهم أنهم يتصفون بالصفات الإلهية ، سخط رعاياهم السنين الذين اعتبروهم لهذا مارقين من الدين . أما بذخهم واسرافهم في الاحتفال بالأعياد الدينية وغيرها ، ولأئمتهم الفخرة ، وأعطياتهم وهباتهم وما الى ذلك ، فلم ينجح الا في التأثير في الجماهير الذين بهرتهم هذه المظاهر الخلابية ، والقليل من الناس الذين أفادوا لأنفسهم فوائد مادية من ورائهم .

وطالما كانت ثور نائرة السنين اذا ما أراد الفاطميون أن يلزمهم باعتناق عقائدهم البغيضة لديهم . لأن هذه العقائد قلما صادفت هوى في القلوب . ومع هذا نرى بعض السنين قد اعتنقوا تلك العقائد ، إما لمصالح خاصة أو فرارا من حلق الفاطميين وتقمعتهم .

وبعد ، فقد كان من بين العوامل التي أسرعت في سقوط الفاطميين ، انقسام الاسماعيليين أنفسهم الى فرق وأحزاب ، كما أن لظهور هذه الفرق الاسماعيلية — كالدروز والحشاشين — أثرا سيئا في الحضارة الاسلامية وتقدمها .

مصادر الكتاب

نورد في الثبت الآتي المشتغل على مصادر هذا الكتاب مصادر أخرى لم يرد لها ذكر من قبل ؛
وقد رتبنا أسماء المؤلفين في جميعها حسب أحرف الهجاء :

(١) ابن الأثير (+ ٦٣٠ هـ و ١٢٣٨ م) : على بن أحمد بن أبي الكرم .

(١) " الكامل في التاريخ " ١٢ جزء (بولاق سنة ١٢٧٤ هـ) .

(ب) أسد الغابة في معرفة الصحابة ٥ أجزاء (القاهرة سنة ١٢٨٠ هـ) .

(٢) الإدريسي (+ ٦٤٩ هـ و ١٢٥١ م) : محمد بن عبد العزيز الشريف الفاي .

(١) " كتاب نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان " وهو مختصر لكتاب

الإدريسي " نزهة المشتاق " (روما سنة ١٥٩٢ م) .

(ب) "Mappæ Arabicae. Arabische Welt und Länderkarten des 9-13 Jahr-
hunderts, in Arabischer Urschrift, lateinischer Transkription, und
Übertragung in neuzeitliche Kartenskizzen. Mit einleitenden Texten,
herausgegeben von Konrad Miller (Stüttgart, 1926).

(٣) أرنولد : المرحوم السير توماس و .

Arnorld : Prof. Sir Thomas W.

(1) " The Preaching of Islam ", 2nd ed., (London, 1913)

(2) " The Caliphate " (Oxford, 1924).

(٤) أسامة بن منقذ (+ ٥٨٤ هـ و ١١٨٨ م) : أبو المظفر بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر الملقب

بمؤيد الدولة نجم الدين .

(١) " كتاب الاعتبار " أو " حياة أسامة " .

Première Partie, ed. by Hartwig Derenbourg (Paris, 1889).

(ب) " Anthologie de textes arabes, inédits par Ousâma et sur Ousâma ", ed.
by H. Derenbourg (Paris, 1893).

(٥) الأصفهاني (+ ٣٥٦ هـ و ٩٦٧ م) : أبو الفرج .

" كتاب الأئمان " ٢١ جزء (القاهرة سنة ١٢٨٥ هـ) .

(٦) ابن أبي أصيبعة (+ ٦٦٧ هـ و ١٢٧٠ م) : أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين .

”كتاب عيون الأنباء في أخبار الأطباء“ جزءان (القاهرة سنة ١٢٩٩ — ١٣٠٠ هـ) .

(٧) أوتينجا (+ ٣٢٨ هـ و ٩٤٠ م) : يحيى بن سعيد .

”التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق“ (بيروت سنة ١٩٠٩)

(٨) أوليري : دى ليسى

O'Leary, de Lacy, "A Short History of the Fatimid Khalifate, (London, 1923).

(٩) ابن إياس (+ ٩٣٠ هـ و ١٥٢٣ م) : أبو البركات محمد بن أحمد .

”كتاب تاريخ مصر“ المعروف ”بيدائع الزهور“ ٣ أجزاء (بولاق ١٣١١ — ١٣١٢ هـ) .

(١٠) بديع الزمان (+ ٣٩٨ هـ و ١٠٠٧ — ١٠٠٨ م) : أحمد بن محمد المعروف ببديع الزمان الهمداني .

”رسائل الهمداني“ (بيروت سنة ١٨٩٠ م) .

(١١) بروكلمان : كارل .

Brockelmann, Carl.

Geschichte der Arabischer Litteratur, 2 vols. (Weimar, 1898-1902).

(١٢) براون : إدوارد ج .

Browne : Edward G.

(1) Literary History of Persia—from the Earliest Times until Firdawsi (London, 1909).

(2) Literary History of Persia—from Firdawsi to Sa'fī (London, 1906).

(3) Persian Literature under Tartar Dominion (1265-1502 A.D.) (Cambridge, 1920).

(١٣) ابن بطوطة (+ ٧٧٩ هـ و ١٣٧٧ م) : أبو عبد الله محمد بن عبد الله .

”تحفة النظار في غرائب الأمصار“ ٤ أجزاء ، طبعه وترجمه إلى الفرنسية دي فريميري

(Defrémery) وسانجيتي (Sanguinetti) (باريس ١٨٥٣ — ١٨٥٨ و ١٨٦٩ — ١٨٧٩ م) .

(١٤) البغدادى (+ ٤٢٩ هـ و ١٠٣٧ م) : أبو منصور عبد القاهر بن طاهر .

”الفرق بين الفرق“ (القاهرة ١٣٢٨ هـ و ١٩١٠ م) .

(١٥) البكري (٤٨٧ هـ و ١٠٩٧ م) : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز .

”كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب“ طبعة دي سلين (De Slane) ، الطبعة الثانية (باريس سنة ١٩١١) .

(١٦) البيهقي (٤٤٠ هـ و ١٠٤٨ م) : أبو الريحان محمد بن أحمد .

”الآثار الباقية عن القرون الخالية“ ، طبعة إدوارد سخاو (Edward Sachau) (لندن سنة ١٨٧٩) .

(١٧) التتويحي (٣٨٤ هـ و ٩٩٤ م) : أبو علي المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم .

”شوار المحاضرة وأخبار المذاكرة“ ، النسخة العربية (القاهرة سنة ١٩١٨ — ١٩٢١) ، وترجمه الى الانجليزية الأستاذ مرجوليوث (Prof. D. S. Margoliouth) (لندن سنة ١٩٢٢) .

(١٨) الثعالبي (٤٢٩ هـ و ١٠٣٧ م) : أبو منصور عبد الملك .

”يتمية الدهر“ (٤ أجزاء ١٣٠٤ هـ) (دمشق سنة ١٣٠٤ هـ) .

(١٩) جيون : ادوارد .

Gibbon : Edward.

”The History of the Decline and Fall of the Roman Empire“, 7 vols ed. by Prof. J. B. Bury.

(٢٠) ابن جبير (٦١٤ هـ و ١٢١٧ م) : أبو الحسن محمد بن أحمد الكافي .

”رحلة ابن جبير“ ، طبعة و. رايت (W. Wright) (لندن سنة ١٨٥٢ م) .

(٢١) ابن الجوزي (٦٥٤ هـ و ١٢٥٧ م) : أبو المظفر بن قيزوغل سبط بن الجوزي .

”مرآة الزمان“ ، وهو مخطوط :

(أ) بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٥٠٥ و ١٥٠٦ .

(ب) المكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٥٥١

(ج) ومكتبة بودليان (Bodleian) بأكسفورد، مجموعة بوكوك (Pocock, Oxford, Or. 370)

(٢٢) جولد زيهر : أ.

Goldziher : Ignaz.

”Vorlesungen über den Islam“, 2nd ed. (Heidelberg, 1910), translated into French by Felix Arin (Paris, 1920).

(٢٣) جويار : ص .

Guyard, S.

Fragments relatifs à la Doctrine des Ismaélis (Paris, 1874).

(٢٤) حاجى خليفة (+ ١٠٦٧ هـ و ١٦٥٧ م) : مصطفى المسمى كاتب شلي .

”كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون“ .

طبع النسخة العربية وترجمها الى الألمانية ج . فلوجل G. Flügel (ليبسك ولندن

. (١٨٣٥—١٨٥٨)

(٢٥) ابن حجر العسقلانى (+ ٨٥٣ هـ و ١٤٤٩ م) : شهاب الدين بن على .

(١) ”الإصابة فى تمييز الصحابة“ .

طبعة سپرنجر (Sprenger) وغيره (كلكتا سنة ١٨٥٦—١٨٧٣) .

(ب) ”رفع الإصر عن قضاة مصر“ .

(مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٢١١٥) .

(٢٦) ابن حزم (٤٥٦ هـ و ١٠٦٤ م) : أبو محمد على بن أحمد .

”الفصل فى الملل والأهواء والنحل“ .

٣ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ) .

(٢٧) ابن خلدون (+ ٨٠٨ هـ و ١٤٠٥—١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد .

(١) مقدمة ابن خلدون (بيروت سنة ١٩٠٠) .

(ب) ”العبر وديوان المبتدا والخبر“ ٧ أجزاء (القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ) .

(٢٨) ابن خلكان (+ ٦٨١ هـ و ١٢٨١ م) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن

أبى بكر الشافعى .

”وفيات الأعيان“ جزءان (بولاق سنة ١٢٨٣ هـ) ، ترجمه الى الانجليزية دى سلاين De Slane

(باريس ١٨٤٢—١٨٤٨) .

(٢٩) الخوارزمى (+ ٣٨٣ هـ و ٩٩٣ م) : أبو بكر محمد بن العباس .

”رسائل الخوارزمى“ (القسطنطينية سنة ١٢٩٧ هـ) .

(٣٠) ابن دُقَّاق (+ ٨٠٩ هـ و ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م) : ابراهيم بن محمد المصرى .
” الانتصار لواسطة عقد الأمصار ” .

لم يظهر منه الا الجزءان الرابع والخامس (القاهرة ١٣٠٩ هـ و ١٨٩٣ م) .

(٣١) دوزى : ر . ب . أ .

Dozy : R. P. A.

(1) Dictionnaire des Noms des Vêtements chez les Arabes (Amsterdam, 1845).

(2) Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 vols. (Leyden, 1881).

(3) Histoire des Musulmans d’Espagne (Leyden, 1861).

(٣٢) ابن أبى دينار (+ ١١١٠ هـ و ١٦٩٨ م) : محمد بن أبى القاسم بن عمر القروانى .
” كتاب المونس فى أخبار إفريقية وتونس ” .

(تونس سنة ١٢٨٦ هـ) .

(٣٣) الدينورى (+ ٢٨٢ هـ و ٨٩٥ م) : أحمد بن داود أبو حنيفة .

” الأخبار الطوال ” جزآن ، طبعة ج . كراتشوفسكى J. Kratchkovsky (ليدن
سنة ١٨٩٢) .

(٣٤) ديسو : رينى .

Dussaud, René,

” Histoire et Religion des Nosairis ” (Paris, 1900).

(٣٥) الذهبي (+ ٧٤٨ هـ و ١٣٤٧ - ١٣٤٨) : شمس الدين محمد بن أحمد .

” تاريخ الاسلام ” ، وهو مخطوط :

(أ) بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٥٨١

(ب) والمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٤٢ (تاريخ) .

(ج) ومكتبة بودليان بأكسفورد (Bodleian, Laud., Or., 304)

(٣٦) الرضى (+ ٤٠٦ هـ و ١٠١٥ م) : الشريف أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى
ابن الحسين بن على بن أبى طالب .

” ديوان الشريف الرضى ” (بيروت سنة ١٣٠٧ هـ) .

(٣٧) رافيس : پول

Ravaisse, Paul

“Essai sur l'histoire, la Topographie du Caire d'après Makrisi, Memoires publiés par les membres de la Mission Archéologique française au Caire”, Tome III. (Paris, 1887).

(٣٨) “رسائل الحاكم بأمر الله” .

كتبها كثير من الدعاة الفاطميين في سنة ٤٠٨ هـ . وهي مخطوطة بالمكتبة الملكية بالقاهرة تحت رقم ٢٠ (مذهب الشيعة) .

(٣٩) ابن زولاق (+ ٣٨٧ هـ و ٩٩٧ م) : أبو محمد الحسن بن إبراهيم .

“كتاب فضائل مصر وأخبارها وخواصها” .

(مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ١٨١٧) .

(٤٠) دى سامى : س .

De Sacy : Silvestre,

(1) Exposé de la Religion des Druzes.....précédé d'une Introduction et de la Vie du Khalife Hakim—Biamr—allah”, 2 vols. (Paris, 1838).

(2) “Crestomathie Arabe”, 3 vols., 2nd ed. (Paris, 1826-1827).

(٤١) ابن سعد (+ ٢٣٠ هـ و ٨٤٥ م) : محمد بن سعد كاتب الواقدي .

“كتاب الطبقات الكبير” طبعة إدوارد سخاو (Edward Sachau) ، ٨ أجزاء (ليدن

سنة ١٣٢٥ هـ) .

(٤٢) ابن سعيد (+ ٦٧٣ هـ و ١٢٧٥ م) : علي بن موسى المغربي .

“كتاب المغرب في حل المغرب” (ليدن سنة ١٨٩٨ - ١٨٩٩ م) .

(٤٣) السمعاني (+ ٥٦٢ هـ و ١١٦٦ - ١١٦٧ م) : القاضي أبو سعيد عبد الكريم .

“كتاب الأنساب” .

Gibb Memorial Series, No. XX. (London, 1912).

(٤٤) السيوطي (+ ٩١١ هـ و ١٥٠٥ م) : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين .

(١) “حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة” جزآن ، (القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ) ترجمه

الى الانجليزية الميجر هـ . س . جاريت Major H. S. Jarrett (كلكتا سنة ١٨٨١ م) .

(ب) “تفسير الجلالين” ، ٨ أجزاء في ٤ مجلدات .

(٤٥) الشَّاشْتِي (+ ٣٨٨ هـ و ٩٩٨ م) : أبو الحسن علي بن محمد .

”كتاب الديارات“ (Berlin, We. 1100)

(٤٦) أبو شامة (+ ٦٦٥ هـ و ١٢٦٧ - ١٢٦٨ م) : عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم

ابن عثمان شهاب الدين الملقب بأبي شامة ، شافعي من أهالي دمشق .

”كتاب الروضتين في أخبار الدولتين“ .

Recueil des Histoires des Croisades, Historiens Orientaux, Tome IV; another edition, 2 vols. (Cairo, 1287 A. H.)

(٤٧) أبو شجاع (+ ٤٨٨ هـ و ١٠٩٥ م) : محمد بن الحسين بن عبد الله بن ابراهيم الوزير ظهير

الدين أبو شجاع الرُّوذراوَرِي .

”ذيل كتاب تجارب الأمم“ .

طبعة ه . ف . أملدروز (H. F. Amedroz) وترجمه الى الانجليزية الأستاذ مارجوليوت

(Prof. D. S. Margoliouth) (أكسفورد سنة ١٩٢١)

(٤٨) ابن شداد (+ ٦٣٢ هـ و ١٢٣٤ م) : القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم .

”النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية“ .

(Recueil des Histoires des Croisades, Historiens Orientaux, Tome III).

(٤٩) الشهرستاني (+ ٥٤٨ هـ و ١١٥٣ م) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .

”الملل والنحل“ ٥ أجزاء (القاهرة سنة ١٣١٧ هـ) .

(٥٠) أبو صالح (+ ٦٠٥ - ٦٠٦ هـ و ١٢٠٨ م) : الأرمني .

”تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني“ المعروف بكتاب كنائس وأديرة مصر .

طبعة وترجمة إيفتس (B. T. A. Evetts) (أكسفورد سنة ١٨٩٥ م) .

(٥١) الطبري (+ ٣١٠ هـ و ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير .

”تاريخ الأمم والملوك“ :

طبعة دي غويه (De Goeje) ، Series (B) ٧ أجزاء (لیدن سنة ١٨٨١ - ١٨٨٣ م)

(٥٢) الطوسي (+ ٤٦٠ هـ و ١٠٦٧ - ١٠٦٨ م) : محمد بن الحسن .

”فهرست كتب الشيعة“ (كلكتا سنة ١٨٥٥ م) .

- (٥٣) طيفور (+ ٢٨٠ هـ و ٨٩٣ - ٨٩٤ م) : أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر .
”تاريخ بغداد“ الجزء السادس ، طبعة هـ . كلر (H. Keller) ، (لايسك سنة ١٩٠٨ م) .
- (٥٤) ابن عبد ربه (+ ٣٤٩ هـ و ٩٤٠ م) : شهاب الدين أحمد .
”العقد الفريد“ ٣ أجزاء (بولاق سنة ١٢٩٣ هـ) .
- (٥٥) عبد اللطيف البغدادي (٦٢٩ هـ و ١٢٣١ م) : موفق الدين عبد اللطيف .
(١) ”مختصر تاريخ مصر“ Ed. by J. White (Oxford, 1800)
- (٢) *Rélation de l’Egypte, translated with historical notes by De Sacy* (Paris, 1810).
- (٥٦) عريب بن سعد (+ ٣٦٦ هـ و ٩٧٦ - ٩٧٧ م) : القرطبي .
”صلة تاريخ الطبري“ ، طبعة دي غويه De Goeje (لندن سنة ١٨٩٧ م) .
- (٥٧) ابن عساكر (+ ٥٧١ هـ و ١١٧٥ م) : الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن .
”التاريخ الكبير“ ٥ أجزاء (دمشق سنة ١٣٢٩ - ١٣٣٢ هـ) ، ويوجد منه مخطوط بالمكتبة
الأهلية بباريس تحت رقم ٢١٣٧ .
- (٥٨) علي مبارك باشا :
”الخطط التوفيقية“ ٢٠ جزءا . (بولاق سنة ١٣٠٦ هـ) .
- (٥٩) عماد الدين الأصفهاني (+ ٥٩٧ هـ و ١٢٠١ م) : أبو عبد الله محمد بن أبي الرجاء .
”خريدة القصر وجريدة العصر“ (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٣٣٣٦ - ٣٣٣١) .
- (٦٠) عمارة اليمنى (+ ٥٦٩ هـ و ١١٧٤ م) : أبو الحسن نجم الدين اليمنى .
(١) ”كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية“ طبعة هارتوج ديرنبورج
(Hartwig Derenbourg) (باريس سنة ١٨٩٧ م) .
- (٢) Tome Second (a) partie arabe. Poésies, Epitres (Tarassulât), Biographies, Notices en arabe par Oumâra et sur Oumâra. (Paris, 1909).
- (٦١) دي غويه : م ج .
De Goeje, M. J.
Mémoire sur les Carmathes du Bahraïn et les Fatimides (Leyden, 1886).
- (٦٢) فاسيل إف :
Vasil, Ev., A.A.
Cambridge Medieval History, Vol. IV.
- (٦٣) أبو الفدا (+ ٧٣٢ هـ و ١٣٣١ م) : اسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماة .
المختصر في أخبار البشر ٤ أجزاء (القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ) .

- (٦٤) أبو الفرج الملقب (+ ٦٨٥ هـ و ١٢٨٦ م) : جريجورى المسمى بارهبايس .
 "مختصر الدول" ٣ أجزاء (أكسفورد سنة ١٦٧٣ م) .
- (٦٥) فريد ليندر : اسرائيل .
 Friedländer, Israël.
 "The Heterodoxies of the Shi'ites in the Presentation of Ibn Hazm",
 Journal of the American Oriental Society, vols. 28 and 29 (New
 Haven, 1907 and 1909).
- (٦٦) فان فلوطن : ج .
 Vloten, J. van.
 "Recherches sur La Domination Arabe, Le Chûtisme et les Croyances
 Messianiques, sous le Khalifat des Omayyades." (Amsterdam, 1894).
- (٦٧) القضاى (+ ٤٥٤ هـ و ١٠٦٢ م) : القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن خضر
 الشافعى المذهب .
- "عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف" (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٤٩١) .
- (٦٨) القفطى (+ ٦٤٦ هـ و ١٢٤٨ م) : جمال الدين على بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب .
 "إخبار العلماء بأخبار الحكماء" (لايسك ١٣٣٠ هـ ١٩٠٣ م) .
- (٦٩) ابن القلانسى (+ ٥٥٥ و ١١٦٠ م) : أبو يعلى حمزة .
 "تاريخ ابن القلانسى" المسمى "ذيل تاريخ دمشق" مصحوب بشذرات من تواريخ
 ابن الفارق وسبط بن الجوزى والذهبي (بيروت سنة ١٩٠٨ م) .
- (٧٠) القلقشندى (+ ٨٢١ هـ و ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد .
 "صبح الأعشى فى صناعة الانشا" ١٤ جزءا (القاهرة سنة ١٩١٣-١٩١٧ م) .
- (٧١) الكتبى (٧٦٤ هـ و ١٣٦٢-١٣٦٣ م) : محمد بن شاكر بن أحمد الحلبي "فوات الوفيات" .
 جزءان (بولاق سنة ١٢٩٩ هـ) .
- (٧٢) كترمير : إتيين مارك .
 Quatremère, Étienne Marc.
 "Mémoires Historiques sur la dynastie des Khalifes Fatimites." (Jour-
 nal Asiatique, Août, 1836).
- (٧٣) كريم : ألفرد فون .
 Kremer, Alfred von.
 "Culturgeschichte des Orients unter den chalifen." 2 vols. (Vienna,
 1875), translated by Khuda Bukhsh. (Calcutta, 1920-1927).
- (٧٤) الكندى (٣٥٠ هـ و ٩٦١ م) : أبو عمر محمد بن يوسف .
 "كتاب الولاة والقضاة" . به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب "رفع الإصر" لابن حجر العسقلانى،
 طبعة روفن جست (Ruhvon Guest)
 (E. J. W. Gibb Memorial Series, Vol. XIX, 1912).

Lane-Poole, Stanley.

(٧٥) لين پول : ستانلي .

- (1) "The Story of Cairo" (London, 1912).
- (2) "History of Egypt in the Middle Ages." (London, 1901).
- (3) "Coins and Medals." (London, 1892).
- (4) "Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem." (London, 1893).
- (5) The Muhammadan Dynasties, chronological and geneological tables with historical introductions. (Paris, 1925).

Mann, J.

(٧٦) مان : ج .

"The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs."
(Oxford, 1920).

(٧٧) الماوردي (+ ٤٥٠ هـ و ١٠٥٨ م) : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري .
"الأحكام السلطانية" (القاهرة سنة ١٢٩٨ هـ ولندن سنة ١٩٠١ م) .

(٧٨) أبو المحاسن (+ ٨٧٤ هـ و ١٤٦٩ م) : جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي "النجوم
الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" جزء ١ و ٢ طبعة جوينبول (Juynboll) (ليدن سنة
١٨٥١ - ١٨٥٥ م) ووليم بوپر (William Popper)

(٧٩) المحلى (+ ٦٥٢ هـ و ١٢٥٤ م) : حسام الدين "الهدائق الوردية" (مكتبة المتحف البريطاني
القسم الشرقي رقم ٣٧٨٦) .

(٨٠) المراكشي (+ ٦٦٩ هـ و ١٢٧٠ - ١٢٧١ م) : محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي
"كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب" طبعة ر . دوزي (R. Dozy) الطبعة الثانية (ليدن
سنة ١٨٨١ م) ، وترجمه وشرحه أ . فانيان (E. Fagnan) (الجزائر سنة ١٨٩٣ م) .

(٨١) ابن المرتضى (+ ٣٢٥ هـ و ٩٣٦ - ٩٣٧ م) : المهدي لدين الله أحمد بن يحيى
"المنية والأمل" مكتبة المتحف البريطاني ، القسم الشرقي ، رقم (٣٧٧٢) ؛ وهو أول شرح
لكتاب "غايات الأفكار" (مكتبة المتحف البريطاني القسم الشرقي رقم (٣٩٨٦) . والنسخة
الثانية من الشروح مجموعة تحت عنوان "غايات الأفكار" .

Margoliouth, Prof. D. S.

(٨٢) مرجوليوت : د . س .

"Cairo, Jerusalem and Damascus." (Oxford, 1907).

(٨٣) المسعودى (+ ٣٤٦ هـ و ٩٥٦ م) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي .

(١) "كتاب التنبيه والإشراف" طبعة دى غويه (De Goeje)

(Bibliotheca Geographorum Arabicorum, Vol. VIII. (Leyden, 1893).

(٢) "مروج الذهب ومعادن الجوهر" جزآن (القاهرة سنة ١٣٠٣ هـ و ١٨٨٥ م) ، ٩ أجزاء

ترجمه الى الفرنسية س . باربييه دى مينار (G. Barbier de Meynard) (باريس
سنة ١٨٦١ — ١٨٧٧) .

(٨٤) مسكويه (+ ٤٢١ هـ و ١٠٣٠ م) : أبو علي أحمد بن محمد ، "كتاب تجارب الأمم"

النسخة العربية جزآن . طبعة ه . ف . أمدروز (H. F. Amedroz) وترجمه الأستاذ
مرجوليوث (Prof. D. S. Margoliouth) (أكسفورد سنة ١٩٢١ م) .

(٨٥) مسلم (+ ٢٦١ هـ و ٨٧٥ م) : أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري "الجامع الصحيح"
٨ أجزاء في ٤ مجلدات (القاهرة سنة ١٣٢٩ — ١٣٣٢ هـ) .

(٨٦) المعرى (+ ٤٤٩ هـ و ١٠٥٧ م) : أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان :

(١) "سقط الزند" (القاهرة ١٣١٩ هـ) .

(٢) "لزوم مالا يلزم" (القاهرة سنة ١٨٩١ م) .

(٨٧) المقدسى (+ ٣٨٧ هـ و ٩٩٧ م) : شمس الدين أبو عبد الله محمد .

"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" طبعة دى غويه (Bib. Geog. Arab. (De Goeje)
(ليدن سنة ١٩٠٦ م) .

(٨٨) المقرئ (+ ١٠٤١ هـ و ١٦٣٣ م) : أحمد بن محمد .

"فتح الطيب في غصن الأندلس الرطيب" ٤ أجزاء (بولاق سنة ١٢٧٩ هـ و ١٨٦٢ م) .

(٨٩) المقرئى (+ ٨٤٥ هـ و ١٤٤١ م) : تقي الدين أحمد بن علي :

(١) "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" جزآن (بولاق سنة ١٢٧٠ هـ) .

(٢) "اتعاظ الختفا بأخبار الخلفاء" (بيت المقدس سنة ١٩٠٨ م) .

(٣) "السلوك في معرفة دول الملوك" مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٠٦٩ .

ترجمه كترمير (Quatremère) الى الفرنسية (Histoire des Sultans Mamluks de l'Egypte)

وذيله بمذكرات فيلولوجية وتاريخية وجغرافية ، وهو جزآن (باريس

سنة ١٨٣٧ م) .

(٤) "التاريخ الكبير المقتفى".

(١) مخطوط بمكتبة الجامعة بليدن رقم ٢٣٦٦ ، ٣ أجزاء .

(ب) مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٢١٤٤

Miller, Konrad von.

(٩٠) ملر : كنراد فون .

Mappæ Arabicæ, drawn after Idrisi, 4 parts (Stuttgart; 1926-1927).

(٩١) ابن منجب (+ ٥٤٢ هـ و ١١٤٧ م) : أمين الدين تاج الرئاسة أبو القاسم علي ، ويسمى أيضا الصيرفي المصري "الإشارة إلى من نال الوزارة" (القاهرة سنة ١٩٢٤ م) .

(٩٢) ابن ميسر (+ ٦٧٧ هـ و ١٢٧٨ م) : محمد بن علي بن يوسف بن جلب .

"تاريخ مصر" طبعة هنري ماسيه (Henri Massé) (القاهرة سنة ١٩١٩ م) .

(٩٣) ناصري خسرو (+ ٤٨١ هـ و ١٠٨٨ م) :

"سفرنامه" .

(Rélation du voyage de Nasiri Khosrau en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie et en Perse), Persian Text and Translation by Charles Schefer (Paris, 1881).

(٩٤) ابن النديم (+ ٣٨٣ هـ و ٩٩٣ م) : محمد بن اسحق "كتاب الفهرست" جزءان (لايسك سنة ١٨٧١ م) .

(٩٥) النويري (+ ٧٣٢ هـ و ١٣٣٢ م) : أحمد بن عبد الوهاب .

"نهاية الأرب في فنون الأدب" (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٥٧٦) . نشرت دار الكتب الملكية بالقاهرة ٧ أجزاء من هذا الكتاب .

Nicholson, John.

(٩٦) نيكلسن : جون .

"An Account of the Establishment of the Fatemite Dynasty in Africa." (Tübingen, 1840).

Nicholson, Prof. Reynold A.

(٩٧) نيكلسن : الأستاذ رينولد أ .

"Literary History of the Arabs." (London, 1914).

(٩٨) ابن هاني (+ ٣٦٢ هـ و ٩٧٣ م) : أبو القاسم المكنى بأبي الحسن محمد .

"ديوان ابن هاني" (بيروت سنة ١٣٢٦ هـ) .

(٩٩) الهدوى (+ ٦٧٠ هـ و ١٢٧١ - ١٢٧٢ م) : الإمام المنصور بالله شرف الدين الحسين ابن يحيى ، "أنوار اليقين في فضائل أمير المؤمنين" ، (مكتبة المتحف البريطاني ، القسم الشرقى رقم ٣٨٦٨) .

(١٠٠) ابن هشام (+ ٢١٨ هـ و ٨٣٣ م) : أبو محمد عبد الملك .

"كتاب سيرة رسول الله" ، ٥ أجزاء طبعة ف . وستنفلد (F. Wüstenfeld, Göttingen, 1858-1860).

(١٠١) هلال الصابئ (+ ٤٤٨ هـ و ١٠٥٦ م) : أبو الحسن بن الحسن بن أبي إسحق إبراهيم الكاتب .

(١) "تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء" طبعة ه . ف . أمدروز (H. F. Amedroz) ، وذيله الناشر بفهرس ومذكرات .

(٢) الجزء الثامن من تاريخه (٣٨٩-٣٩٣ هـ) ، طبعة أمدروز (H. F. Amedroz) . وطبعه بعد ذلك وترجمه الأستاذ مرجوليوت (Prof. D. S. Margoliouth) وذيل به كتاب "تجارب الأمم" لمسكويه (القاهرة سنة ١٩١٩ م) .

(١٠٢) الهمداني (+ ٣٣٤ هـ و ٩٤٦ م) : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف ابن داود .

"صفة جزيرة العرب" جزآن ، طبعة دافيد هنريش ميلر (David Heinrich Müller) (لیدن سنة ١٨٩١) .

(١٠٣) ابن واصل (+ ٦٩٧ هـ و ١٢٩٧ - ١٢٩٨ م) : جمال الدين بن واصل الشافعي المذهب "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ١٧٠٢) .

(١٠٤) وستنفلد : ف . فون . Wüstenfeld, F. von.

(1) "Geschichte der Fatimiden Chalifen." (Göttingen, 1881).

(2) "Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke." (Göttingen, 1882).

(١٠٥) ياقوت (+ ٦٢٦ هـ و ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي .

(١) "معجم البلدان" ، ١٢ جزء (القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ و ١٩٠٦ م) .

(٢) "إرشاد الأريب الى معرفة الأديب".

E. J. W. Gibb Memorial, Series VI. 7 vols. (Cairo, 1907-1911).

(٣) "مراسد الاطلاع على أسماء الأماكن والبقاع" : اختصره عبد المؤمن بن عبد الحق ، ٤ أجزاء ، طبعة جوينيل T. G. J. Juynboll (لندن سنة ١٨٥٣م).

(١٠٦) يحيى بن الحسنين (+ ٣٦٠ هـ و ٩٧١ م) : الإمام يحيى بن الحسين بن هارون بن زيد بن علي بن أبي طالب "كتاب الإفادة في تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية" ، مخطوط بمكتبة الجامعة بليدن رقم (١٩٧٤) .

(١٠٧) يحيى بن سعيد الأنطاكي (+ ٤٥٨ هـ و ١٠٦٦ م) .

"صلة كتاب أوتينا" المسمى "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق" ، جزآن (بيروت سنة ١٩٠٩م) .

(١٠٨) يعقوبى (+ ٢٨٣ هـ و ٨٩٥ م) : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح .

(١) "تاريخ يعقوبى" ، جزآن ، طبعة هوتسما (M. Th. Houtsma) (لندن سنة ١٨٨٣م) .

(٢) "كتاب البلدان" ، طبعة دى غويه (De Goeje) Vol. VII (Bibl. Geog. Arab.) (لندن سنة ١٨٩٢م) .

فهارس الكتاب

١ - الأعلام

(١) أسماء الرجال :

(١)

أرنولد ٢١٧ ، ٣١٧
أسامة بن منقذ ٤٤ ، ١٤٤ ، ١٣٦ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ،
٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
٢٩٧ ، ٢٩٦
أسامة بن زيد ٢٩
ابن إسحق ٦
إسحق بن جعفر الصادق ١٨٧
أبو إسحق الصابي ٧
ابن أسعد — المهذب ١٧٠ ، ١٧١
إسماعيل بن جعفر الصادق ٤٥ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ،
٦٨ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ١٣٣ ،
إسماعيل بن المنصور ١١٥
ابن الأشتر — عبادة ٣٤
أشئاس ٤٨
الاصطخري ٤٧
ابن أبي أصيبعة ١١٠ ، ١٧ ، ٣١٨
الأصغر أمير قزوين ٧٣
الأصفهاني — أبو الفرج صاحب الأغاني ٣١٧
أطاخان ٥٥
إفكيكين ٢٤٧
إفراهام — البطريق ١٩٩
الأفضل بن بدر الجمالي ١٣ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤١ ،
١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٩٥ ، ٢٣٠ ، ٢٤٠ ،
٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٥٣ ،
٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
البتكين ٩٨
أندروز ١٠ ، ٣١٨
أمرؤ القيس ١٦٢

إبراهيم بن الأغلب ٥٠ ، ٥٦ ، ٩٧
إبراهيم الصولي ٨٣
إبراهيم بن عبادة بن الحسن ٤٥
إبراهيم بن محمد العامري ٣٩ ، ٤١
ابن الأنبرص ٤٠ ، ١٥ ، ٢٤ ، ٤٢ ، ٥٢ ، ٥٣ ،
٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٥ ، ٨٣ ،
٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١١٤ ،
١٢٣ ، ١٣٣ ، ٢٠١ ، ٢٧٤ ، ٢٩٢ ،
٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ،
٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٧ ،
أحمد بن عبادة بن ميمون ٦٧ ، ٦٨
أحمد بن علي بن الأخشيذ ٩٢ ، ٩٦
الأحنف بن قيس ٤٧
الاحرم ٢٠٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٧
الأخشيذ — محمد بن طنج ٥٠ ، ٦٥ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٧ ،
٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٥٥ ،
ابن الأخفش ١٦٥
أدريس بن عبادة ٤٦ ، ٩٧
الإدريسي ٢٥٨ ، ٣١٧
الآمرات ١٤ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٦٠ ،
١٦٥ ، ١٦٩ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ،
٢٤٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ،
٣٦١ ، ٣٦٤
أرضون ٢١٢
ابن الأرقم ٤٧

الحاكم البغدادي ٢٥٩
 ابو حامد الأنطاكي الشاعر ١٥٩
 حباصة بن يوسف المغربي ٨٢، ٨١
 الحبيب — انظر مجد
 الحجاج بن يوسف الثقفي ٣٨
 ابن حجر العسقلاني ف ٦، ٢٠، ٢٩، ١٩١
 ٣٢٥، ٣٢٢، ٢٧٥، ١٩٤، ١٩٣، ١٩٢
 ابن ابي حذيفة — مجد ٢٨، ٢٩، ٣٠
 ابن حزم ٢، ٣، ٣٠، ٣١، ٣٤، ٤٨، ٣٢٠
 ابو الحسن الأشعري ١٣٨
 الحسن بن جعفر الحسني ١١٤
 حسن بن جعفر التريجي ٤٨، ٤٩
 الحسن بن خليل الثقفي الشافعي ١٩٣
 الحسن بن زيد العلوي ١٠٥
 الحسن بن سهل ٢٥٥
 الحسن بن عبد العزيز القارمي ٢٤٥
 الحسن بن عبد الله عامل الخراج ١٨٢
 الحسن بن عبيد الله بن طفيح ٩٦، ٩٧، ١٠٢، ١١٢
 الحسن العسكري ٤٧، ٤٨، ٤٩
 الحسن بن علي ٣١، ٣٢، ٣٦، ٤٦، ٥٩، ٩١
 ١٢٢، ٢٨٤، ٣١٣، ٣٦٧
 الحسن القرطبي الملقب بالاعصم ١١٣، ١١٤
 الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميون ٦٨
 الحسين بن الحسن بن الحسن بن الحسن ٤٦
 الحسين بن جوهر ١٠، ٤١، ٢٠٤، ٢٠٧، ٢٢٠
 الحسين بن علي ٢٨، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٤٣، ٤٤
 ٤٦، ٥٩، ٦٦، ٧٧، ٩١، ١٠٦، ١١٠
 ١٢٢، ١٨٧، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٥٤، ٢٨٤
 ٣١٣، ٣٦٧
 الحكم الثاني الأموي بالأندلس ١٤٢
 الحلج ١٣٨
 الحلواني — داعي الشيعة ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥
 ابن حداث زعيم الأتراك ٢٥٧
 حمزة بن علي ١٤٤، ٢٠٩
 الحميري الشاعر ٣٧
 ابن حنبل — الإمام أحمد ٩٨

جعفر الصادق ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٥٢، ٦٣، ٢٢٣، ٢٥٤
 جعفر بن علي ٤٨
 جعفر بن فلاح المغربي ١١٢، ١١٣
 ابو جعفر مسلم العلوي ٩٥، ١٠٦، ١٠٧، ١١٠
 ابو جعفر المنصور ٤٥، ٤٨، ١٧٩، ١٨٧، ٢٨٢
 جف جد الاخشيد ٨٥
 جلد — فان ٣٦
 جم شيد ٢٨٥
 جوينو ٦٦، ٦٧، ٩٨
 ابن الجوزي — أبو الفرج ١٥، ٢٧٥
 ابن الجوزي — سبط ص، ش ٦٦، ١٦٤، ١٦١
 ١٦٢، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٣١٩
 جولد زهر ٣، ٣١٩
 جون زيميسكيس ١٠٠، ١٠١
 جوهر الصقلي ٤، ٦، ٨٧، ٩٢، ١٠٥، ١٠٦
 ١٠٧، ١١٠، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩
 ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦
 ١٣١، ١٥٣، ١٥٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢
 ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ٢٣٣
 ٢٣٤، ٢٤٤، ٣٠٨
 جويار ٣٢٠

(ح)

حاجي خليفة ١، ٣، ٩، ١١، ١٦، ١٧، ١٨
 ١٩، ٢٠، ٢١٢، ٢٩٩، ٣٢٠
 الحافظ الفاطمي ت ١٤، ١٣٣، ١٤٠، ١٦٥
 ١٦٦، ١٦٧، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧
 ٢٣٠، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٦٥، ٢٨٠، ٢٨٥، ٢٩٣
 حافظ القصار ١٣٨
 الحاكم بأمر الله الفاطمي ع، ف، ض، ق، ٧، ٨، ١٠
 ١٢، ١١٢، ١٢١، ١٢٢، ١٢٧، ١٢٨
 ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٦، ١٣٧
 ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩
 ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٩١، ٢٠٠، ٢٠١
 ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨
 ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢
 ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩
 ٢٣٩، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٧١
 ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩
 ٢٨١، ٢٨٢، ٢٦١، ٣٦٤، ٣٦٥

سبط ابن الجوزي ٤٠٦ ، ١٦٤ ، ٢٧٥ ، ٣٠٤ ، ٣٢٥

السراج — أبو عكرمه ٤٠

ابن أبي صريح — عبد الله ٢٨

سعادة بن حيان ١٨٦

ابن سعد ١ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٢٢

ابن سعدون الوريثي الشاعر ٧٢

ابن سعيد ٤٠٥ ، ٦٠٣ ، ١٣٠ ، ١٧٠ ، ٨٩٠ ، ٩٠٠

٢٩١ ، ٩٢٣ ، ٩٤٠ ، ٩٥٠ ، ١٨١ ، ٢٥٥

٢٧٧ ، ٣٢٢

سعيد بن أحمد — انظر عيдаقه المهدي

سعيد بن البطريق ٥

السفاح — أبو العباس ٤٢

السفاح بن عبد مائة ٤٢

أبو سفيان الداعي ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥

ابن السلاء ١٤٠ ، ٢٧٧ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥

٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨

أبو سلامة مرشد بن علي ... بن منقذ ١٣٦

السلفي — الحافظ ٢٧٧ ، ٢٩٦

سلمة بن خالد ٤٢

ابن سليل — أحمد ٢٤

سليمان النبي ١٦٧ ، ٢٨٥

سليمان بن عبد الملك الأموي ٣٨

سليمان بن كثير ٤١

دي سليمان ٨ ، ٦٩

السمعاني ٤٠٤ ، ١٠٠ ، ١١٠ ، ١٣٠ ، ٥٢ ، ٩٤ ، ١٩٥

٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٣٢٢

ابن السوداء — انظر ابن سبأ

السراي ١٣٦

سيف الدولة الحمداني ٩٣ ، ٩٩ ، ١١٤

السيوطي — جلال الدين ٥٠ ، ٨٠ ، ١٨٠ ، ٢٠٠ ، ٢٩٥

٢٠٠ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٢

(ش)

الشابشي ش ٧ ، ٢٥٥ ، ٢٢٣

الشافعي — الامام ١٨٧ ، ٢٣١

أبو شامة ص ١٦ ، ١٧ ، ١٢٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦

١٤٠ ، ٢٣١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١

٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٢٣

الرضي — الشريف ٧ ، ٨ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٣٢١

أبو ركة ٢٢٢ ، ٢٢٨

الروذ باري — الحسين بن أحمد عامل الخراج ١٨٢ ، ١٨٤

الروذ باري — صالح بن علي ٢٠٥ ، ٢٠٧

روغن جست ٩٢

رومانوس ١٠٠

ريحان — عزيز الدولة القائد ٢١٠

(ز)

ابن زيد الشاعر ١٦٦ ، ١٦٧

ابن أبي زيد الشاعر ١٦٥

الزبير بن العوام ٢٣ ، ٣٠ ، ١٧٩

ابن الزبير — الحسن بن علي ١٦٩

ابن الزبير — الرشيد ١٦٩

ابن الزبير — عبد الله ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨

زعة بن سطوس ٢٠٧

الزلازلي — الحسن بن عبد الرحيم ٢٣٦

ابن زبور — أبو منصور بن أبي العيث ٢١٨

زنكي ١٦ ، ٢٩٣

ابن زولاقي ف ٤ ص ٥٤ ، ٦٠ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٣

١٢٥ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩

٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٣٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥

٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٣٢٢

زياد — أبو محمد مولى بني حذان ٤٠ ، ٤١

ابن زياد عامل الكوفة ٣٣

زيادة الله بن العباس الأغلب ٢٦ ، ٥٨ ، ٥٩

زيد بن أنس الأزدي ٣٤

أبو زيد البلخي ٣

زيد بن علي ٢ ، ٤٣ ، ٤٤

زيري ابن متاد الصنهاجي ٨٦ ، ٨٧

(س)

دي سامي ف ٤ ر ٤ ش ٥٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١١٩

١٤٤ ، ١٤٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٣٢٢

ابن سبأ — عبد الله ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١

٣٦ ، ٤٧ ، ٣١٤

(ط)

ابو طاهر القرمطي ٢٧٤٠ ٧٤٠ ٧٣
 ابو الطاهر — محمد بن احمد القاضي ١٨١٠ ١١٥٠
 ١٩٣٠ ١٩٢٠ ١٩١٠ ١٩٠٠ ١٨٩٠
 الطائع العباسي ١١٣٠ ٦٩٠
 ابن طباطبا — علي بن محمد ١٨٢٠ ٧١٠ ٦٩٠
 ابن طباطبا — صاحب الفخرى ١١٠
 الطبري — محمد بن جرير ٢٤٠ ٩٠ ٥٠ ٣٠ ١٠
 ٤٠٠ ٣٩٠ ٣٤٠ ٣٠٠ ٢٨٠ ٢٧٠ ٢٦٠ ٢٥٠
 ٥٧٠ ٥٤٠ ٥٣٠ ٤٤٠ ٤٣٠ ٤٢٠ ٤١٠
 ٣٢٣٠ ٢١٤٠ ١٣٦٠ ٨٢٠ ٨١٠
 الطرطوشي — محمد بن الوليد الفقيه ١٩٥٠
 طنج — ابو الاخشيد ٨٥٠
 طنربك ٢٥١٠
 طلحة ١٧٩٠ ٣٠٠ ٢٢٠
 الطوسي — صاحب فهرست كتب الشيعة ٣٢٢٠
 ابن طولون — احمد ١٢٠٠ ١٠٥٠ ٩١٠ ٩٠٠
 ٣٦٧٠ ٣٦٥٠ ٢٧٦٠ ١٢٥٠ ١٢٣٠
 ابن الطوير ٢٧٢٠ ١٨٣٠ ١٤١٠ ١٤٠٠ ١٣٥٠
 طي بن شاور ٣٠٠٠ ٢٩٩٠
 ابن أبي طي ٢٥٩٠ ١٤١٠ ١٤٠٠ ١٣٥٠
 ٣٠٤٠ ٣٠١٠ ٢٩٩٠ ٢٧٣٠
 طيفور — ابو طاهر ٣٢٤٠ ٢٥٥٠

(ظ)

الظاهر الفاطمي ٢٩٧٠ ٢٩٦٠ ٢٩٤٠ ٢٩٣٠ ٢٩٢٠
 الظاهر الفاطمي ت ١٩١٠ ١٦٢٠ ١٦٠٠ ١٣٠٠
 ٢٢٩٠ ٢٢٨٠ ٢٢٧٠ ٢١٠٠
 الظاهر بريس ٣١٦٠ ١٢٨٠
 الظاهر بن صلاح الدين ١٥٠
 ابن عبد الظاهر ٢٨٤٠ ٢٨٣٠ ٢٤٩٠ ١٤٢٠
 ظهور الدين — أنظر "أبو شجاع"

(ع)

المادل بن أيوب ١٤٠٠
 المادل بن رزيك ٣٠٠٠ ٢٩٩٠
 ابن المازار — مومي الطبيب ١٨٢٠

شارد ٣٠١٠ ٣٠٠٠ ٢٩٩٠ ١٧٦٠ ١٢٣٠
 ٣٠٧٠ ٣٠٦٠ ٣٠٥٠ ٣٠٤٠ ٣٠٣٠ ٣٠٢٠
 شجاع بن شاور ٣٠٣٠
 أبو شجاع ٢٠٠٠ ١٩٩٠ ١٠٠٠ ١٣٠٠ ١٠٠٠ ٢٠١٠
 ٣٢٣٠ ٢٠٥٠ ٢٠٣٠ ٢٠٢٠ ٢٠١٠
 ابن شذاد ص ٣٠٣٠ ٣٠١٠ ٢٩٢٠ ١٦٠ ١٥٠
 ٣٠٩٠ ٣٠٨٠ ٣٠٧٠ ٣٠٦٠ ٣٠٥٠ ٣٠٤٠
 ٣٢٣٠ ٣١٢٠ ٣١٠٠
 الشعبي ٣٤٠
 شقيح صاحب المظلة ١٨٢٠ ١٢٦٠
 أبو الشلمع — محمد ٦٨٠
 الشفري ٢٩٩٠
 الشهرستاني ٣٢٥٠ ٣٦٠ ٣٤٠ ٣١٠ ٣٠٠
 شيركوه — أسد الدين ٢٩٥٠ ١٤٠٠ ١٧٠ ٧٠ ٥٠
 ٣٠٨٠ ٣٠١٠ ٢٩٦٠
 شيفير — شارل ١٣٠

(ص)

أبو صالح الأرمي ص ٢٣٣٠ ٢١٧٠ ١٩٩٠ ٧٠
 ٣٢٣٠ ٢٩٣٠ ٢٩٢٠
 صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ١٢٠٠
 صبح أخو شاور ٣٠٣٠
 الصقار — أنظر يعقوب بن الليث
 صلاح الدين الأيوبي ر ص ١٧٠ ١٦٠ ١٥٠
 ١٣٥٠ ١٣٣٠ ١٣١٠ ١٢٨٠ ١٢٣٠ ١١٨٠
 ٢٤٩٠ ٢٣١٠ ١٧٧٠ ١٧١٠ ١٦٣٠ ١٤٠٠
 ٣٠٢٠ ٢٩٩٠ ٢٩٨٠ ٢٩٦٠ ٢٥٩٠ ٢٥٣٠
 ٣١٢٠ ٣٠٨٠ ٣٠٧٠ ٣٠٦٠ ٣٠٥٠ ٣٠٤٠
 الصليحي ٢٩١٠
 ابن صودة — خير الكتب ١٤١٠ ١٤٠٠
 ابن صولاب — رجاء عامل اتخراج ١٨٤٠
 الصولي ٨٣٠

(ض)

ضرفام ٣٠٧٠ ٣٠٢٠ ٣٠١٠ ٣٠٠٠
 ابن الضيف الشاعر ١٦٩٠

قراقوش — بهاء الدين ٣١٢

قراقوش شرف الدين الأرمي ٣١٢

القرطبي — محمد بن جعفر ٩٤

القرطبي — محمد بن سعد ٩٥، ٩٤

قرعويه والي حلب ١١٤

القنبري — خالد بن عبد الله عامل هشام ٢٨٥

قسطنطين السابع ٩٩

القشيري — أحمد بن محمد الوزير ٢٠٦، ٢٠٧

القصور الفئان ٢٤٥

القضاعي — المؤرخ المصري ص، ص ١٢، ١٨٤

١٩٢، ٢٦٨، ٢٧٥، ٢٧٧، ٣٢٥

القنطري ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٠٥، ٢٠٩

فلان — السلطان ٣٦٥، ٣٩٥

القلقيشيني ١١٢، ١٩٢، ١٥١، ١٥٢

١٥٢، ١٧٦، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٣

٢٦٥، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٨١

٢٨٢، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٢٧

ابن القلاسي ٢٣، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣

٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٠

٢١١، ٢١٦، ٢٢٢، ٢٢٩، ٢٤٧

٢٧٤، ٢٧٩، ٢٨٠، ٣٢٥

قنبر — مولى علي ٣٠، ٣١

ابن القيسرائي — الموق ٢٥٩

(ك)

كافور الإخشيد ٨٨، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦

١٠٢، ١١٢، ١٣٤، ١٨٨، ٢١٨

كاليجولا ٢٧٦

الكامل بن شاذي ٣٠٠

الكائن النقاش ٢٤٥

الكتبي — ابن شاذي ١٦٥، ١٨٠، ١٦٠، ١٦٢، ٣٢٥

كثيرمير ١٩٠، ٧٠، ٧٧، ٢٣٥، ٢٣٩، ٣٢٧

٣٢٧

كثير عزة ٣٧

الكرخي — أبو الحسن متولي الخراج ١٨٤

كريم — فون ٣٢٥

الكتبي — أبو عمرو ٥٥، ٢٠، ٥٧، ٨١، ٨٢

٨٣، ٨٥، ٩٢، ١٠٦، ١٨٩، ١٩٢، ١٩٤

٢٢٥، ٢٧٥

الكثري — السواديني ٣٠٩

ابن كيداد — أبو زيد محمد ٨٦، ٨٧، ٩٢، ٩٤، ٩٥

كيسان — مولى بجيلة ٣٤

كيسان — مولى علي ٣٢، ٣٤

(ل)

الليث — أبو البركات يوحنا ٢١٣

لوي الساج ٢٩٨

لين يول — ستانلي ر، ش ١٣، ٨٢، ٢٣٨، ٢٤٤

٢٥٠، ٢٥١، ٢٩٣، ٢٩٧، ٣٠١، ٣٠٢

٣٢٦

(م)

ماسينو — لوي ٥٦

مالك بن أنس ٤٥، ٢١٩، ٢٣١

مالك بن سعيد الفاروق قاضي القضاة ١٤٣، ١٤٧

١٩١، ٢٢٩

المامون البطاحي — الوزير ١٩٥

المامون العباسي ٧، ٤٧، ٩٧، ١٧٩، ٢٥٥

الماوردي صاحب الأحكام السلطانية ١١، ٥٣، ١١٩

١٣٢، ١٨٢، ٢١٤، ٣٢٦

ابن المتوج صاحب خطط مصر ١٧٧

المتوكل العباسي ٢٨٥

أبو المحاسن ٨١، ١٢، ٢٠، ٢١، ٢٤، ٢٧، ٢٦

١٠٢، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٣، ٢٠٩

٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠

٢٤٣، ٢٤٧، ٢٧٤، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣

٢٨٤، ٢٨٧، ٣٢٦

أخو محسن ٢، ٤، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٨

٢١٨

الحلي — حسام الدين ١٦، ٢٢، ٢٢٦

محمد بن إبراهيم العلوي ٤٧

محمد بن اسماعيل بن جعفر ٤٥، ٦٥، ٦٧، ٢١٤

محمد الحبيب ٥٣، ٥٥، ٧٧

محمد بن الحسن العسكري ٤٨، ٧٨

محمد بن طنج — أنظر الإخشيد

محمد بن عبد الله بن الحسن ٤٥

ن

ناصر الدولة بن حمدان زعيم الأتراك ٢٥٣
 ناصري خسرو ١٣٠ ٧٠٠ ٢١٧ ٢٤٨ ٢٤٩
 ٢٥٠ ٢٥١ ٢٢٨
 النبي محمد صلى الله عليه وسلم ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤
 ٢٧ ٢٩ ٣٢ ٣٦ ٤٤ ٤٧ ٦٦
 ٦٧ ٧٥ ٩٥ ١٠٩ ١١٦
 ١٢٥ ١٢٦ ١٣٣ ١٤٦ ١٥٥
 ١٥٦ ١٦٢ ٢٠٨ ٢١٩ ٢٥٤
 ٢٧٠ ٢٧٤ ٢٧٦ ٢٧٩ ٢٨٣
 ٢٨٤ ٢٨٩ ٣٦٧
 نجاح كبير الخصال ٣٠٨
 ابو نجاح النصراني ٢١٣
 نجم الدين الايوبي ٣١٠
 النحوي — ابو طاهر متولى ديوان الشام ٢٠٤ ٢٠٥
 ابن التميمي ٦٣ ٣٢٨
 ابن نسطورس — عيسى ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١
 ٢٠٢ ٢٠٧
 النسيبي ٣١
 نصر بن احمد الساماني ٧٢ ٧٤
 نصر الحاجب ٧٣
 نصر بن سيار ٤١ ٤٢
 نصر بن عباس الوزير ١٤ ٢٩٦ ٢٩٧
 نصر بن عبد الرحمن الشاعر ١٧٢
 ابن النعمان المؤرخ ٣٣
 ابن النعمان — القاضي الحسين ١٤٣ ١٩٣ ٢٠٧
 ٢٢٦
 ابن النعمان — القاضي عبد العزيز ١٤٧ ٢٠٧
 ابن النعمان — القاضي علي ٢٢٥
 ابن النعمان — القاضي محمد ١٤٣ ١٩١ ١٩٢
 ١٩٣ ٢٢٦
 نقفور فوكاس ٩٩ ١٠٠ ١٠٨
 النعماني ٤٩
 النوبختي — انظر حسن بن جعفر
 نوح عليه السلام ٢٢
 نور الدين زنكي ص ١٦ ١٨ ١٢٥ ١٦٣
 ١٧١ ٢٥٩ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٦
 ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣١١

١٨٦ ١٨٩ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٥ ١٩٦
 ٢٠١ ٢٠٩ ٢١٩ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤
 ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣٤
 ٢٣٥ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١
 ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٩
 ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨
 ٢٥٩ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٦
 ٢٦٨ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٨١ ٢٨٣
 ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٨ ٢٩٦ ٢٩٩ ٣٢٧
 ابن مقشر — ابو الفتح مهمل طبيب الحاكم ٢٠٥
 ابن مقلة ١٣٥ ١٣٨
 المكتفي العياشي ٥٧ ٥٨ ٩٧
 ملهم — اخو ضرغام ٣٠٠
 ابن منجب الصيرفي ش ٨ ١٢ ١٣ ١٤
 ٧٦ ١٣٤ ١٣٥ ١٨١ ٢٠١ ٢٠٢
 ٢٠٣ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢١٠ ٢١١ ٢١٨
 ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٥١ ٢٥٣ ٢٦٤ ٣٢٨
 منشأ اليهودي ١٩٩ ٢٠٠
 المنصور الفاطمي ت ٨٦ ٨٧ ٩٢
 المهدي — انظر عبيد الله
 ابن مهذب — محمد بن الحسين صاحب بيت المال ١٨٢
 ابن مهران ٨٢
 المهدي العياشي ٢٥٥
 مهلهل الخطاط ٢٥٩
 موسى عليه السلام ٢٣ ٢٤ ٦٧ ١٢٥ ١٢٦
 موسى بن جعفر ٤
 مؤنس الخادم ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٩٤
 ابن مباح ٢٦١
 ابن مبرص ق ش ٨ ١٣ ٧٦ ١١٨
 ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٩ ١٤١
 ١٥٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٨١
 ١٨٢ ١٨٣ ١٨٦ ١٩٠ ١٩٢
 ٢٠١ ٢٠٣ ٢٠٦ ٢١٠ ٢١١
 ١١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦
 ٢١٧ ٢١٨ ٢٢٥ ٢٣٠ ٢٣٣ ٢٣٥
 ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٥٢
 ٢٥٣ ٢٥٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨٢ ٢٨٣
 ٢٨٥ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٦ ٢٩٨ ٣٢٨
 ميسرة الداعي العباسي ٤٠
 ميون بن ديهان ٦٥

٢ - الأماكن

البصرة ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٣٩، ٤٥، ٤٧، ٥٠

بصري ٢٩٥

بغداد ٩، ١٤، ١٥، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦٨، ٧٣، ٨٠، ٨١، ٨٥، ٨٨، ٨٩، ٩٢، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٤، ١٠٥، ١١٨، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٢، ١٧٩، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠٥، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٤٢، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٩١، ٢٩٥، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥

بلبيس ٨٥، ٢٩٦، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٥

بلخ ٤٧

بلغاريا ٩٩

بلنسية ١٧، ١٩٥

بمباي ٥٥

البنجاب ٥٥

البنديقية ٩٩

الهنسا ٨

بولاق ٨٥، ١١٢

بيت المقدس ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٩، ١٩٩، ٢٠٦

٢١٩، ٢٤٨، ٢٩٨

بيسان ١٤٠

(ت)

تاهرت ٦٠، ٨٦

تبوك ٢٣

تركستان ٥٥، ٢٥٠

تروجة ١٠٦، ١١٠

تند ٢٥٧

تل باشر ٢١٤

تنيس ١١٣، ١١٤، ١٨٣، ٢٣٣، ٢٣٩

٢٤١، ٢٤٢، ٢٥١، ٢٥٦، ٢٥٧

توزد ٨٦

تونس ٥٩، ٦٠، ٩٧، ١٥٣

تهامة ٤٧، ١٧٤

(١)

أبهر ٤٧

إنجيم ٩٦

الأربس ٨٦

الأردن ١٤٠

أرسينية ٩٩، ٢١٤

إسمرود ١٦٠

إسكندرية ١٠٠

الإسكندرية ٧٦، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ١٠٥

١٠٦، ١١٠، ١١٥، ١٣٩، ١٦٧، ١٦٨

١٧٢، ١٨٤، ١٩١، ١٩٥، ١٩٩، ٢٤٢

٢٥١، ٢٧٧، ٢٩٦، ٣٠٤، ٣٠٦

أسوان ٢١٦

آسيا الصغرى ٢٥٠، ٣١٥

إشبيلية ١٥٣

الأشموين ٨٣، ٨٤، ١٨٣، ٢٣٣، ٢٩٨

أصمان ٧٣، ١٣٦، ١٦٢، ٢٠٥، ٢٧٧

ألمانيا ٩٩

الأناضول ٩٩

الأندلس — إسبانيا ١٧، ٤٠، ٥٦، ٩٧، ١٤٢

١٩٣، ١٩٥

أنطاكية ١٠٠، ١٠٨، ١٥٩

الأهواز ٤٥، ٤٧، ٥٠، ٢٥٥

(ب)

البابن ٣٠٢

بانجرا ٤٥

بادرايا ١٦٠

باكشاي ١٦٠

بجاية ٨٦

البحر الميت ٣٨

البحرين ٥٥، ٧٤

برقة ٨١، ١١٥، ١٥٣، ١٩١، ٢٩٥، ٣٠٠

(ج)

الجليل ٤٧

بريطان ٢٥٠

بلاد الجريد ٨٦

الجزائر ٥٥

الجزيرة ٣٩ ١٦٠ ٣٠٦

الجزيرة ٨٢ ٨٣ ١٠٦ ١١٠ ١١٥

٢١٧ ٢٩٤ ٣٠٤ ٣٠٩

(ح)

الحبشة ٢٥٠ ٢٠٩

الحجاز ٢٥ ٢٥ ٤٥ ٤٧ ٨١ ٩٣

١٠١ ٤١٠ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥

١١٦ ١٩٥ ٢٠٤ ٢٣٣ ٢٥٠ ٢٩١

٣١٣ ٣١٤

الحرّة ٤٤

حرموا ٣٩

حضر موت ٤١

حلب ١٥ ٩٩ ١٠٠ ١١٢ ١١٣ ١١٤

١٢٥ ١٥٩ ١٦٢ ١٦٣ ٢٩٨ ٢٩٩

٣٠٦ ٣١٤

حما ١٨ ١٩ ٤٩ ١٦٢

حصص ١١٤ ١٦٢ ١٧٠ ١٧١ ٣٠٦

الحمية ٣٨ ٤٠

حوران ١٤٠ ٢١٦ ٢٩٥

الحوف ٢٩٤

(خ)

خراسان ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٤ ٤٥ ٤٧

٧٢ ٧٤ ٩٧ ٢٤٨

الخليج القارمي ١٥

خوارزم ١١

خوزستان ٢٥٧

خير ١٩٥

(د)

ديق ٢٣٩ ٢٥٠

دجلة ٧٧ ١٠١ ١٦٠ ٢٥٥

الذّكة ١١٣

دلاص ٢٩٤

دمياط ١٨٣ ٢٣٣ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٥٦ ٢٥٧

٣٠٩ ٣١٠

دمشق ٢٦ ٣٤ ٣٨ ٨١ ٩٣ ١٠٤

١١٣ ١١٤ ١٦٢ ١٦٣ ٢٠٠ ٢١٦

٢٢٠ ٢٤٨ ٢٦٥ ٢٩٨ ٣٠٢

٣٠٦

دهلي ٢٥٠

ديار بكر ١٠١

بلاد الديلم ٤٧

(ر)

الريّة ٢٦

رقادة ٥٤ ٥٧ ٥٩ ٦٠ ٦٨ ٢٦٧

الرملة ٩٣ ١١٢ ١١٣ ٢٥١

روذبار ٢٠٥

الروسيا ٩٩

الروضة ١٩٢ ٢٧١

الزّها ١٠١

الري ٩ ٤٧ ٧٢ ٧٣

(ز)

الزاب ٨٦ ١٥٣

زنجان ٤٧

(س)

سامرا ٤٩

سببة ٨٦

سجلها ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦٨ ٦٩ ٨٦

١٣٣

سحّا ٢١٥

سلبية ٤٩ ٥٥ ٥٧ ٥٨ ٦٧ ٦٨ ١٣٣

السند ٥٥

السودان ٨٦ ٢٤٦ ٢٥٠

سورية ١٠٠ ١٠٤ ١٥٦ ٢١٩ ٢٩٥

٢٩٧ ٣٠٠

سوهاج ٩٦

السويس ١١٣

(ل)

الاذنية ١٣٧
لاعة — جبل ٥٥
ليان ٩٨
لك ٢٩٥
لويبا ٨٢

(م)

مأدراء النهر ٩٧ ٣١٤ ٣١٥
مجانة ٧٢
الملائن ٣١
المدينة المنورة ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٩ ٣٠ ٣٩
٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ١٠٤ ١١٤ ١٢٦
٢٠٩ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٥٧ ٢٨٨ ٣١٥
مراقبة ٨٢
مراكش ١٧ ٩٧ ٢٥٠
مرعش ٩٩
مرجحة ٨٦
مرور ٤١ ٤٧
مرور الروذ ٤٧
المسيلة ١٥٣
مشنول ٨٢
مصر القديمة ١١١ ١١٥ ١٢٥
المصيصة ١٠٠
معرة النعمان ١٦٢ ١٦٤
المغرب ٤٥ ٤٦ ٥٠ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٦
٥٧ ٥٩ ٦٨ ٧٩ ٨٠ ٨٢ ٨٣ ٨٦
٩٠ ٩١ ٩٢ ١٠٤ ١٣٤ ١٣٩
١٤٣ ١٥٣ ٢٢٦ ٢٢٣ ٢٤٢ ٣١٤
المغرب الأقصى ٥٠ ٥٦ ٥٧ ٨٦ ٨٧
المقنن ١١٢ ١٣٠ ١٣١
مكة المكرمة ٣٥ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤٥ ٤٦
٤٧ ٥٤ ٩٦ ١١٤ ١٢٦ ١٧٤
١٩٥ ٢٠٩ ٢٤٨ ٢٥٧ ٣١٥
منبج ٩٩
المنصورية ١٠٢ ١١٥
المنيا ٣٠٤
منية شلقان ١٠٦
منية الصيادين ١٠٦
المهدي ٨٠ ٨٦ ٨٧ ١٥٣
الموصل ١١٦ ١٦٣ ١٧٠ ٢٣٣ ٢٩١
٢٩٣ ٣١٤ ٣١٥
ميا قارقين ١٠١ ١٢٠

(ق)

قالقلا ١٠٠

القاهرة ٧٠ ٧٦ ١٠١ ١١١ ١١٢ ١١٣
١١٥ ١١٦ ١١٨ ١٢١ ١٢٣ ١٢٤
١٢٥ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٦
١٤٠ ١٤٣ ١٤٤ ١٦٠ ١٦١ ١٧٤
١٨٢ ١٨٤ ١٨٥ ١٩٠ ١٩٦ ٢٠٠
٢٠٢ ٢٠٧ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٩ ٢٢٠
٢٢٣ ٢٢٦ ٢٢٨ ٢٣٤ ٢٣٧ ٢٤١
٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢
٢٥٣ ٢٦٤ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٩ ٢٨١
٢٨٨ ٢٩١ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٧
٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٤ ٣٠٦
٣٠٩ ٣١٢ ٣١٤
قبرص ١٠١ ١٠٨
قرطبة ٤٤ ١٣٦ ٣١٤
قزوين ٤٧ ٧٣
قسطيلية ٨٦
قسنطينة ٥٥
القطائع ١١١ ١٢٠ ١٣٤
القلزم ١١٣ ١١٤
قوص ٢١٥ ٢١٦
القيروان ١ ٢١ ٢٢ ٢٥٢ ٢٥٧ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٧٢
٢٧٣ ٢٧٦ ٢٨٠ ٢٨٦ ١١٤ ١١٥ ١١٦
١٣٤ ١٥٤ ٢٩١
القيس ٨

(ك)

كبادوكيا ١٠٠

كربلا ٣٢ ٣٣ ٣٧ ٣٨ ٤٣ ١٨٧
الكرك ٣٠٩
كريت ٩٩
الكوفة ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٩ ٣٠ ٣٢ ٣٣
٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٨ ٣٩ ٤٥ ٤٧ ٧٣
كلجكا ١٠٠ ١٠١ ١٠٨ ١١١
كيفا ١١

٣ — المصادر

(١)

انماظ الحضا بأخبار الخلفاء — لثى الدين المقرىزى ع، ق
ش ١٩٠، ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٥٩، ٦٤،
٦٨، ٧٥، ٧٦، ٨١، ٨٣، ٨٦، ٨٧،
١٠٣، ١٠٩، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٢،
١٢٣، ١٢٦، ١٣١، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٥،
١٨٦، ٣٢٧
الآثار الباقية عن القرون الخالية — لليرونى ١١، ٢٨٥،
٣١٩
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم — للقدسى ٧، ٤٠،
٣٢٧
الأحكام السلطانية — للوردى ١١، ٥٣، ١١٩،
١٣٢، ٣٢٦
الأخبار الطوال — للدينورى ١، ٣٤، ٤٠، ٤١،
٣٢١
إخبار العلماء بأخبار الحكماء — للقفطى ٥، ٣٢٥،
الأدب الفارسمى فى عهد التار — للاستاذ براون ٢١٢،
٣١٨
الديارات — للشاشى ٧، ٢٥٥، ٢٢٣،
إرشاد الأديب — لياقوت ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦،
٩، ١١، ١٣، ١٤، ١٥، ١٣٤، ١٣٥،
١٣٦، ١٤١، ١٥٣، ١٦٣، ١٨٠، ١٨١،
٢٨٥، ٣٣٠
الاستيعاب للزلازل ٢٣٦
أسد الغابة فى معرفة الصحابة — لابن الأثير ٢٤، ٣١٧،
استعراض لديانة الدرر — دى سامى ٦٣، ١٤٤،
٣٢٢
أسرار الباطنية — لأبى بكر الباقلاوى ٦٨
الإشارة الى من نال الوزارة — لابن منجب الصيرفى ١٢،
١٣، ٣٢٨
الإصابة فى تمييز الصحابة — لابن حجر العسقلانى ٢٠، ٢٩،
٣٢٠
الاعتبار — أو حياة أسامة بن منقذ — لأسامة بن منقذ ٣١٧

الأغانى — لأبى الفرج الأصفهاني ٣، ٣١٧،
الإفاداة فى تاريخ الأئمة السادة — ليحيى بن الحسين ٢،
٤٧، ٣٣٠
الانتصار لواسطة عقد الأمصار — لابن دقاق ١٨،
٣٢١
الأنساب — للسمرقانى ٤، ١٠، ١١، ١٣، ٥٢،
٩٤، ١٩٥، ٢٠٥، ٢٠٦، ٣٢٢
أنوار اليقين — لشرف الدين الهدى ١٧، ٣٢٩
اليهود فى مصر تحت حكم الفاطميين — مان ١٩٩

(ب)

بحث عن زيادة العرب والشيع — فان فلوتن ٢، ٣٢٥،
البدء والتاريخ — مطهر بن طاهر المقدسى ٣
بدائع الزهور — ابن إياس ٢٠، ٣١٨
البرق الشامى — عماد الدين الأصفهاني ١٧
البلدان — اليقوبى ١، ٣٣٢

(ت)

التاج — لمجاظ ١٢٢
التاجى — لأبى اسحق الصابى ٧
تاريخ بغداد — لأبى طاهر طيفور ٢٥٥، ٢٢٤،
تاريخ الخلفاء الفاطميين — وستفندر ١٣٣، ٣٢٩
تاريخ الأدب العربى — بروكلمان ٤، ١٢، ٣٢٨
تاريخ العرب الأدبى — نيكلسن ١١، ٢٩، ٤٢، ٣٢٨
تاريخ الاسلام — الذهبي ١٨، ٦٨، ٣٢١
تاريخ القوس الأدبى — براون ٢٨٥، ٣١٨
تاريخ قضاة مصر — ابن زولاق ٢٠
التاريخ الكبير، المعروف بتاريخ دمشق — ابن دساكر
٣٢٤
تاريخ المسلمين فى الأندلس — دوزى ٢٢١
تاريخ مصر — لأبى عبد الله القرطى ٩٧
تاريخ مصر — لابن ميسرق ١٤١، ٣٢٨
تاريخ مصر فى العصور الوسطى — ستانلى لين بول ٨٢،
٣٢٠، ٣٢٦

(خ)

خريدة القصر وخريدة العصر — عماد الدين الأصفهاني

٣٢٤، ف

الخطط للقرنيزي ر، ١٩، ٢٨، ٣٠، ٥٣، ٥٥، ٥٧،

٥٩، ٦٥، ٧٦، ٨١، ٩٦، ١٠٥، ١١٤،

١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦،

١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣،

١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩،

١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥،

١٦٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦،

٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠،

٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤،

٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨،

٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤،

٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١،

٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٨٩،

٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤،

الخطط التوفيقية — على مبارك باشا ١١١، ٣٢٤

خطط مصر — القضاء ١٢

خطط مصر — ابن المتوج ١٧٧، ٢٣٤

الخلافة — المرحوم السير توماس أرنولد ٣١٧

(د)

دائرة المعارف الاسلامية ٢، ١٢، ٢١٧، ٢٣٤

الدول الاسلامية — ستانلي لين بول ٣٢٨

الديارات — أبو الحسن علي الشافعي ٧، ٣٢٣

ديوان ابن هاني الأندلسي ق، ١٥٤، ٢٦٧، ٣٢٨

ديوان الشريف الرضي ٧، ٧٥، ٣٢١

ديوان عمارة اليتي ١٧٦، ١٧٧

(ذ)

ذيل تاريخ دمشق — ابن القلانسي ١٣، ٣٢٥

ذيل كتاب تجارب الأمم — أبو شجاع ٣٢٣

(ر)

رحلة ابن بطوطة ٢٣٥

رحلة ابن جبير ٣٢١

رسالة في فضائل الأئمة الاثني عشرية — ابن أبي طي ٢٩٩

رسائل بديع الزمان الهمذاني ٤، ٢٤، ١٢١، ٣١٨

رسائل الحاكم بأمر الله ع، ف، ص، ر، ٧، ٨

٧٨، ١٢١، ١٤٤، ١٤٥، ٣٢٢

رسائل الخوارزمي ٤، ٢٦، ٣٢٠

رفع الإصر عن قضاة مصر — ابن حجر العسقلاني ٢٠،

١٩١، ١٩٢، ٣٢٢، ٣٢٥

الروضتين في أخبار الدولتين (أو تاريخ عهد نور الدين

وصلاح الدين) — لأبي شامة ١٦، ١٣٦، ٣٢٣

تاريخ مصر — للسبكي ٨، ١٥٩

تاريخ الأمم والملوك — ابن جرير الطبري ١، ٣٦٦، ٣٢٣

٣٢٣

تاريخ انحلال وسقوط الدولة الرومانية — ادوارد جيون

٩٨، ٩٩، ٣١٩

تاريخ النصرانية ومذهبهم الديني — ريني ديسوس ٣٢١

تاريخي وصف — عبد الله بن فضل الله المعروف بوصاف

الحضرة ٢١٢

تاريخ اليعقوبي ١، ٣٣٠

تأسيس الدولة الفاطمية في شمال افريقية — ج نيكلسن

٥٩، ٣٢٨

تجارب الأمم — لمسكويه ٤، ٤٩، ٨٤، ٩٨، ٢٠١

٣٢٩، ٣٢٩

تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء — هلال الصابي ٣٢٩

تحفة النظائر في غرائب الأمصار — ابن بطوطة ٣٢٠

تعالم الاسلام — المرحوم السير توماس أرنولد ٢١٧،

٣١٧

تفسير الجلالين — جلال الدين السيوطي ١٦٧، ٣٢٢

التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق — أوتينا ١٢،

٣١٨

التنبية والاشراف — المسعودي ١، ٣٩٤، ٤٣، ٣٢٧

(ج)

الجامع الصحيح — مسلم بن الحجاج ٣٢٧

الجمهرة — ابن دويد ١٣٦

(ح)

الحدائق الوردية — حسام الدين المحلى ١٦، ٣٢٦

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة — جلال الدين

السيوطي ٥، ١٧، ١٨، ٢٠، ٣٢٢

حياة أسامة بن منقذ — انظر كتاب الاعتبار

(س)

سراج الملوك — محمد بن الوليد الطرطوشي ١٩٥

سراج الهدى — محمد بن الوليد الطرطوشي ١٩٥

سفرنامه — ناصري خسرو ١٣٠٠، ٢٤٨، ٢٢٨

سقط الزند — لأنى العلاء المعري ١٠٠، ١٦٢، ٢٢٧

السلوك في معرفة دول الملوك — تقي الدين المقرئ ١٩

٢٣٥، ٣٢٧

سيرة أسامة بن منقذ ١٦٩

سيرة ابن هشام (سيرة النبي عليه الصلاة والسلام) ٢٢

٢٦، ٢٧٠، ٣٢٩

سيرة عمارة اليماني ١٧٧

سيرة القاهرة — ستانلي لين يول ٢٥٠، ٢٥١، ٢٢٦

(ش)

الشرعة الاسلامية — جولد زهير ٣١٩

شنع الشيعة على ما جاء في كتاب ابن حزم — فريد ليندر

٣٢٥، ٣٤٣

(ص)

صبح الأعشا في صناعة الإنشا — أبو العباس أحمد

القفشندي ١٩، ١٥١، ٣٢٧

صحيح البخاري ٢٧٦

صحيح مسلم ٢٤، ٢٠٦

صفة جزيرة العرب — الهمداني ٢٥٨، ٢٢٩

صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس — ستانلي لين يول

٢٠٢، ٣٢٦

صلة تاريخ أوتجا — يحيى بن سعد الأنطاكي ٣٣٠

صلة تاريخ الطبري — عريب بن سعد ٥٣، ٥٩

٨١، ٨٢، ٩٠، ٣٢٤

(ط)

الطبقات الكبير — ابن سعد ١، ٣٤، ٣٦، ٣٢٤

(ع)

العبر وديوان المبتدا والخبر — ابن خلدون ١٨، ٢٣٥

٣٢٠

المقد الفريد — ابن عبدويه ٣، ٣١، ٣٤، ٣٢٤

العين — الخليل بن أحمد ١٣٦

عيون الأنباء في أخبار الأطباء — ابن أبي أصيبعة ١٧، ٣١٨

العيون الدجج في حلي دولة بني طنج — ابن زولاق ٥، ٦

عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف — القضاعي ١٢، ٣٢٥

(غ)

غايات الأفكار — ابن المرتضى لدين الله أحمد ٣٤، ٣٢٦

(ف)

الفتح القدسي — عماد الدين الأصفهاني ١٧

فتوح البلدان — البلاذري ١٣٢

الفخري في الآداب السلطانية — ابن طباطبا ١١

الفصل في الملل والأهواء والنحل — ابن حزم ٢، ٣١

٣٤، ٣٢٠

فضائل مصر وأخبارها وخواصها — ابن زولاق ٦، ٢٧٥

٣٢٢

الفرق بين الفرق — البغدادي ٢، ٣٤، ٣٦، ٣٩

٣١٨

فهرست كتب الشيعة — الطوسي ٣٢٣

الفهرست لأبي النديم ١، ٤، ٦٣، ٢٢٨

فوات الوفيات — ابن شاكر الكندي ١٧، ١٨، ٣٢٥

(ق)

قاموس الملابس عند العرب — دوزي ٢٤٢، ٣٢١

القاهرة وبيت المقدس ودمشق — مرجوليوت ١١١

٢٣٨، ٢٩٨، ٣٢٦

كتاب الولاة والقضاة — أبو عمر الكندي ٢٠، ٢٧٥

٣٢٥

(ك)

الكامل في التاريخ — لابن الأثير ١٥، ٣١٧

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون —

حاجي خليفة ١٥، ١٦، ٢١٢، ٣٢٠

كنائس وأديرة مصر — أبو صالح الأرميني ٧، ٢٣٣، ٣٢٤

كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين — يحيى بن أبي طي ١٦

(ل)

لامية العرب للشنفرى ٢٩٩

اللزوميات لأبي العلاء المعري ١٠، ٣٢٧

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب — ابن واصل ١٨٠٦٨٠

٣٢٧٠

مقدمة ابن خلدون ١٨٠٥٣٠٠٧٦٠١٣٢٠٣٢٠

المقفى الكبير — تقي الدين المقرئ ع، ص، ش،

١٩٠٢٨٠٢٩٠٣٤٠٣٥٠٣٨٠٦٨٠

١٧٢٠٧٦٠٧٧٠٧٨٠٧٩٠١٣٣٠

١٨٩٠١٩٢٠١٩٦٠٢٨٨٠٣٢٨٠

الملل والنحل — الشهرستاني ٢٠٣٠٣٤٠٣٢٣٠

الموطأ — مالك بن أنس ٢١٩٠

المؤنس في أخبار إفريقية وتونس — ابن أبي دينار ٣٢١٠

ن

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة — لأبي المحاسن ٢٠٠٠

٣٢٦٠

نزهة المشتاق في ذكر الأوصاف والآثار والبلدان —

الإدريسي ٣١٧٠

نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة — التنوخي ٤٠٩٠٠

٣١٩٠٥٣٠

فتح الطيب — المقرئ ٢٠١٧٠٢٠١٤٢٠٠

١٥٣٠٢٢٠٠٢٣٥٠٣٢٧٠

النكت المصرية في أخبار الوزراء المصرية — عمارة اليمني

١٤٠١٦٧٠١٦٩٠١٧٤٠١٧٥٠١٧٦٠

٢٩٩٠٣٠٠٢٠٣٠٠٢٠٣٠٧٠٣٢٤٠

نهاية الأرب في فنون الأدب — النويري ١٨٠٦٤٠٠

٣٢٨٠

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية — ابن شداد ١٥٠٠

٣٢٣٠

و

وفيات الأعيان — لابن خلكان ٢٠١٧٠١٨٠٠

٣٢٠٠

الولاية والقضاء — لأبي عمر الكندي ٥٠٦٠٥٧٠٩٢٠٠

٣٢٥٠

ي

يقيم الدهر — للشافعي ٤٠١٠٠٦٩٠١٥٩٠٣١٩٠

اليهود في مصر وفلسطين في عهد الفاطميين — مان ٢١٧٠

٣٢٦٠

(م)

مجلة الجمعية الآسيوية الفرنسية ١٩٠٠٧١٠٧٧٠٣٢٦٠

مجلة الجمعية الآسيوية الملكية بانجلترا ٣٠١٩٠٣٢٦٠

مجلة الجمعية الأمريكية الشرقية ٤٣٠٣٢٥٠

مختصر تاريخ الدولة الفاطمية — أولري دي ليسى ش ٠

٣١٨٠

مختصر تاريخ مصر — لعبد الطيف البغدادي ١٥٠٣٢٤٠

مختصر الدول — لأبي الفرج الملقب ٢٢٥٠

المختصر في أخبار البشر — لأبي القدا ٢٢٤٠

مذكرات تاريخية وجغرافية — كترير ٢٢٧٠

مذكرات تاريخية عن أسرة الخلفاء الفاطميين — لكترير ٧٠

مذكرات عن قرامطة البحرين والفاطميين — دي غويهر ٠

٣٢٤٠

مذكرات لغوية عن العرب — دي سامي ر ٠١٤٤٠

١٤٥٠١٤٦٠٣٢٢٠

مراکش وفاس — هُست ٢٣٥٠

مرآة الزمان — سبط بن الجوزي ١٦٠٣١٩٠

مراد الاطلاع — ياقوت ١٥٠٣٣٠٠

مروج الذهب — السعدي ١٠٣١٠٣٢٠٣٤٠

٣٦٠٤١٠٤٢٠٣٢٧٠

المسالك والممالك لأبي عبيد البكري ١٣٠

المشاهد والأسرار التوحيدية لمولانا الحاكم ١٤٤٠

المعجب في تلخيص أخبار إفريقية والمغرب — عبد الواحد

المراكشي ١٧٠٨٦٠٣٢٦٠

معجم البلدان — ياقوت ٢٠١٠٠١٥٠٢٣٠٣٦٠

٣٩٠٤٥٠٤٦٠٤٧٠٤٩٠٥٧٠٧٢٠

١١٣٠١٦٠١٦١٠١٩٥٠٢١٦٠٢٣٩٠

٢٥٥٠٢٥٦٠٢٥٧٠٢٩٥٠٣٢٩٠

معجم شعراء الشيعة — ابن أبي طي ٢٩٩٠

المُغرب في حل المغرب — ابن سعيد ٥٠٦٠١٧٠٠

١٨١٠٣٢٢٠

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب — ابن عبيد البكري ١٣٠

٥٧٠٩٠٠٩١٠٩٢٠٩٣٠٩٤٠٢٥٥٠

٣١٩٠

٤ - النبات والحيوان والمعادن ويشمل الكلمات التي تدل على حوادث تاريخية هامة.

بنو أمية — الأمويون ٢١، ٣٢، ٣٣، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٤، ٤٥، ٥١، ٥٨، ٩٧، ١٣٢، ١٤٧
الأصهار ٢٤٩
ابن حنبل ٥٦، ٥٥
الأيويون ١٤، ١٢٨، ١٣٥، ١٤٢، ١٧١، ١٧٤، ١٧٧

(ب)

باب البحر ١٣١، ٢٤٩
باب تربة الزعفران ٢٤٩
باب الديلم ٢٤٩
باب الذهب ١٣١
باب الرخ ٢٤٩
باب الزمرد ٢٤٩
باب الزهومة ٢٤٩
باب زويلة ١١٢، ٢٩٧، ٣٠٢
باب سعادة ٢٣٧
باب العيد ٢٤٩، ٢٦٨
باب الفتح ١١٢، ١٢٩، ٢١٥، ٢١٦، ٣٦١، ٣٦٥
باب قصر الشوك ٢٤٩
باب النصر ١١٢، ١٢٥، ٣٦١، ٣٦٥
البابي — مذهب ٩٨
الباطنية ١٤٥، ١٤٧، ٢٧٩، ٢٨٠
بجيلة — قبيلة ٣٤
البيعية ١٣٨، ٢٨١
البراهمة ٣٦
البربر ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٥، ٥٦، ٧٢، ٨٦
١١٢، ٢٤٩، ٢٦٧، ٢٩١، ٣١٣
بقرا الوحش ٣٧
بنو لواته — بالقرب ١٣٩
بنو بويه ١٠، ٩٦، ٩٨، ٩٩، ١٠٤، ١٠٥

(١)

الإباضية ٦٠
الأتراك ٥٠، ٩٦، ٩٨، ١٣٢، ١٧١، ٢٠١
٢١١، ٢١٦، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٣
٢٥٤، ٢٩١
الإثنا عشرية ٤٤، ٤٥، ٦٦
الأحباس ١٨٣
الأخشيدية — الأخشيديون ٤٤، ٩٥، ٩٧، ١٠١
١٠٦، ١٠٧، ١١٠، ١١١، ١١٤، ١١٧
١١٨، ١٨١، ١٨٥، ١٨٨، ١٩٠
الأدارة ٤٦، ٥٠، ٨٧، ٩٧
الأذان ٩، ١٠، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥
١٢٩، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ٢٢٣، ٢٢٤
٢٨٢، ٢٨٣
الأرمن ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢٩٣
أزد — قبيلة ١٥٣
الأساس ١٤٦
أسد — آساد ٣٧، ٣٦٦
الاسماعيلية ٢، ١٣، ٤٤، ٤٧، ٤٩، ٥٣، ٥٥
٥٦، ٦٦، ٦٨، ٧٠، ٧٤، ٧٦، ٧٩
١٣٣، ١٣٥، ١٤٣، ١٤٦، ٢٠٩، ٢٢٤
٢٣١، ٢٤٨، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٦
الأعشار ١٨٣
الآغالة ٦٠، ٧٢، ٩٧، ٣١٣
الأغريق ٥٢، ٩٩، ١٠١، ١١١، ١٢٠، ٢٠٩
الأكامرة ٨٥
الأكاد ٧، ٢٩٥
إمام — آمنة ١٧، ٢١، ٢٧، ٣٦، ٣٧، ٣٩
٤٠، ٤٤، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٣
٦٤، ٦٦، ٦٧، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٦
٧٧، ٧٨، ٩١، ١١٧، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤
١٤٦، ٢٣٦، ٢٤٨
الامامية ٤٤، ٤٥، ٤٨، ٤٩، ٥٣، ٧٢، ٣١٣
أمير الأمراء ٩٨

جامع القراة ٢٤٦، ٢٤٥
 جامع قرطبة ٢٣٥
 جامع المقس ١٣١، ١٣٠
 جبر الخليج ٢٤٩، ٢٦٤، ٢٨١، ٢٨٩
 جبل المقطم ١٢٠، ٣٦١، ٣٦٥
 جبل يشكر ١٢٠
 الجرجير ٢٢١
 الجند — الجيش ٨٤، ٨٥، ٩٣، ٩٦، ٩٧
 ٢٩٣، ٢٤٩، ٢١٦، ٢١١، ١١٥، ٩٨
 ٣٠٨، ٢٩٦
 الجوالى ١٨٣، ١٩٥
 جوهر — جواهر ٨٨، ٢٣٤
 الجهاد ١٠٩، ١١٥، ١٢٠، ١٢١، ٢١٥
 ٢٧٢، ٢٦٢، ٢٢٥

(ح)

حارات القاهرة ٢٠٨، ٢٣٧، ٢٤٩
 الحج ٣٧، ١٠٩، ١٢٠، ٢٣٥
 الحورية ٣٩
 الحسبة — المحتسب ٥٣، ٥٤، ٩٤، ١١٨
 ١٨٢ — ١٨٣، ١٨٦، ٢٢٧
 الحشاشون ١١٧، ٣١٦
 الحدانيون ٩٩
 الحنابلة ١٢٣
 الحنفية ١٢٣

(خ)

خان الخليلي ١١١
 الخراج ٨٤، ٩٤، ١١٥، ١١٦، ١٨١، ١٨٢
 ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ٢٣٧، ٢٨٥، ٣٠١
 الخراسانيون ٤٠، ١٧٩، ٢٨٥
 خزائن الأسلحة ٢٦٦
 » الرفوف ٢٥٦
 » السروج ٢٦٦
 » القرش ٢٥٦، ٢٦٦
 » القصر ٢٦٦
 » المشروبات ٢٦٦

بيت المال ١٤٣، ٢٣٨، ٢٦١، ٢٦٩، ٢٧٣
 ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٧، ٢٩٧، ٣١٠
 اليزنطيون ١٠، ٢٨، ٥٢، ٨٥، ٨٨، ٨٩، ٩٩
 ١٠٠، ١٠١، ١٠٨، ١٣٢، ١٣٧، ١٥٥
 ٣١٣، ٣٠٩
 بين القصرين ١١١، ١١٢، ٣٠٩

(ت)

الترابيح ٢١٩، ٢٢٣، ٢٢٤
 التركان ٣٠٢، ٣٠٦، ٣٠٩، ٣١٠
 التسبيح ١٢٥
 بنو تغلب ٤٢
 التكبير ٢٨، ١٢٥
 تناخ الأرواح ٢٧، ١١٧
 التوابون ٣٣
 التوقف ٣١

(ث)

تعالب ١٠
 التوبة ٦٥

(ج)

جامع — مسجد ٢١٩، ٢٢٠، ٢٦٠، ٢٧١
 ٢٨٨، ٢٨٦، ٢٨٢
 الجامع الأزهر ١١٥، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٤
 ١٢٨، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٧، ١٤٢، ١٩٢
 ١٩٣، ١٩٦، ٢٦٠، ٢٧٢، ٢٨٣
 ٢٨٩، ٣١٦، ٣١٨، ٣٦١، ٣٦٣
 جامع الأنور ٢٧٢
 جامع الأقمر ٢٩٣، ٣٦٤
 جامع الحاكم ١١٢، ١٢٤، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠
 ٢٠٥، ٢٧٢، ٢٨١، ٣٦١، ٣٦٤
 جامع دمشق ٢٣٥
 جامع راشدة ١٢٨، ١٣٠، ٢٠٥
 جامع ابن طولون ٩٠، ٩١، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٤
 ٢٧٦، ٣٦١، ٣٦٣
 جامع العسكر ١٢٠
 جامع عمرو — العتيق ٩١، ١١٩، ١٢٣، ١٢٤
 ١٢٥، ١٢٨، ١٣٥، ١٨٢، ١٨٩، ١٩١
 ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ٢٠٩، ٢١٣، ٢٢٠
 ٢٨١، ٣٦١، ٣٦٣

(ذ)

أهل الذمة ١٠٩ ، ١١١ ، ١٩٧ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٨٥
الذهب ٨٨ ، ٢٣٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧
٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣

(ر)

رافضة ٤٣ ، ٤٤ ، ٧٤
رافضى ٤٣
الرجة ٢٧ ، ١١٧ ، ٣١٣
ريد ٣٧
رضوى — جبل ٣٦ ، ٣٧
بورسم ٦٠
رفضى ٤٣
الرومان ، الروم — انظر البيزنطيون

(ز)

الزبيب ٢٢٨
الزكاة ١٠٩
زناقة — قبيلة بالمغرب ٨٦
الزئار ٢٠٥
الزنج ٥٠
الزبدية ١ ، ٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ١٠٥ ، ٥٠٠

(س)

سوساسان ٢٨ ، ٦٦ ، ٦٧
السامانية ٩٨
السبئية ٣١ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧
سبط — أسباط ٣٧
سج — سباع ٣٧
السبئية ٤٥ ، ٦٦
سقيفة بنى ساعدة ٢٤
السكة ٩٨ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٨ ، ١٧٩ ، ٢١٨ ، ٣١٤
سباط — أسبطة ص ٢٤٠ ، ٢٦٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٩

الخطبة ٥٠ ، ٩٣ ، ٩٨ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٩٣ ، ٢٠٩ ، ٢٣٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩١ ، ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣١٤ ، ٣١٥
الثلاثة ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٨٠ ، ١١٥ ، ١٥٤
الخوارج ٣٩ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٢٧٤

(د)

دارالحكمة ١٢٧ ، ١٣٧ ، ٢٦١ ، ٣١٦
دارالسلح ٢٦٩
دارالضرب ١٩١
دارالضيافة ١٧٥
دارالعلم ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٥١ ، ١٩١ ، ٢٢٨ ، ٢٦١ ، ٢٨٨ ، ٣١٦
دار الملك ٢٤ ، ٢٤٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٨١
دارالهجرة ٤٧ ، ٥٦
دارالوزارة ٢٥٣
داعى الدعوة ٧٧ ، ٧٨ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٩٣ ، ٢٢٥ ، ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٨٤ ، ٣١٥
الدروز ر ١١٧ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٢٠٨ ، ٣١٤
الدليم ٤٦ ، ٢٥٠
الدلينس — نوع من السمك ٢٢١
دير — أديرة ٢١٤ ، ٢١٧
الأديرة البيضاء ٢١٦
دير الخندق ٢١٧
دير نهبيا ٢١٧
دينار ٢٣٨ ، ٢٤٨
ديوان — دواوين ٨٤ ، ١١٦ ، ١٣٤ ، ١٨١ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٧
ديوان الانشاء ١٤٠ ، ١٨٢ ، ٢٨٣
ديوان الرسائل ١٣ ، ٢٠٣
ديوان سر الخليفة ١٥١
ديوان العزيزية ٢٣٧
ديوان المعطا ٢٥٠

(ض)

الضرائب ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ٢٠٧ ٢٢٣ ٢٢٣

(ط)

الطاهرة — دولة ٩٧
الطولونيون ٩٧ ٥٧
طيلسان — طيالس ٢٠٧

(ع)

العباسيون — بنو العباس ١٩١ ٢١٩ ٣٨٠ ٤١٤ ٤٤٣
٤٤٣ ٤٥٠ ٤٤٩ ٤٤٧ ٤٤٦ ٤٤٥ ٤٤٣
٤٦٠ ٧٦٠ ٧٨٠ ١٠١ ١٠٥ ١١١
١١٩ ١٢٠ ١٣٢ ١٦٠ ١٦٥ ١٧٩
١٨١ ١٨٥ ٢٩١ ٣١١

بنو عبد السميع ١٢٢ ١٩٣

عيد القراء ٢٤٩ ٢٥٠

العبيديون ٧٦

العرب ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٣١ ٣٣ ٥١
٥٢ ٦٣ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ١٠٠ ٢٨٥
٣٠٣

عليج — أعلج ٣٩

العلويون ٣٣ ٤٠ ٤٣ ٤٦ ٤٧ ٦٣
٦٥ ٧١ ٧٤ ٧٥ ٨٠ ٩٥ ١٠٤
١٠٥ ١٠٦ ١١٠ ١١١ ١١٧ ١٢١
٢٢٤

الغلب ٢٢٨ ٢٢٩

عيد — أعياد ص ١١ ١٢٥ ١٢٦ ١٣١
١٤٣ ١٥٥ ١٨٦ ٢٤٠ ٢٦١ ٢٦٣
٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٧١ ٢٨١
٢٨٤ ٢٨٨

عيد الأضحي ٢٢٨

عيد النصر ٢٨٥

(غ)

الغار ٤٧ ١٢٦

غدير خم ١٨٦

الغز ٧ ٢٩٥ ٣٠٥

الغزنوية ٩٨

أهل السنة ٢٣ ٢٤ ٣٠ ٣٠ ٧٠ ٨٠ ٨٠
١٢١ ١٢٤ ١٢٨ ١٣٩ ١٤١ ١٥٢
١٦٠ ١٧٩ ١٨٠ ١٨٤ ١٨٦ ١٨٧
١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤
١٩٧ ٢١٨ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٨
٢٣٠ ٢٣٧ ٢٤٨ ٢١٢

السواحل ١٨٣

السواري — غزوة ٢٨

السودانيون ١٨٨ ٢٧٩ ٢٩١ ٣٠٩

سوق النحاسين ١١١

سيف المعز ٦٩

(ش)

الشاء ٣٧ ١٨٣

الشافعية ١٢٣

الشرطة ١٨٢ ١٨٣

الشمر — الشعراء ١٤ ١١٦ ١٥١ ١٧٧ ٣١٤

الشيعة ٢٣ ٢٤ ٣٠ ٣٢ ٣٣ ٣٥ ٣٨

٤٣ ٤٥ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٣ ٥٥

٥٧ ٦٦ ٦٧ ٧٦ ٩٨ ١٠٢ ١٠٤

١٠٤ ١١٠ ١١٢ ١١٧ ١١٩ ١٢١ ١٢٢

١٢١ ١٢٣ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩

١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥

١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١

١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧

١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣

١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩

١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥

١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١

١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧

١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣

١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩

١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥

١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١

٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧

٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣

٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩

٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥

٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١

٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧

٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣

٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩

٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥

٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١

٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧

٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣

القصر — المعالم الفاطمية ١٤٢ ، ١٤٩

قصر البحر ٢٤٦

قصر الذهب ٢٤٦

قصر القراقة ٢٦١

قصر اليهودج ٢٦١

القطن ٢٤٣

قلعة الجبل ٣١٢

القنوت ١٢٣ ، ٢٢٣

القيامة — القيامة ٣٧ ، ٢٠٦

قيصر — قياصرة ٨٥

(ك)

الكافورية ٩٤ ، ١٠٦ ، ١٨٥

كامة — كاميون ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧

٦٠ ، ٦١ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٦ ، ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١٢

١١٢ ، ١٢٦ ، ١٧٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٦٧ ، ٢٤٩

الكائن ٢٤٣

الكسوة ٢٣٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦

بنو كلاب ٤٢ ، ٩٤

الكلابي — عبد العزيز بن هبيج ١٨٥

بنو كلان ٨٦ ، ٨٧

كنيسة — كنائس ١٩٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٨

الكنيسانية ٣٣ — ٣٨

(ل)

بنو لواته ١٣٩ ، ٣٠٣

ليالى الوقود ٢٧١

(م)

المادرائين ٨٤

المارستان العتيق ١٣٥

المالكية ١٢٣

المتوكلة — نبات منسوب الى المتوكل العباسي ٢٢١

مجاة ١٤١ ، ٢٠٣ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨

مجلس الملك — أنظر قاعة الله

الخطاس ٢٨٥

الفيار ٢٠٥ ، ٢٠٦

الغبية ٤٧

الغبية الصغرى ٤٨

الغبية الكبرى ٤٨ ، ٤٩

(ف)

الفرس ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٤٧ ، ٦٦ ، ٦٧

٢٨٥ ، ٢٧٠ ، ٢٥٠ ، ٢٨٥

الفرنجية — أنظر "الصليبيون" ؛

الفقاع — نوع من الخمر ٢٢١ ، ٢٢٨

فى ٤٣

فيل — فيلة ١٢٦ ، ٢٨٢

فينيقيون ٥٢

(ق)

القاضي — القضاء ١٥ ، ١١٥ ، ١٣٠ ، ١٣١

١٨٢ ، ١٩١ ، ٢٠٠ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٥

قاضي السكر ١٥

قاضي القضاة ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٨٨

١٩٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣١

٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤

٢٨٨ ، ٢٨٦

قاعة الذهب ١٧٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١

القائم بالحق ٤٩

قبط — أقباط ٧ ، ٨٢ ، ١٩٧ ، ٢٠٦ ، ٢١٧

القراقة ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٤١ ، ٢٧١

القراطة ر ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٩٦ ، ١٠٨

١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٨٥

قرط — أقراط ٨٨

قرطاجانيون ٥٢

القرع ٢٢١

قريش ٢٧ ، ٣٧ ، ٤٧

بنو قرة ٢١٠

قصر — قصور ١٨ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١٢١

١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٥

١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥

١٧٤ ، ١٩١ ، ٢٠٠ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٦

٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤

٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠

٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٣٦٥

المجوس ٣٦
المحتسب — انظر الحسبة
المحول ١٤٣
المختارية ٣٤
المدرسة القاضية ١٤٠ ، ١٤١
بنو مدرار ٥٧ ، ٦٠
مركب — مراكب ٢٧٣
المزدكية ٣٦
المصاحدة ٢٤٩
مصلى القاهرة ١٢٥
المصورات الجغرافية ٢٥٧ ، ٢٥٨
المصرية ٤١
الظالم ١١٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٨٢ ، ١٩٠
المقس ١١٥ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١
المعزلة ٤٥ ، ١٤٥
المغاربة ٦٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٨٦
١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠١
٢١١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩
مكتبة — مكتاب ١٠٢ ، ١٢١ ، ١٣٥ ، ١٣٦
٢٦٠ ، ٢٦١ — ٢٦٢
مكتبة الحكم الثاني ١٤٢
مكتبة القصر ١٣٣ — ١٤٢ ، ٣١٤
المكتوم ٨٠
الملوخيا ٢٢١
بنو مليلة — قبيلة ببلاد المغرب ٨٧
الممالك ٢٠ ، ٢٣٥
منازل العز ٢٦١
المتنظر ٤٩ ، ٦٥ ، ١٣٣ ، ٢٣٠
المنصورة — حي السودانين ٣٠٩
مناظر القاهرة ٢٧١
منظرة — مناظر ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ — ٢٧٢
منظرة السكر ٢٨٩
منظرة المقس ٢٧٣
المهاجرون ٢٤
المهدى ٥١ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٥
٦٨ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٣١٤ ، ٣١٤
الموارث — الوراثة ١٠٩ ، ١٨٣ ، ١٩١ ، ١٩٣ — ١٩٨
١٩٨

الموالي ٣٣ ، ٥٠
موكب — مواكب ٢٨١ ، ٢٨٤
موسم — مواسم ١٩
(ن)
الناطق ١٤٦
النجوى ١٤٣ ، ٢٢٤
النزارية ٤١
نسب الفاطميين ٦٣ — ٧٩
النصارى ٣٩ ، ١٣٠ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ١٩٩
— ٢١٧ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٣١٠
النصرية ٤٩
نقيب — قباء ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ١٤٢
النكارية ٨٦
نمر — أثمار ٣٧
التوبيون ١٢٠
النوروز ٢٠٦ ، ٢٨٥
(هـ)
بنو هاشم ٣١ ، ٦٩
الهند ٣٦
هواره ٨٦ ، ٨٧
المودج ٢٨٣
(و)
الوزارة — الوزير ١٥ ، ١٢٣ ، ١٥١ ، ١٨٠ ، ١٨١
١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩٧ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٨
٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤
٢٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨
٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩١
٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٧
الوساطة ٢٠١ ، ٢٠٢
الوصاية ٢٧
وفاء النيل — انظر جبر الخليج
وليمة — ولائم ٢٦٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ — ٢٨٩
الوندال ٥٢
(ى)
البنانية ٤١
اليهود ٢٧ ، ١٣٠ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ١٩٩ — ٢١٧
٢٢٢ ، ٢٢٥

هـ - الآيات القرآنية

آية	سورة	صفحة	آية	سورة	صفحة
٧٦	٨	١٩٦	١٠	٤٩	٢٣
٩٥	٣	٢٢٥	٣٥٣٤	٩	٢٥
٣	٩	٢٢٥	٨٥	٢٧	٢٧
٩٦	١٦	٢٦٥	٣٨	١٣	٧٤
٩	٧٦	٢٦٥	—	١٨	٧٧
٦٨	٤	٢٧٧	١٠٥	٢١	١٢٠
٧٤٧٣	٢٢٠	٢٧٨	—	٦٣٦٢	١٢٣
—	٦٣٦٢	٢٧٨	—	٩٣	١٢٦
١٩	٢٧	٢٨٣	—	١١٣	١٣١
١٨٨	٧	٢٨٣	٢٤	٥٥	١٥٤
٣٧	٩	٢٨٥	٣٦	٣٧	١٥٤
١٨	٧٢	٣٦٦	٣٦	٤١	١٩٠
١٠٩	٩	٣٦٦			

٦ - الخرائط الجغرافية

مقابل صفحة	
٤٣	انتشار الدعوة الشيعية .
٥٣	بلاد المغرب ، توضيح الفتح الفاطمي .
٨٠	اتساع الدولة العباسية .
٩٧	انحلال الدولة العباسية في القرن الرابع الهجري .
٩٩	الحروب بين العباسيين والبيزنطيين في القرن الرابع الهجري
١٠٥	فتح الفاطميين لمصر
	انبعاث الدولة الفاطمية .
١١٢	القاهرة في عهد الفاطميين .
١١٣	مدينة القاهرة ، سنة ٥٩٧ هـ — سنة ١٢٠٠ م
	اتساع مدينة القاهرة .
٢٩٢	انحلال الدولة الفاطمية
	سوريا وروب صلاح الدين .

٧ - الصور

رقم	مقابل صفحة
	في مقدمة الكتاب
١	١١٩
	تمثال للعتقاء من الشهبان (البرونز)
	جامع عمرو بن العاص
	منظر عام للايوان الشرقي
٢	١٢٣
	جامع ابن طولون
	ايوان الجامع وصحنه ، تعلوه المنارة وتظهر فيه قبة الميضاة
٣	١٢٤
	الجامع الأزهر
	الباب الخارجي للجامع
٤	١٢٦
	الجامع الأزهر
	صحن الجامع وبه القبلة الوسطى
٥	١٢٧
	الجامع الأزهر
	بعض عقود الجامع ، وهي من عهد إنشائه
٦	١٢٩
	(أ) جامع الحاكم
	منارة الجامع
	(ب) جامع الأقمر
	واجهة الجامع الذي بناه الأمر بأحكام الله سنة ٥١٩ هـ
٧	١٨٧
	(أ) محراب من خشب ، أصله من مشهد السيدة قفيسة
	(ب) محراب من خشب ، أصله من مشهد السيدة رقية
٨	٢٣٦
	(أ) لوح من الرخام ، مزين بصور الأسماك والحمام ، وهو من العهد الفاطمي
	(ب) شاهد من الرخام ، عليه كتابة بالخط الكوفي من أوائل القرن السادس الهجري
٩	٢٤٢
	(أ) قطعة نسيج من كان أبيض مزين بشرائط به صور متقابلة
	(ب) قطعة نسيج من كان مزينة بجامات على أرضية حمراء
١٠	٢٤٦
	(أ) مناظر تمثل الرقص والصيد والموسيقى
	(ب) مناظر منقوشة تمثل طيوراً ونباتات يقطنها سباع مع جوقة من الموسيقيين
١١	٢٤٩
	باب ذو مصراعين ، أصله من مارستان السلطان قلاوون . وكان مراكبا على أحد أبواب القصر الفاطمي الغربي
١٢	٢٥٣
	(أ) باب النصر - بني سنة ٤٨٠ هـ
	(ب) باب الفتوح - بني سنة ٤٨٠ هـ
١٣	٢٥٣
	جامع الجيوشي
	منظر خارجي للجامع على سفح جبل المقطم
١٤	٢٥٤
	(أ) طبق من خزف ذي بريق ذهبي
	(ب) شبايك قلل من فخار مزينة بزخارف تشبه "الدنتلا"

رقم	مقابل صفحة
(أ) قدر من خزف ذي بريق ذهبي ، مزينة من الخارج بثلاث دوائر ، بكل منها صورة طائر في منقاره فرع نباتي	٢٥٤ ١٥
(ب) قطعتان من خزف ذي بريق ذهبي ، على الأولى رسم المسيح عليه السلام ، وعلى الثانية صور ثلاثة أشخاص مكتوب فوق أوسطها "أبو طالب"	
(أ) ظهر امرأة من الشهبان	٢٥٥ ١٦
(ب) شمعان من الشهبان	
(أ) حشوة من خشب تشبه محرابا صغيرا يرتكن عقده على عمودين حلزنيين	٢٥٦ ١٧
(ب) قطعة من العاج منقوش عليها بين الزخارف النباتية صور أشخاص وحيوانات	
(أ) قطعة نسيج من حرير أرضيتها صفراء وبها صور طيور	٢٥٧ ١٨
(ب) قطعة نسيج من كان وحرير منتهية من أسفل بشراريب	
(أ) إبريق من البلور الصخري مزين سطحه بصور طيور وفروع نباتية وكتابات توفية	٢٥٩ ١٩
(ب) إبريق من البلور الصخري مزين سطحه بصور طيور وحيوانات يتخللها فروع نباتية	

ذيل بوصف صور الكتاب

صورة المقدمة :

تمثال للعنقاء من الشهبان :

طوله ١,٠٥ متر وارتفاعه ٨٥ سم . ومخفوظ في متحف كامبوسانتو (Campo Santo) بمدينة برزا في إيطاليا . ويقال إن عموري ملك بيت المقدس هو الذي أحضره إلى إيطاليا بعد انتصاره في إحدى الحروب الصليبية . وجسم هذه العنقاء على شكل أسد ، ورأسها كراس النسر ، يخرج من كتفها جناحان صغيران . وجسمها عليه نقوش أسود ونسور وتقايات كوفية تتضمن أدعية للتبرك . ومظهر هذه العنقاء يسترعى النظر .

Migeon, 2me ed. Tome I. p. 374, fig. 182

رقم ١ :

جامع عمرو بن العاص :

منظر عام للأيوان الشرقي الذي يظهر كآلة غابة قوامها أعمدة من الرخام .

رقم ٢ :

جامع ابن طولون :

أيوان الجامع الغربي وصحنه ، تعلوه المنارة ، وتظهر بالصورة قبة الميضاة التي يوسط الصحن .

رقم ٣ :

الجامع الأزهر :

الباب الخارجي للجامع .

رقم ٤ :

الجامع الأزهر :

صحن الجامع وبه القبلة الوسطى .

مجموعة معرض المساحة ٢٩/٦٥١ .

رقم ٥

الجامع الأزهر :

بعض عقود الجامع ، مجللة بالحصص ومحللة بزخارف وكتابات كوفية . وهي من عهد إنشائه

رقم ٦

(١) جامع الحاكم :

منارة الحاكم

(ب) جامع الأقمر :

واجهة الجامع الذي بناه الأمر بأحكام الله سنة ٥١٩ هـ .

رقم ٧

(١) محراب كان بمشهد السيدة نفيسة ، إطاره من خشب نبق وهو مكون من مجمع حشوات صغيرة من البقس (نوع من الخشب) والساج الهندى . وهذه الحشوات زخارف دقيقة الصنع ، تخص بالذكر منها القواكه النينية . وكانت هذه الزنرفة رائجة في القرنين الخامس والسادس الهجرى .

دار الآثار العربية رقم ٤٢١

(ب) محراب من خشب نخل من مشهد السيدة رقية ابنة على بن أبى طالب كرم الله وجهه . عمل بأمر زوجة الخليفة الفاطمى الأمر بأحكام الله سنة ٥٥٦ هـ . وهو تحفة فنية فريدة ؛ وواجهته مكونة من حشوات مجمعة على شكل نجوم ورسوم هندسية ، وجانباه وظهوره مكونة من حشوات كبيرة تغطيها زخارف متناسقة وأوراق بها حلل دقيقة .

دار الآثار العربية رقم ٤٤٦

رقم ٨

(١) لوح من الرخام وجد بمخاqqه السلطان بيبرس الثانى (الباستكر) ، منحوت الجوانب . وجد مقلوبا على وجهه حيث كان مستعملا فى تبلط الأرضية . وبنييت هذه الخاقاه فى مكان دارالوزارة الفاطمية المشيدة فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . وبجانبى اللوح كتابة كوفية تهشم نصفها العلوى عند ما أعيد استعمال اللوح فى الخاقاه . والتزيين بصور الأسماك والحمام يوضح ان الزنرفة من العهد الفاطمى .

دار الآثار العربية رقم ٦٩٥٠

(ب) شاهد من الرخام عليه كتابة بالخط الكوفى البارز الجليل الذى بلغ النهاية فى الجودة والإتقان فى عهد الدولة الفاطمية . وهو باسم أبى المكارم بن أبى القاسم المصرى بن طاشور المتوفى فى أوائل القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . ونص الكتابة كما يأتى :

- ١ — رب اغفر وارحم .
- ٢ — بسم الله الرحمن الرحيم .
- ٣ — يشرهم ربهم برحمة منه .
- ٤ — ورضوان ويحنات لهم .
- ٥ — فيها نعم مقيم خالدين فيها .
- ٦ — أبدا إن الله عنده أجر عظيم .
- ٧ — توفى (كذا) أبو المكارم بن أبو (كذا) القاسم .

- ٨ — المصرى بن عاشور (؟) فى يوم السبت
٩ — الخامس عشر من صفر سنة
١٠ — وثلاثين وخمس مائة رحمة الله عليه .

رقم ٩ :

(أ) قطعة نسيج من كتان أبيض مزين بشرائط به صور طيور متقابلة . وهى من حرير أبيض على أرضية من حرير أزرق .
ويحيط بهذه الزخارف سطران من كتابة كوفية منسوجة بخيوط بيضاء على أرضية من حرير حرأ . تنضم اسم
الخليفة الحاكم بأمر الله وابن عمه عبد الرحيم بن الياس الذى ولاه عهده فى سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ ميلادية) .

دار الآثار العربية رقم ٨٢٦٤

(ب) قطعة نسيج من كتان مزينة بجامات على أرضية حرأ . وصور الطيور التى بالجامات منقوشة بألوان مختلفة : أحمر
وأزرق وأصفر وأخضر . وشكل الحروف التى فى سطرى الكتابة يحمل على الظن بأنها ترجع الى القرن السادس
الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

دار الآثار العربية رقم ٥٢٦١

رقم ١٠ :

أجزاء من أربعة ألواح من الخشب ، أصلها من أحد قصور الخلفاء الفاطميين ، منقوش عليها :
(أ) مناظر تمثل الرقص والصيد والموسيقى . وبها صور طيور أحدها له رأس آدمى .

دار الآثار العربية رقم ٣٤٦٥ ، ٣٤٦٦

(ب) مناظر منقوشة نقشاً متقناً تمثل طيوراً وتيوساً وصائدات يقتنص سباعاً ، مع جوقة من الموسيقيين .

دار الآثار العربية رقم ٣٤٧١ ، ٤٠٦٣

ويرجع ذلك كله الى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

رقم ١١ :

باب ذو مصراعين ، أخذ من مارستان السلطان قلاون . وبالرغم من وجوده فى هذا المكان ، فإن مصدره الحقيقى
يتبين من صور الأشخاص والحيوانات المحفورة حفراً دقيقة ظاهراً ، وذلك خاص بزخارف الفاطميين . ويضاف الى ذلك أن
حشواته العلوية مقطوعة لتجعله موافقاً لارتفاع الفتحة التى ركب عليها أخيراً . وهذا يبين بجملاء أنه كان مرتبطاً على أحد أبواب
القصر الفاطمى الغربى الذى بنى مكانه مارستان وقبة ومسجد قلاون .

دار الآثار العربية رقم ٥٥٤

رقم ١٢ :

(أ) باب النصر . بنى سنة ٤٨٠ هـ .

(ب) باب الفتوح . بنى سنة ٤٨٠ هـ .

رقم ١٣ :

جامع الجيوشى :

منظر خارجى لجامع الجيوشى على سفح المقطم . تظهر على يمينه قلعة الجبل ، وعلى يساره قلعة صلاح الدين الايوبى ، وعليها
جامع محمد على بمنارتيه العاليتين .

وقد تم بناء هذا الجامع في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥) ، كما يستدل على ذلك من لوحة الرخام في أعلى الباب العام ، عليها بالخط الكوفي : ” بسم الله الرحمن الرحيم ! وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا (١) . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم “ (٢) .

كما أمر بهجرة هذا المشهد المبارك فتي مولانا وسيدنا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آياته الأئمة الطاهرين وأبنائه الأكرمين . وسلم إلى يوم الدين ، السيد الأجل أمير الجيوش سيف الاسلام ناصر الامام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين . عضد الله به الدين وأمنع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته وكبت عدوه وحسدته ابتغاء مرضاة الله . في المحرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

رقم ١٤ :

(١) طبق من الخزف ذي بريق ذهبي محلى وسطه من الداخل بصورة ديك في فوه فرع نباتي . أما جدران الطبق فمحلة بزخارف نباتية . ويرجع عهده إلى القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) .

دار الآثار العربية رقم ٥٥٠٢

(ب) شابيك قل من فخار مزينة بزخارف متقنة الصنع تشبه ” الدنتلا “ ، والشباك الأوسط مزين بصورة طاووس ناشر ذيله مختالا . أما الأربعة الأخرى فتلاصق منها مزينة بزخارف هندسية ، والرايع بتكابات كوفية .

دار الآثار العربية رقم ٣ — ٦٥٣١ ، ٤٢ — ٦٥٣١ ، ٧١٠٢ ، ٨٥٧٦ ، ٨٥٧٧

رقم ١٥ :

(١) قدر من خزف ذي بريق ذهبي ، مزينة من الخارج بثلاث دوائر ، بكل منها صورة طائر في مقاره فرع نباتي . وهي من التحف المحفوظة في متحف فكتوريا وألبرت بلندن .

Victoria and Albert Museum (London).

Sir E. Denison Ross. The Art of Egypt Through the Ages, p. 336.

(ب) قطعتان من خزف ذي بريق ذهبي . على الأولى رسم المسيح عليه السلام يحيط برأسه إكليل من نور ، وقد رفع يده اليسرى بعلامة التبريك . وعلى الثانية صورة ثلاثة أشخاص مكتوب فوق أوسطها أبو طالب (عم النبي صلى الله عليه وسلم) وقد قبض بيده اليمنى على سيف وأمسك بيده اليسرى كيسا به دراهم . ولعلها رمز لسيف المعز وذهبه .

دار الآثار العربية رقم ١ — ٥٣٩٧ ، ٢ — ٥٣٩٦

رقم ١٦ :

(١) ظهر امرأة من الشبان ، منقوش عليها نقش يارزا صورة حيوانين خرافيين ، جسم كل منهما على شكل أسد بوجه إنسان وجناح طائر ، تحيط بهما كتابة كوفية تتضمن أدعية لصاحبا . عثر عليها أثناء التنقيب على أطلال مدينة القسوط .

دار الآثار العربية رقم ٣٩١٥

(ب) شمعان من الشبان ، له ثلاثة أرجل تحمل قرصا مسدسا مزينا سطحه بالخوارف النباتية والكتابات الكوفية المشجرة المتضمنة بعض الأدعية . ومنقوش على القرص العلوي للشمعان إمضاء صانعه ابن المكي . ويرجع عهده إلى القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) .

دار الآثار العربية رقم ٨٤٨٣

(١) القرآن الكريم سورة ٧٢ آية ١٨

(٢) شرحه ٩ » ١٠٩

رقم ١٧ :

(أ) حشوة من خشب تشبه محراباً صغيراً يرتكن عقده المذهب على عمودين حلزونيين . وتتضمن الكتابة الكوفية القليلة التشجير اسم النبي صلى الله عليه وسلم وعلى كرم الله وجهه والسيطين (الحسن والحسين) والأئمة من ذريتهم . ويرجع عهدهما إلى القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) .

دار الآثار العربية رقم ٨٤٦٤

(ب) قطع من العاج عثر عليها أثناء الكشف عن أطلال القسطنطينية . منقوش عليها بدقة فائقة بين الزخارف النباتية صور أشخاص وازدادار (الصائد بالباز) وبيدق (عسكري) مسلح برمح ، وصور حيوانات وجل يحمل هودجا ، وصور أرنب وغزالة وطاووس ، صناعتها من عهد الفاطميين من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) .

دار الآثار العربية رقم ٥٠١٠ ، ٥٠٢٣ ، ٥٠٢٤ ، ٥٠٢٦ ، ٥٠٢٧

رقم ١٨ :

(أ) قطعة نسيج من حرير أرضيتها صفراء فاتحة مزينة بشرائط متعرج لونه أخضر فاتح ، فضاء من تعرجه جامات بيضاء الشكل مدنية الأطراف . وبداخل هذه الجوامت صور طيور جائمة متقابلة ، ظهور بعضها إلى بعض ، وروسها متقابلة . وهي من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) .

دار الآثار العربية رقم ٢١٣٧

(ب) قطعة نسيج من كتان وحرير متهبة من أسفل بشراريب لونها أصفر ذهبي ، مزينة بزخارف على شكل معينات تتخللها كتابة حروفها تارة حمراء وتارة بيضاء على أرضية حمراء أو زرقاء . وهذه الكتابات عبارة عن دعاء بالسعادة . وهي من صناعة مصر في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) .

دار الآثار العربية رقم ٣٢١١

رقم ١٩ :

(أ) إبريق من البلور الصخري مزين سطحه بصورتين وفروع نباتية وكتابات كوفية تتضمن أدعية لصاحبه . وهو محفوظ بمتحف اللوفر بباريس

Musé du Louvre (Paris)

Migeon, 2me édition, Tome II. p. 108.

(ب) إبريق من البلور الصخري مزين سطحه بصورتين وحيوانات تتخللها فروع نباتية . وهو محفوظ بمتحف فكتوريا وألبرت بلندن .

Migeon, 2me édition, Tome II. p. 110.

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

الطبعة ١٩٨٤ - ١٩٨٤ - ١٩٨٤ - ١٩٨٤ - ١٩٨٤